الإمام محمد أبو زهرة



المجلد الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



الإمام محمد أبو زهرة



المجلد الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



الجزء الأول

نشأته ـ شبابه ـ بعثته
مصابرته المشركين ـ اتصاله بالقبائل
هجرته « صلى الله عليه وسلم »



بسم الله الرحمن الرحيم

محمد رسول الله وخاتم النبيين

لله الحمد على ما أنعم ، وله الفضل فيما أكرم ، اذ أكمل الدين ، وأتم الرسالة الالهية ، بارسال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، فأكمل الهداية ، وأبلغ الغاية ، وكشف المحجة، وبين الجادة، ورفع راية الاسلام القوى العزيز ، المكين، وحمل الحواريون من أصحابه ما حملهم الله ، فقاموا بواجب التبليغ ، وأدوا الأمانة التى حملوها ، فكانوا منارا مقتبسا من نوره ، فرضى عنهم ، ورحم الانسانية بما اقتبسوا من معانى الرسالة المحمدية ٠

يا رسول الله :

ان الله خلقك بشرا سويا ، ولكنك فوق سائر البشر ، وآثارك التى حملتها الأجيال من بعدك فوق القدر ، ونحن معشر المتبعين لك ان كان فينا شرف هذا الاتباع انما ندرك بالتصوير أمثالنا ٠ فمن خواطرنا ومنازع نفوسنا نتعرف نفوس غيرنا ٠ ونحكم على أحوالهم ، وان حاولنا أن ندرك من هو أعلى منا ، فانه يجب أن يكون علوه على مرأى أنظارنا ، وفى مطالع آفاقنا ، فعندئذ نحاول وقد نصل ، ولكنك يا رسول الله فى علو لا نصل اليه ، وفى سماك لا نراه ، وليس منا من يضاهئك حتى نتمثله ونتخيله ، فأنى لأمثالنا أن يكتب فى شأنك ، وأن يعلو الى شأوك ، ان ذلك أمر فوق المنال ، ويعلو على مدارك الخيال ٠

ومن أجل هذا نضرع الى الله أن ينالنا بغفرانه ، ان تسامينا محاولين الوصول الى الكتابة فيك ، فالمعذرة قائمة ، والقصور ثابت ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ٠

يا رسول الله :

قد كتبنا فى أئمة أعلام ، قد قبسوا من نورك قبسة أو قبسات ، أدركنا نورهم ، ووفقنا الله تعالى الى ما نحسب أننا وصلنا فيه الى ما يفيد ، وبمقدار ما قبسوا كنا ندرك ما به شرفوا ، وما به أصابوا ، واهتدوا ٠

فلما جئنا الى ساحتك ، وحاولنا أن ندخل اليها ، غمرنا النور ، وكف أبصارنا الضوء المنير ، فانى ندرك ، وأنى نرى ، وقد صرنا كذى رمد غمره ضوء الشمس ، أما ما هوأعلى ، فأصابتناالحيرة ، ولا هادى لنا يخرجنا منها ، الا أن تكون الهداية من الله تعالى كما أمر اذ قال سبحانه : « **قل ان الهدى هدى الله** » فليس لنا الا أن نلجأ اليه ضارعين أن يهدينا لتصوير شخصك الطاهر المطهر ، أو لتقريبه اذا كان التصوير فوق طاقتنا ، وأعلى من أن نصل اليه ، فان التقريب يحل عند العجز محل التسديد ، والعجز مغفور ، والقاصر معذور ، والله عفو غفور ·

يا رسول الله :

اننا نكتب فى العظماء لنصور نواحى عظمتهم ، ولكل عظيم ناحية واحدة من نواحى العظمة ، فالاتجاه الى تلك الناحية هو مفتاح عظمته ، فتسهل معرفته ، ولكنك يا رسول الله فوق عظمة الأشخاص ، لأن وجوه عظمتك تعددت ، حتى يعجز المحصىعن الاحصاء ، والمستقرى عن الاستقراء ، واذا نفدت الطاقة أقر مطمئنا بعجزه ، ومؤمنا بأن وجودك فى هذا الوجود معجزة البشر ، فاذا كنت من البشر ، ولست فى كونك الا بشرا ، فلست الها ، ولست ملكا من الملائكة فانك فى مقام أعلى من سائر البشر ومن الملائكة ، صانك ربك ، وحفظك ورباك على عينه ، حتى كنت وحيدا بين الغلمان ، بما كلاك الله به وحماك ، وصبيا فريدا بين الصبيان ، وكنت الشاب الأمين عن رجس الجاهلية بين الشباب ، فكل شىء فى حياتك الأولى كان من الخوارق التى علت عن الأسباب والمسببات ، فلم تكن أثر تربية موجهة ، ولا أثر بيئة حاملة ، ولا أثر شرف رفيع ، وان كان محققا ، ولكنك كنت صنيع الله ، فكنت معجزة بشخصك وكونك ووجودك ، فيك البشرية ، وفيك المعجزة الالهية « **الله أعلم حيث يجعل رسالتك** » ·

يا رسول الله يا خير البشر

كنت ذا الخلق القوى ، والسياسى الحكيم ، والقائد العظيم ، والحاكم الرفيق ، والمربى لأمتك بالشورى ، والوحى ينزل اليك ، وكنت الرءوف بأمتك ، والمحارب الرحيم ، وحامل لواء السلام فى مرحمة النبى ، وعزة القوى ، أنشأت جماعة مؤمنة ابتدأت بها بذرا صالحا ، وأخذ ينمو فى بيئتك الطاهرة ، مختفيا فى خلايا الايمان ، حتى أخرج شطأه ، فظهر متعرضا لمقاومة الحدثان · قويا فى تكوينه ، حتى استغلظ واستوى على سوقه ، وصار

قوة الحق فى الأرض ، وكنت كما قال الله تعالى : « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بم الكفار** » وكل ذلك بتوجيه ربك ، والهام نفسك ، وعلو فكرك ، وقوة قلبك ، فمن أى ناحية يدرس حياتك الدارس ، وقد كان كل شىء فيك قويا عظيما ، كما قال فيك ربك « **وانك لعلى خلق عظيم** » ٠

اللهم ربى ، ولا خالق سواك ، ولا اله غيرك ، وليس كمثلك شىء ، وأنت السميع البصير ، خلقت محمدا من البشر ، وجعلته سيد البشر ، وأرسلته رحمة للعالمين ، واذا كان وجوده وما أحاط به خارقا للأسباب والمسببات فقد أرسلته بمعجزة لا تزال تتحدى الخليقة الى يوم الدين ٠

ربى العظيم :

لقد تطاولت فاعتزمت أن أكتب فى سيرة نبيك وخاتم أنبيائك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاغفرلى يارب ذلك التطاول ، انك أنت الغفور الرحيم ، وأمدنى بعونك وتوفيقك فى هذا المقام الذى يعلو عن طاقتى ، وتعجز فيه قدرتى ان لم يكن منك العون ٠

رب لا تخزنى ، فانه لا قدرة لى الا بتوفيقك ، ولك الفضل ، والمن ، « **وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب** » ٠

وانى قد اتجهت الى القصد فى القول ، فمهما يكن الاطناب ، فانه لا يصل الى الغاية ولا يبلغ الشأو ، ولذلك اجتهدنا فيما هو تحت سلطان قدرتنا ، ومع ذلك استطال بنا القول ، وان لم ندرك النهاية ، فهى فوق قدرة عاجز مثلى ، ولقد قسمت الكتاب الى ثلاثة أقسام :

أولها ـ ذكر حياة النبى صلى الله عليه وسلم من ولادته التى حاطتها الخوارق ، وحياته التى كانت كلها ارهاصات بالنبوة ، حتى بعثه الله تعالى بشرا رسولا ، وأوذى هو وحواريوه فى الله ، وصبر وصابر ، حتى كانت الهجرة التى أنشئت بها مدينة الاسلام ، ودولة الايمان ٠

والثانى ـ فى جهاده ، وقمع الشرك ، وفتح الطريق للدعوة المحمدية ، وازالة الحاجزات من طغيان الظالمين ، وفتنة المؤمنين ، حتى تسير الدعوة فى طريقها من غير عوج ، وفى طريق معبد لا يحاجزه الشر ، ولا يدعثره

الايذاء ، وان هذا القسم ينتهى بصلح الحديبية ، حيث يئس الشرك من أن ينال من أهل الايمان ، وعجز عن أن يغزو المؤمنين ، وصارت الكلمة العليـــا فى الجزيرة العربية للايمان ، وسارت الدعوة فى كل مسار ٠

والقسم الثالث من بعد الحديبية،وفيه تجرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لليهود الذين كانوا شوكة فى جنب العرب ، وأخذ الاسلام يعم جزيرة العرب ، ويخرج الى أقطار الأرض ، فكانت مؤتة ، وكان الفتح العظيم الـــذى يئس فيه الشيطان أن يعبد فى هذه الأرض ، وأخذ الاسلام يغزو ما حول العرب بكتب النبى ورسله ، وبالسرايا يبثها ، وبالخروج الى الروم الذين قتـــلوا المؤمنين من أهل الشام فى أرضهم ، فكان لابد من تأمين الدعوة ، وازالة الفتنة، وهذا القسم ينتهى برحلة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من هذه الدنيا بروحه الى السموات العلا ٠

اللهم انفعنا بهديه ، واهدنا سبله ، انك تهدى من تشاء ، وانك على كل شىء قدير ؟

محمد أبو زهرة

تمهيـــــد

الاضطراب الفكرى :

١ ـــ فى القرن الخامس الميلادى وما يليه ، كان العالم الانسانى يموج بالشر ، وتضطرب النفوس ، واستحكمت الأهواء ، وتفرق بنو الانســـان ، حتى صار القانون السائد المسيطر ، الحق هو القوة ، والقوة هى الحق ، فشاهت الأفكار ، وتقطعت الأسباب ٠ وصار ابن آدم ينقض ما أبرمته الفطرة ويحل الرابطة الانسانية الجامعة ، وعجز العقل عن أن يحكم ما بين الناس ، بل انه اتخذ العقل مطية لتبرير الباطل ، وتزييف الحق ، والعبث بالميراث الانسانى للنبيين من بعد ابراهيم موسى وعيسى ، وشوهت المفاسد ، تعاليم موسى وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء المرسلين ، فالنصارى قد استسلموا لحكم الامبراطرة ، وزكوه ، بل أيدوه ، وتفرقوا ، وصار بأسهم بينهم شـــديدا ، وأغرى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيـــامة ٠ فالملكنيون تحكموا فى اليعقوبيين ، حتى نفروا منهم ٠

واليهود شوهوا تعـــاليم موسى عليه الســـلام فضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وصاروا مع فساد قلوبهم ، لا وجود لهم الا بمعونة قوى يريد أن يكون غالبا لهم ولغيرهم وتسربلوا سربال العداوة لبنى الانسان جميعـــا ، اذ يعطون لأنفسهم من الصفات العقليـــة ، والمزايا الدينية ما ليس فيهـــم وينكرونه فى غيرهم ، حتى زعموا انهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ، وزعموا لغيرهم المنزلة الدون ، وكانوا يقولون عن العـــرب الذين نكبوا بمعاشرتهم « **ما علينا فى الأميين سبيل** » ، فهم يأخذون منهم بالحـــق والباطل ولا يعطونه شيئا لأنه لا سبيل لهم بحق ، ولا بغيره ٠

٢ ـــ وكان الأقربون والأبعدون ، والقاصون والدانون فى اضطراب فكرى ، وعجز العقل البشرى عن أن يحل مشاكل هذا الموجود ٠ فتـــاه العقل فى معرفة أصل الوجود ، ولم تستطع الفلسفة الأيونية أن تحل مشكلة أصل الوجود ، ولا أن تصل الى منشئه ، مما أثبت أن العقل مهما يؤت لا يستطيع أن يفسر سر الظواهر ، فهو يعرف مظاهر الأشياء ، ولا يعرف الأسرار المستكنة الباعثة ، يعرف مظاهر الحرارة والكهرباء ولا يمكن أن يعرف ما يحركها ، الا اذا اتجه الى معرفة المؤثر من الأثر ، والمنشىء مما أنشأ ، ولكنه وقد غمـــر بالمحسوسات ، ومظاهر القوى ، دون أن يعرف مصدرها ، عمى عن الأصل ، وشغل بالفرع ، فتاه فى هذه السماء ، وصار فى عمياء ، لا يعرف المبتدأ ، وان عرف مظاهره ٠

ومع ظهور الأديان السماوية ، واختتامها بالاسلام لا يزال العقل ، وهو مأسور بما يحس ، لا يعرف ما وراء المحسوس ، وكل ما تراه من سيطرة العقل ونفاذه لا يتجاوز المظاهر واستخدامها ، وهو يجهل باعثها ، ولا يعرف منشئها الا اذا كان ينفذ من المظهر الى المنشأ المكون ٠

وانه لا يمكن معرفة الكون على حقيقته الا بالايمان بمن أنشأه ، وان الأديان السماوية تدعو الى معرفة المنشىء مما أنشأه ، ومعرفة الخالق من المخلوق ، فهى تدعو الى دراسة الخلق لمعرفة من أنشأه تدعو الى دراسة الكون ، وتعرف مظاهره لمعرفة من وراء هذه المظاهر ، ولم يكن ذلك شأن الدارسين للكون فى الماضى ، ولا من يدرسون مظاهره المجردة فى الحاضر ، وانما يهمنا الماضى الذى كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه الوجود ٠

٣ — تلك كانت حال العقيدة فى الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التى ورثتها ، ولما جاء سقراط زعيم هذه المدرسة وكبيرها ، أراد أن ينزل بالفلسفة من السماء الى الانسان ، ودعا الى ترك البحث عما وراء الطبيعة ومظاهرها ، الى الانسان ، وأراد أن يعمل ما يجدى وما ينفع فى السلوك الانسانى ، بدل أن يهيم فيما وراء الطبيعة من غير هاد يهدى ، ولا رشد يرشد ٠

أخذ يدرس نظام التعامل الانسانى ، ومقياس الفضيلة الذى يميزها عن الرذيلة ، ليميز به الحق من الباطل ، وخطأ السلوك واستقامته ليعرف ما هو فاسد وما هو صالح ٠

ودعا الى ذلك ، واختلف هو وتلاميذه ، فمن قائل ان القياس هو المعرفة وهو ما اختاره سقراط ، ومن قائل انه الحكمة والعدالة والشجاعة والعفة والفضائل ، كلها ترجع الى هذه العناصر ، وقد اختار ذلك أفلاطون ، ومن قائل انه اللذة أو المنفعة ، فما هو نافع ، ولو نفعا شخصيا خير ، وما لا نفع فيه فهو شر ، ومن قائل ان الخير وسط بين رذيلتين ٠

وهكذا كانت المتاهات العقلية فى ادراك أسس التعامل الانسانى ، كالحيرة فى معرفة العقيدة الصحيحة ، فالعقل لم يستطع أن يصل الى قانون التعامل المستقيم ، كما لم يصل الى ادراك سر الوجود ، بل كان يهيم فى نظريات من غير أن يصل الى حقائق ثابتة ٠

وفى وسط ذلك الديجور ظهرت السوفسطائية التى تشكك فى حقائق الوجود ، فمنهم من أنكرها ، ومنهم من شك فى كل شىء ، ومنهم من قال ان

الحق فى الأشياء هو ما يعتقده كل امرىء فى ذات نفسه ، وتسمى العندية ، فليس للأشياء حقيقة ، وانما الأمر فيها الى اعتقاد وجودها ٠

وهكذا كان الضلال المبين بسبب الاعتماد على العقل المجرد فى وسط تلك الفلسفة التى لا تهد ، بل يضل فيها الفكر ، كما يضل السارى فى ظلمات الليل ٠

المجوسية :

٤ — ولو غادرنا اليونان ومن سبقوهم الى الفرس ومن وراءهم فانا واجدون عجبا ، فانا نجد بجوار الفلسفة اليونانية التى سرت اليهم فلسفة أخرى ، أرادت أن تنظم التعامل الانسانى وتحل مشكلة أصل الوجود بأوهام توهموها ، وأساطير اكتسبوها فكانت الزرادشتية التى تفرض أن الوجود له الهان اله الخير واله الشر ، وأن كليهما يتنازع النفس الانسانية والكون وما فيه ٠

وان هذا بلا ريب باطل لا أصل له من دين ، ولكن قد يقال انه تحريف لدين سماوى ، كان يدعو لعبادة الله تعالى وحده ولا مانع من ذلك عقلا ، وقد وجد فى بعض كتب ذلك بقايا تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد قال تعالى : « **وان من أمة الا خلا فيها نذير** »

ولكن نجد بجوار ذلك مذهبا اجتماعيا خطيرا يدعو الى القوة ، وانه لا عبرة بالضعفاء ، وانهم لا يصلحون للبقاء ، فالحق مع القوى دائما ، والباطل مع الضعيف دائما ، فقانون الحياة يعمل للأقوياء على الضعفاء ، ويجب أن يبقى الأقوياء ، وأن يفنى الضعفاء ، فلا ايمان بالعدل ، وانما الايمان بالقوة ٠

المانوية :

٥ — ثم كان بفارس أيضا مذهب يحسب أن الوجود الانسانى كله شر يجب الا يبقى ، بل يجب العمل على افناء الانسان ، وهو مذهب (مانى) وعقيدته تسمى المانوية ، فهو مذهب يدعو الى الفناء ، ولذلك يمنع الزواج ، حتى لا يكون تناسل ، وينتهى ذلك الانسان الذى اعتبر وجوده لعنة فى الأرض ، وما دام الانسان فى الانسال مستمرا ، فان اللعنة الانسانية مستمرة ، وكأنه يحسب انه نزل الى الأرض بخطأ ارتكبه أبوه ، فالخطيئة باقية بوجوده ٠

المزدكية :

٦ ـــ وبعد ذلك جاء المذهب المخرب ، كان مذهب آخر يحل الوحدة الانسانية ، والعلاقة الفاضلة ، وهو مذهب مزدك الـــذى انتشر فى فارس ، وأساسه اباحة النساء ، فلا زواج ولا ارتباط ، بل يسافد الانسان كما يسافد الحيوان من غير أى قيد من رابطة حافظة للأنساب ، وراعية للطفولة المقبلة ، كما أباح الأموال ، فلا ملكية تحمى انسانا من انسان ، بل كل الأموال مباحة للجميع من غير أى نظام ، فهو يمنع القيود فيها كما يمنع القيود فى النساء ٠

وجملة هذا المذهب أنه يبيح الانطلاق من كل قيد ، كما أن الحيـــوان فى البادية أو الغابة منطلق ، لا يقيد الا بقـــوة غير التى ترسم له حـــــدا لا يتعداه ٠

والوهم الذى قام عليـــه ذلك المذهب أنه زعم أن الشحناء والبغضـــاء تتوالدان من احتياز النساء بالزواج أو نحوه ، واحتياز المال بالملكية ، ويحسب أنه اذا زالت روابط الزوجية ، وزالت الملكية للأموال يكون الناس فى سلام دون خصام ، ويا ليته اعتبر الانسان كالحيوان لأنه مع زوال الملكية والعقود الرابطة للعلاقة بين الذكر والأنثى فى الحيوان لم تزل القوة الغالبة والافتراس بين الحيوانات المتحدة فى الجنس والأرومة والمختلفة ٠

ومهما يكن فقد انتشر ذلك المذهب فى فارس ، وضاعت الأنساب ، واعتنقه بعض الأكاسرة ، وساد وسار مدة حكم هذا الكسرى ٠

ولكن زال ملكه ، قبيل مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانظر كيف تأذى بهم ما سموه حكم العقل ٠

البرهمـــة :

٧ ـــ ولو أننا تجاوزنا فارس الى ما وراءها من أرض المشرق ، فـــانا واجدون الهند ، وما فيها ، وهنالك نجد ديانة تقوم على التفرقة الانســـانية بين طبقات ، فالناس ليسوا سواء ، فى الحقوق والواجبات ، بل يقرر دين البراهمة التفرقة بين الناس من حيث العبادة والزلفى لبراهما ، الههم الأكبر فقد انقسم الناس من حيث مهنهم التى تتوارث ، والتى تصير المهنة عنـــدهم أصـــــلا نسبيا ينتقل من الأصول الى الفروع ، ومن الفـــروع الى فروعهم ، فقسموا الى أربع طبقات :

فالطبقة الأولى : هى أعلاها ، وهى طبقة البراهمة ، وهم رجال الدين الذين يبينون أحكامه ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الههم (براهما) ولذلك

كانوا أعلى الناس ، لأنهم خلقوا من أعلى الاله ، وهم فى زعمهم خلاصة الجنس البشرى ، وعقله المتفكر ، ورأسه المدبر ، لأن الراس عنوان ذلك كله ، فهم علاوة الجسم ٠

والطبقة الثانية : طبقة الجند ، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب الههم براهما ٠ ويديه ، وهم لهذا الحماة والغزاة وموطن القوة ٠ ومرتبتهم دون مرتبة البراهمة ، وهى تليهم مباشرة ٠

والطبقة الثالثة : طبقة الزراع والتجار ، وهم مخلوقون من ركبتى الههم، والمسافة بينهم وبين الطبقة السابقة لها كبيرة ، وهى قريبة من الطبقة التى تليها مباشرة لتقاربهما فى التكوين والخلق ٠

والطبقة الرابعة : طبقة الخدم والرقيق ، وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمى الههم فهم أحط الطبقات ، وأبعدها ، لأنها البعيدة عن رأس (براهما) ٠

وهناك دون هذه الطبقات طبقة أبناء الزنى والمحرومين أو المنبوذين ، والذين يتناولون الأعمال الحقيرة فى المدن ، ويسمون من ليسوا من الهنود (ابليج) ومعناها أنجاس ، فكل من ليس هنديا نجس ، ، ويلحق بتلك الطبقة من المنبوذين ٠

ونجاسة أولئك ليست نجاسة معنوية فقط ، بل هى نجاسة حسية فى زعمهم ، حتى ان الأجنبى لو شرب من كوب ماء حطموه ، وألقوا بحطامه فى الأرض ٠

ويلاحظ فى هذه الطبقات أنها تتوارث ، فلا يرتقى ابن طبقة الى أعلى منها ، ولا ينحدر من هو فى الأعلى الى الأدنى ٠

والفضائل تتفاوت بتفاوت الطبقات ، ففضائل البرهمى أن يكون وافر العقل ساكن القلب صادق اللهجة ظاهر الاحتمال ضابطا لنفسه ، مقيما للعدل بادى النظافة ، مقبلا على العبادة ، مصروف الهمة الى التدين ٠

ويجب أن يكون الجندى مهيبا شجاعا ، ذلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ، حريصا على لقاء الخطوب ، وتيسيرها ٠

ويجب أن يكون الزراع والتجار عاكفين عليها ، يرعى الزراع شئون السوائم وتربيتها ويقوم التاجر بشئون التجارة ، ومعرفة الأسواق ، وماتتقاضاه الخبرة من صفق فى البياعات والتمرس بشئونها وتعرف أحوالها ٠

ويجب أن يكون الخدم والأسارى والأنجاس مجتهدين فى الخـــدمة ، والتحبب الى الناس ، لأن ذلك أليق بما ينبغى أن يكونوا عليه من آداب ، وهذا الذى يتفق مع أعمالهم فى الجماعات ٠

ويقول أبو الريحان البيرونى فى كتابه ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة بعد بيان الطبقات ما نصه : « وكل من هؤلاء اذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير فى ارادته اذا كان غير مقصر فى عبادته غير ناس فى جل أعماله ، واذا انتقل عما عهد اليه الى ما عهد الى طبقة أخـــرى ــ كان آثما بالتعدى » ٠

هذه نظم وعبادة فيها وثنية ، واذا ضربنا صفحا عن الوثنية فيهـــا واتجهنا الى النظم العملية ، فعجب كيف يقبل شـــعب مهما تكن درجـــة التفكير فيه تلك الطبقية المقنية ، ويسير عليها على دين واجب الطاعة ، ومن أجل هذه الطبقة كان التأخر النفسى والاجتماعى ٠

هل للبرهمية أصل سماوى :

٨ ــ لا شك أنه لا يوجد فى دين سماوى التفرقة الطبقية التى يعتبرها البراهمة فى القديم فى ضمن دينهم الذى انتشر بها قبل المسيح، ولاتزال بقاياها قائمة ، وان خفت حدتها بفعل الزمان ، وبطبيعة الاتصالات الانسانية العامة ، وشيوع فكرة المساواة بين الناس علما ، وان كان العمل لا يزال يتخاذل عن تعميم المساواة بين الناس بحكم الخضوع المزعوم لقضايا العقل الذى يحسبون أنهم يطبقونه ٠

ولكن يفيد كلام أبى الريحان البيرونى أن احتمال أن يكون لأصـــل البرهمية رسالة سماوية ، ويرجح هذا الاحتمال بدليلين ينشأ عنهما ، وبهما يكون احتمالا ناشئا عن دليل ، ولمثل هذا الاحتمال قوة فى الاستدلال ٠

أولهما : أن الرسل المذكورين فى التوراة والقرآن ليسوا هم الرســـل وحدهم ، بل يوجد غيرهم ، فقد قال تعالى : « **منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك** » ويقول سبحانه وتعالى : « **وان من أمـــة الا خلا فيهـــا نذير** » فوجود ديانة سماوية بين الهند الذين كانت فيها ثقافة وادراك أمـــر راجح ، بل أمر يقارب المقطوع به بمقتضى النصوص القرآنية ٠

ثانيهما : ما يذكره أبو الريحان البيرونى فى كتابه « ما للهند من مقولة

مقبولة فى العقل أو مرذولة » من أن خواص الهنود موحدون ، وأن عوامهم هم الذين دخلت الوثنية فى مزاعمهم ، فهو يقول فى هذا المقام :

« اعتقاد الهند فى الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله القادر الحكيم المحيى المدبر المنفرد فى ملكوته عن الأضداد ، لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، ولنورد لك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط : « قال السائل فى كتاب يا تنجل : من هذا المعبود القوى ؟ قال المجيب : هو المستعلى بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبريء من الأفكار ، لتعاليه عن الأضداد المكروهة ، والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدا ، اذ العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بحجة عليهفى وقت ما أو حال ٠

ثم يقول السائل بعد ذلك ، فهل له من صفات غير ما ذكرت ، فيقول المجيب : العلو التام فى القدر لا فى المكان ، فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام ، وهو العلم الخالص عن دنس الهوى والجهل ، قال السائل : أفتصنعه بالكلام أم لا ٠ قال المجيب : اذا كان عالما فهو لا محالة متكلم ٠٠ قال السائل : فاذا كان متكلما لأجل علمه ، فما الفرق بينه وبين العلماء الذين تكلموا من أجل علومهم ٠.قال المجيب : الفرق بينهم وبينه هو الزمان ، فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم الى غيرهم ، فكلامهم وافادتهم فى زمان ، اذ ليس للأمور الأزلية بالزمان اتصال ، فالله سبحانه وتعالى عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى كلم براهم ، وغيره من الأوائل على أشكال شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتابا ،ومنهم من فتح الواسطة بابا ، ومنهم من أوحى اليه ،فقالبالفكر ماأفاض عليه ٠ قال السائل : فمن أين هذا العلم : قال المجيب علمه على حاله فى الأزل، واذ لم يجهل قط فذاته عالمة ، لم تكتب علما لم يكن له ، كما قال فى بيذ الذى أنزل على براهما : احمدوا وامدحوا من تكلم ببيذ ، وكان قبل بيذ ٠ قال السائل كيف نعبد من لم يلحقه الاحساس ؟ قال المجيب تسميته تثبت آينته ، فالخبر لا يكون الا عن شيء ٠٠٠ والاسم لا يكون الا لمسمى ، وهو ان غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس ، وأحاطت بصفاته الفكرة وهذه هى عبادته الخالصة » ٠

هذه نقول البيرونى فى كتابه عن الكتب المقدسة الهندية ، وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن هذه الكتب تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتنزهه

عن مشابهة الحوادث ، فهو ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير العالم المتكلم ، والمتصف بكل كمال ، لا يتلاقى فيه مع صفات أحد من البشر،فوحدانيته سبحانه وتعالى فى الخلق والتكوين ، وصفاته العلية ، وخلوصه سبحانه بالعبودية لا ريب فيها فى كتب البرهمية الأصيلة ٠

الأمر الثانى : أن الرسل جاءت اليهم ، وقد ذكر أن النصوص الدينية فى التوراة والانجيل والقرآن ، لا تمنع ذلك بل انها تؤيده ، كما تكون من الآيات الكريمات ٠

وان برهما ـ لم يكن الها ، ولا شيء فيه من الألوهية الا أنه كان رسولا من عند الله تعالى ٠ والعبارات التى نقلها لنا البيرونى من كتبهم صريحة فى ذلك صراحة مطلقة ٠

الأمر الثالث : أن هناك كتابا منزلا تلقاه براهما من ربه ، من غير نظر الى كون ذلك الكتاب حرف فيه الكلم عن مواضعه كما حدث للتوراة والانجيل ، أم لم يحرف ، والراجح أنه حرف لتقادم العهد ، بدليل أنه وجد عندهم تشبيه ونحل لابراهما وصف فيها بالاله ، لا وصف الرسول عند عامتهم ٠

كتبهم :

٩ ـ للبراهمة كتب كما دلت على ذلك عبارات البيرونى ، وأقدم ما عرف من كتبهم الفيدا ، ولم يعرف المؤرخون عصره على وجه التحقيق والضبط ، وأقصى ما تأكد لديهم أن الفيدا كانت موجودة قبل القرن الخامس عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، فقد كانت مع الفاتحين الآريين على أنها من أصول ديانتهم ٠

والفيدا مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى نظرهم، ويقول جماهيرهم : « ان البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، ويقول البيرونى ان خاصتهم يقولون ان فى مقدورهم أن يأتوا بمثلها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها » ولم يبين البيرونى وجه المنع : أهو منع بمعنى التحريم ، بمعنى أن فى استطاعتهم أن يأتوا بمثلها ويتجهوا الى ذلك ، ولكنهم كلفوا الا يأتوا أم أن هذا المنع انما هو صرف لهم عن أن يأتوا بمثلها ، فهم قادرون على أن يأتوا، ولكنهم صرفوا عنذلك كما يقول بعض الجهلاء فاعجاز القرآن منحرفين فى دينهم ، لم يبين لنا البيرونى أى الوجهين أراد بالمنع ؟ لئن أراد الأول ، وهو منع بالتحريم وذلك لا يقتضى الامتناع ، فقد يكون من بعض المكلفين من

يعصى ، فيأتى بمثلها ٠ أو يزيد عليها ، لأن الناس ليسوا معصومين عن المخالفة ولا أحد من البراهمة يعتقد جواز وجود أمثالها ، ولذلك نرجح أن يكون الامتناع فى زعمهم يصرفه ، ونكتفى من الاشارة الى كتبهم بهذا القدر ٠

البوذية :

١٠ ــ بعد أن حرفت البرهمية وجعل الناس فى عقيدتها طبقات كان لابد أن يكون من بينهم من يغير ، ولا يرضى بهذه الطبقات ٠ ولذلك ظهر من بينهم من لا يرضى ، وهو من رجال الطبقة الأولى ، وبلغ أقصى الغاية فيها ، وهو بوذا الذى ولد سنة ٥٦٠ قبل المسيح عليه السلام ، وكانت دعاية بوذا تخفيف ويلات الانسانية التى أرهقها نظام الطبقات ٠

ولقد اتجه فى سبيل تخفيف ويلات الانسانية الى الدعوة لتخفيف الحاجات وكف النفس عن الشهوات ، وهذه الشهوات هى التى تشقى ، فاذا كانت ويلات الناس تجىء اليهم من ناحية أهوائهم وشهواتهم ، واتساع مطالبهم ، والرغبة فى المزيد منها ، فان تخفيف ويلات الحياة يكون بتربية النفس على الاستغناء عن أكثر مطالبها،والاكتفاء بالقليل ومجانبة الأهواء والشهوات، فانها هى التى تجعل النفس طلعة ، تحب اللذائذ وان كانت عاقبتها سيئة ، فكان من الواجب السيطرة على الأهواء ٠

وقد وضع منهاجا للتربية النفسية ، الخط الأول منه يبدأ باجتناب الأهواء، والاتجاه الى الأمور بقلب سليم منها ، فان النفس تشرق ، ويكون ادراكها سليما ، ثم يكون من بعد ذلك الاعتقاد سليما ، ومن بعد الادراك يكون النطق الصادق ، ثم العمل القويم ، ثم السلوك الحسن ، ثم الجماعة التى تقوم على الأخلاق ٠

ويقرر مبادىء خلقية ، فهو يقول فى النهى عن أمور عشرة :

١ ــ لا تقتل أحدا ٠

٢ ــ لا تسرق ولا تغضب ، ولا تأخذ مالا لم يقدم اليك ٠

٣ ــ لا تكذب ، ولا تقل قولا غير صحيح ٠

٤ ــ لا تشرب خمرا ، ولا تتناول مخدرا ٠

٥ ــ لا تزن ولا تأت بأى أمر يتصل بالحياة الجنسية يكون محرما ٠

٦ ــ لا تأكل طعاما لم ينضج ٠

٧ ـ لا تتخذ طيبا ، ولا تكلل رأسك بالزهر ٠

٨ ـ لا ترقص ، ولا تحضر مرقصا ، ولا حفل غناء ٠

٩ ـ لا تقتن فراشا وثيرا ، فلا تقتن أرائك وطنافس ، ولا وسائد ولا حشايا رافهة ٠

١٠ ـ لا تأخذ ذهبا ولا فضة ٠

وان هذه المبادىء البوذية فيها عيب ، وهى ناقصة ٠

أما عيبها ، فانها لا تعتمد على عقيدة موجهة ، بل يروج عن بوذا أنه أنكر أن يكون ثمة اله منشىء للوجود ، ولهذا شاعت عبادة الأوثان فيمن جاءوا بعد ، فلم تنق قلوبهم ، لأنه لم تسلم عقيدتهم ، وكانت وهما من الأوهام ضل فيها العقل ، ولم يهتد الى سواء السبيل ٠

ويضاف الى هذا عيب آخر ، وهى أنها تزهد فى الحياة ، وتمنع الانتفاع بخيراتها ، فكأنما مباهج هذه الحياة ، انما خلقت لكى ترى وتشاق النفوس لها ، ثم تحرم على الانسان ٠

وأما النقص فلأن فضائلها سلبية ، هى نهى لا طلب ، ومنع لا التزام ، فالخير فيها لا يطالب فيها ، ولكن يتجنب الشر ٠

ان الفضائل الانسانية تتكون من عنصرين ، عنصر ايجابى ، وهو تقديم النفع الانسانى والقيام بحق الانسان على أخيه الانسان ، والاتصال بالتعاون بين الناس بعضهم مع بعض ، وذلك هو العنصر القوى فى الفضيلة ، والعنصر الثانى الامتناع عن الايذاء وهذا هو العنصر السلبى، وهو الأدنى، والأول هو اللباب ، وهو الخير الحقيقى ، بل انه يمنع غيره ، فان النفع يمنع بعض الأذى ، فاذا اقتصرت البوذية على السلب نقص معنى الكمال فيها ٠

وان تكاليف البوذية قد يستطيع تنفيذها الخواص ، ولا يمكن أن يكون تنفيذها عاما ، والمذاهب لا يلاحظ فى تطبيقها الخاصة ، بل لابد أن يكون تطبيقها عاما ، وهى كالمذاهب الصوفية يطبقها الشيوخ ، ويقاربهم المريدون ، ولا يمكن أن تكون نظاما عاما يطبقه الجميع ٠

ولهذا لم يطبقها الجميع ، بل انقسم البوذيون أنفسهم الى قسمين :

(أحدهما) البوذيون الذين أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لا يحيدون

عنها ، وقيدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة ، وحرموا غيرها ، ولا يختـارون للباسهم الا الخشن من الثياب لما راضوا أنفسهم عليه من ترك لذات الحياة لتكون الحياة تحت سيطرتهم ، ولا يخضعوا لسلطانها ٠

(ثانيهما) البوذيون المدنيون ، وأولئك لم يطبقوا المنهاج الشـاق ، فاختاروا لأنفسهم طريقا وسطا ليس فيه افراط فى اللذائذ ، ولا شـدة فى تركها ٠

أخذوا ببعض الأخلاق البوذية من تواضع وصدق وأمانة ، ونالوا بعض الملاذ التى لا تعقب ألما ، ولم يندفعوا فى اجتراع الشهوات ، حتى لا يصابوا بالام الحرمان ان لم يستطيعوا ٠

وخلاصة القول أنهم أخذوا من المبادىء السلبية المبادىء الخمسة الأولى، وهى ألا يقتلوا ، ولا يسكروا ، ولا يسرقوا ، ولا يكذبوا ، ولا يزنوا ، وتركوا الباقيات من المهنيات ، فلم يحرموها عليهم ٠

ولقد كان ذلك الانقسام سبيلا لأن يكثر المدنيون ، ولأن يوجـد فريق لا يأخذون بشىء من هذه المبادىء ، بل يتركونها وراءهم ظهريا ٠ وبذلك ضعف العقل وحده عن أن ينشىء دينا آمرا وناهيا ٠

الكونفوشيوسية :

١١ ــ وان البوذية التى ولدت فى الهند كان أكثر تابعيها فى الصين لا فى الهند ، وقد انتقلت اليها وثنية ، كما كانت فى الهند ، واقترن بها ما ليس منها ، وانحرفت العقول ٠

ولكنها اذ انتقلت الى الصين قد احتضنها بيئة امتازت من بين البيئات بالوثنية ، والتمسك بكثير من المبادىء العملية التى تتفق مع قانون الأخلاق الى حد كبير ، ولكن لعدم اعتمادها على عقيدة قوية كانت فى قلوب شاغرة ، واذا سكنت المبادىء فى قلوب شاغرة عن الايمان جف عودها ، ولم تقـو على البقاء ٠

كان فى الصين فيلسوف يسمى فى لغة الفرنجة كونفوشيوس ، وهى تحريف لاسمه الأصلى فى الصـين وهو « كونج فوتس » وقد اخـذ ذلك الفيلسوف بالمذهب البوذى ، ولكنه أخذ بمبدأ البوذيين المدنيين ، وكان مذهبه ليس دينا يتبعه ، ولكنه اصلاح يدعو اليه ٠

ومع وجود المنهج العلمى فى اصلاح كونج فوتس نجد بجواره فيلسوفا كان أســـن من كونج فوتس اذ أن هذا ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد ، أى أنه يعاصر بوذا ، والفيلسوف الآخر واسمه لوتس ، كان يكبر الأول بنحـــــو خمسين عاما ، ومذهبه هو الاعتزال أو أن ينجو بنفسه ومن يتابعه من المفاسد ٠

وقد التقى الفيلسوف الشاب كونفوشيوس الذى يرى أن مبادىء الأخلاق يكون أساسها النفع الايجابى ، لا الاعتزال السلبى بالشيخ لوتس الذى لا يرى الا الاعتزال السلبى ، فتحاورا ٠

قال الشيخ للشاب : « ان الخير ليس فى محاولة اصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والاختلاط ، اذ أن الاختلاط يفسده ، بل الخير كل الخير فى الزهادة والقناعة والاعتزال ، والتسامح ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وهى العفو » ٠

قال الشاب للشيخ : « اذا كان واجب كل شخص من آحـــاد الأمة أن يعتزل فى كهف من الكهوف فمن الذى يبقى فى المدن يعتمرها ، وفى الأرض يفلحها ويزرعها ، وفى الصنائع يمهر فيها ، ومن الذى ينسل ويعمل ، ليبقى الكون عامرا ببنى الانســان ، واذا كان الاعتزال مقصورا على الحـــكماء ، والفضلاء ، فمن الذى يربى الانسان ويؤدبه ، أم يترك الناس حائرين بائرين لا هادى ولا مرشد ٠

عقيدة الصين القديمة :

١٢ ـــ ومهما تكن آراء كونغ فوتس من الحكمة والصواب فقد اختلط بها ما ليس سائغا ، فقد كان يعتقد بآلهة ، وبأن السماء مرتبطة بالأرض فيصلح الكون اذا صلح الانسان ، ويفسد بفساده ، لقد كان كونج فوتس يعتقـــد ما يعتقده الصينيون القدماء ٠

وأساس هذا الاعتقاد أنهم يعبدون ثلاثة أشياء : الســماء ، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء ، (الملائكة) وأرواح الآباء ٠

والسماء التى يعبدونها لا يقصدون بها تلك القبة الزرقاء ، بل يقصدون الأفلاك ومداراتها ، والقـــــوى المسيطرة التى تسيطر عليها وتسيرها فى مداراتها ، وباتصالها بالأرض والرياح والأمطـــار تنبت الأرض ، وكان عبادتهم للسماء لاعتقادهم أنها عالم حى يتحرك حسب نظام دقيق محكم ، وللسماء السلطان الأكبر على العالم ، اذ أن كل ما فيه من قوى مسيرة خاضع لسلطان السماء ٠

وظاهر كلامهم أنهم لا يفرضون للكون سمائه وأرضه قوة منشئة مغايرة هى المدبرة والتى تحفظ العالم ، وتحول قواه ، فهم بذلك يعدون منكرين لله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وعلى ذلك يكون الأساس الذى بنيت عليه عقيدتهم باطلا ٠

وهم يعتبرون التحول والتغير فى الكون على حسب مداركهم ، وعلى أساس عقيدتهم السقيمة فهم يرون أن العالم قسمان مادى وروحى وأن الروحى هو الذى يسير المادى ، فهم بهذا يرون أن المنشىء من ذات الكون لا من قوة فوقهم ، وبذلك يتقاربون من الفلسفة الأيونية ٠

ومع أنهم لا يؤمنون بالواحد الأحد المنفرد بذاته عن المشابهة يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويرون أن السماء هى التى تقدر وتقضى ، فلا مفر من حكمها فى زعمهم ، ولا خلاص من سلطانها فى اعتقادهم ٠

ويؤمنون بأن الأحكام القدرية مرتبطة هى والأمور الكونية ، بالأخلاق الانسانية ، فاذا كانت الأخلاق مستقيمة استقام الكون، واذا فسدت اضطرب ، فكلما كان الاعتدال والانسجام والعدالة بين الناس استقام الكون ولايضطرب ٠ وما الزلازل وما خسف الأرض وكسوف الشمس وخسوف القمر الا من فساد الأخلاق ، وعدم استقامتها ٠ وهى أمارات على ذلك ، واذا كان السلوك غير القويم يحدث الاضطراب ، فالسلوك القويم يجلب الخير ، والبركات ٠ ويجعل كل ما فى الكون يجىء على ما يحبه الانسان ويرضاه ٠

وعلى ذلك يكون المؤثر فى الكون ثلاثة :

أولها : السماء بسلطانها ، والأرض بقبولها لحكم السماء ، والانسان بارادته الخلقية ، فان اختار خير الأخلاق وأفضلها واتجه اليها ٠ فان مظاهر الكون تكون لخير الانسان ٠ فالجو يمتلىء بالنسيم العليل ، والحرارة المنعشة غير اللافحة ، والغيث المحيى لموات الأرض من غير أن يخرب العمران ويصير غيثا ، وتكون الشمس المشرقة ، والنهار المبصر والليل الساجى ٠

١٣ ـــ وبذلك نجد أن العقيدة الصينية فاسدة ، والخلق الصينى قوى ، والارادة الصينية قويمة ولكنها قائمة على عقائد فاسدة ، وما يقوم على الفاسد لابد أن ينهار ، ، اذ هو قائم على شفا جرف هار ، غيرمستقر ولا ثابت الدعائم ٠

واذا كانت الفلسفة اليونانية ووليدتها الرومانية قد عجزت عن تكوين

حكم خلقى له مقياس ثابت لا يتغير بتغير الأعراف ولا بتغير الأماكن والأزمان، فان الصين قد وصلت الى حكم عملى حسن فى جملته يتجه الى الخير فى غايته · ولكنه لم يقم على دعائم ثابتة من ايمان خال من الأوهام ، وعقيدة بعيدة عن الأخيلة غير المحققة ولا الثابتة ·

ان العقيدة الصالحة هى التى توجد الأخلاق الثابتة ، وهى التى توجد المجتمع الفاضل الذى يريد الخير بدافع من ايمان ثابت الدعائم قوى الأركان·

١٤ — وننتهى من هذا السياق الذى انتقلت فيه من اليونان والرومان سائرين الى الشرق الأدنى فالشرق الأقصى — الى أن العالم كله فى الفترة التى كانت قبل المسيح وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يموج فى مضطرب فسيح من الآراء والمنازع المتناحرة ·

وأنه فى الوقت الذى كانت الوثنية تضيق ذرعا بالوحدانية التى جاء بها موسى وخلائفه ، وجاء بها عيسى وحملها حواريوه — كان الشرق الأقصى بعيدا عن هذه الدعوات الى الوحدانية ، فكانت فيه مجوسية الفرس ، ووثنية الهندوس ، وظلم الطبقات ، ثم كان من وراء ذلك عبادة الأفلاك والنجوم والأرواح فى الصين ·

كان العالم اذن يموج بفساد الفكر ، وفساد العمل ، واضطراب الحكم ، وانقطاع الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وسيطرة الأقوياء على الضعفاء ، وقد اشتد الطغيان ·

وثنية اليونان والرومان :

١٥ — وبجوار تلك كانت أوروبا تعيش فى ظلمات الوثنية ، وكان غربها من الوندال والسكسون قبل المسيح يعيشون فى جاهلية عمياء ، لم يكن فيها هاد ولا مرشد ، كما تعيش بعض القبائل فى مجاهل أفريقية ولا فرق بينهم الا فى اللون ، فأولئك بيض ، وهؤلاء سود ، ولكن الفعل واحد ، والوحشية متقاربة ولعل البيض أغلظ أكبادا ، وأقسى قلوبا ·

١٦ — ولما جاءت المسيحية جاءت اليهم بعد أن شاهت ، واعتراها التغيير والتبديل ، وذلك لأن الفلسفة اليونانية والرومانية من بعدها عجزت عن اصلاح الأخلاق ، وبث الاطمئنان فى القلوب ، والرضا فى النفوس ، فكان لا بد من دين يقود العقل الى ما فيه خير العباد ·

وقد فقدت الأوثان قوة تأثيرها فى الجماعات ، اذ أن الفلسفة قد أيقظت العقول ، وان لم تهدها ، وحركت الأفهام ودفعتها الى التفكير ، وان لم تهدها الى الصراط السوى الذى يسلكه من يستضىء بنورها وحدها ، فكان لابد من دين بجوارها ، وخصوصا أن المدائن الرومانية لم يكن فيها التناسق الاجتماعى الذى يجعل كل انسان يرضى بما قسم له من حظ ٠

ان التاريخ يحكى أن توزيع الثروة فى الدولة الرومانية لم يتحقق فيه العدل الاجتماعى ، فبينما ترف فيمن أفاءت عليهم الدولة بالغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية ترى ألوف الألوف من الناس قد حرموا ما يتبلغون به فى حياتهم ، فاستولى عليهم الاحساس بالظلم ، والناس لا يشقون بالام ذاتية وحرمان ذاتى بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التى امتنعت عليهم ، وكذلك كانت الآلام فى سواد الرومان ، ولولا بقايا من الصبر عندهم لانفجروا فى ثورات ماحقة لا تبقى ولا تذر ٠

مزج الفلسفة بالدين :

١٧ ـــ وفى هذا الوقت أرادوا أن يمزجوا الفلسفة بالدين أو يحلوا الفلسفة محل الدين ، اذ أخذت التماثيل تفقد قوتها ، ولم يعد لها سلطان فى التأثير فى نفوس الشعوب ، وفقدت معابد الأوثان ما كان لها من روعة ، ولقد كان يعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان قويان كلاهما فيه شدة وبأس ، فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم فى حاجة الى عزاء من الدين ، وسلوى بالجزاء فى يوم آخر غير يوم الشقاء الذين يعيشون فيه ، والعامل الثانى الذى أضعف هذه السلوى هو أن الآلهة التى تمثلوها فى الأوثان فى زعمهم قد فقدت قوة تأثيرها ٠

وقد أرادت الفلسفة أن تحل محل الأديان ، ولكنها لم يكن لها تأثيرها ، فاتصلت بالأديان والتقت بها التقاء تعاون ، وليس التقاء تخاصم وتناحر ، كما كان الشأن بينهما ٠

جاء فى كتاب المبادىء الفلسفية « ان الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذيب الآراء الدينية ، وترتيبها والتقدم بها الى الشعور الدينى اللجوج بفكرة فى العالم قد تقنعه ، فأوجدت نظما دينية تتفق مع الأديان فى النظر فيما وراء المادة اتفاقا يختلف قلة » ٠

وهنا نجد الفلسفة اليونانية التى تسمى الأفلاطونية الحديثة تحاول الالتقاء بالديانتين اللتين كانتا بارزتين فى ذلك الابان ، وقد تخاذلت وثنية

اليونان والرومان عن أن تقف وحدها فى الميدان ، فأتى بآراء فى خلق العالم تقرر أن منشىء الكون الجدير بالعبادة فى نظرها يشتمل على ثلاثة أمور :

أولها ـ أن الكون صدر عن منشىء أزلى دائم لا تدركه الأبصار ولا تحده الأفكار ولا تصل الى معرفة كنهه الأفهام ٠

ثانيها ـ أن جميع الأرواح شعب لروح واحدة ، وتتصل بالمنشىء الأول بواسطة العقل الذى صدر عن المنشىء صدور المعلول عن علته ، فهما متلاقيان فى القدم ، ويصح التعبير عن المنشىء الأول بالآب وعن العقل بالابن ، وان كان أحدهما ليس متخلفا عن الآخر فى الزمان ٠

ثالثها ـ أن العالم فى تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة ٠

التثليث فى الفلسفة :

١٨ ـ وخلاصة القول أن الشىء الأول هو مصدر كل شىء ، واليه معاده لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث ، فليس بجوهر ، ولا بعرض ، فليس بفكر كفكرنا ، ولا ارادة كارادتنا ، ولا وصف له الا أنه واجب الوجود ، يتصف بكل ما يليق به يفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود ، ولا يحتاج هو الى موجود له ٠

وأول شىء صدر عن هذا المنشىء فى نظر صاحب تلك المدرسة وهو أفلوطين هو العقل ، صدر عنه كأنه متولد منه ، ولهذا العقل قوة الانتاج ، ولكن ليس كمن تولد عنه ٠

ومن العقل انبثقت الروح التى هى وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شىء ، ومنه يكون التدبير والخلق ٠

ويلاحظ أمران :

أولهما ـ أنه التقت الأفلاطونية الحديثة مع الدين ، وصارا يضربان على نغمة واحدة هى نغمة ذلك التثليث ، وهو ما اشتملت عليه النصرانية التى حالت اليها المسيحية التى تزعمها من تركوا ما دعا اليه المسيح عليه السلام ٠

وبها تلتقى الفلسفة مع ذلك الدين ، وتلتقى الوثنية التى تتعدد فيها الآلهة

وتكون منهما تلفيق متناسق أو غير متناسق ، من غير نظر الى كون هــذا الامتزاج مزيجا ، قد اختفت فيه ظواهر العناصر المتزجة فى مزاج واحد ، أم لم تختف ٠

الأمر الثانى ــ أن شيخ هذه المدرسة هو أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢ ميلادية اعتنق الديانة المسيحية الأولى التى جاء بها أتباع المسيح عليه السلام فيما نظن ، ثم ارتد عنها الى وثنية اليونان الأقدمين ٠

وجاء من بعده أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ م ، وقد تعلم فى مدرسة الاسكندرية أولا ــ ثم رحل الى فارس والهند ، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية واطلع على آراء بوذا ومذهبه ، وبراهمة الهند وديانتهم ، وعرف آراء البوذيين فى بوذا ، وقد رفعوه الى مرتبة الاله ، والبراهمة فى كرشنة ، وقد رفعوه أيضا الى مرتبة الاله ، وقد عاد من بعد هذه الرحلة التى تزود منها بالزاد البرهمى والبوذى الى الاسكندرية التى كانت مهد مدرسته المثلثة على النحو الذى بيناه ٠

١٩ ــ فى هذه الموجة الفكرية كان يعيش العالم فى القرن الثالث من مولد المسيح عليه السلام وقد استمر ذلك الاضطراب الفكرى أمدا بعده ، حتى جاء القرن السادس ، وقد زادت المنازع وتخالفت المناهج ، وانحل الفكر انحلالا شديدا فيما يتعلق بالاعتقاد ٠

وانشقت النصرانية التى انحرفت عن تعاليم المسيح عيسى ابن مريم على نفسها ، فكان منها الملكانية وكان منها اليعقوبية ، واشتد الخلاف بينهم ، حتى انتقل الخلاف الى عداوة فكرية ثم الى عداوة تشبه العــداوة الجنسية ، وأغرى الله تعالى بينهم بالعداوة والبغضاء ، وتفرقت النفوس والأفــكار ، وضعف الاعتقاد ، وانحل الايمان ، فانه كلما انتقلت العقائد الى أن تكون موضع مجادلات تضعف ، ويعرض لها الشك ، وينتهى اليقين ، وكذلك كــان الأمر فى الأرض التى كانت تعتنق النصرانية فى القرن السادس ، فى البلاد التى كانت تجاور الجزيرة العربية وفى الجزيرة نفسها ٠

٢٠ ــ فالمسيحية ابان القرن السادس الميلادى قد ضعف الايمان بها، لكثرة الجدل فيها ، ولم تكن قد استقرت الأفكار حولها ، واقتصرت على اتجاه معين من اتجاهاتها ٠

فابتدأت أولا باضطهاد الوثنية لها ، وتجسس اليهود على النصارى ، واختفى المسيحيون فى أكنان من أرض الروم وفلسطين مستترين بعقائدهم ،

وكلما ظهر فريق منهم قوبل بالاضطهاد ، والأذى المرير ، وتبارى فى ذلك ملوك الرومان ، وقد جعلوا عمل أمرائهم الذين يرسلونهم هو ذلك الأذى ليئدوا ذلك الدين الجديد فى مهده ، ويقبروه فى حجر ولادته ٠

وقد تكاثرت المصادر الدالة على ذلك الاضطهاد ، وقد جاء فى كتاب تاريخ الحضارة ما نصه « قد كتب بلين وكان واليا فى آسيا الى الامبراطور تراجان كتابا يدل على الطريقة التى كان يعامل بها المسيحيون قال : « جريت مع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية ، وهو أنى أسالهم اذا كانوا مسيحيين ، فاذا أقروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهددا بالقتل ، فان أصروا أنفذ فيهم عقوبة الاعدام مقتنعا بأن غلطهم الشنيع ، وعنادهم الشديد يستحقان بهما هذه العقـوبة ، وقد وجهت التهم الى الكثيرين بكتب لم تذيل بأسماء من كتبوها ، فأنكر المتهمون أنهم نصارى ، وكرروا الصـلاة على الأديان الذين ذكرت أسماءهم أمامهم وقدموا الخمور والبخور لتمثال أتيت به عمدا مع تماثيل الأديان ، بل انهم شتموا المسيح ، ويقال انه من الصعب اكراه النصرانى الحقيقى على شتم المسيح ، ومنهم من اعترفوا بأنهم نصارى وكانوا يقرون بأنهم يجتمعون فى بعض الأيام قبل طلوع الشمس على العبـادة ، وعلى انشاد الأناشيد اكراما للمسيح ، وتعاهدوا بينهم لا على ارتكاب جرم بل على ألا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزنوا وأن يوفوا بعهدهم ، ورأيت من الضرورى أن أعذب امرأتين ذكرتا أنهما خادمتا الكنيسة ، بيد أنى لم أقف على شىء سوى خرافة سخيفة ٠

وقد كثر الاضطهاد ، وكان نيرون يجعل من النصارى مشاعل تسير فى موكبه ، اذ يطليهم بالقار ، ويشعل فيهم النار ، وتصير تلك الشعلة فى احتفاله بنفسـه ٠

وأوقع دقلديانوس بنصارى مصر أشد الاضطهاد ، وأنزل بهم العـذاب وقتل فى مصر المسيحية التقتيل الذريع الماحق، حتى انه اعتبر تاريخ ذلكالعذاب هو ابتداء التاريخ القبطى ٠

١٣ ــ وبعد زوال الاضطهاد ظهرت الخلافات على أشدها ، فكانت بقايا الوحدانية تظهر على لسان أريوس ، ومعه أكثر كنائس الشرق ، وأكثر الكنائس فى فلسطين ، وكثير من كنائس مصر ٠

ولما أراد قسطنطين أن يدخل فى النصرانية جمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وأعلن ثمانية عشرة وثلاثمائة من المجتمعين ألوهية المسيح ، فأخذ بقولهم مع أن المجتمعين ابتداء فى المجمع كانوا يبلغون ٢٠٤٨ أو يزيدون ، ولكنه أراد

أن تتغير المسيحية الى ما يقرب من الفلسفة والوثنية على أن يبقى اسم المسيحية ، وان خلت من لبها ، وهى الوحدانية التى تحارب الوثنية ٠

ثم توالت بعد ذلك المجمع الذى مال بالمسيحية عن معناها مجامع أخرى ، وأول مجمع عام انعقد بعد ذلك كان المجمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١ ميلادية وفيه أضيفت الى مناصب الألوهية روح القدس لتتمم عناصر الأفلاطونية الحديثة التى أشرنا اليها آنفا ٠

ولكن يظهر أن ألوهية المسيح التى قررها مجمع نيقية لم تكن قد استقرت فى الأذهان ، فقد جاء من بعد ذلك نسطورس ، واعتقد أن المسيح ليس ابنا للاله بالحقيقة ، انما البنوة مجازية ، اذ هو ابن بالنعمة والمحبة ، لا بالألوهية فاجتمع مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ م ، ليبطل قوله ، ويكفروه كشأنهم فى كل من يجهر برأى ٠

توالت من بعد ذلك الخلافات المفرقة ، فمنهم من قرر أن مريم ولدت المسيح الانسان ثم فاضت عليه البنوة الالهية التى هى اللاهوت ، فيقولون ان فى المسيح صفتين اللاهوت والناسوت ، أو الانسان والاله ، والابن هو مجموع الاثنين ، وهو الأقنوم ٠

والآخرون يقولون انه طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى ومريم ولدت الناسوت واللاهوت معا ، فقد ولدت الانسان والاله ٠

وقد اعتنقت الكنيسة المصرية وحدة الطبيعة وولادة مريم لها معا ٠

وكان الخلاف الشديد بينهما ، وكان النزاع وكان الجدل ، وكل جدل يحل الاعتقاد ، ويضعف قوته ، ويخضد شوكته ، ولا يجعل له قوة دافعة مانعة ٠

وقد اشتد ذلك كله فى القرن الخامس والسادس ٠

وبذلك نقول مقررين أمرين :

أولهما ــ أن القرن السادس كانت العقائد فيه غير قارة فى النفوس ، والآراء تخلق وتعتنق ثم يتعصب لها ، وليس التعصب دليلا على قوة الاعتقاد ، بل التعصب دليل على الانحراف النفسى ، والنظر الجانبى ، وكذلك كان تعصب الملكانيين ضد اليعقوبيين ، اذ كان فى جملته ادراكا جانبيا منحرفا ٠ العصبية هى المسيطرة فيه ، وليست قوة اليقين هى المسيطرة ٠

ثانيهما ـ أن النفوس فى القرن السادس كانت مهيأة للعقيدة الصحيحة تعتنقها اذا ظهرت بيناتها ، وقام الاستدلال المنطقى عليه ، وخصوصا أن الأفكار المرددة كانت أوهاما ، أو أقوالا غير متميزة تمييزا عقليا ، ولم تكن قد استقرت استقرارا يجعل التعصب لها يشبه الطائفية ، كما حدث من بعد بين النصارى ، وبين اليهود ·

وهكذا نرى المسيحية التى خلفت المسيحية الحقيقية التى جاء بها المسيح رسول الله عليه الصلاة والسلام ، جاءت الى النفوس قلقة غير مستقرة ، بل انها مضطربة غير ثابتة ·

فاذا كانت أوثان الرومان قد فقدت قوة تأثيرها ، وحل فى ربوع الوثنية ديانة تأخذ من اليهودية طرفا يأخذها بأحكام التوراة الا ما خالف الأناجيل ، وتأخذ من الوثنية بأطراف ، ولا تكاد تأخذ من الدين الحقيقى شيئا ـ فان ذلك المزيج الجديد لم يستقر ، بل جاء مضطربا واهنا حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، فكانت النفوس مهيأة لدين جديد هو الدين الحق ·

العـــــرب

٢٢ ـــ طفنا بتفكيرنا حول العالم من غربه القريب والبعيد ، الى شرقه الأدنى والأوسط والأقصى ، ولم نعرج على البلاد العربية ، ونحسب أنهـــا القلب ، وأنها ذؤابة الفكر الأدبى ، فاليها تأرز الحقائق الدينية قديمـــا وحديثا ، ومنها خرجت أصوات الأنبياء ، خرجت ابتداء من أطرافها ، ثم ختمت الرسالة الالهية فى قلبها ، ولقد هاجر ابراهيم أبو الأنبياء الى بلاد العرب وولد فيها ولده اسماعيل الذى كان أول البشرى وحمد الله على ولادته ومنبعده اسحاق ، والأول من جاريته هاجر ، والثانى من زوجتـه ســـارة ، وقال من بعدهما « **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق** » ·

وقد كان من ولده قريش الذين كانوا ذؤابة العرب ، ولهم مكانة الزعامة فيهم ، كما سنبين عند الكلام عن الكعبة المكرمة ، فاليهم يأرزون ، والى تلك البنية يحجون ·

وكانت قريش ومن يتبعونها على الدين الذى جاء به أبو الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فكانوا فى أصلهم موحدين لا يعبدون غير الله تعالى ، فلا يعبدون صنما ، ولا حجرا ، ولا حيوانا ، وليس فيهم ألوهية لمخلوق الا ما

كان ممن وفدوا اليهم من النصارى كنصارى نجران ونصارى تغلب وغيرهم، وقد كان يقوى توحيدهم صلتهم بابراهيم عليه السلام ، وشرفهم فى الانتساب اليه عن طريق ولده اسماعيل عليه السلام ، ولكن طرأ عليهـــم ما حالت به أحوالهم ، وتغيرت بسببه عقائدهم وذلك لتقادم الزمن بينهم وبين اسماعيل عليه السلام ، حتىنسوا ما عرفوا ٠

دخول الوثنية أرض العرب :

٢٣ ـــ توردت عبادة الأوثان على النفس العربية ، والتفكير العربى من نواح ثلاث :

أولاها ـ أن بقايا من الديانات القديمة كانت فيها وثنيـــة ، وان لم تكن سائدة فى البلاد ، فقوم نوح كان فيهم وثنية ، وقيـــــل انه كان عربيا ، أو خاطب العرب ، وقد قص الله خبر أوثانهم فقال تعـــالى : « **وقالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا** »٠

ولا شك أن هذه الأثارة من بقايا الوثنية تبقى ، وان لم تكن ســــائدة مسيطرة ، وانك لترى أن بعض المتدينين بديانات سماوية يبقى فى نفوسهم بعد اعتناقها بقايا أشربت بها نفوسهم ، وتجرى آثارها فى بعض آرائهم ، واذا لم تصل الى أن تكون رأيا يقنع ، فانها قد تكون تقليدا يتبع ٠

الثانية من جيرانهم الرومان ، فان الوثنية الرومانية كانت على مقربة من العرب من قبل المسيح ومن بعده ، فعدوى العقائد تسرى كعدوى الأمراض، ومن الاختلاط الذى كان بين بعض العرب والرومان فى الاتجار كانت العقائد الدينية تجىء اليهم ، وخصوصا أن دولة الرومان كانت أقوى ســـلطانا من الجماعات العربية ، وأن بعض القبائل العربية كانت تخضع لسلطان الروم ، كالغساسنة ، فانهم كانوا تحت سلطان الرومان ، وكانت له تبعية للرومان ، ووراء هذه التبعية الاختلاط ، ووراء الاختلاط العدوى ٠

والناحية الثالثة ذكرها ابن اسحق صاحب السيرة فقال :

« يزعمون أن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى اسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت والتمسوا الفسيح فى البلاد الا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما وضـــعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى أدى ذلك الى أن كانوا يعبدون ما استحســـنوه من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت من بعدهم خلوف ، ونســـوا ما كانوا عليه

واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من الضلالات ٠

ويذكر الحافظ بن كثير فى تاريخه أن ابن هشام قال : « حدثنى أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة الى الشام ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ، قالوا له هذه أصنام نعبدها ، فتمطرنا ، ونستنصر بها فتنصرنا ، فقال لهم الا تعطون منها صنما ، فأسير به الى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته » ٠

وعمرو بن لحى هذا كان سيد خزاعة ، وكانت لخزاعة سدانة البيت الحرام ، فكان له بهذا سلطان فى التوجيه ٠ يعظمون ما تعظمه ٠

وان هذا يدل على مقدار العدوى التى جاءت من الرومان ، فما كان فى الشام انما هو من أثر وثنية الرومان ، وان ذلك يؤكد أن وثنية العرب كان للعدوى أثر فيها وان كان ثمة أسباب قوتها ٠

ومهما تكن الأسباب فقد توافرت ، حتى دخلت الوثنية الأرض العربية ، وبين ذرية ابراهيم حاطم الأوثان الذى جعلها جذاذا ٠

وقد سيطرت الوثنية على أعمالهم حتى لقد ورد عن أبى رجاء العطاردى أنه قال : « كنا فى الجاهلية اذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من التراب فحلبنا عليها ثم طفنا بها ٠

لم ينسوا الله فى وثنيتهم :

٢٤ ــ لقد أغرم العرب بعبادة الأوثان اغراما شديدا ، حتى صارت جزءا من مداركهم وعقولهم وأصبحوا يستنصرون بالأحجار ، ويظنون انها تجيب سؤلهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينسوا الله تعالى خالق هذا الوجود ومنشئه ، وكانوا كما قال تعالى عنهم : « **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** » ٠

وهنا تفترق الوثنية الرومانية واليونانية عن وثنية العرب اذ أن وثنية العرب فيها ايمان بالله ، وان لم يكن وحدانية ، بل كانوا يشركون مع الله تعالى غيره ، أما الآخرون فقد كانت نظرية الحلول تسرى فيهم ، ولا يجىء فى وثنيتهم ذكر الله تعالى قط ٠

والسبب الجوهرى فى هذه التفرقة أن الأصل عندهم هو التوحيد ، كما تلقوه عن اسماعيل وابراهيم عليهما السلام ، فكان بقية مما وصى به ابراهيم بنيه ويعقوب،كما قال تعالى فى كتابه الكريم · ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب، **« يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين ، فلا يموتن الا وأنتم مسلمون »** ·

الأمر الثانى ـ هو احترام الكعبة والبيت الحرام ، وهو ما ورثوه عن ابراهيم عليه السلام فقد كانوا مع وثنيتهم فيهم بقايا من عهد ابراهيم من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدى البدن ، والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه ، ويقول ابن اسحاق فى سيرته · كانت كنانة قريش اذا أهلوا قالوا لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده ، ويقول تعالى لمحمد **« وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون »**

ومن أجل أن العرب كانوا يحاولون الجمع بين ايمانهم بالله تعالى وايمانهم بالأوثان نقول ان ايمانهم بالأوثان لم يكن قويا مستغرقا ، كما آل اليه أمرها عند الرومان ، وخصوصا قبل البعث المحمدى ، كما أن ايمانهم بالله تعالى لم يكن صحيحا ، لأن الايمان بالله لا يتحقق الا اذا كان المؤمن يؤمن بوحدانيته لا يشرك فيه أحدا فى ذاته ولا فى الخلق والتكوين ، ولا فى العبادة، فلا عبادة الا لله تعالى وحده ·

ولكن الذى يدل عليه الجمع بين الايمان بالله تعالى ، والايمان بالأوثان هو أن اعتقادهم فى الأوثان لم يكن قويا مكينا ، بل هو اضطراب فى الاعتقاد ، ولا استقرار فيه ، بحيث تستقر النفس وتطمئن ، وكيف يستقر عقل ، يجمع قبضة من التراب أو يقتطع قطعة من الحجر يجعله معبوده ، ويعبده أطراف النهار وزلفا من الليل ، وهو مع ذلك يجزم بأنه ليس بخالق ، ولكنه مخلوق ·

واذا كانت الوثنية قد ضعفت فى آخر أمرها قوة الأوثان ، فان أوثان العرب خلقت فكرتها ضعيفة يوجد ما ينازعها ، أو يجعلها قلقة غير مستقرة اذ هى فى نفسها تحمل عوامل ضعفها وردها ، ولكنه التقليد الأعمى ، الذى سد مسالك الادراك على العقل ·

القلوب فارغة من ايمان :

٢٦ ــ ان الذى ذكرناه أن القلوب والعقول كانت فارغة تحتاج الى ما يملؤها ، ويسد فراغها ، ولا يتركها شاغرة فى شرق الأرض وغربها يستوى

فى ذلك قاصى الأرض ودانيها ، فالشرق الأقصى كما يعبر رجال السياسة لم يكن فيه ايمان بشىء ، وقد كانت الأوهام هى التى تسيطر ، والأوهام وان استمكنت فى نفوس من تسيطر عليهم غير صالحة للبقاء ، انما الذى يصلح للبقاء مما يسيطر على النفوس هو ما يكون متفقا مع حكم العقل ، والتفكير السليم ، والأوهام وان قويت لا تستطيع مقاومة العقل ، ومثل الأوهام كمثل الضباب يبدده ضوء الشمس ، فكذلك العقل يبدد ضباب الأوهام ، ويكشف عن المدارك غمتها ٠

والهنود تسيطر عليهم أوهام أشد ، وظلم اجتماعى غير صالح للبقاء ، والفرس ظهر عندهم مذاهب هدامة تهدم الانسانية ، فتجتثها من جذورها أو تهدم أخلاقها التى يتماسك بها آحادها ٠

والرومان وما كان تحت ظلمهم قد فقدوا الايمان ، فاستبدلوا بالوثنية النصرانية التى ابتدعوها ، ولكن لم يثبت بها ايمان الى القرن السادس ٠

وليس فقد الايمان كان خاصا بالعقيدة فيما وراء الطبيعة ، بل كان مفقودا فى القيم الانسانية الخلقية كما هو مفقود فى العبادة والألوهية ، فلم يكن ثمة خلق انسانى سليم ، بل كان كل شعب ينظر الى الآخر ، نظرة العدو ، وأصبح التفكير الخلقى مقصورا على معاملة أبناء الوطن الواحد ، لا أبناء الانسانية عامة وعم ذلك ولم يخص ، حتى كان الفلاسفة لا يؤمنون بحق الشعوب فأفلاطون قد كان يعتبر ما عدا اليونان من الناس برابرة ، وكل من يبعد عن وطنه فرسخا أو دونه يسترقه من يلقفه من غيره ، وقد وقع الرق على أفلاطون نفسه ، حتى افتدى ، وهكذا قد فقد الايمان بالقيم الانسانية كما فقد الايمان بالألوهية ٠

فكانت أماكن الايمان شاغرة من القلوب ، فلابد من أن يكون من يملؤها، لابد من محمد رسول الله رب العالمين ، ولابد أن يقوم فى وسط الأرض يدعو أهل الأرض فى أرض النبوة الأولى ٠

أرض النبوة الأولى

٢٦ — قرأت لبعض كتاب الفرنجة كلاما يتحدث فيه عن أورشليم وبيت المقدس يقول فيه ان أورشليم وما حولها البقعة المباركة كانت مدرسة الأنبياء ، ففى وسطها تربى الأنبياء ، وعلت أصواتهم بالرسالة، وأنه لا مدرسة للنبوة غير هذه المدرسة ، ففيها ظهر داوود وسليمان وعيسى ، وهى التى

أرادها موسى ، ودعا بنى اسرائيل لأن يدخلوها، فقالوا « **ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها** » ٠

وذلك القول فيه حق ، وفيه باطل ، أما الحق فهو ما ينبىء عنه من مكانة أورشليم التى بها المسجد الأقصى مسرى النبى ، وثالث المساجد التى تشد اليها الرحال ، والتى كان منها المعراج ، والقبلة الأولى للاسلام ، وهى بهذا وبغيره سميت فى القرآن الكريم والمصادر الدينية السماوية الأرض المقدسة ٠

أما الباطل فى كلام ذلك الكاتب فهو :

أولا ـ فى قصره النبوة على أورشليم وما حولها ، فــــان القصر ليس بسليم ، فانه ما من أمة الا خلا فيها نذير ،و بعد أن قص الله تعالى قصص عدد من الأنبياء قال تعالى فى كتابه الكريم : « **منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك** » واننا لا نذهب بعيدا عن أورشليم فانه بجوارها الجزيرة العربية وأطرافها كان فيها الأنبياء أصحاب الرسالات التى جاءت بهــــا كتب سماوية وذكرتها التوراة والقرآن ، مما سنذكره فى هذا الموضوع قريبا ان شاء الله تعالى ٠

ثانيا ـ لأنه فهم أن للنبوة مدرسة يتربى فيها الأنبياء وذلك باطــــل لأن النبوة رسالة من الله تعالى لخلقه ، لا تكون بمدرسة يتخرج فيها الأنبيــــاء ، ولكن تكون بوحى من الله تعالى ، وتكليف منه سبحانه وتعــالى ، ســــواء أكان ذلك الوحى بخطاب أوحى به اليه ، أو بكلام الله تعالى من وراء حجــاب كما كان الشأن بالنسبة لموسى عليه السلام ، أو برسول من الملائكة ينقل عن الله تعالى لمن اصطفاه من خلقه نبيا أو رسولا ، فاعتبار أورشليم مدرســــة للنبوة ٠ كلام ليس دينيا وليس علميا ، ولا يتفق مع تاريخ الأنبياء المرسلين عليهم الصلاة والسلام ٠

٣٧ـــ واذا سأل سائل لماذا بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجزيرة العربية وفى الحجاز منها ؟ ولم يبعث فى أورشليم كما بعث داود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام ٠

ونقول فى الجواب عن ذلك : ان أكثــر الأنبيـــاء خصوصا أصـــحاب الرسالات كموسى وابراهيم ونوح واسماعيل واسحاق لم ينشـــئوا بأورشليم كما توهم ذلك الكاتب الفرنجى الذى لم يعرف معنى الرسالة والرسل ، ولم تكن الجزيرة العربية خالية ، بل هى كانت منبعث الأنبياء أصحاب الرسالات من

القديم ، والذين كانوا فى أورشليم ان استثنينا عيسى عليه السـلام وداود وسليمان لم يكونوا أصحاب كتب يعمل بها أقوامهم وانما كان يعمل أكثرهم بكتب نزلت على غيرهم ، وأكثرهم كان يعمل على اقامة توراة موسى ٠

أما الرسل الذين جاءوا فى الجزيرة العربية فقد كانوا أصحاب رسالات، ينفذونها بانفسهم ، ولم يكن عملهم مقصورا على بيان الرسالات لمن سبقوهم، ولقد بين الله وحده الرسالة الالهية التى اختلفت كتبها ، ولم يختلف معناها ، فذكرها فى قوله تعالى « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، يجتبى اليه من يشاء** » ٠

وأولئك هم أولو العزم من الرسل ، ولم ينشأ فى أورشليم منهم الا عيسى عليه السلام ، والآخرون كانوا تابعين من البلاد العربية ، أو مما حولها من أرض كنعان ، أو من أطراف الجزيرة كأرض سيناء ٠

فالبلاد العربية هى موطن الرسالات الأولى ، بها ابتـدأت الرسائل الالهية ، وبها ختمت ، فلم يكن غريبا أن يبعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاد ، وينبثق نوره فى الآفاق من أهل المدر ، وأهل الوبر فيها ٠

هذا اجمال نعرج اليه ببعض التفصيل :

ادريس عربى :

٢٧ ـــ ان الحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد النبوة فادريس عليه السلام الذى رفعه الله تعالى مكانا عليا ، والذى تقول الأخبار ، انه كان فى البطن الثالث لآدم أبى الخليقة ، قالوا انه كان عربيا وفى أرض العرب ، وليس لدينا دليل يجعلنا نؤمن بأنه البطن الثالث لآدم ، ولذلك نطرح القول فى ذلك غير مكذبين ولا مصدقين ، ولا نحسب أنه من أساطير الأولين ٠

وانما الذى نتمسك به هو أنه صديق من الأنبياء الذين وصفهم الله تعالى بذلك الوصف الكريم ٠ فقد قال تعالى : « **واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا** » ، فهو صديق ، وهو رفيع المكانة عند الله تعالى ، لأنه سبحانه رفعه مكانا عليا ٠

ويغلب على الظن أنه لم تكن نشأته بأورشليم ، لأن أورشليم انشـأها يعقوب بن اسحاق عليهما الصلاة وأتم التسليم ٠

ولقد جاء فى كتاب قصص الأنبياء لأبى الفداء أن ادريس فى سلسلة نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد جاء فيه ما نصه :

« ادريس عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه بالنبوة والصديقية ، وهو فى عمود نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وما دام فى عمود نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعد عربيا ، ولا يعد من أورشليم ، ولا شك أن الحكم فى هذه المسألة الموغلة فى التاريخ لا يعد حكما قاطعا ، ولكنه حكم راجح ، وأكثر مسائل التاريخ الحكم فيها ظنى لا قطعى ٠

نوح عربى :

٢٩ ــ تضاربت الروايات عن منشأ نوح عليه السلام أكان ببابل أم كان بالجزيرة العربية ، ولكن الثابت أنه من البلاد العربية ، وذكروا أن سفينته مرت فى مقابل الكعبة أربعين مرة ، ولقد أكد ابن كثير أنه دفن فى البلاد العربية ، فقد قال ابن كثير فى قبره : وأما قبره عليه السلام ، فروى ابن جرير والأزرق عن عبد الرحمن بن ساط مرسلا أن قبر نوح بالمسجد الحرام ، أى بالموضع الذى بنى فيه المسجد الحرام ٠

ويقول ابن كثير : « وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المؤرخين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم (أى فى القرن الثامن الهجرى) بكرك نوح ، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك »٠

والحق انا نميل الى أنه طوف بالآفاق ٠ فاذا كان منشؤه ببابل ، فهو قد آوى الى بلاد العرب حصن الديانات الأولى ، ومنابع النبوة ٠

هود نبى الله كان عربيا :

٣٠ ــ هود أقدم من ابراهيم عليه السلام ، كان من قوم عاد ، وكانوا عربا يسكنون بالأحقاف ، وكثيرا ما يكون يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ٠

ويذكر ابن كثير أنه يقال ان هودا أول من تكلم بالعربية ، ويقول ابن كثير : « وزعم وهب بن منبه أن أباه (أى أبا هود) أول من تكلم بها ،

وقال غيره أول من تكلم بها نوح عليه السلام ، ويقال للعرب الذين كانوا قبل اسماعيل العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة منهم عاد ، وثمـــود ، وجرهم وغيرهم ، وأما ولد اسماعيل ، فيسمون العرب المستعربة .

وقد قالوا ان هودا كان أول نبى بعد نوح عليه السلام ، وربما يومىء الى ما حكاه الله تعالى فى خطابه لقومه : «**واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ، قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين** » .

ونرى من هذا النص انه يومىء الى أن هودا جاء من بعد نوح ، وأن قومه كانوا خلفاء من بعد نوح ثم يؤتى بالاشارة من جهة أخرى الى أن قوم نوح كانوا فى أرض العرب ، كما كان خلفاؤهم ، والله أعلم .

وان عادا كانوا من أقوى قبائل العرب منعة ، وأقواها شكيمة ، ولكن كانوا أشدها غرورا ، كما قال الله تعـــالى عنهم : « **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق، وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون** » .

وهكذا نرى هودا عليه السلام يجادل قومه بالحسنى أو التى هى أحسن، وهم يجادلونه بالعنف أو الطغيان حتى أهلكهم الله تعالى بريح صرصر عاتية .

صالح عربى :

٣١ ـــ صالح عليه السلام هو نبى ثمود ، وكانوا عربا من العـــاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك ، وقد مر بديار رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ذاهب الى تبوك فى الغزوة التى قد غزاها .

كان يدعوهم الى التوحيد ، وكانت بينته ناقة لا يمسوها بسوء ، والا كانوا خاسرين كما قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح وقومه : « **والى ثمـــود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** » .

ولقد كان قوم صالح من بعد عاد وقوم هود ، اذ كانوا خلفاءهم ، وكانوا أقوى وأكثر عددا كما قال تعالى : « **واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** » ٠

ولكن ثمود بعدت عن أمر ربها ، واعتدوا على صالح ، فنزل عليهم عذاب واصب وأبادهم ، ويروى أن المسلمين رأوا البئر التى كانت تشرب منها ، وذلك فى غزوة تبوك ، فقد روى عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها وملئوا القدور ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشربمنها الناقة ٠

ابراهيم أبو العرب المستعربة واسماعيل :

٢٣ — لقد ولد ابراهيم فى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل ٠ وقيل ان ابراهيم ولد بغوطة دمشق فى قرية يقال لها برزة فى جبل يقال له جبل قايسون ، ولكن ابن عساكر راوى الخبر يقول « والصحيح أنه ولد ببابل ٠

ولكن ابراهيم لم يستقر فى بابل ، بل كان يتنقل فى الأقاليم ، فارتحل الى كعنان حيث أرض فلسطين ثم ارتحل الى حران ، والجزيرة ، والشام ٠

وكانت عبادة الكواكب سائدة فى البلاد التى نزل بها ، وكان هو يدعو الى عبادة الله تعالى الواحد القهار ، ولقد حطم الأوثان وجعلها جذاذا ، وقد حاول المشركون أن يحرقوه بالنار لما فعل بآلهتهم ، فألقوه فى النار ، وهو لا يعتمد الا على الله تعالى ، وقال حسبنا الله ونعم الوكيل ، فاستجاب الله لدعائه ، وجعل النار بردا وسلاما عليه ، فقال سبحانه :« **وقلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** » أرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا ، فهم أرادوا الأذى لابراهيم ، وأراد الله الخير له ، فكان كيدهم شرا ، وأراد احباط ما صنعوا وكانوا الأخسرين ، لأنه لم يتم لهم مأرب ، وحقق لابراهيم الغاية ٠

ولم يجد ابراهيم مهاجرا الا فى بلاد العرب ، هاجر اليه بعد أن طوف ما طوف ، اذ أن أم ولده اسماعيل هاجرت بولدها الى مكة فرارا به ، وطمأنينه عليه ، وكان معها ابراهيم ، أو هو الذى أخذها اليه ٠

هربت بابنها اسماعيل الى موضع مكة ، ومعها أبوه خليل الله ٠

وقد أصابها العطش ، فأخذت تسعى الى الماء بين الصفا والمروة حتى رأت عينا ثرة ، فملأت سقاءها وشربت هى وولدها ٠

ولقـــد شب اسماعيل عن الطوق ، وتعلم العربية ، ورزقه الله هو وأمه رزقا حسنا ، كان يأتيهما من غير حساب ، وكان الخليل يزورهم الوقت بعـد الآخر ٠

بناء الكعبة :

٣٣ — وفى احدى الزورات التقى الشاب بأبيه ، فصنع كل منهما ما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد ، على شوق بعد طول غيـاب ، فقال الأب لولده الشاب : يا اسماعيل ان الله تعالى أمرنى بأمر ٠

قال الشاب : اصنع ما أمرك به ربك ٠

قال الشيخ : وتعيننى عليه ؟

قال اسماعيل : وأعينك عليه ٠

قال الشيخ لابنه : فان الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتا ، وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها ٠

فعندئذ رفعا القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتى بالحجـــارة ، وابراهيم يبنى ، حتى اذا ارتفع البناء جاء بالحجر الأسود فوضعه ، ليكون علامة ابتداء الطواف وانتهائه فى مراته ٠

وهذا ما بينه الله تعالى فى قوله تعالى تعالت كلماته : « **واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنـــا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينـا انك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رســولا منهم يتلو عليهم اياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم** » ٠

استقر بابراهيم المطاف بأن بنى ذلك البيت أول بيت وضع للنـــاس ،

فشرفت البلاد العربية به ، وشرفت بابراهيم الذى جعلها تختار بناءه بأمـر الله تعـــالى ٠

فابراهيم اذا كان مولودا ببابل ، وان بيته أول بيت لله تعالى بناه بالبلاد العربية ، فليست البـــــلاد شريفة به وبابنه فقط ، بل هى شريفة بأن ابنـه أبو العربية المستعربة ٠

واذا كان ابراهيم أبا الأنبياء حقا وصدقا ، فانه لم يبن بيتا بأمر الله تعالى الا فى البلاد العربية ، ولم يبن ذلك البيت بكنعان ولا ببابل ، ولا بغيرهما ، فكانت الجزيرة العربية أرض النبوة الأولى حقا وصدقا ، ولا غـــرابة فى أن يكون مبعث محمد عليه الصلاة والسلام فيها ، انما تكون الغرابة ان خرج نبته الطاهر من غيرها ٠

شعيب ومدين :

٣١ ـــ جاء شعيب بعد ابراهيم وبعد لوط ، وقيل انه كان بعد يوسف عليهم السلام، ومن المؤكد أنه جاء بعد لوط لأنه جعل من انذاره لقومه أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط ، فقد قال الله تعالى عنه : « **ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد** » ٠

وان هذا النص القرآنى السامى يدل على أمرين :

أولهما : أن مبعث شعيب عليه السلام كان بعد مبعث هود وصالح ولوط فقد جعل فى بيانه ما حدث لأقوام هؤلاء من عذاب دنيوى ماحق كان موضـــع انذار لهم ٠

ثانيهما : أنه يدل على أن قوم لوط كانوا فى العرب ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : « **وما قوم لوط منكم ببعيد** » فهم كانوا على مقربة منهم ، فهم كانوا مثلهم فى أطراف أرض العرب من ناحية الشام ، اذ قد اختار لوط محلة غير المحلة التى كان بها عمه ابراهيم عليهم جميعا الصـــلاة والســـلام ، فهم من صـــفوة خلق الله الذين اصطفاهم على عبـــاده ، وكانوا رســــــلا مبشرين ومنذرين ، وتركوا رسالات خالدة ، خلدها القرآن الكريم ٠

ولا نترك الكلام فى شعيب من غير أن نذكر كلمتين :

احداهما : أنه بعث لمدين ، وأهل مدين هم أهل الأيكة ، اذ كانوا يعبدون شجرة عظيمة هى الأيكة وهم أصحاب يوم الظلة ، وقد ذكر علماء تاريخ الأنبياء أن يوم الظلة يوم فيه حر شديد أصابهم ، وأسكن الله تعالى هبوب الهواء عليهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ظل ولا ماء ، ولا دخول فى الأسراب فهربوا من محنتهم الى البرية ، فأظلتهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ، ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا أرسلها الله تعالى عليهم ترميهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح ، وخرت الأشباح ٠

هذا ما ذكره ابن كثير فى معنى الظلة والصيحة التى أصيب بها قوم شعيب ، وقد ذكر سبحانه وتعالى الرجفة والصيحة ، فقد قال سبحانه وتعالى فى قصتهم فى سورة الأعراف « **فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين** »، وجاء فى سورة هود أنه « **أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** » ٠

وهى عقوبات متتالية أرهقتهم الذلة ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، حتى فروا من أماكنهم ، فجاءتهم الغمامة فرجوا أن يستظلوا ، أو أن يجدوا فيها الرحمة ، فكانت الصيحة العنيفة وكانت الرجفة التى أصابتهم ٠

وقد قال فى ذلك ابن كثير : جمع الله تعالى عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات ، وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات . سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عنيفة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات ٠

الكلمة الثانية أن أهل مدين امتازوا من بين عبدة الأوثان بأنهم جمعوا مع عبادة الشجرة فساد الأخلاق وسوء المعاملات بعضهم مع بعض ، كانوا يطففون فى الكيل والميزان ، وكانوا قطاع طريق ، يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، يأخذون الفائدة الزائدة ، ويدفعون الناقص ، فان استدانوا نقصوا من الدين ، فكانوا بذلك أشد فسادا ، ولذلك كان نهى نبيهم لهم عن الفساد ، فقال لهم : ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فلا يفسد الجماعات الا التعامل الفاسد ، وهو مبيد جمعها ، لقد كانوا قليلا ، فكثرهم الله ، ولكنهم أضعفوا نخوتهم ، وأماتوا عزتهم ، فانصرفوا الى الفساد ٠

ولقد كان أوضح ما دعاهم اليه شعيب عليه السلام هو الوفاء والمعاملة الطيبة ، والتعاون على البر والوفاء بالحقوق ، بدل التعاون على الاثم .

وكان شعيب فصيح العبارة قوى البيان والتأثير ، حتى لقد روى فى بعض الآثار أنه خطيب الأنبياء ، ومدين من بلاد العرب على أطراف الشام ، جاء فى قصص الأنبياء لأبى الفداء فى أرض مدين ما نصه :

« كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم التى هى قريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة ، ومدين قبيلة عرفت بهم ، وهم من بنى مدين ابن مديان » (١) .

موسى كلف الرسالة فى أرض العرب

٢٣ — لقد نشأ موسى بمصر حيث ولد بها ، وتربى فى دار فرعون ، وترعرع فى هذا ، وكان فى رعاية الله ، لا فى رعاية فرعون ، اذ كان يتوجس منه خيفة ، ولكن صنعه الله تعالى على عينه ، فحماه وأعطاه سبحانه وتعالى النبوة ، فكان كليم الله تعالى .

ولكنه لم تبلغ اليه رسالة ربه فى أرض مصر منبته ، ومرباه ، بل كلمه ربه من وراء الشجرة خارج مصر حيث البلاد العربية .

ذلك أن موسى عندما قتل من المصريين رجلا ، اعتدى على آخر من بنى اسرائيل قوم موسى ، وحرض على أن يقتل آخر لولا أنه أدرك أن هذه فتنة ، وقال لمن حرضه من قومه « **انك لغوى مبين** » ، ولما أخبر أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه خرج من مصر ، واتجه تلقاء مدين وهو يحس بالحاجة الى الغوث والمعونة ، وهو يقول « **رب انى لما أنزلت الى من خير فقير** » ، وهو يقول أيضا راجيا الهداية من ربه يقول : « **عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل** » .

« **حتى اذا ورد ماء مدين ، وجد أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان**» : أىتكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم غيرهما،وكانتا لاتسقيان

(١) قصص الأنبياء ص ٢٧٥ جـ ١

غنمهما الا من فضل الماء الذى يبقى بعد سقى الرجال ، وانهم كانوا بعـــد سقيهم يضعون صخرة على العين ، فلا تتمكن الفتاتان الا من سقى غنمهما من فضل الرجال ، فقال موسى الفقير الى رحمة الله · للفتاتين الضعيفتين فى بدنهما كما هو ضعيف النفس لفقره ، والضعيف يحنـــو على الضـــعيف **« ما خطبكما » قالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير »** فجاء موسى الى الصخرة فرفعها بعد أن صدر الرعاء وسقى لهما ·

بعد ذلك قصت الفتاتان على أبيهما قصة القوى الأمين ، فاســـتأجره ثمانى حجج أو عشرا ، حتى انقضت المدة ، وهى عشر سنين لأنه قضى الأجلين، أى أتمها عشرا ·

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن ياموسى انه أنا الله رب العالمين » ·

ومدين كما جاء فى قصص الأنبياء لأبى الفداء ، هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبـــل زمن موسى عليه السلام ·

فمدين كما ترى من بلاد العرب ، هى التى جاءت فيها الرسالة · بعد أن أقام موسى عليه السلام فيها عشر سنين ، بعد فيها عن بيئة فرعون فصـــفت نفســـه ·

وقد يقال ان النص يفيد أنه كان بجانب الطور أى فى أرض سيناء ، ونحن نقول ان ذلك حق ، ولكن بعد أن صفت نفسه من فرعون وآثاره وطغيانه ، وتربيته قومه على الذلة والخنوع ، حتى كان فى مصر الرخـــاء والخصب والذلة مجتمعات ·

وكيف يوفق بين كون مدين ببلاد العرب على أطراف الشـــام · وكون موسى كلف الرسالة بجانب الطور · يجيب عن ذلك السؤال أبو الفـــداء فى قصص الأنبياء : « وسار بأهله » أى من عند صهره ذاهبا فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق الى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختف ، فلما سار بأهله ، ومعهم ولدان وغنم قد استفادها مدة اقامته بمدين ، ومهما يكن من الأمر ، فان الله اصطفى موسى كليما له ورسولا الى فرعون ،

وشعيب استنقذه من أرض مصر · مدة عشر سنين ، بعد فيها عن جو فرعون المعتم، ليتلقى أمر ربه بتبليغ رسالته الى «**فرعون الذى طغى أن رآه استغنى**»·

أرض العرب مأوى الفارين بدينهم

٣٣ ــ كانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فروا من الاضطهاد ، فاتخذوها مستقرا ومقاما فهى أرض النبيين أصحاب الرسالات العامة ، وهى أيضا مأوى الديانات التى نبتت فى غير أرض العرب عندما اضطهدوا فى ديارهم ، ونزل بهم البلاء من التتار الذين جاسوا خلال ديار بنى اسرائيل ومزقوهم كل ممزق ، وهم أولو البأس الذين بعثهم الله تعالى ، ثم من بعد ذلك الرومان الذين ضربوا عليهم الذلة والمسكنة ، وكانوا لا يعترفون لهم بحقوق الرومان ، ولم يدخلوهم فى الجنسية الرومانية مع أنهم فى حكمهم وتحت سلطانهم ، ورعاياهم ، ولكنهم الرعايا الأدنون ، وهم من فوقهم ، ولذلك لم يجد كثيرون منهم مأوى يأوون اليه الا البلاد العربية التى كانت حصن الذين يفرون بدينهم ، ولا يجدون ملجأ الا أرض النبيين الأولين التى لم يتغلب عليها ·

وقد وجدوا الملاذ ابتداء فى أرض اليمن فاستظلوا بظل قوم تبع ، ومع أنهم كانوا وثنيين وجدوا فى حكمهم ظلا ظليلا ، استظلوا به ، وأخذوا حريتهم فيه ، وقد اعتنق اليهودية بعض اليمنيين ، ولكن اليهود لا يعتبرون اليهودية دينا فيه اصلاح البشر وصلاحه ، ولكنهم يعتبرونه جنسية ، ويقولون مقالهم المزعوم الفاسد ، نحن أبناء الله وأحباؤه ، ولذلك لم يضموا اليمنيين الذين دخلوا فى اليهودية اليهم ، ولم يضعوهم فى جماعتهم ويسمونهم السامرة ، ولقد عاشروا الأوس والخزرج فى موطنهم الأصلى باليمن ·

ولما هاجر أولئك الوثنيون الى يثرب حيث الجناب الخصيب ، وحيث المنجع المريع ، هاجر اليهود أيضا ، الى ما حول يثرب فهاجر بنو النضير وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وخيبر ·

ولم يندمجوا فى الشعب العربى ، بل اتخذوا حصونا تحتويهم حينما أقاموا ، وانتجعوا الخصيب من الأرض ، فكان لهم النخيل والتمر فى يثرب ، امتلكه الذين أقاموا فيها من بنى قينقاع والنضير ، وقريظة ، وامتلك أهل خيبر مثلها ·

وكانوا كشأنهم أثرين يحبون أنفسهم ، ولا يتعاونون مع أهل البلاد ، فكانوا لا يتعاملون مع العرب ، وان تعاملوا معهم يبخسونهم ، وخانوهم

عهودهم ، كما قال تعالى : **« ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، بلى من أوفى بعهده واتقى ، فان الله يحب المتقين »** ٠

فالعرب الذين آووهم وأنزلوهم أرضهم ، أبوا هم عليهم المعاملة الطيبة ، ونظروا اليهم على أنهم دونهم وأنهم أميون ، والأمى يؤكل حقـــــه فى زعمهم الباطل ، ومنطقهم الأثيم ، وجانبوهم ، وتحيزوا فى حيز دونهم ، وعاشـــوا بجوارهم يأخذون ولا يعطون ٠

النصرانية :

٣٤ ــ كما آوت اليهودية الى أرض الحرية أرض العـــــرب ، آوت النصرانية اليها عندما كانت مضطهده من الرومان ، وكان اليهود يغرونهم بهم كما روى عن محاولتهم اغراء الرومان بالسيد المسيح عليه السلام نفسه ٠

وقد لجأت النصرانية الى أرض نجران ، ويظن أنهم كانوا من النصارى الذين فروا من حكم قيـاصرة الذين اضطهدوهم ، ويظهـــــر أنهم كانوا فى ابتداء أمرهم موحدين حتى غشيت الوثنية تلك الديانة السماوية بالتثليث وادعاء الألوهية لعيسى ابن مريم ، وأمه ، والروح القدس ٠

فقد جاء فى كتاب الاكتفاء ما نصه : كان بنجران بقـــايا من أهل دين عيسى ابن مريم على الانجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله التامر ، وكان موضع أصل ذلك الدين بنجران ، وهى بأوسط العرب فى ذلك الزمان ٠

وأن استقامة أهل نجران على أصل دين المسيح عليه السلام كانت قائمة فيهم ، حتى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ذكرهم القرآن الكريم بالثناء عليهم فقال تبارك وتعالى :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهـــود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصـــارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرســـول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنـــا مع الشاهدين ، ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » ٠

رجلا صالحا :

وقد قالوا فى أخبار نجران أنه مع مكانة عبد الله ، كان رجلا صالحا من نصارى الشام ، ويظهر من سياق الأخبار أنه كان ممن فر بدينه هاربا من أرض الرومان ، اما لاضطهادهم النصارى ، واما لأنه رأى بعد زوال الاضطهاد أن الرومان وجهوها وجهة وثنية ، وانحرفوا بها عن التوحيد الذى هو لبها وأصلها ٠

وذلك الرجل اسمه « فيميون » كان رجلا زاهدا صالحا مجتهدا عاملا لا يأكل الا من كسب يده ، كان حريصا على أن يعيش مستخفيا ، لا يريد أن يعرفه الناس ، فما ان يعرف فى قرية ، حتى يخرج منها الى غيرها ، ولكن فضله كان يكشفه ٠

ولعل السر فى استخفائه أنه كان مضطهدا ، فأراد ألا يعرف ، وأن يذهب الى أماكن متفرقة يحتقب عقيدته الخالصة ، حتى لا يكون اضطهاد يقع به ٠

ولقد تبعه فى ذهوبه وجيئته شاب اسمه صالح ، اتبعه اتباع المريد للشيخ فكان ينزل معه حيث نزل ، ويرحل من حيث ارتحل ٠

وبينما هما يسيران اختطفتهما سيارة ، واسترقهما من فيها ، وباعوهما ، وقد رأى من أتباع فيميون فى عبده المزعوم خيرا كثيرا ، اذ كان يقوم من الليل ويصلى ، غير آبه لرق الجسد ، ما كانت له حرية العبادة ٠

وكان أهل نجران يعبدون نخلة ، كما كان يعبد من قبل أهل مدين أيكة ، وقد أخذ ذلك الزاهد الطيب يدعو لله وحده ، ويسيطر بدينه على من استرق بدنه ٠

قال لهم : انما أنتم فى باطل ، ان هذه النخلة لا تضر ولا تنفع ، ولو دعوت عليها الله الذى أعبده وحده لا شريك له لأهلكها ٠

قال الرجل فافعل ، فانك ان فعلت دخلنا فى دينك ، وتركنا ما نحن عليه ، فقام فيميون وتطهر وصلى ، ثم دعا الله تعالى عليها ، فأرسل الله تعالى عليها ريحا فاقتلعتها فاتبعه عند ذلك الكثيرون ، وذاعت حاله ودعاؤه ، وما كان للشجرة بعد الدعاء ٠

وبذلك دخلت نجران فى دين (فيميون) فحملهم على الشريعة الحق من دين عيسى عليه السلام ٠

ولا شك أن هذا الخبر لا يخلو من الأساطير ، وخصوصا أن فيه بعض

الأوهام ، وقد ضربنا عن ذكرها صفحا ، واكتفينا منها بما يقبل التصـــديق . ولا يوجد ما يدل على الكذب ، أو يوهم بأنه غير معقول فى ذاته ٠

وانه مهما يكن فيه من مبالغات لا ينفى العقل وجودها فانه لا شــك أن النصرانية دخلت نجران ، وفى أول دخولها كانت مسيحية المسيح ، لا النصرانية التى دخلها الانحراف من بعدها ، واذا كانت قد غشيتها غواشى التحريف فى أهل نجران من بعـــد ، فان بقية من الاستقامة النفسية كانت فيهم عندما التقوا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولقد كان مع أهل نجران من العرب من دخل النصرانية غيرهم كنصارى بنى تغلب الذين كانوا مع المسلمين ، واستمروا حتى عصر الراشـــدين ، ومـــع انتشــــار النصرانية فى أهـــل نجـــران بدعاة المسيحيين الأصليين كان ملكها باقيا على وثنيته ، وقد رأى الشعب يخرج منه الدعاة الذين يدعون الى توحيد المسيحية الأولى مخلصين ، فشـــدد فى ايذاء هؤلاء الدعاة ونكل بهم ، وأوجد فيهم صــنوفا من العـذاب ابتدعها ، ولم يسبق بها ٠

أصحاب الأخدود :

٣٠ ـــ وان أهل نجران أخلصوا فى المسيحية وقبلوا فى سبيلها العذاب الشديد ، ورضوا به عن أن يغيروا دينهم غير مطمئنين الى عقيدة سواه ، وابتلوا فى ذلك ، فأبلوا بلاء حسنا ، وصبروا ٠

وذلك أن ذا نواس سار اليهم ، وأراد حملهم على اليهـــودية ، أو أن يعودوا الى الوثنية ، فأبى أهل نجران أن يخالفوا ، وأن يرتضوا بالعذاب بدل أن يغيروا ويبدلوا فحفر لهم أخدودا ، أى شق لها فى الأرض شقا طويلا امتـد ، وألقى بهم فى النار التى آثارها فى هذا الأخدود، وحرقهم ، فما غيروا وما بدلوا، حتى قالوا انه ألقى فيها نحو عشرين ألفا أبادهم ، وهؤلاء هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم فقال تعالى : « **والسماء ذات البروج واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود، النارذات الوقود ، اذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم الا أن يامنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شىء شهيد ، ان الذين فتنـــوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عــــذاب جهنم ولهم عـــذاب الحـــريق** » وهكذا نرى أن الذين عذبوا ذلك العذاب سماهم القرآن الكريم مؤمنين ، مما يدل على سلامة اعتقادهم وحسن ايمانهم ، وأنهم يؤمنون بالعزيز الحميد لا يؤمنون بشىء سواه فلا تثليث ولا شرك ٠ واذا كان هؤلاء هم نصارى نجران ، فهو دليل

على أنه لم يصل اليهم التحريف النصرانى ، أو لم يكن قد دخل التحريف بعد الى ذلك الدين المتين ·

وكأنه قد نزل بأولئك المؤمنين الصادقين ما نزل بهم من القياصرة قبل قسطنطين أمثال (قلديانوس ومن قبله نيرون وغيرهما ممن أذاقوا النصارى الخسف والهوان) ·

اختصاص الجزيرة العربية

٣٦ — ولماذا اختصت الجزيرة العربية بالرسالات الأولى ، رسالة ادريس ، ونوح وهود ، وصالح ، وكان لابراهيم الفضل فى انشاء البيت ، وكان شعيب قد بعث فى مدين بها ، وانبعثت نور رسالة موسى عليه السلام منها ·

ثم لماذا كانت مهجر اليهود عندما نزل بهم الأذى ، ونزل بهم سوء العذاب ولماذا وجد المسيحيون الأول فيها مأوى ·

ونجيب عن هذه الأسئلة بأمور ثلاثة :

أولها : أن البلاد العربية ليست بلادا متوحشة ، كما يتوهم الذين يحكمون بغير بينات ، أو الذين يرمون الكلام على عواهنة ، أو الذين يتجنبون على الحقائق مغرضين غير منصفين ، انما هى بلاد فيها ذكاء ونفوس صافية كصفاء سمائها ، وقوة الاستجابة فيها متكافئة مع قوة المقاومة · وليس لأحد أن يدعى أن بلادا فى العصور القديمة كانت أكثر منها تحضرا ، فأوربا كانت فى غربها تعيش كالوحوش،فالوا ندال أوسكسون وغيرهم لم تصل اليهاحضارات قبل أن تصل المسيحية ، وما وصلت اليهم الا بعد أن شاهت ، وانحرفت عن أصلها ، بينما كان الشرق فى القديم مهد الحضارات ، ومهد الديانات ، ومهد الرسل واختصت الجزيرة العربية بأنها كانت أصفى الشرق ، ففيها انبعثت رسالات الله تعالى ، ومن حولها كأرض كنعان وأرض بابل ، وغيرهما مما يحوطها ، أو من يدخل فى دائرتها كاليمن والبحرين وما وراءهما ·

الأمر الثانى : أن الجزيرة العربية مع ذكاء أهلها واستقامة نفوسهم · وان انحرفت أحيانا عقولهم معتصم حصين ، فبيداؤها ، وقراها ، وبرها ، فيها حصون لمنع الاعتداء الوحشى من الأمم التى اشتدت اغارتها فى الماضى ، فاذا كان النبيون قد قووموا فى اقناعهم ابتداء ، فانهم اذا كانت الديانة فى

حصنين منيعين ، حصن من الأرض المانعة لكل أجنبى من أن يقتطعها ، وحصن من النفوس التى اذا آمنت قاومت واعتزت بايمانها ، وان استقامت النفوس وقوتها هى التى بها تتميز أخلاق الأمم ، فان العقول اذا انحرفت تقوم وتستقيم، والقلوب اذا غشيتها غاشيات الضلال فى نفوس ملتوية غير مستقيمة الحق لا يصل اليها الا من رحم الله ٠

واعتبر بحال العرب بين دولتين قويتين من الدول التى صاقبتهما فانهما لم يتجاوزا فى سلطانهما أطرافها ، ولم تتمكن احداهما أن تنتقل من الأطراف الى داخلها فانهما عندئذ تجدان قلوبا صلدة قواها ضوء الشمس الساطع ، وقوة الحياة فيها ٠ والتعرض لأوابد الحيوان ليلا ونهارا ٠

الأمر الثالث : قوة الشكيمة وقوة الخلق العربى ، وما امتاز به العربى من جود ، وسماحة ، وحسن تأت اذا وجد القيادة الحكيمة ، فان العربى أنف الا اذا رأى القائد الحكيم الذى يقوده ، ولعل أحسن تصوير للنفس العربية ما قاله الامام الحكيم عمر بن الخطاب عندما تولى امرة المؤمنين ، فقد قال رضى الله عنه « مثل العرب كمثل جمل أنف فليعلم قائده أين يقوده » ٠

وبذلك يلتقى فى العرب عناصر ثلاثة تجعلهم فى موطن الدعاة الى الحق فى المكان الأول ٠

العنصر الأول : قوة فى النفس تقاوم ، ولا تستسلم ، واعتبر ذلك فى النصارى المؤمنين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، ولما حاول تبع أن يغيرهم ووضعهم فى الأخدود ، ما نال مأربا ، ولا وصل الى مبتغى ٠

العنصر الثانى : صفاء نفسى وقوة مدارك ، احتفظوا بها حتى فى جاهليتهم ، وصدق النفس ، والصدق فى القول ، والعمل الذى يوجهون اليه ٠

العنصر الثالث : الأنفة وألا يطيعوا فى ذلة ، بل يتبعون فى هداية ورشد مختارين ، غير مجبرين ، ولقد جاءت بعثة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم ، فبدت هذه السجايا ، وشقت طريق النور فى وسط الظلمات ٠

الله أعلم حيث يجعل رسالته

٣٧ ـــ نعم ـ الله وحده هو الذى يختار مكان الرسالة ، والذين يحملون الرسالة، والذين ينزل عليهم الوحى، ويبلغ رسالة الله تعالى الى خلقه

فاختار الله تعالى أرض العرب ، لأنها أرض الرسالات العامة التى جاء بها النبيون الذين أرسلوا مبشرين ومنذرين ، وأوتوا الكتاب الالهى بقوة ·

وفيها العبر وفيها المثلاث ، وفيها الآثار التى تدعو الى الاعتبار ، وهى لا مطمع فيها لتحكم أو تسيطر ، وهى التى لم تغلب عليهم قوى الشر ، وان كانت فيهم عيوب ، فهى التى تتعلق بالعلم ، ولا تتعلق بالنفس ، وهى التى لم يجز فيها الذل الذى يفرضه الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعــزة أهلهاأذلة كما قال الله تعالى حكاية عن بلقيس : « **ان الملوك اذا دخـــلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون** » ·

ولقد كانت نفوس أولئك الذين لم يتمرسوا بظلم الملك هى التى حملت رسالة العزة الى بقاع الأرض ، واذا كانوا قد أبوا حكم الملوك فى جاهليتهم ، فقد قوضوا عروشهم بعد اسلامهم ، هم أعداء التحكم الفردى ، وهم الذين قوضوا قصورهم انتهاء ، بعد أن أشربوا حب الاسلام ، وحملوا لواءه شرقا وغـــربا ·

وانه لو كان لنا اختيار فى أرض غير العرب ، لأعيانا الاختيار ، لأنهـا أرض العزة ، فلا ذلة فيها ، وأرض الحرية ، وهى أرض الشجاعة ، ولا ينقل دين العزة والاقدام ، والعمل الصالح الا الأحرار الذين يتأبون الدنيـــة ، ويرضون بالذل ، ويتحملون الشدائد ، وليس ذلك الا فى العـــرب ، وأرض العرب ، ولذلك ما ان انطلقوا بالاسلام الا خرجوا من ديارهم يدعون الى الحق، ويهدون اليه من غير مواناة ، ولا فرار ، ولا يأس ، ولا يتركون البـــأس الى الرخاء ، لأنهم تحملوا آلام الصحراء ·

وترى لو تصورنا أرضا للنبوة فى غير أرض العرب ، أتكون فى أرض القياصرة حيث تطامن العامة لحكم القيصر ، وديثوا بالصغار له نفوسهم ، حتى حسبوه من طينة غير طينتهم ، وحيث يختلفون فى كل شىء ، وحيث لا يحكم بينهم الا الهوى ، وحيث العنصرية الجاثمة على الرءوس ، وحيث رق النفوس لهوى الحكام ، والخروج على كل منطق للمساواة الانسانية ·

واذا لم يكن الرومان ، أفتكون أرض الفرس هى أرض النبوة ، وكسراهم فرض عليهم المذلة والهوان ، وتوزعتهم سيادة الأشراف ، حتى اذا بعدوا عن ذل الملك ، وجدوا ذل الحاشية ، ووجدوا أنهم يتنقلون فى الذل والهوان ، وقد لانت نفوسهم ، وخنعوا وهانوا أمام الملوك ، وهل هؤلاء فى ذلتهم هم الذين

يحملون دعوة الاسلام الى العزة وهل هم فى رقهم النفسى هم الذين يدعـون الى الكرامة الانسانية التى سجلها الله تعالى في قوله تعالت كلماته : « **ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » ٠

لا يمكن أن تكون دعوة الحق ممن تمرسوا بالظلم ، حتى أمات نخوتهم ، أو ممن ألفـوا الخضوع ، حتى لا يستطيعوا التفصى عنه ، والخروج منه ، ولا ممن قنعوا بالحياة الدون ، ورضوا بالهون ، انما لا يدعو الى العزة ولا الى الحرية الا الأحرار ٠

وهل تتصور أن تكون أرض الفراعنة هى التى تدعو الى اسقاط حـكم الفراعنة ، واعلان أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وما انتقلوا من حكم الفراعنة الا لمن هو أطغى ، وأشد بغيا ، وأكثر عتوا وفسادا ، فهم يسارعون فى الذل والهوان ، وينتقلون فيه من قطاع الى قطاع ، ومن جانب الى جانب ، لا يتململون ، ولا يضجون ولا يثورون لقهـر قاهر ، أو ظلم ظالم ، بل انهم يألفون الخضوع حتى يحسب الدارس لهم أنهم يستطيبونه ، ويستمرئونه ، ويعانون من يذلهم وينغضون رءوسهم على من يحاول أن يبث فيهم روح العزة والكـرامة ، بل يحسب أنهم يجـدون العـزة عبئا لا يمكن احتمـاله ، وحملا لا يمكن حمله ، ووزرا يرزحون تحته ٠

قال لهم فرعون أنا ربكم الأعلى فصدقوه ، وقـال لهم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجـرى من تحتى ، فلم يكذبوه ، وقال لهم ، أليس لكم من اله غيرى ، فقالوا أنت الاله ٠

لقد تضعضعت نفوسهم ، حتى ألفوا الذلة فصعبت عليهم ، وقبلوا أن يكونوا قوما بورا ٠

وان الذلة كانت تجرى فى دمائهم ، حتى انه اذا جاءهم من يريد لهم العزة استنكروا ما يدعو اليه ، وان صدقوه جعلوه معبودا أو كالمعبـود ، وأطاعوه فى الخير والشر ، وتصوروا فيه ما ألفه آباؤهم من تقديس لقوله ، واطاعة لعمله ، يذوقون الجوع والعرى ، ويرضون ، لأنهم كانوا مع فرعون ، فلا يتصورون الطاعة ، الا لمن يشبهه ٠

ان موسى عليه السلام عندما بعثه الله تعالى بعثه فى غير مصر ، وفى غير أرض فرعون ، ولما دعا فرعون بدعوة الحق لم يجـد مستجيبا الا من السحرة ، وعدد من الشعب ليس بالكثير ، فما آمن من قوم فرعون الا قليل ،

وخرج ببنى اسرائيل ناجيا بهم ، وأطبق البحر على فرعون ، وخرج الى سيناء ليدعو بدعاية الحق . ولكنهم لم يصلحوا لتمرسهم بما كان عليه المصريون ، حتى انهم أرادوا أن يتخذوا من عجل صنعوه لأنفسهم الها ، كما كان المصريون يعبدون العجل ، وهانت نفوسهم كشأن المصريين ، حتى ان موسى عندما طلب منهم أن يدخلوا الأرض التى كتب الله تعالى لهم أن يدخلوها ، غلبت عليهم شقوتهم ، وغلب عليهم الذل الذى أذاقهم فرعون كئوسه ٠

واقرأ ما حكاه القرآن الكريم عنهم ، فقد قال موسى : « **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا يا موسى ، ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا فانا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه ، فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ههنا قاعدون ، قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين** » ٠

كان ذلك من تأثير اذلال فرعون ، فكتب الله عليهم التيه أربعين سنة ، حتى يتربوا على البأس والقوة ، ويجىء جيل يغالب ، ولو تركنا الشرق الأدنى الى الهند لوجدنا الطبقات قد قتلت فيها النخوة ، ودفعت شعبها الى الاستسلام للذل ، اذن فليس لدعوة الحق والعزة والحرية الا العرب ٠

مكة المكرمة

٣٨ ـــ اذا كانت الجزيرة العربية موطن النبوة الأولى ، وقد ثبت أن خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام آوى الى بلاد العـــرب بعد تطوافه بين العـــراق وأرض كنعان ، وبنى بيت الله تعـــالى ، وقـــد وجد فى الدعوة الى الوحدانية فيها مستجيبا ، وأنشأ فيها بيت الله الذى قال الله تعـــالى فيه : **« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا »** ٠

كانت مكة المدينة الممتازة بين العرب ، وقد تضافرت أسباب كثيرة فى العرب جعلتها مناط عزتهم ، وملتقى اجتماعهم ، وجماع لغتهم ، وكان من أهم هذه الأسباب ، وأبرزها :

(أ) أن أبا الأنبياء هو الذى ابتدأ بانشائها ، وكانت من بعده مدينـــة العرب العظيمة وقطبها الذى تدور حوله قواها ، وهى وسكانها أولاد ابراهيم ، هو ذوو المكانة العظمى عند العرب استجابة لدعاء ابراهيم اذ قال عليـــه السلام ، كما حكى الله سبحانه وتعالى : **« ربنا انى اسكنت من ذريتى بـــواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ، ان ربى لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ، ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء »** ٠

فكانت الاستجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام ، أن كان العرب يفـــدون اليها من كل فج عميق ، من وقت أن أنشأ ابراهيم البيت الحرام ، وصار مثابة للناس وأمنا ، وملتقى العرب أجمعين ، مع اختلاف قبائلهم ، وتباين منازعهم ٠

(ب) وكان سكان مكة المكرمة هم قريشا الذين كانوا أعلى العرب فكرا ان كان العلو بالفكر ، وأشرفهم نسبا ، ان كان التفاخر بالنسب ، ولسانهم كان أقوى الألسنة أداء ، وأفصحها لفظا ، وأشرقها أسلوبا ، ولذلك كان العـــرب يجتهدون فى أن تكون آثارهم الأدبية بلغة قريش ، فكان الشعراء حريصـــين أشد الحرص على أن يكون شعرهم بلغة قريش ، ويعتزون بأن يكون على نهج اللسان القرشى ٠

ولقد ذكر رواة الأدب أن من ينال قصب السبق يعلق شعره على أستار الكعبة ، كأنما يسجل بين العرب ماثره الشعرية ، ومكانته بين الناس ٠

(ج) وجود البيت الحرام بها ، وهو أعلى الأسباب ، اذ أنه صار بيت العرب الدينى ، ومستقر شرفهم اليه يحجون وبه يأمنون ، كما قال تعالى : « **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف النـــاس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون** » ٠

لقد كانوا لتقديسهم لمكانة البيت ، كانوا يحرمون على أنفسهم أن يقتلوا أو أن يقتتلوا داخل الحرم ، حتى انهم مع تشديدهم فى الأخذ بالثأر مما فرق جمعهم كانوا يحرمونه على أنفسهم فى الحرم المكى ، زاده الله تعـــالى تشريفا وتكريما ، وان الرجل كان يلقى قاتل ابنه أو أخيه فلا يمسه بســوء لمكان التقديس النفسى ، بل انهم لا يحترمون المكان فقط ، بل يحترمون أيضـا الزمان الذى يكون فيه الحج الى بيت الله الحرام ، فكانوا لا يتقاتلون فى أشهر الحج ، ولا شهر العمرة ، وهو ما يسمى بالأشهر الحرم ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، اذ كانت فيه عمرة مضر ، ولذلك سمى رجب مضر ٠

وقد أقر الاسلام من بعد حرمة البيت ، ومنع القتال فى الأشهر الحـرم الا اذا كان فيها اعتداء ، فانه يكون من ظلم النفس ألا يدافع المعتدى عليه عن نفسه ٠

(د) انه كانت الصحراء العربية موضع تنازع بين القبائل ، ولم يكن فى القبائل من تقرر لها نظام ، الا مكة وان لم تكن فيه صفة الدولة ، بيد انه كان سلطانا ناشئا من تعاونهم ، وتضافرهم ، وتلاقيهم ، فهو نظام حر ناشىء ومنفذ بين قــوم أحرار ، وان لم تكن دولة ابتداء ، فأنه يجــوز اذا اتســع السلطان ، ووجدت المقدرة الثابتة يصلح أن تكون فيه دولة العرب من بعـد ، لأنهم يجدون فيها الرياسة المختارة من الشعب ، بمقتضى الارادة العربية التى تتلاقى فيها القبائل ، وبمقتضى الانتخاب الطبيعى فى البلاد العربية ٠

(هـ) وكانت قريش بمكة المكرمة ذات اتصال تجارى بين الروم والفرس، فكانت فيها المتاجر تغدو وتروح ذاهبة الى اليمن حاملة بضائع الروم اليها ، ومن اليمن تنفذ الى ما وراءها فى أرض الفرس ، وكانت بضائع الفـــرس التى تؤخذ من اليمن تذهب الى الشام لتصل الى ما وراءه من الرومان ٠

والسبب فى أن مكة كانت لها تلك الميزة الاقتصادية أنها كانت فى وسط

البلاد العربية بين اليمن والشام ، وان المواصلات ابان ذلك كانت عن طريق البر بالصحراء العربية ، وفوق ذلك النزوع التجارى فى أهل قريش ، احترفوا التجارة ، واتخذوها مرتزقا لهم ، اذ لم يكن فى مكة زرع يغنيهم ٠

وكان العرب يتخذون موسم الحج سبيلا للصفق فى الأسواق التى تعقد فى أيام الحج ، ومن هذه الأسواق عكاظ ، وغيره ، وكان هو اكبرها ٠

ولرغبة العرب البيانية قد اتخذ الشعراء من هذه الأسواق سوقا لترويج شعرهم فكانت الأسواق فيها الزاد المادى ، وفيها الزاد البيانى ٠

وقد قال الله تعالى فى روح قريش التجارية « **لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف** » ٠

(و) ويجب أن يذكر فى هذا المقام أن الوثنية سادت العرب ، فنسوا دين ابراهيم ، ودين هود وصالح وغيرهم وسرت فيهم الوثنية سريان النجاسات فى الماء الطاهر القراح ، ولعل قريشا فى مكة آخر من دخل فى الوثنية ، كما تحدث أخبار العرب ، فالوثنية سرت اليهم من غيرهم ، ولم تنبعث من أرضهم ولكنها موجة من الموجات التى كثرت فى ذلك العصر ، وما سبقه ، حتى لقد حسب بعض الناس أنها موجة من التفكير الدينى سرت فى العرب ، ووفدت اليهم من حولهم ، وجاءت اليهم من أرض غير أرضهم ٠

وقد أشرنا من قبل الى أن العرب وخاصة قريشا لم يكن ايمانهم بالأوثان ايمانا متغلغلا فى النفس ، اذ أنه كان مع الاعتقاد فى الأوثان اعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون ، وبقية من تعاليم ابراهيم عليه السلام ، فمناسك الحج كانوا يقومون بها على اختلاف أو انحراف ، والفاظه الموروثة كانت تردد على تحريف يقرب من وثنيتهم ٠

وكون بقايا من ديانة ابراهيم فيهم كان يجعلها موضع الرسالة ، واذا كانت الوثنية قد قاومت التوحيد الذى جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فما كانت كلها من أجل الاعتقاد ، بل من تسلط العصبية الجاهلية ، والمنافسة فى الشرف بين بطون قريش وأفخاذها ، كما سنبين ان شاء الله تعالى عندما نتحدث فى مقاومة الشرك للوحدانية ، وذلك بمقاومة زعماء مكة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

كانت مكة جماع العرب ، فكانت بها دار الندوة التى تجمع اقيال

العرب وكبراء القبائل ، من شتى الجزيرة من اليمن جنوبا الى الغساسنة بالشمال ، فاذا أهم العرب أمر واحتاجوا الى أمر جامع لا يجدون مثابة تجمعهم الا دار الندوة فى أرض مكة المكرمة ، وكانت الرياسة فيها لقريش ، وأقربهم كان من جدود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان عليه الصلاة والسلام يحضر ندوة قريش فى صدر حياته ، وكان مع هدوء طبعه ، واطمئنان نفسه يلفت الأنظار ، وتتطلع اليه الأبصار ٠

يروى أنه كما جاء فى كتاب « زهر الآداب » حضر الندوة قيل من أقيال اليمن ، فرأى الرسول ، كلما عرض ما يراه خير اطمأن الى القول اطمئنان المؤمن ، واذا كان ما يرى فيه غير الخير أحد البصرة ، فى هوادة ، من غير هوان ، فقال ذلك القيل مالى أرى هذا الغلام ينظر اليكم تارة بعينى لبؤة وتارة بعينى عذراء خفرة ، والله لو أن نظرته الأولى كانتسهاما لانتظمت أفئدتكم فؤادا فؤادا ، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيما لأنشرت أمواتكم » ٠

ومكة فوق ذلك لها المكانة فى التاريخ الدينى القديم ، فقد ذكرت فى الديانات القديمة ، واليهودية والنصرانية ٠ وقبل أن نخوض فى ذلك نتكلم فى ناحيةحول حال مكة المكرمة ٠

أو بناء فى مكة المكرمة وبلوغها هذه المنزلة

٣٩ — وان مكة قد صارت مطمع آمال العرب ، لما ذكرنا من معان دينية وقومية وثقافية وتجارية ، ولكن لابد من معرفة وقت قدسيتها ، ونيلها هذه المكانة بين العرب ، وان ذلك أمر لابد منه فى دراستنا عن النبى الذى ظهر فى هذه المدينة ، واتصالها بماضيها القريب والبعيد ٠

كان مكان مكة وسط البلاد العربية ، وقد ذكر ياقوت الحموى وضعها فى كتابه « معجم البلدان » فذكر أنها بقعة من الأرض تحيط بها الجبال الجرداء من كل جوانبها ، وينفذ من بين هذه الجبال المحيطة ثلاثة مسالك ، أحدها سلك بها الى طريق اليمن ٠ ويصلها الثانى بطريق جدة حيث سيف البحر ، ويكون مرفأ جدة ، ويصلها الثالث بطريق الشام ، حيث يمر بيثرب ، وبذلك يتضح اتصالها منذ القدم ، وان كانت الشقة بعيدة ٠

وقد كانت البقعة التى أنشئت فيها تلك المدينة التى تتوسط البلاد العربية٠ ملتقى القوافل ، ومنتجعها فى السفر ، حيث تأوى وتستريح بين جبالها حيث كانت فى الوادى حول هذه البقعة ماء العيون ، وكان بجوارها أو على قرب منها أماكن منثورة ، كان يلوذ بها التجار بقوافلهم ٠

وان ابراهيم عندما أوت الى هذه البقعة هاجر جاريته وولدها اسماعيل، وألهمه الله تعالى بناء الكعبة ، التى كانت أول بيت للعبـادة ، كما تلونا من قبل ، وان انشاء ذلك البيت المقدس هو الذى أدى الى تكوين المدينة ، وان هذا تصوير للوقائع التى حدثت ، والتى ذكرها القرآن الكريم فى محكم التنزيل ٠

وان فى التاريخ ما يدلنا دلالة راجحة على ابتداء بناء المدينة ، وان معرفة ابتداء المدن فى ذلك الماضى السحيق لا يمكن أن يكون على وجه جازم أو راجح، فان المدن لا توجد مساكنها فى أمثال هذه العصـور البعيدة التى تنشـأ فى الصحراء ، ولم تكن فى أرض لها حكومة ثابتة قائمة ، تنشىء وتخطط ، وتبنى وتهندس انما الذى يتصور أنها ابتدأت ببناء المسجد ، ثم تدرجت ، ثم أخذ الزمان يزيدها بناء ، والعمران يدخل اليها شيئا فشيئا ، وان تصورها على أساس التصور الذى أومأت اليه المصادر الدينية ، فانه يكون انشاؤها قبل ميلاد المسيح بنحو تسعة عشر قرنا ٠

ويستفاد من هذا أن الكعبة قد بنيت ، أو على الأقل بناها ابراهيم عليه السلام قبل دخول القبائل الآرية الهند ، لأنها دخلت فيما نظن قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو خمسة عشر قرنا ، وعلى ذلك لا تكون ثمة غرابة فى أن يجىء ذكر مكة والكعبة ، والتبشير بمحمد صلى الله عليه وسـلم فى كتب الفيدا المقدسة عند الهنود كما سنبين ان شاء الله تعالى ٠

ومهما يكن فان الذى بنى الكعبة ابراهيم ، والتف من بعدها حوله الأبنية ، سواء أكان ذلك قبل تجمع الأبنية لتكون مدينة مكة أم كان بعد التجمـع ، وفصل القرآن الكريم ذلك فى نصوص كثيرة ٠

ولكن الذين يحاولون مهاجمة القرآن الكريم من ناحية التشـكيك فى الوقائع التاريخية التى يشتمل عليها ، ينكرون أو يفترون ، أو يثيرون الشـك المجرد ٠

فيثير الريب قوله ان قصة ابراهيم واسماعيل من صنع اليهود ، قالوها ليربطوا بينهم وبين العـرب برابطة من قربى النسـب ، حتى يكونوا أولاد عمومتهم ، ليحسنوا ايواءهم ، اذ يؤوون اليهم ذوى قرابتهم لرابطة الرحـم بينهم ، ويسوق شاهدا لكلامه التباعد بين الوثنية العربية ، وبين دين ابراهيم عليه السلام الذى كان موحدا ، وكان هادم الأوثان ٠

وفى الحق ان ذلك الكاتب أو المؤرخ غلبت عليه شـهوة التشكيك فى القرآن فساق كلاما لا يبنى على أى أساس علمى من وقائع ثابتة ، لأنه كان

يجب أن يبنى الطعن على وقائع ثابتة ، أنه يحاول هدم أمر معروف مقرر ذكره التاريخ قرنا بعد قرن ، حتى جاء الى هذه العصور ، وقد تطابقت عليه الكتب السماوية حتى المحرفة منها ، فقد جاء ذكر ابراهيم واسماعيل فى التوراة ، أى كتب العهد القديم التى يؤمن بها المسيحيون ، وأنهم جاءوا الى بلاد العرب ٠

فقد جاء فى التوراة (أى كتب العهد القديم عند المسيحيين) ٠

قد جاء فى الاصحاح السادس خبر هاجر الجارية وحملها ، وذهابها بابنها فى البرية (أى الصحراء) « هو ذا الرب قد أسكننى عن الولادة ، ما دخل الى جاريتى لعلى أرزق منها بنين ٠٠٠ فلما رأت هاجر أنها حملت صغرت فى عينها ، فقالت ساراى لابراهيم ظلمى عليك ، وقعت جاريتى الى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت فى عينيها . يقضى الرب بينى وبينك ، فقال ابراهيم لساراى هو ذا جاريتك فى يدك افعلى بها ما يحسن فى عينيك ، فأذلتها ساراى ، فهربت من وجهها ، فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية على العين التى فيها طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراى ، من أين أتيت ؟والى أين تذهبين ، فقالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى فقال لها ملاك الرب : ارجعى الى مولاتك ، واخضعى تحت يديها ، وقال لها ملاك الرب تكثير أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى وتلدين وتدعينه اسماعيل ، لأن الرب قد سمع لضراعتك ، وانه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن ٠

وجاء فى الأصحاح الحادى والعشرين «مضت وتاهت فى برية بير سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابلة بعيدا على مرمى القوس ، لأنها قالت : لا أنظر موت الولد ، فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الرب هاجر من السماء ، لا تخافى ، لأن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام ، وشدى يدك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها ، فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء ، وسقت الغلام ، وكان الله تعالى مع الغلام ، فكبر ، وكان ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر ٠٠

• ٤ ـــ (أ) هذه نصوص صريحة فى التوراة تدل على أن اسماعيل ولد من هاجر جارية سارة ، وأنه ولد فى برية فاران وهى قد كانت حول الكعبة ، وان هذا حجة على منكر أن يكون اسماعيل من ولد ابراهيم أو أنه جاء الى أرض الحجاز ، وأن اليهود قالوا هذا ليتقربوا الى العرب ، يحسبان أنهم أولاد عمومة ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(ب) وان على هذا التشكك أمر مثير ، من غير بينة ، ولا دليل وكأنه يشك فى التوراة أيضا ، وما كانت اصحاحات التوراة مقارنة لتقريب اليهودى من العرب ، بل انها سابقة على ذلك ٠

وان الشك الذى أثاره تدل الأمور الثابتة على مناقضة ما أثاره ، وذلك لأن الطبع اليهودى فى ماضيهم وحاضرهم أنهم لا يعترفون لأحد بدين غير دينهم ، وأنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ويقولون وهم بين ظهرانى العرب ما علينا فى الأميين سبيل ، وأن المعروف أنهم كانوا فى البلاد العربية يستعلون على العرب ويظنون أنهم الأعلون بما أوتوا من كتاب ٠

(ج) وفوق ذلك فان العمومة المدعاة من اليهود لا أصل لها فى زعم ذلك الكاتب النحرير ، فكانت للعرب العدنانية التى تنتهى الى اسماعيل عليه السلام ، وهم الذين يسمون العرب المستعربة ، واليهود ، عندما آووا الى العرب فارين بدينهم من عنت التتار ، ومن بعدهم الرومان ، ومن أذاقوهم العذاب أبؤسا ، انما أووا الى أرض عرب قحطان ، فهل يعقل أن يتملقوا القحطانيين بادعاء النسب الى العدنانيين ، والارتباط بينهم برباط القرابة بالعمومة ونحوها ، انما المعقول الذى لم يدركه الكاتب النحرير أن يكون الادعاء عند القحطانيين ، لا عند العدنانية ، ولا يصدق كلام ذلك الا أن يكون تصرفهم مخالفا كل معقول ويأتون عكس ما يريدون ، كعقل ذلك الكاتب ٠

(د) وان تاريخ العرب المحفوظ أن العرب العدنانية لهم تاريخ ثابت موصول تلقاه أهل العقول بالقبول ، وما يتلقاه العلماء بالقبول لا ينقض بمجرد الشك ، بل لا يرفض الا بدليل يناهضه ، وبينات تقاومه ، ولا يقاوم بمجرد الشك والا ضاعت الحقائق ، وضلت الأفهام ، وظواهر الأحوال شاهد يؤخذ به ، حتى يقوم الدليل على خلافه ٠

(هـ) وان الزعم بأن أولاد اسماعيل وثنيون ، وابراهيم عليه السلام كان موحدا ، فكيف يلتقيان ، أو القول بأن العرب وثنيون ، والموحد لا يمكن أن يكون أبا للوثنيين ، منطق فاسد ، لأن مؤداه أن من يكون موحدا يجب أن تكون سلالته كلها من الأولاد الصلبيين الى آخر الذرية ، ولو كانوا فى الطبقة المتممة للمائة موحدين ، وذلك كلام باطل ، فانه قد ينحرف الأبناء عن وصايا الآباء ، واذا كان ذلك غريبا فى الطبقة الأولى ، أو ما يكون قريبا منها ، فانه لا يكون غريبا فى الطبقات البعيدة من الذرية ٠

وان ابراهيم عليه السلام قد طوف فى الآفاق داعيا الى التوحيد محاربا للوثنية ، وترك أثره واضحا فى العرب خصوصا ذريته ، فقد كانت ذريته

موحدة ، سالكة سبيل الحق فى عبادتها ، ولكن القلوب اذا تقادم العهـــــد قد تنحرف شيئا فشيئا حتى تصل الى الوثنية ، فالوثنية عارضة على العقـل العربى ، وخصوصا ذرية ابراهيم عليه السلام ، فان الوثنية لم تكن أصيلة فيهم ومع ذلك كان فى وثنيتهم بقايا من تعاليم ابراهيم عليه الســـلام ، وما كانوا يؤمنون بأن أوثانهم لها قوة الخلق والانشاء ، كما كان عند المصريين القدماء ، وكما كان عند اليونان والرومان ، بل كانوا يقرون بأن الخلق والتكوين للـه تعالى وحـــــده ، « **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** » ، ويقولون « **ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** » ٠

وان تفكيـر ذلك الكاتب المستشرق فيه غرابة من حيث المنهـــاج العلمى المستقيم من ناحية أمرين :

أولهما : أنه من الاستهانة بأى منهاج عقلى أن يثير عالم الشك من غير أى مسوغ للريب من أمور تقترن بالأمر الجازم المقطـــوع به ، فان ذلك اثارة لطريقة السوفطائيين الذين يشكون فى حقائق الأشياء شكا مجردا من غيـر أى باعث علمى ، أو من غير أى بينة تسوغ الشك ، حتى يحارب اليقين ، ولكن هذه الأمور البدهية نسيها ذلك الباحث ان صح هذا الوصف له ، وما أنســـاه الا شيطان التعصب المردى الذى ينزل من علياء العلم الى منهوى العمى « **وانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » ٠

ثانيهما : أن من الحقائق الاجتماعية والنفسية ، أن العقائد فى النـــاس تتحول وتتغير ، ويجرى عليها نظام التغير ، ويستمر فى طريقه ، ما لم يكن هناك كتاب ثابت يهدى الى الحق ، ويرشد الضال فيهتدى ، ويكون ميزانا يمنع الانحراف ٠

مكة المكرمة موطن تقديس لأجل الكعبة المشرفة :

١٤ ـــ وان التاريخ الانسانى العام جاء فيه ذكر مكة والكعبة ، وقد ورد اسمها فى مصادر التاريخ اليونانية واسمها فى كتاب بطليموس الاسكندرى ماكورايا (١) ٠ وانها أقدم من ذلك ، فانها تمتد فى القدم الى تسعة عشر قرنا قبل الميلاد ، وذكره لها فى القرن الثانى بعد الميلاد ، لا يومىء من قرب أو بعد ، الى أنها كانت غير موجودة قبل ذلك العصر ، وليس انشاؤها فيه اذ هو اخبار عن الموجود ، وليس بيانا لوقت الوجود ٠

---

(١) حياة محمد للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ص ٨٤ ٠

والمؤرخون بشكل عام ذكروا أنه كان فى غرب الجزيرة العــــربية أماكن كانت فيه مكة ، وما حولها من الصفا والمــروة ، وعــرفات ، والمزدلفة ، ومنى كانت بالقرب منها، فاذا كان المؤرخون يذكرون أماكن للعبادة فى غرب الجزيرة العربية فهى هذه الأرض ٠

وقد جاء فى كتاب تاريخ الاسلام لجواد على : « قد ذهب أوغست ميـل الى أن المعبد الذى قال عنه ديودور الصقلى انه معبد مشهور هو مكة (١) ٠

ويستفاد من هذا أمران :

أولهما : أن مكة كانت قائمة بشهادة التاريخ العام ٠

وثانيهما : أن الكعبة : كانت بها ، وكانت معبدا يفد اليــــه الحجيج من كل مكان من بلاد العرب ، يقصدها القاصى والدانى من تلك البلاد ٠

٤٢ ـــ هذه شهادات المؤرخين بتقديس الكعبة فى القديم ، وبمنزلتها عند العرب ، واجتماعهم حولها مع تفرقهم منازع ، وقبائل وعصبيات أحدثت حــروبا مدمرة ، ودماء مهراقة ، ومع ذلك يلتقون متحابين أو غير متحابين ، ولا آخذين بثاراتهم احتراما للبيت ، وتقديسا لهذه البنية التى زادها الله تعالى تكريما وتشريفا ٠

المكان والزمان

٤٣ ـــ كانت مكة هى المكان المختار للرسالة ، وقد أشرنا الى ما كانت تمتاز به من البلاد العربية ، فأشرنا الى مكانتها الثقافية ، فهى ملتقى العرب ، ولغتهم أفصح اللغات ، وشعراؤهم يعملون على أن تسجل أشعارهم بلغة قريش، فكأنها التى تختص بوصف الفصحى واللغات الأخرى بجوارها كاللغات العامية بجوار الفصحى فى عصرنا الحاضر ، وهى ملتقاهم الدينى ، فاليها يحجون ، وينسلون من كل أرضها ، ويلتقون فى أسواقها ونجوعها بها تروج بضائعهم ، ويروج أدبهم وفيها يتفاخرون من غير ملاحاة ويتجادلون من غير مجافاة ٠ وفيها تحقن الدماء ، وتغمد السيوف فى أجفانها ، يلتقون على التدين ، والمحبة، ولا يلتقون على العداوة والبغضاء، فآلامهم يطرحونها، وأحقادهم يستديرونها،

---

(١) جواد على ص ٤ ص ٥٠٤ ٠

ولا يرون أمامهم الا النسك على قدر مداركهم وتبادل المنافع ، والقول الطيب ، ومع أن كل قبيلة لها صنمها فى الكعبة على ظاهرها ، كانوا يجتمعون فى العبادة على تقديس البيت الحرام مطرحين ما عداه ٠

وكانت مكة مع هذه المنزلة الثقافية والدينية والاجتماعية ملتقى القوافل التى تجىء من اليمن ومن أقصى الشرق ، والقوافل التى تجىء من أقصى غرب الجزيرة ، فيلتقى فيها المتاجر ، وتلتقى فيها العقول الناقلة للحضارات ، ولو نقلا سطحيا ، ولا يصل الى أعماق القلوب ، ولكنه يمس المدارك ، وأنه فى مكة ويثرب تلتقى البداوة ببعض الحضارة ، فيكون مزج بين رقة الحضارة ، مع خشونة البادية ، فيكون مزيج غير متميع ، وقوة نفس فى غير جفوة ، وتلتقى صفاء البداوة والحضارة الغربية منها ، فينتفى الخبث ، ويبقى اللب الكريم ٠

وان أكثر الرسالات الالهية التى كانت على مقربة من الرسالة المحمدية كانت فى أرض تكون على مقربة من البوادى ، أو هى فى البوادى ومثلها كالواحات فى وسط الصحراء ، لأن أولئك تكون نفوسهم قابلة للجديد من الرسالة ، وغير متخلفة فى مداركها :

(ا) اذ يكون فيها الصفاء الصالح لتلقى تكليفات الوحى الالهى ، وفيه المدارك المتقبلة التى تزن وتفكر وتربط حاضرها بماضيها ، وتستخرج من ماضيها ما ينير لها حاضرها ، من غير اعنات فكرى ولا اجهاد نفسى ، والمقاومات للرسالة تكون أعراضها ظاهرة ، يمحوها الزمان القصير ، اذ ليست مستكنة فى أغوار النفوس ، وخبايا القلوب ، بل انها على سطحها ، والتغيير يعرو السطوح ، ولا يتجه الى عميق القلوب ٠

(ب) وان المدائن ذوات الحضارات تكون فيها عادات راسخة ، وتقاليد ثابتة ، وأفكار سائدة ، فلكى تدخل العقيدة الجديدة يجب تفريغ الأذهان مما امتلأت ، حتى يكون ثمة حيز للتفكير الجديد ، اذ أن العلوم وما يتصل بها من فلسفات سواء أكانت حقا أم كانت باطلة تملؤها ، واذا جاء الدين الجديد كانت المصارعة بين ما ألفوا ، وما جد لهم ، وأقل أبواب المصادمات المجادلة ، والمجادلة مع المتعصبين تضيع فيه الحقائق ، ولا يبدو جوهرها نقيا صافيا ٠

وان الأفكار العلمية ولو خطأ تركز فى النفس ، والتقاليد المستحكمة المسيطرة تشتد حتى تصل الى أغوارها فلا يسهل الوصول الى اقتلاعها ٠

وقد يقال ان أهل البادية لهم عادات وتقاليد ، كما أن أهل الحضارات لهم ذلك ، ونقول فى الجواب عن ذلك ان تقاليد البدو لا ترتكز على عناصر فكرية

تتغلغل فى الأذهان ، وتسيطر على القلوب كالأفكار والآراء فى بلاد الحضارات، وما يكون فى دائرة العمل من غير تغلغل فى النفس لا يكون راكزا ثابتا ، كالذى يكون منشؤه التفكير العميق ٠

(جـ) وان التجارب قد أيدت ذلك ، فان الدين الجديد يسهل دخـــوله فى البادية الصافية نفوس أهلها ٠

(د) وان أى دين لابد له من ناس يحملونه ، ويسيرون به ، وأهـــل البادية الذين يكون عندهم نوع من التفكير والرقى النفسى يكونون أقوى نفسا ، وأشد جلادا ، وأكثر احتمالا ، ولقد قرر الاجتمــاعيون أنهم هم الذين يحملون أعباء الجهاد فى سبيل ما يعتقدون ما دامت أوضار الحضارة لم تصب قلوبهم بل فيهم بأس وقوة احتمال ٠

وان الشواهد قائمة ، فاننا نجد الأديان التى جاءت برسل أوحى اليهم من السماء كان بعثهم فى الأرض التى تكون بين الحضارة والبداوة ، وكـــان التابعون دائما من أهل البأس والقوة الذين عاشوا فى الصحراء ، وقاوموا لأواءها ، ولم يكونوا من أهل المدن التى أصيبت بطراوة التحضر ٠

واعتبر ذلك بموسى عليه السلام ، فقد أرسل الى قوم فرعون ، ولـــكن ما نزلت عليه الرسالة الا فى أرض مدين المتاخمة لحدود الشام ، وما وجـــد الذين يستجيبون له من أهل مصر ، وما كانوا هم الذين حملوا عبء التبليغ من بعده ، وحمله غيرهم ٠

ولقد كان بنو اسرائيل أضعف فى نفوسهم من أن يحملوا عبئها من بعده وذلك لأنهم مردوا على أخلاق المصريين ، وان لم يكونوا منهم ، فكان لابد من أن يتربوا على البأس فى البادية ، ليستطيعوا حملها ، ولذلك قال تعـــالى لموسى عليه السلام ، اذ أمرهم نبيهم موسى عليه السلام أن يدخـــلوا الأرض المقدسة التى كتب لهم أن يدخلوها ، وان لم يقيموا فيها : « **قال فانها محــرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** » ٠

ولقد فهم بعض الكتاب أن الموحدين كانوا فى الساميين فقط ، وجـــاء بعض الأوربيين ، وعلل ذلك بأن العقل السامى عقل سطحى ، لا يفهـــم من العقيدة الا التوحيد ، ولا يتصور المعنى الفلسفى فى التثليث ، وهذا الكلام يأتى على عقيدته بالنقض ، لأن عقيدته المسيحية جاء بها سامى ٠ فلابد أن يكون ما أتى به ، وما دعا اليه يتفق مع السامية التى لا تهضم فلسفة التثليث وأن يكون التثليث الذى نسب اليه لا تشتمل عليه رسالته ، ولا تدعو اليه رسالته ، وليس ما اشتملت عليه عقيدته ٠

على أن العقل الآرى قد اعتنق الوحدانية فى أصل الديانة البرهمية ٠ التى جاءت بها القبائل الآرية ، فدعوى الاقتصار فى الوحدانية على العقل السامى يأتى على أصل التثليث بالنقض ، وينتهى بأن التثليث من أوهام الفلاسفة ، وليس من عقائد الرسل ٠

ولعل ما ذكرنا من أن القبائل الآرية التى جاءت تحمل الديانة البرهمية من بوادى آسيا ، قرينة على أن الرسائل الالهية ، انما تنزل فى الأرض التى تكون بادية قريبة من المدائن ، أو تكون فى طريق القوافل ، فقد جاءت الى الهند التى كانت مملوءة بالأنهار والأحراش ، وفيها تحضر نوعا ما ، ولم يكن فيها صفاء البادية ، وبأسها ، وقوتها وسذاجتها ، وسلامة فطرتها ، ولذلك سرعان ما حرفت العقيدة الى الصورة التى جاءت بعد ذلك من نظام الطبقات الظالم ٠

وقد أشرنا من قبل الى أن الرسائل الالهية غير محصورة ، وأن الله تعالى ذكر أنه لم يقص فى القرآن أخبار كل النبيين ، فقد قال تعالت كلماته : « **منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك** » ٠

وسيتبين عند الكلام فى البشارات التى بشرت بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن من البشارات ما جاء فى كتاب الفيدا الذى هو أعلى مصادر الديانة البرهمية ، وبينا فى وضوح أنها فى أصلها ديانة توحيد ، كما جاءت بالفيدا النصوص الدالة على ذلك مما يدل على أنها ديانة منزلة ابتداء ، وان انحرف عنها القوامون عليها ، وشاهت الى الحال التى آلت اليها من عصور سابقة ولا تزال قائمة الى الآن ٠

٤٤ ــ من هذا البيان الموجز يتبين أن البيئة الطبيعية بمكة وما حولها، وما لها من مزايا امتازت بها كانت من المرشحات لأن تكون موطن النبوة وموطن خاتم النبيين ، فاذا كانت النبوة قد ابتدأت بابراهيم أبى الأنبياء واسماعيل ابنه ، فان ختام النبوة فى العالمين كانت بها أيضا ، برجل من ولد اسماعيل ٠

فهى أصلح مكان لأن ينبعث منها الدين الجديد الخالد الى يوم القيامة حيث يلتقى العرب جميعا فيها ، وحيث الأمن والسلام فيها ، وحيث القدسية التى تملأ النفوس تنبعث من أرضها ، وحيث دار الندوة التى يتشاور فيها العرب أجمعون ٠

وكان المكان أصلح الأرض ، لأن تغرس فيه أغراس الدين الجديد وآن يؤتى أكله ٠

والعرب أصلح الجماعات لأن يحملوا عبء الدعوة اليه ، والدفاع عنه ، وحمايته من سطوة الملوك ، وطغيان الجبارين حول العرب ، ومن ورائهم فهم أهل البأس والنجدة ٠

ولغة قريش فى مكة أصلح اللغات لأن ينزل بها القــرآن الكريم الذى أعجز العالمين عن أن يأتى أحد بمثله فالمكان صالح لأن يبعث رسول الله طهرا ، وثقافة ، وقوة بأس ، وجلاد ، ولغة ، « **الله أعلم حيث يجعل رســـالته** » ٠

الزمـــان :

٤٥ ــ اذا كان المكان الذى اختاره الله تعالى لخاتم النبوة أصلح مكان يدرك العقل البشرى صلاحيته ، ويعلم بالاختيار مكانته ، فان الزمان قد تهيأت فيه الأسباب لدين يجمع الانسانية ، ويهديها ، والقلوب قد فرغت وأصبح العالم فى حاجة الى هداية من السماء ، اذ قد صار الناس على فترة من الرســـل ، فالديانة الســـماوية حرفت ، وانحــرف تابعوها ، وغيــروا وبدلوا وحولوها عن غايتها ، وبعدوا عن الحق فيها ٠

والأوثان قد تزايلت قوتها وضعفت مكانتها ، وادركت العقول موضـــع الوهم فيها ، فآلهة اليونان قد زالت الأوهام التى تحيطها ، والأوثان الرومانية تكشف للناس أنها أحجار لا تنفع ولا تضر ، وأنها ليس فيها سر يمنع أو يمنح، يضر أو ينفع ، يشفى أو يسقم ، وعلى فرض أنها لم تذهب الأوهام حولها ، فهى خرافات يجب ازالتها ، وفساد فى العقول يجب اصلاحه ٠

وكانت الامبراطورية الرومانية تعبث برعاياها ، وتفرض عليهم طاغوتها وهم لا حق لهم يستطيعون به تقويمهم ، والنفوس قد ضلت وزلت ، ولكنهـــا لم ترض وتطمئن ، فهى هالعة جازعة ، لأنها كانت تفرض على الشعب دينهـــا وان كان لا يرتضيه ، وتفرض عليه عقائد لا يؤمن ولا يرضى بها ، كما كانت الحال فى الشعب المصرى الذى فرض عليه دينها ، أو عقيدتها ، كما فرض عليه سلطانها ، وجعلتهم عبيدا أو كالعبيد ٠

والرومانيون فى داخل أرضهم ، وفى الشعوب التى منيت بحكمهم كانت التفرقة بين الناس واضحة جلية ٠

كانت التفرقة أولا ، من حيث تحـــكم رجال السلطان فى الرعيـــة ، واختصاصهم بالمال يجىء اليهم من الغنائم التى يغتنموها فى الحـــروب ، وحرمان بقية الرعية من المال والسلطان معا ، والناس لا يشقون لآلام ذاتية

فقط وان كان الحرمان فى ذاته يحدث ألما نفسيا ، ولكنهم يألمون من ذلك ، ومن رؤية النعمة فى يد غيرهم يرتعون ويلعبون ، ويعبثون ، ولا حق لأحد فى أن يعترض عليهم أو يلومهم ، أو يوجه اليهم نقدا ٠

والتفرقة من الناحية الثانية فى أن الشرف كل الشرف لطبقة الأشراف والمهانة كلها فى الطبقة المحكومة ، والشريف الرومانى يعلو على كل آحاد الرعية من الضعفاء ٠

والرق فى أرض الرومان كانت تتكاثر أسبابه ، حتى انه يسوغ لأى انسان يرى شخصا من أى شعب أن يسترقه والحكم للقوى فى العلاقات الانسانية كلها ، وكأن أرض تلك الدولة أجمة يفترس قويها ضعيفها ٠

والأحكام بين الناس تسير على مقتضى تلك النظم المقيتة التى تفرض التفرقة بين الناس ٠

والمرأة عندهم أمة لأبيها قبل الزواج ، وأمة لزوجها فى بيت زوجها ولو قتلها لا عقوبة عليه ٠

وهكذا ترى نظاما اجتماعيا أهدرت فيه الحقوق الانسانية الأساسية التى تثبت للانسان بمقتضى أنه انسان ، وشاع الفساد ٠ وظهر فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ٠

كان لابد من تغيير لهذه الحال ، ومن اصلاح لهذا الفساد ، لأن الله لا يحب الفساد ، والله لا يريد ظلما للعباد ، فلابد من أن يكون من يغير هذه النظم ، وليس فى الناس من يغير ، ويبدل بالفساد صلاحا ، وبالضلالة هدى ، ولا يكون من الانسان لأن ابن الأرض ترك لأخيه الانسان فأكله أو أذله ، أو أهدر انسانيته ، لابد من رسالة السماء تكون فى أرض تصاقب الرومان ، وهم ذوو بأس وقوة ٠

٤٦ ــ واذا تركنا غرب الجزيرة العربى وشمالها ، واتجهنا الى شرقها وجنوبها ، فانا نجد أرض فارس ، وما كان فيها من انحلال سياسى وظلم ، وانحلال اجتماعى ، وانحلال فى الأسرة ، وظلم فى الحكم ، نجد كسرى يعتبر الشعب كله عبيدا أو كالعبيد ، ومن حوله من رؤساء ودهاتين يسوغون ذلك للناس ، ولا يكادون يسيغونه ، وان العقائد المختلفة التى توردت على العقل الفارسى جعلته فى متاهات فكرية يضل فيها السارى ، وتظلم النفس ، والطبقية التى سرت اليها من الهنود الذين على مقربة منها حلتها اجتماعيا وان كانت

لم تصل الى مثل ما كان عليه الهنود والأسرة كانت غير قائمة على أسس قوية وسليمة ، فقد كان الولد يتزوج أمه وأخته ، ويتزوج الرجل ابنته ، وغير ذلك مما يضعف النفس فى العلاقة الزوجية ، وينحدر به الانسان الى أحط من الحيوان ، وكان مذهب مزدك الذى جاء فى آخر الحكم الفارسى الذى حل المجتمع الفارسى، وضاعت فيه الأنساب واستبيحت الأموال حتى وهنت الحقوق، وضعف تثمير الأموال ، واختلط الحابل بالنابل وما كان فى المستطاع أن يغير النظام بنظام من فارس ، فان التجارب فى المذاهب السابقة من زرادشتيه الى مانوية الى مزدكية ، لم تنجح فى اصلاح ، بل كانت كالأدوية التى تزيد الداء العضال استشراء فى الجسم ، فتكون هى أسبابا لتقوية الانحلال ، فالزرادشتية دعت الى القوى ، فتحكم القوى فى الضعيف ، والمانوية دعت الى انهاء ابن الانسان من هذه الأرض مما اضطر كسرى لقتله ، وجاء من بعد ذلك مزدك ، فنشر الفساد وانهار به المجتمع الفارسى انهيارا ٠

اذن لابد من هداية للسماء ، لتستقيم الأمور ، فكانت فى أرض العرب التى تجاورهم ، كان من أرض العرب الرسول الأمين (صلى الله تعالى عليه وسلم) ٠

٤٧ — واذا تجاوزنا فارس وخراسان وما وراءهما ، نجد الهند والصين ، وعندئذ نجد حيرة العقول واضطرابها ، نجد مجتمعا مضطرب التفكير ، قد حرفت البرهمية ، حتى صارت وثنية بعد أن كانت ديانة موحدة ، وصار براهما الها مجسما فى أعينهم ، مع أنه فى حقيقته رسول أرسله الله تعالى ، قد جسموه ، وجعلوا بعضه يخلق منه خلق من أعلاه ، وخلق من سواعده ، وخلق من ركبتيه ، وخلق من قدمه ، وحالوا بين الخلق والحق ثم فرقهم الفرقة والطبقية ، ورضوا بالتنافر بينهم بدل التحاب والتواد ، وتقطع بينهم أمرهم ، حتى صاروا هدفا يراد ، ومقصدا يقصد ٠

وصارت الأوهام تسيطر عليهم ، حتى توهموا فى أحد رجال الدين عندهم أنه اله أو ابن اله ونحلوه من الصفات مالا يكون لبشر عادى ، وذكروا أن النصارى تبعوه ، الى آخر ما قيل مما أخذه عنهم النصارى من بعدهم ٠

ولما اتجهت بعض النفوس الى اصلاحهم كانوا فى حيرة من أى الأبواب تدخل فى الاصلاح ، لأن معرفة الداخل والمخارج فى باب التهذيب الدينى لا يكون الا بدين ، ولم يكن ثمة دين مرشد ، ولا نبى مبعوث يدعو الى الحكمة والى الصراط المستقيم ٠

فاقتصروا على ما يومىء اليه الاحساس ، فجاء بوذا وأتى بعقيدة هى

الى الحرمان أقرب منها الى الاصلاح والايجـاب ورفـع الانســان وتكوين الارادة المتجهة الى الفضيلة الايجابية والعمل النافع المثمر ، وعمارة هـذه الأرض ، واقامة المصالح على أسس خلقى مكين ٠

وان الحرمان لا ينتج ولا يثمر ، ولا يطبقه العامة ، وان ادعاه الخاصة ، ولذلك لم يكتب لهذا المذهب الأخذ به أخذا كاملا ، أو قريبا منــه ، أو حتى ارادته الا عند بعض الآحاد الذين سموا فى الماضى والحاضر الفقراء ، وقـد راضوا أنفسهم على الحرمان غير المنتج ٠

ولما انتقل المذهب الى الصين أثمرت فيه ثمرات غير ايجابية ، وكان كلها يتجه الى الحرمان ، وقد أراد بعض المصلحين أن يحول الشعب الى الناحية الايجابية ، ولكن ضلال الفكر ، حال بينهم وبين ادراك الحقائق ، وقد ضلوا فى تفكيرهم ضلالا بعيدا على النحو الذى ذكرناه فى صور كلامنا ، وان الاشارة فيه تغنى عن العبارة والايجاز يقوم فى ذلك مقام الاطناب ٠

فكانت حالهم تقتضى هاديا مرشدا لا يكون من بينهم ، ولا يكون ممن على شاكلتهم ، بل يكون من الله تعالى ، واذا كانوا قد عبـــدوا السماء ، فهدايتهم تجىء من خالق الأرض والسماء ٠

وقد يقول قائل انه بلا ريب العالم كان يحتاج الى رسالة من السماء ، والى رسالة محمد عليه السلام خاصة التى دعت الى تهذيب النفس وتقوية الجسم ، وأن يكون الانسان ربانيا نافعا ، فهل سد الفراغ فى أوروبا وآسـيا فى مجاهل العالم ، ومعالمه ؟ والجواب عن ذلك أن الشريعة لا تزال قائمــة ثابتة وما جاء به محمد لا يزال يدعو الى الحق ، ويوجه ويهدى ، وأتبــاع محمد هم الذين قصروا فى العبء الذى حملوه ولم يقوموا بحق الأمانة التى ائتمنهم محمد عليه الصلاة والسلام عليها بأمر ربه ، والله بكل شىء محيط ٠

البشــــارات

٤٨ ــ اذا كانت الدنيا كلها كانت تتطلع الى وجود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليصلح الناس ، وليعلمهم الكتاب والحكمة ، وليهدى من تبلغه الدعوة ، وهم ممن يؤمنون بالغيب ويهدون الى صراط مستقيم ، فان البشارات كانت تجىء اليهم برسول قد قدر الله زمانه ، وسيدركهم ابانه ، ولمتكنالبشرى من الكتب السماوية التى كانت على مقربة من النبى صلى الله تعالى عليــه وسلم ، وهى اليهودية والنصرانية ، بل كانت البشرى مما وراء ذلك مما دل

على أن هذه الكتب جاء بها رسول ، وكانت هذه الكتب مما اشتمل عليه ما يدعو اليه من توحيد الله تعالى العليم العزيز ، الذى جاءت النذر والبشرى بما يدعو أهل الايمان اليه ٠

وأقدم الكتب التى اشتملت على هذه البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كتب الهنود القدماء ، فان كتابهم فيدا الذى اشرنا اليه قال بعض المطلعين من المسلمين ان فى فيدا ما يدل على التبشير بوجود الرسول محمد خاتم النبيين ، واليك ما قال ذلك الكاتب ننقله مما نقله عنه الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد فى كتابه « معالم النور » جاء فى هذا الكتاب القيم ما نصه ٠

« يقول الأستاذ عبد الحق أن اسم الرسول العربى احمد مكتوب بلفظه العربى فى الساما فيدا من كتب البراهمة وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها : « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه ، وهى مملوءة بالحكمة ، وقد قبست منه النور ، كما يقبس من الشمس ٠

ولا يخفى المؤلف وجوه الاعتراضات التى قد تاتى من جانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن بعضهم انه وقف عند كلمة « أحمد » فالتمس لها معنى هنديا ، وحاول أن يجعلها تفيد اننى وحدى تلقيت الحكمة من ربى ٠٠٠ قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه ، أن العبارة منسوبة الى البراهمى ، (فانزا كانفا) من أسرة كنفا ، ولا يصدق عليه أنه وحده ملتقى الحكمة من ابيه » (١) ٠

ويستفاد من هذا الكلام أمران :

أولهما : أنه ورد ذكر أحمد فى كتاب الفيدا كما ورد ذكر هذا الاسم الكريم فى التوراة والانجيل ٠

ثانيهما : أن البراهمة الذين حرفوا تعاليم هذه الديانة ، التى كانت فى الأصل ديانة توحيد ، حاولوا أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويغيروا المعنى بتفسيرها بغير مجراها ٠

ولا شك أن التفسير التحريفى لهم يخالف ما يدل عليه الأصل كما قرر الأستاذ عبد الحق ، وفوق ذلك فان العبارة تفيد بنصها « أن احمد تلقى الشريعة من ربه » ويخالفه التفسير المنحرف ، فان الذى تلقاه بالنص احمد هو الشريعة وانه تلقاها من ربه لا من ابنه ، والفرق واضح بين الأب والرب الا اذا كانوا يجعلون الرب ابا كما قال النصارى من بعدهم ٠

---

(١) معالم النور للأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ص ١٢ ٠

وقد يقول قائل ان البرهمية لم يأت بها رسول نزل عليه أمر من الله ، وان الجواب عن ذلك أن نصوص كتبهم تفيد كما ذكر البيرونى ، أن براهـــما كان مرسلا ولم يكن الها ، ولم يكن ابن اله ، وقد نقلنا لك ما ذكره البيرونى فارجع اليه ٠

لقد جاء فى كتب الهنود كما قررنا تبشير بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما جاءت بكتب فيدا ، التى اعتبرها الهنود أصلا لعبادتهم ، ولقـــد ذكر الأستاذ عبد الحق أن وصف الكعبة ثابت فى كتب الآثار فافيدا ، ويسميها الكتاب بيت الملائكة ، ويذكر من أوصافها أنها ذات ثمانية جوانب ، وأبواب تسعة والأستاذ عبد الحق يعبر عن الأبواب بالأبواب المؤدية الى الكعبة ، وهى باب ابراهيم ، وباب الوداع ، وباب الصفا ، وباب على ، وباب عباس ، وباب النبى ، وباب الزيارة ، وباب الحرم ، ويفسر الجوانب الثمانية ، كمـا فسر الأبواب ٠

فيذكر أنها جبال تكتنف البيت الحرام ، وهى جبال خليج ٠ وقيعقيان ، وجبل هندى ، وجبل لعلع ، وجبل كدا ، وجبل أبى حديد ٠ وجبل أبى قبيس ٠

ولا يلتفت الكاتب الى ما قاله البراهمة المحرفون من أن البيت هو هيكل الانسان وجسمه ، وذلك لأنه قول لا اعتبار له ، اذ أنه يتنافى مع وصـــف القدسية المذكورة وصفا للبيت ، ولا الى أنه بيت الملائكة ، فلا يوصف الانسان بأنه بيت الملائكة ٠

ويسترسل الكاتب فى بيان أن كتب البراهمة قد اشتملت على اشارة الى ما يلاقيه النبى صلى الله عليه وسلم من عداوات ، ويشير الى عدد الذين حاربوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى موقعة بدر وانتصاره عليه (١) ٠

وقد تشكك بعض النصوص فى الكاتب الهندى ، ولكن الكاتب لم يعتمد على أوهام توهمها ، لم يعتمد على وهمه ، أو خياله ، انما اعتمد على المنقول ، وفسره تفسيرا تحتمله الألفاظ ، ولا يجافى العقول ، والذين خالفوه فسروها تفسيرا لا تقبلها العبارات ٠ بل تناقضها ، وهى مخالفة للمعقول ، كتفسيرهم بيت الملائكة والقداسة بأنه جسم الانسان ، وكتفسير الرب بالأب ، وغير ذلك ٠

٤٩ ـــ ولقد ذكر الكاتب الأستاذ عبد الحق اشارة تبشر بالنبى محمد صلى الله تعالى عله وسلم من كتاب زندافستا ، انه وصف فى هـــذا الكتاب

---

(١) كتاب مطلع النور للأستاذ المرحوم عباس محمود العقـاد ص ١٣ بتصريف قليل ٠

ببعض الأوصاف التى جاءت فى القرآن الكريم ، فقد وصف بأنه رحمة للعالمين، والله تعالى يقول فى الكتاب المبين **«وما أرسلناك الا رحمة للعالمين»** وذكر أنه يدعو الى الواحد الأحد الذى ليس له كفء ، وليس له أول ولا آخر ، ولا ضريع ولا قريع ، ولا صاحب ولا أب ولا أم ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا مسكن ولا جسد ، ولا شكل ولا لون ولا رائحة ٠

ولا شك أن هذه أوصاف للذات العلية ، وهى من الوحدانية فى الذات والصفات ، ووحدة الخلق والتكوين ثابتة واضحة ، ونتيجة لهذا وحدة العبادة فلا يعبد الا الله تعالى ٠

ويقول الأستاذ العقاد « ويشفع (رأى الأستاذ عبد الحق) ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبىء عن دعوة الحق التى يجىء بها النبى الموعود، وفيها اشارات الى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف « ان أمة زرادشت حين ينبذون دينهم ، يتضعضعون ، وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون نحوكعبة ابراهيم التى تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان ، وطوس وبلخ ، وهى الأماكن المقدسة للزرادشتين ومن حاورهم ، وان نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات (١) ٠

وهنا نقف وقفة قصيرة ، فان هذا الكلام يدل على أن زرادشت كان نبيا ، وان ديانته ديانة سماوية ، والا ما اشتملت على هذه البشارات ، وما كان لها عندنا اعتبار ، لولا أصلها السماوى ، وكيف يتفق هذا مع ما يقال فى كتب الفرنجة من أن زرادشت كان يدعو الى القوة ، والى معاضدة الأقوياء ، وافناء الضعفاء حتى وجدت فلسفة فى أوروبا تدعو الى افناء الضعفاء ، وألا يكون لهم مكان فى الوجود ، وذلك يتنافى كل المنافاة مع أخلاق النبوة السماوية ، وما تدعو اليه الأخلاق الانسانية الكاملة ، فان حق الحياة كانت لكل الأحياء ، والضعيف لا يموت أو يبخع بحق قانون الأخلاق وقانون السماء ، ولكن يعاون ويعيش ، حتى يبلغ أجله ٠

والجواب عن ذلك أن هذه النصوص موجودة فعلا فى كتب الزرادشتية ، وهى تؤدى بمنطقها الى أنها جاءت على لسان رسول فى كتاب سماوى ، فقد وقعت الحوادث ، كما ذكرت فقد تضعضع الشعب الفارسى فعلا ، وأدخل أرضه العرب فعلا ، وكان الفارسيون حملة العلم الاسلامى الذى كان رحمة

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٤ ٠

للعالمين ٠ وذلك لا يكون الا من وحى السماء ٠ فليس لنا الا أن نقول ان هنـا رسولا ورسالة ، وكتابا ينطق بوحى الله تعالى ٠

أما ما ينحل الى زرادشت من أنه كان يدعو الى القوة فان كان يراد بها أن يكون المؤمن برسالته قويا فى خلقه وعقله وجسمه ، فان ذلك حق ، وهو يتفق مع مبادىء الأخلاق ، ووسائل الرسل ، وقد أثر عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير » وليس فى هذا ما يمنع أن يكون نبيا مرسلا ، داعيا الى التوحيد ؟ ٠

وان كان يراد أنه يغلب القوة على الحق فذلك باطل ، وتقـــوله أوهام الأوربيين وهو جدير بساستهم ، ولا نظن الا أن فلاسفتهم الذين زعموا هذا قد حرفوا القول عن مواضعه ، كما حرفوا دعوة المسيح عليه السلام ، وادعوا له الألوهية وهو منها براء ، وما قال لهم الا ما أمر الله تعالى به ٠

وكذلك ما يزعمون من أنه أوجب افناء الضعفاء ، انه فيما نرى دعا أهل الايمان الى أن يدرعوا بالقوة ، وأن يعالجوا الضعف ، لا أن يفنوا الضعفاء ٠

وخلاصة القول فى هذا المقام أن البشارات جاءت فى هذه الكتب ، وهى صادقة فيما قالت ، وتنتج اثبات النبوة لمن وجدت فى كتبه ، وليس لنا أن نطعن فى صدق ما تنتجه ، لمجرد أوهام توهمها ناس ينكرون الوحدانية ، وادعوا على عيسى أنه اله ، أو أنه ابن الله ، فليس غريبا أن يدعوا على غيره ما دونها ٠

وقد يقول قائل ان القرآن الكريم عندما ذكر الذين بشروا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يذكر هؤلاء ، بل ذكر أن الانجيل فيه أن المسيح عليه السلام بشر برسول من بعده اسمه أحمد ، وذكر أن التوراة فيها محمد عليـــه الصلاة والسلام مكتوب ، كما قال تعالى : « **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحـــرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه، أولئك هم المفلحون** »٠

والجواب عن ذلك أن أهل الكتاب كانوا يجادلون النبى صـــلى الله تعالى عليه وسلم اذ كانوا على مقربة من دعوته ، فكان يحاجهم بما عندهم ، وكانوا

هم يعرفون هذا النبى ، ويستفتحون على المشركين عندما كانوا ينازلونهم بالنبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ٠

على أن رسالة النبى عليه الصلاة والسلام ما كانت تستمد من شهادة السابقين ، انما كانت قوتها تستمد من ذاتها ، وتحمل فى نفسها الشهادة بصدقها ، والبينات الناطقة بأنها حق ، وأنها من الله العزيز الحكيم ٠

محمد فى التوراة :

٥١ ـــ جاء ذكر محمد عليه الصلاة والسلام فى التوراة بالاشارة الواضحة ، ومع أنه جرى فيها التغيير والتبديل لم يمح ذلك ما فيها من اشارات بينات واضحات الى رسالته عليه الصلاة والسلام مما جعل اليهود يعرفونه على وجه اليقين ، كما يعرفون أبناءهم ، واستفتاحهم على المشركين به قبل أن يبعث ، فلما بعث كفروا ٠

وقد عنى الأستاذ عبد الحق ببيان النصوص العبرية التى فيها البشارة الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت ترجمتها هى « ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم ، وسطع من جبل فارن ، وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم » ٠

وجبل فاران انما هو بمكة ، وقد قال عبد الحق فى ذلك : « ان الشواهد القديمة جميعا تنبى عن وجود فاران فى مكة ، وقد قال المؤرخ جيرون ، واللاهوتى يوسبيوس ان فاران عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من أيلة ، ولا يكتفى بالنقل العبرى وترجمته ، بل ينقل عن النص العربى المترجم ان اسماعيل سكن برية فاران بالحجاز ثم يقرر أن سفر العدد من العهد القديم جاء فيه أن بنى اسرائيل ارتحلوا من برية سيناء فحلت السحابة فى برية فاران ، ويستنبط من ذكر عشرة الآلاف الذين ذكروا على أنهم محمد وأصحابه عندما خرجوا فى غزواتهم الى مكة ، والى الشام ، فقد بلغوا هذا العدد ، وكانوا من الصحابة الأطهار ، ويسوق ما جاء فى التوراة من أن موسى كليم الله تعالى بشر بمحمد عليه السلام بقوله : « ان نبيا مثلى سيقيم الرب الهكم من اخوانكم أبناء ابراهيم » ٠

ويسترسل الكاتب المحقق فى بيان ما جاء بالتوراة من اشارات فيذكر عبارات نبى من أبناء ابراهيم مثلى تثبت أنه محمد عليه الصلاة والسلام ، اذا

لم يجىء أى نبى بعد موسى عليه السلام بشريعة كاملة تبين كل الأحكام غير القرآن الكريم الذى نسخ بعض الأحكام التى جاءت فى التوراة (١)

وهكذا نجد التوراة قد بشرت بالنبى ، واشارات التبليغ قائمة فيها ، حتى بعد أن عراها التغيير والتبديل ٠

وان هذا الكلام لايبشر فقط بالنبى عليه الصلاة والسلام ، بل يبين مكان الرسالة ، ومنبعثها الذى تعم منه مشارق الأرض ومغاربها ، ففاران كما جاء فى أخبار المؤرخين ، والمحققين من الكتاب الأقدمين ، كان بينهـــا وبين أيلة مسيرة ثلاثة أيام ، وكما جاء فى كثير من أقوال المؤرخين كانت حول مكة أو بمكة ٠

وقد ذكر الأحمديون الذين عنوا بترجمة معانى القرآن الكريم ، وان كنا نخالفهم فى أصل ترجمة القرآن ، كما نرى الرأى المبطل لاعتقادهم مـــع ذلك نأخذ كلامهم فى التبشير بالنبى صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهون لهوان غائصها الذى استخرجها ، والحكمة ضالة المؤمن يلقفها أنى وجدها ٠

ذكر الأستاذ المرحوم العقاد ما قاله الأحمديون ، فقـــال :

« ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن (أى معانيه) الى اللغة الانجليزية ، فانها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بحثا مستفيضا فى مقدمة الترجمة ٠٠٠ قالت فيه أن نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء ، وهى التجلى فى سـيناء ، وقد حصـــل فى زمانه ، والتجلى من ســـعير ، أو جبل أشقر ، وقد تجلى فى زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل ، على قول الجماعة الأحمدية واقع حيث يقيم أولاد يعقوب الذين اشتدوا بعد ذلك بأبنـــاء أشعر ، وأما التجلى الثالث فمن أرض فاران ، وهى أرض التلال التى بين المدينة ومكة ، وقد جاء فى كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يحيون الحجاج فى تلك الأراضى بالرياض من برية فاران ٠٠٠ وقد أصبح أبناء اســـماعيل أمة كبيرة ، كما جاء فى وعد ابراهيم ، فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان ولا وجه لاقامتهم ، حيث أقام العرب المنتسبون الى اسماعيل ، ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب ، والرجوع به الى جارية مطرودة من بيت سيدها ، وقد جاء فى التوراة أسماء ذرية اسماعيل الذين عاشوا فى بلاد العرب ٠

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٥٠ ٠

ومن نبوءة أشعيا التى سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة أن أبناء اسماعيل كانوا يقيمون بأرض الحجاز ، ففى هذه النبوءة يقول النبى أشعيا فى الاصحاح الحادى والعشرين تبيتين بقوافل الدادانيين ، هاتوا ماء لملاقاة العطشان ، باسكان أرض تيماء « وأونوا الهارب بخبره ، فانهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب ، فانه هكذا قال الى السير فى مدة سنة كسنة الأجير يغنى كل مجد فيدا ، ويقول المترجمون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة فيدا بهزيمة المكيين فى وقعة بدر ، وهى الهزيمة التى نزلت بهم فى وقعة بدر بعد هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير » (١) وهذا النص يشير ، وكل تبشيرات الكتب بالأخبار المستقبلة يكون بالاشارة التى لا تخفى على المتأمل ، وربما لا يفهمها من يأخذ بظواهر الألفاظ ، لا بمراميها وغاياتها ، وان التفسير بالظواهر لا يجدى ولا يؤدى معانى ، والاتجاه الى المرامى التبشيرية يجعل للألفاظ معانى قائمة بذاتها وواضحة ٠

ويسوق جماعة الأحمدية فى مقدمة تفسيرهم بالانجليزية ، فينقلون عن الاصحاح فى سفر اشعيا ، وهو يرفع راية للأمم من بعيد ، ويصف لهم من أقصى الأرض ، فاذا هم بالعجلة يأتون ، وليس فيهم وازع ولاعاثر ، لا ينعسون ولا ينامون ، ولا تنحل حزم حقائبهم ، ولا تنحل سيور أخذيتهم سهامهم مملوءة ، وجميع قسيهم ممدودة حوافر خيلهم ، كأنها الصوان » ٠

وان هذا النص يدل على الدعوة الى الحج ، وهى قد تدل على بعض قوله تعالى : «**وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير** » ٠

وجاء فى سفر أشعيا فى الاصحاح الثامن : « ولا تقولوا فتنة لكل مايقول هذا الشعب فتنة ، ولا تخافوا خوفة ولا زهوا ، قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدسا ، وحجر كل صدمة ، وصخرة عثرة ٠٠٠٠ » وكما وشرقا لسكان أورشليم ، فيعثر بها كثيرون ، ويسقطون فيتكسرون ، ويعلقون فيلفظون ، صدا شهادة ، اختتم الشريعة بتلاميذى ، فاصطبر للأب السائر وجهه فى بيت يعقوب » ٠

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٧

واننا نرى أن الاشارة بعيدة أو أن الدلالة يعسر ادراكها على وجـــه يقينى ، وحسبنا ما مضى من نقول ففيها ما يكفى ٠

محمد فى الانجيل :

١٥ ـــ جاءت البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى الأناجيل أوضح اشارة منها فى التوراة ، ولنضرب لذلك بعض الأمثال ٠

(أ) جاء فى الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى على لسان المسيح يخاطب بنى اسرائيل : « هوذا بينكم يترك لكم خرابا ، لأنى أقول لكم ٠ انكم لاتروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب » فهو يدل على أن هناك من يأتى بعده مباركا باسم الرب ، ولم يأت بعد الا محمد عليه الصلاة والسلام٠

(ب) وفى الاصحاح الحادى والعشرين من هذا الانجيل على لسان السيد المسيح ما نصه : « لذلك أقول لكم ، ان ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل اثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترخص ، ومن سقط هو عليه يسحقه٠

(ج) وجاء فى انجيل يوحنا فى الاصحاح الأول حديث يوحنا مع الكهنة فى اللاوين ، اذ سألوه : من أنت ، فاعترف ولم ينكر ، وقال انى لست أنا المسيح ، اذن ماذا ! أأنت ايليا ، فقال لا ٠ قالوا أأنت النبى ! فأجاب لا ٠ فقالوا له من أنت لنعطى جوابا لمن أرسلونا ، ماذا تقـــول عن نفســـك ؟ قال أنا صوت صارخ فى البرية ٠

ولا شك أنه كان تنبؤ عن نبى ليس هو المسيح ولا هو نبيـــا ، فمن يكون هو غير محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

(د) وجاء فى الاصحاح السادس من انجيل يوحنا الذى صرح بألوهية المسيح فيما يزعمون جاء فيه على لسان المسيح ، « انه خير لكم أن أنطلق لأنى ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن ان ذهبت أرسله اليـــكم ، ومتى جاء اليكم يبكت العـــالم على خطيئته ، وعلى بره ، وعلى دينونة ، فأما على خطيئته فلأنهم لا يؤمنون به ، وأما على بره فلأنى ذاهب الى أبى ولا تروننى أيضا ، وأما على دينونة الله ، فلأن رئيس هذا العالم قددين ، وأن لدى أمورا كثيرة أقولها لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تتحملوها الآن ، وانما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى الحق جميعه ، لأنه لا يتكلم عن نفســـه بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ، وذاك يمجدنى لأنـــه يأخذ مما لى ويخبركم ، وبعد قليل لا تبصروننى » ٠

وان هذا الكلام اذا اطرحنا عبارات الآب ، والألوهية المدعاة ، يتبين أنه يتنبىء عن المعزى الذى يجىء بعده ٠ وانه ينطلق ليخلى له الطريق وانه يبكت على خطيئته ، وهو انكار نبوة المسيح ، ويبكت على بر بالمسيح فى زعمهم ، لأنه يبكتهم على ادعائهم الوهية المسيح لله سبحانه وتعالى المنزه عن الصاحبة والولد ٠

ثم انه يصرح الى أنه يدعو الى الحق جميعه ، لأنه اتى بالشريعة كاملة غير منقوصة خالدة لكل زمان ومكان ولكمالها كانت هى الخالدة ، فمن غير محمد يكون وان المعزى للخليقة الذى ينكر الخطايا ، وينكر غلو أهل الكتاب فى دينهم انه محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد جاءت نصوص الأناجيل الحاضرة بأن المسيح يبشر بالفارقليط ، والفارقليط هو أحمد اذ أن ذلك هو المعنى اللفظى للفارقليط (١) ٠

على فترة من الرسل :

٥٢ ـــ ان نظرت الى العالم شرقا فى أقصاه ، أو غربا فى أقصاه ، أو القريب الدانى ، أو البعيد النائى ، فانك واجد أن العالم فى حاجة الى من يهديه من ضلاله ، فالفلسفة لا تصلح الناس ، ولو استقامت على الطريقة ، لأنها ان اقنعت الخاصة لا تملأ نفوس العامة ، ولا تهديها الى سواء السبيل ، وهى ما استقامت فما أصلحت أحدا ٠

والعقائد قد اعتراها التحريف ، فاليهود حرفوا التوراة عن معناها ، ونسوا حظا كثيرا مما ذكروا به ، ونظروا الى الناس جميعا ، على أنهم دونهم ، وأنهم ليسوا عباد الله مثلهم ، وأن الله تعالى خالقهم كما خلق غيرهم بل زعموا أنهم المختارون وأن كل الناس دونهم ، وبذلك عاثوا فى الأرض فسادا، ولما ذلوا وهم على الاعتقاد بأنهم شعب الله المختار ، حقدوا على الخليقة ، وعملوا بكل الوسائل للكيد لغيرهم غير متحرجين ولا متاثمين ، بل انهم يغرون بالعداوة بين الناس ، وينشرون الفساد فى غير تحفظ ، ولا مراعاة لأى جوار فى أى مكان ، فكان لابد من نبى يأتى بدين قوى يكفكف غرورهم وينهنه من غلوائهم ٠

---

(١) قد كتب بعض تلاميذنا المسيحيين كتابا قيما يبين فيه بعض نصوص الأناجيل بنبوة المسيح عليه السلام ، وقد طبع ٠

والنصرانية انحرفت ، وخرجت عن مبادىء المســـيح وغـلـوا فيه ، واستبدلوا بأدب المسيح وسماحته استعلاء واستكبارا فى الأرض وعتوا وفسادا فكان لابد من رسول بشير ونذير ، يهدى الى الحق والى صراط مستقيم •

« يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير » •




الرسول
صلى الله عليه وسلم



محمد من أوسط قريش نسبا

٥٣ — التقى ابو سفيان بن حرب بهرقل بعد أن ظهر أمر نبــوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشاعت دعوته ، وسمع الرومان برسالته ، فسأله عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أسئلة كان من بينها السؤال عن نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبو سفيان ، **وهو خصم شديد اللدد** قوى الخصومة عندما سئل فى ذلك ، فقال غير كاذب : « انه من أوسط قريش » أى أعلاهم لأن الأوسط هو الأعلى والأشرف · فقال هرقل هكذا يبعث الانبياء من أشراف الناس نسبا ·

وأخبار القرآن عن الأنبياء السابقين تثبت أنهم كانوا من أعلى الناس فى قبائلهم من حيث مكانة أسرهم ، ولنضرب لذلك مثلا بشعيب عليه الصــلاة والسلام ، فقد كان من رهط شريف ، وكان نسيبا فيهم ، ولقد قال الله تعالى فى مجادلته لقومه « **قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وانا لنراك فينـا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما انت علينا بعزيز ، قال ياقومى أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان ربى بما تعملون محيط** » ·

وان هذا النص الكريم يدل على أن شعيبا عليه السلام كان من قبيل فيهم شرف ، وفيهم عزة ومنعة ، وبذلك كان من أوسط العشــائر وأعــلاها فى مدين ·

ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أسرة فيها سمو وعلو فى قومه ، وقد روى ابن عباس أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لم يزل الله عز وجل ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة صفيا مهذبا، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما ·

وفى الصحيح من حديث وائلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » ·

وبذلك يتقرر أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان رفيع النسب ، وليس المراد بشرف النسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير ، وأن يكون قد نال منهم تركة مثرية كبيرة ، فان المال لا يكون نسبا ، وقد كان عمه أبو طالب كبيــر

البطحاء وشريفها ، وكان مع ذلك فى المال قلا ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع علو نسبه بين العرب كان فقيرا ، وكان يتيما ، وكان يرعى الغنم ، فليس علو النسب والشرف ملازما لكثرة المال ، أو قوة البطش ، أو عظمة السلطان ، انما شرف النسب أن يكون من كورة يعلو آحادها عن النقائص ، ويخشون العار من أن يقعوا فى رذيلة يستنكرها العرف ، ويستهجنها ذوو العقول السليمة ، وأن يكون لهم شرف نفسى ، ولم يجعل النبى عليه الصلاة والسلام شرفه فى العرب بالمال ، أو السطوة ، بل جعل شرفه بأنه من خيرهم نفسا وبيتا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « جعلنى فى خيرهم بيتا وخيرهم نفسا » ٠

وانظر الى أبى سفيان الذى كان من أعلى قريش عندما سأله هرقل أجاب بالصدق والأمانة ، وان كان صدقه حجة عليه ، ومعطيا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قوة ، واستعلاء بدعوته ورسالته ، ويقول أبو سفيان وهو على الشرك : « لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت » ٠

٥٤ ـــ ولماذا كان الأنبياء لا يكونون الا من كورة عرفت بشرف النفس وعلو المحتد ، وان تولدت الرفعة من غير كبرياء ، واحترام النفس من غير استعلاء ٠ ذلك ، لأن الرسالة تحتاج الى دعوة قوية لا يرنقها كدرة التعييب ، أو عدم الثقة ، أو نقص فى شرف النفس ، أو رميه بالذيلة ابتداء ، وان كان هو فى ذاته كاملا ٠

ان النسب الذى ليس فيه رفعة ، ولم يعرف بأنه من عشيرة ذات تقاليد فاضلة ، كان أول ما يبادر به هو الرد ، لعدم شرف أسرته ، وانما نجد النبيين كانوا يعيرون بأن أتباعهم من أراذل القوم ، لا من أشرافهم ، ولا من ذوى النسب ، ويتخذون ذلك ذريعة لرد الدعوة ، وان كانوا فى ذلك ظالمين ، وان رد قوم نوح أبى الانسانية الثانى ليبين هذا ، فقد قال تعالى عنه وعن قومه الذين ردوه « **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين ٠ قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده ، فعميت عليكم أنلزمكموها ، وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين** » ٠

ان اعتراضهم على أن الذين اتبعوا نوحا عليه السـلام هم أراذلهم اعتراض ظالم ، ولكن الله تعالى أرحم بعباده من أن يأتيهم بنبى مغمـور فى أسرته ، منكوب فى أمر أمته ، مرذول ابتداء عند قومه ، فيبادرون بعدم تصديقه، ويجاهرون ابتداء بمخالفته ، ويصرون ، ويأخذون حجتهم من حال عشيرته وما يألفون ، وان التـأثير فى الأقـوام لا يكون باكراه النفـوس على عكس ما يبدو لها ، وما تبادر برده ، لأن المبادرة بادى الرأى بالرد تجعـل النفس تبتدىء بالانحراف عن الخط المستقيم الذى تدركه العقول ، واذا انحرفت زاوية التفكير بأمر منفر بادى الرأى ، فانه يستمر فى خط الانحراف ، ولا يرجع الى الحق ، الا بعسر ، وانه كلما استطال خط الانحراف انفرجت الزاوية ، ويصعب التلاقى من بعد ، ورضى الله تعالى عن على كرم الله وجهه اذ يقول : « ان للقلوب شهوات ، واقبالا وادبارا ، فان القلب اذا أكره عمى » ودعوات الرسل للهداية ودعوات الرسالة للهداية ، وليست للعماية ٠

٥٥ ــ ولا شك انه يجب أن يكون للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم منعة من قومه ، لأنه يبادر الناس بالمجاهرة بغير ما يعلمون ، وما يعتقدون ، ويصدع مفاجئا بما لا يريدون ، وانهم بلا ريب يجدون أنه لا يدفـع ما يجىء على غير رغبتهم بالحسنى ، بل بالمقاومة الحقيقية القـوية ، واذا لم يكن له منعة من قومه يقتلونه فى فجر الدعوة قبل أن يصبح صباحا ، ويكون لها ضوء فى المجتمع ، ولو كان ضئيلا ، فانه من بعد يكون نورا ، ولو أطفىء النور عاش فى ظلام لا يضىء أبدا ، وانظر الى قصة قوم شعيب ، اذ أنه لم يمنعهم من أن يقتلوه الا رهطه ، فقد قالوا فيما حكاه القرآن الكريم عنهـم ممـا تلونا : **« ولولا رهطك لرجمناك »** ٠

فلو كان الرسول فى غير رهط يمنعه ، وفى غير منعة تدفع أعداءه لماتت دعوته فى مهدها ٠

وما لنا نغوص فى الماضى قريبا كان أو بعيدا ، ونحن بين يدى حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، اذ أن قريشا عندما صدع بأمر ربه ، عارضته، ولجت فى المعارضة ، ولما لجت فى المعارضة ساورتها نزعة الشر لقتله ، وما كان يمنعها الا أسرته ، وشرف هذه الأسرة ، ومكانتها عند العرب ، وخوفها من أن تبادر بالثأر ، ودفع العار ، حتى تمكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يخـرج بدعوة الحق من الفجر الذى يشق الظلام الى الصباح المشرق المنير ، بل الى الضحى الذى يملأ الوجود ضياء ، عندئذ قيض الله تعـالى من يمنعه ، وقد وقفت الدعوة تناضل عن نفسها ، وترد كيد الكائدين ٠

٥٦ ـــ وقد يقول قائل انهم ان لم يستطيعوا النيل من شخصه ، فقد نالوا ممن يتبعونه ، ووقفوا محاجزين دون أن تصل دعوته الى الضعفاء ، فلم يمنعهم مكانه فى أسرته من أن ينالوا من صحابته ، ويعوقوا رسالته ، وقد مات فعلا بعض الضعفاء من الصحابة تحت حر العذاب ·

ونقول ان هذا دليل على أنه لو كان صاحب الدعوة كأولئك الضعفاء لم يوجد من يمنعه ـ لقتلوه ، وقالوا انه أصلها فلو قتلناه لزالت ، فيستكلبون عليه وتموت الدعوة فى مهدها ، فيجعلون بوقفها ·

وانه يلاحظ أن الأذى الذى كان ينزله المشركون من قريش بالمؤمنين كان يتفاوت مقداره بمقدار قوة أسرهم ، ومكانتهم فى النسب الذى كان موضع فخارهم ، فكان لأبى بكر وعثمان ، لون ما كان لآل ياسر ، وآل خباب ابن الأرت ، وكان لهؤلاء الذين لا ناصر لهم أشد ما يلاقى الانسان من أخيه الانسان ، حتى كانوا كالذين عذبوا بالأخدود كما نوهنا من قبل ، وكما جاء فى القرآن تعالت كلماته ، وسمت عن القيل عباراته ·

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ناله الأذى ، وأصابه العنت من أولئك ، ولكن دون أن يفكر فى قتله الا بعد أن يئسوا من أن يقفوا الدعوة وبعد أن وجدوه يعمل على توجيه دعوته الى خارج مكة ، وقد أخذ نورها يتجه الى القبائل العربية ، فحاولوا أن يقتلوه ، ولكن قد آن له عليه الصلاة والسلام أن ينشىء دولة الايمان ، وقد تكاملت عناصر تكوينها ، ولكن فى غير أرض مكة ·

وهكذا اختبر الله أهل الايمان بالشدائد ، حتى هاجروا فرارا بدينهم ، لأن الشدائد تملأ القلوب صرامة ، وتعطى الارادة عزيمة ، فلا تهن ولا تضعف ، ولا تحزن ولا تيئس من روح الله ، ومن أن تكون كلمة الله تعالى هى العليا ، وهكذا يربى الرجال الذين يكونون دعائم الحق ، قال تعالت كلماته « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ، الا ان نصر الله قريب** ·

٥٧ ـــ كان لابد لنبى الرحمة أن يكون فى كل حياته رحيما ، فيربى على الرحمة بالضعفاء صغيرا ، يكون بينهم ضعيفا ليحس بآلام الضعفاء والمساكين ، فليس رحيما من لم يذق مثل ما فيه حال الضعفاء ·

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أنه كان نسيبا من أعلى نسب فى قومه قد كان فى المال قلا ، وابتدأ حياته يتيما ، ثم كـان أجيرا فى رعى الغنم ، فالتقى فيه مهذبان : أحدهما ـ النسب الرفيع الذى يجعله لا يتجه الى سفساف الأمور ، بل يتجه الى معاليها ، ليتكافأ نزوعه مع شرفه ، فيتلاقيا ، ويتوافرا على اعلائه ، وبذلك حفظ محمد شرف النسب ، فكان الصادق الأمين، الذى لم يكن فيه ما ينقص نسبه ، ويضعف شرفه العظيم ، فكان النبيل حقـا وصدقا ، وكان الكامل بين ذوى الأنساب ، والمتبع من غيرهم ٠

المهذب الثانى اليتم وقلة المال ، وان هذا المهذب من شأنه أن يجعله موطأ الكنف للضعفاء من العبيد ، والعاملين والفقراء ، فلا يستكبر ، ولا يستعلى ، بل يكون قريبا منهم ، أليفا معهم من غير أن يناله ذل الفقر ، وضعف الحاجة واستخذاء المسكين ، فهو العالى الرفيع ، وهو الذى ينبع معين الرحمة من بين جنبيه ، فان الرحمة تنبع من بين الشدائد ، والرحيم هـو الذى يذوق الشديدة من غير أن تذله ، ليرحم غيره ، ولا يعترى نفسه حقدا على من هو أعلى منه ، بل هو ينظر دائما الى من دونه ليعليه ، وليحميه ، ويعينه ٠

ان هذين التهذيبين قد توافرا فى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاتجه منذ صباه الى معالى الأخـلاق التى تليق بذوى الشرف والرياسة ، ولم يتخذ الشرف سبيلا للاستطالة على غيره ٠

وان يتمه وفقره ، وعمله فى ميدان الأجراء الضعفاء جعله قريبا مألوفا غير متعال ، يحس أنه من الضعفاء فى اخلاصهم ، ومع الأشراف فى امتناعهم عن الدنية فى أعمالهم ، وفى كل أحوالهم كان العطوف الأليف ٠

وانه يلاحظ فى استقراء أحوال الناس أن الضعفاء دائما اذا لم ترنق قلوبهم بحقد ، ولا حسد للناس على ما آتاهم الله من فضله ، يكون فى قلوبهم اخلاص ، ومع الاخلاص اشراق النفوس الذى ينزع بها الى الحق ، والى صراط مستقيم ، ذلك لأن قلوبهم لم تصبها كدرة الهوى ، والشهوات واللذات التى يدفع اليها المال ، أو يسهل سبيلها ، واستغراق النفس بها ، فيكون الانسان قريبا من الايمان سرعان ما يدخل قلبه الايمان ، ولذلك كان أول من يجيب دعوة الأنبيـاء ويؤمن بها ، وأول من يجيب دعـوة أى حق ويؤمن بهـا الضعفاء ٠ والفقراء بهـذا القيد الذى ذكرناه ، وهو ألا يدنس قلوبهم حقـد ، ولا حب انتقام ، ولا حسد يطفىء موضع الايمان فى قلوبهم ٠

لقد أوتى النبى عليه الصلاة والسلام الرحمة بالضعفاء ، لأنه أحس بأنه منهم ، من غير أن يناله ما عساه يكمن فى نفوس الضعفاء من استكانة ، ورضا بالدون من السجايا المرهقة المذلة ، لأن الضعيف اذا لم يصب بالحقد أصيب بنوع من الرضا بالقليل ، وعدم المطالبة بحقه الهضيم ، وان ذلك قد يجر الى الاستخذاء ، والنبى عليه الصلاة والسلام أوتى مزايا الفقـــر من اخلاص واتجاه الى الطريق المستقيم ، من غير تدلى الضعفاء الى هوان ، أو اذلال ، لأن علو النسب منعه ، وأبعده عن ذلك ، فالتقت فيه الحسنيان ، حسنى النسب، والاخلاص لله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك تهيئة للرسالة الالهية الرافعــة للانســانية ٠

النسب الطاهر

٥٨ — يذكر المؤرخون للسيرة الطاهرة ، سيرة خير الأنام محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، ولكن لا تعرف سلسلة النسب كاملة اليه ، بل ان التاريخ لا يحفظ الا عشرين منها ، فهو محمد ابن عبد الله ، بن عبد المطلب ، واسمه شيبة الحمد ، بن هاشم واسمه عمرو ، ابن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، ابن قصى واسمه زيد بن كلاب بن مرة ، بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، ابن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن الياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

وهذا التعريف بنسبه الكريم ، هو المجمع عليه بين كتاب السيرة ، ولقد كان ذلك التعريف كما تدل الرواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، فقد كان يقول : « كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذا انتهى الى عدنان أمسك ، ثم يقول كذب النسابون ، قال الله تعالى : « **وقرونا بين ذلك كثيرا** » .

وان هذا الخبر المنسوب للنبى عليه الصلاة والسلام يدل على صدق تلك السلسلة الكريمة أبا عن جد الى أن ينتهى الى عدنان ، وان حفظ النبى لهؤلاء فقط يدل على أمرين .

أولهما — الشك فيمن فوقهم ، وأنه لم يصل اليه عن طريق صحيح ، وأنه وصل الى الناس عن طريق النسابين ، وأن النسابين قد يدفعهم الفخر الى الكذب والافتراء .

ثانيهما — أنه يدل على صدق هذا النسب ، فما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليقول الا حقا ، فهو الصادق الأمين ، ويظهر أن ذلك القدر من النسب الرفيع هو الذى كان معلوما فى حكم المتواتر ، أو المشهور عند العرب، وغيره موضع شك ، والقول فيه رجم بالغيب ، وأخذ بالتوهم أو الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا .

وما كان أولئك معروفين الا لأنهم أثرت عنهم مآثر ، صارت مفاخر لذرياتهم ، وان كان النبى عليه الصلاة والسلام لم يفخر قط بنسبه ، ومع ذلك هو من خيار الأقوام ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « ولدت من خيار من خيار من خيار » فهو يذكر الخير فيهم ، ومكان الشرف فى أسلافه ويمتنع من أن يستعلى بهم ، والتفاخر استعلاء واستطالة بالنسب ، وقد يكون فيه شحناء ، والشحناء ليست من شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم .

٥٩ — وان الظاهر أن أولاد عدنان قد أقاموا بمكة منهم من هو فى سلسلة نسبة النبى عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن اسماعيل عليه السلام ، كانت اقامته قرب مكة ، وهو بانى الكعبة ، ولأن النسابين ذكروا انه كان أولئك العشرون بها ، ولأنهم كانوا معروفين فيها كابرا عن كابر ، وما يعرفون الا لاقامتهم بمكة التى قام بها الأخلاف من بعدهم ، ولتقديس الكعبة ومكة ، ووفود الناس اليها من كل فج عميق ٠

ولقد ذكروا أن بعض ذرية عدنان أقام باليمن ، وانسل فيها نسلا ، وذلك لأن عدنان ولد له ولدان أحدهما معد ، والثانى عك ، فتزوج هذا من الأشعريين ، وهم بنو أشعر الذين يقيمون باليمن ، فانتقل الى موطن زوجته باليمن ، ثم كان من بعض منهم من كان بعض ولده يخرج من مكة ، وينفرد بالبقاء فيها من يدخل فى سلسلة النسب ، كما رأيت فى معد ، وأخيه عك ، فهذا هاجر الى اليمن مع أسرة زوجه ، وبقى معد فيها ٠

وجاء معد ، فكان مثل أبيه فكان من أولاده قضاعة الذى تنسب اليه هذه القبيلة ، وكان نزار هو الذى استمر بمكة ، حتى كان منه ولده من بعده من يدخلون فى نسبه عليه الصلاة والسلام ٠

وكان من أولاده ربيعة الذى ينسب الربعيون ، وانمار ، وأياد ، وهذان كانا أبوين لقبيلتين ، وكان ابنه مضر الذى كان جد النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو الذى أقام بمكة المكرمة ٠

وكان لمضر ولدان هما الياس ، وغيلان ، ومضر خيرهما ، هو الذى يدخل فى نسب النبى عليه الصلاة والسلام ، ويظهر أنه فى عهد الياس اخذ بنو اسماعيل يغيرون ما ورثوا من شريعة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام فأنكر عليهم ما غيروا من سنن آبائهم وسيرتهم ، ويقول فى ذلك صاحب كتاب « الاكتفاء » : بأن فضله عليهم ، ولأن جانبه لهم ، جميعهم رأيه ، ورضوا به رضاء لم يرضوه لأحد من ولد اسماعيل ، فردهم الى سنن آبائهم ، حتى رجعت سنتهم قائمة على أولها ٠

وجاء من بعد الياس ابنه مدركة ، واسمه عامر ، وله ابنان آخران ، لكن هذا كان المختار منهم ، وسماه مدركة لأن ابلا كانت قد نفرت منهم ، فتقاصر الولدان الآخران عن تتبعها ، ونهض عامر ، لردها من نفارها ، وقد بعدت ، فأدركها فردها ، فسمى مدركة وصفا لهذا العمل ، وكان لمدركة خزيمة وهذيل فكان خزيمة المختار ليكون جدا للنبى عليه الصلاة والسلام ، كان جد لهما ، وولد لخزيمة ـ كنانة وأشد وأشدة والهون ، وكان كنانة هو المختار ليكون النبى عليه الصلاة والسلام من صلبه ٠

وكان لكنانة عـدة أولاد ، ولكن الـذى اختار الله تعـالى ، ليجـرى فى صلبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو النضر المختار من بينهم ، ويقال ان النضر هذا هو الذى جمع قريشا ، ولكن الأكثرين على أنه فهر حفيـــده الذى هو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

والنضر كان له أولاد كان أنجبهم فهر جد النبى عليه الصلاة والسلام ٠

وكان فهر هو مجمع قريش ، وكان يسمى قريشا ، وقد كان فيه حكمة ، وخلق سوى ، وقد قال فى وصيته التى قالها لولده غالب الذى أعقبه فى الزعامة وهو المختار ليكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من صلبه ، فقد قال لابنه غالب عندما حضرته الوفاة ٠

« يا بنى ان فى الحزن قبل المصائب اقلاق النفوس ، فاذا وقعت المصيبة برد حرها ، وانما القلق فى غليانها ، فاذا أنا مت فبرد حر مصيبتك بما ترى من وقع المنية أمامك وخلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، وبما ترى من آثارها فى محبى الحياة ، ثم اقتصر على قليلك ، وان قلت منفعته ، فقليل ما فى يدك ، كان خيرا لك من كثير ما أخلق وجهك » ٠

ولقد كان غالب له أولاد ، وقد خلفه فى زعامة قريش لؤى ، وقد كان لؤى هذا فيه حكمة كأبيه وجده ، بدت وهو غلام حديث ، فقد جرت مناقشة بينه وبين أبيه غالب دلت على حكمة قلبهما ٠

قال الغلام لأبيه : يا أبت من رب معروفا قل اخلافه ، ونضر ماؤه ، ومن أخلفه أهمله ، واذا أهمل الشىء لم يذكر ، وعلى المولى تكبير صغيره ونشره ، وعلى المولى تصغير كبيره وستره ٠

فقال الأب الحكيم : « انى لأستدل بما أســمع من قولك على فضـــلك ، واستدعى لك به الطول على قومك ، فان ظفرت بطول ، فعد به على قومك ، وكف غرب جهلهم بحلمك ، ولم شعثهم برفقك ، فانما تفضل الرجال الرجال بأفعالها ، ومن قايسها على أوزانها أسقط الفضل ، ولم تعل به على أحد ، وللعليا فضل أبدا على السفلى ٠

خلف الغلام بعد أن اكتمل رجلا أباه ، وقد ولد له أولاد ، كان كعب أعقلهم ، وأفضلهم ، وهو جد النبى ، وقد كان حكيما كأبيه وجده ، ويذكر رواة السيرة أنه قال هذه الخطبة :

« أيها الناس اسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ونهار وضاح ،

والسماء بناء والأرض مهاد والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثا ، لتضربوا عن أمرها صفحا ، الآخرون كالأولين ، والدار أمامكم ، واليقين غير ظنكم ، صلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم ، وأوفوا بعهدكم ، وثمروا أموالكم ، فانها قوام مروءاتكم ، ولا تصونوها عما يجب عليكم ، وعظموا هذا الحرم ، وتمسكوا به ، فسيكون له نبأ عظيم ، وسيخرج نبى كريم » ٠

هذا ما يقوله كتاب السيرة فى نسبة الخطبة اليه ، وليس لنا أن نحكم بصدق النسبة أو تكذيبها ، ولكن نحملهم مغبة ذلك ، ان صدقا وان كذبا ٠

وقد كان لكعب بن لؤى أولاد خيرهم مرة جد النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد كان أحد الرجال الذين تفاخر بهم قريش ٠

وقد جاء من بعد مرة كلاب ، وهو جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ثم جاء من بعده ولده قصى وهو خير أولاده ، وأظهرهم ، وأبينهم أثرا فى قريش فهو الذى جمع الله به قريشا ، وكان اسمه زيدا ، فسمى مجمعا ، لما جمع من أمرها ، ويسمى قصيا لتقصيه أمورها ، وان قصيا على هذا جد قريب ، وليس من الأجداد الذين يبعد عهدهم به عليه الصلاة والسلام ، وله شأن خاص فيما يتعلق بسدانة الكعبة ، ورياسة الندوة وغيرها ، فلابد أن نخصه بكلمة ٠

قصى :

٦٠ ـ قد ترك أبوه كلاب ولدين أحدهما قصى ، والثانى زهرة ، وكلاهما جد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقصى جده عليه السلام ، وهو الجد العصبة ، وأما زهرة فهو جده لأمه ، فهو الجد الرحمى ، وكان كلابا بهذا قد جمع الله تعالى له شرفين ، فهو جد النبى عليه الصلاة والسلام لأبيه ولأمه ، فالتقى فيه الشرفان ٠

وقد طوف قصى فى بلاد العرب ، فهو فى أول حياته لحق بأمه فى قضاعة، فأقام معها ، وقد كان فتى قويا كريما أبيا يأبى الضيم والعار ، ناضل يوما شابا من قضاعة فنضله قصى ، فغضب المنضول ، وحزت فى نفسه حرارة السهام ، وسبة الهزيمة ، فتنازعا فى القول ، فقال المهزوم : الا تلحق بأهلك فلست منا ، ويظهر أنه الى هذا الوقت ما كان يعرف أباه وشرفه ، فقد عاد الى أمه وشكا لها من مرارة القول الذى سمعه ، فقالت له أنت والله يا بنى أكرم منه نفسا ووالدا ، ونسبا ، وأشرف منزلا ، أنت ابن كلاب بن مرة ابن

كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، وفيما حوله ، تفد العرب الى ذلك البيت ٠

أجمع قصى بعد ذلك الخروج ، واللحوق ، وضاق ذرعا بالبقاء غريبا ، فقالت له أمه لا تعجل ، حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخــرج فى حاج العرب ، فانى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس (١) ٠

انتقل قصى الى أسرة أبيه فى مكة بعد أن جاءت الأشهر الحرم ، وخرج حاجا ، وكان جلدا بهذا نسيبا ٠ ولم يلبث أن نال سدانة البيت الحرام ، ولم يكن من قبله لقريش بل كانت لخزاعة ، وكان له الأمر فى اجازة الحج للناس ، وكان ذلك لغير قريش ، فانتزع تلك الولاية بحيلة الداهية ، وقوة ذى البأس ٠

ولى بهذا قصى سدانة البيت،وامرة مكة،وجمع قومه من منازلهم،واجتمعت فى يده بمقتضى الولاية سدانة البيت وامرة مكة والحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء ، ومعنى الحجابة أن يملك مفاتيح البيت ، فلا يفتح الا بأمره ، ومعنى السقاية تولى سقاية الحج ، والرفادة كانت خرجا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها وتعطيه قصيا ، فتصنع به طعاما للحجاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وقد سن هذه السنة الكريمة ، ودعا اليها قريشا ، وقال فى خطابه لهم بذلك :

«يا معشر قريش انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وان الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم » ٠

ومعنى اللواء ألا يعقد لقريش لواء الا بيد قصى هذا ، ومعنى الندوة دار الشورى لقريش ، ثم كانت من بعد ذلك للعرب ، فكانت تعقد فى دار قصى ٠

وقد أعطى كل هذه الحقوق التى نالها بهمته لابنه عبد الدار ، ليعزه بها ، وأراد أن يرفع خسيسته وينال الشرف على بنى عمه من قريش ، ولذلك قال له أبوه عندما أعطاه اياها : « أنا والله يا بنى لألحقنك بالقوم ، وان كانوا قد شرفوا عليك » ٠

---

(١) الاكتفاء ص ٧٣ جـ ١

وكان عبد الدار هذا ولده البكر ، وله ولد آخر هو عبد مناف ، وقد شرف فى مكة بذاته ، ونبل أمره ، وقد ذهب كل مذهب ، وأبوه حى ٠

وقد أراد أبوه باعطائه عبد الدار ما أعطى أن يتعادل الأخوان فى الشرف الذى وصل اليه الأول بذاته ونبله ، وتخلف الثانى ، فأعطاه ما يعوض تخلفه ٠

وعبد مناف هذا هو الجد الرابع للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أعطى الله لعبد مناف أولادا أربعة هم عبد شمس جد الأمويين ، والمطلب الذى ربى عبد المطلب الذى يعد اسمه الأصلى شيبة الحمد ، ونوفل ، جد جبير ابن مطعم ٠

٦١ — وكان أولئك الأربعة فيهم شرف ذاتى كشرف أبيهم ونبله ، فلم يتركوا لعبد الدار وأولاده ما أعطاه جدهم قصى ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لفضلهم فى قومهم ، وقد انقسمت قريش فى تمكين بنى عبد مناف من نزع ما بأيدى أولاد عمهم ، فرأى بعضهم أنهم أولى لمكان فضلهم ، وليس امرة مكة وزعامتها عطاء يعطى من لا يستأهله ، بل يوسد الأمر لمن هو له أهل ، ورأى آخرون أن بنى عبد الدار أولى ، لأن قصيا صاحب الحق هو الذى أعطى اباهم ، ولأنه بأيديهم ، ولا ينزع من يد صاحبه لغيره ، ومن قريش طائفة التزمت الحياد ٠

وقد كان خلف شديد انتهى الى صلح سديد ، لأن المختلفين أزمعوا الحرب ، وحيث بلغ الخلاف اقصاه تنبه المختلفون اذ نبهتهم العاقبة المرتقبة الى أن يكفوا ، أو يكف كل فريق عن غلوائه ، فتداعوا الى الصلح ٠

اصطلحوا على أن يكون فى بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء ، والندوة فى بنى عبد الدار كما هى ٠

وكان هاشم أصبح بنى عبد مناف ، وأنقبهم صحيفة ، ولذلك كان له الشرف على اخوته ، ونال مما أخذه بنو عبد مناف ، وكان ينفس عليه أخوة عبد شمس ما كان له من شرف ذاتى ، ومكانة عند العرب عامة ، وعند قريش خاصة ، وقد أعقبه فى شرفه مربى النبى عليه الصلاة والسلام عبد المطلب ، وهنا نقف وقفة عند عبد المطلب ٠

عبد المطلب :

٦٢ — نقف عنده وقفة قصيرة ، لأنه هو الذى حضن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى سن الحضانة ، وعبد المطلب أمه من يثرب مهاجر

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهى من بنى النجار بها ، وقد شب فى حياته الأولى فيها ، وقد تربى بينهم فى دار الغربة ، حتى أتى به عمه المطلب ، ودخل مكة ، ولزم صحبته ، فقيل له عبد المطلب ٠

وقد أعطته قريش رياستها ، واستحق ذلك بقوة نفسه وقوة خلقه ، وسماحته ، فهو لشبابها أب ولكهولها أخ ، فى طلعته يمن ، وفى خلقه عزمة قوية ، ولكن فى هدوء ، وسمت طيب راض ، وطيب ، ولكن فى غير هوان ٠

هو الذى حفر زمزم بعد أن طمرتها جرهم عندما سيطروا على مكة ، وكانت لهم قوة فيها واستمرت مطمورة عبر السنين ، حتى حفرها عبد المطلب ، فسقوا من مائها ، وأثار ذكريات اسماعيل عليه السلام بحفرها ، وملأهم عزة وكرامة باستعادة بئر كانت ببركة أم اسماعيل الذى كان هو وأبوه فخر العرب ، وزاده ذلك شرفا فيهم ، وعلوا ، وما كان لطيبة نفسه بالذى يستعلى على أحد بمناقبه ، وما أعطاه الله من حسن النقيبة ويمن الطالع ، بل يحمد الله تعالى على ما وفقه وهداه ٠

ويذكر كتاب السير أنه حفرها برؤيا صادقة مكررة ، وكأنها الهام من الله تعالى ، ألهمه سبحانه وتعالى اياه لصفاء نفسه ، واشراق روحه ٠

يروى على بن أبى طالب عن أبيه عبد المطلب أنه قال : انى لنائم فى الحجر (بجوار الكعبة) اذ أتانى آت ، فقال : « احفر طيبة ، قلت وما طيبة ، ثم ذهب عنى ٠ فلما كان الغد رجعت الى مضجعى ، فنمت فيه ، فجاء فقال احفر برة ، قلت وما برة ؟ ثم ذهب عنى ٠

فلما كان الغد رجعت الى مضجعى فنمت فيه ، فقال احفر المضمونة قلت : وما المضمونة ، ثم ذهب عنى ٠

فلما كان الغد رجعت الى مضجعى ، فنمت فيه فجاءنى فقال احفر زمزم قلت وما زمزم ؟ فقال : لا تنزف أبدا ، ولا تذم ، وتسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل ، ومعنى بين الفرث والدم ، أى عند المذبح الذى كانت قريش تذبح ذبائحها فيه ، ومعنى قرية أى المكان الذى كان فيه نمل ٠ ووجد الغراب ينقر عندها ، وكأن هذين كانا علامة حد المكان ، والآية التى تدل على صدق الآتى ، فى تبشيره ٠

فلما بدا لعبد المطلب الماء كبر الله تعالى ، وقد كانت قريش تلاحظ عمله، وكأنها غير مصدقة لنتائج ما يحفر ، فلما كبر علموا أنه أدرك ما يريد ٠

ولكنهم جاءوا يشاحونه فى أن تكون العين تحت سلطانهم جميعـــا ، لا تحت سلطانه وحده ، وقالوا : انها بئر اسماعيل ، وان لنا فيها حقـــا ، فأشركنا معك فى السلطان عليها ·

ولكنه لم يسلم لهم ، بل رأى أن تكون تحت سلطانه ، لأنه هـــو الذى حفرها ، وقد نازعوه هذا الحق ، ثم لما رأوا من طيبته ، وراجعـــوا حسن نقيبته ، تركوا الأمر ، وما هو بمانعهم من مائها ، ولكنه يسقيهم ويســـقى الحجاج منها فى غير منة ولا أذى ، ولكن فى عدل وحسن توزيع على أن يكون له حق السقاية فيها ·

وان وصف زمزم بأنها لا تنزف ، وفيها سقاية الحجيج خبر حققه الزمن الى اليوم ، فلا يزال الحجاج يشربون منها ، وهى تفيض عليهم فى سخاء ، وهى عين ثرة ، ومعين لا ينضب ، ولا تزال فيهـــا بركة اسماعيل ، ونقيبـــة عبد المطلب · والدلالة على أن بيت الله تحوطه البركة كما قال تعـــالى فى وصفه : « **ان أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين** » ·

٦٣ ــــ ان الناظر فى تاريخ عبد المطلب ينتهى بأنه كان متصفا بثلاث صفات كريمات ·

الأولى ــ الطيبة والسماحة ، فكان موطأ الكنف قريبا من الناس أليفـــا محبوبا ، لا يستغلظ على أحد ، ولا يستكبر ولا يستعلى ، يطمئن أهل مكة اليه ، ويثقون به ، ويرضونه حكما ، ولو على نفسه ·

الثانية ــ أنه كان مباركا ، لا يضع يده فى عمل الا بارك الله تعالى ، حمل المعول ، فحفر بئر زمزم واذا لم يكن ذا مال فى قومه ، فقد كان موفورا فى كرمه ، مباركا له فى رزقه ، وأكثر قريش فضلا عليهم ، وعائدة بالخير على جمهورهم ، لا يضن بخير ، ولا يستأثر به ، وقد وقاه الله تعالى شح نفسه ·

الثالثة ــ عزمته ، واصراره على ما يقوم به من خير مهما يصادف فى ذلك من عقبات ، وما يحتاج اليه العمل من خير له وللناس ·

فكان قوى الارادة ماضى العزيمة ، متحملا أثر ما يقول ·

ذكر علماء السيرة أنه ما كان له عند حفر زمزم الا ولد واحد ، وهو الحارث بن عبد المطلب ، وكان العرب يعتزون بكثرة المال ، وكثرة البنين ، فكان يجرى على ألسنتهم فى مقام الفخر « **انا اكثر منـك مالا واعز نفـرا** »

واذا كان عبد المطلب قد قنع بمـــا أعطاه الله تعـــالى من مال ، وان لم يكن كثيرا كغيره من أثرياء قريش وثقيف ، فقد قنـــع به ، لأنه كان يكفى لحفظ مروءته ، وما كان حريصا على أن يجمع ، بل كان حريصا على ألا يمنـــع ، وحسبه ذلك شرفا ٠

ولقد كان له شوق الى البنين ليكون أعز نفرا ، والمال والبنون زينـــة الحياة الدنيا ٠

ولقد نذر نذرا فيه بقية من بقايا الجاهلية ، وهو أنه اذا عاش له عشرة من البنين ، قدم أحدهم فداء عند الكعبة ، وكأنه يريد أن تكون فيه قوة التقرب الى الكعبة ، كما تقرب جده ابراهيم بولده البكر الى الله تعالى ، ولكنه فعله نذرا من نفسه ، ولم يفعله بأمر ربه ، ولذلك كان استعداد ابراهيم قوة عبادة ، ونذر عبد المطلب لا يخلو من جاهلية ، وهذا فرق ما بين أبى الأنبيـــاء وخليل الله تعالى ، وصفيه ، ومن عاش فى جاهلية الوثنية ، غير مستنكر لها ، والله هو الذى يهب من يشاء الذكور ، ويهب لمن يشاء الاناث ، ويهب لمن يشاء الذكور والاناث ٠

اتجه الرجل القوى فى نفسه وعزمته الى الوفاء بنذره ، وقد بلغ ولده عشرة رجال ، ولكن من يختاره لهذا الفداء ، فأراد القـــرعة ، فجمعهم ، ودخل بهم فى جوف الكعبة ، وأمرهم أن يأخذ كل واحد منهم ورقة ، ويكتب فيها اسمه ، وقد أخبرهم من قبل بنذره ، فارتضوا طائعين غير منافرين ، وبعد أن كتبوا أسماءهم وضع اسم كل واحد فى قدح ، وأمر خبيرا فى القـــداح أن يسهم بينهم ، فساهم ، فكان القدح على عبد الله ابنه وأبى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ومع أن عبد الله كان أحب بنيه اليه ، أخذ الشفرة يحدها ليذبح أحب ولده اليه ، ولكن ترامى الخبر فى أندية قريش من أن عبد المطلب يحمل شفرته ليذبح ابنه ، فجاءوا سراعا اليه ، ورأوه حاملا شفرته ليذبح ولده الحبيب غير وان ولا مقصر ، فصاحوا فيه ماذا تريد يا عبد المطلب ٠ قال : انى أذبحه ، فهال الأمر قريشا ، وفزع اخوته ، وقد أضعفت عزمتهم وطاعتهم الأولى، ومحبة أخيهم ، ولكن لم تضعف عزمة الشيخ الفادى ، الوفى بنذره وان كان الفداء أحب اليه منهم جميعا ، ولكنها قوة الارادة والعزيمة ٠ والايمان بما يعتقد ، وان كان باطلا ٠

أقسم الأبناء وقريش على ألا يذبحه ، وبنوا ذلك على أنه ستكون مغبتـــه سوءا على قريش خاصة ، وعلى العرب عامة ، قالوا له لا تذبحه أبدا حتى

تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه ليذبحه ، فما بقـاء الناس على هذا ؟!

وقالت له ابنة أخته والله لا تذبحه حتى تعذر فيه (أى تبدى العـذر عن النذر) فان كان فداؤه فديناه بأموالنا ٠

ذهبوا الى عرافة فى أرض الحجاز ٠ فأشارت عليهم بأن يقـدموا الدية وهى عشرة من الابل ويقرع بينها وبين الذبيح ، فان كانت القرعة عليه زادوا فى الابل ، حتى تكون القرعة عليها ٠

أصاخوا الى صـوتها ، واجمعوا الأمـر ، ثم قربوا عشرا من الابل وعبد الله الذبيح ، فقرعوا بينها ، فكان السهم على عبد الله ، ثم زادوا حتى صارت عشرين ، فكان القدح أيضا على عبد الله ، فزادوا حتى صارت ثلاثين ، ولكن خرج القدح على عبد الله أيضا ، واستمرت الزيادة عشرة بعد عشرة حتى وصل العدد مائة من الابل ، ثم ضربوا القداح فخرج القدح على الابل ٠

فقالت قريش قد انتهى الأمر ، ورضى ربك بالفداء يا عبد المطلب ٠ ولكن عبد المطلب يريد أن يستوثق من الرضا بالفداء ، فزعم الرواة أنه ضرب مرة ثانية وثالثة ، والقدح يخرج على الابل ، فنحرت الابل ، وتركت للناس لا يصد ولا يمنع انسان ٠

٦٤ ــ وان دل هذا على صفة من صفات عبد المطلب ، فهى تدل على صفة الرجل المريد لما يفعل ، القوى فى عزمه ، الصادق فى نفسه واختياره ، وهو يدل على قوته فى البلاء ، وتحمل الصبر على ما يكره ، وان تقاضاه الصبر ذبح أحب أولاده اليه ، فاختبر ، وابتلى فأحسن البلاء ٠

والرجل القوى ليس هو الذى يخضع ارادته لهواه ، أو عزمته لشفقته ، انما القوى حقا وصدقا هو الذى يجعل الايمان والارادة يغلب الهوى والمحبة، وقد كان عبد المطلب القوى ، ولا يمنع ذلك أن يكون شـفيقا محبا ، فاذا آمن بفكرة نفذها بقلب قوى صابر ٠ وبنفس مطمئنة راضية ، ولو كان مصـدر ايمانه باطلا ٠

وكان قوى الجنان ثابت الجاش لا يضطرب ، ولا يهن ولا يضعف عنـد المفاجأة ، ولا تذهب نفسه شعاعا ، عندما يكون الأمر المخوف ٠

جاءت الحبشة بملكها ، وأفيالها ، وأقبل على مـكة جيش لجب قوى

مستعد بأقوى العدد ، وبأكثر العدد ، فانخلعت القلوب واضطربت الا قلب عبد المطلب كبير قريش ، وسيد البطحاء ، وكان يحسن القول ، ويرهب بقوله فى هدأة من غير هوادة فى الحق ·

جاء الجيش الحبشى ، واستاق ابلا لأهل مكة ، ومن بينها ابل لعبد المطلب ، فذهب الى لقاء أبرهة ملك الحبش وقائد جيشهم ، ومعه الرهبة والطغيان ، فما اضطرب قلب كبير البطحاء ، بل ذهب اليه ، وكانت فيه هيبة ، وله سمت كريم ، يهابه من يلقاه ، ويطمئن الى سماحته ، فعند اللقاء وقع فى قلب أبرهة هيبته فسأل عما جاء اليه ، فسأله أن يرد الابل ، فقال انه حسبه جاء يسأل عن الكعبة ، وقال مستنكرا « أراك تسأل عن ابلك ولا تسأل عن الكعبة » فأجابه فى قوة أوقع الرعب فى قلبه باجابته « أما الابل فأنا ربها ، وأما البيت فله رب يحميه » والجواب فيه ارهاب وتخويف ، اذ أنه يقول له « لا تظن أنك منتصر ، أو غالب ، أو مقتلع البيت الذى جئت لهدمه ، فان ذلك فوق قدرتك ، بل فوق طاقتك ، لأنه بيت الله والله يحمى بيته ، ولن تنتصر ، فالله خاذلك ، جواب مرهب مفزع ، ولكن فى هدوء الحكيم ، ورفق الذى يزن القول ، ويعرف موقعه ·

ولذلك كلام مفصل فى موضعه ان شاء الله تعالى ·

عبـــد الله

٦٥ ـــ ذلك هو الجد القريب الذى تربى النبى عليه الصلاة والسلام فى حضنه ، والذى رأى فيه أول ما رأى عزة الرجال ، وحكمة الشيوخ ، وعطف الأبوة التى عوضه بها عن أبيه الذى لم تكتحل عيناه برؤيته ، ولابد أن نذكر كلمة عن الرجل الذى افتدته قريش كلها ، وهو عبد الله أعز أولاد أبيه اليه ، واقربهم منه ، لقد كان احب أولاد عبد المطلب العشرة (١) ، وقد اتسم بالجمال فكان أجمل قريش ، وأحب الشباب اليها ٠

وكان فى خلقه طيبة نفس ، واطمئنان قلب ، ورضا بما يجرى به القدر مع استعداد للفداء ، ان كان ما يقتضيه لم يتردد أن يقدم نفسه لأبيـــه ليوفى بنذره ، فاستعد لان يذبح ، فكان الذبيح الثانى بعد جده العظيم اسماعيل ، واذا كان فداء اسماعيل بذبح عظيم كان من أمر الله تعالى ، لأن الله تعالى اختبر ابراهيم بما رأى فى المنام ، وما دام الاختبار ، فالفداء يكون بأمر الله تعالى ونهيه ٠ أما ذبح عبد الله ، فكان بنذر من عبد المطلب ، فكان الفـــداء برأى أهل مكة ، فما كان من البشر يكون منهم ، وما كان من الله تعالى ، فالأمر اليه ، وكان لجمال وجهه ، ولطيب نفسه ، موضع اجتذاب الناس ، ومحبتهم ، فلم يسلموه لأبيه ، وقد أراد قتله ، ونجوه من يد أبيه الشفيق الحازم المريد القوى فيما يريد ، وان كان شديدا عليه ٠

وكان موضع اجتذاب النساء لوسامته وجاذبيته ، ولكنــه كان العفيف الذى لا يريد الا الحلال ، ولا يبتعد عنه ، وكأنه يبتعد عن الحـــرام مروءة ، وكرامة نفس ، لا لتنفيذ أوامر الهية ، بل أمر مروءته واحتفاظ كرامته يستجيب لهما ، كأوامر المصادر الدينية ٠

تعرضت له امرأة ، راقتها وسامته ، وجذبتها طيبته ، فأرادته لنفسها ، وربما راودته عن نفسه ، ولكنه العيوف الذى لا يشتار الا عسلا يملكه حلالا نكاحا ، ولا يريده نزوة أو سفاحا ، فيردها الشاب القوى الذى لا يستهويه الهوى قائلا :

أما الحـــرام فالممـــات دونه ... والحـــل لا حـــل فأستبينه
فكيف بالأمـــر الذى تبغينـــه ... يحمى الكريم عرضـــه ودينه

---

(١) العشرة هم الحارث والزبير وحمزة وضرار وأبو طالب واسمه عبد مناف ، وأبو لهب ، واسمه عبد العـــزى عبد الكعبـــة ، والمغيرة ، ونوفل ، وعبد الله ٠

صان الشاب نفسه ، وصان أمانته ، وصان خلقه وكرامته ، فلم يتدل كما تدلى الشباب من قومه ، لأنه أراد أن يعيش طاهرا كريما محبوبا ، لينقل وديعة الله تعالى للانسانية الذى ينقل رسالته سبحانه وتعالى الى خلقه وذلك بزواج طاهر حلال •

الأم :

٦٣ — كل فتاة فى قريش كانت تتمنى أن يكون الشاب عبد الله ابن عبد المطلب شيبة الحق ـ أن يكون لها زوجا ، وأن يكون لأولادها أبا ، وقد قارب العشرين أو يزيد من عمره عفيفا ، لم يزن بريبة ، ولم يعرف عنه نزوع الى شر ، بل كان ينزع الى الخير ، ولا يزيد ، ولأبيه عليه حق الطاعة فى غير معصية ، اذ كان له ملازما ، لا يستطيع له فراقا ، ولا خلافا ، لأنه حب أبيه ، وصفيه المختار •

وقد اختار أبوه له زوجا آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أخى قصى ، وابن كلاب ، وكان أبوها سيد بنى زهرة ، كما كان عبد المطلب سيد بنى قصى ، ثم سيد مكة جميعها غير منازع ، لأنه محمود النقيبة حكيما بين قريش لا يطيش ، ولا يجبن ، ولا يرهق أحدا ، فكان السيد المطاع فى غير جبر ، ولا اعنات ، ولا تضيق ، ولقد التقى الشاب مع أبيه فى الاصهار الى بنى وهب بن زهرة ، اذ أن عبد المطلب كان قد تزوج هالة بنت وهب بنت عم آمنة ، واختار لابنة آمنة • وهى بنت عم لزوجته التى أنجب منها حمزة ابن عبد المطلب (١) الذى صار فى جهاده للاسلام سيد الشهداء ، وصفية أم الزبير ابن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك التقت فى حمزة ابن عبد المطلب ثلاث صلات بالنبى ، أولها أنه عمه ، وثانيها أنه ابن عم أمه ، وثالثها أنه أخوه فى الرضاعة ، وفوق ذلك أنه ثانى عميه اللذين تصديا للدفاع عن النبى عليه الصلاة والسلام فى مواجهة قريش فى مكة ، ولكنه الثانى الذى دافع عنه لا بمقتضى حكم القرابة القريبة الوثيقة ، بل بذلك وبحكم الايمان بالرسالة المحمدية ، والجهاد فى سبيل الله ، فكان سيد الشهداء حقا •

وكذلك كانت صفية بنت عبد المطلب لها بالرسول قرابتان : قرابةالعصب، وقرابة الرحم ، فهى عمته أخت أبيه ، وهى ابنة هالة بنت عم أمه ، وكانت معه فى الرخاء وفى الكريهة ، وفيها شجاعة آل عبد المطلب •

---

(١) ابن كثير الجزء الثانى ص ٢٥١ •

وبنو زهرة مع التقائهم فى نسب النبى فى جده كلاب كما سماه العرب ، وحكيم كما سماه التاريخ لما فيه من حكمة ، لم يكونوا مع بنى هاشم فى خلاف، ولا منافسة جرت الى عداوة فى جاهلية أو اسلام ، بل كانوا لهم معاونين ومناصرين وموادين ، لا بقضاء يسيطر على نفوسهم ، ولكن مودة تربط على قلوبهم ·

ولقد قالوا فى الأخبار ان كلابا كان ممن يؤمن بأنه سيكون نبى من قريش ، وكان يخطب قومه كل جمعة ينبههم بذلك (١) وان صح ذلك الخبر فمؤداه أن كلابا هذا كان من أشد المستمسكين بابراهيم ، ونبى من بنى اسماعيل ، ولا يمنعنا ذلك من أن نقول انه تأشب ايمانه بالله تعالى ببعض أثارة من الوثنية الجاهلية ، فنحن لا ننفى هذا عن عقلاء العرب ، وذوى الأخلاق والهمة فيهم كعبد المطلب ، ومن بعده ابنه أبو طالب سيد مكة ، وحامى الرسول ، ومانعه من الأذى ·

وآمنة تلتقى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة أمها برة بنت عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار بن قصى جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

٦٤ — وهنا يثور كلام يجىء فى أخبار عن عبد الله أبى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أكانت له زوج غير آمنة تزوجها قبلها أو بعدها وان آمنة احدى اثنتين كانتا زوجين لعبد الله ·

قال ابن اسحق صاحب السيرة « فقد ذكر أن عبد الله انما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب وقد عمل فى طين له وبه آثار من طين ، فدعاها الى نفسه ، فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين فخرج من عندها فتوضأ ، وغسل ما كان به من ذلك الطين » ، ثم خرج عامدا الى آمنة فمر بالمرأة ، فدعته الى نفسها ، فأبى عليها ، وعمد الى آمنة فدخل عليها وأصابها ، فحملت بمحمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) ثم مر بامرأته تلك ، فقال لها هل لك ؟ قالت لا ، مررت بى ، وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت على آمنة ، فذهبت بها » (٢) ·

وانا نرد ذلك الخبر ، ونؤمن بأن عبد الله ما تزوج الا آمنة أم محمد خير الخلق والنور المنبثق فى هذا الوجود ، وانا نقرر ذلك ·

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٤ ·
(٢) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ١٥٧ طبع الحلبى ·

أولا : لأنه خبر انفرد بذكره ابن اسحق ، ولم ينقله ، ولم يأت فى كتب السنة الصحاح ، ولو كان عبد الله له زوج أخرى لاشتهر ذلك ، ولذكر فى الأخبار ، كما ذكر خبر زواج عبد المطلب المتعدد ، وأولاده من كل زوجة تزوجها ، وبيان نسبها ، ومن تنتمى اليهم ، وما كان عبد الله أبو سيد الخلق بأقل شأنا من أن يعرف زواجه الأول ، والثانى من عبد المطلب ان كان قد عدد الأزواج ، وقد علا شرف عبد الله بأبوته لمحمد ، فليس بأقل من أبيه الكريم ، والسيد العظيم ٠

وثانيا : أن هذه الزوج المزعومة لم تذكر متى كان زواجها منه ، وما أحوال ذلك الزواج لو كان حقا ، وما الذى انتهى اليه ، ولماذا تزوج أخرى فى هذه السن المبكرة ؟ ؟

ان عدم ذكر شيء من هذا فى ذلك الخبر يجعله غير قابل للتصديق ، وهو غريب فى ذاته ٠

وثالثا : أن المذكور فى السير أن المرأة المشار اليها فى السير كانت قد طلبت أن يصيبها ، ولم تذكر زواجا ، وأنه أجابها بالاستنكار ، وقال البيتين المشهورين عنه اللذين يفيدان أنه لا يقبل الا الحلال الذى يسوغه له عرضه وكرامته ، وشرف أسرته ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ٠

ورابعا : أن الخبر يحمل فى نفسه دليل بطلانه ، لأنه يذكر أنها طلبته وهو مغبر بطين ، فلم ترض ، وكان المعقول وقد طلبها طلب الرجل لامرأته وأنها مانعته حتى يغتسل ، وانه اغتسل أن يذهب اليها ، واذا عاد اليه بعد آمنة وهى احدى زوجتيه ، فانه ليس لها أن تمتنع عليه لأنها زوجه ، فكيف يقال من بعد انه رضيت به لغرة نور فى جبينه ، ولو كان ذلك هو السبب ، ما منعها عند اجابته وعلى ثيابه طين ، لأن الأساس فى نظرها أن تصل الى أن يكون النور فى رحمها لا يمنعها غبار طين أو نحوه ٠

فالخبر مضطرب فى مبناه متناقض مع العقل فى معناه ، فيرد جملة وتفصيلا ٠

صفات سامية فى آمنة :

٦٥ ــ اتسمت آمنة كما يبدو من أخبارها ، أنها كانت صبورا ، وكانت تشبه البتول فى سموها ، وفى اصطفاء الله تعالى لها فى أن تكون أما

لسيد البشر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما اصطفى مريم البتول لتكون أما للمسيح عليه السلام ، ولكن آمنة ، ولدت محمد وحملت به كسائر البشر ٠

وكانت شبيهها بالبتول فى الصبر ، وفى خلاصها من فتن الزواج ، وكونها حملت صاحب اكبر رسالة فى هذا الوجود ٠

انها منحت زوجا مرموقا محبوبا تتمناه كل فتيات عصره ، ولكنه سرعان ما غادرها بعد الزواج بمدة قصيرة ، قدرها بعض الاخباريين بأنها ثلاثة أيام او ثلاثة اشهر ، سافر ليمتار لاهله من قريش تمرا ، فذهب لأخوال أبيه بنى النجار ، ومات هناك ٠

فهذه الام الصبور على فراق زوجها الشاب ، ولم تشتر عسل الزواج ورضيت الحرمان فى سبيل نفع قومها ، اذ ذهب ليجلب لهم رزقا ، والمرأة الفاضلة ترضى باغتراب من تحب اذا كان الاغتراب لنفع قومه ، واصلاح حالهم ، وارتضت صابرة ، أن يولد ولدها الحبيب فى غيبة زوجها الحبيب التى لم تلبث ان نالته حتى بعد عنها ، فكان الرضا بالانتساب اليه يغنى عن المتعة بقربه ، واكتفت من متعة هذا الزواج الطاهر بمتعة قرة عينها ولدها الحبيب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعاشت مطمئنة الى امل اللقاء ، وأن يجمع الله تعالى الشمل المتفرق كما أراد رب العالمين ، ولكن الله جلت قدرته أراد اختبارها فأفقدها زوجها فى غربته ، فكانت الصابرة الكريمة القائمة على تربية ولدها ، الراضية بأمر ربها من غير أن يعرف عنها تململ بحياتها وعيشها ٠

ولما استغنى ولدها عن المراضع شدت رحالها مع وليدها ، وقطعت الفيافى والقفار فى مشقة لا يقدر عليها الا الصابرون ، وذهبت الى يثرب لترى قبر زوجها الذى اختيرت له وهو مرمى الأنظار والحبيب فى مكة ، وأبى القدر الحكيم الا أن ترى بعد ذلك رمسه المدفون فيه ، وهى فى كل هذا الصبور المطمئنة الى قدر الله تعالى العادل : « **لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون** » ٠

ومكثت هناك بجواره مدة لا تقل عن ثلاث سنين كان فيها متاع حسن بالنسبة لها ، اذ كانت قريبة من زوجها الحبيب ، وقد ارتضت ذلك ، واطمأنت نفسها ، فهى الصابرة الآمنة كاسمها ، الشريفة كقومها ، الكريمة كمحتدها ٠

ويظهر أنها لم ترد أن يبعد ابنها عن قومه ، وهم أشراف مكة ، ولم تكن التى تضن به على جده،فهى تؤثره على نفسها دائما وقد احتملت المشقة وأخذت تقطع الفيافى والقفار ، وليس معها الا جارية تعينها على مشـــقة الطريق ، وتكون لها رفيقة مع بعد الشقة ، وتعاونها فى حضانة الغلام النورانى ٠

ولكن هذه المجاهدة فى سبيل الوفاء ، والاخلاص للولد ولجده أجهدتها الرحلة فماتت ، وهى عائدة الى مكة ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة ، وهى اذ أسلمت روحها ، ودعت الدنيا تاركة عزيزها ، كما ودعت أباه من قبله ، ولكن وداعها الأول كان لعزيز الى طريق الأبدية ، أما وداعها من بعد ، فكان لولدها العزيز ، وتركه الى طريق الحياة والجهاد فيها ، ولكنها تركته الى رعاية الله تعالى مع الجارية التى صحبتها ، فرعاه الله تعالى وصنعه تعالى على عينه ، حتى وصل الى جده العظيم فى قومه فاحتضنه ٠

وهنا نقف وقفة قصيرة ، لننظر الى تلك المجاهدة الهادئة الصبور ، فاذا قلنا انها عاشت كالعذراء اذ لم يكن الا أنها حملت سر هذا الوجود ، وكأنها أودعت أمانة النبوة لتحتفظ بها ، وكأنها كالبتول العذراء ، بيد أن هذه لم تصطفها الملائكة ، عزاء من رب العـــالمين اذ اختارها وتعهدها نبى وأقامها فى المحراب وكانت فى رعاية ظاهرة ، وأما آمنة بنت وهب فقد خوطبت بلسان الفطرة المستقيمة ، وعلمت بحكم الباعث فى نفس طاهرة أنها حملت أمانة ، واستمرت الأمانة معها فى رعاية الله تعالى ، وهى حاملة ما حملت غير وانية ولا مقصرة ، ولا هادى يهديها الا ما انبعث فى نفسها من نور الفطرة ، والاحساس بعبء الأمانة ٠

الجنين المبارك

٦٥ ـــ ان احداث هذا الوجود تسير على مقتضى ناموس كونى ثابت عند رب العالمين قد أراده الله تعالى بحكمته وتخيره بارادته ، وأقامه بقدرته ، وليس للمصادفة حكم عند الله ، وانما حكمها لا يتجاوز ما عند الناس ، لأنهم يربطون الأسباب بمسببات بحكم العادة ، ويطبقون عليهـــا نظام قانونهم المحسوس المعلوم ، فاذا خالفه قالوا انه مصادفة ، وهذا نظر الذين يدركون الماديات ، ولا يدركون ما وراءها ، ويحكمون بالمحسوسات ، ولا يحكمون بأن ثمة سلطانا قاهرا لخالق الأسباب والمسببات ، وأنها لا تقيد ارادته ، بل هو الذى يقدرها بحكمته ٠

وقد صرح سبحانه بأن أهل القرى لو آمنوا واتقـــوا لأنزل لهم الرزق مدرارا ، فقال تعالت كلماته ، « **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** » ٠

وصرح سبحانه بانه انزل الرجز عـــلى الذين ظلمـــوا من ال فرعون ، وقد ربط الله تعالى ذلك بعصيانهم ، فقال تعالت كلماته فى قصصهم « **ولقـــد اخذنـــا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمـــرات لعلهم يذكرون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا انمـــا طائرهم عنـــد الله ، ولكن اكثرهم لا يعلمون ٠ وقالوا مهمـــا تاتنـــا به من اية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجـــل هم بالغوه اذا هم ينكثـــون ، فانتقمنا منهم ، فاغرقناهم فى اليم بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** » ٠

وان هذه النصوص الكريمة تدلنـــا دلالة قاطعـــة على أن الله ينزل البركات لمن استقاموا على الطريقة ، ان سلكوا طريق الوصول الى الخير وتوكلوا عليه سبحانه حق التوكل ، وأنه يصيب الأقوام بالرجز والحرمان والبلايا ان هم طغوا وبغوا ، فى ترتيب محكم سنه سبحانه وتعالى وأراده ، وان خالف ما نعلم من الأسباب والمسببات ٠

لسنا نقول مقالة قدماء الصين من أن الكون يضطرب ، وما فى السماء يختلف اذا عصى ابن الأرض وأفسد ولم يصلح ، فان ذلك كلام قوم وثنيين يؤمنون بالمحسوس ، ولكنا نقول مقالة المؤمنين ، ان مدبر الكون يجرى الأمور

على مقاديرها بما قدره سبحانه وأراده ، وعلى ما ارتضاه من نظام « **لا يُسأل عمل يفعل ، وهم يسألون** » ٠

٦٦ ـــ سقنا هذا الكلام لتوضيح أن محمـــد بن عبد الله قد كان وجوده بركة على قومه من وقت أن علقت به أمه الى أن قبضه الله تعـــالى اليه ، وأن البركة التى آتاه الله تعالى لقومه مباشرة من وقت العلوق به فى بطن أمه ، كانت خيرا على الانسانية كلها ، لأنها حمت البيت الذى كان أول بيت للناس ، وهى كعبـــة المسلمين ، وهو المكان المقدس الذى قدسته الأديان كلها كما أسلفنا من قبل٠

وقد كان انقاذ البيت ، وهو فى بطن أمه ، اذ أن أبرهة ملك الحبشـــة واليمن أراد اقتلاع البيت من مكة وهدمه ، وأن يبنى بدله فى اليمن ليكون ذلك البيت الجديد هو مزار العرب ، ومثابتهم وأمنهم كما كان البيت ، وفى ذلك مصادمة لدعوة ابراهيم عليه السلام ، اذ يقول : « **ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعـل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** » ٠

وقد استعد بخيله ورجله من قبل الحمل بالنبى ، وساور مكة وأمه حامل به ، وقد ردهم الله مدحورين ببركة الجنين الذى بعثه الله تعـــالى برسالة تشرف البيت الحرام وتحميه ، ولنعرج على ذلك بكلمة موضحة موجزة ٠

أصحاب الفيل

٦٧ ـــ آل أمر اليمن الى رجل من الحبشة اسمه أبرهة ، وصار لهـا حاكما بأمره ، وبنى بها كنيسة فخمة بصنعاء سماها القليس ، وأراد أن يحج اليها العرب ، وخاصة النصارى منهم ، فلم يؤثروها على البيت الحرام ، ولم يستبدلوها به ، وبعد بنائها بعث الى النجاشى بالحبشة ، وهو لا يزال يعتبر نفسه تابعا ، وجاء فى هذا الكتاب « انى بنيت لك أيها الملك كنيســـة لم يبن مثلها لملك قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف اليك حج العرب » ٠

ولكن رجلا من العرب أدرك هذا المراد ، فأراد تحقيرها ، وأحدث فيها شيئا استهانة وسخرية ٠

فلما رأى أبرهة احتقار العرب لها ، واستمرارهم على الذهاب الى البيت الحرام من غير ونى ولا تقصير لم يجد بدا لتنفيذ ارادته الا أن يهدم

البيت الحرام بجيش يسيره مجهزا بأعظم عدة ، وخـــــرج بالفيـــل الذى يستخدمونه فى الحرب مع الابل والخيل •

أفزع ذلك العرب وأعظموه ، ورأوا مدافعته حقا عليهم فنفر منهم نفر بقيادة بعضهم وهاجموا أبرهة ، ولكنه هزمهم ، ومضى قاصدا البيت الحرام ، لا يقاومه أحد من العرب الا هزمه ، واستمر سائرا لا يلوى على احـــــد من العرب الا أخضعه •

وصل الى الطائف ، وقد رأوا ما حل بغيرهم فمالئوه ، وخصوصا انهم كانوا ينفسون على قريش ما كسبوه من شرف لقيامهم على سدانة البيت . وحاولوا أن يجعلوا مكان تقديسهم بيتا بنوه للات الههم المزعوم •

أهم الأمر من بمكة من قريش وكنانة وهذيل ، وسائر من كان بهـــا ، وعلموا أنه لا قبل لهم بمقاومته لما عنده من قوة ، ولأن الانتصارات المتتالية فى طول طريقه الى مكة زادته قوة ، وزادهم خوفا ، فسكتوا حتى يكشف المخبوء فى قدر الله تعالى •

ولعل الفزع قد غلب عليه مما علم من منزلة للبيت فى الكتب المقدسة ، ومنها كتب النصارى التى أشارت الى ذلك ، فلم يرد ان يستمكن من البيت عنوة ، بل أراد ان يسلمه له أهله ، لا ليزيد بناءه ، بل ليهدمه ، فان فعلوا كان ذلك مبررا فى زعمه •

ومهما يكن فانه قد تردد فى القتال ، أو أراد أخذه بسلام ، فأرسل رسولا الى مكة ، وقال له سل من سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له « ان الملك يقول لكم انى لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا له بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم : فان هو لم يرض الا حربى فاتنى به » •

ذهب الرسول الى مكة ، وعلم أن سيد البلد وشريف مكة هو عبد المطلب ابن هاشم فبلغه الرسول ، فأجابه عبد المطلب اجابة سليمة ، ولكن فى طيها ايمان بالله رب البيت ، وذلك لا يخلو من ارهاب بقوة الله •

قال عبد المطلب للرسول : « والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم ، فان يمنعه منه فهو بيته وحرمته ، وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه » •

كان هذا الكلام السهل اللين يخفى فى نفسه انذارا شديدا لرجل كتابى نصرانى ، لأنه بهذا الكلم اللين ينبهه الى أنه لا يحارب أحدا من أهل مكة انما يحارب الله ، ويهدم بيتا بناه بأمر الله أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، فهو مع هذا اللين يتضمن تهديدا يروع من كان عنده اعتقاد بالله ، وايمـــان برسالته ٠

وقد كان بلا ريب لذلك الكلام وقعه ، ومن الكلام الهادىء ما يفعـــل فى النفوس مالا تفعله المقاومة بالسيوف ، وخصوصا اذا كان الكلام لمن تعود الانتصـــار فى الحـــروب ، وهزيمـــة من يدافعـــه ، اذ فى هـــذا الكلام تهـــديد بحرب لم يألفها ولم يعرفها ، وهى حرب الله ، وحرب أبى الأنبياء ٠

٦٨ ـــ استاق جيش أبرهة ابلا لعبد المطلب ، وقد طلب هو لقاءه فلقيه ليؤكد ما قاله لرسوله بالقول المتضمن فعلا ، اذ قرر أن يطالبه برد الابل التى استاقه جيشه بعلمه أو بغير علمه ٠

التقى عبد المطلب المهيب غير المرهوب بعد أن علم أبرهة قوله ٠

ولقد كان عبد المطلب من أوسم الناس وأجملهم وأشدهم هيبة ، فلمـــا رآه أبرهة أجله وأكرمه ، فنزل عن سرير ملكه وجلس بجواره ، ثم قال له بلسان الترجمان :

قل حاجتك ٠ فقال للترجمان : حاجتى أن ترد لى ابلى مائة بعـــــير أصابها ، فقال أبرهة كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى ٠ أتكلمنى فى مائة بعير لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهـــدمه لا تكلمنى فيه ٠

فقال عبد المطلب يضع أبرهة أمام الله تعالى وجبروته الذى فوق كل جبروت ، أنا رب الابل ، وان للبيت ربا سيمنعه ٠ قال أبرهة ، وقد غلب عليه الفزع : ما كان ليمتنع منى ٠ قال عبد المطلب أنت وذاك ، لا شك أن عبد المطلب يهدده بالله ، أولا بتأكيد أن الله مانع البيت ، وثانيا بأن قال لـــه أنت وذاك ، كان التهديد واضحا ، وان كان هادئا ، ولعل الذى قوى وقعـــه هدوءه ، فالهدوء يخاطب النفس فتعتبر ، خصوصا لمن تعود الانتصار المادى الذى يكون فيه ايمان فى الجملة بالغيب ، وأبرهة نصرانى ٠

عندئذ تحقق رجاء عبد المطلب فى ربه ، وتحقق أمر الله ببركة الجنين الذى حل فى بطن أمه ، وهو سيد الخلق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

أرادوا بالفيل أن يسير متجها الى البيت الحــــرام ، فوقف ولم يسر اليه وحبسه الله تعالى عنه ، فوجهوه الى اليمن ، فاتجهــه ، فوجهوه الى الشام فاتجه ، ثم ارادوا أن يوجهوه الى البيت ، فامتنع (١) ولهذا كانت ارادة الله أن ينجو البيت ببركة البيت ، بركة الجنين المستكن فى الغيب المستور .

ولو أن أبرهة اعتبر واعتزم العودة الى اليمن لرجـــــع من الغنيمة بالاياب ، ولكنه اعتزم تنفيذ نيته ، فلم يبق الا ان يأخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، فأرسل الله تعالى طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، كما قال سبحانه وتعالى فى سورة الفيل : « **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضــليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجــارة من سيجيل ، فجعلهم كعصف ماكول** » .

اتتهم رياح عاصفة ، ومعها طير جاء جماعة بعد جمــــاعة ، ترميهم بحجارة صلبة شديدة قوية تنفذ فى الجسم ، لا تبقى فى ظاهره ، بل تدخــل فى باطنه ، وراء جلده ، وقد جعلتهم كعصف ماكول ، اى كبقل اكل لبه ، وبقى قشره ، وقد قال علماء الاخبار ان تلك الحجارة الصلبة التى ارسلهــــا الله تعالى بريح عاصف كانت صغيرة تشبه حب العدس ، وان الطير كان يحملها فى منقاره ، وفى رجليه .

ولقد قال بعض الكتاب انهم اصيبوا بالجدرى قرح اجسامهم ، ولعل جرثومة ذلك الداء الوبيل كانت فى الأحجار التى رمتها الطيور التى جاءتهم وباء وبلاء ، واهلاكا ، وقد كادوا من الشر كيدهم ، ودبروا بالفساد أمرهم ، وتحدوا بيت الله وهو أول بيت وضع للعبادة ، والذى كرمه الله وباركه .

وليس عندى ما يمنع أن يكونوا قد أصيبوا بالجدرى بما رماهم الله تعالى به ، فقد قال ابن اسحاق فى سيرته « حدثنى يعقوب بن عينية أنه أول ما رميت الحصبة والجدرى بأرض العرب كان فى ذلك العام .

هذا كلام مقبول اذا قلنا ان الحجارة كانت تحمل معها جرثومة هــذه الأمراض الفتاكة ، ولكن مالا يقبل هو القول بأن الطيـــر هى جراثيم ذلك المرض ، لأن هذا يكون مخالفا لنص الآية الكريمة ، اذ أن نص الآية الكريمة يفيد أن الطير رمتهم بحجارة قوية شديدة .

---

(١) الاكتفاء جـ ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ومن تاريخ البداية والنهاية لابن كثير .

٦٩ ـــ ان ذلك العذاب الأليم الذى أصابهم فى الدنيا ، فبعد أن أرسل الله تعالى عليهم الطير الذى جاء جماعة بعد جماعة ، ورماهم بالحجـــارة الجامدة التى كانت تنفذ الى جسمهم ، وتضع فيه جراثيم الأمراض الوبيلة كالحصبة والجدرى ، صاروا يتساقطون فى الطرق ويهلكون كل مهلك ، وقد وصف حالهم ابن اسحاق فقال : « خرجوا يتساقطون ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ٠ وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة بعـــد أنملة ، كلما سقطت أنملة أتبعتها منها ، مـده (صديد) تمت قيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون ٠

عاد من حيث خرج ، ولكن فرق ما بين الخروج ، أنه فى الخروج كان قويا فى بدنه مغرورا فى نفسه يصحبه جيش لجب ، يحسب أن لن يغلبـــه أحد ، وقد غلب من قاومه حتى اذا جاء الى رحاب الله يتحدى الله تعالى فى بيته ، ويريد هدمه ، وقد جعله الله تعالى مباركا ، عاد مذموما مدحـــورا ، مقصوص الجناح لا مجازا ولكن حقيقة ، فقد تقرح جلده ، وتساقط ، وذهب تدبيره وكيده فى ضلال كأنه العماء ٠

وقد استجاب الله تعالى لعبد المطلب.وهو آخذ بحلقة باب الكعبة يقول :

لا هم ان العبـــد يمنـــع رحـــــله فامنـــع رحالك

لا ينيـــلن صـــليبهم وصلبهم ومحالهم غـــــدرا محالك

كانت واقعة الفيل هذه وآمنة الطاهرة كالبتول حاملة قد أودعها الله تعالى خير الخلق محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فكان مباركا على العرب، وعلى الناس أجمعين من يوم أن حملت به أمه ٠

وما حملت به كرها ، وما كان فصاله كرها ، فما كانت تحس بشـــدة فى حمله وما أحست بشدة فى فصاله ، ولقد قالت السيدة آمنة الطاهرة : « لقــد علقت به ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل منى خرج معه نور ، ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه » ٠

ولــد الهــدى

٧٠ ــ سبقت محمدا فى الوجود بركاته ، فقد ولد كما يقــول أكثر الرواة بعد خمسين يوما من مغادرة الفيل وأصحابه مدحورين ، بعد أن أباد الله تعالى أكثرهم ، وقد ابتلعتهم الأرض ، بعد أن غرهم الغرور ٠

وقبل أن نخوض بالقول فى مولده صلى الله عليه وسلم ، نقول انه ولد وأبوه غائب ، ذلك أننا ألمحنا فى القول أنه ترك زوجه وقد ذهب فى عير ليمتار لأهله ، وليتجر فيكسب رزقه ، فسافر فى عير لقريش ، وكان الوفى الأمين فانتهز فرصة ذهابه الى يثرب ، وزار قبر جده هاشم الذى كان يهشم الثريد ، الذى يأكل منه الحجيج ، ولكنه لم يعد من غربته ، بل أصابه المرض فى بيت بنى النجار ، وعاد العير الذى كان معه ، وتركوه حزانى على تركه مدنفـا بمرض عضال فى بيت بنى النجار أخوال أبيه ، وأصهار جده الكريم ، وعادوا الى مكة ، وأخبروا أباه الذى حدب عليه ، وزوجه الصبور التى صبرت غيبته، وجمل لها الصبر لأنها كانت ترجو لقاءه ، ولكن حرمت من هذا ، ففظع الأمر عليها ، ولكنها الصبور مع رقة صباها ٠

وان عبد المطلب أرسل الى ابنه الحبيب كبير أولاده الحارث ، فذهب اليه ، وقد رأى فراق نفسه ، وقيل أن الموت سرى اليه ، ولم يجده أخوه الا ميتـــا ٠

فاذا كان الأب قد ثكل ابنه الحبيب فتجلد ، فقد فقدت الأم الزوج الحبيب فكان منها الصبر المرير ، ولكنه مع ذلك كان الصبر الجميل ، وهو الصـــبر الحبيس الخالى من الضجر والأنين ٠

ولادته قبل وفاة أبيه :

٧١ ــ أكثر الرواة على أنه ولد صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبيه عبد الله ، ولكن روى أنه توفى قبل أن تضع آمنة حملها ، ومنهم من أقصر المدة ومنهم من أطالها ، حتى أوصلها الى نحو ثلاث سنين ، فقد قال ابن حـــزم الظاهرى ما نصه :

« ولد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ، اذ مات أبوه ، وهو لم يستكمل ثلاث سنين ، وماتت أمه ، وهو لم يستكمل سبع سنين » ٠

وان هذا القول يتقارب مع من يقول ان أباه «عليه السلام» مات بعد ولادته عليه الصلاة والسلام بنحو ثمان وعشرين شهرا ، ولكن كلام ابن حزم يومىء الى مدة أطول ، لأن الثمانية والعشرين شهرا هى سنتان وثلث ، ولا يقرب من ثلاث سنين ٠

فقد روى عن عوانة بن الحكم أنه قال هو وأبوه ان عبد الله توفى بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون شهرا ، وقد قيل توفى بعد ولادته بسبعة أشهر ٠

واننا نستبعد كل الاستبعاد أنه توفى والنبى عنده نحو ثلاث سنين ، كما نستبعد أنه ولد من بعده ، لاجماع الرواة على أنه عليه الصلاة والسلام استرضع فى بنى سعد ، وهو يتيم ، ومن كان أبوه حيا لا يتيما ، واذا كانت الرضاعة أقصى مدتها فى الغالب حولان كاملان لمن يريد أن يتم الرضاعة ، وقد أرسل الى المراضع فى أولها أو بعد مضى وقت قصير من الولادة ، فلا يمكن أن يسمى عند أخذه وأبوه حى يتيما ، واجماع الرواه على وصفه باليتم عندما أخذته حليمة التى أرضعته ٠

وان الذى رجحه الرواة ــ وعليه الكثرة الكاثرة ــ أن أباه توفى وأمه حامل به ٠ وقد قال ابن كثير فى تاريخه « والمقصود أن أمه حين حملت به توفى أبوه عبد الله وهو حمل فى بطن أمه على المشهور » ٠

وقد روى ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، قال خرج عبد الله بن عبد المطلب الى الشام فى عير من عيرات قريش ، ففرغوا من تجارتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضا شهرا ٠٠٠ فبعث اليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ، ودفن ٠٠٠ فوجد عليه عبد المطلب واخوته وجدا شديدا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حمل ، ولعبد الله يوم توفى خمس وعشرون سنة » ٠

ويؤخذ من هذا الكلام أن رحلة عبد الله الى التجارة كانت فور زواجه أو بعده بقليل كما تومىء عبارة ابن كثير ٠ وأن عمره يوم الوفاة كان خمسا وعشرين ، وكانت رحلته بعد الزواج بقليل ، ويستفاد من هذا أنه كان الزواج بعد العشرين وقرب الخامسة والعشرين ٠

ولقد قال الواقدى فى وفاة عبد الله وكونه قبل ولادة ابنه الكريم : « هذا هو أثبت الاقاويل فى وفاة عبد الله عندنا » وهو المشهور ، كما نقل الحافظ ابن كثير رضى الله تبارك وتعالى عنه (١) ٠

ظواهر تعلن مكانته

٧٢ ــ تكريم الله تعالى له ظهر وهو جنين كما رأيت ، وظهر وأمه حامل به ، وكأن وجوده على ظاهر الأرض كان أمرا خارقا للعادة ، فى بركته على قومه برد أصحاب الفيل وكيدهم فى تضليل ، وفى الحمل به ، اذ لم يصبها شيء من أعراض الحمل الشاقة ، وكانه مر فى قلبها مرور الماء فى الميزاب ، وان طال حتى مدة الحمل ٠

ثم كانت الأمور تسير سيرا يدل على أمور ربانية اكتنفها الغيب لذلك المولود الجديد ، فأبوه يلقى وديعة الله فى امنة الصبور المطمئنة ، وما كان الزواج الا ليلقى هذه الوديعة ، ويعرب عنها سافرا مغتربا ، وقبضه الله تعالى بعد أن ألقى هذه الوديعة ، وكأنه خلق بما يشبه كلمة الله تعالى « **كن فيكون** » ٠

وينزل من بطن أمه مكتملا ، كأنه تجاوز السنة ، وهو قد نزل فى المهد ، لم يتناوله حجر النساء ، فأمه الصادقة تقول أنه وقع على الأرض معتمدا على يديه كما نقلنا ، وهو فى هذا شبه الساجد ، وقال بعضهم انه نزل جاثيا على ركبتيه ٠

وعندما ولد أرسلت أمه الكريمة الى جده عبد المطلب تبشره بولد قد رزقه ، فقالت فى رسالتها : « قد ولد لك غلام فأت فانظر اليه » ٠ وقد أضافته اليه مسرية له عن حزنه لموت ولده عبد الله الذى وجد عليه وجدا شديدا ، فلما جاءها أخبرته بالولادة ، وبرؤية صادقة تعددت رواياتها مما يدل على مكانته ، وبذلك سرت عن نفس حميها ، وهى الحزينة ولكنها الصبور التى تواسى غيرها فى مصاب أبيه ، ومصابها ، وان كان أعظم وأشق احتمالا ، وجد ما يسهل احتماله أوجد ما يعوض ، وهو المولود الذى يسمو على كل الخليقة ، وهو سيدها ، وهو محمود الوجود ، وهو حمد الكون وتسبيحه ، واذا كان الله تعالى قد أعطى به البركة على قومه ، فقد كانت أرهاصات

---

(١) البداية والنهاية : ٢ ص ٢٦٢ ٠

التكريم تبدو وهو جنين أيضا فى بطن أمه ، لقد رأت أمه فيما يرى النائم رؤيا صادقة ، والرؤيا الهام من الله تعالى ، أو توجيه منه سبحانه يشعر بها من تصفو نفسه ، وله اتجاه روحى ، ورأت حين حملت به كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ، وقد ورد ذلك فى حديث عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح النسبة ٠

قد ذكر ابن اسحاق أن كانت تحدث أنها أتيت حين حملت به فقيل لها : « انك حملت بسيد هذه الأمة ، فاذا وقع الى الأرض فقولى :

أعيذه بالواحد   من شر كل حاسد (١)

ثم سميه محمدا ٠٠

وقد يقول قائل ، وكيف نثبت التكريم بالرؤيا وقد تكون أضغاث احلام ، وهى لا تثبت شيئا ، فنقول فى الاجابة عن هذا السؤال العارض : ان الرؤيا الصادقة تشبه الالهام أو كأنها وحى ، أو هى جزء من الوحى كما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « الرؤيا الصادقة جزء من اربعة وأربعين جزءا من النبوة » وثبت فى الصحاح أن أول ما جاءت به ارهاصات الوحى كانت الرؤيا الصادقة « فما كان يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح » ٠

هذا ما تقوله الحقائق الدينية فى الرؤيا الصادقة ، ويقول الذين يتكلمون فى الأرواح فى هذا الزمان ان الرؤيا الصادقة سبحات روحية فى الملكوت الأعلى ٠

وانه بلا ريب هناك فرق ثابت بين الرؤيا الصادقة وأخلاط الأحلام التى تكون صورة لحال مادية أو عصبية للنائم ، كتخمة تصيبه من كثرة الطعام ، أو أن يكون مخمورا ، أو أن يكون مضطرب الأعصاب ، أو مضطرب النفس ، أو مشغولا بأمر من أمور المادة أو الشهوة ، فان هذا يكون اخلاطا لا تخبر عن شىء ، ولا تصدق فى شىء ، وهى التى تسمى أضغاث أحلام ، والتى لا يكون لها تأويل ، ولا يعبرها خبير ٠

واذا كان من الناس من ينكر الرؤيا الصادقة ، ويكذب الأحلام باطلاق ، ويقول انها صورة للعقل الباطن ، فذلك لأنه لا يمكن أن يدرك معنى

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٩٣ ٠

الرؤيا الصادقة ، اذ لم يجربها ، لأن الله تعالى لم يؤته قوة روحية ولم يؤته طاقة نفسية يستطيع أن يتغلب بها على خواطر اللذات والشهوات ٠ وهو لا ينام الا مخمورا ، أو مبطونا ، أو تكون نفسه واقعة فى الأهواء والشهوات ، فيكون ليله كنهاره ، ونومه كصحوه ، وحياته كلها صورة للمادة فى النوم واليقظة على سواء ٠

٧٤ — وترى من هذا الكلام الذى سقناه من بشارات التكريم فى منام امه البتول الطاهرة الصبور أن تسميته محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان بأمر من الآتى التى أتاها فى هذه ٠

وقد توافقت مع رؤيا أخرى رآها سيد قريش عبد المطلب الذى كان قد اشتهر بالنسك فى قومه ، وان لم يكن نسكا فيه حرمان ، بل نسكا فيه ما يجمل بالمروءة ، وقد كان صادق الرؤيا ، قيل لعبد المطلب لم سميته محمدا فقال شيخ قريش الطيب : « انه رأى فى منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء ، وطرف فى الأرض ، وطرف فى المشرق ، وطرف فى المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، واذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها » ٠

وأراد عبد المطلب أن يعرف مدى هذه الرؤيا التى رآها ، فسأل من يعبر له رؤياه ، فقيل له انه يكون مولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمد أهل السماء والأرض (١) ، اجتمعت رؤياه ، ورؤيا الأم الرءوم التى قصتها على الجد الكريم عندما بلغت بالمولود الذى بلغته بانه مولوده فارتضى الاسم الذى أفهمت به رؤيا الأم وهو محمد ٠

صلوا عليه وسلموا تسليما — فالله قد صلى عليه قديما
وحباه بالخلق العظيم فأبشروا — يا مادحين لذاته تكريما

لم يكن هذا الاسم معروفا عند العرب ، ولقد ذكر علماء السيرة انه لم يسم به أحد فى الجاهلية الا ثلاثة تسموا بهذا الاسم فى عصر ولادة النبى عليه الصلاة والسلام ٠

وقد قال صاحب كتاب الروض الأنف فى ذلك : « لا يعرف من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله تعالى عليه وسلم الا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وقرب زمانه ، وانه يبعث فى الحجاز

---

(١) الاكتفاء ص ١٦٨ من الجزء الاول ٠

أن يكون ولدا لهم ، ذكرهم ابن فورك فى كتاب الفصول ، وهم محمد ابن سليمان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أحيحة الجلاح ، والآخر محمد بن حمران بن ربيعة · وكان آباء هؤلاء قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم ان ولد له ولد سماه محمدا ·

سقنا هذه القصة لنثبت منها ندرة الذين سموا ولدا لهم محمدا ، اذ لم يكن معروفا ذلك الاسم عند العرب ، ونكاد نوافق على حصر العدد فى ثلاثة ، واذا فرض وكان أكثر فانه لا يتجاوزه بكثير ، سواء أصح السبب الباعث على التسمية أم لم يصح ، فان تلك التسمية لم تعرف الا قرب مولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانا نميل الى صدق هذا الباعث لأن التبشير برسول اسمه أحمد ، كان معروفا فى أوساط أهل الكتاب اليهود والنصارى ، وان أنكر أكثر اليهود رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دعوته لهم : « **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم** » ·

وقد اختيرت هذه التسمية من الله تعالى ، ولنذكر اشارة الى ما فى هذه التسمية من معنى يفهم بمقتضى قراءة اللغة ، ذلك أن صيغة التفعيل تدل على تجدد الفعل وحدوثه وقتا بعد آخر بشكل مستمر متجددا آنا بعد آن ، فيقال اذا تكرر ذلك الفعل · وعلى ذلك يكون محمد ، أى يتجدد حمده آنا بعد آن بشكل مستمر حتى يقبضه الله تعالى اليه ، وذلك لأنه تكون منه فعال الخير المتجددة وقتا بعد آخر ، فهو لا ينى عن فعل الخير الذى يقتضى ثناء وحمدا ، ولا عن قول الصدق الذى يقتضيه ، ولا عن الجهاد فى الحق الذى يستمر عليه الى أن ينشر الحق وهو شرع الله تعالى ، ويخلد الى يوم القيامة ·

وكان من أسماء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ـ أحمد ـ وهو الاسم الذى بشر به فى الانجيل ، وبشر به موسى عليه السلام ، وهو أفعل تفضيل من الحمد والثناء ، فهو كثير الحمد ، وكثير الثناء والذكر لله تعالى ·

ولعله لم يكن التبشير فى الانجيل وعلى لسان موسى عليه السلام الا بأحمد ، الا لأنه اشتهر بذلك فى حياته وخصوصا بعد أن بعث ، وكثرت دعوته ولأنه اسم لا يشاركه فيه أحد ، ولو نادرا ، فيكون التبشير متجها اليه ·

تاريخ مولده :

٧٥ ــ الجمهرة العظمى من علماء الرواية على أن مولده عليه

الصلاة والسلام فى ربيع الأول من عام الفيل فى ليلة الثانى عشر منه ، وذلك لأن الفيل وجيشه ساروا مكة فى المحرم ، وولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد مقدم الفيل بخمسين يوما ، وبذلك جمع الأكثرون على انه ولد بعد مساورة جيش أبرهة بخمسين يوما ٠

وقد وافق ميلاده بالسنة الشمسية نيسان (اغسطس) ، فقد ولد فى العشرين منه ، وقد جاء ذلك فى الروض الانف فقد قال : « ذكر أن مولده عليه الصلاة والسلام كان فى ربيع الأول وهو المعروف ، وقال الزبير كان مولده فى رمضان ، وهذا موافق لمن قال ان أمه حملت به فى ايام التشريق ، والله أعلم ، وذكروا أن الفيل جاء مكة فى المحرم ، وانه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد بعد مجىء الفيل بخمسين يوما ، وهو الأكثر والأشهر ٠٠٠ وأهل الحساب يقولون وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان (أى أغسطس) فكانت لعشرين مضت (١) ٠

ويلاحظ هنا أمران :

أولهما : أن هناك رواية تقول انه ولد فى رمضان ، وانه على مقتضى هذه تكون البعثة فى رمضان ، وأول نزول القرآن ، وأول نور الاسلام ظهر على وجه الأرض فيه بمولد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه يوم الفرقان اذ جعل الله تعالى كلمة الشرك السفلى وكلمة التوحيد هى العليا ، وفيه زوال دولة الأوثان ويأس الشيطان من أن يعبد فى هذه الأرض بفتح مكة المكرمة ، وطرح الأوثان من فوق ظهرها ، وحطمها ٠

ولولا أن هذه الرواية ليست هى المشهورة لأخذنا بها ، ولكن علم الرواية لا يدخل الترجيح فيه بالعقل ٠

ثانيهما : أن صاحب الروض يذكر فيما نقلنا أن الأشهر أنه ولد بعد خمسين يوما من قدوم جيش أبرهة ، ولكن هناك قول آخر مشهور وهو أنه ولد بعد خمس وخمسين ، كما فى رواية أبى جعفر محمد الباقر ، اذ يذكر ان الفيل قدم فى النصف من المحرم ، فيكون المناسب لليلة الثانية عشرة هو أن يكون قد مضى خمسة وخمسون ليلة (٢) ٠

وان ذلك يتفق مع التقدير الشمسى بعشرين من نيسان ، ولذلك نختار

---

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ١٠٧ طبع المغرب ٠
(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٢ ٠

هذا اذا كانت روايته وثيقة ، وان ذلك الاختلاف اليسير فى ليلة مولده عليه الصلاة والسلام لا يضير ، لأنه عليه الصلاة والسلام وجد وشاهد الوجود الانسانى وكان شهيدا على أمته حفيظا على شرعها يشهد للمؤمنين بشرعه ، ويشهد على العصاة الخارجين وأمته شاهدة على الناس بالحق ، تبين للمنحرفين ، وتهدى السالكين ٠

وروايات الميلاد جاءت على ألسنة من عاصروها ، وما يعتمد على المشاهدة أو المعاصرة قد يختلف فيها العلم ، فيذكر كل انسان ما يعلم ، وان كانت الحقيقة لا يختلف ، والمؤرخ يتعرفها من وراء الاختلاف اليسير ، والله سبحانه وتعالى هو العليم ٠

ارهاصات النبوة يوم مولده :

٧٦ — وضعت آمنة الطاهرة حملها الطاهر الذى لم يثقل فأضاء الوجود ببزوغ شمس هذا الوجود ، وقد ذكرت الروايات فى كتب السيرة أمورا كثيرة ظهرت غب ولادته ، أو قارنت الولادة :

(أ) فقد قالوا انه خرت الأصنام ، وتزايلت عن أماكنها ، وتمايلت على وجوهها ، لأنه جاء هادمها ، وليس ذلك منها بارادة ، ولكنها بارادة القاهر الحاكمة على كل شىء ٠

(ب) ظهر النور حتى أضاء قصور الشام ٠

(ج) جاء فى سيرة ابن اسحق « كان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت كان يهودى قد سكن مكة يتجر فيها ، فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال فى مجلس قريش يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ، فقال القوم والله ما نعلمه ، فقال الله أكبر أما اذا أخطأتم فانظروا واحفظوا ما أقول لكم ، ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخير بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات » ٠

وروى ابن اسحق عن حسان بن ثابت « قال انى لغلام تبعة ابن سبع سنين أو ثمانى سنين ، أعقل ما رأيت وسمعت ، اذا بيهودى فى يثرب يصرخ ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا اليه وأنا أسمع ، قالوا ويلك مالك ، قال قد طلع نجم أحمد الذى يولد الليلة » ٠

وحسان بن ثابت قد ولد قبل النبى عليه الصلاة والسلام بسبع سنين

فانه كانت سنه عند هجرة النبى عليه الصلاة والسلام الى يثرب ٦٠ سنة ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت سنة ثلاثا وخمسين ٠

وهكذا ، تواردت أخبار من جهات مختلفة عن اليهود بأنهم أدركوا مطلع ولادة النبى عليه الصلاة والسلام ، ونحن نؤمن بأن اليهود كان عندهم من علم التوراة ما يجعلهم يعلمون أن النبى الأمى سيبعث من العرب ، وكانوا يستفتحون به على المشركين الذين كانوا يجاورونهم فى المدينة . « **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين** » ٠

(د) ذكر مخزوم بن هانىء المخزومى أن ايوان كسرى ارتجس ليلة مولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسقطت منه أربع عشرة غرفة ، وخمدت نيران فارس التى يعبدها المجوس ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ٠

ورأى أحد رجال كسرى فى منامه أن ابلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة والفرات فى بلاده ، فلما قص الرؤيا على كسرى افزعه ، فتصبر وان لم يصبر ، فجمع كبار دولته وقال لهم : اتدرون فيم بعثت اليكم ؟ قالوا : لا الا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك اذ ورد اليهم كتاب بخمود النار ، ثم أخبرهم بما رأى أحد رجاله وبما هاله وقد تأولوا هذه الرؤيا ، وخمود النيران بأن حدثا يكون من بلاد العرب ٠

٧٦ ـــ ونقف وقفة قصيرة أمام هذه الروايات التى توردت من مزايلة الأصنام عن أماكنها وتمايل وجوهها ، واضاءة الضوء ساعة مولده ، وارتكاس ايوان كسرى ، وخمود نار فارس التى لم تخمد منذ الف سنة ، فنقرر أن العبرة فيها بصدق الرواية لا بكون هذه الأخبار مقبولة فى العقل فان حكم مؤرخ بعدم صدق الرواية رددنا ٠

ونقول فى الرواية ان المحققين فى علم الرواية لم يجدوا مساغا لتكذيبها فان الحافظ ابن كثير يروى فى هذا روايات كثيرة يعلن شكه فى صدق بعضها ، ويسكت عن سائرها ، وقد نقلنا ما لم يشك فيه ، فحق علينا أن نقبل منها ما قبل ، ونرد منها ما ذكر أن فيه ريبا ، وخبر الصادق يقبل ، مادام لم يعرف عليه كذب ، والأحكام تبنى على أخبار الصادقين ، ولو كان فيها احتمال الكذب لأنه احتمال غير مبنى على دليل ، ومجرد الاحتمال لا يمكن أن يكون سببا لرد أقوال الصادقين ، والا ما حكم قضاء ، ولا أدين متهم ، ولا ثبت حق ، ولا دفع باطل ، ولذلك لا يسعنا الا أن نقبل ما لم يجر فيه طعن ٠

واما من ناحية قبول العقل ، فانا قد بينا أن خوارق العادات تجىء

بتقدير الله تعالى الذى لا يتقيد بالعادات ولا بما يجرى بين الناس من أسباب ومسببات ، فانه خالق الأسباب والمسببات فقد يكون الرجز والمحق والخرف ، والزلزال لفساد قام به بعض الخلق ، وذكرنا الآيات الدالة على أن الله تعالى يلقى بالنعم على من يتقى ويعمل صالحا وقد تلونا من قبل قوله تعالى : **« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض »** وذكرنا أن الرجز والعذاب قد يكون بسبب فساد ارتكبه بعض الأقوام ، كما أنزل الله تعالى من الرجز على فرعون وملئه ، بما كانوا يفسدون فى الأرض ٠

فالذين يدعون أن هذه الأخبار غير مقبولة فى العقل ، انما ينظرون الى الأسباب والمسببات العادية التى تجرى فى أعمال بنى الانسان ، ولو علوا بأنظارهم الى ما فى الكون من كسوف وخسوف ، وما فى الرياح من مثيرات ، وما فى الأرض من زلازل وخسوف ما وجدوا لذلك تعليلا الا أن تكون ارادة الحكيم العليم القاهر فوق كل شىء الذى لا يسأل عما يفعل ، وأنه يفعل ما يفعل لحكم يريدها ، ومصالح يقدرها ، وقد ربطها بأمور يعلمها ، وهو علام الغيوب ، وتقديره هو تقدير العليم الخبير ٠

واذا كان الله تعالى قد أراد الكرامة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأراد أن يعلم من يطيفون به من أهل وقوم ما كرمه الله تعالى به ، وهو سينادى بالحق ، فان ذلك هو المعقول ، وغيره هو المردود ، لأنه مخالف ، لما قدره الله تعالى لهذا الانسان الذى سيعلم الانسانية كلها ٠

٧٧ ــ ولا يصح لعاقل أن يقول ان هذه أوهام سيطرت ، وخيالات خيلت ، وظنون ظنت ، لمجرد أنها خالفت مجارى العادات ، وما ألف الناس فى كل مولود ، فليس ككل مولود ٠

ومع ذلك فنحن نرجح صدقها ، ولا نلزم الناس بالايمان بها ، فليس من الايمان أن نؤمن بأن ايوان كسرى ارتجف ، ولا النار خمدت ، ولا أن الوجود قد استنار عند أن شرف هذا الوجود ، لأن هذه الأمور ليست جزءا مما دعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الايمان به ، اذ أن ما يجب الايمان به هو ما دعا اليه ، وما تكلم به عن الله سبحانه وتعالى ، وما نطق به القرآن الكريم ، وحكم به الديان ٠

ولو رجعنا الى ما كتبته الأناجيل الحاضرة فى مولد عيسى عليه السلام وما ألزمت الأناجيل به النصارى الذين يؤمنون بهذه الأناجيل التى يزعمون صدقها ــ لوجدنا ما تذكره السيرة النبوية لا يعد شيئا كثيرا بالنسبة لما ذكرته

الأناجيل وأوجبت الأيمان به ، ولنقبض قبضة يسيرة مما جاء فى هذه الأناجيل وما زعمته بالنسبة لولادة المسيح عليه السلام ٠

(أ) جاء فى انجيل متى فى الاصحاح الثانى أنه لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه فى المشرق ، وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته ٠

(ب) وجاء فى انجيل لوقا فى الاصحاح الثانى ، لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسرورا ، وظهر من السحاب أنغام مطربة ٠

(جـ) وجاء فى ولادة المسيح أيضا فى أحد الأناجيل ، لما ولد يسوع المسيح أضىء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عينى القابلة ، وعينى خطيب أمه يوسف النجار ٠

(د) وجاء فى انجيل لوقا الاصحاح الثانى « وعرف الرعاة يسوع ، وسجدوا له » ٠

(هـ) وجاء فى انجيل متى الاصحاح الثانى أيضا « ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرمودس الملك ، اذ المجوس من الشرق قد جاءوا الى أورشليم قائلين : « أين هو المولود من اليهود » ٠

هذه قبضة مما عند النصارى فى أناجيلهم ، ولا شك أن ما يذكر عند ولادة الرسول من أخبار صادقة هى دون ما يذكره هؤلاء عن مولد عيسى عليه السلام ٠

وانه من الحق أن نقرر أن الفارق بين ما يقولون فى مولد عيسى عليه السلام وما يقوله الرواة الصادقون من ناحيتين :

الأولى ـ أن ما يذكر فى الأناجيل عن حال عيسى عليه السلام أكثر غرابة ، وما يذكر لنبينا عليه السلام أقل غرابة بكثير ٠

الناحية الثانية ـ أننا لا يجب علينا دينا وايمانا أن نذعن لهذه الأخبار وان كانت صادقة ، ولكن المسيحيين يعتقدون صدق ما فى أناجيلهم ، ومن لم يصدقها يكون كافرا بها ٠

واذا كان ذلك هو الحق الذى لا ريب فيه ، فليس لأحد من الذين كتبوا فى النبى عليه الصلاة والسلام أن يثيروا غبارا حول ما ذكره عند ولادته عليه الصلاة والسلام ، والا فعليهم أن يثيروا عثيرا بل أكواما من التراب ، حول

ما قيل عند ولادة السيد المسيح عليه السلام ، ولكن رضى الله عن عبد الله ابن عباس الذى يقول ، ان الانسان يرى الشظية فى عين أخيه ، ولا يرى الخشبة فى عينه هو ، وما ذلك الا لعـدم الانصاف ٠

ارضـــــاعه

صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٨ ـــ الغذاء الأول للجنين بعد ولادته هو الرضاعة . والرضــــاعة تكون من الأم ، لأن لبنها يسير مع نموه سيرا مطردا ، فكلما كبر الغـلام فى المهد كبرت دسامة اللبن ، حتى يستغنى بالغذاء ، ولذلك كانت الرضــاعة من الأم أولى المطلوبات من الأمومة ، فقد قال تعالى فيما شرع من أحكـــــام : « **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضــاعة** » فكان بمقتضى الفطرة أن تكون آمنة الأم الرءوم هى التى تتولى ارضاعه ٠ ولكن كان لابد من يعينها بلبنه ، فقد أرضعته معها ثويبة وهى جارية لأبى لهب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ناوأه العداوة لما بعث رسولا ورحمــة للعالمين ، ولكن قد كان محبا لأخيه عبد الله ، ولابنه النبى الكريم محمــد ، وكانت ثويبة أول من أعلـــم أبا لهب بولادة ابن أخيه محمد ، فأعتقها لهذه البشرى الكريمة ، وكان هذا له خيرا يحتسب ، ولكن أخفاه كفره ، وانضمامه الى المخالفين المؤذين للنبى عليه الصلاة والسلام ، وضعفاء المؤمنين ٠

أعانت ثويبــة آمنــة فى ارضاعه ، وقــد أرضعت أيضــا حمــزة ابن عبد المطلب ، وقد كان هذا سببا من الأســباب التى طلب عبد المطـلب لمحمـد المراضع ٠

وعلى ذلك نقول ان طلب المرضع للنبى عليه الصلاة والسلام من مراضع البادية له أسباب ثلاثة :

أولهــا : عدم كفاية لبنه لتغذيته ، ولعل من بعض أسباب ذلك ما نالها من حزن دفين عميق صبرت عليه من غير تصبر ، وهو موت زوجها الحبيب الطيب ، ولم يزله ألم قريش كلها لوفاته وألم أبيه ، وألم اخوته ، وان خففته فان المشاركة فى الأسى تخففه ولا تزيله ٠

ثانيها : أنه كان من عادة أشراف قريش أن يعطوا أولادهم للمراضع فى البادية ، ولا يرضع نساؤهم ، كما هو ظاهر الآن فى كبراء الحضر أو ذوو

اليسار فيهم ، فانه لا يرضع نساؤهم الأولاد ، وان كانوا لا يرسلونهم الى الريف ٠

ثالثها : أن الغلمان اذا رضعوا فى البادية اكتسبوا غذاء طيبا ، وهواء ليس معكرا بما فى جو المدن ، فأهل الوبر أقرب الى الهواء النقى النظيف من أهل المدر ٠

ولقد قال فى هذا صاحب الروض الأنف ، وأما دفع قريش وغيرهم من اشراف العرب أولادهم الى المراضع ، فقد يكون ذلك لوجوه أحدهما تفريغ النساء الى الأزواج ٠٠٠ وقد يكون ذلك منهم لينشأ الطفل فى الأعراب ، فيكون أفصح للسانه ، وأجلد لجسمه ٠٠٠ وقد قال عليه الصلاة والسلام لأبى بكر حين قال له : ما رأيت أفصح منا يارسول الله ، فقال : ومايمنعنى وأنا من قريش ، وأرضعت فى بنى سعد ، فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء الى المراضع الأعرابيات ، ليتربوا على تحمل الأجواء ، ويتنسموا نسيم البادية ، ويعرفوا عاداتها ، ويخشوشنوا بخشونتها ، ولا ينشئوا فى حلية المدينة ، غير متعرضين لما تقتضيه الحياة ٠ من تحمل الأعباء ، وما تفرضه مقتضياتها من شدائد ليكون منها الأشداء ٠

٧٩ ـــ جاءت المراضع الى مكة من بنى سعد بن بكر يردن الرضعاء يرضعنهم ٠ وكان من عادة العرب ألا تأخذ المرضع أجرا على الرضاعة ، وان كن يقبلن من آل الطفل الهدايا والرعاية ، فتسد بعض حاجاتهن ، ويرين من العار أن يكون لهن أجر منتظم ، وسرى بينهم المثل السائر تموت الحرة ، ولا تأكل من ثديها ٠

ومنهم كما جاء فى الروض الأنف من كن يقبلن الأجرة ، اذا لحت بهن الحاجة ٠٠

ولقد كان محمد يتيما لم يترك أبوه شيئا يعد ثروة ، فقد ترك خمسة جمال ، وبعض الشاه ، وأمه اسمها أم أيمن التى حضنته بعد وفاة أمه الكريمة فكان يتيما فقيرا ٠

وقد حضرت المراضع ترجو أن يعهد اليهن بمن يرضعنه راجيات من هذه الرضاعة الهدايا أو رضخا من المال ، لا أجرة يؤجرن بها أثداءهن ، فاذا كن يرجون ما يرجون ، فانهن لا يرضعن الا أولاد ذوى اليسار ، ولذلك أعرضن عن اليتيم الفقير ، وبذلك خرج كل المرضعات بطفل من ذوى اليسار ، الا حليمة بنت أبى ذؤيب ، واسمه عبد الله بن الحارث بن كبشة ، وكان زوجها

معها ، واسمه الحارث بن عبد العزى ابن رفاعة وكان المرضعات كما قال الواقدى عشرا كلهن عاد بالأولاد الا حليمة ، فلما رأتهن جميعا أخذن أطفالا ، ولم يبق الا اليتيم الطاهر محمد بن عبد الله ، أخذته راجية الخير ، وان لم ترج العطاء ، ولنتركها تحدثنا كيف قبلته ، فانها تصور لنا طيب نفسها ، وما أفاضه الله تعالى عليها من خير بسبب بركة اليتيم الكريم ، فهى تقول :

٨٠ — « فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا خرجت على أتان لى قمراء معها شارف (١) • كانت والله ما تبض (٢) • بقطرة ، ولا ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، ما فى ثديى ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمت (٣) بالركب ، حتى شق ذلك عليهم •

حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما معنا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول ما عسى أن تصنع أمه وجده !!

فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا غيرى •

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى • والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ، فلآخذنه •

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة •

قالت : فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره •

فلما أخذته رجعت الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، حتى ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك •

---

(١) الأتان القمراء هى التى تميل الى الخضرة ، والشارف الناقة العجوز •

(٢) أى ترشح الناقة لنا بقطرة من اللبن نتغذى به لكبر سنها •

(٣) أى صارت مذمومة فى الركب •

وقام زوجى الى شارفنا فاذا أنها لحافل ٠

فبتنا بخير ليلة يقول صاحبى حين أصحبنا : تعلمى والله يا حليمة لقد اخذت قسمة مباركة ، قلت والله انى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا ، وركبت أتانى وحملته عليها معى ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على شىء من حميرهم ، حتى ان صواحبى ليقلن يابنت أبى ذؤيب ويحك ، اربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ، فأقول لهن بلى والله انها لهى ٠

قالت ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد ، ولا أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت والله ، غنمى تروح على حين قدمنا به معنا ـ شباعا لبنا ، فنحلب ونشرب منها ٠٠٠ حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ٠

٨١ ـــ اذا كان محمد قد اقدم باليمن والبركات على اهل مكه ، برد أبرهة وفيله ، وجيش اليمن مدحورين ، عادوا ، فبركته بعد ولادته تسير معه حيث سار ٠

لقد رضيت باليتيم ، وصاحبها قبله ، وكلاهما طيب النفس مطمئن قانع مستعين بالله تعالى قانع بما يعطيه ، فجزاها الله تعالى جزاء حسنا ، فأطعمهم من جوع ، ودر عليهم الأثداء الجافة ، فأضاف الى لبنها لبنا كفاه هو وصبيها وأخصب كلؤهم بعد اجداب ، وامتلأت أضراع غنمها ، فكان الخير العميم والفضل العظيم ٠

وقد يسأل سائل لم كان هذا ، ويستغرب ، ولكن لا غرابة لمن يؤمن بالله تعالى فان له تقديرا فوق تقدير العباد ، ونظاما فوق نظامهم ، وانما يستغرب من لا يؤمن الا بالمحسوس ، ويربط بين الأسباب العادية ومسبباتها ٠

وان الذى نقف عنده هو أن هذا الغلام الذى صنعه الله على عينه ولد يتيما ، ولكن لم يذق قهر اليتامى ، ولا ذل اليتيم ، بل كان بين أحضان من يحبونه ، فأول حواضنه أم رءوم لم تر فى الوجود نورا الا نوره ، وغمرها حبه ٠ وغمرته بعاطفتها ، فكان كل حبها له ، لم يشركه فيها زوج اذ فقدته ، فآل حبه اليه ، فكان له صفوا خالصا ، لم يرنق بشركة ، والتقى فى عاطفتها حب لزوج كريم لم تنعم برفقته ، وابن حبيب محبب فيه كل ما فيه ، وكانت الحاضنة الثانية أم أيمن التى كانت ميراثه من أبيه أحبته كما تحب الأم ولدها

وكانت له بعد أمه رفيقة به أضافت اليه من حنانها ما عوضه ، وان لم يكن العوض كالأصل ، ولا البديل كالبدل ٠

ثم كانت الحاضنة الغريبة التى صارت برضاعه أما كأمه ، خلق فيها رب العالمين محبته ، وجعله يمنا وبركة لترى فى محبته حب الله ، ولترى فى عاطفتها عليه رزق الله تعالى ٠

والحواضن الطيبات الطاهرات هن اللائى يدر منهن العطف الانسانى ، فمنهن يتلقى العواطف الاجتماعية والأنس الانسانى ، ولذلك نشأ محمد عليه الصلاة والسلام انسانا محبا يألفه كل من يعرفه ٠

واذا كان قد فقد الأب ، فقد قيض له الجد ، واذا كان قد فقد الأم فى باكورته ، فقد تغذى من عطف أم أيمن ، واستقى منها أكرم العواطف ، وهذا كله فوق ما أودعه الله اياه من خلق كريم عظيم ٠

٨٢ ــ أخذت حليمة ترضعه حولين كاملين ، وهو فى حضنها مع ولدها لا يفترقان ، لا تضن عليه بعطف ولا محبة ، ولا تخص ابنها بفضل منهما بل هما على سواء ٠

فما بلغ الحولين ، حتى استغنى عن اللبن وأخذ فى الغذاء حتى كان غلاما جفلا ، أى قويا ممتلئا يستغنى بالطعام ٠ ولم يذكر التاريخ أكانت تلتقى به أمه ، أم تركته الى البادية مطمئنة عليه !! ، ولكن اذا كان التاريخ لم يذكر أنها رأته ، فلنفرض أنها كانت تراه من وقت بعد آخر ، واذا كان التاريخ لم يذكر الرؤية ، فان أقصى ذلك أنه لم يثبتها ، ولم ينفها ، فالفطرة والحنان يوجبانها ، وهما أصدق خبرا ، ولذلك نقرر أنها لابد كانت تراه من حين لآخر (١) ٠

وانه بعد أن استغنى عن الرضاعة ، وبلغ فيها حولين كاملين ، يكون من الحق على المرضع أن ترده الى أهله ، واذا كانوا يرون أن يبقى عندها فانه يكون برجاء منها ، ورضا منهم ، وهذا ما فعلته ، فقد قالت :

قدمنا به على أمه ، ونحن أضن شىء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه ، قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى ، فاننا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله مازلنا بها ، حتى قالت نعم ٠

---

(١) الاكتفاء ص ١٧١ ــ ج ١ « وسيرة ابن هشام » ٠

رأت الخير بين يديه ، فأرادت أن تبقيه ليبقى الخير ، ولأنه قد نال محبتها ، وأصبحت لا تستطيع فراقه كأنها التى حملته ، ولم ترض الأم التى حملت به أن تتركه لشوقها اليه ، ولتضمه لحضانها ، فلم تسلمها ولدها لأول طلب ، بل مازالت بها حتى قبلت ، ولعل قبولها سببه ما ذكرته من أنها تخشى عليه وباء مكة ، وتريده أن يكون مستمتعا بجو الصحراء الصافى من حمل الأسقام والأوباء ، فهى قد رضيت ايثارا ومحبة ٠

اخبار شق الصدر :

٨٣ ـــ عادت حليمة فرحة ببقاء الخير والبركة ببقاء محمد فى حضانتها ، واذا كانت من قبل مرضعا وحاضنة فهى الآن حاضنة ، وان ذلك يحملها عبئا آخر ، وهو صيانته وحفظه ، اذ كان من قبل يلازم حجرها ، أو يكاد ، أما الآن فانه لا يلازم حجرها ، بل يغادره ليلعب ، ليروح ويغدو ، هنا وهناك ، وان ذلك يحتاج الى صيانة ، وكانت تتبعه ٠

وقد خرجت مرة لتبحث عنه مع أخته من الرضاعة ، وكان الحر شديدا ، فتقيل كلاهما ، (أى استرخى فى القيلولة) فقالت الفتاة ، انه لايحس بحر ، لأن غمامة تسير حيث يسير ، وتقف حيث لا تتركه ٠

ونقف وقفة قصيرة عند الأخبار الواردة فى شق صدره عليه الصلاة والسلام ، فقد رويت فى ذلك أخبار بعضها فى خبر قصير ، وبعضها فى خبر طويل ، ولا تخلو من زيادة فى بعض ، ونقص فى آخر ، وان كان المعنى الأصلى متفقا فى الجميع ٠

ولنذكر واحدا منها ، وهو ما روى وثبت فى صحيح مسلم عن طريق حماد وابن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه وصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال هذا حظ الشيطان ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده فى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه يعنى ظئره ، فقالوا ان محمدا قد قتل ، فاستقبلوه ، وهو منتقع اللون ، قال أنس ، وقد كنت أرى ذلك الخيط فى صدره » وانا نلاحظ فى ذلك الخبر أمرين :

أولهما : أن الخبر فيه أنه غسله بماء من زمزم ، ويلاحظ أن الواقعة ان صحت كانت فى البادية فى مكان ناء عن زمزم ، واذا كان من ماء مع جبريل ، فمن أين علم أنه من زمزم ٠

ثانيهما : أنه ذكر أنه كان يرى أثر الخيط فى صدره عليه الصلاة والسلام ، واذا صحت الواقعة فان المعقول أنه عمل ملك ، والملك لا يكون لعمله أثر محسوس ٠

ونحن نرى أن الأخبار بالنسبة للشق لا تخلو من اضطراب ٠

وعلى فرض أنها صحيحة ، لا نقول انها غير مقبولة ، بل انا نقبلها ان صحت ، ولكن الاضطراب فى خبرها ، يجعلنا نقف غير رادين ، ولا مصدقين ٠

ومهما يكن الأمر فى قصة شق البطن ، فان الغلام الطاهر كانت تحوطه أمور خارقة للعادة لم تكن لتحدث للغلمان فى سنه عادة ٠

ولقد جاء فى الروض الأنف أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم عندما عادت به حليمة بعد أن حملت أمه على الرضا ببقائه عندها سنة أخرى أعادته بعد شهر أو ثلاثة خوفا عليه مما يجرى ، ولقد ذكر الرواة حديث شق البطن ، وأنها لما بلغها خافت على الغلام فردته الى أمه ٠

قال ابن اسحاق انها رأت أن بعض النصارى رأوه ، ورأوا ما به من علامات النبوة ، فطلبوا الى حليمة أن يأخذوه عندهم فارتابت فى ذلك حليمة فردته الى أمه خائفة عليه ، ولتخلى نفسها من التبعة ، وسنزيد من بعد الخبر بيانا ٠

٨٤ ــ هذا الكلام يدل على أنه آل الى أمه بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من السنة الثالثة ، وهو معقول لأنه لا رضاعة من بعد ذلك ، والأحوال كانت توجب هذا ، لما كان يصيب أمه الرضاعية من خوف عليه ، بسبب الارهاصات التى كانت تحوم حوله مما أفزعها ٠

ولكن جاء فى الروض الأنف ما نصه :

« وكان رد حليمة اياه الى أمه ، وهو ابن خمس سنين وشهر فيما ذكر أبو عمرو ، ثم لم تره بعد ذلك الا مرتين احداهما بعد تزوجه خديجة رضى الله تعالى عنها ، جاءت اليه تشكو السنة ، وان قوما قد استنوا ، فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات ، والمرة الثانية يوم حنين » ٠

وان هذين بلا شك خبران متناقضان : أحدهما يفيد أن أمه تسلمته عند بلوغه سنتين وشهرين أو ثلاثا ، والثانى يقرر أنها تسلمته بعد خمس سنين وأشهر ٠

ولكن التوفيق بينهما ممكن بأن أخذها الأول لتضمه اليها ، ويكون فى كنفها ، ولا يمنع ذلك من أن تجىء حليمة اليه تأخذه عندها الفينة بعد الفينة ، يستروح بنسيم الصحراء ، وتتيمن به ظئره المخلصة العطوف ، أما حد التسليم بخمس سنين ، فهو عندما أخذته نهائيا أمه ، ولم يذهب بعد الى بنى ســعد ، ولذلك قرروا أنها لم تره بعد ذلك الا بعد أن اكتملت رجولته بتزوجه ، وبعــد أن أبلغ رسالته ، وتذاكرت الركبان بنصرته فى يوم حنين ، فقد دامت من بعــد اقامته عند أمه ، ورحلت به الى يثرب لتريه قبر أبيه ، ولتزور وهى وفاء لرجلها الطاهر الأمين ٠

لقد سلمته حليمة الى أهله ، وكان يتردد عليها برغبتها ، وأجازه أهلها ، وقد ذكر ابن اسحق خبرين قد نوهنا الى أحدهما ، ولم نذكر الآخر ، وقد كان السبب فى الا يقيم عندها اقامة ممتدة ، ولكن تأخذه الوقت بعد الآخر :

أولهما : أن ابن اسحق قدر أنه زعم النــاس فيما يتحدثون أن حليمة ظئره لما قدمت مكة به ضلت وهى مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجــده ، فأمت جــده ، فقالت له انى قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلنى الناس فوالله ما أدرى أين هو ؟ فقام عبد المطلب يدعو الله أن يرده ، فوجده ورقة بن نوفل ابن أسد ، ورجل آخــر من قريش فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فجعله على عنقه ، وهو يطوف بالكعبة يعوذه ويدعو له ، ثم أرسل به الى أمه آمنة ٠

وقد ذكر هذا الخبر ابن اسحاق ، وصدره بكلمة زعموا مما يدل على شكه ، ولكن لا موضع للشك فيه ، فالخبر فى ذاته مقبول ، وهو يدل على عظيم حدب جده عليه ، وحرص حليمة ، ومحبة قريش له ٠

ولكن هل هذا كان فى تسليمها الأول ، أو فى تســليمه فى المرات التى كان يتردد عندها ، تيمنا لجواره وقربه منها ، وقبول أمه لذلك ليستروح هواء البادية ، وتتقى أسقامه بها ٠

الخبر الثانى قد أشرنا اليه من قبل ، ورجحنا أنه السبب فى اعــادته بعد شهرين من بلوغه حولين كاملين ، وهذا نص كلام ابن اسحاق :

« حدثنى بعض أهل العلم : أن مما هاج أمه السعدية على رده الى أمه مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه أن نفرا من الحبشة نصــارى رأوه حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألوها عنه ، وقلبوه ثم قالوا لها لنأخذن

هذا الغلام ، فلنذهبن به الى ملكنا وبلدنا ، فان هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره ، فزعم الذى حدثنى أنها لم تكد تنفلت منهم حتى ارسلته الى أمه ·

سـفر أمه به الى يثرب :

٨٥ ــ كانت آمنة مثـالا للمـرأة الكاملة ، وهى بعـد لم تتجـاوز العشرين الا بقليل ، فقد رأت أن تزور يثرب وهو معهـا هو وأم أيمن حاضنته بعد أمه الكريمة ، وذلك لأمرين :

أولهما : أن تزور مع ولدها قبر أبيه ، وفى ذلك أجل الوفاء ، وأكرمه ، وكأنها ترى زوجها وديعته التى أودعها اياها ·

وثانيهما ــ أن تعرفه بقرابته من ذوى الأرحام ، وهم بنـو النجـار ، اذ تزوج منهم جده هاشم ، تزوج سلمى بنت زيد بن عمرو الذى ينتهى بنسبه الى عدى من بنى النجار ، وكان بالمدينة ذا شرف ومال ·

وقد تحقق لها ما أرادت ، ولعل هناك باعثا آخر ، وهو أنها كانت تخشى على وليدها العزيز جو مكة ، ووباءه ، فأرادت أن تخرج بـه من ذلك الجـو المزدحم الآهل بالسكان ، لقد كانت حليمة تأخذه من وقت لآخر ، فينقى جسمه من جو مكة المتكاثف ، وينال من جو البادية ما ينعش جسمه ونفسه ، ويكون ارادته ويكون فيه متصلا بالكون لا يحجبه عنه حاجب ، ولا يحول دونه باب ، بل هو متصل بالسماء وزرقتها ، والنجوم ومدارجها ، والقمر وانبلاجه ، فيرى الشمس سراج الوجود ، والقمر منيره من غير استتار يمنعـه ، أو حاجز ، يرى الشمس فى مشرقها ، وضـحاها ، وأصيلها وغروبها ، وشفق القمـر اذ يضىء ، فيشق نور الظلام وينبلج نوره ، ويتغنى به الشعر ، وفى ظله يتسامر المدركون لجمال منظره ، ودلالته على الخلاق العليم ·

سافرت به أمه لتزور قبر أبيه ، وأخواله ، ولتخرج به من مزاحم مكة ، ومحاجزها ، وهى أحب أرض الله اليها ، ولكنه الوفاء ، ورعاية الوليد الطاهر فى جسمه ونفسه ، وأهله ، ولتربيه ذوى رحمه كما رأى عصبته ·

والظاهر أنها خرجت بعد أن أخذته من حاضنته ووضعته بعـد أن بلغ خمس سنين وأشهرا كما ذكرنا من قبل أى أنه كان قد ابتدأ السادسة ، وسار فيهـا أشهرا ·

وقد زار ، أولئك الصفوة من الأخيار قبر عبد الله أبيه ، والزوج الحبيب زوج آمنة فعبرت العيون وسكنت الأصوات ، وتناجت الأرواح على مشهد من الغـلام المحس المدرك ، فعـرف أباه ، وقد ارمس فى التراب ، ورأى رمسـه بنظره ، وأدرك محبته من عبرات أمه ، فكان منظرا مطبوعا فى نفسه ، وهمسا مس قلبه ومشاعره ، ولعله أول حزن مس قلبه الغض البرىء ٠

اقام وأمه فى أطم بنى عدى بن النجار ، وهو قصر بنى فى أكمة عاليـة كأنه الحصن ، وقد كانت الأطم معروفة فى المدينة ٠

ويظهر أن الاقامة لم تكن قصيرة ، وربما كانت طويلة نسـبيا ، ومهما يكن فقد رسمت فى ذهن الغلام صورا وضحها الخيال ووسعها من غير مبالغة ولا اغراق عنـد ذكرها ٠

فيروى أنه قال ، وقد رآها بعد أن حمل أعباء الرسالة : « كنت مع غلمان من أخوالى نطير طائرا يقع عليه (أى على أطم بنى النجار) وقال فى الدار التى نـزل بهـا هو وأمـه : ها هنا نزلت بى أمى ، وفى هـذه الدار قبر أبى عبد الله بن عبد المطلب » ٠

موت الطهـور آمنـة :

٨٦ — اقامت آمنـة بدار بنى النجـار ما طابت لها الاقامة ، ولم ترد الاستمرار بعيـدة عن بنى هاشم وعن الجد الطيب عبد المطلب كافله ، فكان لابد من العودة ، فأخذت فى السير الى مكة ، ولكنها وهى عائدة اليها أدركها الموت بمكان اسمه (الأبواء) وهو بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب ، كما يقول صاحب الروض الأنف (١) وبذلك صار محمد صلى الله عليه وسلم يتيما من أبويه الذى ادخره الله تعـالى للانسانية هاديا بالحق ، داعيـا الى الرحمة ، فكان نبى الرحمة ، لأن الرحمة بالناس تنبع من الآلام الذاتية التى تعترض فى أثناء الحياة ، فانه لا تنبعث الرحمة بالضعفاء الا ممن ذاق مرارة الضعف ، وأى ضعف أشد من اليتم ، وان القسوة فى كثير من الأحيان تكون من الذين ينشئون فى الحلية فاكهين فى نعيم الحيـاة ٠

---

(١) يقول فيه صاحب الروض الأنف ، وقيل سمى الأبواء ، لأن السيل كان يبـوء فيه ٠

ولقد ماتت الأم الطاهرة ، وهو يدرك الحياة ، وقد ذاق حلاوة حنانها ، ولطف عطفها ، وهى التى كان هو لها كل الوجود ، واستبشرت به ، واتخذت حبه عوضا عن الحب الزوجي الذى فقدته فى باكورة زواجها ، واذا كان قد فقد أباه من قبل ، فقد كان ذلك وهو فى غيب الله المكنون ، وقد عوضه جده عطف الأب فلم يحس بألم الفقد ، لأنه لم يعلمه ، واستقبل الحياة بهذه الحال ، ولم يجعله جده عبد المطلب يحس بالفقد الذى لم يعه ، أما الأم ، فقد فقدها ، وهو فى وعى ، وبعد أن ذاق حلاوة حنان الأم ، وانه لا شىء يعوض عطف الأم الرءوم ، وهو حرمان من شىء موجود شعر به ، وأصابت به لوعة ، علمته الصبر وعوده أخضر ٠

وزادت اللوعة ، وزاد معها الصبر أن الموت ، وهما غريبان ، وليس لهما الا الصحراء ، وطريق مدعثر ، وشقة بعيدة ، لابد من قطعها ، فاجتمع ألم الغربة ، وألم الفقد ، وألم الانقطاع ، وصار الركب فى رعاية الله تعالى الذى صنعه على عينه ، وذلك ليحس مع الصبر واحتمال الآلام كريم الرعاية الالهية ، والعناية الربانية ، ويكون له من هذا زاد نفسى يذكره عندما يلاقى الشدائد فى الدعوة الى الحق ، ومناوأة الشرك وتكاثف المشركين عليه ، وتعرضه للأذى والتجائه الى الله اذا أحس بالضعف ٠

وان الذى حمله ، وحل محل أمه فى حضانته جارية حبشية ، واذا كانت لم تعطه حنان الأم ، وعزة العطف ، فقد كلأته وحمته ٠

وان ارتباط حياته الطاهرة بأمة حبشية تزويد من الله تعالى له بزاد انسانى ، ليشعره بأن الناس سواسية ، وأن كل الفضل فيمن يحسن فى عمله ، لا فيمن يفاخر بنسبه ، وانها لحكمة عالية أن تكون الحاضنة التى لا يستغنى عنها محمد صلى الله عليه وسلم أمة حبشية ، لأنه تربية ربانية على المساواة الانسانية ، وأنه لا شرف الا بالنفع ، والعاطفة ٠ لذلك لم يكن غريبا من الذى حضنته جارية حبشية أذاقته حب الأمومة،وان كان دون حبها ، وأوصلته الى جده محوطا بعناية الله وعطفها ــ أن يكون نصير الأرقاء ، والمانع للرق الانسانى ، فليس غريبا أن يغضب أشد الغضب ، عندما يسمع بعض صحابته يعير آخر بقوله « يا ابن السوداء ، ويقول فى قوة : لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى فمحمد ابن البيضاء حضنته السوداء فكان ابنا لهما معا » ٠

٨٧ ــ ذاق حب الأم ، وذاق لوعة فراقها ، ولذلك زار قبرها ، بعد أن بلغ أشده ، وصار رجلا مكتملا سويا ورسولا نبيا ، جاء فى الروض الأنف «وفى الحديث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زار قبر أمه بالأبواء ،

فبكى وأبكى » وهذا حديث صحيح ، وفى الصحيح أيضا أنه قال استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى ، فأذن لى واستأذنته أن أستغفر لها ، فلم يأذن لى ، وفى سند البزاز من حديث بريدة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حين أراد أن يستغفر لأمه ضرب جبريل عليه السلام فى صدره ، وقال له : لا تستغفر لمن كان مشركا ، فرجع وهو حزين ، وفى حديث آخر ما يصححه ، وهو أن رجلا قال له يا رسول الله أين أبى فقال فى النار ، فلما ولى الرجل قال عليه السلام ان أبى وأباك فى النار » وليس لنا أن نقول نحن هذا فى أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقوله عليه الصلاة والسلام « لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات » وانما قال النبى عليه الصلاة والسلام لذلك الرجل ما قال ، لأنه وجد فى نفسه ، وقد قيل انه قال أين أبوك أنت ، فحينئذ قال ، وقد رواه معمر بن راشد بغير هذا اللفظ ، فلم يذكر أنه قال ان أبى وأباك فى النار ٠

ولاشك أن الخبر الذى يقول ان أبا محمد عليه الصلاة والسلام فى النار خبر غريب فى معناه ، كما هو غريب فى سنده ، لأن الله تعالى يقول : « **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**» وقد كان أبو محمد عليه الصلاة والسلام ، وأمه على فترة من الرسل ، فكيف يعذبون ؟!! ان هذا مخالف للحقائق الدينية ، لقد مات أحدهما قبل أن يبرز الرسول الى الوجود ، وماتت الأخرى وهو غلام لم يبعث رسولا ، ولذلك كان الخبر الذى يقول انهما فى النار مردودا لغرابة سنده ، أولا ، ولبعد معناه عن الحقيقة ثانيا ٠ ولعل نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن الاستغفار ، لأن الاستغفار لا موضع له ، اذ أنه لم يكن خطاب بالتكليف من نبى مبعوث ، وليس كاستغفار ابراهيم لأبيه الذى نهى عنه ، لأن أبا ابراهيم قد خوطب برسالة ابراهيم فعلا ، فهو مكلف أن يؤمن بالله ، ويكفر بالأوثان ٠

وفى الحق انى ضرست فى سمعى وفهمى عندما تصورت أن عبد الله وآمنة يتصور أن يدخلا النار ، لأنه عبد الله الشاب الصبور الذى رضى بأن يذبح لنذر أبيه ، وتقدم راضيا ، ولما افتدته قريش استقبل الفداء راضيا ، وهو الذى كان عيوفا عن اللهو والعبث ، وهو الذى برزت اليه المرأة تقول هيت لك ، فيقول لها أما لحرام فالممات دونه ، ولماذا يعاقب بالنار ، وهو لم تبلغه دعوة رسول ، ونفى الله تعالى العذاب الا بعد أن يرسل رسولا ، ولما تكن الرسالة قد وجدت ، ولم يكن الرسول قد بعث ٠

وأما الأم الرؤوم الصبور التى لاقت الحرمان من زوجها فصبرت ، ورأت ولدها يتيما فقيرا ، فصبرت ، وحملته صابرة راضية فى الذهاب الى أخواله ، أيتصور عاقل أن تدخل هذه النار من غير أن يكون ثمة رسالة الهية تهديها ، ودعوة الى الوحدانية توجهها ٠

انى ضرست لا لمحبتى للمصطفى الحبيب فقط وان كانت كافية · ولكن لأن قصة آمنة جعلتنى لا أستطيع أن أتصور هذه الصبور معذبة بالنار ، وقد شبهتها بالبتول مريم العذراء لولا أن الملائكة لم تخاطبها ·

٨٨ — ويظهر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان كلما مر بقبر أمه غلبت عبراته ، ولا عيب فى ذلك ، فقد قال عليه الصلاة والسلام البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان ، ولقد ذكر الرواة أنه بكى عندما مر بالأبواء ، وبكى من معه لتذكر أمه · ولقد قال القرطبى فى تذكرته « جزم أبو بكر الخطيب فى كتاب السابق واللاحق ، والناسخ والمنسوخ ، وأبو حفص عمر بن شاهين باسناديهما عن عائشة رضى الله عنها ، قالت حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فمر على قبر أمه ، وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم انه نزل ، فقال ياحميراء استمسكى فاستندت الى بيت البعير ، فمكث عنى طويلا ، ثم عاد الى وهو فرح مبتسم ، فقلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله نزلت من عندى وأنت باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائك ، ثم عدت وأنت فرح مبتسم ، فيم ذا يا رسول الله ، فقال « ذهبت لقبر آمنة أمى ، فسألت أن يحييها الله تعالى ، فأحياها فآمنت بى » ·

وروى فى احياء أمه وأبيه خبر مثل ذلك بسند فيه مجهولون ·

ونحن نرى أن توافر السند الصحيح فى هذه الأخبار غير ثابت ، ولكن نقول ما قاله صاحب الروض الأنف ـ « الله قادر على كل شىء ، ولا تعجز رحمته وقدرته عن أى شىء ، ونبيه عليه الصلاة والسلام أهل أن يخصه بما شاء من فضله ، وينعم عليه بما شاء من كرامته صلوات الله تعالى وسلامه عليه ·

ولقد روى الحافظ بن كثير أحاديث كثيرة فى هذا الباب ، وذكر أن فيها غرابة ، وذكر الخبر الذى سقناه عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، سأل ربه أن يحيى أبويه فأحياهما وآمنا به ثم قال فيه : « انه حديث منكر جدا ، وان كان ممكنا بالنظر الى قدرة الله تعالى ـ لكن الذى ثبت فى الصحيح يعارضه » (١) ·

وخلاصة القول وهو ما انتهينا اليه بعد مراجعة الأخبار فى هذه المسألة أن أبوى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى فترة ، وأنهما كانا قريبين الى

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨١ ·

الهدى ، والى الأخلاق الكريمة التى جاء به شرع ابنهما من بعد ، وانهما كانا على فترة من الرسل ، ونعتقد أنه بمراجعة النصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة لا يمكن أن يكونا فى النار ، فأمه المجاهدة الصبور ، الحفية بولدها، لا تمسها النار • لأنه لا دليل على استحقاقها ، بل الدليل قام على وجوب الثناء عليها هى وزوجها الذبيح الطاهر •

وما انتهينا الى هذا بحكم محبتنا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وان كنا نرجوها ونتمناها ، ولكن بحكم العقل والمنطق والقانون الخلقى المستقيم ، والأدلة الشرعية القويمة ، ومقاصد الشريعة وغاياتها •

فى حضن عبد المطلب

٨٩ ـ عادت أم أيمن بركة الحبشية الى مكة وسلمت الغلام الطاهر الى جده عبد المطلب ، وقد بلغ السادسة من عمره الكريم العامر بالخير ، وعمل الصالحات ، فأدناه اليه وقربه •

وفى البيت كان الصبية من أولاد عبد المطلب ، والشباب من الرجال والنساء ، كان فيه حمزة وكان فيه العباس ، وكانت فيه هالة زوج عبد المطلب ، وابنة عم أمه ، فهى ذات رحم ، وما كان يمكن أن تنظر اليه ، كما تنظر أزواج الآباء ، الى ذرية أزواجها ، بل كانت تعد كخالته ، لأنها ابنة عم أمه ، وهى ربة البيت الراعية لبيت زوجها الكريم ، ولذريته الأطهار ، فما كانت تنظر اليه شزرا ، بل كانت تحبوه من عطفها ، ما تحبوه لولدها ، فكان وسط مملوءا بالعطف والصلاح ، فما قهره يتمه ، ولا أرهقه فقد أبويه ، وان لم يكن عزه كمثل عزهما ، ولا عطفه كمثل عطفهما ، ولكن من حواليه ، لم يبقوا عطفا يستطيعونه الا قدموه •

وكان جده عبد المطلب يرى فيه أعلى صورة للغلمان ، والتقت فيه محبتان من عبد المطلب ، احداهما محبة أبيه الذى اهتصره الموت ، وعوده أخضر ، ومحبة الغلام الطاهر فى ذاته ، فكان يدنيه اليه ، واذا كان اليتم بطبيعته يوجد انفرادا نفسيا ، واعتزالا ، فان الجد العظيم خشى أن يكون لذلك أثره فى قلب هذا الغلام الحبيب ، فكان يبالغ فى تقريبه منه حتى يأنس به دائما ، جاء فى السيرة لابن اسحاق : « كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له ، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتى وهو غلام

جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : « دعوا ابنى فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع » ٠

حباه عبد المطلب بالعطف الأبوى ، فكان ينسبه اليه مباشرة ٠ فلا يقول ابن عبد الله ، ولكن يقول ابنى ، ليأتنس به ويؤنسه ، ويمنع عنه الاحساس بغربته بين أولاده ، ولكيلا يحس بأنه دونهم ، ويفضله عليهم فى المجلس ، ليمنع قهر اليتم ، فألقى الله سبحانه محبة منه عليه ٠

ان أخشى ما يخشاه القوامون على اليتامى أن يحسوا بانفراد ، فلا يألفوا الناس ، فكان عبد المطلب الحكيم العطوف الكريم يبث روح الائتلاف فى هذا اليتيم ٠

وكأن فطرة عبد المطلب السليمة ، وفراسته كانا يلهمانه أنه سيكون له شأن ، وبدت ارهاصات ذلك فى منامه الذى ارتآه ، ثم فى أحواله التى شاهدها، ثم فى الأخبار التى جاءت عنه وهو فى البادية عند حليمة وزوجها ، ولذلك كان يبدو على لسانه ما يدل على أنه يتوقع له خيرا عظيما ، كما جاء فى الخبر الذى سقناه ، وقد قال أيضا ابن اسحاق ٠ مرويا بسنده « لما توفيت آمنة قبضه اليه جده عبد المطلب ، وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام وكان يجلس على فراشه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك : « دعوا ابنى انه يؤسس ملكا » (١) ٠

وكان فى ذلك البيت قلب آخر منحه محبة الأم ، ورأت فيه وجودها ، تحنو عليه كأمه ، وهى التى حضنته كأمه ، وأوت به من غربته وهى أم أيمن ، وكان عبد المطلب يعتمد عليها اذا غاب عنه فى رعايته فكان يحثها على أن تبلغ أقصى الغاية فى العناية به ، فيقول : لها « يا بركة لا تغفلى عن ابنى فانى وجدته فى غلمان قريب من السدرة ، وان أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة » ٠

ولكمال عطفه ، وايناسه ، وتاليفه بكمال حنوه كان لا يأكل طعاما الا يقول على بابنى ، فيؤتى به ، ولكن الله تعالى يختبر نفس الغلام بحرمان ثالث ، فقد اختطف الموت أباه ولم تكتحل عيناه برؤيته ، واختبره ثانيا بأن اهتصر الموت عود أمه ، وقد أدرك معنى حنو الأمهات ، ورآها كالعود الأخضر،

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨٢ ٠

يذبل ، ويذوى · ثم اختبره ثالثة ، وقد رأى جده الكريم يتركه ، فقد فقد الأبوة القريبة ، والأبوة البعيدة ، وقد أحس بعظم ما فقد عند سمع المراثى فيه ، وهى تعلن مكانته ، ومحبته وانه قد ابتدأت ، وهو لا يزال حيا ، ولكن الموت يدنو منه ·

وكانت الأشعار تجىء بالرثاء من بناته ، ويقول ابن اسحق « انه لما أحس بذلك الموت أمر بناته أن يرثينه فكن يرثينه ، وهو يسمع » ·

وهذا الرثاء هو أبلغ النواح ، وان ذلك الخبر يدل على أنه كان فى وعى كامل ، ولم يصبه خرق الشيخوخة ·

فى كنف أبى طالب

٩٠ ــ كان اليتيم الكريم يعيش فى عزة وعطف ، ورفق فى أحضان أمه الطاهرة ، وحاضنة البرة أم أيمن بركة هذا البيت ، وكنف الشريف فى قومه السيد فى قبيلته ، لم يحس بالمهانة أو القهر ، بل أحس بالشرف والكرم والرفق والعطف ، واستمرت هذه حاله الى أن بلغ الثمانية ·

وقد مات جده ، وكالته فى الثامنة من عمره ، ولكنه لم يفقد عطفه وهو يعالج سكرات الموت ، بل استمر قائما بحقه عليه ، ولذلك عندما أحس بالموت يدب فى جسمه دبيبا ، أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحياطته ، وقد اختصه بهذه الوصية ، لأنه كان فى قريش له مقام المطلب بعد أبيه ، ولأنه أقرب كل بنيه اليه ، لأنه ابن شقيقه ، اذ أمهما واحدة ، وهى فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بنى مخزوم ·

وقد قام أبو طالب بحق الوصية ، فكان يرعاه حق الرعاية ، فكان يصاحبه فى غدوه ورواحه ما أمكنت الصحبة · لأنه ابتدأ يتعود عادات الشباب، ولا يغنى عنه فى هذا الدور من حياته الا الصحبة الموجهة ، فكان يصحبه لهذا ، ولمحبته الشديدة له ، فكان يختصه بمحبة لا يحب أولاده بمثلها ، فكان لا ينام الا بجواره فى منامه ، وقد لاحظ فيه يمنا لم يلاحظه من قبل ، وكان مثله ، كمثل حليمة وأولادهم ، اذ حل فيهم فشبعوا بعد جوع ، ودرت عليهم أخلاف ناقتهم بعد أن جفت ·

كان أبو طالب فى بعض الأزمة المادية ، فكان عياله اذا أكلوا لم يشبعوا ، واذا أكل معهم محمد الميمون شبعوا ، فكان أبو طالب اذا أراد أن يغذيهم · قال

لهم كونوا كما أنتم حتى يجيء ولدى وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، فاذا جاء أكلوا معه ، فكان الطعام يفضل منهم ، واذا لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : « انك لبار » هذا ما قصه ابن اسحاق فى سيرته (١) ٠

وليس عندى ما يسوغ لنا أن ننقض ذلك الكلام فهى قدرة الله تعالى على كل شيء ، واذا اختص الله بها محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهى ارهاصات الرسالة ، وقد جرى على يديه وفى أحواله خوارق عادات أخرى ، أوضح وأظهر وأبين ، فالضوء الذى صاحب ولادته ، وارتجاس ايوان كسرى، وتهدم غرفاته ، وخمود نيران المجوس ، والبركة التى حلت على حليمة وذريتها بقدومه ، كلها أحوال خارقة للعادة هذا دونها فى الارهاص ٠

ولكن جاء عن الحسن بن عرفة ما قد يومىء بالتعارض الظاهرى ، فانه روى عن ابن عباس أنه قال : كان أبو طالب يقرب الى الصبيان صفحتهم ، فيجلسون وينتبهون ، ويكف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا ينتهب معهم ، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة ٠

وهذا قد يوهم التعارض ، وبفحص الخبرين يتبين أنه لا تعارض لأن الأول يتبين منه أن الشبع وفضول الطعام يكونان اذا كان بينهم ، وليس معنى ذلك أن ينتهب كما ينهبون ، انما معناه أن يأكل وقد عزل له طعام خاص ، حتى لا يتسابق معهم فى الالتهام ، اذ نفسه العفوف تأبى عليه أن يزاحم فى مد الأيدى الى الطعام ، فذلك من تأديب الله تعالى له ، وما منحه من عفة وابتعاد عن الجشع فى الطعام وغيره ، كما يبدو من صفحة حياته ٠

وانه يكفى أن يكون معهم فى الطعام لتكون البركة ، ولعل البركة تزداد بهذا التخصيص الذى اختصه به أبو طالب فان الله تعالى قابل ذلك التخصيص من عبده الكريم بفيض من فيضه العميم ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨٢ ٠

الى العمـــــل

٩١ ـــ اتجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى العمل ، وقد شب عن الطوق ، وان كان لم يبلغ سن المراهقة ، واتجه الى العمل الذى يستدعى رفقا منه ورعاية ، وفيه حنو على الضعفاء ، اتجه الى رعى الأغنام ، وهو عمل فيه ثلاث مزايا :

احداهما : أن فيه سياسة لحيوان ضعيف يقتضى عطفا ورفقا فى سياسته ·

والثانية : أنه يعاشر فيه الضعفاء من الغلمان الذين ليس فيهم استعلاء أهل الجاهلية الأولى الذين كانوا يستعلون بشرفهم ·

والثالثة : أن فيه كسبا ماديا من عمل اليد ، وأفضل الكسب ما كان من عمل اليد ·

وانه كان يرعى الغنم فى بنى سعد ، مع اخوته من الرضاعة أولاد حليمة ، فكان يلهو معهم بذلك الرعى فى آخر أيام رضاعته ، وأولى ســـنى حضانته ، فكان لهوه مفيدا ، وخير اللهو ما كان فيه مصلحة ، وفائدة ، وكان بلا شك ذلك النوع أجره فيه ، اذ انه لهو ، وأجرته هو متعة اللهو الحـــلال المفيد ·

وثبت أنه رعى الغنم فى مكة ، وقد كان فى سن شب فيها عن الطوق كما أشرنا ، وقد اتجه اليه غير لاه به ، ولكنه عامل فيه ليكتسب حـــلالا ، ويأكل طيبا ·

ولقد ثبت فى الصحاح أنه كان يرعى الغنم فى مكة على قراريط ، يأخذها من أهلها ، والقراريط ، هى حصته من اللبن فيما يظهر ، فهو يرعاها على أن يكون له حصته من لبنها يناله ، ولعله كان يتغذى بها مع أولاد أبى طالب ، أو يأكل منها ، ويتصدق فينال خيرين : خير الكفاية ، وخير الصـــدقة أو المودة ·

ويظهر أن رعاية الغنم من تربية الله للنبيين ، اذ تعودهم على الرفق ، والعطف على الضعفاء ، وحسن قيادة النافر ، وتأليفه وتقريبه ، وادنائه من قطيعه ·

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ذكره ابن اسحاق بسنده ما من نبى الا وقد رعى الغنم ، قيل وأنت يا رسول الله ! فقال نبى الرحمة : وأنا ، ·

وقد روى فى بعض الأخبار ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « بعث موسى عليه السلام وهو راعى غنم ، وبعث داوود عليه السلام وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا راعى غنم ·

وجاء فى الروض الأنف فى تعليل ذلك : « وانما جعل الله تعالى هذا فى الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ، ولتكون أمتهم رعاية لهم ، وقد رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ينزع عن قليب ، وحوله غنم سود ، وغنم عفر ، قال ثم جاء أبو بكر رضى الله تعالى عنه فنزع نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر ، فاستحالت غربا يعنى الدلو ، فلم أر عبقريا يفرى فريه » فأولها الناس بالخلافة لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولولا ذكر الغنم السود والعفر لبعدت الرؤيا عنهما (١) ·

وان هذه الرؤيا الصادقة أومأت الى الرعية ، بأنها كالغنم العفر ، للاشارة الى أن الرعية يسوسهما حاكمها بالرفق والعطف ، والتوجيه من طلب الغذاء لها من غير اعنات ، ينقلها من الخير الى الخير من غير ارهاق ولا اكراه ، ولا ايذاء ، كما ينقل الراعى قطيعه من كلأ ، من ماء الى ماء بالترغيب والتحبيب لا بالايذاء والترهيب ·

حماية الله تعالى :

٩٢ ــ حمى الله تعالى محمدا فى نشأته ، فكفله محبوه ، فلم ترهق أعصابه ، ولم يرهق فى يتمه ، فنبت نبتا حسنا محبوبا أليفا مألوفا ، وحمى نفسه من أن تتردى فى مهاوى الانحراف ·

لقد كانت طبيعة العمل الذى اختاره الرسول ، لأنه أسهل الأعمال اليه أن يختلط بصبيان من طبقات مختلفة أكثرهم من طبقات الفقراء والخدم والعبيد . فأولئك الذين كانوا يؤجرون لهذا العمل الذى لا يعدمن معالى الأعمال بل يعد من صغارها ، ومع أنه كان مع الخدم والعبيد والغلمان ، لم تنزل نفسه عن عزتها من غير استعلاء ، فكان يجذبه الى العلا شرف نسبه وطيبة محتده ، وما يراه فى أسرته من سمو وعلو وسيادة ، وما يكمن فى طبعه الكريم من حب لمكارم الأخلاق من غير غطرسة ، ولا كبرياء ، ولا استهانة أو استصغار للضعفاء ، ويجذبه الى التطامن والرضا بالقليل صغر العمل فى ذاته من غير نظر الى ثمراته ، وأثره فى تربية النفس على حسن المعاملة ، والرفق بالناس ·

---

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ١١ طبع المغرب ·

وكان الأحداث منهم خصوصا الذين انغمس ذووهم أو أوليـــاؤهم فى الشهوات يستولى على قلوبهم حب اللهو البرىء وغير البرىء ، ومنهم من ينزع الى الشر من بعد ، ويكون عنصر فساد فى المجتمع اذا شـــدا وترعرع وبلغ أشده ، واذا كان الضعف يثير الرحمة ، ويدفع الى الحب الخالص البرىء ، فهؤلاء يدفعون الى المجون ، والمجون يهدى الى سيطرة الهوى وسيطرة الهوى تهدى الى الفساد ، والصحبة تجعل السقيم يعدى البرىء ، وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب ، كما يقول الشاعر العربى الحكيم ٠

فكان أشد ما يخشى على محمد عليه الصلاة والسلام فى صباه هو عدوى المجون ، اذ هو محبب الى نفوس الغلمان فى سن المراهقة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام كان مراهقا فى هذا السن ، ولكنه تربية الله فجنبه ذلك ، وأبعده ، ويحكى عن نفسه عليه الصلاة والسلام والمجون يساوره ، فيعصمه الله تعالى ، فيقول ، وهو الصادق الأمين ما روى البخارى عنه ، أنه قـال : « ما همت بشىء من أمر الجاهلية الا مرتين » وقد ذكر ابن اسحق أن احدى المرتين كان فى غنم يرعاها هو وغلام من قريش ، فقال لصاحبه اكفنى أمـر الغنم حتى آتى من مكة ، وكان بها عرس فيه لهو وزمر ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقى عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله تعالى ٠

وفى المرة الأخرى قال لصاحبه مثل ذلك ، وألقى عليه النوم كما ألقى فى المرة الأولى ، وترى من هذا حماية الله تعالى له من الاسترسال فى الهوى ، فهو فى الخطوة الأولى سد الطريق ، لا بمجاهدة نفسية ، لأن سنه لم تكن تقوى على المجاهدة النفسية ، بل بأمر خارج عن ارادته ، وهو النوم الغامر ، وكان له نعمة ، وتوالى ذلك النوم ، حتى قويت ارادته ، وكانت له عزيمة تمنع ، وقوة ارادة ، وبمقتضى النظام الفكرى ، أنه لو لم يعصمه الله تعالى بالنعاس الذى منعه ، ربما كان يسترسل فى اتباع الهوى ، وبذلك تسيطر الشهوات ، فكانت العصمة المانعة فى أول الخطوة ، وأول الدفعة ، وانما الصبر عنـــد الصدمة الأولى كما قال عليه الصلاة والسلام من بعد أن منحــه الله تعـالى الرسالة ٠

الى التجارة

٩٣ — اشتهرت قريش بين العرب بالتجارة ، فكان سراتها تجارا ، ذلك أنها لم تكن بلد زرع ، بل كانت بواد غير ذى زرع ولم يكن فى العرب صناعة تكون موردا اقتصاديا ، لأنها كانت مثابة أمن الناس بوجود البيت

الحرام ، فكان حجاج ذلك البيت يجيئون من كل فج عميق ، وكانت الأسواق تقام فى الحج ، كان فيها الاتجار ، وفيها تعقد ندوات الشعر ، والمسابقات البيانية ، فكان مع تبادل البضائع تروج بضاعة البيان ٠

وكان كسب أغنياء قريش من التجارة ، وأوساطهم فى المال كانوا يتجرون كل على حسب طاقته ، وعلى حسب ما عنده من المال ، وكبار التجار منهم كالعباس بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة وأبى بكر ، كانوا يتجرون فى الجلب من اليمن والشام ٠

وكانوا ينقلون بضائع الفرس الى الرومان عن طريق اليمن ، وبضائع الرومان الى الفرس عن طريق الشام ٠ فكانت لهم رحلتان : احداهما فى الصيف يذهبون فيها الى الشام يجلبون اليها بضائع الفرس ، ويحملون فيها بضائع الرومان ، والأخرى فى الشتاء يحملون منها بضائع الفرس ويحملون اليها بضائع الرومان ، فكانت التجارة الخارجية سبيل ثروة كبارهم ، والتجارة الداخلية مرتزق أوساطهم ، وأما فقراؤهم فكان مرتزقهم من النعم الابل والبقر والغنم ٠

ولذلك كان من مقتضى هذه الحياة التجارية أن يتجه محمد عليه الصلاة والسلام الى التجارة ، عمل الأغنياء ومرتزق الأوساط ، وما من المعقول أن يستمر راعى أغنام ، فانها تناسبه وهو صغير السن ، أما اذا كبر ، فانه لابد أن يتجه الى التجارة الداخلية والخارجية ، وأن يعرف الأسواق التى يكون منها الاستيراد ، ويكون عن طريقها التصدير ، ولابد حينئذ من أن يسافر ، وقد ألهمه الله تعالى أن يطلب السفر مع قافلة قريش التى تحمل البضائع الى الشام ، وتجلب منها ٠

سفره مع عمه

٩٤ ـــ عندما بلغ سن المراهقة وشب عن الطوق كان لابد أن يتجه الى مرتزق قومه وهو التجارة كما نوهنا من قبل ، وجد القافلة وفيها كافله ، وولى نفسه ، عمه أبو طالب ، فابتغى أن يكون مع هذه القافلة ، يسير بسيرها ، ويجرب الحياة عن طريقها ، ويدرس شئون التجارة التى يمارسها كبار التجار بمكة ، ويتعرف الأحوال ، ويكون على خبرة بالحياة وما يجرى فيها ٠

ويظهر أن عمه كان يستصغر سنه ، ويرى أن تلك الرحلة الشاقة فوق

طاقته ، فوق أنه لا منفعة له فيها ، اذ ليس فى القافلة مال له ، حتى يتعرف حاله ·

ولكن شدة رغبة النبى عليه الصلاة والسلام جعلته يستجيب لطلبه ، ولقد عبرت كتب السيرة عن رغبة محمد عليه الصلاة والسلام بقولها « صب به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ أى تعلق بالسفر ـ وأحب الصحبة فرق له أبو طالب وقال لأخرين به معه ، ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا ·

ونقف هنا وقفة قصيرة ، لماذا كان التعلق الشديد بذلك السفر ؟ قد بينا ما فيه الجواب عن ذلك ، وهو تعرفه التجارة وشئونها معرفة عيان لا معرفة اخبار ، وأن يمهــد لنفسه ممارستها ، والاتجاه اليها بدل الاقتصار على رعى الغنـــم ·

أما امتناع أبى طالب ابتداء كما يوهم القول ، فسببه الخشية عليه من وعثاء الطريق ، ولخشية الضيعة ، ولذا عندما نزل على ارادته قال « لا يفارقنى ولا أفارقه » ·

خرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مع عمه للتجارة بالشام ، فحلت القافلة بأرض مدينة بصرى ، وبصرى كانت موطنا لصوامع الرهبـــــان ، يقيمون بها ، منصرفين الى عبادتهم ، وتعرف الانجيل والتوراة ، وما يحتويان، فكان لهم مع الرهبنة والزهادة علم بالكتاب واشاراته ، وتبشيراته ·

ارهاص وبشارة بالنبوة :

٩٥ ـــ قامت هذه الرحلة مشتملة على ارهاص كبير معلم بنبوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وفيها اعلان عن البشارة بهذه النبوة والاعـــلام باماراتها ·

لقد كان ببصرى راهب فى صومعة ، اسمه بحيرى ، وكان على علم بالكتاب ، وكان نزلاء هذه الصومعة ذوى علم بالتوراة والانجيل ، يتوارثون ذلك العلم كابرا عن كابر ·

وكان من طبيعة بحيرى كما هو طبيعة كل الرهبان الا يخرجوا للقــاء القوافل ، ولا تعرف أحوالها ، ولا استضافة من فيها ، لأن الرهبنة تتقاضاهم العزلة وهم لا يخرجون عن سنتها ، ولا ينحوفرن بأنفسهم عن أحــــكامها ،

ويظهر أن قوافل العرب تعودت هذا وتعودوها من هـــذا الراهب خاصـــة ألا يلقاهم ، ولا يلقوه ٠

ولكنه فى هذه المرة خرج من صومعته ، اذ رأى من البينات ما يتفق ما عنده من التبشير برسول يأتى من بعد عيسى اسمه أحمد ٠ فخـــرج من الصومعة ليلتقى بتلك القبيلة ، ويعرف من تنطبق عليه تلك الأمارات ، ويتحقق فيه التبشير ٠ ذلك أنهم نزلوا قريبا من صومعته ، ذلك أنه رأى غمامة تظلهم تسير حيث يسيرون وتقف حيث يقفون ، وأنهم اذا آووا الى فىء شجرة ، رأى أغصانها تتهصر ، وتميل حتى تظل واحدا منهم هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجد هذه العلامات ، ويظهر أنه لم يتبين ذلك الصبى ، أو تبينه ، وأراد أن يعرف أحواله ، وبقيـــة الأمارات الدالة على أنه المذكور فى الانجيل ٠

ولذلك أراد أن يزيد تعرفه بالقوم ، فاتجه الى اكرامهم ، فأقام لهم وليمة عامة تشمل صغيرهم وكبيرهم ، لا يتخلف منهم أحد ، وأرسل اليهم يدعوهم ، وقال فى رسالته لهم : « انى صنعت لكم طعاما يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، كبيركم وصغيركم ، وعبيدكم وحرمكم » ٠

لم يكن العجب من الدعوة الى الطعام ، انما كان العجب من أنه ترك صومعته ، وخرج اليهم ، ولذا قال رجل من قريش « والله ان لك يا بحيرى لشأنا اليوم ، ما كنت تصنع هـــذا بنـــا ، وقد كنا نمـــر بك كثيـــرا ، فمـــا شأنك اليوم » ٠

قال بحيـــرى صدقت قد كان ما تقـــول ، ولكنكم ضيـــف ، وأحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاما تأكلون منه كلكم ٠ فاجتمع القوم اليه ، ولم يتخلف الا محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحداثة سنه ، وبقى تحت الشجرة يرعى ابلهم ويحرسها ، فلما رآهم لم ير الصفة التى عرف بها الرسول المنتظر فى كتبهم ، فذكر لهم أنه طلب ألا يتخلف أحد منهم عن طعامه ، فقالوا يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغى له أن يأتى ، الا غلام وهو أحدثنا سنا ، فتخلف فى رحالنا ، قال لا تفعلوا ادعوه ، فليحضر هذا الطعام ٠

فقال رجل من قريش مع القافلة : واللات والعزى ان كان للؤم منا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، حضر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الوليمة ، واختصه الرجل بفضل من العناية فاحتضنه ، وأجلسه ٠

أخذ بحيرى يلحظه لحظا شديدا ، وينظر الى الأشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ٠

حتى اذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرقوا قال له يا غلام : أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتنى عما أسألك ، وانما قال بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو غـــلام لم يبعث : لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ٠ عدل بحيرى عن استقسامه بهما ، وقال والله الا أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقـال عليه الصلاة والسلام سلنى عما بدا لك ٠

جعل بحيرى يسأله عن رحلته وهيئته وأموره ، ورســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخبره ٠ ويقول ابن اسحق فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ٠

ثم نظر الى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، فى موضعه من صفته التى عنده ٠

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب ، فقال ما هذا الغلام منك ، قال : ابنى !! قال بحيرى ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال أبو طالب فانه ابن أخى ٠ قال فما فعل أبوه ٠ قال مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ، ارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر من اليهـــود ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فانه كائن لابن أخيك شأن عظيم ، فأسرع به الى بلاده ٠

فخرج به عمه أبو طالب سريعا ، حتى أقدمه مكة ، وأنجز تجارته (١) ٠

٩٦ — ان هذه رواية من الروايات التى رويت فى هذه الرحلة ، والتقاء بحيرى الراهب ٠ وليس فيما ذكره بحيرى ٠ ولا فى أصل القصة غرابة ٠ لأن التبشير بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت عند أهل الكتاب ، وقد أشرنا الى ذلك فى مقدمة كتابنا ، وليس فى القصة أمر يستحيل تصديقه ، أو يتعذر تصديقه ، بل انه خبر يتفق مع ابتداء نشأة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، السيرة لابن هشام ، الاكتفاء ٠

واظلال الغمامة له عليه الصلاة والسلام ، ليس فيه غرابة أو ما يظن أنه غريب فى زعم الذين يجحدون ، ومن طبيعتهم جحود ما ليس ماديا ولا محسوسا ، ولكن يرد عليهم جحودهم بأن شواهد الصدق فى الخبر قائمة ، فخاتم النبوة كان أمرا ظاهرا فى جسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رآه الراءون ووصفه الواصفون فاذا كانوا لا يؤمنون الا بالمادى ، فهذا أمر مادى ظاهر ، وقد وجد فيه ، ولم يوجد فى أحد من غيره ، فكيف يمترون · وهناك شاهد آخر بالصدق ، وهو وجود هذه الأوصاف المعروفة فى التوراة والانجيل حتى بعد أن أصابها التحريف ، واذا كانوا قد نسوا حظا مما ذكروا به ، وأفسدوا الباقى ، فالبشارات تلوح معلنة وجودها ، رغم أنف الجاحدين المستكبرين ، فلا مجال لارتياب مرتاب ·

بقى فى كلام بحيرى أنه يخوف أبا طالب الكافل الكريم من اليهود ، وفى بعض الروايات أنه يخوفه من الرومان لأنه يعرضه للأذى ، والتخويف منهما معا جائز ، وذلك لأن الرومان كانت الملكانية فى الطوائف المسيحية حريصة على معاداة العرب ، وكل مذهب دينى غير الملكانية ، ولذلك كانت العداوة شديدة اللدد بينهم وبين اليعقوبيين بمصر ، وكان بينهما ما بين النصارى واليهود ، بل كانوا أشد ايذاء ، وحينما قربت العقيدة بين طائفتين كانت العداوة أحد ، اذ كل حريص على أن يدمج الآخر فيه ·

وأما اليهود فمع أنهم كانوا فى البلاد العربية يستفتحون فى يثرب على الذين كفروا بالنبى الذى آن أوانه ، كانوا يكرهون أن يكون من بنى اسماعيل، لأن حسدهم يجعلهم يستكثرون أن يكون نبى من غير ذرية اسحق عليه الصلاة والسلام ·

وخاتم النبوة الذى كان فى ظهر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو لحم ناتىء بين كتفى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نسق ليس فيه تشويه للمنظر ، قيل انه كتفاحة ، وقيل انه كرقبة العنزة ، وان كثرة التشبيهات ممن رأوه فى جسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليست اختلافا فى أصله ، ولكنه اختلاف فى عبارة الذين رأوا ، والتشبيه من حيث حجمه ، ونظر الذى وصفه ، والرواية التى ذكرناها ، هى أقصر الروايات عبارات ·

وقد روى الترمذى رواية أخرى أطول ، وقد جاء فيها أن بحيرى قال عندما أخذ بيد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

« هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين· فقال أشياخ قريش من أين علمك ، قال انكم حين أشرفتم لم يبق شجر ،

ولا حجر الا خر ساجدا ، ولا تسجد الا لنبى ، وانى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه ، ثم رجع فصنع لهم طعاما » (١) ٠

٩٧ — عاد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الرحلة التى يبدو من ثناياها أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) أراد فيها أن يعرف الشـــام وأحواله ٠ والتجارة ، والصفق فى الأسواق ، وبدت فيه تلك البشائر النبوية، وعلم الأشياخ من قريش مكانة ذلك الصبى ، وهو المحبوب بينهم كأبيه ، حتى انه لما نبههم بحيرى الى انه لم يكن بينهم ويجب أن يكون بينهم ، تنبهوا ، وقال قائلهم ، انه للؤم اذ لم يكن بيننا ، ونادا‌ه واحتضنه ، شعورا بالمحبة الشديدة المخلصة ، واشعارا بالندم على ما كان ، رأوا هذه الحال ٠

وأخذ عمه أبو طالب بنصيحة الراهب ، وقفل به راجعا مسرعا ، خشية عليه ، مما خشى الراهب ، من أن يغتاله اليهود ، أو الرومان ، فعاد به الى قومه ٠

وانه فى هذه الرحلة التجارية التى رغب فيها محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) واستجاب له أبو طالب شفقة ورقة وملاطفة ، وهو يحسب أنهـــا من رغبات الصبيان ، وأجابه محبة وتدليـــلا ـ يحسب أنه لا جـــد فيها ، ولا غاية ، ولكن الصبى يظهر أنه كان يريد منها الجد ، فيريد منها الاستعداد لعمل يعتمد فيه على نفسه ، ولا يكون كلا على عمه المحدود فى الرزق ، فهو يريد الكسب من عمل يده ٠

واذا كان اليتم لم يقهر محمدا (صلى الله تعالى عليه وسلم) فى نفسه ، اذ أعزه الله تعالى ، وأكرمه ، ولم يمكن أحدا من قهره فكان اليتيم العـــزيز المحبوب ، فان محمدا (صلى الله تعالى عليه وسلم) استفاد من اليتم الجد فى طلب الرزق غير معتمد على أحد غير ربه ، فنال من اليتم محاسنه ، ولم ينـل اليتم منه بمساوئه ٠

ذلك أن الثابت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ الاعتماد على نفسه من بعد وقد رأينا أنه ابتدأ يرعى الغنم صبيا ، فلما تجاوز الصـــبا الى المراهقة اتجه الى صناعة أشراف مكة ، وهو التجارة ، ولم يذكر التاريخ فى أى سن ابتدأ التجارة ، ولكن الأمارات تصور لنا أنه ابتدأ فى سن مبكرة ٠

---

(١) الروض الأنف ، جـ ١ ص ٢١٩ ٠

أولا ــ لأنه رغب رغبة شديدة فى أن يسافر الى قافلة التجـــارة ، ولا نفرض أنه طلب ذلك لمجرد متعة السفر ، فانه كان صبيا جادا ، ولم يكن ممن يميلون الى المتع ٠

وثانيا : لأنه كان لا يمكنه أن يعتمد على ثراء أحد ، اذ كان كافله الذى كفله ، وهو أبو طالب فقيرا ٠

محمد التاجر :

٩٨ ـــ اتجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى التجارة منذ بلغ البلوغ الطبيعى ، وقد ثبت فى المصادر التاريخية أنه زاولها مع شريك أو شركاء وقد ثبت أنه كان شريكا للسائب بن أبى السائب ، واستراح الى شركته ، ورأى فيه ما يمازج أخلاقه ، وان لم يسم اليها ، ولكنه على أى حـــال رأى الشريك الأمين السمح فى معاملته ، فكان لا يمارى الذى لا يجادل فى الشراء ، ولا يخفى الخبيث من البضائع ، ويظهر الطيب مماراة فى تجارته ٠

وقد التقى به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند فتح مكة ، فرحب به ، ووفى له بحق الرفقة القديمة فى الاتجار ، وتلقاه مستبشرا مرحبا ، وقال له مذكرا بماضيه ليؤنسه فى حاضره : « مرحبا بأخى وشريكى ، كان لا يشارى ولا يمارى » ٠

ولم يذكر فى التاريخ ما كان يتجر فيه ٠ لأن كتاب السيرة لا يعنون فى حياة النبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) الانسانية بمقدار عنايتهم فيما يتعلق بالرسالة ، وارهاصات النبوة ، وخوارق العادة الصادقة التى أحاطت بحياته فى حاله وترحاله ، ووجهتهم فى ذلك أنهم يجعلون موضع الاهتمام فى دراستهم هو ما امتاز به من يدرسون حياته ، ومثلهم فى ذلك أن من يكتب فى حياة رجل من النبغاء يعنى بجهة نبوغه ، وموضع النبوغ ، ولا يعنى بالنواحى الأخرى الا لتصوير شخصه ٠

وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد رسول الله تعالى ، صلى الله تعالى عليــه وسلم ، وله عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى للانسانية كانت عناية كتاب سيرته الشريفة ، بما يتصل بالرسالة مما سبقها ولحقها ، وقليل منهم ما يكون اتجاهه الى نواحيه المتصلة به كانسان الا أن يكون لذلك اتصال بموضوع الرسالة ٠

وقد كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى حياته الأولى راعيـــا

للغنم ، أو تاجرا مثـالا للأمانة والصـــدق ، وكان مرموقا من مكة ، وأخص ما امتاز به فى حياته كلها الصدق والأمانة والوفاء بالعهد ، ولطف العشرة ، وأنه موطأ الكنف يألف ويؤلف ، يفتح قلبه لكل عمل كريم ، ولا يضن على أحد بالمعونة ان لزمت ٠

كذلك كان فى كل أعماله فى الحياة ، وكذلك كان فى تجارته ، حتى سمى الأمين ، وصار هذا اللقب علما له مع اسـمه ، فاذا أطلقت كلمـــة الأمين ، لا تنصرف الا اليه ، اذ هى لا تطلق الا عليه ، وان كل من يعمل بأمانة ، ويقول بصدق دونه فى الأمانة والصدق ، وكان لذلك فى مكان يعلو به على كل من فى مكة المكرمة من غير استعلاء ولا استكبار ٠

ولكن ما الذى كان يتجر فيه ؟ لا زال هذا السؤال يلح علينا ما دمنـا لم نذكر مادة تجارته فيما ذكرنا ، ولكن يصح أن نسد الفراغ فى هذا الجـزء من تاريخه ، عليه الصلاة والسلام ، فانه يتجر فى البضائع التى تتبادل داخل مكة المكرمة ، ولا تذهب الى خارجها ، لأنه لم يعرف انه خرج من مكة المكرمة مع قافلة التجارة الى اليمن أو الشام ، فكانت تجارته عليه الصلاة والسلام ، مع شريكه مقصورة على ذلك النطاق فى داخل المدينة ، وما يفد اليها ، وقد كانت فيها أسواق تمتلىء بالتجار فى موسم الحج ، وكون الحجيج يفدون من أقصى أرض العرب الى أدناها لابد أن يجعل فيها بضائع ترد اليها مع الحجيج ، ويأخذ الحجيج من بضائع فى مكة المكرمة يعودون بها الى ديارهم ٠

واذا كانت رحلة الشتاء والصيف لقريش فيها التجارة الخارجية التى ينقلون فيها بضائع الروم الى الفرس وبضائع الفرس الى الروم ، فمكة المكرمة كان فيها الاتجار فى داخل البلاد العربية فى موسم الحج ، ومنها بضـائع الروم والفرس فى البلاد العربية ، فكانت فيها الأسواق رائجة ٠

مشاركته فى الأمور الجامعة

٩٩ — لم ينقطع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، عن قومـــه فى أعمالهم الجماعية ، اذا كانت تتعلق بالتعاون على خير يقومون به ، فاذا كانوا على أمر جامع ذهب اليه ، وشارك فيه ما وسعه المشاركة ، من غير أن يرضى بباطل ، أو لا يبشر بحق ، بل كان دائما مع الحق يستبشر به ، وضد الباطل ، ينغض رأسه به ، من غير صخب ، ولا شحناء ، فما كانت الشحناء من شأنه ، ولا المباغضة من خلقه ، بل هو فى كل أحواله الودود الحليم ، والنفس الطيبة وكان يحضر دار الندوة اذا انعقدت ، ويستمع الى كبراء العرب ، فما يرضيه

من قول الحق يستشرف اليه ، ويستبشر به ، وما لا يكون حقا ، يبدو نفوره منه ، ولا يرتضيه ٠

جاء فى كتاب زهر الآداب أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى صباه حضر ندوة قريش ، وقد حضر من اليمن كبارهم فنظر اليه قيل من أقيالهم ، ورأى فيه نظرات قوية أحيانا ، وهادئة مستبشرة أحيانا أخرى ، فقال :

مالى أرى هذا الغلام تارة ينظر اليكم بعينى لبؤوة ، وأخرى بعينى عذراء خفرة ، والله لو أن نظرته الأولى كانت سهاما لانتظمت أفئدتكم ، فؤادا فؤادا ، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيما لأنشرت أمواتكم ٠

لم يكن منقطعا عن الحياة الجماعية ، اذ أنه رسول الرحمة والمحبة ، وتأليف الجماعات ، فلابد أن يكون بينهم فى الكريهة ، والرخاء ، لا يفترق عنهم ألا اذا كان الاثم ، فانه يجانبه من غير مباغضة لأهله ، بل يهديهم الى الحق واجتناب الآثام ، فمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليس من طبعه الاعتزال ، بل من طبعه الاتصال بالناس ، ليعرف مواطن الصحة ومواطن المرض ، فاعتزال الحياة والأحياء ليس من الطبع القوى ، بل هو من الضعف العصبى ، الا أن يكون لعبادة ، فانه ان اعتزل الناس استأنس الله ، فيقدم من بعد ذلك على الناس ، وقد ادخر ٠

حرب الفجار

١٠٠ ــ الفجار مصدر فاجر ، فمصدر فاعل فعالا أو مفاعلة ، كقتال أو مقاتلة ، ونقاش ومناقشة ، والفجار معناه تبادل الفجور ، أى وقع كل من المتحاربين ، وكان الفجور الذى تبادله الفريقان ، هو أنهما أقدما على القتال فى الشهر الحرام ، وابتداء القتال فيه كان حراما فى الجاهلية ، ولعله بقية من بقايا ابراهيم عليه السلام ، ولذلك جاء الاسلام بتحريم ابتداء القتال فيه أو السير بالقتال فيه الا لضرورة ، ولقد قال الله تعالى : « **ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين** » ٠

والأشهر الحرم كما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان » وكان

القتال فيها حراما ليكون الأمن والاطمئنان فى الحج الى البيت ، والعودة منه ، وكان رجب حرم فيه القتال ، لأنه شهر عمرة ٠

وقصة هذه الحرب ، التى انتهك فيها شهر الحرام كما جاءت فى كتب السيرة ، أن رجلا من بنى هوازن اسمه عروة الرجال أجار عيرا للنعمان ابن المنذر فيها تجارة وطيب وحرير ، ومعنى اجارتها منع أى أحد من أن يعتدى عليها ، ويقال انها فى جواره ، وتسمى هذه العير اللطيمة ٠

فلما كانت هذه الاجارة كبر على بعض رجال كنانة أن يمنعها من كنانة ، وهو البراض بن قيس ، فقال غاضبا أتجيرها على كنانة ، فقال عروة نعم وعلى الخلق كله ٠

فسار الرجلان ، وقد غافل البراض الكنانى عروة ، وقتله ، فقامت الحرب بين القبيلتين وانضمت الى كنانة ، والتقت كنانة وقريش ، مع هوازن ، واقتتلوا أربعة أيام ، حضر النبى عليه الصلاة والسلام رابعها ٠ وكان اليوم الذى حضره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو أشدها ٠

وقد توادع الفريقان على أن يستأنف القتال بينهما من العام القادم فى عكاظ ٠

فلما توافوا فى الميعاد ركب عتبة بن ربيعة جمله ، ونادى :

« يا معشر مضر علام تقاتلون ، فقالت هوازن ما تدعو اليه ؟ قال الصلح ، قالوا كيف ؟ قال فدى قتلاكم (أى ندفع الدية عليها) ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دياتنا ، قالوا ومن لنا بذلك ، قالوا ومن أنت ؟ قال أنا عتبة ابن ربيعة ، فدفع الصلح على ذلك ، وبعثوا اليهم أربعين رجلا ٠ فيهم حكيم ابن حزام ، فلما رأوا الرهائن من الرجال بين أيديهم عفوا عن دياتهم ، وانقضت حرب الفجار بصلح كريم » ٠

١٠١ — وهنا نسأل ماذا كانت سن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الحرب ؟ وماذا كان عمله فيها ؟ وما الذى حمله على الذهاب اليها :

أما من ناحية سنه ، فنقول : ان ابن هشام يقول فى سيرته : « ان سنه كانت بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، ويقول ابن اسحاق : انه كان فى العشرين من عمره الكريم ٠

ولا تجد لاحدى الروايتين ترجيحا على الأخرى ، الا أن يكون سند ابن اسحق أقوى ، فلقد قال الشافعى رضى الله عنه « الناس فى السيرة عيال على ابن اسحق » ولعله يكون مما يقوى خبر ابن هشام من السيرة أن أعمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذوه فى هذا اليوم ، فهذا يدل على أنه لا يزال حدثا ، ومن بلغ العشرين يكون رجلا ٠

ومهما يكن فانا نرى أنه كان ابن عشرين ، كما يدل على ذلك ما يجىء فى حلف الفضول ٠

ومع أنه بلغ العشرين لم يقدم على القتال ، لأنها ليست حربا عادلة ، وفطرة محمد السليمة ما كانت لتسمح له بأن يقاتل فى حرب فاجرة انتهكت فيها الحرمات من الجانبين ، فكلاهما آثم ، فكيف يشترك الطاهر المطهر الذى رباه الله تعالى على عينه فى حرب خالطها الاثم ، فى سببها وفى زمانها ، وفى وقائعها ؟

لم يكن للنبى فى هذه الحرب الا أنه شهدها بعد أن حمى وطيسها ، وكان ذلك بسبب أعمامه الذين اشتركوا فيها ، ولعله كان يود مشاهدتها ، لأن له قلبا طاهرا ، لا يسكن والناس فى كرب ، فكان يشاهد ، وان لم يقم بعمل فيه حرب ، ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى عمله الدافع للأذى ، وليس فيه أحداث : « كنت أنبل على أعمامى » أى أمنع النبل عن أعمامى ، فهو كان درعا واقية لأعمامه ، فلم يغمس يده فى حرب الا أن يكون واقيا لذوى رحمه كالثيه الذين رعوه حق الرعاية ٠

ومهما يكن الأمر فى شهوده تلك الحرب الآثمة ، حتى فى نظر الذين اشعلوها ، فقد كان من النظارة ، ولم يشترك الا أن يكون وقاية لذوى رحمه ٠

حلف الفضول

١٠٢ ـ عاش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مطلع حياته مع قومه يشاركهم وجدانهم ، اذ كان يتجه الى الخير ، ويتجنب الشر ولا ينغمس ، فهو يفعل ما يتفق مع الفطرة المستقيمة التى فطره الله تعالى عليها ، والمنهاج القويم الذى هداه الله تعالى اليه ، وأدبه بأدبه ٠

ومن ذلك حلف الفضول الذى قال فيه ابن كثير انه كان أكرم حلف وأشرفه فى العرب ٠

وقد كان ذلك الحلف ، والنبى عليه الصلاة والسلام قد بلغ العشرين ، وقد أجمع الرواة على ذلك ، وقالوا انه كان بعد حرب الفجار كان حلف الفضول فى شهر ذى العقدة ، وكان الفجار قبله بأربعة أشهر ، أى أن الفجار كان فى شهر رجب وهو من الأشهر الحرم ، ولم يذكروا أن حرب الفجار كان ، والحج قائم ، وشهر رجب ليس من أشهر الحج ، وان كان من الأشهر الحرم ٠

وقالوا ان سببه أن رجلا من زبيدة قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه بنى عبد الدار ، ومخزوما وجمحا ، وغيرهم ، فلما رأى الرجل أن حقه ضائع ، وبدا القعود فيمن استعان بهم علا جبل أبى قعيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة المشرفة فنادى بأعلى صوته منشدا ٠

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال ، وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فالرجل يثير فيهم الحمية بذكر الظلم الواقع عليه ، وأنه واقع ببطن أرض الله ، وبجوار البيت المقدس الذى لا تخطف فيه الأموال وتضيع الحقوق ، وأن الظلم بين الحجر ، وبين الحجر الأسود الذى يقدسونه ، ويشير الى أنه محرم للعمرة ٠٠٠٠

كان أول من استجاب لنداء الله ، وتقدم لاغاثته بنو عبد المطلب ، فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال ما لهذا مترك ، أى لا يصح أن يترك ٠

اجتمعت لهذا بطون بنى هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة فى دار عبد الله ابن جدعان ، وكان جوادا ، فصنع لهم طعاما ، وكان ذلك فى ذى القعدة الشهر الحرام ٠

تعاقدوا وتحالفوا ليكونن على الظالم ، حتى يؤدى اليه حقه ، ما بل

بحرصوفة ، ومارساثبير وحراء مكانهما ، وعلى الناس فى المعـاش ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول (١) ٠

وقد نفذ ذلك الحلف فور انعقاده ، فقد مشى المتعاهدون الى العـاص ابن وائل فانتزعوا من سـلعة الزبيـدى فدفعوها اليه ، وقد قال الزبير ابن عبد المطلب معتزا به :

ان الفضول تعاقدوا وتحـالفوا ألا يقيم ببـطن مـكة ظالم

أمر عليـه تعاقدوا وتوافقـوا فالجار والمعتر فيهم سـالم

ولقد سر النبى عليه الصلاة والسلام لشهوده ذلك الحلف ، وأعلن أنـه ينفذه فى الاسلام : «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ولو دعى به فى الاسلام لأجبت ، تحالفوا على أن يردوا الفضول الى أهلها » ٠

وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ولقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعى به فى الاسلام لأجبت » ٠

ولقد نفذ الحلف قبل بعثة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيروى أن رجلا من خثعم قدم حاجا أو معتمرا ومعه ابنته من أوضـأ الناس جمـالا ، فأخذها عنوة منه نبيه بن الحجاج وغيبها ، فقال الخثعمى : من يعدينى على هذا الرجل ، فقيل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة المشرفة ، ونادى يا آل حلف الفضول ، فاذا هم يفيضون اليه من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون جاءك الغوث ، مالك ، فقال ان نبيها ظلمنى فى بنتى ، وانتزعها منى قسرا ، فساروا معه ، حتى وقفوا على باب داره ، فخرج اليهم ، وما زالوا به حتى عادت الفتاة الى أبيها ٠

وان ذلك الحلف كان لازما ، لأن مكة كانت بلد العرب ، وثمرات العرب

---

(١) قيل انما سمى حلف الفضول ، لأنه أشبه حلفا تحالفته جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظالمه ، وكان الداعى اليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل واحد منهم فضل ، وهم الفضل بن فضالة ، والفضل من الحارث ، والفضل ابن وداعه ، ذكره ابن قتيبة ، وقيل سمى حلف الفضول ، لأن أصحابه دخلوا فى فضل من الأمر التزموا به ، وقيل ان الفضول معناها الحقوق ، وتحالفوا على ردها ٠

تجىء إليها ، فلابد أن يستقر فيها الأمن ، ويكون بلد الاطمئنان والمحافظة على الحقوق ، ولا يكون فيها اعتداء حتى يجىء الناس اليها ·

ولأنها يحج اليها الناس من كل فج عميق ، فلابد أن يتعاون أهلها على جعلها مكانا تقدس فيه الحقوق كما يقدس البيت ، ولأنها أرض البيت الذى جعله الله تعالى مثابة للناس ، فلا يكون الأمن للأرواح فقط ، بل يكون للأرواح ، وللأموال ، ولكل ما يحتـاج اليه اطمئنان النفس ·

الزواج

١٠٣ ــ بلغ محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، سن الزواج ، ولكنه لم يتزوج فى سن مبكرة ، كغيره من الشباب ، بل استمر لا يتجه الى الزواج أو لا يفكر فيه ، حتى بلغ الخامسة والعشرين ، كما سنبين ·

ولماذا لم يعرف أنه فكر فى الزواج من قبل هذه السن ، لقد كان عفـا كريما ، لم يقع منه فى طفولته ما يشين الكرام وقد عصمه الله تعالى يوم هم ، وهو طفل أن يلهو بالوقوف عند عرس لا يغشى حراما ، ولكن ربمـا يرى فيـه حراما ، فصانه الله تعالى بأن ضربه بالنوم ، فنام الليلة كلها ، حتى أيقظتـه الشمس فى ضحاها ·

وهو ليس حصورا ، كما دلت على ذلك حياته من بعد ، وما كان خاملا فى قومه ، بل هو الذى اذا خطب لا ترد خطبته ، وكان فيه خلق قويم يجعـل القلوب تهفو اليه ، وفيه جمال يجعل الأنظار تتعلق به ، وتشرئب الأعناق اليه ، وقريش كلها يحبه · ويرضاه صهرا ·

أكان فقيرا لا يجد ما يبوء به على أهله ؟ نعم انه لم يكن غنيا ، ولكنـه تعود منذ نعومة أظفاره أن يكون عاملا ، فرعى الغنم ، ثم اتجر ، واذا كان الاتجار لم تأته موفور يرفعه الى الثراء ، فقد كان فيه الاكتفاء ، فلمـاذا اذن تأخر فى الزواج ·

ان الذى نلمسه من تاريخ حياته فى ابتدائها ، حتى صار شابا ممتلىء الشباب أنه ما كان يعير شـهوات البدن اهتماما فليس للنساء موضـع فى تفكيره ، انما يشغل النساء والطعام القلب الفارغ ، وما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى أى دور من أدوار حياته مما يشغل قلبه لذات الجسم ، وشهوات النفس ، لا عن ضعف فى النفس ، ولكن عن قوة فيها ، وهمة عالية

تتجه الى معالى الأمور ، وعزيمة صادقة ، وارادة قوية ، لا تجعل للهوى سلطانا عليها ، بل تجعل كل العواطف تحت سلطانها ، والغايات العليا هى التى تجذبها، فلا تجذبه امرأة مهما يكن فيها من جمال ، ولا تستولى على نفسه غاية يتغياها تتعلق بالبدن ، ولا مطلب من مطالب الجسد ، وان لم يتجه الى الحرمان فى ذاته ٠

وكأنه لا يعيش الا فى حياة روحية من غير حرمان ، فليست نفسه مثقلة بهموم الجسد ، وان شئت تقول انه الملك المريد المكلف الذى لا يعصى الله ، لأنه يريد الا يعصى ، فهو لا يعصى لامتناع المعصية عليه بل لأنه يكف النفس عنها ، فله فى الكف فضل ، وليس كالملك يمتنع عليه العصيان ٠

خديجـــة :

١٠٤ — لم يعرف أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتكلم فى صغره ، ولا فى باكورة شبابه فى أمر الزواج الا بعد أن نبه اليه ، وصار مطلوبا ، ولم يكن طالبا ، ولنذكر الأخبار كما جاءت فى كتب السيرة فيما يتعلق بزواجه من سيدة قريش ، كيف ابتدأت بالمشاركة فى التجارة ، ثم بالمشاركة فى الحياة ٠

اشتهر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، بالأمانة والخلق الكريم ، وتحدثت بأمانته الجماعات المكية فى سمرها وفى مجالسها ، وكان قد مارس التجارة فى دائرة محدودة فى داخل مكة على قدر طاقته ، وما يملك ، وانه لقليـــل ٠

وكان لخديجة مال كثير ، حتى ان عيرها الذى يحمل بضائعها ، كان يعادل عير قريش كلها فى حجمه ، ونفاسة ما اشتمل عليه من بضائع التجار ٠

وكانت حكيمة شريفة فى قومها ، تحتفظ بجمال ، وشباب ، وكانت أرملة زوجا لرجلين قد ماتا ، وما كانت تتولى تجارتها بنفسها ، لأن ذلك لم يكن شأنا من شئون النساء ، بل السفر والترحال للاتجار كان من شئون الرجال ، لصعوبة السفر فى هذا الابان ، وكما وصف السفر عبد الله بن عباس لولا الأثر لقلت ان العذاب قطعة من السفر وليس هو قطعة من العذاب ٠

كانت خديجة مع قوة شخصيتها لهذه الاعتبارات لا تذهب بتجارتها الى الشام ، وكانت تسلك احدى طريقتين — احداهما — أن تؤجر ناسا يكونون وكلاء عنها فى التجارة على أجر معلوم تعطيهم اياه ، على مقدار ما يبذلون

من جهد فى الرحلة ، يبيعون ويشترون باسمها ، ولا شأن لهم فى كسب التجارة، وانما لهم أجر معلوم يأخذونه كسدت التجارة أو ربحت ، وأجرهم مقدر بالأمن أو بالعمل أو بهما معا ٠

الثانية : طريقة المضاربة الشرعية ، وذلك بأن يتجروا فى المال بعقد بينها وبينهم على أن يكون الربح بينها وبينهم ، مقسوما بحصص شائعة كالربع أو الثمن أو السدس ، أو نحو ذلك ، وملكيتها قائمة ، واذا خسرت التجارة تكون الخسارة عليها وحدها ، لأن المال باق على ملكيتها ، ويسمى هذا العقد المضاربة أو القراض ٠

ولا شك أن الطريقتين كانتا تحتاجان الى أمانة كاملة ، فكانت تتحرى فى أولئك العاملين لها الأمانة ، لأنهم فى عملهم ينوبون عنها ، لا تلقاهم الا فى ذهابهم ومجيئهم ، وكانت مع ذلك ترسل من قبلها من يكون معهم كميسرة مولاها ٠

ولما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يعمل فى تجارة محدودة ، وقد بلغها أمانته ، وشرفه ، وعفته واستقامة نفسه ، اتجهت اليه ، وكان هو فى مطارح أنظارها ، والظاهر أنه بمجرد أن خطر على خاطرها ، لم ترض غيره بديلا ، لأنه لم يكن له نظير بين العرب ، فى أمانته وعفته وشرف نفسه ، وخلقه الكريم ، وبعده عن التدلى الى مهوى الرذيلة ٠

١٠٥ ــ بينما هى تفكر فى اختياره وكيلا عنها فى رحلة القافلة التى تحمل عيرها مع غيرها كان أبو طالب عم النبى عليه الصلاة والسلام يفكر فى أن يعرض محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، عليها العمل فى تجارتها وكيلا ، ليبعد عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، جهد السنين الشديدة التى كانت فى الأسرة ٠

ويظهر أنها كانت تبحث عمن تراه كفئا لحمل العبء ، ويتهافت عليها الطالبون ، فأشار أبو طالب على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، القوى الأمين ، بأن يعرض نفسه مسارعا الى ذلك خشية أن يسبقه غيره ، ولكن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، يرى فى العرض ذلة لا يرضاها الكريم ، ومثار اتهام لا يرضاه الأمين ، فهو يريد عزة المطلوب ، لا ذلة الطالب ، ولننقل للقارىء الكريم المجاوبة التى كانت بين العم وابن الأخ :

قال أبو طالب : يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير

قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك ، يتجرون فى مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك ، وان كنت أكره أن تأتى الى الشام ، وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا نجد بدا من ذلك ٠

فيقول محمد الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم ، لعلها ترسل الى فى ذلك ٠

فقال أبو طالب أخاف أن تولى غيرك (١) ٠

ونرى من تلك المناقشة كيف لا يعرض شرفه وأمانته ، وتكونان محل قبول أو رفض ، لأن الأمين حقا وصدقا ــ لا يجعل الأمانة ولا الشرف متجرا يتجر به ، ولكن الشرف فى ذاته مطلوب ، والأمانة سجية ، لا يتخذهاسبيلا للكسب ، وليس هو غايتها ، لا تطلب الا له ، ولكن تكون ثمرة طيبة ، كما تثمر الأرض الطيبة ، والشجرة اليانعة ٠

قيل انها بلغتها هذه المحاورة بين العم وابن الأخ فطلبته ، وانها كانت تعرف صدقه وأمانته وكرم أخلاقه ٠ وأنها ما كانت تعلم أنه يريد هذا ٠

وعندى أنها كانت تفكر فيه ، وان رغبتها تلاقت مع رغبة عمه ســـواء أعلمت بالمحاورة أم لم تعلم ، واذا أراد الله تعالى أمرا تهيأت أسبابه ، وكان التوفيق بنجاحه ٠

أرسلت خديجة الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، تطلبه وقالت له :

« دعانى الى البعثة اليك ما بلغنى من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك » ٠

اننا نلمح من ثنايا السطور أنها كانت راغبة فى أن تعهد اليه بتجارتها من ذات نفسها أو أنها لرغبتهـا أعطته ضعف ما كانت تعطى غيره ، ولمــاذا ضاعفت الاجر ؟ الجواب عن ذلك أنها وقــع فى نفسها أن التجارة ســتكون رابحة بفضل الأمانة ، ولتشجعه على الحرص ، وربما تكون رغبة خفيــة ، جعلتها تعامله بما لم تعامل به غيره ، وأخفت ما لا تبديه مما جــرى من خــير بعــد ذلك ٠

---

(١) المناقشة فى شرح المواهب اللدنية ٠

ولقد سارع محمد عليه الصلاة والسلام ، الى عمه الحبيب يخبره بما جرى ، لأنه طلبته ، فسر عمه ، وقال له « ان هذا رزق ساقه الله تعالى اليك » ٠

ارهاصات الرحلة :

١٠٦ ــ فصلت العير ، وفيها خير خلق الله تعالى ، تكلؤها عنايته سبحانه وتعالى ، ولم تكن سفرا قاصدا بل كان فيها مشقة ، وان لم يكن فيها عنت فوق الطاقة ، وكانت عير خديجة وحدها ، تبلغ غير قريش كما أشرنا ، حتى بلغت سوق بصرى التى بلغتها القافلة الأولى التى كان فيها محمد (عليه الصلاة والسلام) مع عمه أبى طالب ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ٠

وروى أنه وصل الى سوق « حباشة » وهى أرض بتهامة ، ولكن الرواية الأولى هى المشهورة وهى أقرب الى التصديق ، أو هى الصادقة ، لأن تهامة من أرض العرب ، والرحلة كانت الى الشام ، اذ كانت العير حاملة البضائع الى الشام ، لا الى العرب ٠

وكان معه ميسرة مولى خديجة ، لا ليرقبه ، فما كان يتصور منها ذلك بالنسبة للنبى عليه الصلاة والسلام ، ولكن ليخدمه وليعينه فى حله وترحاله ٠

وكان خروج العير أو وصولها لأربع عشرة بقيت من ذى الحجة (١) ، وله عليه الصلاة والسلام خمس وعشرون سنة ٠

وكأن هذه العير خرجت بعد قيام الأسواق التى تقام فى مكة أيام الحج ، عكاظ ، وذى المجاز ، ومجنة ، وهذا يومىء الى أنها حملت من بضائع هذه الأسواق التى تجىء من اليمن ، وسائر نواحى العرب ، قاصيها ودانيها ، وذهبت الى الشام محملة بها ، وكانت البضائع تباع فى مكة ، لتنقل من بعد الى الشام ، أو الى اليمن ٠

ولما وصلت العير الى بصرى كان السير قد بلغ منه الجهد فاوى الى شجرة قريبة من صومعة راهب هو نسطورا ، وهو غير راهب الرحلة التى كانت مع عمه ، اذ الأول اسمه بحيرى ، وهذا اسمه نسطورا وقد مضى على الأولى نحو ثلاث عشرة سنة ربما يكون الأول قد مات ، أو غير صومعته ٠

---

(١) المواهب اللدنية للعسقلانى وشرحها ج ١ ص ١٩٨ ٠

التقى الراهب بميسرة غلام خديجة ، والذى كان فى معونة محمد عليه الصلاة والسلام وخدمته ، وقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، قال الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة الا نبى ، وكأن هذه الشجرة منذ القدم هى منزل الأنبياء ينزلون فى ظلها وغيرهم ينصرفون ، ولا يلوون عليها ، وقد استبعد بعض كتاب السيرة هذا المعنى ، لبعد العهد بين محمد عليه الصلاة والسلام ، وعيسى عليه السلام ، والشجرة فى نظر هؤلاء المستبعدين لا تعمر فى العادة هذا العمر الطويل ، وليس من المعقول أن تخلو شجرة من أن ينزل فيها السيارة فى الطريق الطويل وفيه الظل والحرور ، اللهم الا أن يقال ان هذه خصوصية للأنبياء ، ينصرف عن الايواء اليها غيرهم ، ويجىء اليها النبيون كأنهم مأمورون بالايواء » ·

ولهذا الاستبعاد فسر الأكثرون كلام الراهب بأنه ما نزل الآن فى هذه الساعة تحت هذه الشجرة الا نبى فهو يخص محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، بوصف النبوة باعتبار أنه هو الذى نزل الآن ، لأمارات عنده ·

وربما نميل الى ذلك التفسير ، لأنه لا دليل على تخصيص الأنبياء بشجر أو منزل أو نحو ذلك ، وانما التخصص فى الاكرام الشخصى · والأمارات الظاهرة فيه (١) ·

وقد قيل فى هذه الرحلة انه كان كلما اشتد الحر ، كان يرى ميسرة ملكين يظلانه من الشمس ، وبعيره يحمله ·

وليس لنا أن ننفى ذلك الخارق للعادة اذا روى بسند صحيح ، لا مجال للريب فيه ، ولكن فى رواية ذلك كلام ·

أقام محمد عليه الصلاة والسلام فى الشام حتى باع أحمال العير الخاص بخديجة ، ثم بثمن ما باع اشترى بضائع من الشام ، وقفل راجعا بها الى مكة ·

---

(١) يروى أن الراهب لما رآه دنا اليه وقبل رأسه وقدميه ، وقال له : آمنت بك وأشهد أنك الذى ذكره الله تعالى فى التوراة ، فلما رأى الخاتم قبله ، وقال أشهد أنك رسول الله تعالى النبى الأمى الذى بشر بك عيسى ·· الى آخر ما قال · ويروى أنه فى أثناء تجارته اختلف على بعض معامليه فقال الرجل احلف باللات والعزى ، فقال ما حلفت بهما ، قال القول قولك ·

والربح يتعرف بمقدار الثمن الذى تبيع به لينقله التجار فى قافلة تذهب الى اليمن ، وقد باع كل البضائع التى اشتراها فى مكة ، فكان الثمن ضعف رأس المال الذى كانت المتاجر التى ذهب بها محمد (عليه الصلاة والسلام) فكأن الكسب كان مثل رأس المال .

وان ذلك بفضل أمانة محمد عليه الصلاة والسلام ، وحرصه فى التجارة، وبفضل ما هو أعظم من ذلك وهو البركة التى فاضت على محمد (عليه الصلاة والسلام) فيما يعمل .

الأمــــلاك :

١٠٧ ــ ان ميسرة مولى السيدة خديجة أخبرها بما رأى من طيب نفسه ، ومن لطف عشرته ، ومن حسن معاملته ومن سماحته ، ومن أنه موطأ الكنف يألف ويؤلف ، مع شرف محتده ، ومكارم أخلاقه العامة والخاصة ، ولعله أخبرها أيضا بما كان من لقاء الراهب ، ومن اكرام الله تعالى فى الحر ، وما حسبه ملكين يظلانه فى الحرور اذا اشتد ، وغير ذلك من ارهاصات .

ثم ما كانت ترى من مكانة له فى قريش ، ومحبة غامرة له من كل من يلقاه ، فهو المحبوب المألوف .

كل هذا أوجد فيها طموحا لأن تكون زوجا له ، وأن تكون أما لأطهــــر الأولاد من أطهر الرجال ، ورغبت فى ذلك أشد الرغبة ، وهى التى بعــد هلاك زوجيها الأولين اللذين كانت لها منهما الولد ــ كثر طــــلاب يدها من أشراف مكة ، ولكنها العزوف العيوف التى ردت كل طلب مع كثرة من طلب ، وعلو أقدارهم المادية فى نظر الناس ، والنسبية فى نظر ذوى الأنساب .

ولكنها وجدت فى الشاب الهاشمى محمد (عليه الصلاة والسلام) ما ليس فى الرجال شيبا وشبابا ــ فرغبت فى الاملاك منه فى غير عشق ولا هيام ، ولا رعونة وطيش ، ولكن فى ارادة مقدرة ، وتفــــكير فى الماضى والحاضر والقابل ، فقد علت خديجة عن حال العشاق ، ولم يكن سنها ، ولا شرفها ، ولا مكانتها فى قريش لتسمح أن يغريها من الصفات ما يغرى الغريرات من النســــاء .

ولكن محمدا (عليه الصلاة والسلام) هل طمع فى الزواج منها أو من غيرها ؟ أو هل حدثته نفسه بمعنى من المعانى ، أو هاجسة من هذه الهواجس؟

انه لم يثبت شيء من ذلك لأن محمدا (عليه الصلاة والسلام) ما خلب كبده أمر من أمور اللذائذ والشهوات وما يتصل بها ، ولكنه اذا نبه يتنبه ، فكان لابد من منبه ·

١٠٨ — أدركت بفطنتها وغريزتها أنه لابد من أن ينبه ، فتولت هى ذلك الأمر ، وللنساء فيه قدرة ، وان كانت من مثل خديجة فيـــه مواجهـة واحتشام من غير اسفاف ·

أرسلت نفيسة بنت منية لتنبه محمدا (عليه الصلاة والسلام) ولتجس نبضه ، وقد فعلت ، ولنترك الكلمة لها :

قالت : كانت خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بهـا من الكرامة والخير ، وهى أوسط قريش نسبا · وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها ، لو قدر على ذلك ، طلبوها ، وبذلوا لها الأموال ··· فأرسلتنى دسيسا الى محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) بعد أن رجع فى عيرها من الشام ، فقلت يا محمد (عليه الصلاة والسلام) ما يمنعك أن تتزوج ·· قال : « ما بيدى ما أتزوج به ، قلت : فان كفيت ذلك ودعيت الى المال والجمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب · قال فمن هى ؟ قلت خديجة قال وكيف لى بذلك ، فذهبت فأخبرتها فأرسلت اليه أن ائت لساعة كذا » ذهب محمد (عليه الصلاة والسلام) للقائها ، فواجهته الأمر ، وخاطبته بعد أن استوثقت من أنه لا يردها ، فقالت « يا ابن عم انى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك (١) فى قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك » وعند هذا العرض الكريم أعلن القبول ، وان لم يكن ذلك القبول فى عقد ، بل هو خطبة ·

والسيدة الـــكريمة الحـــازمة لم تترك الأمر بينها ، بل لابد من تلاقى الأسرتين بعد ، وتلاقى الارادتين ، وتوافق الرغبتين · لأن الزواج اتصـــال أسرتين ، لا مجرد اتصال فردين ·

ولذا قالت لمحمد (عليه الصلاة والسلام) اذهب الى عمك ، فقل له : « عجل الينا بالغداة » ·

جاء اليها أبو طالب ، فقالت له يا أبا طالب اذهب الى عمى ، فقـــل له

---

(١) أى بوسطك ، وكونك من أوسط قدرك أى أعلاهم نسبا ·

يزوجنى من ابن أخيك ، فوافق أبو طالب على أصل الزواج ، وعلى أن يقوم من جانبه ، وقال : « هذا صنع الله » ٠

١٠٩ — تمت الخطبة ، وتراضت الأسرة ، وكان يوم الزواج ، وكان الصداق اثنتى عشرة أوقية من ذهب ونصف أوقية ٠

اجتمع رؤساء مضر ، وكبراء مكة وأشرافها لاتمام العقد ، وكان وكيل الزوج عمها ، وأبو طالب كان المتكلم باسم محمد (عليه الصلاة والسلام) وقف أبو طالب خطيبا ، وقال :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئضىء معد (١) وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجا ، وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم ان ابن أخى هذا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) لا يوزن برجل الا رجح به ، وان كان فى المال قلا فان المال ظل زائل ، وأمر حائل ، ومحمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وقد بذل لها من الصداق ما آجله وعاجله اثنتا عشرة أوقية ذهبا ونشا (٢) وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل ٠

وقد وقف بعد ذلك ورقة بن نوفل (٣) ، ويظهر أنه كان له ما يسوغ أن يعقد من قبلها وخطب قائلا فقال :

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم ، ولا شرفكم ، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم ، وشرفكم فاشهدوا يا معاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد ابن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ٠

ولكن أبا طالب أراد أن يتكلم عمها بالقبول ، لأنه أقرب اليها من ورقة فقال : قد أحببت أن يشركك عمها ، فقال عمها : « اشهدوا يا معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) خديجة بنت

---

(١) ضئضىء معناها أصل ٠
(٢) أى نصف أوقية ٠
(٣) كان ابن عمها ٠

خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش » · ومن هذا كله يتبين ان الذى تولى تزويجها عمها عمرو بن أسد ، وشركه ابن عمها ورقة بن نوفل (١) ·

والمشهور بين العلماء وأصحاب السير والتاريخ أن سنه عليه الصلاة والسلام فى وقت الزواج كانت خمسا وعشرين سنة ، وكانت هى فى الأربعين من عمرها ·

ولقد كانت أقوال أخرى فى سنهما عند الزواج ، ولم يبلغ واحد منهـــا مرتبة الشهرة ، فقيل ان سنه عليه الصلاة والسلام كانت الحادية والعشرين ، وقيل كانت التاسعة والعشرين ، وقيل كانت الثـلاثين وقال ابن جريج كانت السابعة والثلاثين ·

وهذه أقوال ليس لها سند ، والمشهور هو المعتمد ، حتى يقوم الدليل على خلافه ، وذلك فوق أن بعضها لا يتلاقى مع النسق التاريخى ، ذلك أن المتفق عليه أن الزواج لم يكن فور حرب الفجار ، بل كان بعده بمدة ، ولو كان فى الحادية والعشرين ، لكان فوره · والتقدير بالسابعة والثلاثين بعيد التصديق

---

(١) ننبه هنا الى أمرين ـ أولهما ـ أننا اعتمدنا فى تقدير المهـــر على ما جاء فى خطبة أبى طالب ، وجاء فى بعض كتب السيرة أنه أمهرها عشرين بكرا ، أى أنه ذكر أن المهر كان بالنوق ، وقد جمعوا بين التقديرين بأن الثانى كان قد زاده النبى عليه الصلاة والســـــلام ، لأن الكرام يزيدون على ما هو مفروض ، وقد يقال ان المذكور من المذهب هو تقدير للقيمة ·

الأمر الثانى ـ أن المشهور المعروف أن الذى زوجها هو عمها عمرو ، وهو المشهور ، وقيل أخوها عمرو بن خويلد ، والأول هو الذى عليه المعـــول ، ولا التفات لغيره ·

وما ذكره ابن اسحاق من أن الذى زوجها أبوها خويلد غير صحيح ، لأن خويلد قد مات قبل حرب الفجار ، وذلك ثابت مشهور ، ولأن الخبر بأن الذى يقول أن الذى زوجها هو أبوها ، تضمن ما يدل على كذبه ، فقد قال رواته أن أباها كان سكران من الخمر ، وكلمه وهو سكران ، فألقت عليه حلة وضمختة بالطيب ، فلما استفاق ، قال ما هذه الحلة والطيب ، فقالت قد أنكحت منى محمدا ، فأنكر ، ثم لما رأى محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) وافق ·

وان احتمال أن يعقد رجل من أشراف العرب عقد زواج وهو ســـكران يستنكره العرف والعقـــل ، ولا يمكن أن يقـدم عليه أبو طالب ، وهو كبير ومسن ، ووكيل للنبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) فى الزواج ·

اذ مؤداه أن محمدا عليه الصلاة والسلام عاش راهبا الى أن بلغ السابعة والثلاثين ، وان بناته غير فاطمة تزوجن قبل الهجرة ، وبعضهن تزوجت وطلقت، ثم تزوجت ، ولو كان زواجه فى السابعة والثلاثين ما كن بلغن سن الزواج قبل الهجرة ، وخصوصا أنه ما كان أول أولاده من أم المؤمنين خديجة أنثى ، بل ولده القاسم الذى كان يكنى به ، ثم ابنه الطيب ثم الطاهر وهكذا ، نرى أن السياق التاريخى لا يتسق الا مع المشهور • وهو ذو السند ، ولا سند لغيره •

وأما سنها ، فقد كان المشهور أربعين ، وقيل كانت فى الخامسة والثلاثين، وقيل كانت فى الخامسة والعشرين ، ولا سند لهذه الأقوال ، ولكن التاريخ يعتمد دائما على المشهور الذى له سند يعتمد عليه ، ولا خلاف بين كتاب السيرة فى أن سنها رضى الله تعالى عنها ، وجزاها عن الاسلام خيرا كانت أربعين ، وغيرها أقوال منثورة لم يؤيدها كتاب السيرة والمحققين •

ولسنا من الذين يتجهون الى الاغراب ، لأن الاغراب ان كان سائغا فى بعض العلوم ، فهو لا يسوغ قط فى التاريخ ، لأن تتبع الاغراب فى التاريخ انكار لما اشتهر ، وارتضاء بما لم يشتهر من غير سند •

ان الحقائق هى الأمور المشهورة ، ورد ما عداها ، الا اذا قام الدليل المكذب للمشهور بما لا يقل عنه قوة ، والله تعالى أعلم •

أغناه الله وواساه

• ١١ — ولد محمد عليه الصلاة والسلام يتيما ، وعاش يتيما ، ثم آتاه الله تعالى اليسر العامل ، وكفاه العيش الكادح ، رعى الغنم ودبر التجارة ، ثم بسط الله تعالى له الرزق ، وآتاه الزوج الوفية الرضية ، فأكمل الله بها انسانيته ، وأكمل لها أمومتها ، وتوافقا فى قطع فيافى هذا الوجود ، وكمل كل منهما ما ينقصه بما عند الآخر ، هى امرأة شريفة ، ذات ثراء ، وهو رجل مكتمل عامل قوى أمين ، فأغناها بأمانته ، وكفلها برجولته ، ووجه مالها الى الخير ، بحسن نيته وطيب طويته •

وقد كان يعمل لها فى المال من قبل بأجر مضاعف ، تطيب به نفسها ، ويكسب مالها على يديه أضعاف ما ينتج غيره ، وكان عبدا شكورا ، ولواستمر فى هذه الطريق يعمل فى مالها ومال غيرها ، لأدر الله تعالى عليه أخلاف الرزق ، ولو كان يبتغى المال وأعراض الدنيا هذه ، لنال الشباب والمال معا •

ولكنه رأى أن يعمل فى مالها بغير أجر ، وأن يضاعفه بغير ثمن ، وأن تكون أم ولدها ، لطيب عرفها وشرف نفسها ، وقد تخير لنطفته ، فاختار أكمل امرأة فى قريش ، وأعلاها فى المكرمات كعبا ، وقد اختارها الله تعالى لتكون له ردءا فى شدائده ، تواسيه بالكلمة والعطف والحنان ، فى وقت اشتد فيه البلاء ، وعظم الابتلاء ، فأعنته المخالفون ، وكان عزيزا عليه أن يعنتهم ، فكان فى حاجة الى من يأوى اليه ، كما هو فى حاجة الى من يذود عنه ٠

واذا كانت امرأة نوح وامرأة لوط قد تخاذلتا عن معاونة النبيين الصالحين ، فامرأة محمد عليه الصلاة والسلام أعلت شأن النساء قاطبة ، فكانت الزوج الملهمة المواسية ، الودود العطوف الولود ، يلقى قريشا وصدودها ، وعداوتها وجفوتها ، فاذا آوى الى بيته وجد بردا وسلاما ٠

واذا كان قد فقد عطف الأم الرءوم فى صدر خياته فى وقت الحاجة ، فقد عوضه الله تعالى فى خديجة زوجا وأما ورفيقة الحياة ٠

١١١ ــ أغنى الله اليتيم ، كان عائلا فأغنى فهل طغى واستغنى ، هل عبث وتلهى ، هل اتخذ الحياة لهوا ولعبا ، هل أخذ فى التكاثر ، والمكاثرة ! لا شىء من ذلك ، انما يفعل ذلك من اتخذ المال غاية ، ولم يتخذه سبيلا للخير وعون الانسان لأخيه الانسان ٠

ومحمد (عليه الصلاة والسلام) ما اتخذ المال بغية يبتغيها ، ولا غاية يتطلع اليها ، فما أراد التكاثر ، وما عرفه فى أى دور من أدوار حياته ٠

انما اتخذه وسيلة للمكرمات يقوم بها ، وللخير يسديه ، فكان يطعم الكل ، ويعين على نوائب الدهر ، ولا يجد ذا حاجة الى العون الا أعانه ، ولا ذا خصاصة الا سدها ، ولا ذا مسغبة الا أشبعه ، ولا ذا متربة الا رفعه ، كان يبحث عن مواضع الحاجة ، فيرأب ثلمتها ٠

تلفت فيمن حوله ، فرأى كافله وحبيبه أبا طالب فى ضيق ، وعيلة ، فجاء الى عمه العباس وكان ذا ثراء ، وقال له هلا أخذ بعض ولد أبى طالب ليتخفف من ضيق ، فعرضا عليه الأمر فقال اتركا لى عقيلا ، وخذا من شئتما فأخذ صلى الله تعالى عليه وسلم ، عليا ، وأخذ العباس جعفرا ، فكان على ولده الذى تربى فى مهد النبوة ٠

وكل من حول محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) كانوا ممدودين بعونه وفضله ، وخلقه ، فكأنه استولى على مال خديجة ليوزع فى الخير ثمراته وليكون خيره عميما ، وفضله كثيرا ٠

وبينما كانت قريش تكسب بالربا والبيع الحلال ، وتشبه أحدهما بالآخر، فتقول البيع مثل الربا ، كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتجـــر فى الحلال ، ولا يكسب من اثم ، ويعين ويغيث به الملهوف ، والكسب مع ذلك وفير ٠

وهنا يسأل سؤال لماذا ابتدأ بالقل ، وانتهى بالكثر ! والجواب ان حيـاة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيها قبل البعثة البشرية الكاملة فى كل أحوالها فى سرائها وضرائها ، فى كريهتها ، ومنشطها ، فى ضيقها ورخائها ، فلم يتربه الفقر ولم يذله القل ، بل صبر عزيزا ، وقنع كريما ، وجـــد ليكسب قوته ، وحاول أن يخرج من ضيق الفقر بقوة العمل ، ومن ضنك العيش ببحبوحة النفس ، وغناها ، فكان الفقير العزيز الكريم العامل المكتسب المبين ، فلم يقل فى فقـره ربى أهانن ، وعاش مع الضـعفاء شاعرا بضعفهم ٠ وباحساسهم ، لا يسير وراء الأمانى والأحلام ٠

ثم اختبره الله تعالى بالمال ، فكان الشاكر ، الذى يفيض بالخير على غيره ، ويعلم حق المال ، فى مورده ، ومصرفه معا ، فلا يكسب الا من طيب ، ولا ينفقه الا فى طيب ، وهو فى كسبه وانفاقه لا يكون الا نافعا ، فكسبه طيب ، وصرفه طيب ٠

وثبت من النظر الاجتماعى أن الكسب الطيب هو الذى يكون بطريق فيها نفع عام ٠ فالزراعة كسب طيب ، لأن فيها تقديم الغذاء والكساء مما تخرج الأرض من زروع وأثمار ، والعمل باليد فيه كسب طيب ، لأن فيه نفعـــا عاما بالصناعات النافعة ، والاتجار كسب طيب ، لأن فيه الجلب للناس من أماكن لا يخرجون اليها وفيه توزيع خيرات الأرض على أهل الأرض لا يحرم منهـا اقليم ولا يستطيل بالقوة المادية فيها طاغ ٠

وأخيرا محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ضرب للناس فى بشريته قبـل البعثة أعلى مثـل للفقير الصابر العامل فى فقره ، والغنى الشاكر الذى عاش كالضعفاء فى غناه ، فكان غنى النفس فى الحالين ٠

١١٢ — وان محمدا (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، بعد أن استقامت لديه أسباب الرزق لم يتجه الى اللذات يشتار عسلها ويقرع منهـــا ، بل كان الزاهد فى غير الحلال المعروف الذى لا يتنافى مع المروءة ومكارم الأخلاق ، بل كان زاهدا غير محروم ، وطالبا للطيبات غير مبتغيها ، لأن الابتغاء قد يدفع الى اشتهائها ٠

وهناك أمر آخر ، كان يجعل المال غير ذى شأن الا بالقدر الذى يعين على

مكارم الأخلاق ، والنفع لبنى الانسان ، وهو ابتعاده عن كل أوهام الجاهلية ، وأحقادها ، ومنازعاتها ٠

وفى وسط بحبوحة العيش ، ومن غير ترفه ، قد أخذ يدرس الكون وما فيه ومن فيـه ، وما وراء الكون من أسرار الوجود ، مبتعـدا عن الوثنية ، وما حولها ، مستنكرا عبادتها ، غير مستسلم لتوهم أن فيها تأثيرا فى الانسان ٠

فما سجد لصنم قط ، وما أغواه شر قط ، بل كان الطيب الوادع الأمين ٠

وكان قويا فى بدنه ، غير مسترخ فى عضله ، فهو يصـارع ركامة أقوى أهل مكة فيصرعه من غير اعتداء ، ما عرف عنه قبل البعثة أنه اعتـدى على انسان ، وما تناول بيده مخلوقا قط ، فما عرف أنه دخل فى شحناء ، لأنها لم تكن من شأنه ، وما أشر ، وما تكبر ، وما طغى ٠

واذا كان موسى القوى قد أثر أنه وكز مصريا اضطهد اسرائيليا فقتله ، لاعتدائه على أحد من شيعته ، ولم يكن ظالما ، فما عرف عن محمد أنه تناول انسانا عدوا أو وليـا بأذى قط ، ولكل فضل ، وقد فضـل الله تعالى بعض النبيين ، فما كانت قوة محمـد صلى الله تعـالى عليه وسلم على أحد ، بل كانت قوته لله تعالى ، وللانسانية ، ثم لقومه من غير اعتداء ٠

اعادة بناء الكعبة

١١٣ ـــ ما من أمر جامع فيه خير فى ذاته ، وللناس كافة ، الا اشترك فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بفضل من المال والعمل ، وان قريشا ، بل العرب أجمعون كان يربطهم رباط لا يهى ولا ينقطع ، لأنه يتجدد آنا بعد آن ، وهو يتكون من عنصرين : أحدهما الكعبة المكرمة التى بناها أبو الأنبياء الخليل ابراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى أول بيت وضع للنـاس ، والحج اليهـا ، واقامة المناسك فيها ٠

ثانيهما ـ اعتقادهم أن الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض ، وقد كانوا حريصين على تلك الرابطة ، لا يتركونها ، ولا يقطعونها ، وخصوصا قريشا ، اذ وجدوا فيه عزهم الذى يعتزون ، وشرفهم الذى يتنافرون به أمـام العرب جميعا ، ويجعل لهم سيادة وحكما ، وحسبهم أن العرب يتقاتلون الا فى أرضهم ، فاذا جاءوا اليهم كانوا فى حرم آمن ، كما من الله سبحانه وتعالى

عليهم ، فقال تعالت كلماته : « **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** » ٠

وقد أصاب وهن بناء الكعبة المشرفة ، فأرادت قريش أن تجدد بناءها ، وكان ذلك بعد عشر سنين من تزوج محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) من أم المؤمنين خديجة (رضى الله تعالى عنها) وكان النبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) قد بلغ الخامسة والثلاثين ، رجلا سويا ٠

ولم يكن قبل تزوجه كما توهم بعض الرواة من غير سند صحيح ٠

وبذلك كان بناء الكعبة المشرفة قبل مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بخمس سنين اذ أن البعث كان فى الأربعين ، وتجديد البناء كان فى الخامسة والثلاثين من عمره الشريف ٠

وكان التجديد ليكون على ما بناه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وان قريشا أخذت لهذا البناء أهبته ، واتفقت على ألا يكون البناء الا من مال طيب لا خبث فيه ، وأن يكون العمل بنية طيبة خالصة ٠

وقد قال فى ذلك ابن كثير : « كانت الكعبة المشرفة حرزهم ومنعتهم من الناس ، وشرفا لهم » لذلك أرادوا بناءها لما خشوا عليها من التهدم ، وقد قال أحد كبراء بنى مخزوم ، عندما هموا ببنائها :

« يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلة أحد من الناس » (١) ٠

١١٤ — هذا السياق يدل على مدى تأثرهم بالكعبة المكرمة وتعظيمهم لها ، ومكانتها عندهم ، ويدل أيضا على أن الكعبة الشريفة واتصالها بالخليل ابراهيم جعلت حبلهم موصولا به ، وأوجد ذلك فيهم نوعا من الوجدان الحى ، كان هو النبت الذى صار زرع الايمان والتوحيد من بعد ذلك ٠

وان ذلك يستدعينا أن نرجع الى الخليل ابراهيم لنرى كيف كان البناء الأول للبيت ، ثم ننزل من بعد ذلك الى ما كان من بعد ٠

ان ابراهيم أول من بنى البيت ، ولا يذكر التاريخ الراجح الصدق

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٢ ص ٣٠١ ٠

ما يشير الى أنها قد بنيت من قبل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد قال فى ذلك ابن كثير رضى الله عنه :

« لم يجىء فى خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل ، عليه السلام ، ومن تمسك بهذا بقوله تعالى « **مكان البيت** » ، فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر له فى علم الله المقرر فى قدر المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم الى زمان ابراهيم ···· » ·

ثم يقول عما قيل من أن آدم عندما نزل الى الأرض نصب قبته فيها ، وأن الملائكة قد قالوا طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن سفينة نوح طافت به أربعين يوما : « ولكن كل هذه الأخبار عن بنى اسرائيل ، وقد قررنا أنها لا تصدق ، ولا تكذب» وينتهى من هذا ابن كثير الى أن التاريخ الاسلامى لا يعرف بانيا للكعبة قبل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، واننا نقف حيث وقف ولا نسير وراء أوهام أو أساطير لم يوجد من التاريخ الصادق ما يوثقها · ولا من الكتب الدينية الثابتة الصحيحة ما يؤيدها ، فلا نهيم فى ظنون ، « **وان الظن لا يغنى من الحق شيئا** » ·

وقد بينا أن البقعة فى ذاتها قبل البناء عليها كانت معروفة فى التواريخ القديمة ، وقد أكد هذا المعنى ابن كثير ، فقال ان بقعة البيت الحرام كانت معظمة من قبل بناء ابراهيم ، فقال : « وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها ، مشرفة فى سائر الأعصار والأوقات » ·

وان ذلك كلام حق اذ أن نص القرآن الكريم يومىء الى أن البيت كان له مكان مقدر قبل أن يبنيه خليل الله تعالى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام ، وقد قال تعالى : « **واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت** » فكلمة بوأنا تومىء الى أن الله تعالى قدر لهذا البيت مكانا من قبل ، وهدى اليه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ·

واننا اذا انتهينا الى ما قرره ابن كثير وغيره من أن مكان البيت كان معتنى به ، وكان معظما ومشرفا ، قبل ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فانا قد نحسب أن تكون بناية قد أقيمت حوله للعناية به ، ولحفظه من أن يضيع فى غيره ، ولكن من هم الذين بنوه ، وما مدى ما فعلوا ؟ ان ذلك هو المسكوت عنه ، والبحث عنه من غير وسائل معرفة من كتاب معصوم ، أو تاريخ وثيق رجم بالغيب وتظنن فى غير مظنة ·

ولعل فضول العلم تجعلنا نتساءل أيهما بنى أولا ، البيت الحــــرام أم المسجد الأقصى ، فنجيب انه من المؤكد أن البيت الحرام الذى بناه هو ابراهيم، وقيل ان الذى بنى بيت المقدس هو يعقوب حفيد ابراهيم ، وقيل بنى من بعــد ذلك ، وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر : قلت يا رسول الله « أى مسجــد وضع أول : قال المسجد الحرام ، قلت ثم أى ؟ قال المسجد الأقصى » ٠

ولابد أن نتصور أنه بعد أن بنــاه ابراهيم خليل الله تعالى ، قد جرت فيه اصلاحات كثيرة ، فما كان بناء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ليستــمر قائما غير قابل للتهدم أكثر من ألفى سنة ، فلم يكن كالأهرام بناه فرعون الذى اغتصب كل القوى فى بنائه ، ولكن بناه ابراهيم الخليل هو وابنه الذبيح من غير أن يجرى فيه غصب حجر أو مدر أو وبر ، أو قوة أى انسان ٠

بناء قريش

١١٥ ـــ اتجهت قريش بعزمة ماضية ، وان شئت فقل مخلصة طاهرة الى بناء البيت بجهود أبنائها ، وأموالهم الطيبة التى لا خبث فيها ، فليس ثمن دم مغصوب ، ولا ربا ، ولا مهر بغى ، ودخلوا غير متنازعين ، ولا متخاصمين ، ولا متخاذلين ، أعدوا لذلك العمل الخطير فى معناه ، وان لم يكن البناء كبيرا فى ذاته بين الأبنية التى كانت تجرى فى ارم ذات العماد ، وفرعون ذى الأوتاد ، ولكنها أقدس ما بنى البشر ، وما أقام أهل الحضر والمدر والوبر ، لأنها الكعبة « **أول بيت وضع للناس مباركا** » ٠

تقدموا للهدم ثم البناء ، ويظهر أن قدم العهد بالبناء والأحجار ، قــد جعل بعض الهوام يعيش على مقربة منه ، فقد زعموا أنهم قد رأوا حيـــة قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبها ، فأشفقوا منها اشفاقا شديدا وخشـــوا أن يكونوا قد وقعوا منها فى هلكة ، ووقفوا حيارى لا يقدمون ، فلما سقط فى أيديهم ، والتبس عليهم الأمر ، حسبوا أن يكون ذلك لتأثمهم عند البنـــاء باثم ، أو ليس فى مالهم طهــر ، أو فى العمــل الذى أعدوه خبث ، أو أن فى النفوس شيئا ، عندئذ وقف المغيرة المخزومى ، ينصح لهم بعــدم التحاسد والتشاجر ، وأن يقتسموا ، ثم جددوا العزيمة ، « وقد جاء فى تاريخ الحافظ ابن كثير أنهم لما عزموا ذهبت الحية ، وتغيبت عنهم ، ورأوا أن ذلك من الله عز وجل ٠

وان خبر الحية ان صح نقول اما أن تكون قد ركنت الى بعض أحجار الكعبة ويصح أن المولى جل جلاله سيرها اليهم لا من السماء ، ولـــكن من

مكان آخر ، ليفزعوا ، ولتتطهر قلوبهم من رجس الجاهلية عند بنائها ، فهى بيت الله الذى بناه بأمر نبيه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فلابد أن يبنى بأطهار على الأقل فى ساعة بنائه ، وقد قاموا بتطهير أنفسهم ، وتطهير أموالهم ، وتولوا بأنفسهم اقامة البناء ٠

اقتسموا البناء أرباعا ، فكان الربع الأول الذى فيه شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وبنو مخزوم لهم ما بين الركن الأسود ، والركن اليمانى ومعهم بطون من قريش انضموا اليهم ، وظهر الكعبة لبنى جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى وبنى أسد بن عبد العزى وبنى عدى ، وهو الحطيم » (١) ٠

وبعد أن قسموا هذا التقسيم ، وارتضته القلوب كان يجب أن يبتدىء العمل بالهدم أولا ، ثم البناء ثانيا ، ولكن لهيبة الكعبة فى نفوسهم ، ولعجزهم عن أن يعرفوا أهذه ارادة الله رب البيت وحاميه ، أم هى أهواؤهم الدافعة الى أن يفعلوا ــ هابوا أن يهدموا ٠

عند هذا التردد والتلكؤ تقدم الوليد المخزومى ، وحمل المعول ، وقال أتقدمكم ، وهو يقول : اللهم انا لا نريد الا الخير ، ثم هدم ناحية من الركنين (الركن الأسود والركن اليمانى) وهما حصة بنى مخزوم ، ومع ذلك لم يتقدم كل ذى حصة من حصته ليهدمها ٠

صبح الوليد معتزما من غداته متمما ما بدأ بمعوله ، فأخذ يهدم الناس معه ، كل يهدم ما فى حصته وأخذوا يهدمون ، حتى رأوا أساس البناء الذى وضعه خليل الله عليه الصلاة والسلام ٠

ومن مقتضى الفطرة التى لم يأت بها رسول أن تجرى أوهام كثيرة ، وأن تروى أخبار حول هذه الأوهام ، وانا نضرب عن كل ذلك صفحا ٠

١١٦ ــ وانهم قد أخذوا من بعد ذلك فى اقامته ، ويظهر أنه قد عاونهم فى الرسم والبناء رجل قبطى اسمه باقوم ، فهو الذى وضع هندسة البناء ، وكان مولى لبنى أمية ٠

وقد قام كل فريق بحصته فى البناء ، وقد اشترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان زميلا فى العمل لعمه العباس بن عبد المطلب ، وقد روى

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٣٠٣ ٠

الشيخان (البخارى ومسلم) فى ذلك عن جابر أنه « لما بنيت ذهب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اجعل ازارك على رقبتك يقيك من الحجارة ففعل فخر الى الأرض ، وطمحت عينه الى السماء ، ثم أفاق ، فقال ازارى ازارى ، فشد عليه ازاره ، فما رؤى بعد ذلك عريانا » ٠

هذا حديث صحيح ، روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سقناه لبيان أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) اشترك فى أشرف عمل قامت به قريش ، وهو فى شرخ الشباب ، وحمل الحجارة ، وأنه لم يأخذه الترف قط ، وأنه لم يفكه فى نعيم المال ، فكانت حياته حياة الأقوياء ، وان الخبر يدل على أن الله تعالى كان يرعاه ، وقد رباه على عينه ، فلما أخذ بنصيحة عمه العباس ، ووضع بعض ثوبه على رقبته ، انكشف بعض عورته ، فطمحت عينه الى السماء ، وأصابته غشية اتصال بالملأ الأعلى ، وسترت عورته ، فقد كان فى حراسة الله سبحانه وتعالى ، وحياطته ٠

ولا نرد الخبر لما فيه من غرابة ، فقد رواه الشيخان البخارى ومسلم بسند صحيح ، وما يروى بسند صحيح لا يرد لمجرد غرابته على الحس والأسباب والمسببات ، انما يرد لوجود دليل يثبت أن ذلك مستحيل ، والأمر فى قدرة الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسببات ، ومانح كل ما فى الوجود نعمة الوجود ٠

لقد أتموا بناء البيت الحرام ، وكان ارتفاعه الذى بنوه ثمانية عشر ذراعا وأخرجوا منه الحجر ، وهو ستة أذرع ، أو سبعة من ناحية الشام ، لأنهم قد قصرت نفقتهم ، فلم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد ابراهيم ٠

وقد يسأل سائل ، ان المفروض أن قريشا كانوا من أغنياء العرب ، وبجوارهم ثقيف ، وهم أغنياء ، وكان ممكن أن يعلنوا اكتتابا عاما يجمعون به ما يريدون ، فكيف تقصر بهم النفقة عن البناء ٠

والجواب عن ذلك أنهم لم يشركوا العرب فى بنائهم ليبقى لهم الاختصاص بسدانته وبشرفه ، وبانشائه ، وفوق ذلك هم أرادوا ألا ينفقوا منه الا بمال مكسوب من طيب حلال ، وليس بمكسوب مما يجرى فيه كسب خبيث أو فيه شبهة خبث قط ، ويظهر أن الطيب من المال عندهم لم يكن كثيرا ، اذ كثر فيهم الربا والميسر ، ومن الصعب اخراج الطيب ، من بين هذا كله ٠

ولقد جعلوا للكعبة بابا واحدا من ناحية الشرق ، ويقول ابن كثيـر : « جعلوه مرتفعا لئلا يدخل اليها كل أحد ، فيدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من شاءوا ٠

وان النبى عليه الصلاة والسلام كان يريد أن يعيد البيت الى ما كان على بناء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، لولا أنه يخشى عليه كثرة الهدم والبناء فقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها : « ألم ترى أن قومك قصرت بهم النفقة ، ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ، وجعلت لها بابا شرقيا ، وبابا غربيا وأدخلت فيها الحجر » ٠

١١٧ — تم بناء البيت الحرام ، ولم يختلفوا فى شىء عند اقامته ، لأن كل قسم منه اختصت به بطن من بطون قريش ، ولكن أمرا لا يقبـــل القسمة اختلفوا فيه ، وهو الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن الذى يضعه فى موضعه من هذه البنية ٠

تجادلوا فيمن يضعه ، وتخالفوا ، وكان الخلاف شديدا وكادت الدماء تسيل لتلغ فيها السيوف ، أراد بنو عبد الدار أن يضعوه ، بما أعطاهم من قبل قصى من سدانة البيت ، وقربوا جفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى ابن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى الدم المملوءة به الجفنة ٠

ومكثت قريش على تلك الحال التى تأزمت حلقاتها أربع ليال سويا ٠

ثم اجتمعوا بعدها فى المسجد الحرام ، وتشاوروا فى هدأة ، وأخفيت جفان الدم أو جفان الموت ، وتناصفوا فى القول ، وأخفـــوا نوازع الشر ، أو استلوها من الأضغان ، وان القصد الطيب يكف فى كثير من الأحيان نوازع الشر ، فيفتح فى وسط الخصام ، نورا من نور الوئام ، وقد كانت الجلســـة الهادئة سبيل ذلك ، ببركة بيت الله الحرام ٠

لقد وقف أسن قريش يدعوهم الى السلام وانهاء الخصام ، فقال :

« يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم : فارتضوا ذلك ، وعلموا أنه توفيق الله تعالى عندما ظهر أول داخل ، فاذا هو محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) فقال كبيرهم : هذا الأمين رضينا به حكما ٠

وكان محمد (صلى الله تعالى وسلم) يسمى الأمين ، وقد اختص بهـذا الاسم ، بحيث اذا أطلق لا ينصرف الا اليه ، وقد أشرنا الى ذلك ، وكلمـا مضى فى عمره الكريم زادوا استيثاقا من أمانته وصدقه وحكمته وعدالته ٠

لذلك طابت نفوسهم جميعا عندما علموا أنه سيكون الحكم بينهم الذى يرد القضب الى أجفانها ٠

انتهى اليهم وأخبروه الخبر ، فطابت نفسه وقرت عينه ، اذ قرت به القلوب المضطربة وقال : هلم الى ثوبا فاتى به ، فأخذ الحجر فوضعه فيـه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعـوه جميعـا ففعلوا ، حتى اذا بلغوا موضعه ، وضعه بيده الشريفة ، ثم بنى عليه » (١) ٠

هذه حكمة بالغة ، انحل بها الخلاف ، وانتهى الى وفاق من أن تمشق السـيوف ، ويستعدوا للحتوف ، وهكذا كانت النفحة المباركة من محمد ابن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) وقد بدت بوادر النبوة ، وظهرت ارهاصاتها ٠

١١٨ ــ قامت الكعبة الشريفة متجهة الى السماء ، واستمرت على ذلك فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يود أن يعيدها عليـه الصلاة والسلام الى ما كانت عليه فى عهد ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولكنه قدر أن قريشا قريبو عهد بكفر ، فلم يزعجهم ٠

وبعد عصر الراشدين ، ثم عهد معاوية ، ثم جاء عهد يزيد بن معـاوية ، وخرج عليه الخارجون من أهل الايمان وكان ممن خرج عليه عبد الله ابن الزبير ، وقد قوى أمره بعد أن قتل الامـام الحسين بن على ، تلك القتـلة الفاجرة ، وقد بايع الكثيرون ابن الزبير ٠

ثم تجرد له عبد الملك بن مروان ، وكانت المغالبة ، وحوصرت مكة التى كان بها ابن الزبير ، ورميت الكعبة بالمنجنيق ، وتهدمت ، فاتجه ابن الزبير الى اقامتها على قواعد ابراهيم ، فأعاد طولها ، وأدخل من الحجر الأذرع التى كانت قد نقصت منهـا لضيق المال الحلال الذى كان بيد قريش ، وجعل لهـا بابا آخر ، وكان قد سمع عن طريق خالته أم المؤمنين التى روت حديث النبى عليه الصلاة والسلام الذى ذكرناه آنفا ٠

---

(١) سيرة ابن هشام ٠

لم يستمر الأمر لابن الزبير ، بل قتل ، واستمكن الأمر للحجاج بن يوسف الثقفى المسلط من قبل عبد الملك ، فشاور عبد الملك فى الأمر الذى غيره عبد الله ابن الزبير فى بناء الكعبة ، واعادتها الى قواعد ابراهيم فكتب اليـــه : « أما ما زاده طولا ، فأقره ، وأما ما زاده فى الحجر ، فرده الى بنائه ، وسد بابه الذى فتحه ، ففعل ذلك ، ويروى أن عبد الملك ندم على ما أذن ، ولعن الحجاج ٠

ولقد فكر المهدى فى أى يعيد البناء على قواعد ابراهيم فناشـده الامام مالك ، وقال أخشى أن يصير ملعبة للملوك ، فترك الأمر ٠

الخمس :

١١٩ ـــ من هذا نرى أن قريشا كانت حريصة على البيت الحرام ، تعليه ، لأنها ترى فيه علوها وشرفها ، وشددت فى القيام عليه ، وابتدعوا فى ذلك بدعة تخالف ما كان عليه ابراهيم فى قيامه بمناسك الحج ، وعظمـــوا الحرم تعظيما زائدا ، حتى لفرط تحمسهم له التزموا ألا يخرجوا من جواره ليلة عرفه ، ولذلك سموا الخمس ٠

كانوا يقولون نحن أبناء الحرم ، وقطان بيت الله ، فكانوا لا يقفـــون بعرفات ، مع علمهم أنها من مشاعر ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويقول فى ذلك الحافظ ابن كثير فى تعليل فعلهم ٠ وتكميل الكلام فيه :

« حتى انهم لا يخرجون عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة ، وكانوا لا يدخرون من اللبن أقطا ولا سمنا ، ولا يسلون شحما وهم حرم ، ولا يدخلون بيتا من شعر ، ولا يستظلون ان استظلوا الا بيت من أدم ، وكانوا يمنعون الحجيج والعمار ما داموا محرمين ـ أن يأكلوا الا من طعام قريش ، ولا يطوفون الا فى ثياب قريش ، فان لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الخمس وهم قريش ، وما ولدوا ٠٠ ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة طاف عريانا ، ولو كانت امرأة ؟؟ ولهذا كانت المرأة اذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها ، وتقول : « اليوم يبدو بعضه : أو كله ، وبعد هذا اليوم لا أحله » ٠

فان تكرم أحد ممن يجد ثوب أخمسى ، فطاف فى ثياب نفســه ، فعليــه اذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعـــد ذلك ، وليس له ولا لغيره أن يمسها ، وكانت العرب يسمى تلك الثياب « اللقى » (١) ٠

---

(١) البداية والنهاية ص ٣٠٥ ٠

١٢٠ — هذا بعض مما كان يجرى من قريش تعصبا للبيت ، فهم اعتبروا الحج عندهم هو زيارة البيت الحرام · وهذا من التعصب له ، حتى نسوا شريعة ابراهيم فى الحج ، وهو اعتبار الحج عرفة ، والطواف ركنا من الأركان ، وليس له وقت محدود طول السنة ·

وانه لمن ارهاصات النبوة أن محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) قبل أن يبعث رسولا نبيا ، كان لا يتمسك بتقاليد قريش وأعمالها ، بل كان يقف بعرفة ، وان ذلك بلا ريب توفيق من الله تعالى ، والهام الله تعالى له بأن يقيم الحج على ما كان يقيمه ابراهيم ·

ولم يسر على ما سار عليه العرب ، بل كان يطوف بالبيت كما يطوف ·

ويلاحظ أن الناحية التجارية فى قريش قد بدت واضحة فى أمرين :

أحدهما — ان الحجيج لا يأكلون من الطعام الا ما يكون من قريش ، فهو ترويج لتجارة قريش ، وكذلك الأمر فى الثياب ·

وثانيهما — ما كان يقام من المتاجر فى الأسواق التى كانت تجاور مكة ·

وانه بلا ريب كانت تلك التقاليد فيها فحش فى العمل ، اذ كان بعض القبائل ، اذا لم يجدوا ثيابا من ثياب الخمس ، يطوفون عراة ، وفيهم النساء ، حتى انهن كن يستترن عوراتهن الغليظة بأيديهن ·

وان هذه الأحكام يحسبون أنهم مأمورون بها ، ولقد أنكرها الاسلام ، فقد قال الله تعالى : « **واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها : قل ان الله لايأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لاتعلمون ، قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون ، فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ، يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** » ·

وان محمدا (عليه الصلاة والسلام) من قبل أن ينزل جبريل عليه السلام ، كان ينفر من كل أرجاس الجاهلية ، ولو كانوا يدعون أن الله تعالى أمر بها ٠

لم يسجد لصنم قط ، ولم يرتكب فحشاء ولا لهوا ، ولم يترد فيما كان يتردى فيه شباب الجاهلية ٠ ولم يتناول خمرا قط ، ولم يلعب ميسرا ٠

ولقد يستنكر فى صمت المؤمن بالحق ، كل ما كانت تقع فيه قريش ٠

وقبل أن نتقدم للمبعث المحمدى ، وقد جاء ابانه ، وحان حينه ، اذ أنه (عليه الصلاة والسلام) كان قد بلغ الخامسة والثلاثين ، وقارب البعث ، فقارب الأربعين ، وهى السن التى بعث فيها رحمة للعالمين ٠

وقبل أن نتقدم لمقام الرسالة المقدس ، والمبعث النبوى الأقدس ، يجب أن نتكلم فى أمرين :

أولهما : تكامل صفات الرسول ، وبيان ما كان عليه من خلق كامل ، هو مثال للأخلاق الانسانية العالمية ، فهو قبل أن يكون رسولا مبعوثا من الله سبحانه وتعالى ، كان كالملائكة فى أخلاقه ، بيد أنه كانت له ارادة ، وكان مكتمل الجسم الانسانى ، والحياة الانسانية ، وقد رباه الله سبحانه وتعالى ليكون النبى المختار الذى ولد فى الأميين ، وكان منهم ٠

ثانيهما : أحواله فى تأملاته ، وعبادته قبل الرسالة ، و « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » ٠



التكامل الإنساني في محمد صلى الله عليه وسلم



التكامل الانسانى فى محمد

(صلى الله عليه وسلم)

١٢١ ــ نتقدم بهذا الباب من القول بين يدى المبعث المحمــــدى ، لنتعرف من اختاره الله تعالى من بين خلقه رسولا للعــالمين ، وكيف قد أدبه الله تعالى بتأديبه الكريم ، وخلقه كاملا ، لأن رسالته دعوة الى الكمال ، فهو الكمال المطلق فى التكوين البشرى ، ونحن نريد أن نقــــدم ما كان من خلق فطرى ، لم يكسبه من الوحى الالهى ، وان كان متطابقا مع ما جاء به الوحى ، وما أدبه به القرآن ، حتى كان خلقه المتين · وكان كما قالت عائشة رضى الله تعالى عنها « خلقه القرآن » ، وما كان خلقيا بمقتضى التكوين كان متفقا مع ما جاء به الوحى ، وما دعا الى خلقه ، وقاربوا فيه ، ولم يصلوا الى ما وصل اليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض فى مقدمة كلامه فى أوصاف محمد ابن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ان خصال الجمال والكمال فى البشر نوعان : ضرورى دنيوى اقتضته الجبلة ، وضرورة الحيــاة الدنيا ، ومكتسب دينى ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب الى الله تعــالى زلفى ، ثم هى على فئتين أيضا ، منها مايتخلص لأحد الوصفين ، وما يتمازج ويتداخل ·· فأما الضرورى المحض ، فما ليس للمرء فيه اختيار ، ولا اكتساب ، مثل ما كان فى جبلته (عليه الصلاة والسلام) من كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقــوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وكرم أرضــه ، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته اليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه ·

وأما المكتسبة الأخروية ، فسائر الأخلاق العلية والفضائل الشرعية من الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر والشكر ، والعدل ، والزهد ، والصــمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الخلق ، والمعاشرة وأخواتهما ، وهى التى جماعها حسن الخلق » ·

ونرى من هذا أن القاضى عياض قد قسم الأوصاف التى تحلى بها النبى (عليه الصلاة والسلام) قسمين : أحدهما ــ كان بالفطرة الانسانية وهى كمال الفطرة ، ويلحق بها أوصافه الجسمية (صلى الله تعالى عليه وسلم) ــ وثانيهما ما اكتسبه بمقتضى التعاليم الشرعية ، وذكر منها التواضع والحلم ، والصبر

والشكر ، وحسن المعاملة ، وبشكل عام ما يتعلق بحسن الأخلاق الذى هو جماع الفضائل الانسانية ، ويذكر أن من هذه الصفات المكتسبة بحكم الشرع الشريف والوحى اليه مما تلتقى فيه الفطرة المستقيمة مع الوحى ، فالوجود والتواضع والصبر والفصاحة ، والتأنى ، وحسن التأنى للأمور ، والرفق فى القـــــول والعمل ، ولين الجانب من غير ضعف ، والقول الحق من غير عنف ، كل هذه الصفات كانت فى محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) كانت فيه بفطرته المستقيمة ، وبتهيئة الله تعالى ، قبل الرسالة ، اعدادا لهذا المنصب الخطير ، وهو رسالة الله تعالى الى خلقه ٠

وانا لنذكر فى هذا الباب من الكتاب ، ما كان فيه بمقتضى الطبع الانسانى السامى الذى فطره الله تعالى عليه وما كان من صفات تتعلق بالمعاملات ، والعلاقات الانسانية والمودة والرحمة والرفق ، والفصاحة ، وغيرها مما كانت مهيئة للرسالة ، وتحمل الأعباء ، والقيام بحق هذه الرسالة والدعوة اليها بما يزكيها وينميها ، واذا كانت قد استمرت فيه بعد البعثة ، فانها ثمرة الله فى غرسه ، وتناول الناس أكله ، واذا كنا سنشهده على هذه الصفات بما جاء من أقوال أصحابه من بعد البعثة ، فليس ذلك لأن البعثة هى التى أوجدتها ، بل لأنها الأقوال الناطقة المؤيدة لذلك ، فقد أوجدها فيه العلى القدير ٠

وقدمناه على الرسالة لأن الله تعالى أعدها فيه ليكون كاملا ، وليقوم بأعبائها ٠

١ ــ وفور عقـــــله

١٢٢ ــــ لم يتوافر العقل فى انسان كما توافر فى محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) ولو لم ينزل عليه الوحى ويخاطب من السماء لكان عقله وحده كافيا لأن ينشىء دولة ، ويقيم مجتمعا طيبا فاضلا ٠ ولكن أتم الله تعالى عليه نعمته ، فجعله نبيا مرسلا ، فاجتمع له الكسب الذاتى بالادراك بالفطرة الانسانية العالية المكتملة بالتكوين الانسانى والرسالة الالهية الهادية المرشدة ، وكانت الأولى مقدمة للثانية ، وما كانت احداهما لتغنى عن الأخرى فما كانت الرسالة تجىء لغير عقل كامل ، وفكر مدرك ، وشخصية كريمـــــة اختارها الله تعالى لموضع رسالته وحمل أمانته ٠ وما كانت الكفاية العقلية فى أسمى علوها بمغنية عن الرسالة ، لأن العقل لا يمكن أن يكون وحده كافيا فى تدبير الحاضر والقابل الى يوم الدين ، انما العقل يدبر ما يحيط به وهو من غير هداية الوحى لا يفكر الا فيمابين يديه ، ولا يخترق الحجب والأستار الى ما وراء

ما لديه ، فلابد من علم الله يمده بعلم القابل ، وهو عالم الغيب والشهادة ، فمهما تكن قوة العقل ، فانه لا يستطيع أن يصلح غير زمانه ، وكل شيء عند ربك بمقدار ·

منذ نشأ محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) والعقل المكتمل حليته العليا التى سما بها على الغلمان أترابه ، فمنذ استوى غلاما ، والعقل يزينه ، ولقد بدا ذلك لجده عبد المطلب الذى أخذه ليعوده أخلاق الرجال المكتملين ·

ولما ذهب الى بيت عمه أبى طالب بعد وفاة جده القريب ، كان الغلام الرزين المكتمل وسط أولاد أبى طالب ، لا يسبق الأيدى الى الطعام ، ولا يدخل فى زحمة الاغتراف ، بل يتريث غير نهم ولا جشع ولا طامع ، بل الهادئ الرزين قد يكتفى بالقليل أو ما دونه ، حتى يتنبه اليه عمه الشفيق فيقرب اليه ما يبعد ، ويخصه بما يكفيه مئونة المزاحمة حتى اذا بلغ قدرا يستطيع فيه الاكتساب · عمل على رعى الأغنام ليأكل من عمل يده ، ولينال من خير الدنيا بمقدار ما قدم فيها من نفع غير مؤثل ولا مقصر ·

وعقله المدرك لمصيره بقابل حياته فى قابل عمره ، فهو يعد نفسه للتجارة عمل قومه ، ومكتسب أرزاقهم ومنشط قواهم ، فألح على عمه أبى طالب أن يأخذه معه الى الشام فى قافلة تجارة قريش ، ليكون على خبرة بالصفق فى الأسواق ، وليتعلم المصادر والموارد ، وذلك وهو فى الثانية عشرة من عمره حتى اذا عاد من هذه الرحلة المباركة عاد وقد امتلأ عقله تجربة ، فيمارس التجارة صغرت بضاعته أو كبرت ، وهو على بينة من أمرها ، عليم بأسواقها ، والرائج منها والكاسد ·

ولكمال عقله كان الشاب التاجر يحضر مجتمعات قريش ، فهو يحضر ندوتها فاحصا ما يقال فيها من حق يرضاه ، وباطل يجفوه ، ولا يقره ، ويحضر حلف الفضول ، ويرى لعقله الكامل المدرك أنه لا يسره به حمر النعم ، ولا يرى نصرة للحق أقوى منه ، ولو دعى به فى الاسلام بعد أن عم الحق ، لأجاب تكريما له واعلاء لقدره ·

وهكذا نراه قد أوتى عقلا مدركا ، وعمل على تغذيته بالتجارب والاتصال بالمجتمع ليعرف خيره وشره ، ويعمل على علاج أدوائه ، ان واتاه الله تعالى بفضل من عنده ·

واننا ونحن نتكلم على قوته العقلية النافذة الى الحقائق ، لا الى المظاهر نتعرض لنفوره من التقليد من غير دليل ، فهو قد نفر من عادات الجاهلية التى كانت تحرم وتحلل من غير بينة ولا علم قائم على الحقائق المقررة الثابتة ٠ فلم تره يسجد لصنم قط ، لأن حكم العقل يتقاضاه ألا يسجد لمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ويكره ذكر الأصنام ، وعبادتها ٠ فيستحلفه الراهب باللات والعزى فيقول الغلام ما كرهت شيئا كما كرهتهما ٠

ويختلف مع تاجر ، فيستحلفه التاجر باللات والعزى ، فيمتنع ، فيسلم له التاجر بحقه من غير حلف لأمانته ٠

وأى عقل أكمل من أن يرى قومه ينحرفون عن ابراهيم فى حجه ، ويذهب فرط حرصهم واعتزازهم بالبيت ألا يقفوا بعرفات فيجىء الرجل العاقل المكتمل محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) ويتعرف مناسك ابراهم ، فيقف بعرفات فى ميقاته ، ان ذلك كله لا يكون الا من رجل عاقل يعمل عقله فى هدأة من غير مجادلة ، لأن المجادلة تحدث المنازعة ، وحيث كانت المنازعة كان الريب ، وتبددت الحقائق بين المتنازعين ٠

لقد علمت قريش كلها بكمال عقله ، وقوة ادراكه ، فرضيت به حكما ، ساعة أن احتدم الجدل ، وكادت السيوف أن تمتشق ، والمعارك أن تنصب ، فلما نادته القرعة أن أقدم ، وافصل بين الناس بالحق ، رضوا بحكمه ، لأنه سيكون حكم العقل والحق ، وأى شخص غير عاقل وحكيم كان يهتدى الى الحكم الذى يرضيهم جميعا ، فيشركهم جميعا فى فضل حمل الحجر الأسود الى موضعه من غير مشاحة ولا خصومة ولا تفاضل بينهم ، ويحمله هو بيده ابتداء فلا ينازعونه لفضل عقله ، ثم يحمله هو وحده انتهاء ويضعه فى موضعه بيديه الكريمتين ، فيرضون ما يفعل ٠

ولكمال عقله لم يخض مع الخائضين فى العصبية الجاهلية ، فلم ينطق بها ، ولم يجادل حولها ، وكان يحب الوئام والسلام ، ولا يحب الحرب والخصام ، ولذلك لم يشارك فى حرب الفجار ، الا بتفضيل السهام عن أعمامه حماية لهم ورحمة بهم ، بموجب الرحم الوصيلة ، لا بموجب الحرب التى أحلت فيها الحرمات والأشهر الحرم ٠

وانه من المؤكد أن محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) كبح جماح هواه طول حياته قبل البعثة ، فلم يفعل ما يفعله الغلمان وهو غلام ، ولا ما يفعله الشبان فى باكورة شبابه ، ولا بعد أن صار رجلا سويا اكتملت أخلاقه كما اكتمل جسمه ، فكان القوى الذى يسيطر على أهوائه ، فلا ينحرف مع هوى ،

ولا تجمح به شهوة ، وانه اذا ضعف سلطان الهوى قوى سلطان الحق ، واذا قلت حدة الشهوة ، استقام حكم العقل ، فالعقل حكمه يناقض حكم الهوى والشهوة ، والعاقل السيد هو الذى يسيطر على أهوائه وشهواته ويكون عقله هو المسيطر ، وما تضل العقول الا اذا داخلت النفوس الأهواء ، وعكرت صفاءه ، فمحمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) كان أعقل قريش ، لأنه هو الذى لم يسيطر عليه هوى كسائر سادات مكة ·

وقد قال القاضى عياض فى فضل عقله عليه الصلاة والسلام ، وآثاره فى الاسلام :

« وأما وفور عقله ، وذكاء لبه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة العامة والخاصة ، مع عجيب شمائله · وبديع سيره ، فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع ، دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر فى رجحان عقله ، وثقوب فهمه ، لأول بديهة ، وهذا مما لا يحتاج الى تقريره لتحققه ·· ولقد قال وهب بن منبه ، قرأت فى أحد وسبعين كتابا ، فوجدت فى جميعها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا ، وفى رواية أخرى ، فوجدت فى جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا الى انقضائها من العقل فى جنب عقله صلى الله تعالى عليه وسلم الا كحبة رمل من بين رمال الدنيا » (١) ·

ويقول ابن كثير : « معلوم لكل ذى لب أن محمدا (صلى الله تعالى عليه وسلم) من أعقل خلق الله تعالى ، بل أعقهلم وأكملهم على الاطلاق فى نفس الأمر » (٢) ·

وان مظاهر عقله بدت واضحة بعد البعثة فى سياسة رعيته ، فقد كان الله يوحى اليه بالأحكام الشرعية ، وما يجب من الرفق بالرعية ، والأخذ على يد الظالم ، وحماية الحق من الباطل ، ويترك الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينفذ الحق فى رعيته ، بالمسلك الذى يسلكه مختارا ، مسددا ، فان تبين خطأ نبهه سبحانه وتعالى عليه اذا كان أمرا متصلا ببيان الشريعة وأحكامها ·

---

(١) الشفاء الجزء الأول ص ٤٣ ، طبع الحلبى ·

(٢) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٦٥ ·

وأنه فى الأمر الذى تركه سبحانه وتعالى له بدا عقل النبى عليه الصلاة والسلام فى احكام التدبير وكياسة الحكيم ٠

اشتد أمر النفاق والمنافقين ، وكثرت أضرارهم ، فطلب عمر رضى الله تعالى عنه من محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) أن يقتلهم ، فقال عليه الصلاة والسلام « لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » ثم اشتد النفاق ، حتى هم أهل كل بيت فيه منافق أن يقتله ، فقال عليه الصلاة والسلام أين عمر لو قتلتهم حين قتلهم لأرعدت لهم أنوف هى اليوم تريد قتلهم ٠

فبهذا العقل الحكيم استقبل رسالة ربه ، وبهذا العقل الحكيم أدار المدينة الفاضلة التى قامت على حكم الله تعالى وأمره ونهيه ، ونفذت فيها النظم الاسلامية ٠

٢ ـ بلاغته

١٢٣ ـ كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرشيا قد نشأ فى قريش ، وهى أفصح اللهجات العربية ، وكان يحضر أسواق مكة فى موسم الحج ، ويتذوق ما ينشد فيها من شعر ، وقد تفصح فى بنى سعد بهوازن ، وهوازن من أفصح العرب ، فالتقى فى بيانه لغة العقل والحضارة النسبية فى مكة المكرمة ، وسذاجة البداوة مع حلاوة اللفظ وسهولته فى لهجة أفصح أهل البادية ٠

ولذلك كان النبى محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) أفصح الناس منطقا ، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، فهو اذا أرشد كانت ألفاظه كالجوهر تنثر بين الناس من غير بهرجة ، وفيها جوامع الكلم وفصل الخطاب ٠

واذا تحدث فى معاملات الناس وفى سمرهم الذى لا مجون فيه كان كلامه النمير العذب يسرى فى النفوس سريان النسيم العليل ، والماء العذب ينعش القلوب ، ويروى ظمأ النفوس ٠

وقد وصفت حديثه أم معبد بعد البعثة : فقالت : « اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، وكان منطقه خرزات نظم يتحدرن » ٠

هذا وصف لكلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن بعثه الله تعالى ، وهو غاية ما كان منه قبل البعثة ، فحال ما قبل البعثة ابتداء ، ومابعدها هو الانتهاء ، وهو اصطفاء الله تعالى ليكون موضع رسالته ، ومبلغ وحيه ، كان يجمع بين الايجاز والوضوح ، فألفاظه قليلة ، ومعانيه كثيرة من غير تعقيد ولا اعضال ، بل هو السهل الذى لا توعر فيه ، ترى فى كلامه عليه الصلاة والسلام جمال الألفاظ من غير تكلف ، وحلاوة اللفظ من غير تحسين ولا تزيين، فهو الجمال الطبعى الذى لا طراوة فيه ، ولا جفوة ، ولا خشونة ٠

وكان فيه معانى الالهام ، وجمله الله تعالى بالصفاء ، لأنه خرج من نفس صافية ، وقلب مفعم بالايمان والصدق ، فكان صافيا كنفسه ، خاليا من الشوائب خلو نفسه منها ٠

وقد وصفه الجاحظ ، فقال : : الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله تعالى المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الالهام ، وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكا ت الخصم الابما يعرفه الخصم ، ولايحتج الا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطىء ، ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أتم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح فى معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم » ٠

وانه قد اجتمع له عليه الصلاة والسلام مع سلامة المعانى حسن اختيار الألفاظ المناسبة فى الحال المناسبة من غير أن يقرع الأسماع ، بكلام له رنين ، بل بكلام يدخل على القلوب فى أناة ورفق فينساب فيها انسياب النمير العذب ويكون ثمة تناسق بين المعنى الكريم ، واللفظ الجميل من غير اعنات للأفهام ، ولا ارهاق للأسماع ٠

وكان فى منطقه حلاوة ، فيخرج اللفظ من لسان واضح بين ، تخرج الحروف من مخارجها ، وتقع فى مواضعها ، والسامع مشدوه من حلاوة

الكلمة ، وحلاوة اللفظ ، والمعانى الأبكار ، فى أسلوب لا توعر فيه ، ولا تكلف ، ولقد قالت عائشة رضى الله تعالى عنها فى وصف كلامه « ما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسرد الكلام كسردكم هذا (١) ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس اليه ·

فكان كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم يكون بأناة ، غير مندفع فى القول، ولا متابع له فى استعجال ، حتى ان عائشة رضى الله تعالى عنها تروى أن حديثه لو عد السامع حروفه عدا لأحصاها ·

وان ذلك هو أفصح النطق ، وأبلغ الالقاء ، ذلك لأن الامهال فى القول يجعل السامع يتذوق جمال الألفاظ ، ويتأمل المعانى ، ويستحفظ ما قال القائل ، ويتابعه فى أفكاره من غير اعنات لنفسه ، ولا ملال ، وان الملال يعترى السامع، اذا فاته تتبع المعانى ، وادراك المرامى والغايات ·

١٢٤ — ومنطق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان خاليا من الفأفأة والتمتمة ، وكل عيوب الكلام ، فى صوت هادىء عميق ، يجمله الصدق، ويدخله فى مداخل النفس ، ويوجه الرشيد الى الحق · ونغمات صوته هادئة قوية فى صوت غير أجش ، ولا جفوة ، ولكن التقى فيه عمق النغم الفطرى ، بجمال الصوت ، وجهارته فى غير ضجيج ، ولا صخب ·

ولقد روى أن الحسن بن على أحد السبطين الكريمين قد سأل هند ابن أبى هالة ربيب النبى عليه الصلاة والسلام من خديجة أم المؤمنين وكان هند رجلا وصافا ، سأله حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : قلت صف لى منطقة ، قال : « كان رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، متواصل الأحزان ، دائم الفكر ليس له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (١) · ويتكلم بجوامع الكلم ، فضلا ، لا فضول فيه ، ولا تقصير ، دمثا ليس بالجافى ولا المهين يعظم النعمة وان دقت ، لا يذم شيئا ، لم يكن يذم ، ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه ، اذا تعرض أحد للحق بشىء، حتى ينتصر له ، اذا أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث اتصل

---

(١) السرد هو متابعة الكلام من غير تمهل ، بل على الولاء والاستعجال، فلا يعطى السمع فرصة تذوق الألفاظ والمعانى ·

(١) أى يستعمل جميع فمه عند الكلام ، فلا يتكلم بطرف اللسان ، بل يقبل على القول اقبال المهتم به ·

بها فضرب بابهامه اليمنى راحته اليسرى ، واذا غضب أعرض وأشاح ، واذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام » ٠

وانه مهما يقل الرواة فى بلاغة كلمه ، وفصاحة لفظه وجمال نطقه ، لا نصل الى حقيقة بلاغته ، فان المأثور الذى نقرؤه ، نجد فيه العلم المجتمع ، والعبارات التى يستطيبها كل مستمع ، يجد فيها نفاذ الالهام ، وتناسق الألفاظ ، وترى فيه الحكم ، وحسن المأخذ ، والجمع بين الأطراف فى لين ويسر من لفظ جاف ، ولا معنى مستخف ، بل كل الكلام فى معناه وخواطره ، ومآخذه ، يدخل الى القلوب ، فيجد مساكنه ، وان المستشهد بقوله يردده أمام العامة ، فيلقفونه ، وأمام الخاصة فيهضمونه ، يفهمه كل انسان مهما تكن طاقته ، لا يتخير غريبا لغرابته ولا لفظا لحلاوته ، ولكن كل ذلك يجىء فى رفق ، بل هى السليقة الكاملة تنطق ، والفصاحة الفطرية تتكلم ، وليس ذلك قولنا للمحبة فقط ، ولكن الحقيقة ٠

وحق علينا أن نقول مقالة الجاحظ بعد وصف كلامه ، وخشى على نفسه أن يقال انه انبعث من المحبة ، فقد قال ، ولعل من لم يتسع فى العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أننا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره ، كلا والذى حرم التزيد عند العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا الا من ضل سعيه ٠

كبرت كلمة من يقول اننا تجاوزنا الحد فى وصفنا لبلاغة خطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكمال تحديثه ، وبلوغه من البيان الانسانى أعلى مراتبه الذى لا يبلغ شأوه أحد ، بل هو الحق الذى لا امتراء فيه ، أننا لم نتجاوز الحد ، ولكن لم نبلغه ولم نصل اليه ٠

١٢٥ — وأنه من الحق علينا أن ننقل الى القارىء ما قاله القاضى عياض فى وصف فصاحة محمد عليه الصلاة والسلام وبلاغته ، فقد قال رضى الله تعالى عنه : « وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وايجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويبار بها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ٠٠٠ ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه ، وليس مع قريش والأنصار وأهل

الحجاز ، ونجد كلامه مع وطيفة الهندى وقطن بن حارثة العليمى والأشعث ابن قيس ، ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من أقيال حمير ، وملوك اليمن » (١) ٠

وان هذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يعلم كل لهجات العرب ، وقد أتاه ذلك من اقامته بمكة المكرمة التى كان يلتقى فيها بقبائل العرب ، فى موسم الحج ، مع حرص على تعرفها ، وذكاء مدرك لها ، وتحصيل واع لكل ما يسمع ، وحفظ لكل ما يجرى حوله ٠

ولقد ذكر بعض الرواة أنه كان يعرف ألفاظا كثيرة من الفارسـية ، والرومانية ، وان لذلك شاهدا من كتبه للرومان ، فقد جاء فى ذلك الكتـاب : « أسـلم تسلم ، والا فعليك اثم البريسيين » ، وهذا لفظ رومانى استعمل فى معناه الدقيق ، وهم العامة والزراع وغيرهم من الدهماء ٠

وان تعلمه لهجات العرب وفوارق لغاتهم يدل على أن الله تعـالى كان يعده لهذه الرسالة الالهية العامة ، ولقد ساق القاضى عياض شواهد من كتبه عليه الصلاة والسلام الى همذان ، ووائل بن حجر ، ووازنها بكلام قريش فى الصدقات ٠

ثم يقول القاضى عياض فى الشفاء :

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة ، وحكمه المأثورة ، فقد ألفت فيهـا الكتب ، ومنها ما لا يوازى فصاحة ، ولا يبارى بلاغة كقـوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ٠ وقوله : « الناس كأسنان المشط » ٠ « والمرء مع من أحب » ٠ « ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له » ، « الناس معادن » « وما هلك امرؤ عرف قدره » ٠ « والمستشار مؤتمن » ٠٠ « ورحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم » وقوله « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » وقوله : « ان أحبكم الى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألفـون ويؤلفون » ٠ وقوله : « ولعله كان لايتكلم بما لايعنيه ، ولا يبخل بما لايغنيه » وقوله : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها » ، ونهيه عن قيل ، وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال ، ومنع هات وهات ، وعقوق الأمهات ، ووأد البنات » وقوله : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » ، وخير الأمور أوسطها » ، وقوله : « أحبب حبيبك هونا

---

(١) الشفاء ص ٤٤١ ٠

ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما » وقوله : « الظلم ظلمات يوم القيامة » ، وقوله فى بعض دعائه : « اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهـــدى بها قلبى وتجمع بها أمرى ، وتلم بها شعثى ، وتصلح بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء ، اللهم انى أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشـــهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء » ٠ هذا ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته ، وخطبه ، وأدعيته ومخاطباته » (١) ٠

ولقد ذكر من بعد ذلك القاضى عياض عهوده عليه الصلاة والسلام التى كان يعاهد بها القبائل ، والهدنات التى يهادن بها ، فانها بلغت من احكام المواثيق، ودقة الشروط مالا يصل اليها تحرير كاتب ، ولا توثيق معاقد ، فانها بلغت مرتبة لا يقاس عليها ، ولا تحاكى ، وسبق فيها سبقا بعيدا لا يقدر قدره ٠

وذكر أن لمحمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) عبـــارات لم يسبق بها ، فقال رضى الله تعالى عنه ٠

وقد جمعت من كلماته التى لم يسبق اليها ، ولا قدر أحد أن يفرغ فى قالبه عليها ، كقوله : حمى الوطيس ، ومات حتف أنفه ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ٠ السعيد من وعظ بغيره » (٢) ٠

وهكذا يثبت القاضى عياض فصاحة الكلم النبوى ، والبلاغة المحمدية بما ساق من عبارات جامعة ، ومعان رائعة ، وألفاظ ينبثق منها النور ، وتضبط بها حقائق هذا الوجود ٠

١٢٦ ـــ وأننا ان تركنا أقوال الذين شاهدوا وعاينوا من صـــحابته والذين رووا المنقول فى سيرته ، وعمدنا الى الأحاديث المـــدونة الصـــادقة النسبة ، والتى رواها العدول طبقة بعد طبقة ، وأردنا أن نتعرف نسق بيانه من عباراتها ، ومحكم معانيها من ألفاظها ، لوجدنا من بعض ما يتبين فى ذلك النسق :

(ا) أن اللفظ يجىء سهلا ، نجد فيه الجمال الطبعى ، نجـــد الألفاظ متناسقة يأخذ بعضها بحجز بعض ، مع الايجاز ، واحكام المعنى ، والاتجاه

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٤٦

(٢) الكتاب المذكور ص ٤٦

الى مقصد القول ، وتصوره ، أحيانا بالحقيقة ، ويكون لها جمال كجمال الطبيعة ، اقرأ ان شئت قوله عليه الصلاة والسلام ، فى الدعوة الى القناعة ، والرضا بالقليل ، وعدم اللجاجة التى تؤدى · « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » وقوله فى الدعوة الى ضبط النفس : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وهكذا التعبير السهل العميق فى معناه يسرى فى كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل توجيهاته ، ولذلك سرعان ما تحفظ ، فهو كلام يقال ليحفظ ·

(ب) وان من خصائص البلاغة النبوية أنها لا تعلو على العقول الفطرية ، فهى تدركها فى أيسر كلفة مع جلال المعنى وعمقه وقوة نفوذه فى النفوس ، والخاصة يجدون فيه علم ما لم يعلموا ، انظر الى قوله عليه الصلاة والسلام فى بيان وحدة الأمة الاسلامية وما ينبغى لتعاونها : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » واقرأ قوله عليه الصلاة والسلام فى المعاهدات التى تعهد ، والنفوس على أحقادها ولا تستل منها سخائمها : « هدنة على دخن » فان كل انسان يفهم أن القلوب فاسدة ، وأن الصلح الظاهرى لا يصيب الأحقاد التى طويت عليها القلوب ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام فى فضل العمل ، وأن يكفى كل انسان مئونة نفسه ، ويستعد لمعونة غيره للاستعانة به « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقوله فى الأمر لا يختلف فيه : « ولا ينتطح فيه عنزان » وقوله عليه الصلاة والسلام فى توزيع خيرات الله تعالى فى أرض الله ، كل أرض بحصتها من الرزق : « كل أرض بسمائها » وقوله فى الرفق بالنساء وقد سار السائق يسوق رجالهن بعنف : « رويدك رفقا بالقوارير » ·

وان هذه التعابير جلها جديد فى العربية لم يسبق بها فى قول قائل ، وهى واضحة المعنى بينة المقصد ، لا تعلو على العامة ، ولا تجفو عنها آذان الخاصة ، بل كل الناس يجد فيها علما لم يكونوا به عالمين ·

(جـ) أن كلامه عليه الصلاة والسلام من جوامع الكلم ، فيه حكمة ، وفيه ألفاظ قليلة ومعان جديدة لم تكن معروفة · انظر الى قوله عليه الصلاة والسلام ، وقد سئل : أنحاسب على ما تنطق به ألسنتنا · فقد قال عليه الصلاة والسلام مجيبا ، « وهل يكب الناس على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم » وقوله فى صلة الرحم عند المنابذة والقطيعة : « ليس الواصل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » ، ومثل قوله : « رحم الله عبدا قال فغنم أو سكت فسلم » ·

(د) وانه من الظواهر العامة فى كلامه عليه الصلاة والسلام أنه يخاطب العقل والوجدان من غير استكراه للألفاظ أو تكلف فى المعانى ، بل كل ذلك يجرى سهلا طيبا قيما ، فيه ارشاد وتوجيه ، اقرأ قوله عليه الصلاة والسلام يدعو المؤمنين الى أن يكونوا ايجابيين فى أقوالهم وأفعالهم ، لا يتبعون من غير تفكير : « لا يكن أحدكم امعة يقول ان أحسن الناس أحسنت وان أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس تحسنوا ، وان أساءوا فتجنبوا الاساءة » ٠

(هـ) خلو كلامه عليه الصلاة والسلام من الصناعة البديعية ، فهو بديع فى ذاته من غير صناعة ، وقد يجىء أحيانا فى كلام الرسول بعض السجع ، ولكنه سجع غير مقصود ، بل هو من احكام القول ، فمثلا قوله عليه الصلاة والسلام : « رحم الله عبدا قال فغنم أو سكت فسلم » لا شك أن فيه سجعا ، أو ما يقرب منه ، ولكن التكلف غير موجود ، وان كل لفظ منه موضوع فى معناه ، لو أردت أن تغيره ما طاوعك المعنى ، فهل يمكن تغيير كلمة غنم مع ما فيها من ثروة فى المعانى بغيرها يؤدى مؤداها ، ويكون فى ايجازها ، ونسقها ، وكذلك الأمر اذا أردت استبدال سلم مع ما يرمى اليه من سلامة العرض واللسان عن لغوه ، وتوفير العقل ، والابتعاد عن لجاجة القول ، فهو عليه الصلاة والسلام ، لا يقول الا حكما ، ولا ينطق الا فضلا ، وتلك غاية قوله ، فان كانت حلية ، فهى الحلية التى لا تكلف فيها ، ولا استكراه فى نسقها ، أو محاولة الصناعة التى تغطى الكلام الفطرى ، وتغشاه بغواش من ضجيج الأوزان ٠

وان الجمال الفطرى فى القول ، والحسن اللفظى من غير تحسين ، بل السجع الذى يكون كسجع الحمام ٠ يأتى من غير اعمال ولا قصد اليه ، حتى فى بيان الحقائق الشرعية ، ودقيق المعانى الفقهية ، ففى بيان الشروط الباطلة المقترنة بالعقود ، وأساس البطلان فيها ، يقول عليه الصلاة والسلام : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ٠ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل ، وان كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله تعالى أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » ٠

الا ترى أنه كلام جميل جاء فى نسق محكم ، والحسن فيه باد من غير تحسين ، والجمال فيه بارز من غير تجميل ، وهو مع كل هذا فقه عميق ، يدرك مغزاه الفقهاء ، ويعرف معناه من لم يبلغوا فى الفقه شأوا ٠

وانه لواضح كل الوضوح أنه جاء عفو الخاطر ، ولم يكن باجهاد فكر ،

وتجميع ألفاظ ، وتنسيق كلمات ، انما كان المعنى الجيد القاصد فى اللفظ المحكم المصور الواضح ٠

(و) وانه أحيانا يجيء كلامه القصصى الذى يحكى قصة فى أسلوب تصويرى ، تنطق فيه حقائق القصة وأبواب العبرة فى كلام مرسل سهل ، يمكن القارىء أو السامع من أن يصل الى غايتها ، ويدرك معانى هدفها الصادق من غير اسراف فى اللفظ ، ولا نقص فى الأداء ، ولكن وفاء وكمال فى غير حشو ، ولا لغو ، واليك قصة أصحاب النار ، كما روى البخارى وغيره : « بينما ثلاثة نفر يمشون فأخذهم المطر ، فأووا الى غار فى جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم ٠ اللهم انه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم ، فاذا رحت عليهم حلبت فبدأت بوالدتى فسقيتها قبل بنى ، وانه نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب ، فقمت عند رءوسهما ، أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسق الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأخرج لنا منها فرجة نرى منها السماء ٠

ففرج الله منها فرجة ، فرأوا منها السماء ٠

وقال الآخر اللهم انه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت فأبت ، حتى آتيها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت لها مائة دينار فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجليها قالت يا عبد الله اتق الله ، ولا تفتح الخاتم الا بحقه ، فقمت عنها ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأخرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم ٠

وقال الثالث : اللهم انى كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز (١) ، فلما قضى ٠ قال أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقه ، فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه ،

---

(١) جاء فى القاموس المحيط الفرق بسكون الراء وفتحها وفتح الفاء ومكيال بالمدينة ثلاثة أو يسق ستة عشر رطلا ، وجمعه فرقان ، والخلاصة أنه وعاء لكيل الحب من ارز وغيره ٠

حتى جمعت منه بقرا ورعاءها ، فقال اتق الله تعالى ، ولا تظلمنى حقى ٠ قلت اذهب الى تلك البقر ورعائها ، فخذها ، فقال : أتهزأ بى ، اتق الله ولا تستهزىء بى ، فقلت انى لا أستهزىء بك خذ لك البقر ورعاءها ، فأخذه فذهب ٠

فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فرج لنا ما بقى ، ففرج الله ما بقى ٠

واننا نقف عند القصة الصادقة ، فانا نجد العبارات السهلة المستقيمة ، وبجوارها التصوير للأفعال التى تنبعث من القلوب ، ويقصد بها فاعلها وجه الله تعالى ، والحديث واضح فيه مع صدق القصة العبر والمعانى التى ذكرها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومنها يبرز :

أولا : ان الأعمال بالنيات ، وان الله تعالى لا يقبل الا الطيب من الأعمال، ولا يكون العمل طيبا الا اذا قصد به وجه الله ، وابتغاء ما عنده لا يريد جاها ، ولا شرفا ولا مالا ، انما يريد الله تعالى ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشىء ، لا يحبه الا لله » ٠

وثانيا : أن قدر الله تعالى يسير على نظـام محكم فى علمـه ، وبحكمة بالغة يقدرها ، وأنه سبحانه وتعالى ينزل الفرج ، لمن يتجه اليه ، وأنه يجيب دعوة المكروب ، لخير قدمه ، ولاخلاص قلبه ، وابتغاء ما عند ربه ، كما قال سبحانه وتعالى : : « **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** » :

ويدل ثالثا : علّى أن الله سبحانه وتعالى يجازى المؤمن الفعـال الذى يتجه فيها الى العمل الايجابى الذى ينفع الناس ، وخصوصا الأقربين ، كما رأيت فى الخير الذى قدمه الرجل الأول ، من احسان الى أبويه ، وتقديمهما على أولاده الصبية الصغار ، وتركهم يتضاغون ، ولا يزعج أبويه ، وان ذلك هو الايثار ، لأن الأولاد قطعة منه ، فتقديمها تقديم لنفسـه ، فتقديمهم أثرة ، وتقديم أبويه ايثار ، فهو ممن ينطبق عليه قول الله تعالى « **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** » ٠

ويدل رابعا : على أن الكف عن الشر بعد أن تتوافر دواعيـه وتهجم أسبابه هو من الأعمال الايجابية التى يثاب عليها المرء ، فالفضيلة ايجـابية ، وليست سلبية ٠

ويدل خامسا : على أن الوفاء بالحق فضيلة الاسلام ، وأنه ليس بقريب من الله من أكل حقوق غيره ، وأقرب الناس من أعطى كل ذى حق حقه ، وتدل

القصة فى ضمن ذلك على أن أجر العامل يجب أن يوفى ، وأن يعطى العامل أجره قبل أن يجف عرقه ، فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ٠

(ز) هذا وان احكام القول ليبلغ فى الأخلاق والمعاهدات التى عقدها النبى عليه الصلاة والسلام أعلى البلاغة ، فهو يعقد المعاهدات ، لا يترك فيها حقا الا سجله فى عبارات واضحة مانعة من الجهالة التى تفضى الى نزاع فى فهمها ، ولا يترك فيها واجبا عليه الا دونه فى عبارات صريحة لا التواء فيها ولا تحيف ، بل هى صريحة كاملة الشروط ، لأن مقاطع الحقوق عند الشروط ٠

ولو أن ساسة هذا العصر درسوا مخلصين وثائق المعاهدات التى أملاها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأرادوا متجهين الى الحق أن يحرروا معاهدات خالصة لوجه الحق ، لا يجدون ثروة يأخذون منها الا معاهدات النبى الأمى ، وسيكون لذلك فضل من الكلام عند التعرض لسياسته ان شاء الله سبحانه وتعالى ٠

٣ ـ الخلق الكامل

(ا) الرفق

١٢٧ ـ قال الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « **وانك لعلى خلق عظيم** » ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الامام أحمد فى مسنده : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ٠

وكمال الخلق لفظ قصير يتناول فى معناه كثيرا ، فهو يشمل حب الفضيلة والتمسك بها والقيام بحقها ، ويشمل حسن العشرة ولطف المودة ، ويشمل صلة الرحم والاحسان الى الجار القريب والبعيد ، ويشمل حب الناس والرفق بهم ، ويشمل التواضع ، وتوطىء الكنف لهم ، ويشمل البشر ، ولقاء الناس به ، ويشمل الأناة والحلم ، ومنع الجفوة ، ويشمل كظم النفس واجتناب الغيظ ، ويشمل الحياء واقراء السلام على من عرف ومن لم يعرف ، ويشمل الجود بما عنده ، والزهد فيما ليس عنده ، ويمنع الغلظ والفظاظة ، ويشمل العفو عن المسىء ، واقالة عثرته ، ويشمل الرد على المسىء بالاحسان ، ويشمل تخليص القلب من الاحن ، ويشمل الاعراض عن الجاهلية ، وترك

المهاترة ، والمماراة والمجادلة ، ويشمل التيسير ، وترك التعسير ، والتبشير ، دون التنفير ٠

وفى الجملة الخلق الحسن يشمل تهذيب النفس ، وتربية الوجدان ، والتآلف مع الناس ، والقرب اليهم ، وتوطىء الكنف لهم ، والتواضع ، والرفق بالضعفاء ، والقرب منهم ، والألم لآلامهم ، والسرور لسرورهم ، والاندماج فيهم من غير تأثر ، ولا تجانف لاثم ٠

وان الخلق الحسن يؤثر فى الدعوة الى الحق ، بما لا يؤثر البرهان وضروب الأقيسة ٠

وانه من أوصاف النبوة ، ولقد قال الله تعالى فى ثمرات الخلق المحمدى **« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين »** ٠

(ب) العفو :

١٢٨ — ولقد هيأ الله تعالى محمدا (صلى الله تعالى عليه وسلم) ليكون الهادى الى الحق ، والى صراط مستقيم ، فوهبه الخلق الكامل ، الذى يؤلف القلوب ، ويجمع النفوس ، الا من طغى واستكبر ، وآثر الهوى على الحق ، ، وكان قبل البعثة يحب العشير ، ويقرب الصديق ، ولا يعنت أحدا بعداوة ، بل كان الملاك الطاهر بينهم ، يعف عن قول الخنا وفعله ، ويبتعد عن الهوى وجموحه ، لا يعادى ، ولا يصخب ، ولا يفحش فى قول أو عمل ، وهو الصادق ، وهو الأمين ، وهو الذى يعين الكل ، ويغيث الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، يعفو عمن ظلمه الا أن يكون فى ذلك انتهاك لحرمة من حرمات الله ، أو اعتداء على فضيلة ٠

واذا كان المسيح عيسى ابن مريم قد كان خلقه السماحة يعفو عن المسىء كذلك خلق النبيين عامة ، وخلق محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ، وكان ذلك ايجابيا ، وليس سلبيا ، يفعل الخير ويجتنب الشر ، وكان التاجر السمح الصبور ، حتى انه يروى بعض القرشيين أنه بايع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بياعة قبل البعثة ، وبقى شىء لم يأخذه من محمد ، فانتظره النبى عليه الصلاة والسلام ثلاث ليال ، وكان يذهب فيقيم فى مكانه الذى غادره فيه ، حتى لا يضل فلا يهتدى اليه ، فيضيع حقه الثابت له ٠

ولقد امتدت هذه الأخلاق الى ما بعد النبوة ، فكانت دعامة الدعوة ، فسار بسنة العفو عن الاساءة ، والاعراض عن الجاهلية استجابة لقوله سبحانه وتعالى : « **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** » ، وقد كان ذلك الخلق يجذب الناس الى الايمان من غير دليل ولا برهان ، وان كان الحق واضحا فى ذاته ، وزاده وضوحا خلق النبى الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولنذكر واقعة كان العفو فيها داعية الاسلام ٠

تصدى غورث بن الحارث ليفتك برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نائم تحت شجرة قائلا ، والناس قائلون ، فلم ينتبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا وهو قائم ، والسيف مصلت على رأسه فى يد الرجل ، وهو يقول : من يمنعك منى ؟ ، فقال عليه الصلاة والسلام بقلب مؤمن ولسان صادق : « الله » ، فسقط السيف من يد الرجل ٠ فأخذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال : « من يمنعك منى » ، قال : كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه ٠ فدنا قلب الرجل بعد نفور ، وصار داعية لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن كان يريد قتله ، فقد ذهب الرجل الى قومه يحببهم فى محمد (عليه الصلاة والسلام) ودينه ، يقول : « جئتكم من عند خير الله » ، ولقد قال فى مجمل أخواله هند بن أبى هالة ، وهو ابن أم المؤمنين خديجة من غير النبى ٠

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يخزن لسانه ٠ الا بما يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوى عن احد منهم بشره ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يفعل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ، ولا يجوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده ، أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة (١) ٠

وقال هند هذا فى مجلسه : كان اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه من جالسه ، أو قاوله فى حاجة ، صابره ، حتى يكون هو المنصرف ٠ ومن سأله حاجة لم يرد الا بها أو بميسور القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، وصاروا عنده فى الحق سواء ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٦ س ٣٣ ٠

مجلسه مجلس حكم وحياء وصبر وأمانة ، لاترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تغشى فيه فلتاته ، متعادلين يتفاضلون بالتقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب (١) ٠

ويقول : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، يتغافل عما لا نشتهى ، ولا يوءس منه راجيه ولا يخيب فيه ٠ قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث ٠ كان لا يذم أحدا ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه ٠ اذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رءوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، ولا يتنازعون عنده ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته ، حتى ان أصحابه يستحلمونه فى المنطق (٢) اذا رأيتم طالب حاجة ، فارفدوه ، ولا يقبل الثناء الا من مكافىء ، ولا يقطع على أحد حديثه ، حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء أو قيام ٠٠ ويقول كان سكوته على أربع : الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر ، فأما تقديره ، ففى تسويته النظر والاستماع بين الناس ، وأما تفكره ، ففيما يبقى ويغنى ، وجمع له الحلم والصبر ، فكان لا يغضبه شىء ولا يستفزه ٠

(ج) اخلاقه خارقة للعادة :

١٢٩ — ولنقف وقفة فى تجزئة ذلك القول البليغ ، ودلالته على ما وراءه مما ينبغى أن تكون عليه أخلاق الداعى الى الحق ، وصاحب الرسالة التى حملها الله تعالى ، وأثر هذه فى الاجابة ٠

لقد قال بعض الكتاب معددا الخوارق التى صاحبت الدعوى المحمدية ، قال ان من أعظم الخوارق التى كانت لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أخلاقه ، فكانت فى ذاتها أمرا خارقا للعادة بين بنى الانسان ، فهى أعلى من

---

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٣ ٠

(٢) الكتاب المذكور ، وابن الحرم معناها الماه بها ، ولا يغشى فلتاته لا تستر ٠

أخلاق الملائكة ، لأن الملائكة حسنت أخلاقهم بمقتضى كونهم : « **لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** » وليس فيه روحانية عيسى عليه السلام المجردة بل كـانت فيه الروحانية الانســانية ، بما فى الانسان من مطالب الجسم ، وتجرد الروح ، فمحمد صلى الله عليه وسلم بين الناس الانسان الذى تتجلى فيه الانسانية الكاملة ، وفى طبعه روحانية ارادية ، فكل ما فيه من أخلاق للتربية والارادة ، دخل فى تكوينه ، فهو ليس حصورا ، ولكنه عفيف لم يتدل الى خنا قط ، ففضيلته كف للشر ، وتجنب له ، والعفة من حصـور ، ليست كالعفة ممن له شهوات تغالبه ، وأهواء تعانده ، وبمعركة بين القوتين تكون النصرة للعفة ، والغلب للفضيلة ، وما يكون الوصول اليه بغلاب يكون أعلى وأنفس ، مما يجىء رخيصا سهلا ٠

١ ــ وان من أول صفات محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذى ذكره ربيبه هند ، أنه يخزن لسانه ، أى يكون لسانه كأنه فى خزانة قد ستر لا يظهر الا لخير يرتجيه ٠ فلا يشجع على نفرة ، بل انه لا ينطق الا فيما يعنى الذين يخاطبهم ، ويفيـدهم ، ويكون فيـه تأليف لقلوبهم وتقريب لنفوسهم ، وتأنيس غريبهم ، ويأمر باعطاء ذى الحق ، ولا يتكلم فى مراء ، ولا يذم أحدا ولا يكثر فى قول ، خشية سقط اللسان ، لا يعيب الحرمات ، ولا يقطع عـلى أحد حديثه حتى يشبع نهمة القول ، فاذا تكلم هو كان كلامه فصـلا ، وكان قوله حكما ٠

وجملة القول فى ذلك أنه قد استولى على لسانه ، فلا يتكلم الا اذا لزم الكلام لرفع حق ، أو خفض باطل ، أو تأليف ، أو زرع مودة ، أو اسـداء معروف ، فلسانه ليس خارجا عـلى ارادته ، ولكنـه مكملها ، ويسير تحت سلطانها ، وارادته للحق ٠

٢ ــ والصفة الثانية من أخلاقه أنه يأتلف مع أصحابه ، ويمتزج احساسه الفاضل باحسـاسهم لينسـاب الى نفوسهم ، يكرم كريمهم ، ويرفـع خسيسه صغيرهم ، حتى يحس بأنه منه ، ويوزع محبتـه بينهم ، ويعطى نفسه لكل واحد منهم حتى انه يظن كل واحد منهم أنه موضع الرعاية منه ، واذا رأى أمرا حسنا أعلن حسنه ، وان رأى قبيحا نبه اليه فى رفق الهادى الأمين الذى يؤلف ، ولا ينفر ، ويقرب ، ولا يبعـد ، لا يسكت عن باطل ٠

وهو بينهم اليقظ الذى لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لا يطـوى نفسه لأحد على شر ، وينقذهم ، وكان حريصا يحذر من يتوهم منـه شرا ، ويحترس منه من غير تقطيب وجه ، أو غلظة فى قول ، بل هو فى كل أحواله ،

الأليف المألوف · يفتح قلبه لهم ، ليقول خيارهم ما تنطوى عليه نفوسهم ، ويستحيى غيرهم من أن يظهر خبيئة نفسه ، بل يبقى حبيسا لا يظهر ، وربما خبا فيزول ، ويستقيم أمره ، فان بعد الرذيلة عن النور والماء يذبلها ، بل يذهبها ·

٣ ـ والصفة الثالثة التواضع الكريم الذى لا ضعة فيه ولا ذلة ، فهو اذا دخل على جماعة جلس حيث ينتهى المجلس وحث أصحابه على ذلك ، ويتطامن لهم فى المجلس ؛ ويمسهم بجناح الرحمة ، ويسوى بينهم ، وبشره مستمر ، يلين جانبه لهم ، ويغض الطرف عما لا يحسن الا أن يكون فى السكوت ترك لواجب الارشاد ، وان أرشد ففى رفق يكتفى بالاشارة · فان لم يكف كان التعريض ، فان لم يكف كان التنبيه فى تعميم ، فاذا رأى بعض الناس يسىء ، لا يواجهه بالاساءة ، بل يقول ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ، ولا شك أنه اذا كان التوبيخ فيه معنى العموم كان ألطف ، وكان مع ذلك أفعل ، وأبلغ أثرا ·

ولا يمزح الا قليلا ، وان مزح فبعبارة فيها حكمة ، ولا تخلو من بيان كقوله لعمته صفية : « لا يدخل الجنة عجوز » فبكت ، فقال عليه الصلاة والسلام ، تكن « **كواعب أترابا** » ألا ترى فى هذا مداعبة لطيفة تخبر عن حال من أحوال الآخرة ·

٤ ـ الصفة الرابعة بعده عن الغلظة والجفوة ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا عياب ، ولا متتبع للعورات ولا صخاب ولا فحاش ، فلا يفحش فى القول ، وان كان صدقا ، فان النطق بهجر القول ، ولو كان وصفا صادقا لمن يرمى به ، فانه لا يصح النطق به الا اذا ترتب عليه ضياع حق أو نصر باطل ، فانه يذكر موضوعه ، ومن غير تخير للفاحش ·

٥ ـ الصفة الخامسة : الامتناع عن الذم امتناعا مطلقا ، الا أن يضطره الحق اضطرارا ، فانه يتكلم بالكناية ، ولا يرتضى للعبارة سترا ، وابعادا عن الفحش ، فلا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه ، وما يجلب خيرا للناس ·

٦ ـ والصفة السادسة : التى يدل عليها هذا الكلام من ذكر أخلاقه ، أنه عليه الصلاة والسلام كان يلتزم السكوت كما أشرنا ، ولكن ليس سكوت العى الحصر ، بل سكوت من يفكر فى القول قبل أن ينطق ، ومن يحذر من أن يشيع عنه ما لا يليق بمثله ، وهو يقدر ، وقد يكون سكوته حلما وعقلا ، واغضاء ، واعفاء عمن يكون فى **قوله سوء** ·

٧ ـ والصفة السابعة : أنه لا يغضب لشيء يتصل بذاته ، ولا يستفزه شيء يتعلق به ، بل لا يغضب الا لله أن تنتهك حرماته ، فاذا كان ذلك لا يسكت حتى يقام حد الله ٠

١٣٠ ـ هذا ما وصفه به هند بن أبى هالة ، وقد كان رجلا وصافا للرجال ، لا تفوته اللمحات ، ولا تختفى عليه النظرات ، وتنكشف دخائل النفوس من العبارات ، وقد لخصنا لك بعض ما تنبىء عنه الكلمات ٠

ولننقل بعضا من قول من عاشروه وخالطوه ، لتعرف كيف كان عشيرا وفيا ، وذا خلق هنىء ، لا جفوة ، ولا جفاء ٠

لقد روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة ، وهى التى عاشرته ، وهو يحمل أعباء الانسانية كلها ويخوض الحروب ويتنقل بين ميادينها ـ أنها قالت فى أخلاق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما ضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده خادما قط ، ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما خير بين شيئين الا كان أحبهما اليه أيسرهما الا أن يكون اثما ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى اليه ، حتى تنتهك حرمات الله ، فينتقم لله عز وجل ٠

ولقد وصف أبو هريرة صاحبه ، فقال :

كان يقبل جميعا ، ويدبر جميعا ، بأبى وأمى ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا ، ولا صخابا فى الأسواق ٠

وان هذا الوصف لذلك الصحابى الجليل ، ينبىء عما كان عليه الصلاة والسلام من معاملة للناس ، وقد وصفه فى هذا بثلاث صفات :

أولا : أنه فى لقائه يقبل بنفسه كلها على من يلقاه ، فلا يلقاه لقاء جانبيا أو يكلمه بطرف من لسانه ، أو يستقبل استقبال المستهين ، بل هو واضح فى اقباله ، كما هو واضح فى ادباره ، فان تركه لا يتركه الا بعد أن يتم حديثه ، وعندئذ يتركه ، فلا يبقى حديثا لم يستمع اليه ، ولم يستمع اليه وهو يولى مدبرا ٠

والصفة الثانية ـ أنه لم يكن يجبه الناس بفحش ، أو بخروج القول عن جادته ، وقد أشرنا الى هذا فى وصف ربيبه هند بن أبى هالة ٠

الصفة الثالثة ـ أنه لا يصخب ، ولا يغاضب ، ولا يجادل فى الأسواق ، بل كان كل شىء فيه على سمت حسن وجلال ٠

وقد أشرنا الى أنه عليه الصلاة والسلام كان كما يستفاد من وصف ربيبه له متواضعا أبلغ ما يكون التواضع ، ولقد خير عليه الصلاة والسلام بين أن يكون نبيا ملكا ، أو نبيـا عبدا ، فاختار أن يكون نبيـا عبدا ٠

هذا هو النبى صلى الله عليه وسلم الـذى بعثه الله تعـالى رحمـة للعالمين ، وقد بعثه فى قوم شمس ، فيهم عنجهية جاهلية وغطرسة نسبية ، يخير نبيهم المبعوث لهم بين جبروت الملك ، ورق العبد ، فيختار رق العبـد ، لأنه يريد أن يقرب من النفوس ، لا أن يعلو عليها ، فالرشاد يجىء من القريب منهم ، ويبتعد عمن يستعلى عليهم ٠

روى أبو أمامة رضى الله تعالى عنه قال : « خرج علينا رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متوكئا على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضا بعضا ، وقال : انما أنا عبد آكل ، كما يأكل العبـد ، وأجلس كما يجلس العبد » ٠

وقد جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض : وفى حديث عمر رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، انما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » ٠ وعـن أنس رضى الله عنه أن امرأة كان فى عقلها شىء ، جاءته ، فقالت : ان لى اليك حاجة ٠ قال صلى الله عليه وسلم « اجلسى يا أم فلان فى أى طرق المدينة شئت اجلس اليك ، حتى أقضى حاجتك » (١) ٠

ولقد كان رسول الله عليـه الصلاة والسـلام فى أهله موطأ الكنف ، يعين أهله فى مهنة البيت ، ولا يستنكف ، يغسل ثوبه ويحلب شاته ، ويرقـع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقل البعير ، ويعلف ناضحه ، ويأكل مع الخادم ، ويحمل بضاعته ٠

وكانت الأمة من اماء المدينة اذا احتاجت الى من يعينها من الرجال ، ولقيت رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسـلم أعانها فى حاجتها ، حتى تقضيها ، ثم ينصرف عنها موفورا غير منقوص ٠

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٧٦ ٠

هيبته :

١٣١ — ومع هذا التواضع الكريم غير الذليل ، كانت هيبته فى القلوب أشد ما تكون هيبة الرجل الذى اختاره الله تعالى رسولا للعالمين ، وما كان تواضعه الا لما يعلمه من فرط هيبته ، فيلطفها بذلك التواضع ، بل انهما نبعا من هيئة واحدة ، فهما متآخيتان ، بل انه لا يتواضع هذا التواضع من غير ان يتضع ، الا من يكون قويا فى نفسه ، لا يحس بانه ينزل الى المهانة فيما يفعل ، وفيما يدع ٠

ولقد وصف الواصفون مجلس النبى عليه الصلاة والسلام بين صحابته بما يدل على عظيم مهابته ، وقوة وقاره ، وسمته ، فقد كان مجلسه عليه الصلاة والسلام يحفه الوقار ، لا يتكلمون الا اذا اذن فى القول ، فاذا صمت صمتوا ، لا يخرجون عن قوله ، ولا يبعدون عن ارادته ٠ ولكن فى تواضع ، واطمئنان ٠

وقد كان أحيانا يحرص على أن ينزل ثم ينزل ليقرب منه الذين يحدثهم ، ويريد هدايتهم ، وأحيانا كان النساء يسترسلن فى القول فى مجلسه من غير أن يكون منه جفاف القول ، وهو قادر على اسكاتهم بنظراته ، ولكنه لا يرمضهن ، ولا يمنعهن ٠

وقد كان يرشد بعض النسوة ، فكن يتسابقن فى سؤاله ، فتصايحن عليه ، فدخل عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وهن يتصايحن فى تسابق الى السؤال ، فسكتن : فابتسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بدت سنه ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ، ما الذى أضحكك ؟ فقال الرسول الكريم الرءوف الرحيم : هؤلاء النسوة كن يتصايحن على ، فلما رأينك سكتن ، فقال عمر : أى عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ٠ فقالت احداهن : ولكنك أفظ وأغلظ ، فأسكتها الرسول ، وقال القوى المهيب ، نافيا الغلظة عن صاحبه : « لا ، ان الشيطان لا يسير فى فج يسير فيه عمر » ٠

ولم يكن عمر اشد هيبة من النبى بل النبى المهيب المحبوب ، ولكنه يتطامن ليصل الى القلوب ، وهو لا يترك هيبته ترهب ، ولكنها هيبته ما كانت الا لترشد ، فالارشاد غايته فى حاليه مهيبا ومتواضعا ٠

وان أخبار هيبته فى مبدأ البعث لها صور ووقائع ، ولكن ما كان عليه الصلاة والسلام يسلط هذه الهيبة التى تفرض صاحبها الا نادرا ، لتكون

استجابة الدعوة عن الاقتناع المجرد الذى لا يدخله رهبة ولا ترغيب الا ما يكون من رضا الله تعالى يوم القيامة ٠

ولكن ان كانت المواجهة بينه وبين زعماء الشرك وجها لوجه ، ورأى فيهم استهزاء مقيتا ، وانفرد بهم ، بين بأس الله تعالى عليهم ، وقوته وما وهبه الله تعالى من هيبة ربانية ، ولنذكر من ذلك واقعتين ٠

احداهما ــ أنه يروى عمرو بن العاص أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يطوف بالبيت ، والملأ من قريش جالسون فى فنائه ، فكلما مر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غمزوا بالقول ، فيبدو ذلك فى وجهه ، وكرروا ذلك حتى أتم الطواف سبعا ، ثم التفت اليهم ، ووقف وقال لهم فى قوة المؤمن ، وعزمة الصادق ، وهيبة القائل : يا معشر قريش شاهت الوجوه ، وأرغم الله هذه المعاطس ؛ لقد جئتكم بالذبح ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فراعهم قوله وأفزعهم ، فما كان منهم أحد الا كان يرفوه بأحسن القول ، ويقول اذهب أبا القاسم موفورا ٠ ما علمنا عليك شرا قط ٠

ولا شك أن الهيبة الانسانية التى منحها اياه رب العالمين كانت هى الفاصلة فى هذا ، وما كان للتهديد الذى ساقه عليه الصلاة والسلام له الأثر النفسى ، الا لصدوره عن مهيب قوى ٠

الثانية ــ أن أشد الناس طغيانا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو بن هشام الذى سماه التاريخ الاسلامى بحق أبا جهل فقد كان فاجرا ، لا شرف فى القول يقيده ، ولا خلق كريم يمنعه ، بل كان الحقد الدفين يدفعه ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام يصابره ليثير عطف الناس على الدعوة المحمدية ، يترك هذا الطاغوت فى اندفاعه الى الشر وصبره له ٠ ولقد كان لبعض العرب دين عليه ، فماطله ، ثم امتنع عن السداد أن يستعين ببعض زعماء مكة ممن هم على شاكلته ليستأدوه دينه ، فأحالوه تهكما ــ على محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم ــ فذهب اليه الرجل يستعين به ، فذهب النبى عليه الصلاة والسلام الى بيت أبى جهل الطاغية ، وطرق الباب ، فخرج اليه ، وفرائصه ترتعد ، من هول العزمة المحمدية ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام أد للرجل دينه ، فذل كبرياؤه كبرياء الجاهلية ، وأحضر المال وسدد الدين صاغرا ، وصار هو أضحوكة الجاهليين أشباهه ٠

وكان عليه الصلاة والسلام يخفف من جاش من تناله هيبته عليه الصلاة والسلام ٠ دخل عليه رجل ، فأصابته من هيبته عليه الصلاة والسلام رعدة

فقال عليه الصلاة والسلام : « هون عليك ، فانى لست بملك ، أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

وروى أبو هريرة : دخلت السوق مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاشترى سراويل ، وقال للوزان زن وارجح أى (أوف الميزان) ، فيثب التاجر الى يد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده ، وقال هذا ما يفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، انما أنا رجل منكم ، ثم أخذ السراويل . فذهبت لأحملها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله » .

وقليل من الناس من يلتقى فيه التواضع والهيبة ، وان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد وصل الى أسمى درجات الهيبة ، ونزل من التواضع الى درجة يقرب فيها من كل ذى حاجة وذى ضعف ، يأنس به الضعيف ويرجوه ذو الحاجة فى حاجته .

ان أكثر الذين يستكبرون . ممن يحسون بضعف فى نفوسهم ، ولا يجدون فى أنفسهم قدرة شخصية تفرض هيبتهم فيستعينون بالكبرياء وغمط الناس والتسامى عليهم ، ليعوضوا النقص ، ويخففوا الضعف ، أو يخلقوا هيبة صناعية : مصدرها مال ، ان ذهب فقد ذهبوا ، أو منصب يتعالون به اذا ألقوا عنه أصيبوا بالصغار والضياع ، أما ذو الشخصية المهيبة بتكوين الله تعالى ، وبما منحها الله تعالى من علم وفضيلة وقوة نفس . فانها لا تحتاج الى المهابة الصناعية والغطرسة والاستعلاء بها على الناس ، والاستهانة بهم ، واستصغار أمورهم .

والمهابة الفطرية التكوينية المستمدة من العلم والخلق والفضيلة هى والتواضع صنوان ينبعان من معين واحد ، فهما لا يفترقان ، لأن المهابة الفطرية ليست فى حاجة الى غذاء صناعى ، بل ان المهابة توجب التواضع ليكون التآلف والتكامل الجماعى .

العفو والتسامح :

١٣٢ — ينبعان من قلب سليم وخلق كريم ، ولقد قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها فى خلق النبى صلى الله عليه وسلم : « كان خلقه القرآن » ، فهو يأخذ بهديه . ويتبع منهاجه من غير عوج ، ولا التواء ، والله تعالى يأمره بقوله : « **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** »

واستمع الى قوله تعالى : « **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** » ٠

وقد هيأه الله تعالى قبل البعثة ، ليكون العفو عن هفوات النـــاس ، المتجاوز عن أخطائهم ، وان العفو والســماحة لا يسكنان الا قلبا خاليا من الأحقاد والأضغان ، ومن يعمل ليقود الخلق الى الحق لابد أن يكون نظـره الى ما هو أمامه ولا ينظر الى الوراء ، والأحقاد والاضغان ، ومحاسبة كل امرىء على ما كان منه ، انما هى تشد صاحبها الى الوراء ، فلا يكون تفكيره الى ما يجب عليه القيام به فى المستقبل ، بل يكون تفـكيره فى شفاء غيظ من أسقامه التى كانت فى الماضى ، ومن يأتى برسالة داعيا الى الحق ، لا يكون دبرى النفس يشغله الماضى عن الحاضر ، بل يكون عاملا للمستقبل ٠

محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) الذى أدبه ربه فأحسـن تأديبه ، والذى خلقه ليحمل أقــوى رسالة ، وأعظم هداية ، ربــاه ربــه على الصفح الجميل ، ليكون قلبه متجها دائما الى ما هيأه الله تعــالى له ، مـن حمل الدعوة الى الحق ، متفرغا لها ، فما كان من احن يضعها دبر أذنه ، وما كان من واجب تفرغ له ليبلغ الرسالة على أكمل وجه ، فلا يشغل نفسه حقد ، ولا تملؤها احن ، فحسك الصدور يشغل عن العمل ، ويفسد الصلات ، ويقرى بالعداوة ، ونبى الله تعالى فوق أن يشغله ضغن ٠

ولقد كان النبى عليه الصلاة والسلام كذلك قبل أن يبعثه الله تعــالى ، فلم يعلم فى تاريخ حياته أنه شغل نفسه بأحقاد الجاهلية وما كانت تبثه مـن عداوات ، بل انه فى آخر الرسالة يعلن الصفح الكامل ، فيقول فى قـوة ذى العزم من الرسل ، « ألا ان دم الجاهلية موضوع ، وأول دم أبدأ به دم عمى الحارث بن عبد المطلب » ٠

ولقد كان بعد البعثة حريصا على سد كل مسام الأحقاد والأضغان ، وذلك بمنع النميمة ، ولو كان ما ينقل صدقا ، فقد ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لا يبلغنى أحد عن أحد شيئا ، انى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر (١) » ٠

ولمحبته للعفو الكريم والصفح الكريم ما كان يوجه لوما على عمل عمل مادام يخص نفســه ، يقول أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعــالى

---

(١) البداية والنهاية ص ٦ ص ٣٨ ٠

عليــه وسلم : « والله ما قــال لى لشىء صنعته لم صنعت هكذا ، ولا لشىء لم أصنعه لم لم تصنع ·

ويقول ذلك العشير الذى خدمه فى السفر والحضر : « كان رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، أرسلنى لحاجة ، فقلت : ـ لا أذهب ـ وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخرجت حتى أمر على صبيان ، وهم يلعبون فى السوق : فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد قبض بقفاى من ورائى قال : فنظــرت اليه وهو يضحك ، فقال يا أنيس ، ذهبت حيث أمرتك · فقلت نعم أنا أذهب يارسول الله » ومضى أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وســلم الى حيث أمره أو طلب اليه من حاجة (١) ·

هذا خبر يبدو صغيرا فى مقام أخبــار النبوة المحمدية ، ولكنه كبير فى مغزاه ، وفى معناه ، وقد بدت السماحة وسماحة الأخلاق · أولا ـ فى أنه عفا وسامح خادمه وهو يعانده ، ويرد قوله ظاهرا ، فما لامه ، ولا عتب عليه ، ولا احتسبها عليه ، ولكنه تركه لتقديره ، وقبــل ألا يذهب الا مختــارا غير مأمور ·

وثانيا : تتبعــه ليعرف ماذا أجدى الصفح الجميل ، وعلاج شماس النفوس بالتسامح والتساهل ، والاخاء من غير اعنات ولا استكراه فى اغلاق واغضاب ، أو مغاضبة ·

وثالثا : لم يكتف بألا يغضب ، بل أنه يداعبه مع ذلك ، فيقبض عليه من قفــاه ، ثم يناديه مداعبــا ضاحكا يا أنيس ، يدلله بتصغيره ، وهــو الــذى عانده ، ورد ارادته ·

ثم يقول معلنا انتصار السماحة والعفو ، وعدم المؤاخذة على ظواهر الأفعال « ذهبت حيث أمرتك » هذا كمال النبوة وخلق النبى الذى يدعو النفوس الشاردة فيروضها على الحق ، ويؤنسها فى عفو وسماحة ، وصفح جميل ، بل ان الاشارة لا تعلو قط ، حتى تكون أمر ·

---

(١) الكتــاب المذكور ·

وقال أنس هذا « كنت أمشى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذ بردائه جبذا شديدا ، حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : « يا محمد مر لى من مال الله تعالى الذى عندك ، فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء » ٠

وان هذه السماحة ، وذلك العفو خلقه قبل البعثة ، وكان خلقه عندما اشتد الأذى ، فهو يعالج عنف قريش بالرفق فى القول ، ويعالج الايذاء بالصفح الجميل ، الذى لا يمن به ، ولكنه يهدى به من شاء الله تعالى ، ولو لم يكن العفو أساسا ، لطلب من الله تعالى كما قال تعالى عن نبيه نوح : **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ، ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا** » ولكن الله فضل بعض النبيين على بعض ، ولكل أمة رسول تكون أخلاقه على ما يكون سبيلا لهدايتها ولارشادها ٠

روى أنه لما كذبت قريش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالغت فى الأذى ، ولما لجأ الى ثقيف فى الطائف أغروا سفهاءهم ٠ أتاه جبريل عليه السلام فقال له : « ان الله تعالى قد سمع تحول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ــ فناداه ملك الجبال وسلم عليه ٠ وقال مرنى بما شئت ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (الجبلين اللذين يحيطان بمكة المكرمة) قال النبى السمح الكريم : « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » ٠

وذكر ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن يطيعك ، قال أؤخر عن أمتى ، لعل الله تعالى أن يتوب عليهم » ٠

وان سماحته عليه الصلاة والسلام وعفوه ليبدوان فى عفوه عمن عادوه وآذوه وقاتلوه ، ولم يتركوا بابا من أبواب الأذى والقتل والقتال الا سلكوه ، وما تركوا كيدا الا كادوه له ، ثم آل الأمر الى أن ينتصر عليهم نصرا مؤزرا ٠

عندما فتح الله تعالى له مكة المكرمة ، نادى الملأ من قريش ، ولم يفكر فيما كانوا يصنعون به وبأهل الايمان ان كان لهم النصر ، ولكنه فكر فيما ينبغى لمثله معهم ، وتطييب قلوبهم ، وازالة الأحقاد من نفوسهم ، فقد قال لهم فى ود رآه فى موضعه : ما تظنون أنى فاعل بكم ، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، ما نظن الا خيرا ، قال أقول لكم ما قاله أخى يوسف لأخوته : « **لا تثريب عليكم**

اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » اذهبو فأنتم الطلقاء ، وبذلك أنهى الأحقاد ، ووضعها دبر أذنه ليستقبلوا عهدا جديدا فى الاسلام ٠

ان الداعى بدعاية الحق ، يجب عليه أن يطهر نفسه من أمرين : أحدهما أدران التألم من الناس لأذى سبقوا به ، أو لحسك الصدور ، أو لفحش كان منهم ، فانه جاء لهدايتهم ، لا لمقابلة اساءة بمثلها ، ولا ليشغل نفسه بالنقمة بهم ، وان كانت حقا أو اخذ حق ، ولا علاج لذلك الا بأن يجعل نسيان الماضى ، والتسامح ، هو السبيل لهذا النسيان ، والعفو عما سلف من سيئات هو الذى يمكن الداعى من الخلاص الا من الحق ٠

ثانيهما : أن يبعد الأثرة عن نفسه ، فلا يفكر فى العمل لنفسه ، وذلك يقتضى الايثار ، والفناء فى دعوته التى يدعو اليها ، وان تطهيـر النفس من الأثرة ، انما يكون بتغليب ترك الحقوق اذا لم يكن فى تركها اقامة لباطل ، أو خفض لحق ، أو سكوت عن حق عام ، فالداعى ينسى حقوقه الشخصية ، بل يهملها من غير تهاون ، ولا يترك حقا عاما ، ولا أمرا من موجبات دعايته ، فان تساهل فى حقوقه ، فلكى يتفرغ بكله للحقوق العامة ٠

واذا كان ذلك ما ينبغى أن يكون عليه دعاة الحق ، والناصرين له من الناس ، فكيف يكون الشأن ممن هو رسول لرب العـــالمين ، انه ينسى حقوق نفسه ، فيعفو عنها ، ويذكر حقوق الناس ، فلا يفرط فى أى جزء منها ٠

ولقد قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فى وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « لم يكن فاحشا ، ولا متفحشا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » ٠

وفى الجملة ما كان يحمل الا الخير ، وينفى عن نفسه كل ما يثيرها على أحد ، فلا يكون منه الا النفع ، ولا يحمل نفسه عناء البغض والكراهة الا أن يكون لله ٠

حيـــــاؤه :

١٣٢ ــ الحياء صفة نفسية يظهر أثرها فى العمل على الا يفاجىء الشخص الناس بما ينفرهم ، أو بما لا يألفون ، لا يظهر منه ما يخالف الفضيلة ، فلا يعلن رذيلة ، ولا أمرا لا يتلقاه الناس بالقبول ، ويعمل على ارضاء النفس

الجماعية ما لم يكن اثما ، وهناك صفات تلتبس مع الحياء ، أو يبدو بـادى الرأى أنها تعارضه ٠

فقد ظن بعض الناس أن الحياء ضعف نفسى ، وأنه قد يكون السكوت فيه نوع من الرياء ، وذلك باطل ، لأن الحياء الحقيقى ليس ضعفا ، ولا ينشأ عن ضعف ، انما ينشأ عن الكمال ، لأن من عنده الحياء لا يحب أن يظهر منـه الا ما هو كامل فى ذاته ، وألا يظهر منه ما هو مرذول فى ذاته أو يعده النـاس مرذولا ، وذلك ليس ضعفا ، ولكنه نقاء وصفاء للمجتمع من أن ترنقه مظاهر الانخلاع من القيود الاجتماعية ، والتحلل من الروابط الانسانية التى تربط الآحاد ربطا نفسيا ٠

والشجاعة والحياء يتلاقيان ، بل ان تلاقيهما هو ذروة الكمال ، فـان قول الحق فى موضعه ، وفى وقته المناسب يتلاءم مع الحياء ، والسكوت عن النطق بالحق فى وقت الحاجة اليه ، لا يعد حياء ، بل انه استخذاء ، والحياء حماية للفضيلة ، وتضييق على الرذيلة من أن تظهر ، واذا كان للحياء أثر فى شجاعة قول الحق ، فانه يحمل القائل على الدعوة اليه فى رفق من غيـر عنف ، فيكون أجدى ، وأشد تثبيتا ، وأهدى سبيلا ، وان اقتضى الحق مجاهرة به تأخذ وصف القوة ، لا يمنعها الحياء ٠

ولا يظن أحد أن فى الحياء رياء ، انما الحياء ألا تنطق الا بالحق ، أو لا تغمطه ، أو تغمض العين على الباطل ، انما الحياء يمكن صاحبه من أن يسوس الحق سياسة المستمسك من غير هوادة الا أن تكون رفقا ٠

ولقد ذكر القاضى عياض فى الشفاء فى بيان الحيـاء : وأما الحيـاء والاغضاء ، فالحياء رقة تعترى وجه الانسان ، عند فعل يتوقع كراهيته ، أو ما يكون تركه خيرا من فعله ، والاغضاء التغافل عما يكره الانسـان بطبيعته ، وكان النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم أشد النـاس حياء ، وأكثرهم عـن العورات اغضاء ٠ قال الله تعـالى : « **ان ذلكم كان يؤذى النبى ، فيستحيى منكم** ٠٠ » الآية ٠٠٠ عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها » (١)٠

وان مظاهر حياء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تبدو فى عامة أحواله ، نذكر بعضا منها يدل على سائرها ٠

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٦٨ ٠

(١) أن بعض أصحابه كانوا لفرط كرمه يتناولون الطعام ، ثم يأخذون فى الحديث ، فكان هذا يؤذى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد يكون منه اضطراب فى بيته ، واقلاق لراحة أهله ، وضيق فى ذات نفسه ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستحيى من أن يأمرهم بالخروج ، أو يطلبه اليهم ، أو يشير به بأى نوع من أنواع الاشارة ، حتى تولى الله تعالى تعليم المؤمنين الأدب فى هذا المقام ، وأعفى رسوله من أن يخالف قانون حياته ، فقال تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم ، الى طعام غير ناظرين اناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم ، والله لا يستحيى من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا** » .

(ب) ومن مظاهر حيائه ، وعدم المجابهة من غير ضياع للحق ، أنه اذا كان قد بلغه عن أحد ما يكرهه ، لا يجابهه بأنه فعل ما يكره فى الشرع ، ولايجبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان يقول : « ما بال أقوام يصنعون كذا أو يقولون كذا .. فينهى عن العمل ويستنكره ولا يسمى فاعله .

وان ذلك فوق أنه مظهر من مظاهر الحياء ، فانه أولا يجعل النهى عاما ، والاستنكار شاملا لكل من يحتمل أن يقع منه هذا العمل ، وفوق ذلك ان ذلك التعميم على قبح الفعل فى ذاته من غير تعلقه بشخص بعينه ، فالاستنكار للفعل من غير نظر الى فاعله ، ومع كل هذا فان ذلك هو الحكمة ، لأن المجابهة للفعل فيه خزيه ، وقد يجر تكرار اللوم الى المجاهرة والاستمرار ، وان تكرار الخزى اعانة للشيطان ، كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقوم قالوا لمحدود فى شرب خمر ، أخزاك الله ، فقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تعينوا عليه الشيطان » .

(ج) ومن مظاهر حيائه صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن الفعل اذا كان يندر وقوعه ، فاذا وقع لا يجابه صاحبه بالنهى ، بل يحث أصحابه على أن ينبهوه ، دخل عليه مرة رجل عليه ثياب معصفرة زاهية تبهر الأنظار مما رأى أنه لا يليق أن يكون لبسة الكاملين ، فلم ينبهه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل بعد أن خرج أمر بعض صحابته أن ينبهه ، وقد دفع الى ذلك حياء النبى عليه الصلاة والسلام أولا — والرفق بالرجل من مرارة الاعلان ثانيا ، ومنعه من أن يقع عليه خزى ثالثا .

(د) ومن مظاهر حيائه ، ولطف مودته عليه الصلاة والسلام أنــه كان اذا لقى الرجل بوجه لا يتجه بصفحة وجهه الى جانب آخر ، حتى يكون محدثه هو الذى ينصرف عنه ·

روى أنس خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه كان اذا استقبل أحدا بوجه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه ·

وروى أنس أيضا أنه كان اذا صافح الرجل أو صافحه لا ينزع يده منه ، حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده ، واذا أراد رجل أن يسر اليه حديثـا فى أذنه ، فيحنى رأسه له ، ويستمر حانيا رأسه ، حتى يكون الرجل هو الذى ينحيه ·

وقد يقول قائل ما للاحياء والشمائل النبـوية التى من شأنها أن تسـهل دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه أدب شخصى ليس له صلة بالدعـاية أو تبليغ الرسالة ؟!!

ونقول ان خلق الداعى يجذب الى موضوع الدعـوة ، فلو كان الداعى فحاشا ، أو صخابا ، أو يغلب عليه أن يلوم وتقرع عباراته لنفر منه الناس ، وما استجاب له الا أهل الحق الصرف الذين لا يهمهم لون الدعوة ، بمقـدار ما يهمهم لبها ·

واذا كان الخلق الطيب يجـذب النفوس ، ويوجههـا نحو الحق ، فان الحياء أشد الأخـلاق اجتذابا للنفوس ، فان الحيـاء ، يجعل صاحبه لا يفجأ الناس بما لا يسرهم ، بل يجىء اليهم من جانب ما يألفون ، فلا تنفر النفوس ، ولا تنشعب عن الحق ، وان عنف الداعى ، وتفحش قوله يعوق دعوته ، ويكون استثقاله مؤديا الى رده ·

واذا كان مع الحياء لين فى الطبع من غير ضعف ، وقوة فى الحق وصل اليه فى مداخل سهلة لينة ، ولقد قال فى وصفه على بن أبى طالب كان أوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ·

ولقد كان لالتقاء الخلق الحسن اللطيف المعشر مع الحياء ، والاستمساك بالحق مزيجا من أخلاق كريمة ، جعله لا يتـرك التنبيه الى الحق فى رفق ، وجعله يصل الى ما يريد من ايغاله فى القلوب ·

ذكر بعض الذين أدركوه قصة تدل على جمع النبى عليه الصلاة والسلام بين لطف العشرة ، والحياء ، والتأديب اللطيف ·

قال ذلك العربى ، وهو ابن جبير : نزلت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مر الظهر ، فخرجت من جنانى ، فاذا نسوة يتحدثن ، فأعجبننى ، فرجعت ، فأخرجت حلة حبرة فلبستها ، ثم جلست اليهن ، وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قبته ، فقال يا أبا عبد الله ما يجلسك اليهن ، فهبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله ، جمل لى شرود أبتغى له قيدا ، قال فمضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبعته ، فألقى رداءه ٠٠٠٠ ودخل الأراك فقضى حاجته وتوضأ ، ثم جاء فقال يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد جملك ، ثم ارتحلنا ، فجعل لا يلحقنى فى منزل الا قال لى السلام عليك يا عبد الله : ما فعل شراد جملك ٠

فتعجلت الى المدينة ، فاجتنبت المسجد ، ومجالسة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلو المسجد ، فجعلت أصلى ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعض حجره ، فجاء صلى الله تعالى عليه وسلم ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جاء فجلس ، فطولت رجاء أن يذهب ، ويدعنى ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : طول يا أبا عبد الله ما شئت فلست بقائم حتى تنصرف ٠

فقلت والله لأعتذرت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأبردن صدره ، قال فانصرفت ، فقال السلام عليك يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد جملك ، فقلت يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما شرد ذلك منذ أسلمت ، فقال عليه الصلاة والسلام رحمك الله مرتين أو ثلاثا ، ثم أمسك عنى فلم يعد (١) ٠

انظر أيها القارىء الكريم للتأديب النبوى لأصحابه من غير أن يكون فحشا ، وفى حياء المؤمن ، وأدب الهدى المحمدى ، لقد لاحظ رجلا يرى جمعا من النسوة يعجبنه ، فيلبس أحسن ثيابه ، ويجلس اليهن ، فيسأله فيكذب ، فيراه يخطىء خطأين - أولهما - أن يخرق حجاب الحياء فيجلس فى مجلس النساء ، وذلك خدش لحيائهن ، وتهجم عليهن ، واختراق لحجاب الحياء فى ذات نفسه ، ثم يكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويلح النبى عليه ، ويلومه على ما كان منه ٠ بل انه يوهمه ابتداء أنه صدقه فى كذبه ، ويومىء من طرف خفى الى أنه لم يقل الحقيقة ٠ فيكرر له ما اعتذر به وقتا بعد آخر بأناة ، وذلك ليحمله على التوبة والاستغفار ، انه يريده على التوبة عن أصل ما ارتكب ثم عن الكذب ، فأخذ يكرر السؤال فى شبه مداعبة ، وهو

---

(١) الوفا بأخبار المصطفى لابن الجوزى ج ٣ ص ٤٤٩ ٠

يقصد اللوم ، انه ما انتهى من تكرار القول · وهو يعرف مداه من القلب ، حتى أقر بما ارتكب ، وبأنه قد كذب على الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والاقرار بالذنب أول أبواب التوبة ، وقد ندم على ما فعل بدليل تهربه من مواجهة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

جوده عليه الصلاة والسلام :

١٣٤ — الجود اذا لم يقصد به التفاخر ، كان بابا من أبواب الخير الذى يكون بالعطاء لذى الحاجة الذى لا يمتن فيه ولا يستكثر ، بل يبذل سدا لحاجة محتاج ، أو لاعانة مستعين ، أو ليتصدق يرجو ما عند الله تعالى ، لا يرجو من الناس جزاء ولا شكورا ، وهو بهذا خلق جماعى يربط المودة بين أحاد الجماعة · ولقد عد الحكماء أن الفضائل أربعة جعلوا منها الحكمة والشجاعة ، والعفة والسخاء ، فهو فضيلة عامة ، لا تصدر الا عمن يحس بحق الجماعة عليه ·

ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جوادا يعطى ما فى يده ولو كان فى حاجة اليه ، فهو علم المؤمنين أن يؤثروا على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ·

ولقد ذكر ابن عباس فقال : « كان أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون فى شهر رمضان ، وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » ·

فالجود صفة ملازمة له تعلو ولا تنزل ، تعلو فى رمضان ، ويسمو علوها فى العشر الأخيرة من رمضان عندما يذاكره جبريل القرآن ·

وقد كان الجواد خلقه قبل البعث ، كما استمر من بعد البعث ، اذ كل شىء فيه قد ازداد خيرا ، ولقد قالت له خديجة رضى الله عنها : « انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم » ·

وقد جاء فى كتاب الشفاء ، رد على هوازن سباياها ، وكانت ستة آلاف ، وأعطى اليه العباس من الذهب ما لم يطق حمله ، وحمل اليه تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها فقسمها ·

فكان من كرمه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يوزع كل ما يجىء اليه من غنائم ، ولا يبقى منها لنفسه شيئا ، الا ما يكفيه ·

وما كان يرد طالب حاجة فقط ، حتى كان يبلغ به الجود (أن يجود بالموجود كله) بل انه اذا لم يكن الموجود حمل عبء الدين ليسد الحاجات ٠ جاءه رجل يسأله حاجة ، فقال ما عندى شيء ، ولكن ابتع على ، فاذا جاءنا شيء قضيناه ٠ ولقد قال عمر رضى الله تعالى عنه ، وقد رأى محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتحمل ثمن البياعات ، ليؤديه اذا لم يكن معه ـ قال له : « ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه ، فكره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من صاحبه ووزيره عمر الفاروق ذلك ، لأنه لا يريد أن يحول أحد بينه وبين سجيته التى فطره الله تعالى عليها ، والتى جعلته فوق الكرماء والأجواد ٠

ولقد لاحظ ذلك أنصارى كان فى حضرة الرسول وصاحبه فقال : يارسول الله ، أنفق ولا تخش من ذى العرش اقلالا ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد اذ كـره ، وعرف البشر فى وجهه ، وقال بهذا أمرت ٠ وذكر الخبر الترمذى ٠

ولقد كان جوده من فرط اعتماده على الله تعالى مع اتخاذ الأسباب ، ولأنه يؤثر على نفسه ، ولأنه حمل نفسه سد حاجة أى محتاج ، فهو جود من قبيل تحمل الأعباء ، لا من قبيل السخاء المجرد ، لقد قال عليه الصلاة والسلام ، وصدق فعله قوله « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك عيالا فالى وعلى » ٠

فمال النـاس لأنفسهم الا ما يفـرض من زكوات عليهم ، وأما الـذين لا يستطيعون أن يعولوا أنفسهم ، فهم يكونون فى عياله ، وعليه وحده تحمل أعبائهم ، ذلك أن الفقراء عيال الله ، ويحملهم رسول الله ٠

يقول أنس بن مالك خادم رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم ٠ « كان رسول الله لا يدخر شيئا » ٠

وعن أبى هريرة أن رجلا جاء يسأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مع الرسول مال فاستلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وان جود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليزيد ، حتى انه يخلع ثيابه لمن يطلبها ، فقد روى الطبرانى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى صاحب بز ، فاشترى منه قميصا بأربعة دراهم ، فخرج وهو عليـه فاذا رجل من الأنصار ، يقول يا رسول الله اكسنى قميصا ، كساك الله تعالى من ثياب الجنة ، فنزع القميص فكساه اياه ، ثم رجع الى صاحب الحانوت ، فاشـترى منه قميصـا بأربعة دراهم ، وبقى معه درهمان ، فاذا بجارية فى الطـريق تبكى ، فقال ما يبكيك فقالت يا رسـول الله دفع الى أهلى درهمين

أشترى بهما دقيقا فهلكا ، فدفع اليها رسول الله الدرهمين الباقيين ثم انقلب ، فاذا هى تبكى ، فدعاها ، فقال لها ما يبكيك ، وقد أخذت الدرهمين · فقالت أخاف أن يضربونى فمشى معها الى أهلها ، فسلم فعرفوا صوته ··· ثم قالوا ما أشخصك بأبينا وأمنا ، فقال اشفقت هذه الجارية أن تضربوها ، فقال صاحبها هى حرة لوجه الله تعالى لمشاك معها ، فبشرهم رسول الله بالخير والجنة ·

ولقد كانت عشرة دراهم مباركة ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بركتها فقال : « لقد بارك الله تعالى فى العشرة كسا الله نبيه قميصا ، ورجلا من الأنصار قميصا ، وأعتق الله تعالى منها رقبة ، وأحمد الله هو الذى رزقنا بقدرته (١) ·

وكان عليه الصلاة والسلام ينفق ماله ، ويحرض الناس على الانفاق ، وكان فى كرمه كثير الاعتماد على الله تعالى فى رزقه ، فهو يقول لبلال « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش اقلالا » ويقول عليه الصلاة والسلام « ما من يوم يصبح الا وملكان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » ·

وان ذلك الكرم لم يكن بعد البعثة المحمدية ، بل كان قبلها · ويقول فى ذلك ابن كثير :

« ثم كان قبل البعثة ، وبعدها ، وقبل هجرته ملجأ الفقراء والأيتام ، والضعفاء والمساكين » ·

وهنا نقول ان جود محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ليس جود من يعرض عن المال فلا يطلبه ، أو جود من يجرد نفسه من أسباب الحياة ، فلا يترك المال اذا جاء ، بل يطلبه من أسبابه الحلال ، الطيبة التى لا خبث فيه قط ، ولكن ليمر على يده مرورا ، ليصل الى الضعفاء واليتامى والأرامل والمساكين ، فهو يعبر من يده الطاهرة الأمينة اليهم ·

لقد كان تاجرا يكسب من التجارة لنفسه ، ولزوجه الطاهرة الأمينة خديجة وتدر عليه الدر الوفير ، وكان يستخدم كل خبرته التجارية التى أفادها

---

(١) راجع البداية والنهاية ج ٦ ص ٦٥ ، وقد ذكر أن فى بعض رواته من يضعفه بعض الرواة ·

من بيئة مكة التجارية ، ولكنه ما كان يفعل ذلك لنفسه ولا لزوجة ، ولكن ليعطى هو وهى الفقراء والضعفاء كسبهما الطيب الذى لا خبث فيه ٠

لقد ذكر عن عيسى عليه السلام الزهادة فى المال ، وانه لم يعمل على كسبه ، بل تجرد منه ، ومحمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) فقد كان يعيش ويكسب ويتجر فى صدر حياته ليحصل على المال ، وينفق ما حصل عليه على الضعفاء ، فهو قد سخر نفسه عاملا ٠٠٠

وفى كل فضل ، ولكن زهادة محمد صلى الله عليه وسلم ايجابية ، اذ أنها تكسب المال من الكسب الطيب ، وذلك الكسب فيه نفع عام ، لأنه اما زرع يأكل منه الانسان ، واما عمل وكدح ينمى ثروة الجماعة ، واما نقل خيرات الأرض التى يفيض من اقليم الى اقليم آخر بالتجارة ، وفى ذلك نفع عميم ، ثم ان الكسب لا يبقى يد فى الجواد ، بل يفيض به على غيره ، فهى زهادة ايجابية كادحة عاملة ٠

الشفقة والرأفة والرحمة :

١٣٥ — وصف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بانه رءوف رحيم ، والرأفة والشفقة متقاربتان فى المؤدى ، وقد قال تعالى فى ذلك الوصف : « **لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ، وقال تعالى : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » ٠

ونحن فيما كتبنا من بحوث تتصل بهذا المقام قررنا أن الرحمة تكون آثارها عامة ، وقد أشار الى ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر من الحث على الرحمة ، فقال بعض أصحابه : « يارسول الله أكثرت من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذريتنا ٠ فقال عليه الصلاة والسلام « ما هذا أريد ، أنما أريد الرحمة بالكافة » ٠

والشفقة وأختها الرأفة تكون فى النواحى الخاصة ، والنبى عليه الصلاة والسلام كان فيه الرحمة بالكافة ، وكان فيه الرأفة الخاصة ما لم تتعارض الرحمة بالكافة ، وذلك يكون فى الرأفة بالآثمين الظالمين الذين يرتكبون ما يوجب حدا من حدود الله ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى : « **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** » ٠

وانه عليه الصلاة والسلام كان يعالج النفوس الشاردة بالرأفة التى تؤنس هذه النفوس ، فتقرب بعدها ، وتستأنس بعد جفوتها ٠

ويروى فى ذلك أن أعرابيا جاء يطلب منه شيئا ، فأعطاه ، ثم قال له أأحسنت اليك ، قال الأعرابى ولا أجملت ، فغضب الحاضرون من المسلمين ، وقاموا اليه ، فأشار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم أن كفوا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ودخل منزله ، وأرسل صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرجل ، وزاد شيئا ، ثم قال أأحسنت اليك ، قال نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا ، فقال عليه الصلاة والسلام : انك قلت ما قلت ، وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فان أحببت ، فقل ما قلت بين يدى ، حتى يذهب ما فى صدورهم عليك ، قال نعم ، فلما كان الغد أو العشى جاء فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى بذلك ، قال الأعرابى ، نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا ٠ فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى ، فانى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت اليه ، واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليهم ٠ وانى لو تركتكم ، حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » (١) ٠

ان ذلك الحديث ، ينبىء عن حكمة الدعوة والارشاد والهداية الى الحق يقرب الشارد ، ولا يعاقبه ، يدنيه الى الحق ، ولا يهلكه ، وانه يسوس النفوس ويتجه الى الجادة من غير عنف ٠

وفيه الشفقة الكاملة ، وأنها علاج النفوس ، وليس العنف علاجا ، ولكنه قمع فى غلظة ، وقد يؤدى الى الاصرار على الشر ، والامتناع عن الخروج عن دائرته ٠

وفى ذلك كمال التبليغ للرسالة الالهية ، وتعليم الراعى كيف يسوس الرعية ، ويأخذها الى مواطن الحق ، وحمايته ٠

وان شفقته الشخصية على المتصلين به لتبدو فى معاملته لأهله من أزواج وأقارب سواء أكانوا أقربين أم كانوا غير ذلك ممن لهم رحم موصولة ٠

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٧٢ ٠

ولقد امتنع عليه النوم عندما أسر عمه العباس بن عبد المطلب فى غـزوة بدر ، فكان يبكى لأنينه ، وهنا فى هذه القضية ، يبدو أمران يظهران متناقضين ـ **أولهما** ـ ألمه لأن عمه وحبيبه العباس قد أسر ، ويذوق مرارة الأسر يشـفق عليه ، ويشتد الأسى عليه ـ **وثانيهما** ـ العدالة المقررة الثابتة التى تسوى بين الناس فى النتائج ، اذا تسـاووا فى الأسـباب الموجبة لهذه النتائج المؤدية اليها ، وان الجمع بين دواعى الشفقة ، وموجبات العدل عسير على غير محمد (عليه الصلاة والسلام) ٠

وان الشفقة ودواعيها ، والحرص على الواجب والعـدل ، ليتجلى فى أمر زوج ابنته ، فانه كان أسيرا فى غزوة ، فلم يعفه من واجب الفداء ، ورفض أن يفك اساره الا بفداء ، فأرسلت زوجه زينب بنت محمد عليه الصلاة والسلام فترسل زوجه الى أبيها تفدى زوجها بحلية عندها كانت أهدتها اليها فى عرسها أمها خديجة أعز النساء على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، عندئذ التقت أمور كلها تؤثر فى القلب الشفيق فى الرجل العادل ، ففيه الشفقة على ابنته ، وفيه الذكرى ، لأوفى النساء له وأبرهن به ، وأحناهن عليه ، وأعزهن عنده ، وفيه ما يجب عليه من عدل غير مفرق بين أسير وأسير ، فهنا التكليف الشاق ، والاحسـاس القوى ، فمحمد يبكى من فرط ما جاش فى نفسـه من ذكرى ، وما يدعوه الواجب ، فيجمع أصحاب الحق فى الفداء ، وهم الغـزاة المجاهدون ، ويعرض عليهم النظر فى واجبه ، والرفق باحساسـه ، وما هو بالذى يفرض عليهم الرأى ٠

فيكون الرأى من أصحاب الحق فيه أن يعيدوا الحلية الى صاحبتها ٠

وهنا نجد محمدا عليه الصلاة والسلام يجمع بين شفقة الأبوة ، وذكرى الزوج البارة ، الحانية العطوف ، والواجب العادل الذى عليه أن يؤديه ٠

وان شفقته الأبوية التى لا تتعارض مع الواجب ، أو لا يعارضها واجب من العدالة ، والتسـوية بين النـاس لتبدو فى شفقته ، على ابن زينب ، وهو يحتضر ، فقد أرسلت الى أبيها نبى هذه الأمة ، ولكن الرجل الشفيق خشى من ضعف الشفقة أن يرى حفيده يحتضر ، فأرسل اليها عليه الصلاة والسـلام يقول لها « ان لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شىء عنده مسمى ، فلنحتسب لنعتبر ، ولكنها تصر على أن يحضر ، وتقسم عليه ، فقـام اليها النبى ، وقـام معه من بحضرته من صحابته ، فوضعه عليه الصـلاة والسـلام فى حجـره ، ونفسـه تخرج ، ففاضت عين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فقال له سعد ابن

أبى وقاص : « ما هذا يا رسـول الله ، قال الرسـول : هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء » ٠

ولقد كانت الشفقة مع القيـام بالواجب ، تتجلى فى موت ولده ابراهيم الذى وهبه الله تعالى على الكبر ، ثم اسـترد الوديعة ، فما رؤى رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى حزن الأبوة ، كما رؤى فى وفاة ابراهيم ، اذ بكى من عبء ما أصيب به ، وكان ثقيلا ، ولما رأى أسامة بن زيد محمدا صلى الله عليه وسلم يبكى صرخ ، فنهاه صلى الله عليه وسلم وقال له يا أسامة : « البكاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان » ٠

ولقد كان وهو يبكى يقول : « الموت حق ، وان القلب ليحزن ، والعـين لتدمع ، وانا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » وفى هذا اليوم كسفت الشمس ، فقال المحبون ، ان الشمس كسفت لابراهيم ، ولكن نبى العقيدة الصحيحة البعيدة عن الأوهام ، نسى حزنه ، أو غلب واجبه على حزنه ، كما هو شأنه دائما ٠ فوقف خطيبا ، وقال صلوات الله وسلامه عليه :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحـد ، ولا لحياة أحـد » ٠

وأم الناس ، وصلى بهم صلاة الكسوف ٠

وهكذا كان محمد بن عبد الله صـلى الله عليه وسـلم الشفيق الرفيق الودود المحب دائما ، ولكن عاطفته الانسانية لا تتغلب على واجبه ، بل الواجب أولى ، وأحرى بأن يؤثره على غيره ٠

وان شفقته تعم ، فتكون رحمة ، لا تختص بالآحـاد ، بل فهو أحيـانا يغضب ولا يغضب الا للحق ، ولكن قلبه التقى الخالى ٠ من كل سوء بالناس ، تغلب عليه الرحمة العامة دائما ، فيقول فى ضراعة لربه الرحيم :

« اللهم انى بشر من البشر ، أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل دعوت عليه ، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة ، وصلاة وطهورا ، وقربة تقربه اليك ، يـوم القيـامة ٠

وان مظاهر حياته كلها شفقة ، فامرأة فى عقلها شىء يقف معها فى جانب من الطريق يستمع الى حاجتها ، ويلقى فى قلبها الطمأنينة ٠

وجارية يضيع منها ثمن دقيق ، فيدفعه لها ، وتبكى خشية أن يضربها

مالكوها ، فيسير معها اليهم ليمنعهم من ضربها ، وأحد السبطين يركب علـى ظهره ، وهو ساجد ، فيطيل السجود ، حتى لا يزعجه ، ويستمر مرتحلا ظهـر جده الرءوف الرحيم ، حتى يتركه ٠

وكان يسمع بكاء الطفل وهو يصلى فيخفف فى صلاته ، ليكون بجـوار الطفل من يرحم بكاءه ، وهكذا ٠ وقد يقول قائل : ان شفقة النبى عليه الصلاة والسلام أمر ثابت ، وهل لهذه الشفقة صلة بالرسالة ، وولايته لأمر المؤمنين ٠

ان شفقة المسيح عليه السلام كانت لروحانيته ، وأنه لم يكن منشىء دولة ٠

ونقول في الاجابة عن ذلك : ان عيسى عليه السلام كان صاحب رسالة ، وكان من مقتضى هذه الرسالة أن يكون بالذين يدعوهم رءوفا ، فالشفقة مـن مقتضيات الرسالة والدعوة فان الدعوة من الشفيق الرفيق تكون مستجابة من القلوب الطيبة المؤمنة المطمئنة ؟ ان الرحمة هى التى تجذب الناس الى الداعى ، وليست القسوة ، ان النفوس التى تدعى الى الحق منها ما يفتح الله قلبـه للحق بقوة ايمان الداعى وشفقته ، واجتذابه اليه بالحق ، ومنهم من يحتاج الى البينات والأدلة ، وهؤلاء هم أهل البرهان والدليل ، ومع الأنبياء معجزاتهم ، ومنهم من يكون على قلوبهم غشاوة ، وهؤلاء يدعون بالبرهان والحق ، وتكرر الدعوة اليهم فان اعتدوا رد كيدهم فى نحرهم ٠

وان من مقتضى الولاية الشفقة ، ولقد دعا رسول الله صلى الله عليـه وسلم الولاة الرفق بالرعية ، ودعا لهم ان رفقوا بها ، وأشفقوا ولم يرمضوهم بقسوة أو ظلم أو استكراه ، أو اضعاف للنفوس ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام فى ذلك : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم ، فارفق به ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ٠

ولقد أدرك هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بهدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واتخاذه له قدوة فكان لا يولى الا من يشعر منه بأنه يكون فى ولايته شفيقا رحيمـا الا اذا وجب حـد ، فانه لا شـفقة ، والرحمة بالكافة تقتضى اقامته ٠

ولقد دخل على عمر رضى الله عنه رجل ، وكان عمر قد اعتزم أن يوليـه ولايـة ، فرأى عمر يقبـل بعض ولده ، فقال الرجـل أوتقبـل ولدك يا أمير المؤمنين ، قال نعم ، وأنت ألا تقبـل ولدك ، قـال : لا ، فقـال الفاروق ، وأنـا لا أوليـك ؛ من لم يرحم ولده لا يرحم رعيتـه ٠

صدقه وامانته وعفته « صلى الله عليه وسلم » :

ان حديث صدق الرسول عليه الصلاة والسلام يعد من نافلة القول فى هذا المقام ، وكذلك أمانته وعفته ، فهو الصادق الذى عرف بالصدق من منذ أن وعى الى أن قبضه الله تعالى اليه ، فما عرفت عليه كذبة قط فى حياته كلهـا صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وان الكذب لم يكن من أخلاق كبراء العرب ، فان الحـرية التى كانت لهم بمقتضى قيامهم فى بلاد لا يسيطر فيها طاغ يتحكم فى عقولهم ونفوسهم ، وألسنتهم وتفكيرهم ، ولم يكن عندهم الملق الذى يجعلهم يدهنون فى القول رجاء خير يبتغونه ، وانه حيث يحكم الملك العضوض ـ وتسيطر أهواء الحكام توجد صفتان متلازمتان ، احداهما النفاق ، وثانيتهما الكذب ، لأن النفاق فى ذاتـه كذب ، والكذب لازمة من لوازمه ، ولذا أثر عن النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم أنه قال : « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خـان » ولم يظهر فى العرب نفاق أو كذب الا ما كان يصاقب حواضر البـلاد التى يحكمها ملوك أو أمراء كالملوك أو حكام مستبدون بشكل عام ؛ كأراضى العرب التى كانت تجاور النعمان ، أو الغساسنة فى الشام ، فانه يجـوز أن يكون فيها النفاق والكذب والملق ، ووراءهما خيانة الأمانات ٠

وان التاريخ ليروى أن أبا سفيان ، وقد كان زعيم الشرك فى الوقت الذى جـرى فيه حديث بينه وبين هرقل ملك الروم عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد سأله عن نسـبه الكريم ، فقـال انه من أوسـطنا نسـبا ، وعمن يتبعونه ، وعن أسئلة كثيرة تتعلق بأخلاق النبى عليه الصلاة والسـلام ، أجابه بالصدق غير مائن فيما يقول ، ولقد قال ، وهو محنق من أثر الحقائق التى ذكرها لهرقل : « لولا أنى أخشى أن يحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت » ٠

فعرب مكة والمدينة ووسط الصحراء لم يكن الكذب سائغا بينهم ٠

وكذلك النفاق ، ولم يعرف النفاق فى أوساط المسلمين الذين استجابوا الا من اليهود ، ومن يجاورونهم من مشركى المدينة ، فقد ظهر فيهم النفـاق مقترنا بقوة المسلمين ٠

اذن لم يكن غريبا أن يكون محمد صلى الله تعالى عليه وسلم صـادقا بين الصادقين ٠

ولكن صدق محمد صلى الله عليه وسلم ليس كصدق غيره من أهل مكة المكرمة ومن حولها ، ولكنه صدق من أعده الله تعالى ليكون رسولا للعالمين ، فأخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم كانت من ارهاصات النبوة ، فلم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم صادق القول فقط ، بل كان صادق القول ، وصادق الحس ، وصادق النفس ، ونقصد بصدق الحس بأن يكون نظره الى الأشياء والأشخاص صادقا فى وصفها ، مستبطنا من وراء الظاهر ، ما يعرف حقائق استبطنتها ، ثم صادق فى النظر الى نفسه ، فيعرف مواضع الخير ، فيفعلها ، ويعرف مواضع الشر فيجتنبها ، وهو صادق فى مقاصده ، وصادق فى غاياته ، يخلص فى ادراك الحقائق ، والاتجاه اليها اتجاها مستقيما لاعوج فيه ، فيستقيم ادراكه ، ويصدق فى كل أمر يتصل بالقلب والضمير .

ولأن الايمان أساسه الاخلاص فى العمل والقول والاذعان ، لا يتصور ايمان مع كذب ، ولقد سئل من بعد نبوته ، أيكون المؤمن جبانا ، فقال عليه الصلاة والسلام يجوز ، وسئل أيكون بخيلا قال يكون بخيلا ، وسئل أيكون المؤمن كذابا : قال لا يكون المؤمن كذابا ، اذ الكذب والاخلاص فى الاتجاه والقول والعمل نقيضان لا يجتمعان . ،

وأما الأمانة فحسبنا أن نعلم أن ذلك أمر رأته قريش كلها ، وآمنت به ، حتى سمى بالأمين ، كان يعرف بالأمانة ، وينادى بالأمين ، وان الأمانة والصدق صنوان متلازمان ، فلا أمانة من غير صدق ، والصدق يقتضى كل الفضائل ، والكذب عش الرذائل .

وعفة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام كانت صيانة من الله تعالى صانه عن أن يلهو ، ولا يمكن أن تكون الشهوات وانحرافها ، الا ومعها اللهو بكل ضروبه ، وقد صانه الله لا عن الأهواء والشهوات المنحرفة ، بل صانه عن مقدماتها ، وعن أخذ أسبابها ، فصانه عن اللهو ولو كان بريئا .

وقد ذكرنا من قبل كيف انساق وهو غلام الى الرغبة فى أن يحضر عرسا فيه لهو ، فانه عندما ذهب اليه ضرب الله سبحانه وتعالى على ذاته بنعاس أصابه من غير غم ، وما استيقظ من نعاسه حتى أيقظته الشمس فى ضحاها ، وكذلك كان الأمر فى ليلة أخرى ، حين استوى عوده ، وكانت له ارادة مسيطرة على نفسه ، كان عزوفه عن اللهو بارادة مهدية مدركة ، ولم يكن بنوم يصيبه الله تعالى به ، ولذلك استعصم ، ولم يحدث منه قط ما يكون انسياقا وراء هوى جامح ، أو شهوة مسيطرة . حتى كان الزواج ، فكان الحلال الذى لا مرية فيه .

الوفاء ورعاية العهد :

١٣٦ — انه يستدل على سجايا الرجل بمقدار رعايته لمن كان لهم به صلة وممن كانوا معه على عشرة طيبة ، فيوفى بحق هذه العشرة ، يرعاها حق رعايتها ، يصلها ولا يقطعها ، يذكرها ولا ينكرها ، فالوفاء خلة الرجل الكريم ، وبمقدار وفائه يكون مقدار ما آتاه الله تعالى من خلق سمح ، ونفس مؤمنة بالخير ، معترفة به لأهله ٠

وان وفاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمن مضى من معاشريه يسترعى أنظار من قرأوا سيرته الطاهرة :

(أ) وأوضح مثل ، وفاؤه لأم المؤمنين خديجة ، يود صديقاتها ، ويصل صلاتها يذكرها بالخير والاعتراف بالجميل ، حيث جاء ذكرها ، حتى ان أم المؤمنين عائشة حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تقول : « ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، لما كنت أسمعه صلى الله تعالى عليه وسلم يذكرها ، وان كان ليذبح الشاة ، فيهذيها الى خلائلها ٠ استأذنت عليه أختها فارتاح اليها ودخلت عليه امرأة ، فبش لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال انها كانت تأتينا أيام خديجة » ٠

وان الوفاء لحسن العهد من الايمان ، وناهيك بأعظم من فى الوجود ، فلابد أنه كان أوفاهم ، ومما يتصل بوفائه لزوجه البارة خديجة أن عائشة من كثرة ثنائه عليها قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بدلك الله خيرا منها » فقال عليه الصلاة والسلام : الا والله ما أبدلنى خيرا منها ٠٠٠ آمنت بى اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » ٠

وكان لفرط وفائه كان اذا رأى أحدا من أولادها من غيره فاض عليه بالعطف والحنان ، اذ قد سمع صوت ابنها هالة قد جاء اليه ، فخرج اليه مناديا فى لهفة فرح : هالة ، هالة ٠٠ وأكرمه ، وبالغ فى اكرامه ٠

(ب) ومن أوضح وفائه عليه الصلاة والسلام وعرفانه للجميل ما روى عن أبى قتادة أنه لما جاء وفد النجاشى ملك الحبشة الذى آوى أهل الهجرة الى

الحبشة وأكرمهم ــ قام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه نكفيك يا رسول الله خدمتهم · فقال محمد صلى الله عليه وسلم الوفى العارف للجميل : « انهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأحب أن أكافئهم ·

نعم ان محمدا عليه الصلاة والسلام يجازى الاحسان بمثله ، والا ضاع العرف بين الناس ، وهو أسوتهم ·

(جـ) ومن كريم وفائه ، ولطف مودته وعدم نسيان من ارتبط معهم برباط من مودة وعشرة ، مهما يتباعد زمانها ، فان الكريم لا ينسى عشرة من عاشرهم ضعفوا أو علوا ، قدم عهدهم ، أو قرب ، وقد وجد أختا له من الرضاع اسمها الشيماء من سبايا هوازن ، فتعرفت له ، فلما عرفها بسط لها رداءه ، وقال لها ان أحببت أقمت عندى مكرمة محببة ، أو متعتك ورجعت الى قومك ، فاختارت قومها · فأرسلها ·

وعن عمرو بن السائب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان جالسا يوما ، فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه ، فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام صلى الله تعالى عليه وسلم فأجلسه بين يديه ·

(د) وانه ليوفى حتى لمن فرح بولادته ، فقد كانت جارية لأبى لهب قد أرضعت النبى عليه الصلاة والسلام فى أول ولادته ، وخرجت فبشرت أبا لهب بالولادة ، وأعتقها أبو لهب لهذه البشارة · فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يبعث اليها بصلة مستمرة موصولة ما كانت حية ، فلما ماتت سأل عمن بقى من ذوى قرابتها ، فقيل لا أحد ·

ولقد كان فى جملة أخلاقه أنه يصل رحمه ، ولو لم يكونوا له نصراء وأولياء ، فهو لا يصل رحمه مكافئا ، ولكن يصلهم راحما ، وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام قال عن بعض ذوى رحمه : « ليسوا لى بأولياء غير أن لهم رحما سأبلها ببلالها » (١) ·

---

(١) الشفاء جـ ١٨ ص ٧٤ ، ٧٥ ·

العـــابد

عبادته قبل البعثة :

١٣٧ — تحير ابراهيم عليـــه الصـلاة والســلام فى تعرف ربه الذى يستحق العبادة وحده ، ولا يشركه فى العبادة وثن ، ولا شجر ، ولا شىء مـن المخلوقات ، وحكى الله تعالى حيرته فى كتابه الكريم ، اذ حكى عنه أنه ابتداء أنكر أن تكون الأصنام آلهة ، واستنكر على أبيه عبادتها ، وقال تعالى فى قصته : « **واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال يا قوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** » ٠

ونرى من هذا أن الخليل عليه السلام ابتدأ فى الخروج من الضـلال الذى كان فى قومه ، فبين ان الوثن لا يصلح ربا لأنه لا يضر ولا ينفـع ، وقام لديه الدليل بازالة ما يعلق بها من أوهام ، فحطمها ، وتأكد بتحطيمها أنها لم تضره ، وأنها لا قوة فيها ، لا ظاهرة ، ولا باطنة ٠

ثم أخذ يختبر الآلهة التى كانت شائعة بين أقوامه ، فجاء الى النجوم ، وكان من سكان العراق الذين عرفهم ممن كان يعبد النجوم ، فاتجه الى النجوم يعرف سر كنهها عساه يجد قوة فيها تسوغ تألهها ، فوجدها تأفل ، فليس لها بقاء ذاتى مستمر ٠ ومثلها لا تصلح للألوهية ، ثم اتجـه الى القمـر باعتباره كوكبا كبيرا ، فوجده مثل سائر الكواكب ، ثم اتجه الى الشمس ، وكان المصريون يزعمون أن فيها آلهتهم ؛ وقد زار مصر ، ولكن وجدها لا تصلح للألوهية ، لأنها أفلت ، وهكذا نراه متحيرا ، حتى هداه ربه ، فكان أبا الأنبياء ، فمن ذريتـه الأنبياء الذين جاءوا بعـده ، وذكرهم القرآن الكريم ، ثم كانت الهداية بعـد الحيرة ، والاطمئنان واليقين ، بعد الشك المحير ٠

ونبينا محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) خطا خطـوة ابراهيم الأولى ، وهى انكار عبادة الأوثان فقد أنكرها ابتداء ، ولم يعترف لها بوجود ، فما سجد لصنم قط ، وما قدس صنما قط ، واذا استقسمه أحـد ، لا يقسم بها ، ولما أراد بحيرى الراهب أن يسحلفه باللات رده ، وقال انـه

يكره ذكرها ، وما كره ذكر شيء كما كره ذكرها ، فادرك محمد (عليه الصلاة والسلام) حفيد ابراهيم ما أدركه ابراهيم ، وعلم بالعقل السليم ، وفطرة الله تعالى ما علمه جده الأكبر ابراهيم ٠

ولكن الخطوات الأخرى التى خطاها ابراهيم فى معرفة ربه لم يخطها فلم يخط خطوة تعرف الله فى النجوم ولا فى الشمس ، بل وقف عند عبادة الله ، وادراك عظيم قدرة الله سبحانه ، واستحقاقه وحده للعبادة ٠

والسبب فى أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يخط الخطوات التى خطاها خليل الله ابراهيم ، أن ابراهيم رأى فعلا من عبد مع الأوثان الكواكب ، وعبد الشمس ، ولم يكن فى الأقوام الذين بعث فيهم من يذكرون الله كثيرا ، ولو على انحراف فى الاعتقاد ، أما العرب ، فكانوا يعرفون الله تعالى ببقايا ديانة ابراهيم ، وكانوا يذكرون الله فى الحج بغية ابراهيم فى العبادة ، فهم يعرفون الله على انحراف ، ولم يكونوا يجهلونه ، بل كانوا فى مناسك الحج يذكرون الله كثيرا ، فى تلبيتهم ووقوفهم فى مناسكه ، والضلال فى اشراكهم بالله ، بينما الظاهر من تاريخ الكلدان ، والمصريين ، أنهم ما كانوا يذكرون الله تعالى فى عبادة قط ، فلما نشأ محمد (عليه الصلاة والسلام) فى قوم يعرفون الله ويشركون معه فى العبادة أوثانهم ، ترك ما ابتدعوه ، وأنكره ، وبالغ فى انكاره ، وأبقى من بقايا ابراهيم الاعتراف بالله ، ثم كان ايمانه بربوبيته وحده ، واستحقاقه وحده للعبادة والألوهية ٠

وقد يقول قائل : « ان الله تعالى وصفه بأنه كان ضالا فهدى ، اذ قال تعالى : « **ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى** » فان هذا يدل على أنه كان ضالا فى العبادة ، ومن يعرف الله تعالى لا يضل فى عبادته ٠ ونقول فى الجواب عن ذلك : ان محمدا بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) كان يعرف الله تعالى ، ويؤمن به ، ويكفر بالأوثان ، وينكر أن تكون مستحقة لأى نوع من التقديس لها ، كما رأى جده الأكبر ابراهيم أنها لا تضر ولا تنفع ٠ ولكنه كان حائرا فى الطريقة التى يعبد الله تعالى بها ، فهو متجه باستقامة نفسه وقلبه الى الله تعالى ، وعبادته وحده ، ويريد أن يقوم بحق الله ، وكانت ديانة ابراهيم قد جهلت ، ولا يعرف من طريقتها الا قليلا ، فكان لابد من أن تصيبه حيرة ، حتى يهديه الله تعالى الى شيء مما بقى من دين ابراهيم ، وهذا هو مؤدى قوله تعالى : « **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا** » ٠

١٣٩ — وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ عابدا منذ أدرك سن التمييز ، فكان عقله فى الله تعالى يفكر كيف يعبده ، ثم يجـد فى التفكير فى خلق الله تعالى عباده ، واذا كان ابراهيم عليه السلام قد أراه الله تعـالى ملكوت السموات والأرض ليصل الى ادراك ربه ، فقد كان محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم منذ كان غلاما زكيا يرى فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر ، والنجوم المسخرات بين السماء والأرض عبادة ، لا ينظر الى السماء وأبراجها وزينتها ، والشمس وضحاها ، والليل اذا يغشاها ، لا ينظر الى كل ذلك على أنها مناظر جميلة ، وزينات باهرة ، بل ينظر فى دلالتهـا على الخالق ، ولا ينظر اليها متعرفا سر الاضاءة فى الشمس ، وانما يتعرف منهـا سر الدلالة على المنشىء ، والأرض والماء والزرع ، والشجر والثمار كل ذلك كان يستغرق تفكيره لا ليعلم كيف خلق ، ولكن ليعلم من الذى خلق ، وكلمـا أمعن بفكره تعرفا للخالق ، واستدلالا عليه ازداد ايمانا به ، وطلبا لرضوانه ، واطمئنانا لنفسه .

اتجه الى معرفة الخالق ، وما يرضيه عاكفا على ذلك عكوف العـابد فى صومعته ، لا يطلب الا ارضـاء ربه ، ولكنـه لم يعـلم ما يرضيه ، ولا ما يكون نسكا له الا ما توارثه العرب من حج البيت ومناسكه التى بقيت مـن عصر ابراهيم عليه السلام ، ونزهت نفسه وقلبه ولسانه ، حتى صـار ربانيا بفطرته المستقيمة وقلبه السليم .

وكانت كل أعماله لارضاء الله تعالى ، فهو يخالق الناس بخلق حسن ، لايكذب ، ويتصدق ويقدم للناس الخير ، لأنهم عيال الله ، وقد صار كل شىء فيه لله تعالى ، وقد صار قلبه المعلق بالله تعـالى الخاضع الخانع ، لا يرى فى الوجود الا الله تعالى ، ولا يحسب أنه الا القانت له ، الخاضع ، ولكنـه يجهل الشكل الـذى يرتضيه لعبـادته ، فصار كلمه لعبـادته ، قلبـا ولســانا وعملا وخلقـا .

وزهده فى الاختلاط كان يريه من الناس افكا من عبادة للأوثان ، ومـن خمر يعاقرونها ، وميسر يلعبونه ، وخصومات يفجرون فيها ، وشحناء ليست من شأنه ، ومجادلات ليست من غايته ، وشعر يتبعه الغاوون ، والكبر الأثيم الذى لا اثم فوقه ، تقديسهم للأحجار ، واتجاههم الى تقديسها بدل تقديس الديان ، كل هذا زهده فى الاختـلاط .

ولذلك كان محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) قبـل أن يبعث عزوفا عن أن يغشى مجالس قريش فى سمرها ، أو ما يزجون به فراغهم ، الا أن

يكون جدا يوجب الخلق الكريم مشاركتهم قيه ، كما شاركهم فى بناء الكعبة المكرمة ، وكما كان يحضر فى ندوتهم اذا جد الجد ، وكما حضر حلف الفضول ٠

والسبب فى عزوفه عنهم أنه يبتعد عن مواضع يعزب فيها عن ذكر الله ويبتعد عن التفكير فى ذاته تعالت عن الشبيه ، وتنزهت عن المثيل ، وأنه يريد أن ينصرف الفكر فيه ، والتفكر فى ذاته وارضائه ، خير من عبادة الحركات والمظاهر ، فكانت حياته كلها لله تعالى ٠

ما كان يخرج من خلوته الا لاسداء معروف ، أو اطعام مسكين ، أو اغاثة ملهوف ، أو لاقراء ضيف عز عليه اقراء ، وان ذلك كله عبادة ، لأنه ما يقصد الا وجه الله تعالى ، وارضاءه لله تعالى ، وأى عبادة أعلى من ذلك شأنا ٠

كل شىء فى الوجود يذكره بالله ، فكلما رأى الخلق كان منه ما يدل على الخالق ٠ كلما رأى النعم فى الوجود تذكر الخالق ٠

ولقد دعا بعد بعثته الى التفكر فى الله تعالى ، فكان يقول « تفكروا فى آلاء الله » أى فى نعمه » وحكى عن ربه أنه قال : « **كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ٠ فبى عرفونى** » ٠

ولقد كان محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) يعلن أن التفكر فى الله وآلائه وخلقه أساس العبادة ، وأنه لا عبادة من غير معرفة الله سبحانه وتعالى ، ولقد قال على بن أبى طالب صفى رسول الله ، وحبيبه المجتبى : « سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن سنته (أى طريقته) فقال المعرفة رأس مالى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة بالله كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلتى ، وقرة عينى فى الصلاة » ورويت زيادة وهى وثمرة فؤادى فى ذكره ، وعملى لأجل أمتى ، وشوقى الى ربى عز وجل » (١) ٠

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٨٦ ٠

١٤٠ ــ قد كان من أحوال محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) الاعتزال الا فى مكرمة تؤثر ، أو صلة رحم ، أو اغاثة ملهوف ، أو تحمل للكل ، فعندئذ يتصل بالناس لينفعهم ، ويتقرب منهم ولا ينقطع حتى وهو فى عزلته ، لأنه ما جاء لخيرهم فهى عزلة يسكن فيها الى الله تعالى خالق الناس ٠

وكلما كانت تتقدم به السن تزداد عزلته ، ويزداد تفكيره فى ارضاء الله تعالى ، وتعرف صفاته ، والوصول الى عمل ما يرضيه ، ويرى فيه ما تقر به عينه ، وتطمئن اليه نفسه ، ولا يريد غير الله ٠

وقد صارت العزلة خلوة يخلو فيها للعبادة ، فقد ذكر الرواة أنه كان يتحنث (أى يتعبد) فى غار حراء ، الليالى ذوات العدد ، واستمر يزداد فى الخلوة والعبادة ، وقال الرواة كان يتعبد شهرا كل عام ، حتى كانت البعثة ، وهو فى خلوته فى غار حراء ٠

وكان عليه الصلاة والسلام يتزود لذلك ، ويمكث فيه الشهر للعبادة ، وذكر الله تعالى ٠

وقد تكلم العلماء فى المنهاج الذى كان عليه الصلاة والسلام يتبعه فى عبادته ، أكان على شريعة من الشرائع السماوية السابقة ٠

جاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه :

اختلف العلماء فى تعبده (عليه الصلاة والسلام) قبل البعثة ، هل كان على شرع أم لا ، وما ذلك الشرع ، فقيل شرع نوح ، وقيل شرع ابراهيم ، وهو الأقوى ، وقيل موسى ، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به (١) ٠

هذا ما قاله ابن كثير ، وقبل أن نأخذه مأخذ التسليم مع تردد الأقوال بين نوح وابراهيم وموسى ننبه الى أمرين من الضرورى التنبيه اليهما فى هذا المقام :

أولهما ــ أن الثابت من سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ومن تقرير القرآن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وأنه

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٦ ٠

لم يكن على علـم بكتب الديانات القديمة ، فلم يعـرف التوراة ، ولا الانجيل ، وان كانت فيهما بشارات برسول يأتى من بعدهما اسمه أحمد ، ولم يكن بمكة المكرمة التى كانت محل اقامته مدارس للاهوت الموسوى أو المسيحى ·

ولما ذكر القرآن أخبار اليهود والأنبياء السابقين قالوا يعلمه بشر هو شخص رومى ، فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى : « **ولقـد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين** » وبذلك يثبت أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن على علم بالشرائع السابقة ، وذلك هو الحق ، وهو يتفق مع اعجاز القرآن فى أنه أتى بالصادق من أخبار السابقين بوحى من الله تعالى ، اذ لم يكن عنده علم بها ·

ثانيهما ـ أنه كان بمكة المكرمة نفر قليل أنكروا عبـادة الأوثان ، ولم يعبدوها ، وسموا حنفاء ، وقالوا انهم كانوا يتعبدون على بقـايا من ديانة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولذلك سموا حنفاء · وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتحنف فى غار حراء ـ بدل يتحنث ـ وانا نسوق ذلك لبيـان أنه كانت هناك بقايا من ديانة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فقد بقى منهـا بيقين بقية فى الحج وبقاء جزء ، قد ينبىء عن امكان تعرف ما جهل ·

وانا لذلك نقرر أنه عرفت عقيدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وربما تعرفت بعض الشرائع التفصيلية عنده من أركان الصلاة ونحوها · وانا مع تقديرنا لهذا نرجح أن عبادة النبى عليه الصلاة والسلام كانت بالهام من الله تعالى من غير وحى ، وقد كان دائم التفكير دائم الخشـوع دائم التأمل فى الكون ، فهو ابتدأ بالعبادة الفكرية ، وربما عـرف بعضا من صلاة ابراهيم ، كما عرفت بعض مناسكه ·

هذا وان محمدا (عليه الصلاة والسلام) كانت رؤياه صادقة كل الصدق، فقد قال عليه الصلاة والسلام ان أول الوحى كان بالرؤيا الصادقة ، فكان اذا رأى رؤيا جاءت مثل فلق الصبح ، أى أنها تكون واضـحة ، فلعله فى وسـط تعرفه لصلاة ابراهيم جاءته رؤيا بها مثل فلق الصبح ·

ومهما يكن من الروايات ، فان الثابت المؤكد ، أنه كان يتحنف فى غار حراء الليالى ذوات العدد ، وكان يتزود بالزاد لخلوته هذه ، وكانت الالهامات تفيض عليه فى المدة التى كانت قبـل البعثة ، وأنه كان يرى الرؤيا مثـل فلق الصبح ، وأنه منـذ بلغ سـن ادراك المعـانى الدينية كان دائم التفكير والتدبر لمعرفة الله تعالى ومحاولة رضائه ، ونرجح بهـذا أنه كان يتعبـد على ديانة

ابراهيم ، وأنه وصل الى بعض أجزائها بالالهام وبالرؤيا الصادقة وبالتعرف ، وانا نستبعد كل الاستبعاد أنه أخذ من التوراة والانجيل ، فما كان له علم بهما ٠

عبــادته بعــد البعثة :

١٤١ ـــ هذه صورة صادقة أو مقربة من عبادته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، وهى تدل على أنه كان قواما لله تعالى طالبا مرضاته ، واذا كان لم يعرف شريعة ابراهيم على وجه الكمال ، فقد عرف ما يكفيه لأن يكون عابدا يطلب رضا الله تعالى ، وقد صفت نفسه فأدركت ، وخلص قلبه فألهم ٠ وعلم أن ملة ابراهيم كانت الفطرة المستقيمة والحنيفية السمحة ، فاختارها ، وسلك سبيلها ٠

فالعبادة المتجهة الى الله تعالى كانت فى قلبه ونفسه ، وكيانه وخلقه ، قبل أن ينزل عليه كتاب هاد ، قد أذهب حيرته ، ووجد الكتاب ينير له السبيل ، ويفصل الأحكام ، ولا شك انها تكون أهدى بعد هذا التنزيل ، وان العبــادة فى الجاهلية قبل البعثة كانت فى قلبه بذرة صالحة نمت لأنها كانت فى أرض طاهرة خصبة ، ولم يكن لها سقى ولا رعى ، ومع ذلك آتت أكلها ، فبعد البعثة المحمــدية جاءها الســقى والرعى فأربت ونمت ، وازدهرت فى قلب مخلص مدرك ، وصار قريبا من الله تعــالى بقلبه الطيب المخلص ، وبمعــرفة شرعه تعالى ، وباتصال الوحى به دوما من غير انقطاع ، فكان بذلك أعبد خلق الله تعالى ، وكلما ازداد علما بالله وشرعه ، ازداد عبادة ، وخوفا من الله ، وارضاء له ، ولقد روى أبو ذر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « انى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تســمعون ، أطئت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربعة أصابع الا وملك واضع جبهته ســـاجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا » ٠ رواه الترمذى ٠

ولقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها عن عبــادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت الصديقة بنت الصديق : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصوم ، حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم ، وكان لا تشاء تراه من الليل قائما الا رأيته ، ولا تشــاء تراه نائما الا رأيتــه » ، وقــد روى فى الصحيحين البخـــارى ومســلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه ، فقيل له : أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال عليه الصلاة والسلام : أفــلا أكون عبدا شكورا » ٠ ولقد ثبت فى الصحيحين عن أبى الدرداء أنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى شهر رمضان فى حر شديد ،

وما فينا صائم الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعبد الله بن رواحة ٠
وفى الصحيحين أيضا عن علقمة قال : سألت عائشة هل كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخص شيئا من الأيام ، قالت : لا ، وكان عمله ديمة وأيكم يستطيع ما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يستطيعه ٠

ومعنى الديمة فى الحديث أنه يحب الدوام على العبادة ، ولا يحب الانقطاع عنها ، وكان هو يستديم العبادة ، ولو كان فيها ما يشق ، ولكنه لا يطلب من المؤمنين الا الاستدامة فى العبادة ، وان قلت ، ولذا يقول عليه الصلاة والسلام : « أحب الأعمال الى الله أدومها ، وان قل » ٠

وذلك لأن استدامة العبادة ولو قليلة يجعل المؤمن فى ذكر دائم لله تعالى، لا يغيب عنه سبحانه ، فهو فى قلبه دائما ، ويتحقق فيه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الله تعالى يحب الديمة من الأعمال » ٠

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو المؤمنين الى التخفيف من الصلاة ، والقراءة ، وأن يصلوا بصلاة أضعفهم ، حتى لا يكون فى الصلاة ارهاق ، ورأى بعض أصحابه يصلى بالناس فأطال القراءة ، مما شق على الناس ، فقال : « فتان أنت » لأن التطويل يؤدى الى فتنة من لا طاقة لهم على الاطالة ٠

ولكنه عليه الصلاة والسلام فى قيامه الليل كان يختار لنفسه الأشق ، لأنه عليه الصلاة والسلام يطيق ما لا يطيقه عامة المؤمنين ، فيختار لهم ما لا يشق عليهم ، ولقد قال عوف بن مالك : « كنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاستاك ، ثم توضأ ، ثم قام يصلى ، فقمت معه ، فاستفتح بالبقرة ، فلا يمر بآية رحمة ، الا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب الا وقف فتعوذ ، ثم ركع ، فمكث بقدر قيامه ، يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت ، والكبرياء والعظمة ، ثم سجد ، وقال مثل ذلك » (١) ٠

وهكذا نرى عبادته عليه الصلاة والسلام فيها ذكر دائم ، وتلاوة للقرآن دائمة ، وكان يحرض أصحابه على أن يقرأوا وهو يسمع ، فاذا ذكروه بأن القرآن نزل على قلبه ، قال لهم انه يحب أن يسمعه من غيره ٠

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٨٥ ٠

ومع دوامه على العبادة التى وصفها القرآن ، ودعا اليها ، وبينها عليه الصلاة والسلام ، كان اذا سكت عن القيام بصلاة ، أو ارشاد عام ، دائم التفكير فى آلاء الله ، والتأمل فى خلقه ، ليدرك عظمته ، وكمال سلطانه ، فلم ينقطع عن عبادة التفكير التى ابتدأ بها قبل أن يوحى اليه ، ولقد قال هند ابن أبى هالة ابن خديجة : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة » وكان كثير الاستغفار ، لأن الاستغفار عبادة فى ذاته ، لأنه احساس بوجوب الالتجاء الى الله ، وفيه احساس بقصور ما يؤدى العابد من العبادة ، واستصغار العمل احساس بالحاجة الى الله والقرب منه ، وعظمته ، وجلاله ، وشعور بأن عمله مهما يكن كبيرا صغير بالنسبة لله تعالى ، ومن يستكثر حسناته ، كأنه يمن على الله تعالى فى هذه العبادة ، وان الشعور بالاستغفار والالتجاء اليه بعد عن المن ، وان الصوفية يمقتون الاستكثار ولو من الطائعين ، ومنهم من يفضل المعصية التى تحدث ذلا وطلبا للاستغفار على الطاعة التى يصحبها الاستكثار ، ويقول حكيمهم : « ان معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا » ويقول أيضا فى هذا المعنى : « ان معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت دلا وافتخارا » ٠

ولقد كان سيد العابدين يحصن عبادته بالاستغفار ، حتى لا يكون منه من الاستكثار ، صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

الزاهـــد

قبل البعثـــة :

١٤٢ ــــ نشأ محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) يتيما فقيرا ، واجه الحياة بيتمه وفقره ، ماتت أمه بالأبواء ، بعد أن ولد يتيما من أبيه فأودع جده عبد المطلب فكفله بالرعاية ، ولم يكن فى سن من يتحمل التبعة ، ويقدر لمستقبله وان كان يحس بالفقر ، واذا كان جده قد كلأه ، وكفاه حاجته ، وأغدق عليه بما يستطيع من خير ، وأفاض عليه بمحبته التى تغذى عاطفته ، ويجعله يعيش موادا غير مباغض ، ولكنه عاش معه أمدا قصيرا ، اذ توفى بعد سنتين من كفالته ٠

وبعد ذلك أخذ يواجه الحياة مع ضعف الصغر ، ومع الفقر المعجز ، ذلك أن عمه أبا طالب الذى آلت اليه كفالته كان ذا عيال ، وكان مقترا عليه فى رزقه ، وان هذا الغلام الذى يعلو عقله على سنه ، واحساسه قوى يدرك

ما حوله قد أدرك ما عليه حال عمه كافله ورفيقه وحبيبه ، الذى أفاض عليه بمحبة غذت نفسه ، فكان لابد أن يعمل عملا ان لم يغنه عن عمه ، فانه يعينه الى حد •

اتجه ابتداء الى رعى الغنم الذى تعوده وراه وهو فى بنى سعد ، فرعى الغنم لبعض أهل مكة على أجرة يأخذها من لبنها ، قراريط معلومة كخمس ما قدر أو نحو ذلك ، وبها يستعين ويعين •

ثم كان من بعد ذلك يتجر فى قليل من المـــال ، أو فى مال غيـــره حتى اشتهرت أمانته ، ثم اتجر فى مال خديجة ، وضاعفت له الأجر لما اشتهر به من أمانة وصدق ، ولأن الربح تضاعف على يديه •

ثم كان الزواج ، وكان المال الوفير ، ولكنه لم يكن جماعا للمال كانزا له ، فلم يعرف أنه تكونت له ثروة قط تقدر رأس مال ، بل كان ينفق ما يدخـــر فى أوجه الخير ، من صلة رحم ، واعانة محتاج ، واغاثة ملهوف ، ومشاركة لذوى الحاجات فى شدائدهم ومعاونتهم على نوائب الدهر •

وبذلك يضرب محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) الأمثال فى الزهد الايجابى ، وليس الزهد السلبى الذى هو زهد المحرومين ، بل زهده هـــو زهد القادرين الذين يتخذون أسباب الكسب الطيب ، ثم يزهدون فى ادخـــار المال الا لحاجة بعد جمعه • وبذلك سار قبل البعثة ، على ما بعثه الله تعالى من بعد ذلك بالنسبة للمال •

وبذلك نرى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) لا ينسى العمل الصالح فى طلب الرزق الحلال وفيرا ، ولكنه لا يلهو به ولا يلعب ، ولا يكنز الذهب والفضة ، ولا يتفاخر بالخيل المسومة والأنعام والحرث ، ولكنه ينفقها فى مصارفها من غير عبث ولا استعلاء ، ولا تكاثر •

واذا قيل انه لم تعرف له أبواب النفقات فى حياته قبل البعثة نجيب عن ذلك بأن الكريم ينفق سرا ، ولا ينفق علنا ، وان ذلك القدر المجمل عرف من ناحيتين : ــ احداهما ــ قول خديجة أم المؤمنين فى خطابها له مطمئنة : « انك تحمل الكل وتقرى الضعيف ، وتعين على نوائب الدهر ، وتغيث الملهوف » وحسبنا ذلك لبيان هذا الاجمال •

الثـــانية ــ انه لم يعرف له مدخـــر قط مع الاستقامة ، والبعـــد عن الزخارف ، مع كثـــرة الكسب ، وما يدر عليه من مال خديجة أجـــرا له على استغلاله فى التجارة •

وانه بهذا يتبين أن زهده قبل البعثة هو زهده من بعدها ، طلب الكسب الحلال ، لا ليدخر ويستكثر ، بل لينفق منه فى مكارم الأخلاق ، واعانة الضعفاء ، فهو يطلب ليعطى ، ويكثر ليطعم غيره ، وهو لا ينفق على نفسه وعلى أهله الا القليل بالمعروف من غير خصاصة واضحة ، ولا حرمان ظاهر ، بل يتناول الحلال ويكتفى بأقله ، ولا يحرم مما هو طيب حلال ، وكذلك كانت الحال بعد أن بعثه الله تعالى نبيا ٠

١٤٣ ـــ ان زهد محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) الذى وصل اليه بفطرته السليمة فى وسط الجاهلية هو أعلى درجات الزهد ، ولنستعرض بعض كلام الصوفية فى الزهد الصوفى لنتعرف مقام زهد محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) قبل أن ينزل كتاب يرشده ويهديه ، لقد قال ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : « للزاهد فى الدنيا علامتان علامة فى فقدها (أى أسباب الشهوات) وعلامة فى وجودها ، فالعلامة التى فى وجودها الانصراف عنها ، والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها ، فالايثار شكر لنعمة الوجدان ، ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان » ٠

وزهد محمد (صلى الله عليه وسلم) قبل البعثة ، كان أعلى من ايثار غيره بها عند وجودها ، والراحة من فقدها ، لأنه كان زهد العامل للحصول على أسباب اللذائذ ، فاذا حصل عليها لا يختص بها ، بل يؤثر غيره بها ، ولا يتأتى زهد فقدانها ، لأنه لا ينتظرها وجودا وفقدا ، ولكن يعمل لوجودها لينفق على الفقراء وليمتع غيره ، فهو زهد ايجابى عامل ٠ كما نوهنا ، فليس زهد الحرمان الذى جاء من فلسفة الهنود ، ولكنه زهد الكاسب الذى يكسب لغيره ٠ ويبقى لنفسه القليل الذى يقيم أوده ، ويمكنه من استمرار الكسب لغيره ٠

ولقد رتب الامام أحمد رضى الله تبارك وتعالى عنه مراتب الزهد أدنى مراتبه ترك الحرام ، والمرتبة الثانية ترك فضول الحل ، بل يفطم نفسه عن بعضه ، فهو يمنع عن نفسه بعض الحلال من غير تحريم ، ولكن ليعودها احتمال الحرمان ان لم يجد بعض الحلال ، فهو تهذيب وتربية ٠ والمرتبة الثالثة وهى العليا الا يشغل نفسه عن ذكر الله تعالى بالاشتغال بالدنيا ، واستغراقها لنفسه ، وهو زهد العارفين ٠

ومحمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) قبل البعثة كان زهده أعلى من ذلك ، لأنه كان مشغولا بذكره دائما فى كل عمل يعمله ، وكل عبادة يؤديها ، وكل فكرة يتفكر بها ، وما كان يعمل لتعود ثمرة عمله على نفسه ، بل لتعود على نفع غيره ، فهو العابد فى كل حياته ، ولا يعمل الا لله ، واذا كان شغل

النفس بذكر الله تعالى هو زهد العارفين ، فزهد محمد صلى الله عليه وسلم أعلى منه ٠

زهـده بعد البعثة :

١٤٤ ـــ كان زهد محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) امتدادا لزهده قبل البعثة ، ولكنه بعد البعثة أخذ صورة أجل وأعظم ، لأنهحمل أعباء الرسالة ، فكان زهدا فى الاستعلاء بالسلطان ، وزهدا معروفا عنـــد كافة المؤمنين ، ليكون أســوة حســنة فيما يطيقــونه من زهـده عليه الصــلاة والسلام ، وكان زهد العامل الذى يعمل فى كل ميادين الحياة ، لا زهد من يعكف فى الصوامع ، وكان يبث ذلك فى المؤمنين ويدعو اليه ٠

ولعل أظهر مظهر للزهد رفضه أن يكون ملكا كداوود وسليمان وبعض الأنبياء ، فقد روى ابن عباس أن الله تعالى أرسل الى نبيه ملكــا من الملائكة معه جبريل ، فقــال الملك لرسول الله صلى الله تعــالى عليه وسلم : « ان الله يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا ، وبين أن تكون ملكا نبيا ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، بل أكون عبدا نبيا (رواه البخارى) ٠

وكانت أوامر القرآن تدعو الى الزهد فى الحرام ومنعه عن أمته كلها ، ولكن الخطاب كان موجها ابتداء اليه عليه الصلاة والسلام ، ولقد جاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير :

« قال الله تعالى : **ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى** » ، وقال تعــالى : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تــريد زينــة الحياة الدنيــا ، ولا تطــع من أغفلناقلبه عن ذكرنا ، واتبــع هواه وكان أمره فرطا** » وقال تعالى : « **فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ، ولم يــرد الا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم** » وقال تعالى : « **ولقد آتيناك سبعــا من المثــانى والقرآن العظيم ، لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجــا منهم ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين** » والآيات كثيرة ٠٠٠ (١)

وان هذه النصوص كلها الخطاب فيها للنبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ، ولكنه موجه الى كل المؤمنين ، ولا يختص به وحده ، وهو يدل على

---

(١) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٤٨ ٠

أمرين : أولهما : الامتناع عن الحرام ، وهذا زهـد العوام ولذلك طولب به الناس جميعا • وثانيهما : أن الامتناع عن الحرام لا يكون بمجرد الامتنـاع المادى الواقعى ، بل انه لابد من البعد النفسى وتجنب أسبابه ، ولذلك كـان النهى متجها الى الأسباب النفسية ، فقال تعالت كلماته : « **لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا** » وكأن الدعوة الى ملازمة الذين ينصرفون عن الشهوات الى الله سبحانه وتعالى والاتجاه اليه ، وألا يخالط الذين يجترعون الشهوات فقال تعالى : « **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهـه** » فعشرة الذين يتجهـون الى الله تعـالى فى غدوهم ورواحهم ، وفى غدوتهم وعشيتهم تربى فى النفس معنى الاستبعاد عن الحرام والاتجاه اليه سبحانه وتعالى •

واننا نجد زهد محمد (عليه الصلاة والسلام) يشتد كلما تمكن من المال ، وكلما اتسع سلطانه ـ وكلما كثرت تكليفاته وكلما أقدم على الشدائد ، لأنه يرى أن تحمل مصائب الحرب وشدائدها انما يكون ابتداء بتربية للنفس وحملها على ترك اللذائذ ، أو القـدرة على تركها ، وما كان يدعـو أمته بذلك بلسان القول ، بل كان يدعو بلسان الفعل ولسان الفعل فى هذه الحـال أجدى فانه لا يصح أن تكون الدعوة الى التقشف آتية ممن يرفل فى الدمقس والحرير ، اذ تكون حاله مناقضة لمقاله ، فلا يسمع له قول ، ولا يقبل منه كلام •

١٤٥ ـــ ان النبى عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة كان يحمل كل ضعفاء المؤمنين ، فما يكون له من كسب من تجارته فى مال أم المؤمنين خديجة ، ينفقه على الضعفاء من المؤمنين ، وهم أول من اتبع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد امتنع المشركون عن اطعام الضعفاء وخصوصا الذين يؤمنون ، بل أرهقوهم عذابا وعسفا وهوانا ، وكان يواسيهم بالعطاء وطلب الصبر ، والفرج القريب ان شاء الله تعالى ، لا يألو جهدا الا بذله ، وهو يكتفى بالقليل من العيش الذى يقيم أوده ، ليتحمل عبء الدعوة ، والقيام بحقها •

ولما هاجر الى المدينة ، وانشغل بالاسلام عن التجارة التى كانت المرتزق له ، ويظهر من مجرى التاريخ أنه قد أنهاها قبل الهجرة ، وربما يكون قـد صفاها بعد وفاة أم المؤمنين خديجة رضى الله تبارك وتعالى عنها ، وصـار رزقه من بيت المال الذى يعمل فيه ، اذ هو العامل الأول ، وله الاستيلاء على خمس الغنائم بمقتضى الولاية العامة الاسلامية كما قال تعالى : « **واعلموا انما غنمتم من شىء ، فان لله خمسة ، وللرسـول ولذى القـربى ، واليتـامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير** » •

عندما صارت نفقته من بيت المال ، أو من الغنائم ، وانها لتكون بأشق جهد يبذله وأعظمه علا زهده عليه الصلاة والسلام فى المال والعيش الرغيد ، ولولا قيام الأود ، وأنه لابد من لقيمات يقمن صلبه ، لزهـد حتى فى اللقمـة القفار ٠

كان عليه الصلاة والسـلام ينـام على الحصير ، حتى يؤثر فى بدنه الكريم ، ويروى عن ابن مسعود أنه قال : « انه عليه الصلاة والسلام نام على حصير ، فأثر الحصير بجلده ، فجعلت أمسحه ، وأقول ألا آذنتنا فنبسط لك شيئا يقيك تنام عليه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « مالى وللدنيا ، ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت ظل شجرة ، ثم راح وتركها » ٠

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوسد بحشية من ليف ، ورآه عمر بن الخطاب ، وهو على مثل هـذه الحال ، فبـكى ، فقـال له النبى الزاهد : وما يبكيك ؟ فقال عمر : ومالى لا أبكى ، وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا ، وأنت على هذه الحال التى أرى ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم : يا عمر ، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ، قال بلى ، قال هو كذلك ٠

قوت الزاهـد :

١٤٦ ـــ فى الصحيحين البخارى ومسلم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » هذه دعوة محمد عليـه الصلاة والسلام الى ربه ، ولا ندرى أهى دعوة الاستجابة لها توفير القوت لآل محمد عليه الصلاة والسلام ، أم هى دعوة للاقتصار على القوت الضرورى، وتحمل آل محمدعليه الصلاةوالسلام ذلك ، والصبر عليه والرضا به ، والقناعة الراضية الكافية التى لا يطلب معها غيرها ؟ أجيب أن الاستجابة تكون بهما ، أى بتوفير القوت الضرورى وأن يلقى الله تعالى فى قلوب آل محمد عليهالصلاة والسلام من الأزواج الطاهرات ، ومن يلوذ به من أسرته الرضا به ، والصبر عليه وأن تكون الأسرة كلها فى زهد ربها ، تحتمل ما يحتمل ، وتصبر على ما يصبر ، لتكون أسـوة لغيرها ، ولكيـلا يكون من بعضهن من يطمع فى المـال الذى يساق ، ويكون تصرف رب هذه الأسرة الزاهد كذلك ٠

ولقد كان كذلك ، فقد روى الامام أحمد أن أبا هريرة يقول : « ما شبع نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة ، حتى فارق الدنيا » أى أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان يرى أن من التنعم

أن يأكل من خبز القمح ثلاثة أيام متتابعة ، بل كان الشعير غالب طعامه عليه الصلاة والسلام ، وقد يكون معه التمر ٠

ولقد قالت أم المؤمنين عائشة : « ما شبع آل محمد عليه الصلاة والسلام من خبز ، حتى قبض ، وما رفع من مائدته كسرة قط » ٠ ومن هذا الخبر يستفاد أنه ما كان يقدم له على مائدته الا ما يكفى بلا زيادة تفضل عنه ٠

ولقد كان لا ينفى عن الخبز نخالته ، بل كان يأكله من غير نخل ، فقد قالت الصديقة بنت الصديق : « والذى بعث محمدا بالحق : ما رأى منخلا ، ولا أكل خبزا منخولا قط منذ بعثه الله تعالى عز وجل ، الى أن قبضه » ٠

وما كانوا يأدمون الطعام دائما ، بل كانوا يأكلون فى كثير من الأحيان الخبز قفارا غير مأدوم ، وقد قالت أم المؤمنين عائشة : فيما رواه الشيخان البخارى ومسلم عن عروة بن الزبير أنها قالت : « ان كنا آل محمد ليمر بنا الهلال ما نوقد نارا ، انما هما الأسودان التمر والماء ، الا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون الى رسول الله بلبن منائحهم ، فيشرب ، ويسقينا من ذلك اللبن » ٠

وهكذا نجد استجابة الله تعالى لرسوله الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل رزقه وآله قوتا ، ولكنه من أدنى القوت ليكون قدوة للمسلمين، وليكون غذاء لفقرائهم ، ولكيلا ترمض نفس بحرمان ، ولكيلا يأسوا على ما يفوتهم من وفرة الرزق ، وأسباب النعيم والعيش الرافغ ، فى هذه الحياة ٠

ولكن يلاحظ أنه لم يحرم على نفسه صنفا من فاكهة ، أو طعاما من أطعمة أهل الترفه والنعيم ، بل يقبل كل الحلال ، ولكنه يكتفى بالأدنى دائما فاطما النفس عن أهوائها وملاذها ، تقوية لها ، ولتكون الارادة الحاكمة بسلطان العقل هى المسيطرة ، ولا تكون النفس أمة ذلولا للأهواء والشهوات بل تكون سيدة مطاعة ، حاكمة عليها غير محكومة بها ٠

١٤٧ ــ ومع هذه الزهادة التى التزمها ، وأخذ نفسه بها ما كان يدعو الناس اليها ، لأنهم لا يطيقونها ، ولأنه الذى أمر المؤمنين بألا يفعلوا الا ما يطيقون غير مسرفين على أنفسهم ، اذ يقول : « ان هذا الدين لن يشاده أحد الا غلبه ولكن سددوا وقاربوا » ٠٠ فهو عليه الصلاة والسلام يأخذ نفسه بزهد لا يأخذ به غيره لكيلا يرمض فقير بفقر ، ولا ذو قل بقله ٠

ولقد روى أبو داوود فى سننه أن ســائلا سأل بلالا مؤذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائلا : حدثنى كيف كانت نفقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : ما كان له شىء من ذلك الا أنا الذى كنت الى ذلك منه منذ بعثه الله تعالى الى أن توفى ، فكان اذا أتاه المسلم فرآه عائلا يأمرنى فأنطلق ، فأشترى له البردة ، والشىء فأكسوه وأطعمه ، حتى اعترضنى رجل من المشركين ، فقال لى : « ان عندى سعة ، فلا تقترض الا منى ففعلت ، فلمـا كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة ، فاذا المشرك فى عصـــابة من التجار ، فلما رآنى قال لى : « يا حبشى » قلت : يا لبيه ، فتجهمنى ، وقال قولا عظيما غليظا ، وقال أتدرى كم بينك وبين الشهر ! قلت قريب . قال ان بينك وبينه أربع ليال ، فآخذك بالذى لى عليك ، فانى لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك ، ولا من كرامة صاحبك ، وانما أعطيتك لتصير لى عبدا ، فأذرك ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك . قال بلال فأخذنى فى نفسى ما يأخذ أنفس الناس ، فانطلقت ، فناديت بالصلاة حتى اذا صليت العتمة ، ورجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهله ، فاستأذنت عليه فأذن لى فقلت يارسول الله بأبى أنت وأمى ، ان المشرك الذى ذكرت لك انى كنت أتدين منه قال كـذا وكـذا ، وليس ما يقضى عنى ولا عنـدى وهو فاضحى ، فأذن لى أن آتى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يقضى به عنى ، فخرجت حتى أتيت منزلى ، فجعلت سيفى وحرابى ورمحى ونعلى عند رأسى ، فاستقبلت وجهى الأفق ، فكلما نمت انتبهت ، فـاذا رأيت رجلا نمت حتى اتسق عمود الصبح الأول ، فأردت أن أنطلق ، فاذا انسان يدعونى ، يا بلال أجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانطلقت حتى آتيه ، فاذا أربع ركائب عليهن أحمالهن ، فأتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام فاستأذنت ، فقال لى رسول الله : أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك فحمدت الله وقال : ألم تمر على الركائب المناخات الأربع قلت بلى ، قال : قل ، فان لك رقابهن وما عليهن فاذا عليها كسوة وطعام أهداهن اليه صاحب فدك ، فاقبضهن اليـك ، ثم اقض دينـك ، ففعلت فخططت أحمالهن ، ثم علقتهن ثم عمـدت الى تأدية صلاة الصبح ، حتى اذا صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم خرجت الى البقيع ، فجعلت أصبعى فى أذنى فقلت : من كان يطلب من رسول الله عليه الصلاة والسلام دينا ، فليحضر فمازلت أبيع وأقضى ، وأعرض حتى لم يبق على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دين فى الأرض حتى فضـل عندى أوقيتان ، أو أوقية ونصف ، ثم انطلقت الى المسجد ، وقد ذهب عـامة النهار ، فاذا رسول الله عليه الصلاة والسلام قاعد فى المسجد وحده ، فسلمت

عليه ، فقال لى : ما فعل الله قبلك ؟ قلت : قد قضى الله كل شىء كان على رسـول الله عليه الصلاة والسلام ، فلم يبق شىء • قال فضل شىء قلت نعم ديناران ، قال : انظر أن تريحنى منهما ، فلست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما ، فلم يأتنا أحد ، وظل فى المسجد حتى اليوم التالى ، حتى اذا كان آخر النهـار جاء راكبان ، فانطلقت بهما فكسوتهما ، وأطعمتهما • حتى اذا صلى العتمـة دعانى ، فقال : ما فعل الله تعالى قبلك ، قلت قد أراحك الله تعالى منهما ــ فكبر وحمد الله تعالى شفقا من أن يدركه الموت • وعنده ذلك ، ثم اتبعته حتى جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة حتى أتى مبيته » (١) •

١٤٨ ــ سقنا هذا الخبر مع طوله ، لأنه يدل أولا : على زهادة محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم المطلقة التى لا يدخـر فيها فى بيته • ويـدل ثانيا : على أن محمدا عليه الصلاة والسـلام كان يحمل أعبـاء العائلين من صحـابته ، يعينهم حتى يبعد عنهم ذل الحـاجة ، ويحميهم من رق الـدين ، ويدل ثالثا على أنه اذا لم يستطع أن يعطى أمرهم بأن يستدينوا عليه •

ويروى فى ذلك الترمذى بسنده أن رجـلا جـاء الى رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم فسأله أن يعطيه • فقال : ما عندى ما أعطيك ، ولكن اذهب فاتبع على شيئا ، فاذا جاءنى شىء قضيته ، فقال عمر بن الخطـاب ، يا رسول الله ما كلفك الله تعالى مالا تقدر عليه فكرة النبى عليه الصلاة والسلام قول عمر • فقال رجل من الأنصـار يا رسـول الله أنفق ، ولا تخش من ذى العرش اقلالا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف لتبسم فى وجهه لقول الأنصارى •

١٤٩ ــ ولقد كان ما يجرى على النبى عليه الصلاة والسلام يجرى على نسائه ، فيتحملن راضيات فى أكثر الأحيان •

ويروى أن امرأة من الأنصار دخلت على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ــ فرأت على فراش رسـول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم عباءة فانطلقت لتبعث الى بفراش حشوه الصوف ، فدخل عليها رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم • فقـال ما هذا يا عائشة قلت يا رسـول الله فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك ، فذهبت ، وبعثت بهذا ، فقال رديه ، فلم أرده ، وأعجبنى أن يكون فى بيتى ، حتى قال ذلك ثلاث مرات قالت فقـال رديه يا عائشة فو الله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة •

---

(١) تاريخ الحافظ لابن كثير نقلا عن الشمائل لأبى داوود ص ٥٦ جـ ٦ •

ولم يكن عليه الصلاة والسلام يدخر لغده شيئا يسارع اليه الفساد ، وقد روى الامام احمد انه اهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فاطعم خادمه طائرا ، والظاهر انه اكل هو طائرا ، وبقى طائر ، فلما جاء الغد اتى به فقال لأنس خادمه : « الم انهك أن تبقى شيئا لغد » ٠

ولما افاء الله على رسوله نخيل بنى النضير ، كان يدخر منها فكان يعزل لأهله من تمرها ، ما يكفى سنة ، ثم يكون الباقى مما ينفق فى الخيل والجمال مما يعد للحرب ، وفى السلاح الباقى ، صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكان عليه الصلاة والسلام لا يدخر ذهبا ولا فضة ، حتى انه كان وهو مريض مرض الموت عنده سبعة دنانير أو ستة ، فما زال باهله حتى تخلص منها ٠ وروى أنه كان له فى مرض موته قطعة ذهب صغيرة عبروا عنها بانها ذهبية ، فتصدق بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى يخرج من الدنيا ، وليس له شىء ، ولا عليه شىء ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « نحن معشر الأنبياء لا نورث » ٠

١٥٠ ــ كان آل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أزواجه يحملهن ما يحتمل ، لأنهن آله ، والسعة عليهن قد تعود بالسعة عليه ، فسدا للذريعة كن يتحملن ما يتحمل ٠

ولكن يظهر انهن طالبنه مرة بما ليس عنده ، وضاق بهن ذرعا ، فآلى عليهن بأن حلف الا يدخل عليهن شهرا واعتزل عنهن ، وسكن عليه من داره ، فدخل عليه عمر ، واذا هو مضطجع على حصير ، قد اثر فى جسمه عليه الصلاة والسلام ، فهملت عينا عمر ، فقال عليه الصلاة والسلام مالك ، فقال أنت صفوة الله تعالى من خلقه وكسرى وقيصر فيما هما عليه ، فجلس عليه الصلاة والسلام محمرا وجهه فقال : « أو فى شك انت ، يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، اما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ٠

وقد عتب الله تعالى على نبيه أن حرم عليه أزواجه شهرا ، فقال تعالى :
يأيها النبى لم تحرم ما احل الله لك تبتغى مرضات أزواجك ، والله غفور رحيم ، قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم ، واذ اسر النبى الى بعض أزواجه حديثا ، فلما نبات به واظهره الله عليه ، عرف بعضه واعرض عن بعض ، فلما نباها به قالت من انباك هذا قال نبانى العليم الخبير ،

ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه ، فان الله هو مولاه ، وجبريل ، وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ، عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » ٠

ولقد كانت شكواهن من أن محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذهن بما أخذ به نفسه ، وان كان أخف ولكنه فى كلتا الحالتين دعا ربه أن يكون رزق آل محمد صلى الله عليه وسلم قوتا ، لا يتجاوزه الى رافغ الحياة وفاكهها ، ولذلك حلف بما حلف تأديبا وتجربة ، ومحبة أيضا ، وبعد أن مضى الشهر الذى حلف الا يقربهن فيه ، لم يعد اليهن الا بعد تخيير صريح يقبلن فيه أن يكون رزقهن قوتا لا نعيم فيه ، الا بالحلال ، وبين أن يسرحهن بالمعروف ، وذلك بأمر صريح من الله سبحانه وتعالى اذ قال سبحانه :

« يأيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن ، وأسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ، يا نساء النبى من يات منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا ، نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا كريما ٠ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة واطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا » ٠

نفذ محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر ربه بالتخيير ليخترن ، وابتدأ بأحب نسائه اليه ابنة صديقه وصفيه أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، عائشة ، فقال لها انى ذاكر أمرا ، فلا عليك أن تعجلى حتى تستأمرى أبويك ، وتلا عليها هذه الآيات فقالت : أفى هذا أستأمر أبواى ، فانى أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وكذلك قال سائر أزواجه عليه الصلاة والسلام ، وبذلك اخترن عيشة النبى عليه الصلاة والسلام الزاهدة ، فكن جديرات بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وسيد الزاهدين ٠

الصابر المصابر

١٥١ — ان نشأة محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) الأولى من شأنها أن تربى فيه خصلة الصبر ، وحاله فى شبابه الباكر تربى فيه الصبر واستمساكه بالفضائل فى وسط الرذائل التى كانت تكثر فى قومه لا يقوى عليه الا بالصبر وضبط النفس ، واجتنابه للأهواء والشهوات التى كانت تسيطر فى مكة ، لا يقوى عليه الا الصابر الذى يقمع دواعى الشهوات بين جنبيه ، ويقدعها عن متابعة الأهواء ومنازع الشيطان ، ان ضبط النفس أقوى مظاهر الصبر ، والناظر الى حياة محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) يراه منذ نشأته الى بلوغه سن الشباب ، الى اكتمال رجولته يرى فيه اصرارا على خلق واحد ، وعقيدة واحدة ، يتزلزل كل شىء حوله ، ولا يتزلزل ، ولا يكون ذلك الا من صبور ٠

لا تغريه جدة ، ولا يجزعه فقر ، لا يدفعه التكاثر حول تقديس الأوثان الى الميل نحوها ، ولا يحرضه التقليد للأقوياء على أن يخضع لصنم أو يقوله بسلطان ، بل يدافع الاعتقاد فى الأصنام ، يدافعه فى نفسه ، ويدافعه فى مجتمعه ويدافعه فى كل مظاهر حياته ، غير متجانف لاثم ، ولا راض عمن يخضعون به ٠

ان كل ذلك يحتاج الى ضبط نفس ، وضبط فكر ، واستقامة نظر ، وصبر عميق يتغلغل فى أطواء النفس ، وثنايا الفؤاد وكل هذا لا يكون الا من صابر مصابر ، يغالب الأحداث بالصبر ، ويغالب الأعداء بعدم الفزع ، ان الصبر أقسام يختلف كل قسم باختلاف موضوعه ، والصدمات التى يلقاها الصبور ٠

أولها — الصبر على النوازل تنزل به ، ومن نوازله نازلة الفقر ، لاترمض نفسه به ، ولا يذل ، ولا يخنع لذل الحاجة ، بل يرضى بالقليل صابرا ساعيا جادا فى جلد ، ودأب ٠ حتى يمنعه الفقر من أن يتسرب لنفسه بالاحساس بالذل ، أو بأن تذهب قوى النفس شعاعا من الاحتياج ، وان ذلك النوع من الصبر كان فى النبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، فما ظهر منه ذل الاحتياج ، بل كان حتى عندما تمد موائد الطعام ، لا يكون أول من يمد ولا أكثر الغلمان تزاحما فيه ، ولا تسابقا اليه ، بل كان حريصا على ألا يفعل ، ولو فاته الطعام ٠

القسم الثانى : الصبر على الحرمان من الأهواء والشهوات وقمعها ، وعلى دفع الخواطر الفاسدة ، وعلى مقاومة ما تدعو اليه أحوال عبدة الأوثان لتحريم أمور حلال كتحريم السائبة والوصيلة والحام وكاستباحة المختنقة والموقوذة والنطيحة ، وما كان منه شرب الخمر ، وملاعبة بالميسر ، واستقسام بالأزلام ، فكل ذلك امتنع عنه محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) ، قبل أن يبعثه الله تعالى ، وذلك من تحصين نفسه بالصبر ، وما منحه الله تعالى من قوة احتمال ٠

القسم الثالث : من الصبر هو على ما ينزل من نوازل ، وقد جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) فى الحياة ليكون صبورا وشكورا ٠

أول ما أدرك الحياة مميزا ماتت أمه وحملته حاضنته الحبشية الى جده ، ثم لم يلبث أن فقد الجد ، وقد بلغ سن التمييز الذى يعرف الحامى ، وانتقل الى بيت عمه ، وكان محدود الرزق كثير العيال ، فتعلم كيف يكون الصبر حيث التزاحم ، فما كان يمد يده فى زحمة الغلمان على الطعام ٠

ثم كان الصابر فى رعى الغنم ، ثم كان الصابر فى كسب القوت ، وهكذا كان الصبر عدته التى يعدها لنوائب الدهر ، وملمات الزمان ، وأخذ يحمل وحده أعباء حياته جلدا صبورا ٠

واذا كان قد صابر النوازل والقل واحتمل ، فقد احتمل نعمة الكثر من المال كما احتمل القل ، فلم يطغ اذ جاءه المال الموفور عندما اتجر فى مال خديجة التى صارت من بعد زوجه وأم المؤمنين ، فاحتمل النعمة كما احتمل النقمة ، وضبط نفسه فى نعمته ؛ كما ضبطها فى نقمته ، فلم يكن فى الأولى جازعا ؛ ولم يكن فى الثانية فرحا فخورا ٠ وقد بين الله تعالى فى كتابه أن الذى لا ييأس فى الحرمان ؛ ولا يطغى عند الجدة هو المؤمن الصابر ، فقد قال سبحانه : « **ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ؛ ثم نزعناها منه ، انه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** » ٠

والصبر فى هذا المقام أجل أنواع الصبر ، لأنه هو الذى يكون فى أعاظم الرجال الذين أوتوا القدرة على تحمل الأعباء ٠ لا يأشرون ويبطرون فى سرائهم فيكونوا صابرين ، ولا يجزعون ويهلعون فى شدائدهم فيذلوا ٠

وكذلك كان محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) قبل أن يبعثه الله تعالى نبيا ، فكان مهيئا لأعظم رسالة فى الوجود ٠

١٥٢ ــ بهذا الخلق الصابر يختار الله تعالى محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) ليكون رسوله الذى يدعو الناس الى التوحيد فى وسط قوم صلاب شداد غلاظ ، فالدعوة فيهم تحتاج الى عزم الأمور ، والصبر من عـزم الأمور ، بل ان عزم الأمور يحتاج الى صبر شاق مرير ، لا يتحمله الا أولو العزم من الرجال ، وأولو العزم من الرسل ، كما قال تعالى مخاطبا محمدا (صلى الله تعالى عليه وسلم) الصبور ، والمكاره تحيط به احاطة الدائرة بقطر : « **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسـل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ ، فهل يهلك الا القـوم الفاسقون** » ٠

كان لابد بعد البعثة من أن يكون علاج الأمور كلها بالصبر ، صبر عـلى المشركين فى أوهامهم ، وصبر عليهم فى دعوتهم منه الى الحق ، وقد أصروا على الباطل ، وصبر على سفهائهم ، وصبر على اذاهم المستمر ، الذى أقـدم عليه ذوو الحقد والعصبية ، ولم يستنكره كبراؤهم ، وصبر فى الدعـوة الى الاسلام ، وما يكاد طريقها ، ويعرقل سيرها ٠ ولذلك جعل الله تعالى أقـوى أوصاف المؤمنين الصبر ، فقال تعالى : « **وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون** » ، ولقد كان النبى عليه الصلاة والسلام الصابر حقا وصدقا ودعا الى الصبر ، فقد أثر عنه أنه قال ما من أحد تصيبه مصيبة ، فيقـول انا لله وانا اليه راجعـون ؛ أولئك عليهم صـلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خـيرا منها ، الا أجاره الله تعالى فى مصيبته وأخلف له خيرا منها ٠

وان فضيلة الصبر الجميل ، وهو الصبر من غير تململ بل فى ثبـات جأش واطمئنان قلب وتحمل ، هى قوة لصاحبه فوق أن فيها تفويضا لله تعالى مع العمل من غير تخاذل ، فالمفوض الصابر يؤمن بقدرة الله تعالى حق الايمان ، وأنه المغير ، ولذلك طلب الرسول الصابر صلى الله تعالى عليه وسلم ممن يصاب أن يدعو الله تعالى ، ويفوض اليه أمره فان ذلك يعطيه جلدا واحتمالا ، ولقـد قال ابن القيم فى عـلاج النفس بحملها على الصبر بالتفويض ٠

« وهذه الكلمة أى التى قالها محمد (عليه الصلاة والسلام) فى العلاج بالصبر ، وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه فى عاجلته وآجلته فانها تتضمن أمرين عظيمين اذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته (أحدهما) أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة وقد جعله عند العبد عـارية ، فاذا أخذه منه ، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير ، وأيضا فانه محفـوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعـده ، وملك العبد له منحـة معـارة فى زمـن

يسير ، وأيضا فانه أليس أوجـده من عدمه حتى يكون ملكه حقيقة ، وألا هو الذى يحفظه من الآفات بعد وجوده ، وألا يبقى عليه وجوده ، أفليس له فيه تأثير ، ولا ملك حقيقى ، وأيضا فانه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهى ، وتصرف الملاك ، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه الا ما وافق أمر مالكه الحقيقى ... » ·

والثانى : أن مصير العبد ومرجعه الى الله تعالى مولاه الحق ، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويجىء ربه فردا ، كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولكن بالحسنات والسيئات ، فاذا كانت هذه بداية العبد وما خوله ونهايته ، فكيف يفرح بموجود أو يأسى على مفقود ، ففكره فى مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء ، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، قال تعالى : « **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن تبرأها ، ان ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور** » (١) ·

١٥٣ ــ كان محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) صبورا ، ابلغ ما يكون الصبور ، فقد كان قبل البعثة فى المنشط والمكره ، والصابر فى الفقر والغنى ، والصابر فى العجز والمقدرة ، ثم كان بعد البعثة الصابر فى أداء الرسالة ، وتبليغها والدعوة اليها ، صابر المشركين عند الدعوة ، صابر قومه الذين جفوه ، ونكروه وهم يعرفونه ، وكذبوه ، وهو الصادق الأمين ورموه بالسحر كذبا ، والجنون افتراء ، وقالوا ما قالوا فيه وفى رسالته ، وقد وسع صبره كل افترائهم ، فما وهن فى دعوته ، ولا يئس من اجابته ، وكان يرضى فى أن يصدع بأمر ربه وهو يصبر على انكارهم من غير أن ييأس من ايمانهم ، ويدعو عليهم ، فلم يقل كما قال نوح : « **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا** » بل قال : « **ان قومى لا يعلمون** » وقال : « **انى أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله** » ، ولكل نبى من أنبياء الله تعالى فضل وقد فضل بعض النبيين على بعض ·

ولقد آذوه ، وآذوا أصحابه ، وهو القادر على أن يقمعهم ، أو يدعو عليهم بالمقت ، ويسخط عليهم ، وانزال غضب الله تعالى عليهم ، بل انه كان يتلقى كل ذلك بالرجاء والاطمئنان الى أنه مبلغ رسالة ربه ، غير وان ولا مقصر ، مدركا أن الله تعالى بالغ أمره ، وأن العاقبة للمتقين ·

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد ·

كان طاغيتهم يلقى عليه فرث الجـزور ، وهو يصلى ، فمـا يغضب ، ولا يثور ، لأن الغضب يفقد الحق قـوته ، والثورة تطيش حولها أحلام مـن يدعوهم ، وهو حريص على أن يترك لهم حرية الاختيـار ، وتقدير الأمر فى أناة ، وهدأة مدركة ، والغضب يدفع الى الملاحاة والمنازعة ، وهو يريد أن ينزع من قلوبهم سخيمة الحقد الملاحى ، بل يضع فى قلوبهم قوة الحقيقة تسرى فى قلوبهم ، وتنساب فى نفوسهم ، وهم مطمئنون من جانبه غير منزعجين ·

يصبر عليه الصلاة والسلام صبر الطبيب يعـالج المريض ، وقد هـاج هياجه ، وأرغى زبده ، فيأخذه فى حكمة ، عالما أن المقاومة من المرض ذاته ، وان غايته معافاة المريض ، فليصبر ، حتى يصل الى هذه الغاية غير منزعج ، ولا مخاصم ، ولا معاند ·

ولقد صبر عليه الصلاة والسلام على استهزائهم وعلى سخريتهم ، وهو آخذ نفسه بأنهم كلما سخروا منـه زادت عنايته بالدعـوة ، وزادت قوته فى الاحتمال ورغبته فى المصابرة ، غير متحمل ولا يائس ، فان الصبر يبعد اليأس ويقرب الرجاء ، ويهدى للتى هى أقوم ، ويوقظ الضمائر ان كانت فيها قـوة الحياة ، وان الصبر للذى تشمس نفسه يكون كالسقى والرعى يحيى ولا يميت ، والملاحاة تشغل النفس عن الحق ، وتوجب انحياز كل الى جانبـه ، فلا يرى الا ما عنده ، ويعمى عما فى الجانب الآخر ، فتكون النظرة الجانبية ، والنظرة الجانبية لا تصيب صاحبها ·

وصبر عليه الصلاة والسلام على الأذى ينزل بجسمه ، وبأهله ، ألم تره صبر على الحرمان هو وبنو هاشم عندما قاطعتهم قريش ثلاث سنين دأبا · لاقوا فيها العنف من قومهم ، فما أسلموا محمدا عليه الصلاة والسلام لأعدائه·

فكان صبر محمد (عليه الصلاة والسلام) صبرين ، صبر الداعى الى الحق يحمل فى أثنائه ما يلاقى من جفوة قاطعة لما أمر الله تعالى به أن يوصل ، وصبرا على أذى القريب الواصل الـذى يرى أنه كان سببا فى أنه ذاق آلـه وأحبابه مرارة الحرمان والقطيعة ·

وصبر عليه الصلاة والسلام يوم ذهب الى ثقيف يطلب منهم الايمان ، فآذوه ، وأغروا به سفهاءهم وغلمانهم يقذفونه بالحجارة حتى أسالوا دمـه الكريم ، وكان الصابر الكريم عندما عرض عليه جبريل أو ملك الجبـال أن يطبق الأخشبين عليهم ، فطلب من ربه أن يستأنى بهم ، ويقرر فى اطمئنان الصابر أنه لا يبغى الا رضاه ، فيقول لربه · ان لم يكن بك غضب على فـلا أبـالى ·

١٥٤ ـــ ولما رأى الأذى الشديد ينزل ببعض من أسلموا ، أذن لهم فى الهجرة الى الحبشة ، وهو المقيم الصابر ، لا يتخلى عن دعوته ، ولا يفر ممن يدعوهم ، بل يصابرهم ، ويلقاهم بالرفق ، ولطف المعاملة ، وان لم يقابلوه بمثلها ، بل يجافونه ويعادونه .

واذا كان قد خرج من مكة المكرمة مهاجرا ، فليس ذلك لأجل الخوف ، أو نفاذ الصبر ، بل لأن الدعوة استوجبت الهجرة بعد أن استمكن لها فى يثرب ، وهو إذ يخرج كان صابرا ، اذ أنه يخرج من مكة المكرمة ، وهى أحب أرض الله اليه ، ولولا أن أهلها لم يستجيبوا وآذوه ما خرج منها ، فكان الصابر فى خروجه ، ولم يكن خروجه جزعا وفرارا .

ولما هاجر كان المجاهد الصبور ، ولقد صابر وصبر فى ثلاثة ميادين من الجهاد .

صابر فى محاربة الأهواء والشهوات ، وسمى ذلك الجهاد الأكبر ، ودعا المؤمنين الى متابعته فيه .

وصابر فى ميدان الحرب ، فكان المجاهد الثابت الذى لا تزلزله قوة ، ولا يذهب تفكيره شعاعا ولو تألب عليه العرب جميعا ، كما فى غزوة الأحزاب ، وقد جاء المشركون من الخارج واليهود من الداخل ، « **اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** » ، ونجد النبى عليه الصلاة والسلام كان فى هذه المعركة ، الصابر ، المصابر ، الذى لم يذهب ساعة من نهار الرجاء منه ، وان كانت الشديدة قد بلغت أقصاها .

وصابر صلى الله تعالى عليه وسلم فى الداخل طوائف ثلاثا فأخذ بالرفق الضعفاء ، فكان يبث فيهم روح الايمان ، وكان الضعف يبدو أحيانا منهم فى وقت يحتاج فيه الى الجلد وقوة العزيمة ، والثبات فى البأساء والضراء ، وحين البأس .

وصابر المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ، ويبطنون الكفر ، ويلقون باليأس والهزيمة ، ويدعون الى التردد فى صفوف المؤمنين ، ويستجيب لهم بعض الضعفاء من المؤمنين ، ويصبر عليه الصلاة والسلام على ما يثيرونه حول شخصه وآله ، كما خبوا ووضعوا فى الحديث الذى

أشاعوه عن أم المؤمنين عائشة ٠ ويشير عمر بقتل كبيرهم ، فيرده محمد عليه الصلاة والسلام بأنه لا يريد أن يتحدث الناس أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه ، ويستمر صابرا حتى ينهى الشر نفسه ، كما تموت بعض الحشرات بسمها ٠

وكان اليهود فى المدينة ، فكان يصابرهم حتى ينكشف فسادهم ، فاذا انكشف أخذهم ببعض ذنوبهم صابرا مصابرا ، وان الصبر فى الشدائد ، هو صبر العافى المدرك بأن غايات الأمور لا تدرك الا بالصبر المرير ، وكان اذا ادلهم الأمر لا يجزع ، ولا يفزع ، بل يتأنى للأمور ، ويصطبر لها ، معالجا أمرها فى أناة وحكمة ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « انما الصبر عند الصدمة الأولى ، فاذا دهمه الأمر ، لا ينزعج ولا يضطرب ، ولا يذهب لبه وتفكيره ، بل يسيطر على نفسه ، ويدبر الأمر من غير هلع ولا جزع ، وكان يرى أن الصبر من الايمان ٠

وان الشدائد النفسية تحتاج الى الصبر أكثر من الشدائد المادية ، وانظر الى موقفه الصابر ، عندما أشاعوا قالة السوء عن حبه أم المؤمنين عائشة ، فقد تلقى الخبر ، وساوره الظن ، وبدا فى بعض عمله ، وفى ملامح وجهه ، ولكنه كان المثل الكامل فى الثبات ، وتقدير الأمر ، ودعا بعض خاصته للاستشارة فى هذا الافك ، وليتعرف مقدار الحق فيه ، فمنهم من نفى الوقوع وأكد النفى كعمر رضى الله عنه ، ومنهم من دعا الى التحرى بسؤال جاريتها ، وهو على ، وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى هداة الصابر أن ذلك هو الأسلم والأحزم ، فسلكه ، فانتهى الى البراءة ، وما كان ذلك ليكون الا من صبور حكيم متدبر يغلب العقل والفكر فى وقت تطيش فيه الأفهام ، وتجيش فيه العواطف ، ولكن النفس نفس محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسيطر عليها الحكمة دائما ٠

وان صبر النبى صلى الله عليه وسلم فى البأساء والضراء وحين البأس ، كان صبر من يتوقع البلاء قبل أن يقع ، فعبد نفسه لقوة الاحتمال ، وقد أخبره الله تعالى بما سينزل به وبالمؤمنين ليصبروا فقال تعالى : **« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون »** ٠

ولقد قال تعالى : « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله ، ألا ان نصر الله قريب** » ٠

وقال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » ٠

وقال سبحانه : « يايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » ٠

فكان الصبر الاختيارى من غير شكوى ولا أنين عدته فى تبليغ رسالة ربه ، وقد تربى عليها قبل البعثة ، وكان قوته بعدها ٠

العادل

١٥٥ ـــ الأمانة والعدل صنوان متلازمان ، فلا يمكن أن يكون الأمين غير عادل ، ولا أن يكون العادل غير أمين ، لأن الأمانة مراعاة الانسان لحق غيره ، لا ينكره ولا يجحده ، والعدالة ، تبتدىء من انتصاف الانسان من نفسه ، ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى طلب أداء الأمانات بالعدالة فى الحكم ، فقال تعالى : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظكم به ، ان الله كان سميعا بصيرا** » ٠

ولقد اشتهر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بالأمانة ، حتى صار اسمه « الأمين » ولما حكموا أول من يدخل البيت فى أمر الحجر الأسود ، وكان هو الداخل الأول ارتضوه حكما ، وفرحوا به ، وقالوا انه الأمين ، وكان فى معاملاته كلها عدلا ، لا يغبن ، ولا يخدع ، وكان ينتصف من نفسه فى كل ما يتعلق به ، كان ذلك قبل البعثة ٠

أهدت اليه أم المؤمنين خديجة قبل البعثة زيد بن حارثة ، فكان مولى له ، ولما عرفه أهله ، وجاءوا اليه يريدون أن يفتدوه بثمنه ، أعطاهم الرجل العدل ، الحق فى أخذه ، ولم يمارهم فى حقهم ، بل انه زاد فى العدل الاحسان ، فقال خذوه من غير ثمن اذا أراد الذهاب معكم ، ولكن زيدا رفض أن يترك محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن يبقى فى قربه مولى ، ولم يقبل الذهاب مع أسرته ، وهنا يتحرك العدل مرة أخرى فى قلب محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، فيتخذه له ولدا ، وقد كان ذلك سائغا عند العرب ، كما كان سائغا عند الرومان ، ويلحق المتبنى بنسب من تبناه ، فكان يقال له زيد ابن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان مقتضى

هذا الالحاق قرشياً ، وتزوج على أنه قرشى ، حتى نزل من بعد البعثة تحريم التبنى ، وعدم الحاق الدعى بنسب من تبناه ، وكان قد أراد محمد بن عبد الله العادل (عليه الصلاة والسلام) أن يعوضه عن ترك أسرته بذلك التعويض الكريم ٠

ولقد كان الخصماء يتحاكمون اليه عليه الصلاة والسلام قبل بعثته ، فقد روى أن الربيع بن خيثم كان يتحاكم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجاهلية قبل الاسلام ، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة والاستقامة ، وكونه لا ينطق الا بالحق ، ولا يتجه الى غيره ، ولا يرضى بالباطل أبدا ٠

بعد البعثة :

١٥٦ — لقد كان عليه الصلاة والسلام يوزع الغنائم ، فيعطى كل ذى حق حقه ، لا يلتفت الى ما وراء ذلك ، فلا غاية يطلبها الا تحقيق العدل وارادته ، يعطى الرجل من الغنيمة بمقدار جهاده ، وقد يعطى من يريد تأليف قلبه ، وقد أسلم على حرف ، فهو يعطى لعاعة من المال لمن يريد أن يتألفه ، كما كان يعطى بعض القرشيين الذين أسلموا عند الفتح تأليفا لقلوبهم وليستمروا على دينهم الذى دخلوه طوعا من غير اكراه ، ولكن لكثرة معاندتهم من قبل تألفهم النبى ببعض من الصدقات ٠

ولقد حدث أن قال بعض الذين فى قلوبهم ضعف ايمان للرسول عليه الصلاة والسلام : اعدل ، فرد عليه النبى (عليه الصلاة والسلام) « ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى » ولنذكر الخبر ، كما فى كتب الحديث ، فقد روى قتادة أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بالاسلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقسم الغنائم ، فقال : « يا محمد ، والله لئن أمرك الله أن تعدل ما عدلت ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام ويلك ، فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى ، ثم قال نبى الله ، احذروا هذا وأشباهه ، فان فى أمتى أشباه هذا يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، فان خرجوا فاقتلوهم ، ثم اذا خرجوا فاقتلوهم» وروى مثل هذا فى الصحيحين مسلم والبخارى ٠

وان هذا الكلام يدل على عدالة النبى عليه الصلاة والسلام المطلقة ، فقد سمع القول من المعترض من غير أن يمنعه من الاعتراض ، ولكن بين له أنه العادل ، وأنه سيكون ارهاق من بعده ، فمن عدل كعدله نجا، ومن لم يعدل فقد انحرف الى الهاوية ٠

ويدل ثانيا على أن أمثال هذا ممن يرون العدل غير عدل ويحكمون بهواهم ، أو بنظرهم بادى الرأى سيكونون شوكة فى جنب الحكم الاسلامى ، وأن سلامة الحكم فى ردعهم ولو بالقتل وتكراره ، وذلك عقابهم اذا خرجوا على الحاكم العدل والا لا يقتلوا ، كما قال على « من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأصابه » ٠

ثم ان النبى عليه الصلاة والسلام أردف فى هذه الواقعة ما يؤكد عدله المطلق القائم على أمانته ، فقال : « والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ، ولا أمنعكم انما أنا خازن » ٠

وان النبى العادل كان ينفذ الحق فى نفسه ، ان ظن أنه اعتدى ، كان يقسم الغنائم مرة ، وبعض أعراب المسلمين يلاحيه ، فرده بعود فى يده ، فشكا الألم فأعطاه الرسول الأمين العادل ، ليقتص منه ، فعفا الرجل ، واستحيا أن يفعل ٠

ولقد كان يخشى لفرط احساسه بالعدالة ، وألا يلقى الله خالصا من حقوق العباد ، فقام ، وهو مريض مرض الموت ، وقد بلغ به الاعياء أشده وقال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت منه مالا ، فهذا مالى ، فليأخذ منه ، ولا يخش الشعناء فانها ليست من شأنى ، ألا وان أحبكم الى من أخذ منى حقا ، ان كان له ، أو حللنى ، فلقيت ربى وأنا طيب النفس » ٠

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام ينهى عن الظلم بكل ضروبه ، وأكل أموال الناس ، وينهى عن معاونة الظالمين بكل أسباب المعاونة ، وانه يشدد فى ذلك ، فهو يقول : « اتقوا دعوة المظلوم ، فانه ليس بينها وبين الله حجاب » وقال عليه الصلاة والسلام : « من مشى مع ظالم فقد سعى الى النار » أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، ونهى المحكومين عن أن يسكتوا عن ظلم الحاكمين ، لأنه معاونة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة الا اذا رأوا ولم ينكروا » وأوجب حمل الظالم على العدل ، وحث على ذلك فى قوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدى الظالم ، ولتأطرنه على الحق اطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم » ٠

وان هذه الأحاديث تدل على أمرين عظيمين : ـ أولهما ـ شدة تمسك النبى عليه الصلاة والسلام بالعدل والدعوة اليه والتشدد فيه ، والاستمساك به ، لأنه كمال فى ذاته ، ويدل على استقامة النفس ، حاكما كان أو محكوما ، فهو الكمال المطلق ان كان ـ وثانيهما ـ انه يدعو الى العدل الجماعى ، لأنه هو الذى يستقيم به أمر الجماعة ، فلا يظلم الرجل أهله ، ولا يظلم الزوج زوجه ، ولا القريب قريبه ، ولا الرئيس مرءوسه ، ولا الحاكم محكومه ، ولا المولى مولاه ، وانه عليه الصلاة والسلام يقول فى حديث قدسى عن ربه : « يا عبادى انى كتبت العدل على نفسى فلا تظالموا » .

١٥٧ ـ ولقد كان عليه الصلاة والسلام يتولى الفصل فى خصومات المسلمين فى خاصها وعامها ، ويأتى فى فصله بحكم الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكانت أقضيته تقصد القضاء بحكم الله تعالى ، وتنفيذ ما أمر الله تعالى به من أمر وما نهى عنه ، وكانت أحكامه عادلة ، لا يحابى قويا ، ولا يهضم حق ضعيف .

ولما سرقت فاطمة المخزومية ، وأهم قريشا أن يقطع محمد صلى الله عليه وسلم يدها ، ذهب اليه حبه أسامة بن زيد فتشفع له فى ألا يقيم الحد عليها بقطع يدها ، فنهره عليه الصلاة والسلام قائلا له مستنكرا : أتشفع فى حد من حدود الله ، ثم وقف خطيبا يقول :

« ما بال أناس يشفعون فى حد من حدود الله ، انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف قطعوه ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقعطت يدها » .

فكان العدل الذى لا يمارى ولا يحابى فى حكم من أحكام الله تعالى .

وكان عليه الصلاة والسلام ينظر فى الأمر عند الاختصام الى لب القضية ، فيتعرف المعتدى ، فيحكم عليه ، ولا ينظر فقط الى المظهر ، ويروى فى الصحيحين « البخارى ومسلم » أن رجلا عض يد رجل آخر ، فنزع المعضوض يده من فم الآخر ، فوقعت ثناياه ، فاختصموا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن الذى رفع الأمر من عض أخاه ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام ، منحيا باللائمة على العاض مهدرا دية أسنانه : « يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل لا دية لك » .

وهو بهذا ينظر نظر الأريب الى موضوع القضية ، ليتعرف موضوع الاعتداء ، ومن الذى كان السبب ، ثم فيه اشارة الى من دفع عن نفسه الظلم ، وتعين عليه ألا يدفع الظلم الا بالذى ينزل بالآخر ، فهو برىء مما يترتب على فعله ، والمتسبب هو الذى يبوء بالاثم ولو كان هو الذى نزل به الأذى ٠

وكان عليه الصلاة والسلام يلاحظ فى قضائه ثلاثة أمور :

أولها ــ العدل بين الناس والمساواة بينهم فى تنفيذ أحكام الله تعالى لا فرق بين أمير وسوقة ، ولا بين شريف وضعيف ، بل الجميع أمام القانون سواء ؟ وفى المأثور « الناس سواسية كأسنان المشط » ٠

ثانيها ــ أنه يلاحظ الأثر الاجتماعى لحكمه ، فهو يغلظ العقاب على من يكثر فساده ، حماية للجماعة المسلمة من شره ٠

ثالثها ــ أنه لفرط ايمانه بالعدل يخشى أن يقع منه ظلم لأحد ، بسبب من يدلون بالحجة فى فصاحة منهم وعجز غيرهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام وهو العدل الأمين ! انكم تختصمون الى ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من الآخر ، فمن قضيت له بحق أخيه ، فانما اقتطع له قطعة من النار » ٠

وفى الحق ان النبى عليه الصلاة والسلام كان عدلا فى ذات نفسه ، وعدلا فى كل ما يقوم به ، وعدلا فى أحكامه ، ويغلب المساواة فى كل شىء حتى فى الهدايا يهدى اليه باعتباره كبير المؤمنين ، ويقول فى ذلك ابن القيم فى زاد المعاد فى هدى خير العباد ٠ وقد جاء فى صحيح البخارى أن النبى عليه الصلاة والسلام أهديت اليه أقبية من ديباج مزررة بالذهب ، فقسمها فى ناس من أصحابه ، وعزل منها واحدا لمخرمة بن نوفل ، فجاء ومعه المسور ابنه ، فاستقبله ، وقال يا أبا المسور خبأت لك هذا ٠

وهكذا نرى العدل يعم ولا يخص ، وانه كما ثبت من تاريخه قبل البعثة وبعدها لم يظلم ، ولم يضيع حقا لأحد ، بل كان الحريص على حق غيره الحفيظ عليه ٠

وكان يعوض من يهدى من أصحابه ان تمكن من التعويض ، ويهادى من يهاديه ، لأن الهدية محبة ، وهو عليه الصلاة والسلام يبادل المحبة بالمحبة فهو عادل حتى فيما تبعثه العاطفة ، ويدعو اليه الود ٠

الشجاع

١٥٨ ــ يذكر بعض العلماء الشجاعة بأنها منبعثة من القوة الغضبية ، ولكنها خاضعة لحكم العقل ، وللحكمة ، وللمعرفة ، وهى السبيل الى دفع الأذى والنفع للجماعة ، وليست مرادفة للتهور ، وان كان منبعثهما واحدا ، وهى القوة الغضبية الدافعة عن النفس فى موقف للتعرض للأذى ، بيد أن التهور اندفاع غير محكوم بالعقل والحكمة ، ولا خاضع للمعرفة ، أما الشجاعة فانها لا تصدر الا عن تفكير سليم ، ودواعى الحكمة المستقيمة ٠

وليست الشجاعة منافية للحذر ، بل انه مسيطر عليها ، فهو يدفعها ، وهو يحكمها ، وقد يكون الخوف مع الشجاعة ، لأن الشجاع يتردد قبل أن يقدم فيوازن بين العمل ونتائجه ، والأقدام وغاياته ، وهل يتعين الضرب بالسيف ، وان ذلك كله قد يصحبه ، فليس الشجاع هو الذى لا يخاف قط ، انما الشجاع من يتغلب على بواعث ، ويتقدم فى تدبير محكم ، وصبر وقوة احتمال ، ولا تتصور الشجاعة الا مع التدبير والصبر والاحكام وتعرف الغايات والمقاصد ٠

والشجاعة قد تكون معنوية ، وليس لها مظهر حسى ، وقد تكون حسية بدافع معنوى ، ورغبة فى رفع حق ، وخفض باطل ، والنبى عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان المثل الكامل للشجاعة المعنوية ، التى لا تهاب المخالفة فى الحق ، فقريش كلها كانت تسجد للصنم ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يسجد لصنم قط ، وكان يجابه بذلك قريشا ، ولا يبالى ، وكانوا يحلفون باللات والعزى ومناة الثالثة الى آخر الأسماء التى سموها ، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، وكان هو يرد من يطلب منه الحلف بها ، فيقول انه يكرهها وما يكون ذلك الا من شجاع قوى الايمان بما يعتقد ويؤمن فيختلف مع بائع فى الثمن ، فيطلب منه الحلف باللات والعزى ، فيرد محمد ابن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) ردا قويا ، بأنه يكره هذه الأسماء ، فيقبل الرجل قوله من غير يمين لروعة ايمانه وشجاعته فى هذا الايمان ٠

وانه فى رحلته الى الشام وهو فى الخامسة والعشرين كان شجاعا فى نفسه وفكره وقلبه عندما منع رجال القافلة التى أعطته زمامها من أن يسابقوا رجال قافلة أخرى ، واجه من معه بذلك المنع غير هياب ولا وجل ، ثم خالف طريق الأخرى ، وسار فى طريق أخرى ليمر بقبر أمه بالأبواء ، ويستعبر عليه العبرات ، اذ كان لأول مرة زاره ، وكان فى وعى عند موتها ، اذ كان فى السادسة من عمره ، ومع ذلك وصل قبل القافلة ، وكان قد اختار الطريق

الذى ظنه من معه وعرا ، وظنه هو مسلوكا ، وكان مستقيما ، لأنه وصل قبل القافلة المسرعة من غير مسابقة ٠

وان هذا الخبر فى ذاته يدل على قدرة تدبير للأمور ، وتعرف لأقرب الوصول الى الهدف ، ويدل على رفق بمن معه ، والابتعاد عن المسابقات غير المثمرة الا التعب ، وعلى كمال الرفق بمن فى صحبته ، كما يدل على شجاعة نادرة ، وقوة احتمال كاملة ٠

ولقد كان شجاعا فى أقصى درجات الشجاعة عندما قبل أن يكون الحكم بين قبائل العرب فى وضع الحجر الأسود ، فقد تقدم وهو يعلم أن الحاكم لا يرضى كل من يحكمونه ، ولكنه بتوفيق الله تعالى أرضاهم جميعا ٠

وهكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام شجاعا قبل البعثة يقول الحق ولا يخشى لومة لائم ، يجاهر به غير مستهين بمن يقاومه ، بل راض بأن ينطق بالحق ، وحسبه ذلك وكفى ٠

بعد البعثة :

١٥٩ ـــ بعد أن بعثه الله تعالى بدت شجاعته كاملة ، والبعثة من أول أدوارها ، وفى أثنائها ، وفى نهايتها تحتاج الى شجاعة ، وعندما التقى عليه الصلاة والسلام بورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، قال له : « ما أتى أحد بمثل ما أتيت به الا عودى » ولقاء أعداء الفكرة يحتاج الى شجاعة وثبات جأش ، وقوة احتمال ، « والله أعلم حيث يجعل رسالته » فما يختار رسولا خوارا ، ولا رسولا ضجرا ، ولا رسولا يعتريه اليأس فى أول الصدمة ، بل يستمر مصابرا مستعدا للصدمات ، واحدة بعد أخرى ، وأحيانا تجىء متكاثفة غير متفرقة ، بل مجتمعة صلبة غير متكسرة ، فكان لا يتلقاها الا شجاع النفس ذو العزمة الصادقة فى هدأة المؤمن والقلب ٠

لقد كان أبو جهل يرعد ويبرق ، ويعمل فى ايذاء مستمر ، عسى أن يجبن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن دعوة الحق المستمرة غير الوانية ، بل كلما اشتدت وسائل الايذاء وتعددت وتجمعت ، ازداد عليه الصلاة والسلام عملا ، ما هاب وما مل ، بل كان يصدع بالحق فى اطمئنان وشجاعة ٠

ولقد كان من أعدائه ذو البطش الشديد فما هابه ولا خافه ، وان رفق اليه فى القول ، فذلك شأنه والواجب عليه ، ليقرب من القلوب ولكى لا يكون فظا غليظ القلب ، فينفض الناس من حوله ٠

وعندما أقبل على المسلمين عمر بن الخطاب وكان جبارا مرهوبا فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وهو لا يزال على الشرك فزع المسلمون الا رجلين ـ أحدهما ـ حمل سيفه ليقتله به ان أراد شرا وهو أسد الله تعالى وسيد الشهداء حمزه بن عبد المطلب ، ومحمد بن عبد الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فما فزع ، بل رجا ، وما اضطرب بل اطمأن ، فقال أدخلوه ، فدخل والنبى الأمين ثابت مطمئن هادىء هدوء المؤمن الشجاع ، فلبب عمر ، بقوة ، حتى استكان ثم دعاه الى الاسلام ، فأسلم ٠

ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كان شجاعا يستمر فى دعوته ، وهو يعلم أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ٠ فما وهن لائتمارهم وللأذى ينزل به ، وبضعفاء صحابته ٠

وكان الشجاع الثبت ، وهو مهاجر ، وقد آوى الى غار ثور ، والقوم قد أحاطوا به حاملين سيوفهم ، بل كان الشجاع ، وهو يقول لصاحبه الخائف على النبى صلى الله عليه وسلم لما عساه يصيبه : « لاتحزن ان الله معنا » ٠

وعندما لاقى اليهود فى يثرب ، وهو يعلم مكايد اليهود وايذاهم ، ومكرهم الخبيث الذى لا يمتنعون فيه عن الغدر ، وقد هموا به ، وأرادوا قتله غيلة برمى حجر عليه من عل ، وبدس السم فى طعامه ، وما جبن ، ولا سكت عن الدعوة ، بل استمر يدعوهم الى الحق « **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** » ٠

وان الشجاعة المعنوية بين المنافقين كانت سياسته ، فهو يصدع بالحق بينهم ، كما صدع به بين أصحابه ، فهو فى معاملة المنافقين يسوسهم يريد عمر أن يقتل عبد الله بن أبى ، فيمنعه فى قوة غير آبه لاعتراضه ومكانة عمر فى أهل الايمان ، ويقول له مرشدا ، « لا أقتلهم حتى لا يتحدث العرب أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يقتل أصحابه » ٠ وكان أبعد نظرا من عمر ، لأنه بعد ذلك يرم أهل كل منافق به واستأذنوا النبى عليه الصلاة والسلام فى قتل من فيه من أهل النفاق ، حتى طلب ابن عبد الله بن أبى من النبى عليه الصلاة والسلام أن يأذن له بقتله ، فلم يأذن ، وقال : « أين عمر ، لو قتلتهم يوم طلب عمر أن أقتلهم ، لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم » ٠

وكان عليه الصلاة والسلام شجاعا كريما ، عندما قبل أن يكتب صلح الحديبية ، كما أملى المشركون ، وقد اشتد الأمر على المؤمنين ، لما قالوا من يخرج من المشركين مسلما بغير رضا وليه ردوه ، ومن خرج من عند محمد صلى الله عليه وسلم مرتدا الى مكة المكرمة لا يردوه ، وغضب عمر وكثرة

من المؤمنين ، وقال قائلهم ، لماذا نقبل الدنية فى ديننا ، واشتد غضبهم عندما جاء أحد المسلمين من قريش مكبلا بالحديد فرده ٠

كان شجاعا وهو يعلم أنهم على خطا المخلصين ، وردهم ، ثم تبين بعد ذلك ما كان عليه النبى عليه الصلاة والسلام من حكمة ، عندما طلبوا هم عدم التمسك بهذا الشرط ، والغائه ، لأنه لم يرتد أحد من المسلمين ، ومن خرجوا مسلمين من قريش ، ولم يقبلهم ترصدوا المشركين فى متاجرهم ، فأذاقــوهم الويل والثبور ، وقتلوا منهم ، واستولوا على غنائم كثيرة من أموالهم على ما سنبين ان شاء الله تعالى ٠

شجاعة النبى عليه الصلاة والسلام فى ميدان القتال :

١٦٠ ــــ كتب القتال على محمد عليه الصلاة والسلام ومن معه ، وهو كره لهم ، لأن الدعوة الاسلامية لابد أن تأخذ طريقها ، وأن ترد الاعتداء حتى يكون الدين لله ، وتستقيم القلوب ، ولا تكون الفتنة ، والاكراه على ترك الهداية ، والوقوع فى الغواية ، بعد أن من الله تعالى عليهم بالحق ، والايمان وما كان أهل الايمان ليستخذوا ويستكينوا ويهنوا عن نصرته ، ولذلك أذن لهم فى القتال ، كما قال تعالى : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنــا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صــوامع وبيع وصــلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقــوى عزيز** » ٠

كان لابد من القتال جهادا فى سبيل الله ، ولنصرة الحق ، وكان لابد أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام الموجه له فى كل ميادينه ، والموجه له فى كل نواحيه وضروبه ، وما كان محمد عليه الصلاة والسلام القائد الــذى يحارب بغيره ، فيوجه الى الميدان ، ولا يتوجه هو اليه ، بل كان يتجه هو اليه ليكون القدوة الحسنة فى كل أمر يدعو اليه ، لا يضن بنفسه ، ولا يســتأثر بالراحة ، ويترك غيره يعمل ، بل يكون فى أول العاملين المتقين ٠

وكان على رأس المجاهدين ، جاء فى كتاب الشــفاء للقــاضى عياض ما نصه : « قد حضر عليه الصلاة والســلام المواقف الصعبة ، وفــر الكماة الأبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبــل لا يدبر ، ولا يتزحزح ،

وما من شجاع الا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة سواه عليه الصلاة والسلام » (١) ·

ولقد فهم بعض الناس من قوله تعالى : « **فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين** » أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مأمور بأن يقاتل المشركين اذا واجهوه ولو كان وحده ، وذلك الأمر الخاص به الذى كلفه ، وقد فهمه أولئك المفسرون من قوله تعالى : « **لا تكلف الا نفسك** » ·

ومهما تكن دلالة ذلك النص فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حمل عبء الجهاد ودخول الميدان بنفسه من غير ضن بها وكان أصبر أصحابه فى الجهاد ، فما فر قط من صفوف القتال ، وما يختاره فى موضع أمن ، ولو تولى عنه كل من حوله ·

ولقد روى عن فارس الاسلام على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : « انا كنا اذا حمى البأس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ، ونحن نلوذ بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس بأسا » ·

فكان عليه الصلاة والسلام هو العلم الذى يهتدى به فى الميدان أشجع المجاهدين وأصبرهم صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ويقول عبد الله بن عمر الذى شاهد الحرب ، ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الشجاع الرضى الكريم الصبور ، الذى يقف فى الهيجاء ، ويحمل سيفه ، ليجيب كل هيعة ·

وانه عليه الصلاة والسلام كان قوى الاحتمال مع شجاعة ، ورباطة جأش ، لقد جرح فى يوم أحد ، واشتدت جراحه ، وأنزفت دمه ، ومع ذلك داوم على الحرب ، ولم يهن ولم يستكن ·

ولقد أريد قتله عليه الصلاة والسلام فى هيجاء أحد ، واضطرابها ، فجاء أبى بن خلف يريد قتله ، وقد أعد لذلك عدته منذ بدر الكبرى ، اذ كان فى الأسرى ، فلما كان أحد ، ولم يكن للمسلمين جاء وقد ادرع بالحديد ،

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٦٦ ·

لا يرى منه الا عينه ، حتى لا يصيبه سيف أو رمح ، وهو يقول أين محمد (صلى الله عليه وسلم) لا نجوت ان نجا محمد ، فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم الذى أنزف من دمه ما أنزف ، خلوا طريقه ، وتناول الحربة من الحارث ابن الصمة ، وحملها ، وانتفض بها انتفاضة تطايروا تطاير الشعراء عن ظهر البعير اذا انتفض ، فطعنه عليه الصلاة والسلام فى عنقه طعنة تدأ دأمنها من فرسه مرارا ، وقيل بل كسر ضلعا من أضلاعه ، فرجع الى قريش يقول : قتلنى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهم يقولون لا بأس عليك · فقال لو كان يجمع الناس لقتلهم ، أليس قد قال أنا أقتلك ، والله لو بصق على لقتلنى ، فمات فى سرف فى قفولهم الى مكة المكرمة (١) · وانه فى حرب هوازن ثبت وحده ، وذلك كاف لبيان مدى شجاعته وصبره ·

١٦١ ــ هذه شجاعته عليه الصلاة والسلام فى الجهاد بالسيف ، وقد ذكرنا شجاعته المعنوية فى السلم ، وكيف كان لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يلاحظ فى أفعاله للبيئة وتقاليدها ، ولو كانت مستنكرة ، ولو كان منشأ هذه التقاليد أنهم لا يعقلون شيئا ، ولا يهتدون ، بل ما يكون معروفا يعرفه ، وما يكون نكرا ينكره ، وهو فى ذلك قبل البعثة وبعدها على حال واحدة ، ولا يهاب الرجال ، بل يهاب الله تعالى وحده ، ويرفق بالرجال ما كان الرفق سبيلا للهداية ، فهو الهادى المرشد الداعى الى الحق فى كل أحواله ·

وهو يستجيب لداعى النجدة ، حيث تكون الاستجابة واجبة ، والنجدة لازمة ، وحيث يكون ملهوف يغاث ، لقد فزع أهل المدينة ، وتصايحوا لمخوف ألم ، فانطلق ناس قبل الصوت · يتعرفون مكان الاستغاثة ، وكل يعتقد أنه الذى سبق ، ولكنهم وجدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد سبقهم الى الصوت ، ولقوه قافلا وقد سبقهم ، وقد سارع الى الصوت على فرس لأبى طلحة ركبه النبى صلى الله عليه وسلم الشجاع القوى الأمين ، والفرس عار ، لا سرج عليه ، وقد سبق عليه الصلاة والسلام والسيف فى عنقه ، وقال لهم ، وهو راجع : « لن تراعوا » ·

وهكذا كانت شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاملة فى كل ضروب الشجاعة ·

---

(١) الشفاء ص ٦٨ جـ ١ ·

واذا كان الحق يتكلم ، ولا يجمجم ، وفى الميدان يتقدم كل الصفوف ، ولا يحجم ، وفى النجـدة هو السباق الى مواطن الاغاثة فهو فى كل أحـواله الشجاع ، ولكن فى غير خيلاء ، ولا مفاخرة ، ولا استعلاء ، بـل هو فى هذه الداعى الى الحق ، والى صراط مستقيم ٠

وقد روى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « فضلت الناس بشدة البطش ، والمراد البطش بالظالم ، وأخـذه بالقوة بعد ألا تجدى الموعظة ، ويخرج من طور الجاحد المجرد الى طـور المعتدى الأثيم ، الذى يحاول أن يفتن الناس فى دينهم والفتنة أشد من القتل ٠

الرجـل

١٦٢ ـــ ان سمات الرجال الخلقية والعقلية ينبىء عنها أو تومىء اليها صفاتهم الجسمية ، فأولئك الشواذ فى تكوينهم النفسى أو العقلى يبـدو شذوذهم فى أجسامهم بضمور واضح مثلا فى عضلات الوجوه ، أو اعوجاج فى بعض أجزاء جسومهم ، أو اضطراب فى عيونهم ، أو انحراف فى بعض الملامح ، وان ذلك يتضح كاملا ، لأهل العلم بالاغصاب ، والنفوس ، والمتتبعين للمرضى من الشواذ ٠

وان اعتدال الجسم ، وتناسب أجزائه يدل فى الجملة على اسـتقامة العقول والنفوس ، وان المزاج النفسى يصحبه غالبا مزاج جسـمى كامل ، متناسق فى تركيبه الظاهر والداخل ٠ فالعناصر المؤثرة كلها متناسقة منسجمة انسجاما لا شـذوذ فيه ، ويكون معـه انسـجام نفسى كامل ، وعقـل كامل وخلق كامل ٠

ولقد وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم النبيين فى حديث المعراج بما يدل على كمالهم الجسمى ٠ وهو كمال فيه جمال ٠ لا يكون ما يسوغ النفرة منهم أبدا ٠ فقد روى سعيد بن المسيب ٠ أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم وصف لأصـحابه ابراهيم وموسى وعيسى ٠ فقـال : « أما ابراهيم فلم أر رجلا قط أشبه بصاحبكم ٠ ولا صاحبكم أشبه به منه ٠ وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أقنى كأنه من رجال شنودة (١) ٠ وأمـا عيسى

---

(١) المضرب الخفيف اللحم ، والجعد المنكسر الشعر ، والأقنى المرتفع قصبة الأنف ، وشنودة قبيلة من الأزد ، والآدم ذو الحمرة المشرب بسمرة ٠

ابن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل سبط الشعر · كثير خيلان الوجه ، كأنه خرج من ديماس · تخال رأسه نقطة ماء · وليس به ماء ، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود » ·

وان هذه الأوصاف لأولئك الأنبياء الثلاثة · وهم من أولى العزم من الرسل ، تدل على كمال التناسق الجسمى فيهم مع اختلاف فى الأوصاف الجزئية · واتفاقهم فى أصل التنسيق ، وقد روى الدارقطنى من حديث أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « ما بعث الله تعالى نبيا الا حسن الوجه حسن الصوت· وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا » (صلى الله تعالى عليه وسلم) ·

لم يكن بدعا من الأنبياء أن يكون كل ما عليه محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) من الخلق والتكوين مسترعيا للأنظار ، هو جميل فى جسمه ، كما هو جميل فى خلقه ، وانه عندما تحدى قريشا بالقرآن الكريم ، وعاب آلهتهم ، وبين بطلان عبادتها ، ورأوا أباطالب عمه فكلموه · وهو يحميه دونهم · أتوا بفتى نهد هو أجمل قريش فى زعمهم ، ليكون ولدا لأبى طالب ، ويسلم لهم محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) ليقتلوه ، فرفض تلك المساومة على ابن أخيه ، وقال فى تهكم لاذع « تعطونى ولدكم أغذوه لكم ، واعطيكم ولدى تقتلونه » وهذا الخبر يدل على أن محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) قد بلغ الكمال الجسمى ، اذ سواه الله تعالى فأحسن خلقه ·

ولا شك أن ذلك التناسق الجسمى له أثره فى الدعوة ، والاستجابة لها اذ كان مصحوبا باشراق روحى ، وانه مما يروى فى ذلك أنه بعد أن تجاوبت الدعوة المحمدية فى الأصداء ، وعرفت فى أرجاء الجزيرة العربية ، وشاع خبر المكذبين وهم الكثرة ، كالشأن فى كل دعوة جديدة تجىء على لسان رجل يأتيهم بجديد لم يألفوه ، فى هذه الأثناء قابل أعرابى محمد ابن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) فراعه منظره ، واشراق وجهه ، وتلألؤ النور فى جبينه ، فسأله من أنت ؟ فقال محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال الرجل فى ايمان مدرك : أأنت الذى تقول عنه قريش انه كذاب !! فقال الرسول الكريم : نعم · فقال الرجل ليس هذا بوجه كذاب ، ما الذى تدعو اليه ؟ فذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حقيقة الاسلام ، فأعلن الأعرابى ايمانه ·

ولقد أكثر الواصفون لتكوين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء من طرق أنه كان فيه جمال يتلألأ وجهه اشراقا ، ونختار من هذه الروايات

وصفين جامعين : أحـدهما وصف هند بن خديجة رضى الله تعـالى عنـه ، وكان رجلا وصافا فيه دقة ملاحظة ، وادراك للصـفات ، ـ وثانيهما ـ لأم معبد ، ولنختر هذين الخبرين ففيهما الغناء ٠

١٦٣ ـــ حديث هند بن أبى هالة ربيب النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم رواه الحسن بن على رضى الله عنهما ، فقد قال الحسن أول سيدى شباب أهـل الجنة ٠

سألت خالى هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان وصافا ، وأنا أرجو أن يصف لىّ شيئا منـه أتعلق به ، فقال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر (١) أطول من الربوع (٢) وأقصر من الشذب (٣) ، عظيم الهامة ، رجل (٤) الشعر ، ان انفرقت عقيقه (٥) فرق ؛ والا لا يجاوز شعره شحمة أذنه ، ذا وفرة ٠ أزهر (٦) اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى (٧) العرنين ، له نـور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع (٨) الفم أشنب ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقـه جيد دمية فى صفاء الفضة معتدل الخلق باديا متماسكا ، سـواء البطن والصدر ، فسيح الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراويس أبذر المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصـدر ، طويل الزندين ، رحب الراحـة شثن الكفين (٩)

---

(١) وخيلا جمع خال ، وهو شام الوجه الذى يعطيه حسنا ، فى الماء السائل ٠

(٢) أى أنه ربعة من الرجال أقرب الى الطويل منه الى القصير ٠

(٣) الشذب البائن الطول ٠

(٤) الشعر الرجل المرسل أنه مشط ٠

(٥) العقيقة شعر الرأس ٠

(٦) الأزهر النير ٠

(٧) الأقنى السائل الأنف ٠

(٨) الضليع الواسع والمشنب رواق الأسنان ، والمسربة ، خيط الشعر بين الصدر والسرة ، وسواء معناه سـوى ٠

(٩) شنن الكفين والقدمين ، أى أنهما ذواتا لحم ، فليسا معروقين ٠ والزندان عظما الذراعين ، سائل الأطراف ، أى أن أطرافه عليه الصلاة والسلام فخمة لا تعرج ، بل انها مستقيمة ، ورحب الراحة أى واسع اليد ٠

والقدين ، سائل الأطراف سبط العضب خمصان (١) الأخمصين ، مسبح القدمين ، ينبو عنهما الماء ٠ اذ زال تقلعا (٢) ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية ، اذا مشى كأنما ينحط من صبب ، واذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره الى الأرض أطول من نظره الى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام » ٠

وان هذا يدل على الجمال والكمال ، جمال الرجولة ، وكمال الانسان ، فكل ما فيه يسترعى الأنظار ، ولا تنصرف عنه ، ولذلك من لقيه ممن هو خالى الذهن ، لا يتجه اليه بحقد أو حسد ، أو ضغن يلتفت اليه ، ويجد فيه مثلا كاملا للرجل ، ومكانة عالية فى الخلق ، والاشعار بالمودة ، فهو لا يتقدم مباهيا ، ولا يسبق معتزا ، ولكن يسير وراءه متواضعا ، متطامنا ، ويلقى السلام على كل من يلقاه اشعارا له بالمودة والمحبة ، حتى لا تسبق الجهامة ، والمنافرة ، فهو جميل التكوين والتنسيق فى جسمه مرضى اللقاء ، بل محبوب اللقاء فى خلقه ، وما قام بينه وبين أحد فى الجاهلية عداء ، ولا كانت شحناء بينه وبين أحد منهم ، ولا ملاحاة فى عصبية أو ما يشبهها من المشادات الجاهلية ، بل كان الأليف المألوف ، القريب الى النفوس خصوصا النفوس المستقيمة التى لا التواء فيها ، ولا منافرة ٠

وذلك فوق ما خصه الله تعالى به من جاذبية شديدة تعلن الطيبة ، وتكشف عن خبيئة نفسه الطاهرة المسالمة التى لا تنافر ولا تغاضب ، ولا تصخب ٠

ولنقرأ وصفا ، لامرأة مر عليها عابرا فى هجرته من مكة الى المدينة ، فقد قالت واصفة له ٠ وقد سئلت عنه أم معبد :

لقد مر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، ومولاه عامر بن فهيرة ودليلهم عبد الله بن أريقط الديلمى ، فسألوها هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا ، وقالت : لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى ، وكانوا ممحلين ، فنظر عليه الصلاة والسلام الى شاة فى كسر خيمتها ، فقال ما هذه الشاة

---

(١) خمصان الأخمصين ، الأخمص وسط القدم الذى ينزل الى الأرض ، ولا تمسه ، وخمصانهما أنه طويل ، أى أنهما متباعدان ٠

(٢) التقلع ، رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ ، التزام طريقة الشىء ، والقصد فيه ، والهون الرفق ٠

يا أم معبد ، فقالت : نحلها (١) الجهد ، فقال عليه الصلاة والسلام أتأذنين لى أن أحلبها ، فقالت ان كان بها حلب فاحلبها ، فدعا بالشاة فمسحها ، وذكر اسم الله ، فكان فى حلبة منها ما كفاهم أجمعين ، ثم حلبها ، وترك عندها اناءها ملآن • فلما جاء بعلها استنكر اللبن ، وقال : من أين لك هذا ياأم معبد ، ولا حلوبة فى البيت والشاء عازب !!

فقالت : لا والله مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، فقال صفيه ، فوالله انى لأراه صاحب قريش الذى تطلب !!

فقالت : رأيت رجلا ، ظاهر الوضاءة (٢) حسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تعبه ثلجة ، ولم تزر به صعلة ، قسيم وسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، أحور أكحل ، أزج أقرن فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما ، وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن أبهى الناس وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة لا تشنوه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين (٣) ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، وان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمره محفود ، محشود ، لا عابس ولا مفند (٤) •

١٦٤ — هذا وصف من رأوه ، وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولها : جمال تكوينه الجثمانى ، وكمال التنسيق بين أعضائه ، حتى انه لو أراد مصور أن يضع سورة لرجل مكتمل الجسم ، منسق الخلق ، ما وجد خيرا من هذه الصورة التى يصورها من رأوها ، وكان لها روعة عند كل من رأوها ، يستوى فى ذلك من خالفه وعائده ، ومن أطاعه وصدقه ، فهى صفات لها أثرها عند الناظر اليه ، وهى تزيد الموافق تصديقا ، وتثير الحقد

---

(١) المحل الجدب ، ونحل يعنى ضعف وهزل •

(٢) الوضاءة الجمال ، وأبلج الوجه معناه مشرق ، والثجلة كبر البطن ، والصعلة صغر الرأس ، والقسيم والوسيم من سلامة التكوين ، والدعج شدة سواد حبة العين ، والوطف طول رمش العينين ، والصحل بحة يسيرة تجعل للصوت تأثيرا •

(٣) غصنان هما الاثنان اللذان يحيطان به أبو بكر ، والدليل •

(٤) محفود أى مخدوم ، ومحشود معناه أن من معه يحيطون به ، ومعنى غير مفند لا يجابه غيره بالتخطئة والمخالفة •

والحسد ، ومحبة الأذى عند من يعانده استكبارا ، فان المكابر يزداد اعناتا ، كلما رأى عوامل التأييد لنقيض رأيه تزداد وضوحا واعلاما ، وخصوصا اذا كان صدقا ثابتا بالمعاينة ، وليست خبرا يقبل الانكار ٠

وان قريشا كانت تعلم فيه ذلك التكوين ، ولذلك لما أرادت أن تعوض أبا طالب عن ابن أخيه قدمت له أنهد فتى فى قريش ، ولكن أنى يكون من محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم نور الانسانية ورسولها ٠

الأمر الثانى - أن قلبه الطاهر كان يشع على وجهه بالنور ، فهو اذ يمشى يحف به النور الذى أضفاه الله تعالى عليه بتطهير قلبه ، وتنوير نفسه بالخير ، فكان كما قالت أم معبد « وضاء الجبين متلألئا بالنور ، من غير استكبار ولا استعلاء ، بل كان بين الناس متطامن النفس ، وان اليهم ، وهى فيهم كأحدهم ، لولا فضل الرسالة ، وما جعله الله تعالى له من مكان ليصل القول الطيب الى أمته » ٠

الأمر الثالث - شدة جاذبيته صلى الله تعالى عليه وسلم مع الهيبة التى تفرض قولها على الناس ، ومع كمال المحبة واستشراف النفس المحبة اليه ، أو النفس الخالية من ضغن أو حقد ، أو اعنات فى المخالفة ، فان النفس التى تكون على هذه الشاكلة توجد فيها مقاومة للتأثير النفسى الذى يتجه الى البراءة ، وانها تكون مدنسة بالشر قد سكنها الشيطان وغلبت عليها وساوسه ، فالقلب لا يصدق ، ويكون ممن جحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ، ولقد كان المشركون يعرفون قوة تأثيره بشخصه ، فوق ما معه من حق وبينات تثبت صدق ما يأتى ، ولذلك كانوا يسبقون الى قبائل العرب ينفرونهم ، لكيلا يؤثر فيهم بشخصه وقوله ، وبينات الله تعالى التى أجراها على يديه ، ونزل بها الوحى الالهى ٠

ومع كبر ما صنعوا ، لم ينفر الناس من الاستماع اليه ، والانعطاف ، لأن الحق بين ، والحجة قائمة ، والداعى تنجذب اليه النفوس ، وتصغى اليه أفئدة طلاب الحق الذى لا يمتارون فيه ان وجه اليهم ودعوا اليه ٠

١٦٥ - وكان كل شىء فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعلن قوته وجماله وكماله ، فكان فى شكله الشاب وقد تجاوز الستين من عمره ، لم يكن فيه شيب ٠ بل كان أسود الشعر ، حتى عد الذين خالطوه من صحب ، وخدم شعرات شيبه فذكروا أنه لم يشب فى لحيته ورأسه الا عشرون شعرة وعدها خادمه أنس رضى الله عنه بأنها احدى عشرة ، حتى انه كان يوصف بالشاب ٠ وقد تجاوز الستين فى أصح الروايات عن سنه ، واذا كان تغيير

فى بعض شـعره ظن خضـابا فـانه لم يكن خضـابا ، وانمـا كان من كثرة ما يضمخ به شعره من مسك ، فقد كان يحب الطيب ، وقد روى عنه عليـه الصلاة والسلام أنه قال : « حبب الى من دنياكم ثلاثة : « النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ٠

ونرى أنه عليه الصلاة والسلام جعل الصلاة من الدنيا ، اذ وصفها مما حبب اليه من شئون الدنيا ، لأن الصلاة مع جانبها الروحانى ، ومع أن فيها ذكر الله تعالى ، هى تصلح الدنيا ، لأن الصلاة تربى الضمير ، وترهف الوجدان ، فتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبذلك تصلح شئون الدنيا والآخرة معـا ٠

وانه صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصا على الطيب يتطيب بـه دائما ، حتى انه كان ينبعث عرف الطيب فى مجلسه ، ولقائه ، وفى مظـاهر حسه ، وكان اذا مس رأس طفل استمر العرف الطيب فى رأسه ، وانـه ليعرف أن الرسول مر فلمس طفلا بالريح الطيب ٠

ولا شك أن العرف الطيب تستروح به النفس ، ويقبل معها الجليس ، وتنجذب اليها النفوس ، وان الرائحة الكريهة تنفر ، وتبعد ٠

وكان عليه الصلاة والسلام يعنى بالنظافة فى المظهر ، كما عنى بتطهير المخبر ، كان يعنى بنظافة الحس ، كما عنى بنظافة النفس ، ولنترك الكلمـة للقاضى عياض يبين ذلك ٠٠ فقد قال :

وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرفه ، ونزاهته عن الأقذار ، وعورات الجسد ، فقد خصه الله تعالى بخصائص لم توجد فى غيره ، ثم تممها بنظافة البشرة وخصال الفطـرة وقـال : « بنى الدين على النظافة" ٠٠٠ عن أنس (خادم رسول الله) ما شممت عنبرا قط ، ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ وعن جابر بن سمرة أنه صـلى الله تعالى عليه وسلم مسح خـده قال فوجدت ليده بـردا وريحا ، كأنما أخرجها من جونة عطار قال غيره مسها بطيب ، أو لم يمسها ٠٠ يصافح المصـافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يـده عـلى رأس الصبى ، فيعـرف من بين الصبيان بريحها ، ونام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى دار أنس ، فعرق ، فجاءت أمه بقارورة تجمع فيها عرقه ، فسألها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقالت نجعله فى طيبنا ، وهو من أطيب الطيب ٠ وذكر البخارى فى تاريخه الكبير عن جابر : لم يكن النبى عليه الصـلاة والسلام يمر فى طريق ، فيتبعـه أحد ، الا عرف أنه سلكه من طيبه ، وذكر

اسحق بن راهويه أن تلك كانت رائحته بلا طيب ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى المزنى عن جابر : « أردفنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلفه ، فالتقمت خاتم النبوة بفمى ، فكان ينم على مسكا (١) » ٠

وهنا ننظر نظرة فيما رواه اسحق بن راهويه ، أو ذكره من غير رواية ، وهو أن رائحته عليه الصلاة والسلام التى كانت طيبة كانت من غير تطييب ، وان ذلك بلا ريب جائز وممكن ، فليست أمـرا مستحيلا فى العقل ولا فى الشرع ، فقد اختصه الله تعالى بخواص ليست فى كل الناس ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ٠

ولكن ثبت بالرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسـلام كان يتضمخ بالطيب ، وليس ذلك مما يعيبه ، بل هو من المستحسن ، وثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول : أنه فيما حبب اليه من شئون الدنيا الطيب ٠

ومهما يكن فان محمدا عليه الصلاة والسلام كان حريصا على أن يكون ريحه طيبا ، لكيلا يكون منه ما ينفر جليسه ، بل يجذبه ويحببه ٠

خاتم النبـوة :

١٦٦ ـــ هذه الصفات الجسدية كلها صفات كمال وجمال ، وقـد يشـاركه بعض النـاس فى بعضـها ، ولكن لا يشـاركونه فى كلهـا ٠ فلديه صلى الله تعالى عليه وسلم صفة جسمية لا يشاركه فيها أحد ، وهو جزء بارز بين كتفيه ، وهو من نوع جسمه ، وان كان بارزا فيه ، ويظهر من مجموع الروايات أنه كان صغيرا بحيث لا يظهر من وراء الثوب ناتئا نتوءا واضحا ، فقيل انه كبيضة الحمـام ، وقيـل انه كالتفاحة ، ولابد أن يكون كالتفـاحة الصغيرة ، وقد قال سلمان الفارسى ، أتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة ، وقد تكاثرت الروايات فى ذلك ، حتى بلغ الخبر فى ذلك حد المشهور المستفيض ، وكأنه وصف جسدى معـلم للرسالة ، لا يمارى فيه من رآه ، ولله تعالى آيات فى خلقه ٠

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٤٠ ٠

تقدمة صفات النبى « صلى الله تعالى عليه وسلم »

١٦٧ ــ المنهاج الذى يسلكه الكتاب فى السيرة العطرة ، سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتبوا صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم فى آخر سيرته الطاهرة ، فلا يكتبوها قبل البعثة المباركة ، ولكن يكتبونها بعد أن بلغ الرسالة ، ومضى الى لقائه الكريم ٠

ونحن قد اخترنا أن نكتب تلك الصفات قبل تكليفه أداء الرسالة ، لأنا رأينا ــ ونرجو من الله التوفيق ــ أن نكتبها قبل البعثة ، ليعلم القارىء من الذى كلفه الله أداء الرسالة ، ومن الذى اختاره ليكون بشيرا ونذيرا للناس كافة عربهم وعجمهم ، وليعلم الناس أنه لم يكن فى مجموع صفاته وكمالاته كسائر الناس ، وان كان من الناس ، وانه ليس ككل واحد من البشر مجموع أخلاقه وتكوينه ؛ وان كان منهم ، فهو من الناس ، ولكنه فى أعلى كمال الناس ، واذا كان ليس من الملائكة ، فهو أعلى من الملائكة ، وأليق بالرسالة ، وأجدر بها من الخلق أجمعين ٠

وانه بعد معرفة هذه الصفات وتعرفها ، وانفراده بها من بين جيله ، بل من بين الأجيال كلها ، لا يستطيع أحد أن يقول : لماذا اختاره ربه دون عمرو بن هشام (أبى جهل) أو دون عمر بن الخطاب وهو من الأبرار ، أو دون الصديق ، وهو من الأطهار ، أو دون على ، وهو من الأشداء الأبدال ، لا يستطيع أحد أن يسأل لم اختير دون هؤلاء أو غيرهم ، لأن هذه الصفات الخلقية والجسمية لم تكن لأحد من هؤلاء ، ولا من غيرهم ، ولم يكن ذلك الاشراق المتلألىء الوضاء فى واحد منهم ولا من غيرهم ، ولم يعرف لأحد من الناس الا لأكمل الأخلاق محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ٠

واذا كانت تلك الصفات ، وما آتاه الله تعالى من فضل ، وما اختصه من رحمة هى التى جعلته مستأهلا لأن يحمل أمانة الرسالة دون غيره ، فانها تكون مقدمة للرسالة ، ولا تكون نتيجة لها ، والمقدمة بمقتضى المنطق والعقل تسبق النتيجة ، وتمهد لها ، والتمهيد لا يكون بعد المقصد ، بل انه يرشح له ، وينيره ، ويهدى اليه ٠

وقد يقول قائل : انك فى سبيل بيان صفاته الكريمة قد أتيت بأخبار عنها من بعد بعثه ، واستشهدت له بعد ارساله رحمة للعالمين ، وبذلك تقع فيما خالفته ، وهو أنك ذكرت الصفات بعد البعثة ، وموضعها قبلها على ما ذكرت من منطق !!

ونقول فى الاجابة عن ذلك : « اننا استعنا بالأخبار التى وردت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الرسالة لأنها وضحت صفاته قبل الرسالة ، ولأنها ذكرها من شاهد وعاين من بعد الرسالة ، وهذه الصفات التى عاينها الذين آمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، صفات ذاتية ، لم تجىء بالرسالة ، ولكنها كانت قائمة بذاته الطاهرة من قبلها ، فما وصفه الجسدى حادثا بعد الرسالة ، ولكنه كان من قبلها ، واستمر بعدها ، وما كان ما اتصف به من الأمانة والصدق ، والعفة ، والحلم ، والعفو ، بأخلاق عرضت له ، ولكنها كانت ككل الملكات الذاتية لا تكون عارضة ، ولكن تكون مستكنة تامة ، وان أخبار النبى عليه الصلاة والسلام ما كانت لتقوم عليها البينات النيرة الواضحة قبل الرسالة ، وهو لم يكن له أصحاب يتبعون سيرته ، ويدونون خليقته ، ويهتمون بما كان عليه ، وما كان من الممكن أن يتكشف للناس أمر هذه السجايا الا بعد أن يختلط بهم ، ويتقدم للدعوة لربه ، ويلتقى بالقبائل ، ويقرب المرافقين ويدنيهم ، ويوجههم ويهديهم ويصبر للمخالفين ، ولا يلاحيهم ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، ويوطىء أكنافه لهم ، وهو ليس فظا ولا غليظ القلب ، فالأخبار التى استشهدنا بها لاثبات صفاته ، وما كان عليه من خلق ذاتى ، ما كانت الرسالة منشئة لها ، ولكنها كاشفة الغطاء عنها معرفة لها ، وهى ذاتية قد هيأته لأن يكون المبعوث رحمة للعالمين ، « **يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** » ٠

البشارات بالنبى المنتظر

١٦٨ ــ كان العالم يموج بفتن مادية ، فالحرب كانت قائمة على قدم وساق بين الفرس والرومان ، ومن قبل عصر نبوة عيسى انسابت الجيوش اليونانية بقيادة الاسكندر المقدونى وراء فارس ، حتى وصلت الى الصين ، وقد كان العصر من بعد عيسى عصر الاضطهاد الدينى ، اضطهد النصارى ابتداء ، ومكث اضطهادهم زهاء ثلاثة قرون لقوا فيها من الرومان واليهود أشد ما يلاقى ذو اعتقاد فى اعتقاده ، وذو ايمان فى ايمانه ، حتى ان نيرون أحد امبراطرة الرومان كان يطليهم بالقار ، ويشعل النار فيهم ، ويسير فى موكبه تحيط به تلك المشاعل الانسانية لهؤلاء المؤمنين الصادقين فى ايمانهم الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، وقبلوا العذاب الهون ، وتوقعوه ، ورفضوا أن يغيروا فى سبيل دنيا يصيبونها ، أو دفع عذاب ليتقوه ٠

وكانت مصر من أول البلاد التى دخلت فى النصرانية الأولى ، ولم يغيروا ولم يبدلوا ، ولذلك كانوا أشد البلاد تعرضا لأذى الرومان الذى كان سلطانهم مفروضا عليها وعلى الشام ، وجاء اليهم العذاب الشديد فى عهد

دقلدياتوس ، وذبحت فيهم مذابح سجلها التاريخ ، وأرخ بها التاريخ القبطى مسجلا تلك المذابح ، يذكر الرومان بما يعود عليهم بالخزى والعار ، ويذكر المصريين الأولين بالافتخار ، ويذكر المتأخرين من الأقباط بالاعتبار ٠

ولما دخل قسطنطين امبراطور روما فى النصرانية فى الثلث الأول من القرن الرابع كان ذلك سبيلا لسيطرة الانحراف فيها ، وانتقل الاضطهاد من النصارى الى اليهود ، فأذيقوا من العذاب أكؤسا ، وشربوا منه ، ثم جاء من بعد ذلك لون آخر من الاضطهاد ، ذلك أن كنيسة روما خالفت كنيسة مصر فى بعض جزئيات عقائد النصرانية بعد أن انحرفت من الوحدانية الى التثليث انقلب الاضطهاد الى داخل النصارى أنفسهم ، فكان منهم الملكانيون الذين تتمثل فيهم عقيدة روما ، واليعقوبيون الذين تتمثل فيهم عقيدة المصريين ٠

وكان ذلك الاضطراب فى العقيدة النصرانية التى حرفت ، ثم انتهاؤه الى أمر غير معقول فى ذاته ، من قيل ان المسيح ابن الله ، وأنه نزل الى السموات العلا حيث الله أبوه ، وتجسد الى الأرض لتغفر خطيئة آدم لعصيانه ربه وأكله من الشجرة ، فكان غريبا أن يكون تكفيرا للمعصية الأولى بالأكل بمعصية أشد وأوغل ، وهو قتلهم ولد الله فى زعمهم ، والعقل لا يعلم ولا يدرك أن معصية أشد فى حق الله تكون تكفيرا لمعصية أقل ، بل لخطأ جاء تضليلا من عدو أثيم ٠

ومن غرائب تلك العقيدة أنها تحاول الجمع بين الوحدانية والتثليث فيصعب التصوير ، ولكن مع ذلك يصدقون على ريب من مفكريهم ، وتسليم من عوامهم ٠

١٦٩ — والعرب كانوا فى حيرة أشد ، وان كانت حياتهم لا تمكنهم من التأملات فى العقائد ، ولعلهم لو تأملوا ، ولم يغلب الاتباع ، وقولهم « **انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون** » لكانوا قادرين على الوصول الى الصواب ، أو على الأقل منهم من يصل ، كما فعل الحنفاء ، وانهم كانوا قبل البعث عددا محدودا ٠

لقد كانت حياتهم مضطربة بين توحيد جزئى ، ووثنية جانبية ، لقد كانوا يتبعون ابراهيم ، ويعتقدون أن الله وحده هو خالق الكون ومنشئه ومدبره ، فاعترفوا بذلك بوحدانية الخلق والتكوين ، ولكن مع ذلك أشركوا معه فى العبادة أحجارا لا تنفع ولا تضر ، يزعمون أن العبادة لها تجعل منها شفعاء يشفعون ٠

ثم كانت البشائر بأن نبيا سيبعث كان يتردد فى البلاد العربية ، كان يجرى على ألسنة بعض العرب ، كما يروى عن قس بن ساعدة الايادى أنه ذكر فى احدى خطبه أن نبيا قد أدركهم زمانه ، وآن أوانه ٠

وان البلاد العربية ، وخصوصا الحجاز كانت يتجاوب فيها ذكر احتمال رسول مبعوث ، تذاكره كثيرون ممن كانت لهم دراسات للديانات ، مثل ما جاء على لسان قس بن ساعدة الآنف الذكر ، ولعله يومىء الى أن له صلة بالنصرانية وخصوصا أنه ثبت فى القرآن ، أن التبشير بالنبى محمد الأمى عليه الصلاة والسلام مذكور فى التوراة والانجيل ، كما قال الله تعالى : « **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل** » ٠

وقال تعالى : « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل** » ٠

وقال تعالى : « **واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** » ٠

وقال تعالى فى بشارة عيسى عليه السلام بمحمد النبى الأمين(صلى الله تعالى عليه وسلم) : « **واذ قال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** » ٠

وهكذا نجد النصوص القرآنية الكثيرة التى جاء فيها أن محمدا عليه الصلاة والسلام ذكر فى التوراة والانجيل ، وقد أشرنا الى ذكره فى كل الديانات القديمة قبل تحريفها ، حتى البراهمة والزرادشية قبل التغيير والتبديل فيها ٠

ويهمنا أن نعرف ذكر التوراة لمحمد عليه الصلاة والسلام ٠

١٧٠ ــ وقد وجدنا النصوص فى التوراة حتى بعد تحريفها ، وبعد أن نسوا حظا مما ذكروا به تومىء أو تشير باشارة واضحة تكاد تكون عبارة لا اشارة ــ مبشرة بنبى الله تعالى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، واليك ذلك النص الذى يكاد يكون صريحا ، ولكنه نص فى دلالته ، سواء أكان بالاشارة أم بالعبارة :

« جاء الله من سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران (أى مكة المكرمة) وقد فسر ابن ظفر من كتاب المسلمين فى السيرة الطاهرة ، معنى النص فقال مجيئه من سينا تكليمه لموسى ، واشراقه من ساعير ـ وهى جبال فلسطين انزاله الانجيل على عيسى ، وبالقرب من هذه الجبال قرية الناصرة ، حيث ولد عيسى عليه الصلاة والسلام ، واستعلن من جبال فاران وهى جبال مكة ، انزال القرآن (١) » ٠

ونرى من هذا أن الرموز كانت للأماكن ، وبتبيين الرسل الذين بعثوا فيها ، ومجىء الرب بالبداهة هو مجىء رسالاته ، فان الله تعالى لا ينزل بذاته انما تنزل هدايته ، ويجىء أمره ونهيه على ألسنة رسله ، وقد ذكرت أماكن ثلاثة هى سينا ، وقد جاء من طريقها كليم الله تعالى موسى عليه السلام ومجىء رساله الله تعالى الى فلسطين حيث ولد سيدنا عيسى عليه السلام بالناصرة ، ومن فلسطين انبعث نور رسالته عليه السلام ، ومجىء رسالة الله من فاران حيث مكة المكرمة زاد الله تعالى نبيها تشريفا وتعظيما ، كانت هى ما نزل على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويقول صاحب كتاب خير البشر فى بيان تبشيره التوارة بالنبى محمد عليه الصلاة والسلام :

قرأت فى ترجمة للتوراة لموسى عليه السلام ، جاء فيه ، والله ربك مقيم نبيا من أخوتك ، فاستمع له كالذى سمعت ربك فى حوريب يوم الاجتماع حين قلت : « لا أعود أسمع صوت الله ربى لئلا أموت ، فقال الله تعالى لى ٠ نعم ما قالوا ٠ وسألتم لهم نبيا من أخوتهم ، واجعل كلامى فى فمه ، فيقول لكم كل شىء ، آمره به وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمى فانى أنتقم منه » ٠

ونلاحظ هنا أنه ذكر أن الرسول سيكون من أخوة بنى اسرائيل ، لامنهم ، ولا تكون هذه الأخوة الا من بنى اسماعيل ، أخى اسحاق الأكبر ، فان هؤلاء هم الذين يقال لهم أخوة ، وعيسى ومن قبله داود ، وسليمان وغيرهما ، لا يقال لهم أخوة بنى اسرائيل انما يقال عنهم أبناء اسرائيل ، لأنهم من يعقوب بن اسحاق ، ويقول صاحب كتاب ، خير البشر « قوله أجعل كلامى فى فمه ، واضح فى أن المقصود به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،

---

(١) خبر البشر ، لابن ظفر ص ٩ ٠

لأن معناه أن الله تعالى يوحى اليه بكلامه (أى الله) فينطق بـه ، أى يوحى اليـه بالقرآن فينطق به » (١) ٠

١٧١ — واذا كانت هذه الاشارات الواضحة فى التوراة ، فان فى الانجيل مثلها ، بل ما هو أكثر وضوحا منها ، فقد ورد التبشير ، البارقليط فى الانجيل ، وان الترجمة الحرفية لهذه الكلمة العبرية هى أحمد ، فهو مطابقة من حيث المعنى التبشير بأحمد ، وقد جـاء القرآن الكريم بالذى بشر بـه عيسى عليه السلام اسمه أحمد ، اذ قال سبحانه : « **ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** » وقد جاء فى الاناجيل على لسان عيسى عليه السـلام : « ان أجبتمونى فاحفظوا وصيتى ، وأنا أطلب الى أبى فيعطيكم بارقليط آخر يكون معكم الدهر كله » ٠

فهذا النص يبين أن الله تعالى سيبعث من بعده رسولا هو أحمد ، يقوم بتبليغ رسالة ربه ، كما يقوم عيسى عليه السلام ، وأن شريعته باقية مع الدهر ، أى أنها خالدة لا شريعة بعدها ، وأن صاحبها هو خاتم النبيين ٠

والتعبير بالأب من تحريف النصارى لمعنى الله بعد أن غيروا وبدلوا فهو مأخوذ من الانجيل بعد أن حرفت الديانة عن موضعها ، ومع ذلك فـان كثيرين كانوا يفسرون البنوة بأنها بنوة النعمة والمحبة ، كما يقول اليهـود « **نحن أبناء الله وأحباؤه** » ٠

وقد جاء فى الأناجيل بعد تحريف الديانة النصرانية « ان هذا القول الذى سمعتموه ليس هو لى بل للآب الذى أرسلنى لكم بهذا ، وأنا معـكم ، فأما البارقليط روح القدس الذى يرسل أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شىء ، ويذكركم جميع ما أقول لكم ٠

ولعل الغرابة فى أن تسمى رسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام أنها باسم المسيح ، وأنها محرفة بلا ريب ، ومهما يكن فليس المراد بالاسمية أن تكون دعوة محمد صلى الله عليه وسلم صورة كاملة لدعوة المسـيح ، انما المراد الموافقة فيما يكون دعوة للمسيح بالوحدانية ، وأن دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، هى ما كان يدعو اليه ، وما يتفق مع قوله ، كما قال الله تعالى : « **شرع لـكم من الدين ، ما وصى به نوحـا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيمو الدين ، ولا تتفرقوا فيـه ،**

---

(١) راجع السيرة العطرة ــ للأستاذ عبد العزيز خير الدين ، وخير البشر لابن ظفر ص ١١ ٠

كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » وروى أن عيسى عليه السلام قال فى البارقليط الذى أرسل اليكم من عند أبى روح الحق الذى يخرج من الأب فهو يشهد لى ، وأنتم تشهدون لى أيضا لكينونتكم معى من أول أمرى » وهذا صريح فى أن محمدا عليه الصلاة والسلام يشهد الكتاب الذى أنزل عليه وهو القرآن بأنه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل ، وقد سمى القرآن بحق روح الحق ، وقد سمى كذلك كما قال الله تعالى : « **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا** (١) » ٠

وجاء فى الأناجيل أيضا : « البارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، فاذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه يسمع ما يكلمهم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب (٢) » ٠

وان فى هذا النص وصفا للنبى عليه الصلاة والسلام بعينه من بين الرسل ، وذلك الوصف هو قوله : « ويسوسهم بالحق ، ولاشك أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لم تقتصر على بيان الحقائق الالهية التى بعث بها عليه الصلاة والسلام ، بل ساس الناس لتطبيقها ، فأنشأ دولة ، وطبق النظم القرآنية تطبيقا دقيقا سليما ، وان هذه صفة كاملة لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعمله ٠

وان كلمة البارقليط التى جاءت فى هذه النصوص قال علماء العبرية ان ترجمتها الحرفية كما أسلفنا أحمد ، وهى فى معناها الذى يعرف السر ، والحكمة ، وهو قد بلغ أقصى الحمد لهذا ٠

١٧٢ — ولقد نقل بعض الكتاب الفضلاء (٣) عبارات من كتب العهد القديم ، عن الزبور ، الذى جاء به داوود عليه السلام ، وأشعياء ، وشمعون ، وحزقيل ٠

(أ) ومما جاء فى مزامير داوود « اللهم اجعل جاعل السنة يحيا » ٠

وجاء فيه ، « انه اذا جاءت الرحمة على شفتيك من أجل ذلك أبارك عليك الى الأبد ، فتقلد السيف ، فان بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق ، فان شرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، والأمم يخرون تحتك » ٠

---

(١) راجع السيرة العطرة ونهاية الأرب ج ١٦ ص ١١٠ ، وخير البشر ٠
(٢) نهاية الأرب ، والسيرة العطرة ٠
(٣) هو ابن ظفر فى كتابه خير البشر — ص ١٤ ، ٩٦ ٠

ولاشك أن دلالة هذه النصوص على التبشير بمحمد عليه الصلاة والسلام وليست هذه الاشارة بينة ، كبيانها فى النقول السابقة عن توراة موسى ، وانجيل عيسى عليهما السلام ، ولكنها قد تدل بالاقتضاء ، لا بالاشارة المجردة ، لأن الذى أحيا السنة وهى عبادة الله تعالى وحده ، اذ هى الطريقة القويمة هو محمد عليه الصلاة والسلام ، بعد أن حرفت النصرانية ، الى انحراف التثليث ٠

وفى النص كانت الدلالة بالتضمين أيضا ، اذ وصف فيه من يباركه الله تعالى بأن شريعته تقرن بهيبة يمينه ، وان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام تأمر بدفع الباطل بما تحمله اليمين وهو السيف ، ولم تكن شريعة عيسى عليه السلام كذلك ، انما كان يغلب التسامح ، ولم يحمل سيفا ، ولم يدع الحواريين الى حمل السيف ، بل الذى حمل السيف نبى الله داوود ، ووضع الباطل تحت الأقدام ، وخر الجبابرة تحت الشريعة الاسلامية فى عهده ، وعهد الحواريين من أصحابه هو محمد عليه الصلاة والسلام ٠

ولقد جاء فى الزبور عبارة لعلها أصرح من هذه العبارة فى سلطان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا نصها « فاذا جاز من البحر الى البحر ، ومن عند الأنهار الى منقطع البر ، وخر أهل الجزائر على وجوههم كبهم ولحس أعداؤه التراب ، وجاءته الملوك بالقرابين ، ودانت له الأمم بالطاعة ، لأنه يخلص الضعيف المغلوب البائس ، ويقوى الضعيف الذى لا ناصر له ، ويرحم المساكين ، ويصلى ، ويبارك عليه فى كل وقت ، ويدوم ذكره الى الأبد » ٠

وقد كان ذلك الكلام عن رجل يجىء فى المستقبل ولا شك أن هذه الأعمال لم يعملها من داوود وسليمان الا محمد سيد البشر عليه الصلاة والسلام ، فهو ذكر هنا عليه الصلاة والسلام بالوصف ، لا بالاسم كما جاء فى الانجيل ٠

١٧٣ ــ وجاء فى كتاب أشعياء عليه السلام قوله : « عبدى الذى سرت به نفسى أنزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور ، والآذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطى أحدا مشقح (١) بحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض تفرح البرية وسكانها ، يهللون الله على كل شرف ، ويكررونه على كل رابية ، لا يضعف ولا يغلب ، ولا يميل الى الهوى ، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، على كتفيه علامة النبوة » ٠

---

(١) المشقح فى بنية العبرانين الحمد ٠

ويلاحظ على هذه البشارة أن الوصف فيها يكاد يكون عينيا ، لا فى شريعته فقط بل فى أخلاقه وسيرته عليه الصلاة والسلام ، فهو يذكر أعمال النبى عليه الصلاة والسلام ، وسجاياه ، كأنه رآها ، ثم يصف جسمه فيذكر علامة النبوة بين كتفيه ، وهو خاتم النبوة الذى ذكرناه آنفا ٠

ثم هو يذكر الاسم النبوى بما يقرب من البارقليط ، فهو يقول مشقح ، ومعناها محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أن معنى البارقليط أحمد وكلاهما من أسمائه عليه الصلاة والسلام ٠

وجاء فى كتاب شمعون « جاء الله تعالى بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته ٠

وهنا تعيين له بالمكان ، فجبال فاران هى جبال مكة ، ولم يكن بعد ابراهيم فى مكة المكرمة وبين جبالها سوّى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو تعريف ليس بالاسم ولا بالوصف ، ولكن بتعريف المكان ٠ « ما كان يروج بين العرب من أخبار نبى يرسل » ٠

١٧٤ — راجت فى البلاد العربية ، وخصوصا حول مكة المكرمة والمدينة المنورة أقوال تذكر أن نبيا يبعث فى هذا الزمان ، وروج ذلك النصارى الذين كانوا منبثين فى الجزيرة العربية ، ويقيم كثيرون منها فى أطرافها ، وكانوا يتناقلونها من الشام فى رحلتهم اليها تجارا ، اذ يرون الرهبان منبثين فى الأديرة ، ويلتقون بهم الفينة بعد الفينة ٠

واليهود فى المدينة كانوا يذكرون ذلك متحدين به الوثنيين الذين يجاورونهم ، وكانوا يستفتحون به المشركين ، زاعمين أنه سينصره عليهم ، ويؤيد دينهم الذى يذكرون ذلك آخذيه من اشارات كتبهم ٠ التى كانت مفسرة عندهم ، حتى صارت علما توارثوه عن أسلافهم ، وهو فى مطوى التركة التى أخذوها عنهم ، ومع أن اليهود عرفوا بأنهم يكتمون ما أنزل الله تعالى عليهم ، ليكون العلم حكرا عليهم ، ويمكنهم من أن يكذبوا على الناس مدعين أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه ، مع هذا يتناثر من أقوالهم ما يدل على أن نبيا من أبناء عمهم اسماعيل عليه السلام سيبعث ٠

واذا كانت الأثرة هى التى حملتهم على كتمان ما أنزل الله تعالى عن غيرهم ، فالأثرة أيضا هى التى حملتهم على التحدث بخبر النبى المنتظر المكتوب عندهم فى التوراة ، لأنهم كانوا فى حرب مع الأوس والخزرج الذين يجاورونهم ، فكانوا يذكرون أمر النبى لهم ، لا ليعلنوا الحقائق ، ولكن ليتغلبوا عليهم بما يسمى فى عصرنا الحرب النفسية التى تقارن الحرب المادية ،

لينالوا الفوز والغلب ، وليتم لهم التعالى عليهم ، واعلان الاستهانة بهم ولانذارهم بأن المستقبل معهم ، وفى ذلك ابقاء بالرعب ٠

وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذكرهم لمن كانوا يجاورونهم أمر النبى المنتظر ، فقال الله تعالى : « **وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ، بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين** » ٠

ولقد كانت نجران مملوءة بالنصارى ، ويظهر أنهم لم يكونوا كنصارى أوربا فى الماضى أو الحاضر ، بل كانت فيهم بقية من نصرانية المسيح ، ولقد كانوا بعد البعث المحمدى أقرب الى المسلمين من اليهود والمشركين ، فقد قال تعالى فيهم : « **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين ، ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين** » ٠

كان ينبعث من بين هؤلاء صوت قوى يخبر بأن نبيا قد آن أوانه ، والناس يعيشون فى زمانه ، ويظهر أنهم كانوا من بقايا الموحدين الذين لم يثلثوا ، فانه على تعاقب الأزمان كان ثمة موحدون ، وان كانوا قرنا بعد قرن ، أن عبارات القرآن الكريم تنبىء عن ذلك فى قصة النصارى الذين حكم سبحانه بأنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا بجوار العداوة المستحكمة التى أعلنها المشركون ، واليهود الذين كانوا أعداء للناس جميعا ٠

وانه ليروى التاريخ فى أخباره المتضافرة ، والسيرة الطيبة الطاهرة ، أنه لما كان اضطهاد المشركين للمؤمنين عقب مجاهرة النبى عليه الصلاة والسلام بدعوة الحق كانت الهجرة الى الحبشة ٠ وقد لقى المسلمون ترحابا ، واكراما من ملكهم ٠

ولقد ثبت أن النجاشى ملكهم كان موحدا ، وأنه يرى فى عيسى ابن مريم وأمه ، ما نص عليه القرآن الكريم ، وأنهما لم يكونا الهين من دون الله ٠

١٧٥ ــ ولقد سرت فكرة التنبؤ برسول قريب زمانه الى قريش وما حول مكة المكرمة ، ولقد وجد أربعة من قريش أنكروا تأثيرا الأوثان بالنفع والضرر ، واستنكروا عبادتها وثبت أن هؤلاء الأربعة ، منهم ورقة ابن نوفل وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل ٠

وقد خلصوا نجيا من عبادة الأوثان ، وقد قال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ، ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين ابراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا ، فانكم والله ما أنتم على شيء » ٠

وقد دخل المسيحية اثنان منهم هما ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث وقد قصد الى قيصر فتنصر ، وكانت له منزلة حسنة عنده ٠

وأما عبد الله بن جحش ، فقد بقى محيرا ملتبسا عليه ، حتى جاء الاسلام ٠

وزيد بن عمرو بن نفيل برم بمكة المكرمة وأهلها ، وأخذ يتنقل فى بلاد العرب متعرفا دين ابراهيم ، وأخيرا أخذ ينتظر النبى كما أخبره بعض النصارى ، وفى سيرة ابن هشام ما نصه :

« خرج (أى زيد بن عمرو) يطلب دين ابراهيم عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام كله ، حتى انتهى الى راهب بميفعة من أرض البلقاء (١) كان ينتهى اليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون ، فسأل عن الحنيفية ، دين ابراهيم ، فقال انك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين ابراهيم الحنيفية ، فالحق بها ، فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه ، وقد كان شام اليهودية والنصرانية ، فلم يرض شيئا منهما ، فخرج سريعا حين قال له الراهب ما قال يريد مكة المكرمة ، حتى اذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه ٠

وقد رثاه رفيقه ورقة بن نوفل (٢) بقصيدة جاء فيها :

رشدت وأنعمت ابن عمرو انما ... تجنبت تنورا من النار حاميا
يدنيك ربا ليس ربا كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وادراكك الدين طلبت ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا

(١) الميفعة : المرتفع من الأرض ، والبلقاء كورة بجوار دمشق ٠
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٢ ٠

هذا بعض رثاء ورقة بن نوفل فى القصيدة المنسوبة اليه فى أصح الروايات ، وهى تدل على أن ورقة وصاحبه كانا مع انكارهما للوثنية يؤمنان بالبعث ويوم القيامة ٠

١٧٦ — وان ورقة بعد أن دخل فى النصرانية ، وعلم علمها ، وأسرار كتبها ، ودرس الأديان ، ووازن بين حقائقها كان يعرف أن الزمان الذى كان يعيش فيه هو زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل انه حكم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو النبى المنتظر ، واستبطأ ظهوره ٠

وقد روى فى ذلك ابن اسحاق أن خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة ابن نوفل الذى كان نصرانيا وكان قد تتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب نسطورا الذى ذكر أن أوصاف النبى عليه الصلاة والسلام تبين أنه النبى المنتظر ، فقال لها ورقة لئن كان هذا حقا يا خديجة ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كان لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه ، فجعل ورقة يستبطىء الأمر ، ويقول : حتى متى ٠

وقد قال فى ذلك قصيدة جاء فيها :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا ... لهم طالما ما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا
ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقوم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتنى اذا ما كان ذاكم ... شهدت وكنت أولهم ولوجا (١)

هذا كلام ورقة عندما خبرته ابنة عمه خديجة عن حال محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، وكان ذلك عقب اخبار ميسرة غلامها عندما صاحبه فى رحلته الى الشام فى التجارة فى مال خديجة ، وكان ذلك قبل ان يتم الزواج بينهما ، بل كان والزواج يساور فكرتها ؛ ولم يمتد الى تفكيره هو الا من بعد ذلك ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ص ٢ ٢٩٦ ، ٢٩٧ ٠

علم النبوة عند سلمان الفارسى قبل أن يلقى :

١٧٧ ــ وان ما تضافرت الصحاح عليه فى قصة اسلام سلمان الفارسى ، وكيف علم بأمر بعث النبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يلقاه ، وكان أن لقيه لا غاية له الا أن يعرفه بالأوصاف التى ذكرت له قبل أن يلقاه ، بل قبل أن يبعث صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخلاصة القصة كما جاءت فى الصحاح أن سلمان رضى الله تبارك وتعالى عنه كان فارسيا من أهالى أصبهان ، وكان أبوه دهقان القرية ، وكان أثيرا عند أبيه حريصا عليه ، وقد درس المجوسية حتى كان خادم نارها الذى يوقدها ، ولايتركها ، وكان أبوه ذا ضيعة عظيمة ··· ويقول رضى الله عنه : « فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى اليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ، ورغبت فى أمرهم ، وقلت هذا والله خير من الدين الذى نحن فيه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى ، فلم أذهب اليها ثم قلت لهم أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت الى أبى وقد بعث فى طلبى ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال أى بنى أين كنت · فقلت له يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبنى ما رأيت من دينهم فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس · قال · يابنى ، ليس فى ذلك الدين خير ، ودينك ودين آبائك خير منه ، قلت له كلا والله انه لخير من ديننا · قال فخافنى فى رجلى قيدا ، ثم حبسنى فى بيته » ويظهر أن سلمان استطاع أن يخلص نجيا من قيده ، فقد قال : « بعثت الى النصارى ، فقلت لهم اذا قدم عليكم ركب من الشام ، تجار من النصارى ، فأخبرونى بهم اذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة الى بلادهم فآذنونى بهم ، فلما أرادوا الرجعة ألقيت الحديد من رجلى ، ثم خرجت معهم ، حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت من أفضل أهل الدين علما ؟ قالوا الأسقف فى الكنيسة · فجئت اليه فقلت له انى قد رغبت فى هذا الدين فأحببت أن أكون معك ، أخدمك فى كنيستك وأتعلم منك وأصلى معك فدخلت ويذكر سلمان أنه كان رجل سوء يأمر بالصدقة ويرغب فيها ، ثم يكتنز ما يجمعه لنفسه ولا يعطيه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من الذهب ، وأنه يبغضه بغضا شديدا لصنعه ، ولما مات واجتمع النصارى ليدفنوه ذكر لهم سلمان ما صنع ، ودلهم على مكان كنزه ، فصلبوه ، ورموه بالحجارة ·

انتقل من بعد ذلك سلمان الى خدمة أسقف صالح ، كان يدأب على

---

(١) الدهقان هو شيخها العارف بأمورها وأمور زراعها ·

العبادة ليلا ونهارا ، فأقام معه زمنا طويلا ، ولما حضرته الوفاة استوصاه سلمان وقال له : « الى من توصى بى ، وبم تأمرنى ؟ قال بنى والله ما أعلم أحدا على ما كنت عليه فقد هلك الناس وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه الا رجلا بالموصل فالحق به » ٠

لحق سلمان بصاحبه بالموصل ، فوجده على خير عظيم ، ولما حضرته الوفاة قال له : « الى من توصى بى وبم تأمرنى : قال : يابنى والله ما أعلم رجلا على ما كنا عليه الا رجلا بنصيبين (١) » ٠

ولما ذهب الى رجل نصيبين وحضرته الوفاة دله على رجل بعمورية سافر اليه ، ووجده خير رجل وأقام عنده خير اقامة ، واتجه الى الاكتساب فاكتسب بقرات وغنما ، ولما حضرته الوفاة قال له بمن توصى بى وبم تأمرنى ٠ « فقال أى بنى ، والله ما أعلم أحدا أصلح على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأمنه ولكنه أظل زمان نبى ، وهو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجره الى أرض بين حرتين (٢) بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق به بتلك البلاد فافعل » ٠

وقد شد سلمان رحيله الى وادى القرى ، ثم الى المدينة ، اذ مر به نفر من تجار كلب ، فقال لهم احملونى الى أرض العرب ، وأعطيكم بقراتى وغنيمتى هذه ، فرضوا بهذه الصفقة ، ولكنهم مكروا به وغدروا فما ان بلغوا به وادى القرى حتى ظلموه ، وباعوه على أنه عبد من رجل يهودى ، ولكنه أسلم نفسه لربه الذى طوف فى الآفاق يبتغى الدين الحق الذى يريد أن يعبد الله تعالى على مقتضى شريعته ، وترك العيش الرافغ فى ظل أبيه ، وسار فى المهامه والقفار طالبا الهداية ٠

رأى النخلات التى وصفها له أسقف عمورية ، وفرح اذ بيع من اليهودى الذى اشتراه الى عم له من بنى قريظة ، فحمله الى المدينة ٠

وفى هذه الأثناء حيث كان يقيم هو بالمدينة كان محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد بعثه الله تعالى نبيا ، وما كان يعلم سلمان رضى الله تعالى عنه من أمر ذلك شيئا ، لأنه شغله الرق عن أن يتتبع أخبار من بشرت به الكتب ، ونقله الأساقفة ، وتحدث به الرهبان ٠

---

(١) مدينة فى طريق القوافل من الموصل الى الشام ٠

(٢) الحرة أرض ذات حجارة سود من أثر احتراق بركانى ٠

وقد هاجر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينا هو فى رأس عذق (١) لمالكه يعمل به بعض العمل ، اذ أقبل ابن عم لهذا المالك ، فوقف عليه يسب أهل المدينة من الأوس والخزرج ، ويقول : « والله انهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة المكرمة اليوم ، يزعمون أنه نبى » (٢) ٠

ويستمر سلمان فى قصته ، فيذكر أنه أصابته رعدة حماسة للذهاب الى قباء حيث سمع أن المجتمعين بقباء فيهم من يقول انه نبى ، وقد بين له أسقف عمورية أن مهاجر النبى المنتظر سيكون بهذه الأرض ، فأخذ الأهبة ، وذهب الى قباء ومعه مال قليل وهنا يلتقى العيان بالخبر ، لقد أخبر فى غيبة محمد ابن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) أنه نبى وسلك الفيافى والقفار ليلقاه وهو يعلم بنبئه ، وجرى الحديث بينهما ٠ يختبر به حاله ، لقد رأى المكان ، كما أخبر الأسقف ، ولم يبق الا أن يختبر ، لقد قيل انه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وان بين كتفيه خاتما ٠

عند اللقاء قال سلمان : « انه قد بلغنى أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شىء كان عندى للصدقة ، فرأيتكم أحق بها من غيركم » ٠

لم يأكل منها النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال لأصحابه كلوا وأمسك يده « وبهذا تبين الوصف الذى علمه من قبل ، وقال سلمان فى نفسه : هذا واحدة » فأراد أن يختبر أيقبل الهدية ليتكامل الوصف ٠

جمع شيئا مما يهدى ، وتحول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وجاءه ، وقال له : « انى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها » فأكل منها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأكل معه أصحابه ٠

قال سلمان فى نفسه هذه الثانية :

وسلمان علم من وصف أسقف عمورية ، أن بين كتفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبوة ، فأراد أن يعرفه ولم يبق الا ذلك ليستوثق من تحقق الخبر مع الخبر ٠

---

(١) العذق هو النخلة ٠

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٩ ٠

يقول رضى الله عنه : « سلمت عليه (أى على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم) ثم استدرت أنظر الى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ، فلما رآنى رسول الله عليه الصلاة والسلام استدبرته عرف أنى أستثبت من شىء ، وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره · فنظرت الى الخاتم فعرفته فأقبلت عليه أقبله ، وأبكى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : تحول ، فتحولت ، فجلست بين يديه » (١) ·

كان سلمان فى الرق ، فشغله عن أن يلازم النبى عليه الصلاة والسلام ، حتى انه لم يستطع أن يحضر غزوة بدر ، وأشار عليه النبى من بعد بأن يعقد عقد مكاتبة مع مالك رقبته ، أى يتعهد له بمال أو منفعة يقدمها فى نظير عتقه ، ففعل ، وعاونه الصحابة فى تنفيذ عقده ، وصار من بعد حرا ·

١٧٨ — سقنا ذلك الخبر بعد اختصاره ، وهو مع الاختصار طويل ، سقناه لأمرين ·

أولهما ـ كيف يرضى طالب الحق بالتعب فى سبيل طلبه ، هذا شاب صغير يكاد يكون غلاما ، يعيش فى ظل أبيه فى عيش ، رافغ ، وهناءة من الرزق يرى كنيسة فيها عباد لا يعبدون النار الذى كان سادنا لها ، فتستهويه عبادتهم ، فيتقدم لأبيه برغبته فى أن يكون نصرانيا فيكبله أبوه بالحديد ، فلا ينثنى ، ويجتهد فى أن يفك أغلاله ، ويلحق بهم فيكون له ما يريد ، ثم يحمل نفسه عناء الانتقال من اقليم الى اقليم حتى يصل الى الحق الذى يريده ويصاب بالرق فيصبر ، ولا ينثنى عن غايته ، ويقبل أن يعيش مظلوما فى قيد الرق صابرا محتسبا ، حتى يصل الى غايته ، وهو التقاؤه بمن يطلبه حتى وجده ، وكان العون من الله فى فك رقبته ، انه العابد الصابر حقا ، من يوم فك قيود أبيه ، فقد فك معها قيود عقله ، ونفسه ، وصار ديانا لله سبحانه وتعالى ، لا يبغى الا رضاه ، واذا كان غادر أباه فقد انتهى الى حضن رسول الحق فاحتضنه هو ، وقال عليه الصلاة والسلام : سلمان منا آل البيت ·

الأمر الثانى : وهو الجوهرى فى القضية أن أمر نبى منتظر كان معروفا بين العرب فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو المقصد الأصلى من سوق القصة مع طولها ، فالعرب كانت أسباب العلم برسالة النبى صلى الله عليه وسلم معلومة عندهم علمها طلابها ، والذين صفت نفوسهم وجهلها الأكثرون لعدم الاتجاه الى تعرفها ، ولم يكن عندهم الاتجاه الدينى ليعرفوا ما لم يعرفوا

---

(١) الكتاب المذكور ص ٢٢٠ ·

من شئون الدين فى قابل حياتهم ، حتى جاءهم البشير النذير يقرع بالحجة القاطعة مسامعهم ، ليكون من بعد ذلك العقاب أو الثواب ، قال تعالى : « **وان من أمة الا خلا فيها نذير** » ٠

يهود تخبر عن النبى (صلى الله عليه وسلم) المنتظر :

١٧٩ ـــ قد ذكرنا فيما مضى اشارة الى أن اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا من الوثنيين بنبى مرسل يكون لهم ، ويكون على الوثنيين ، ينصر اليهود ، ذكرنا بالاشارة ، ولكن فى هذا المقام لا تغنى الاشارة عن العبارة ، فلابد من أن نذكر بعض الايضاح ليتبين الباحثون من معرفة أن العصر كانت فيه البيانات الكافية التى تبين أن رسولا من قبل الله تعالى وشيك أن يظهره الله تعالى بينهم مصحوبا بحجته ، مبينا بآياته ودعوته ٠

ولم يكن ذكر النبى عليه الصلاة والسلام لمن عاصروه من الأوس والخزرج فقط ، بل كان من قبل أن تقع الحروب بين اليهود وبينهم ٠

فقد ثبت فى التاريخ أن تبعا أبا كريب اليمنى جاء الى يثرب وأحنقه أن بعض أهلها قتل رجلا من رجاله ، فقاتلهم ، وبينا تبع على ذلك من قتالهم اذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بنى قريظة ، وهما عالمان بأصول الديانة اليهودية ومصادرها ، والمخبوء من وثائقها ، وقالوا له :

« أيها الملك لا تفعل ، فانك ان أبيت الا ما تريد ، حيل بينك وبينها ، ولم تأمن عليك العقوبة » فقال لهما : ولم ذلك : قالا : « هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش تكون داره وقراره » (١) ٠

ولقد كانت أخبار اليهود بنبى يجىء يشيع فى يثرب ، وينتقل الى أهلها طبقة بعد طبقة ، وكان من أسباب مسارعة الأنصار للاستجابة للنبى عليه الصلاة والسلام ، وكان لهم بذلك علم بالكتاب أتى اليهم من اليهود ، وقد ذكر قتادة عن رجال قومه ، والسبب فى مسارعتهم الى اجابة النبى عليه الصلاة والسلام الى النصرة والايمان فقال :

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٦٤ ٠

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١١ ٠

« ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله ، وهداه لنا لما كنا نسمع عن رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأوثان ، وكان عندهم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا انه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقاتلكم معه قتل عاد وارم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أجبناه حين دعانا الى الله تعالى ، وعرفنا مما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم اليه ، فآمنا به وكفروا » (١) ٠

ولم يكن اليهود يذكرون خبر النبى عليه الصلاة والسلام مقتصرين على الخبر ، بل يذكر مع ذلك الايمان باليوم الآخر ، والجزاء بالنعيم المقيم ، أو بالجحيم ، ويظهر أنهم لم يكونوا من الذين ينكرون البعث ، ففيهم من يصدقه ، ومنهم من يكفر به ٠

ولقد ذكر ذلك بعض من الأنصار ، وهو سلمة بن سلام ، فقال :

« كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل ، فخرج علينا من بيته ، حتى وقف على بنى عبد الأشهل ؛ فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان ٠ والجنة والنار ، فقالوا له ويحك ، أو ترى هذا كائنا : أن الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار ، يجزون فيها بأعمالهم !! قال نعم ، والذى يحلف به ٠٠٠ فقالوا له : ويحك ، فما آية ذلك ! قال نبى مبعوث نحو هذه البلاد ، وأشار بيده الى مكة المكرمة واليمن ، فقالوا ومتى نراه ، قال سلمة فنظر الى وأنا من أحدثهم سنا فقال : « ان يستنفد هذا الغلام عمره يدركه » ٠

قال سلمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار ، حتى بعث الله محمدا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو حى بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفروا به بغيا وحسدا » ٠

ولقد عرف بعض اليهود وصف النبى عليه الصلاة والسلام وفيه انه يسبق حلمه جهله ، فهو لا يحمق ٠

ولقد روى عن عبد الله بن سلام الصحابى أنه قال : لما أراد الله تعالى هدى زيد بن سمية ، قال لم يبق شىء من علامات النبوة الا عرفتها فى وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين ، لم أخبرهما منه ،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١١ ٠

يسبق حلمه جهله ، ولا تزيد شدة الجهل عليه الا حلما ، فكنت أتلطف له ، لأن أخالطه ، فأعرف حلمه وجهله » فذكر قصة اسلافه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا فى ثمرة · قال فلما حل الأجل أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، وهو فى جنازة مع أصحابه ، ونظرت اليه بوجه غليظ ، وقلت يا محمد : ألا تقضينى حقى ، فوالله علمتكم يا بنى عبد المطلب لمطل ، فنظر الى عمر ، وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير ، ثم قال : يا عدو الله أتقول لرسول الله عليه الصلاة والسلام ما أسمع ، وتفعل ما أرى ، فوالذى بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفى رأسك ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينظر الى عمر فى سكون وتؤدة ، وتبسم ثم قال أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا منك يا عمر : أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقه وزد عشرين صاعا من تمر ، فأسلم » ·

١٨٠ — هذه نقول تاريخية ثابتة تبين أن العصر الذى بعث فيه عليه الصلاة والسلام كان عصرا يدور فيه حول نبى يرسل ، وقد كان لهذا الكلام مصدران :

أولهما — ما كان يحاوله الذين أرادوا احياء دين ابراهيم عليه السلام ، فقد كان بعض من أهل مكة المكرمة يؤمنون بضرورة احياء ملة ابراهيم الحنيفية السمحة ، وقد وجدوا بفطرتهم ان الله لا يدع ذرية ابراهيم بورا لا هادى يهديهم ، ولا مرشد يرشدهم ، وقد رأيت من خرجوا على أقوامهم ، واطمأن بعضهم الى النصرانية فدخلوها ، وبعضهم أخذ يطوف فى الأرض حيث يبحث عن عقائد سليمة لا تدخلها الوثنية ، ومات شهيدا فى طلب الحقيقة ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم من بعد بعثته أن الله تعالى سيبعثه أمة وحده ، فرضى الله تعالى عنه ·

ثانيهما — الكتب السابقة ، وأقوال الأحبار والرهبان ، وعلماء الأخبار من اليهود والنصارى ، فبحيرا الراهب كان قد لقى محمدا (صلى الله تعالى عليه وسلم) غلاما ، وطبق الأوصاف التى لديه ، ونسطورا الراهب قد لقيه وهو شاب ، وكانت أخبار اللقاءين تذيع وتشيع عند العرب ، وفوق ذلك كان نصارى نجران وغيرهم يذكرون للناس ترقبهم لنبى منتظر ، كانت أوصافه لديهم وكان محمد أكثر ذكرا ، لا أنهم يريدون اعلان حقيقة ، أو ابتغاء هداية ، بل شفاء غيظهم ، واطفاء نار حقدهم أو التمادى فيه ، فقد كانوا يعلنون ذلك عندما تحز فى أجسامهم سيوف الوثنيين ، فيذكرون خبره ، ويقولون سنقتلكم معه ، كما قتل عاد وارم ·

بهذا انتشر خبر مجىء النبى عليه الصلاة والسلام ، وتوقع المفكرون مجيئه وأن زمانه قد حان ، فجاء مصدقا لما بين يديه من الكتب التى لم تحرف ، ورحمة للعالمين ، وهاديا للحق ، ونصيرا له ، وقد أيده الله تعالى بالحجة الباهرة ٠

أخبار الكهان :

١٨١ — تذكر كتب السيرة أن الكهان قد بشروا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد كان فى نيتنا أن نعرض عن ذلك الكلام ، لأنه فتح لباب الأوهام فى سيرة سيد الأنام ، نبى الحق والعقل وبعث المدارك نحو الحقيقة ، من غير أن يسيطر عليها وهم ، أو يتغلغل فيها خرافة ليست قائمة على حكم العقل ، أو الخبر الصادق المنقول بأسناد صحيحة ٠

ولأن هذه الأخبار عن الكهان ليست ثابتة بسند صحيح يطمأن اليه ، ولأنه لم يثبت أن النبى عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان يلجأ الى الكهان ، أو يطمئن الى أقوالهم ، ولأنه اذا كان الكهان قد قالوا شيئا فى البشارة بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت صادقة ، فان ذلك قد يكونون علموه من الكتب السابقة أو أصحابها ، وقد كانوا قبل البعثة علماء العرب ، وربما يكونون قد أخذوا يبثون ما عندهم فى شكل الكهانة ، وفى سجع الكهان الذى نهى عنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد بعثته ٠

كنا نوينا ترك الكلام فى الكهانة ، لأن الضرر فى ذكرها أكبر من نفعها ٠

ولكنا حملنا على الكتابة فيها ٠٠ أولا ـ لأن بعض كتاب السيرة من المحدثين تعرضوا لها مصدقين ، وأن المستشرقين قد اتخذوها ذريعة لربط الدعوة المحمدية بالكهان ، وللربط بين القرآن المنزل رحمة للعالمين وسجعهم ، ولأن بعض الكاتبين توهم تبعا لهم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يديم السماع للكهان قبل البعثة فوجب التصدى ٠

١٨٢ — ونبتدىء من الكلام فى أخبار الكهان بخبر نسب الى سيف ابن ذى يزن الحميرى ، وقيل انه من هواتف الجان فقد جاء فى كتاب هواتف الجان ، واليها تنسب كهانة الكهان ، جاء فى هذا الكتاب ما نصه

بعد أن التقى بعبد المطلب : « أيهم المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم (١) ؟ قال نعم : قال ادن منى ، فأدناه ثم أقبل عليه وعلى القوم : قال « مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناما سهلا ، وملكا مرتجلا ، يعطى عطاء جزلا قد سمع الملك مقالتكم ، وعرب قرابتكم ، قبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء اذا ظعنتم » ٠

بعد هذا مكثوا شهرا لا يصلون اليه ، ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه انتباهه ، فأرسل الى عبد المطلب فأدنى مجلسه واخلاه ثم قال : « يا عبد الله انى مفض اليك من سر علمى ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه ، فأطلعتك طليعة ، فليكن عندك مطويا ، حتى يأذن الله تعالى فيه ، فان الله تعالى بالغ أمره ٠ انى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون الذى اخترناه لأنفسنا ، واحتجناه دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاء للناس عامة ، ورهطك كافة ولك خاصة » ٠

فقال عبد المطلب مثلك سر وبر ، فما هو فداؤك أهل لو بر زمرا بعد زمر

قال سيف بن ذى يزن ساجعا سجع الكهان ! « اذا ولد بتهامة غلام به علامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الامامة وله به الزعامة الى يوم القيامة » ٠

قال عبد المطلب ــ أبيت اللعن ــ لقد أتيت بخبر ما آب به وافده ، ولولا هيبة الملك واجلاله واعظامه لسألته من بشارته اياى ما ازداد به سرورا ٠

قال ابن ذى يزن ، : « هذا حينه الذى يولد فيه ، أوقد ولد اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد تاه مرارا ؛ والله باعثه جهارا ، وجاعل منا أنصارا يعزيهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس من عرض ، ويستبح بهمكرائهم الأرض ، يكسر الأوثان،ويخمد النيران ، يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله ٠

قال عبد المطلب عز جدك وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك ، فهذا بخارى ، فهل الملك سار لى بافصاح ، فقد أوضح لى بعض الايضاح ٠

---

(١) لأن أم عبد المطلب من بنى النجار وأصلهم من اليمن ــ الرحل كثير العطاء ٠

قـال ابن ذى يزن « والبيت ذى الحجب ، والعـلامات على النقب ، انك يا عبد المطلب لجده غير كذب » ٠

فخر عبد المطلب ساجدا ، فقال ارفع رأسك ثلج صدرك ، وعلا أمـرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ٠

قال عبد المطلب : كان لى ابن ، وكنت به معجبا ، وعليه رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه ، آمنة بنت وهب ٠

فجاءت بغلام سميته محمدا ، فـات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه » ٠

قال ابن ذى يزن : « ان الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود ، فانهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فانى لست آمن أن تدخل عليهم النفاسـة من أن تكون لكم الرياسة ، فيطلبون الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، فهم فاعلون أو أبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه ، لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فانى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق أن يثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العـرب عقبه ، ولكنى صارف ذلك اليك عن غير تقصير لمن معك » (١) ٠

١٨٣ ــ هذا كتاب ما فيه بلا ريب حق من حيث البشارة بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولعله ان صدقت النسـبة الى سيف بن ذى يزن يكون مصدره ما وصل اليه من علم ، فقد كان نصرانيا متعرفا ، ولم يكن وثنيا أميا ولا يمكننا أن نقول ان ابن ذى يزن من الكهان ، وان وجـد الموضوع فى كتاب هواتف الجان ، ويقال ان الكهان كانوا يخاطبون بهواتف الجان ، ونقول ان فيه سجع الكهان ، وان لم يستغرقه ، بل كان فيه بعضه ، ولعل هذا من صنيع الكهان ، وقد أرادوا أن يجعلوه من الكهان بعبارات السجع فيه أولا ، وجعله فى كتاب هواتف الجان ثانيا ٠

وفى الواقع ان الحديث كما ذكر ممن له علم بالكتاب وكان مستفيضـا مشهورا ٠

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٣٣٠ ٠

ومن ذلك ماروى بالاسناد الصحيحة عن بعض المضريين قال :

شارفنا الشام ، ونزلنا على غدير به شجرات ، فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال : « ان هذه لغة ما هى بلغة هذه البلاد ، فقلنا نعم : نحن قوم من مضر ، قال من أى مضر ؟ قلنا من خندف ٠ قال أما انه سيبعث وشيكا نبى خاتم النبيين ، فسارعوا اليه ، وخذوا بحظكم منه ترشدوا ، فقلنا ما اسمه ؟ قال اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) » (١) ٠

وانه بلا ريب نرى هذا الخبر الذى سقناه يتلاقى مع خبر ابن ذى يزن ، بيد أنه لا سجع فيه ، ولا ينسب الى هواتف الجان بل ينسب لراهب من الرهبان نسبه الى ما عندهم من كتب ، لا الى هواتف من الجان ٠

١٨٤ — فنحن اذا وجدنا فى عبارات الكهان ما يومىء الى ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس من هواتف الجان ، أو من علم الكهان وليس مصدره الكهانة ، ولكنهم علموه مما يجرى على ألسنة الرهبان ، وما تنطق به كتبهم ؟ وما عرف من علم ٠

ومن ذلك مثلا قول سطيح الكاهن : اذا كثرت التلاوة ، وخاضت بحيرة ساوة ، وجاء صاحب الهراوة ، مع غيره ٠

وقال ابن كثير انه يعنى النبى عليه الصلاة والسلام ، ونرى أولا — أن النبى ما جاء بالهراوة بل جاء يرد اعتداء الباطل على الحق بالسيف لا بالهراوة ٠ وثانيا — أنه على فرض أن المراد النبى عليه الصلاة والسلام فذلك مما شاع بين العرب من أنه سيكون نبى منتظر ، وأن أهل الكتاب يذكرونه بينهم خاصة ، ويعلنونه عند الاقتضاء للعامة ؟ سواء فى ذلك اليهود والنصارى وان كان اعلان النصر أوضح وأبين ، واليهود يعلنونه عند الشديدة تنزل بهم فى حروبهم مع الوثنيين ، يعلنون مجىء النبى عليه الصلاة والسلام كما جاء فى كتبهم تثبيتا لأنفسهم وتخذيلا لخصومهم وتعلقا بالرجاء ، وتشفيا من الأعداء بالمستقبل ، فكان السبق لأعدائهم ، والتخلف لهم ، فكان به المال لغيرهم والحال عليهم ، وهم الأخسرون دائما ان شاء الله ٠

---

(١) الكتاب المذكور ص ٣٣١ ٠



والشـــهور ، وفى كل احـــواله كان كثير التأمل ، يدرس الخالق من خلقـــه ، والمنشىء مما أنشأه ٠

ولكن كتاب الفرنجة يدعون أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان قبـــل البعثة يتتبع أخبار اليهود ، ويستمع الى ما يتحدث به أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، وانهم يرمون بهذا الى أمرين :

أحدهما : اثبات أن محمدا عليه الصلاة والســلام ما وصــل الى ترك الأوثان الا بتعاليم اليهود والنصارى ، وأنه ما وصل اليها بمنطقه وفطرته ، وبقايا ديانة ابراهيم عليه السلام ، وكأنهم يريدون أن يصوروا ما كان دون زيد بن نفيل وورقة بن نوفل ، وقد ثبت أنه كان يكره اللات والعزى وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وقد ثبت ذلك فى أخبار بحيرا الراهب ٠

وثانيهما : ادعاء أن القرآن الكريم أخذ أخبار النبيين وقصصهم مـــن التوراة والانجيل ، وأن العلم بهذا علم تلق ، وليس بوحى من الله تعالى ، مـــع أنه من الثابت أن قصص الأنبياء فى القرآن هو الصادق الذى لا يمترى فيـــه ، وغيره فيه الفساد والضلال كخبر سكر لوط ، ومواقعته ابنتيه وكزنى داوود بامرأة قائد جيشه فهى أكاذيب ليست فى القرآن الكريم ٠

وقد تبعهم بعض المغترين بهم من الكتاب عن نية حسنة ، ولم يدركـــوا خبيئة نفوسهم ، وخبث تفكيرهم ٠

الا فليتركوهم ، واستنباطهم ، وليتتبعوا أخبار النبى عليه الصلاة السلام من كتب الســـيرة الدقيقة البعيـــدة عن الأوهـــام ، وليتركوا اتبـــاع الاستنباط الفاسد ، من غير خبر تاريخى يؤيده ، ولا سند صادق يزكيه ٠

وليعلموا أن النبى عليه الصلاة والسلام كان بعيدا عن الأحبار والرهبان ، وما كان يصدق كهانة الكهان ، ونهى بعد البعثة عن الاستماع الى الكهان ، وكان يستنكر سجع الكهان ، ويستنكر تصرف من يحاكيهم ٠

البعثة المحمدية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجلى الأعظم

١٨٦ ــ كان محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله رحمة للعالمين ملتزما أمرين :

أولهما ــ أنه لم يكن صاحب لهو ولا عبث ، كان كذلك غلاما ، ثم شاديا ، ثم من بعد ذلك عاكفا زاهدا ، منصرفا عن الناس الا ما يوجبه حق المجتمع عليه ، من عطاء يقدمه لمحتاج ، أو معاونة لمستعين ، أو اغاثة للهوف ، أو حمل لكل ، أو قرى لضيف ، أو صلة لرحم ، وغير ذلك ٠ فكان المحتمل للواجبات ، المعتزل ، الذى يؤثر العزلة عن الاندماج فى غمار الناس ، حتى لا يصيبه شىء مما يخبثون به ، لأنه الطاهر الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكانت حياته الأولى مرشحة لحياته الثانية ، وآية على أنه ذلك الرجل الذى يستنكر المنكر ، ولا يفاحش أو يخاصم او يجادل آية على أنه الرسول المنتظر ، والنبى المرتقب ، وهو فى أحواله فى اختلائه واجتماعه ــ الأليف المحبوب ، الذى قدرته قريش كلها حق قدره ٠

الأمر الثانى ــ أنه قد اتخذ منسكا ينسك فيه وهو غار حراء ، بعد أن أكثر من العبادة ، والعكوف على عبادة الله ، وقد رأى قريشا يعكفون على أصنام لهم ٠

وان الظاهر من حال قريش الذين استمرءوا عبادة الأوثان أنه لم يكن فيهم غير الحنفاء ــ من يتفكرون فى عبادة ، أو يختلون ليعبدوا أوثانهم ، فان ذلك لم يثبت تاريخيا ، ولم تذكر واقعة له تنبىء عن ذلك ، وان ما يحيط بهم ، وما يثبت من حالهم يدل على أنهم لم يعملوا التفكير فى أمر عبادة ، بل كانوا يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم من غير تفكير ولا تدبر ، ولو أن بعضهم كان يعمد الى الاختلاء والاعتزال لكان كثيرون منهم يخرجون عن عبادة الأوثان إلى عبادة الديان ، اذ أن تأملا يسيرا كان يخرجهم من الظلمات الى النور ، ومن ضلال الوثنية الى هداية الوحدانية ، ولكنهم قوم ماديون ، يقولون « **ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** » ، ويقولون : « **ما يهلكنا الا الدهر ، وما نحن بمبعوثين** » ٠

واذا كان قد جرى على بعض الأقلام أن الاختلاء للعبادة كان نسكا عندهم يعبدون فيه الأوثان وينفردون لذلك ، فانما هو كلام من قوم لا يريدون

بالاسلام الا خبالا ، ولا يريدون بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم علوا ، ولا يذكرون فيه قول الحق خالصا ، بل يموهون فيه ويلبسون الحق بالباطل ٠

١٨٧ ـــ كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يجتهد فى العبادة، ومن وقت أن اطمأن الى رزقه ، ونظم تجارته فى مال خديجة بأن يعمل غيره تحت اشرافه ، ولم يكن ثمة حاجة الى خروجه بنفسه للتجارة ، فلم يذكر أنه خرج بنفسه ، بعد خروجه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ٠

وكلما تقدمت به سن الشباب ازداد نسكا واختلاء وانصرافا عن الملاذ والشهوات فى غير تحريم الحلال ، أو ابعاد لطيب من طيبات ، بل كان يأكل ويشرب فى غير سرف ولا مخيلة ، كما بين فى شريعته التى أرسل بها رحمة للعالمين ٠

وقد اتخذ لنفسه شهرا من أشهر السنة يختلى فيه بغار حراء ، وكان حراء نسكا للعرب فى جاهليتهم ، كما جاء فى البداية والنهاية لابن كثير ، فقد قال « وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج الى حراء فى كل عام شهرا ينسك فيه ، وكان من نسك قريش فى الجاهلية » (١) أى أنه كان من الأماكن التى تعتبرها قريش من النسك فى الجاهلية ، ولعلهم كانوا يضيفونها الى نسك الحج ، وقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم أن هذا خير مكان لعبادته ، لأنه لا يطرق طول العام ، ولم يكن كالبيت الحرام ، اذ يطاف بالكعبة المشرفة فيه كل يوم ، ويظهر أنه بمضى الزمان قد هجر اتخاذه نسكا ، ولعله كان مما أضيف الى مناسك من غير شريعة ابراهيم عليه السلام ، وليس بحث هذا ذا جداء فى موضوعنا ٠

جاءت الصحاح بأنه كان عليه الصلاة والسلام يتحنث (أى يتعبد على الحنيفية السمحة) الليالى ذوات العدد ، وكان يتخذ دائما شهر رمضان من كل عام يتزود لذلك ، ويبتدىء بالذهاب الى البيت الحرام يطوف به ، ويتصدق بالصدقات العظيمة ويطعم الطعام ، ثم يذهب الى غار فى جبل حراء ، لم يكن فى سفحه ، بل كان أعلى من ذلك ٠ ولا يصل اليه قاصده الا بمرتقى صعب ، وليس بالسهل ، وللناظر اليه الآن لا يجد الوصول اليه بغير شق النفس مما يدل على أن الله تعالى قد أعطى محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) بسطة

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٥

فى الجسم ، وقوة احتمال ، ورغبة صادقة فى العبادة ، لا يقوى عليها الا أولو العزم من العباد ٠

حتى اذا أتم الشهر وهو رمضان عاد الى بيته ، وقبل أن يأوى اليه يمر بالبيت الحرام ، فيطوف ، ويتصدق بما بقى معه من زاد ، ويطعم الطعام مما بقى له ، ثم يأوى الى خديجة زوجته الطاهرة ٠

وان السياق فى كل الصحاح من أخبار السيرة يستفاد منها أنه كان يتزود بالزاد ، ويذهب منفردا ليتم له الاعتكاف بعيدا عن الأهل والصحاب ، ولا يكون الا فى حضرة الحبيب الذى لا شريك له وهو الله سبحانه وتعالى ٠

هذا هو المستفاد من معنى الاختلاء والاعتكاف ، ولأنه كان يصرح بأنه يغدو صادرا عن أهله فى الشهر ، ويعود دائما الى أهله بعد أن ينقضى الشهر ٠

ولكن روى عن ابن اسحاق فى سيرته عبارة تفيد أنه كان يذهب الى الغار بأهله ، واليك عبارة ابن اسحاق « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره للكعبة الشريفة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله تعالى من ذلك ، ثم يرجع الى بيته ، حتى اذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله » (١) ، وان هذا الكلام يدل على أن الايحاء ٠ وهو أن الليلة التى كانت فيها البعثة النبوية لم يكن أهله معه ، وفيما قبل ذلك كان يكون أهله معه ، اذ أنه يصرح بأنه كان يخرج لجواره ، ومعه أهله ، ولكن لا تجد هذه العبارة فى غيرها ما نقله ابن اسحاق بل أن معنى الاختلاء والاعتكاف ربما لا يكون متناسقا مع وجود أهله معه ، اذ أن الاعتكاف للعبادة يقتضى الابتعاد عن الأهل ، والاتجاه الى الله تعالى وحده ٠

ولهذا نحنّ نميل الى رد ما قاله ابن اسحاق ، وان لم يكن ثمة ما يسوغ لنا أن نقول انه ربما كان يذهب مع أهله ولا يبقون معه ، بل يذهبون فى صحبته ، ثم يتركونه من بعد فى وحدته وعبادته ٠

---

(١) سيرة ابن هشام نقلا عن ابن اسحاق جـ ١ ص ٢٣٦ ٠

١٨٨ ــ والآن نسوق الخبر ، كما جاء فى صحيح البخارى وغيره من صحاح السنة ٠

يروى البخارى عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أنها قالت : « أول ما بدىء به الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاء الحق وهو فى غار حراء » (١) ٠

وهذه الرواية التى ساقها البخارى عن حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقرب الروايات ، وهى أرجحها وأصدقها ، وهى تدل على أمور ثلاثة :

أولها ـ أن الوحى جاء اليه وهو فى غار حراء ، ولم يكن معه أهله ، وأنه كان يتزود ، ولم تذكر أنه كان يصاحبه أهله ٠

وثانيها ـ أنه كانت تصفو نفسه وروحه ، وتخلص لله ٠

وثالثها ـ أن صفاء النفس أدى الى صدق رؤياه ٠

وهنا يثار أمران :

أولهما ـ من أى وقت ابتدأت ملازمة الخلوة شهرا من كل عام ٠

ثانيهما ـ بأى شىء ابتدأ الوحى ، ونزول الروح القدس عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، أكانت مواجهته له صلى الله تعالى عليه وسلم بالرؤيا الصادقة أم المشاهدة فى الصحو ، لا فى المنام ، لذلك موضع من البيان ، نوجزه ولا نفصله ٠

أما أولهما ـ وهو من أى وقت ابتدأت خلوته صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فانا نقول فى ذلك أنه من المتفق عليه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ وهو متجه الى ربه لا يعبد سواه ، وأنه التزم أن يكون عابدا من وقت أن بلغ سنا يدرك فيها معنى العبادة ، ويعرف فيها حق الخالق على المخلوق ، وقد كان يعبد الله تعالى بالتأمل فى خلقه ، والتدبر فى ملكوته واهتدى اليه ، وان لم يهتد ابتداء الى طريق عبادته ، فان ذلك فوق طاقة

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢ ٠

العقول ، ولابد فيه من المنقول ، وقد أشرنا الى أنه كان يحاول معرفة ديانة ابراهيم التى كانت بقاياها فى البلاد العربية ، وخصوصا فى مكة المكرمة ، حيث بيت الله الحرام الذى هو أول بيت وضع للناس ، وبناه ابراهيم بمكة مباركا هدى للعالمين « **فيه آيات بينات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا** » •

ورجحنا فى صدر كلامنا أن يكون قد وصل بالصفاء النفسى ، وربما بالرؤيا الصادقة الى صلاة ابراهيم ، فلا عبادة من غير صلاة ، فما دامت هناك عبادة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، صارت رتيبة له ، فلابد أن يكون قد اهتدى لصلاة ابراهيم •

وانه اذا كان قد سار فى طريق التأمل والعبادة ، وفى وسط ذلك الديجور المظلم من عبادة الأوثان ، لابد أن يختلى محمد (صلى الله عليه وسلم) عنهم لينصرف الى ربه ، ولكيلا يكون فى قلبه غيره ، ولكى يعبده ، كأنه يراه ، وقد وصل بقلبه المشرق الى درجة الاحسان ، فالاختلاء اذن كان أمرا لابد منه ، ليكون لله وحده •

ولكن ذلك النظام الرتيب الذى التزمه ، بأن يعبد الله منفردا بعبادته طول العام ، ثم يختلى خلوة العابد شهرا من كل عام ، هو شهر رمضان ، فى أى وقت ابتدأ ؟ الظاهر من عبارات الصحاح من الأخبار أن ذلك لم يكن فقط عام البعث المحمدى ، بل ذلك العام اختتم بأن الحق نزل عليه ، وجاءه روح القدس رسولا من عند ربه ، فلابد أن يكون قبل ذلك النظام الرتيب ، ونحسب أنه قبله بأعوام ، لا نستطيع أن نحدس بها ، وان كان يتسابق الى عقولنا ، أنها مدة لا تقل عن خمس سنين ، من وقت تمام بناء البيت الحرام ، ووضعه الحجر الأسود بيده الكريمة ، « وان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » •

١٨٩ — بقى أن ننظر فى الأمر الثانى ، وهو بأى شىء ابتدأ الوحى ، لقد قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها « ان الوحى ابتدأ بالرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى الرؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح » وان ذلك لا يدل على أن ابتداء أنباء الله تعالى لمحمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) كان بالرؤيا الصادقة ، ولكنه يدل على أن ابتداء الاشراق الالهى ، والاتصال الربانى كان بالرؤيا الصادقة ، والرؤيا الصادقة ، وان كانت جزءا من الالهام الالهى ، وليست هى الوحى الذى يقام عليه التكليف بالنسبة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من الوحى » فليست هى بالنسبة للنبى عليه الصلاة والسلام هى الوحى ، وان كانت بالنسبة لإبراهيم عليه السلام كانت وحيا كاملا ،

وبالبناء عليهـا هم بأن يذبح ولـده اسماعيل عليه السلام ، حتى فـداه رب العالمين ، كما قال تعالى : « **وفديناه بذبح عظيم** » فكانت الرؤيا إنباء ٠

ان المقرر لدى المؤرخين للسيرة الطاهرة أن الوحى ابتدأ بخطاب روح القدس جبريل عليه السلام ، ولكن جاء فى سـيرة ابن اسحاق أن أول خطاب لجبريل لمحمد عليه الصلاة والسـلام كان برؤيا صادقة فى المنـام ، ثم صحا يحفظها عليه الصلاة والسلام ٠

فقـد جاء فى سيرة ابن هشـام : « وجـاء جبريل عليـه السـلام بأمر الله تعالى ، قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، فجاءنى وأنـا نائم بنمط (١) من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ ٠ قلت ما أقرأ ٠ قال : فغتنى بـه ، حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال اقرأ فقلت ماذا أقرأ ، فغتنى به ٠ حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقـال اقرأ قال فقلت مـاذا أقرأ ما أقول ذلك الا اقتداء لى أن يعود لى بمثل ما صنع بى ٠ فقال : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خـلق الانسـان من علق ، اقرأ وربك الأكـرم الذى عـلم بالقـلم ، علم الانسـان ما لم يعـلم** » قال فقرأتهـا ، ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى ، فكأنما كتبت فى قلبى كتابا ، فخـرجت حتى اذا كنت فى وسط الجبل ، سمعت صوتا من السمـاء يقول : يامحمد ، أنت رسول الله ، وأنـا جبريل ، فرفعت رأسى الى السماء أنظر فاذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قـال فوقفت أنظر اليه ، وما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف عنه وجهى فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية فيها الا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى ، وما أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكان ، ورجعوا اليها وأنا فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى » ٠

وانه لا شك ثمة فرق جوهرى فى الخبرين :

١٩٠ ــ فالخبر الذى جاءت به الصحاح يفيد بأن الالتقاء بالأمين جبريل عليه السلام كانت فى صحو لا فى منام ، والثانى يفيد أن الالتقاء كان فى المنام ، لا فى الصحو ، وان كانت رؤيا كأنها الصحو ، لأنه بعد أن استفاق من نومه تذكر كل ما قال لم ينس منه حرفا واحدا ، فكان وحيا بـلا ريب ، والاختلاف بين الخبرين فى الرواية لا فى أصل المعنى ، فهما متلاقيان غير متخالفين ٠

ومع هذا التلاقى فى المعنى ، فان هناك ثمة اختلافا فى الواقعة ، أكانت فى نوم ، أم كانت فى يقظة ، وان الكثيرين من العلماء قالوا ما دام المعنى

---

(١) النمط وعـاء ٠

واحدا فى الروايتين وليستا متعارضتين ، فان التوفيق يكون بتكرار الواقعة ، وقعت فى النوم ، ووقعت فى اليقظة ، فهى قد ابتدأت اللقـاءات بين محمد صلى الله عليه وسلم وروح القدس فى المنام ، ثم كانت فى اليقظة والمنام ، كان تمهيدا للمجاهرة فى اليقظة ٠

وقد وفق ذلك التوفيق ابن كثير فى البداية والنهاية وبناه على أن قـول أم المؤمنين فى رواية للبخارى أول ما بدىء به الوحى الرؤيـا الصـادقة ، فقد قـال :

« فقول أم المؤمنين عائشة أول ما بدىء به الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، يقوى ما ذكره ابن اسحاق ، ابن يسار عن عبيد بن عمر الليثى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قـال : « فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ ، فقلت ما أقـرأ ، فغتنى حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى وذكر نحو حديث عائشة سواء ، فكان هـذا كالتوطئة ، لما يأتى بعـده من اليقظة ، وقد جـاء مصرحا بهـذا فى مغـازى موسى بن عقبـة عن الزهـرى أنه رأى ذلك فى المنـام ، ثم جـاءه الملك فى اليقظـة ٠

وقد جاء فى كتاب دلائل النبوة لأبى نعيم الأصبهانى أن ذلك شأن الأنبياء جميعا يأتيهم الوحى ابتداء فى المنام ، حتى اذا تهيئـوا للقاء الوحى عيانا ، جاء اليهم ٠ فقد نقل عن علقمة بن قيس أنه قـال : « ان أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام ، حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحى » (١) ٠

وهكذا ننتهى الى حقيقة ثابتة متفقة مع مجموع النقول ، وتتـلاقى مع العقول ، وهو أن الالتقاء بالروح بالقدس ابتداء فى المنـام ، ثم لما ألف محمد (عليه الصلاة والسلام) الرؤيا المنامية الصادقة ، ويظهر أنها فى وضوحهـا وجلائها تشبه رؤية اليقظة اذ كانتتجىء مثل فلق الصبح كما أخبرت أمالمؤمنين عائشة ، حتى اذا كان الأنس بروح القدس ، وامتـلاء النفس بالروحانية كانت المشاهدة فى اليقظة ، لأن ذلك مقام خطير عظيم ، لا تقوى عليه النفوس الا بعد أن تصقل صقلا روحيا ٠

وقد يقول قائل ان كلام أم المؤمنين عائشة يسـتفاد منـه أن الميـل الى الاختلاء للعبادة كان بعد الرؤيا الصادقة ، وقد يوهم ما قلنا ، بأن الصـفاء النفسى بالعبادة قد سبق الرؤيا الصادقة ٠

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٨ ٠

ونقول فى الاجابة عن ذلك بأن الصفاء الروحى كان فى قلب النبى عليه الصلاة والسلام من يوم مولده ، وهو فى المهد صبيا ؛ فاذا كان عيسى عليه السلام تكلم فى المهد صبيا ، فان محمدا عليه الصلاة والسلام قد أدرك فى المهد صبيا ، وان الصفاء الروحى قد لازمه طول حياته ، فقد كان فى صفاء ولابد أن يستمر الى شبابه الباكر ، ثم الى ما بعده ، فالرؤيا الصادقة كانت من ارهاصات الرسالة ، وكانت من الوحى ، ثم كانت فى المرحلة الأخيرة منها ، وحيا بما يراه من خطاب الوحى بالأمين جبريل ، وهى ما ذكره ابن اسحق ٠

واذا كان لنا أن نستفيد من تقديم الرؤيا الصادقة على الخلاء ، فكان تحبيب الخلاء له ثمرة لرؤيا صادقة تكررت حتى كان منه الاختلاء بنفسه ٠

ولقد قلنا من قبل انه كان يتعرف البقية من ديانة ابراهيم ليصلى ، ونحن فى هذا الموضوع من بحثنا عثرنا على الضوء الذى نهتدى به فى تعرفه للصلاة على ديانة ابراهيم ، وظننا من قبل احتمال أن يكون ذلك بالرؤيا الصادقة ، وظننا ذلك ظنا ، والآن ندركه راجحا رجحانا يقرب من اليقين ، فضلى الله تعالى على محمد العابد صبيا وكهلا ، ومن الصالحين ٠

التقى بالروح القدس :

١٩١ — روح القدس هو جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى : « **وأيدناه بروح القدس** » ، وكما قال تعالى : « **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين** » ٠

لقد جاء اليه جبريل عليه السلام ، وهو فى غار حراء (١) يتعبد الله تعالى ، حيث علا قلبه الى المقام القدسى ، فارتفع من الأرض ، الى ملكوت

---

(١) غار حراء كهف صغير بأعلى حراء ، وحراء جبل فى الشمال الشرقى من مكة ، يبعد عنها بما يقرب من ثلاثة أميال ، وهذا ليس بذى زرع ولا غرس ، بل هو مملوء بالصخور لا عمران فيه ولا يأوى الناس اليه ، ولا تستأنسون به ، يمشى الماشى فى طريق مدعثر ، لا يصل اليه الا فى مقدار من الزمن قد يسير فى طريق غير معبد الى نحو الساعتين ، فاذا وصل الى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع الى الغار الا فيما يقرب من ساعة ، واذا ارتفع وجده موحشا يحس فيه الداخل برهبة ، وهو أعلى الجبل ، فيزداد المقبل عليه عزلة عن =

الله تعالى ، فصارت نفسه صالحة لتلقى نور السماء ، فنزل رسول أمين من رب العالمين ، الى رسول الخلق أجمعين ليحمل رسالة ربه ، ويبلغها للعالمين ، من رب غفور ، وقد توالى النزول ٠

ولكن متى ابتدأ ؟ قالوا انه فى الأربعين من عمر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أشد العمر ، وهى سن النضج فى الروح ، وفى البدن ، وفى العقل ، فهى سن القدرة على الاحتمال ، وقد قال الله تعالى فى هذه السن « **حتى اذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه** » واذ قد بلغ محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم هذه السن ، فقد أوزعه الله سبحانه وتعالى اليه ، وجعله له خالصا ، وقد تهيأ لذلك ، وأنشأة صفوة خلقه ، وجعله نبيا رسولا ٠

كان الالتقاء بالروح القدس على مرتين أولاهما تمهيد لأخراهما ، كانت الأولى ، وهى كاملة ، وان كانت فى منام هو كالصحو ، اذ لا يقل عنه وضوحا ، وقد تلقى فيه أول القرآن الكريم فوعى ما وعى ، وحفظ آيات ربه الأولى ، ولما ذهب عنه النوم الصافى كان يحفظ كل ما حفظ ، لا ينسى منه شيئا ٠

ولما رأى الوجود ببصره ، كما كان فيه ببصيرته التقى بالذى رآه فى منامه ، رآه وهو شهيد ، وقد استأنس بالرؤيا الذى صدقها ، وخاطبه مرة أخرى فى عالم الشهادة ، ولولا أنه قد استأنس به ابتداء فى الرؤيا الصادقة ، لعظمت المشقة عليه ، وهنا فى المرة أدرك أنه ينادى بالرسالة من قبل الله تعالى ، وأنه شرفه بها ، وكان عليه الصلاة والسلام فى هذين اللقاءين محفوفا بالنور القدسى ، وان كان شديدا على النفس البشرية التى عاشت فى الأرض ، ولو كانت بصفائها متطلعة الى النور الربانى الذى يملأ أطوارها ، ويحيط بثناياها ٠

=

الناس ، بل عن الأرض وما فيها ، ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله ، قد ضيق الله ما بينهما ، واذا تجاوزهما ، ودخل الغار أحس بأنه قد صار معزولا عن العالم عزلة كاملة ٠

وان اختيار محمد بن عبد الله ذلك المكان ، لأن فيه العزلة الكاملة عن الناس ، والوحشة من كل شىء الا الأنس بالله وحده ، وكان اختياره بالهام الله تعالى ليكون مقدمة جهاده ، ويعيش فيه حياتين ، أولاهما ـ رهبة ، والثانية صعبة ، وان كانت نهايتهما سعيدة ٠

وفى هذا اللقاء النورانى نزل أول القرآن الكريم ، وكانت ليلته ليلة القدر الذى فرق فيها الأمر وأبرم برسالة محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال سبحانه وتعالى : « **انا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر** » على كلام فى ذلك سنتصدى لبيانه ٠

ويقول الرواة ان ذلك كان فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان بعد أربعين سنة من عام الفيل ، وقيل انها كانت الرابعة والعشرين من ذلك الشهر المبارك ، ومهما يكن اختلاف الرواة فى تعيينها فانها كانت فى رمضان كما قال تعالى : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان** » على كلام فى ذلك أيضا ٠

قلق الزوجة الصالحة :

١٩٣ ــ بالهام المرأة الصالحة الذكية القلب ، الطاهرة النفس أحست خديجة زوج محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بما فيه زوجها من مشقه ، فانزعجت عليه على غير عادة ، وقد ألفت منه الغيبة فى شهر رمضان ، وكانت هى التى تزوده بزاد المادة ، والله تعالى يزوده بزاد التقوى ، انزعجت ، فأخذت تسأل عنه ، وهى تعلم أنه فى غار حراء ، لأنها أحست أنه فى جهاد روحى ، جهاد من ينزع من الأرض ، ليتصل بالسماء ٠

وبينا هى قلقة مضطربة لغيبته على غير عادة اذ هو مقبل قد تغير لونه ، يرجف فؤاده ، فزال قلقها ، وان استعربت حاله ــ وقالت :

يا أبا القاسم ، أين كنت ، فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك ، حتى بلغوا مكة المكرمة ، ورجعوا لى ٠

وقد حدثها بما رأى فى رؤياه ، وما شاهد فى عيانه ، وفؤاده يرجف وهو يقول : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب منه الروع ، وهو يقول « خشيت على نفسى » ٠

وعندئذ جاء دور الزوجة الرفيقة الصالحة فى القول ، فقالت بمنطق الفطرة ، وهو أن من أحسن لا يجازى الا احسانا ، كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتقرى الضيف ، وتحمل الكل

وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر · رأت فى زوجها الأمين الطاهر كل هذا ، وباحساس الفطرة ، رأت أنه لا يمكن أن يكون ثمر الطيب الا طيبا · ويقول ابن اسحاق ، انها قالت بعد أن علمت الخبر ، وقالت ما قالت : أبشر يابن عم ، واثبت فوالذى نفس خديجة بيده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » وما قالت ذلك الا وقد تواردت الأخبار بأن نبيا سيبعث فى هذا الزمان ·

الى ورقة بن نوفل :

١٩٣ ــ لا أدرى أهى فرحة بما توقعته من خير عظيم يجىء لزوجها ونور عميم ينبثق من بيتها ، أم هى فرحة اللقاء دائما يدفع الى الحركة ، ومهما يكن فقد وجدت منها رغبة الى العمل فى الموضوع الذى طرأ ، وتوقعت منه أن يغير مجرى حياتها ، قامت فجمعت ثيابها ، ثم انطلقت مع محمد ابن عبد الله (عليه أفضل السلام وأتم السلام) الى ورقة بن نوفل ، وكان من الحنفاء الذين هجروا عبادة الأوثان واختاروا أن يعبدوا الله ·

واختار النصرانية ، اذ كان يعرف العبرانية ، فدرسها منها ، ودرس التوراة ، فعلم الديانتين من الينابيع الأصلية ، ويظهر أنه علمها ديانة وحدانية لا ديانة تثليث ، لأنه دخيل عليها ، ولأن نصرانية الشرق التى كانت فى العراق وأطراف الجزيرة العربية كانت تتبع نسطورس الذى أنكر أن يكون المسيح الها أو ابن الله ، اذ كان يعتقد أن عبارة الابن التى وردت فى بعض كتبهم أضلتهم ، وان ماضى حياته ما كانت تسمح لنا أن نقول انه مثلث ، لأنه ترك عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع ، فكيف يعتنق تثليثا غير متصور فى العقل ·

لقد بلغ علم الرجل بالعبرية أنه كان يكتب بها ويقرأ ويدرس ، فكان على علم بالبشارات التى جاءت فى التوراة والانجيل بالنبى عليه الصلاة والسلام · وهى تبشر برسول اسمه أحمد ·

وقد بلغ الشيخوخة فنضج فكره ، وقد جاءت اليه ابنة عمه خديجة بنت خويلد · وكان بصره قد كف ، قالت خديجة فى هذا اللقاء يابن عم اسمع من ابن أخيك فأخبر النبى عليه الصلاة والسلام ورقة بما رأى وعاين : قال ورقة : هذا الناموس الذى كان ينزل على موسى ، ياليتنى كنت فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا ، اذ يخرجك قومك ، قال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم متعجبا ، كيف ينطق بالحق ، ويخرجوه ؟ قال : « أو مخرجى هم »

وتلك هى براءة الفطرة ، قبل أن يمرسه الله تعالى بشدائد الدعوة ، وقبل أن يلقى الباطل فى طغواته بالحق فى نوره ٠

قال ورقة الذى علم أخبار النبيين ، وما لقوا من بأساء وضراء وشدائد : « نعم (أى هم مخرجوك) لم يأت أحد بمثل ما جئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك هذا أنصرك نصرا مؤزرا » ٠

ان هذه كلمة ورقة ، وهى ثمرة الدراسة المبينة لتجارب الأنبياء ٠

وهنا قد يسأل سائل لماذا ذكرنا موسى عليه السلام ، وهو التوراة ، ولم يذكر الانجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام ، والجواب عن ذلك أن التوراة كانت فيها شريعة قائمة عمل بها النبيون من بعد موسى عليه السلام ، وجاء عيسى لاحيائها بعد أن أهمل اليهود تعاليمها ، ولم يطبقوها لغلظ رقابهم ، فجاء عيسى لاعلان حقائقها ، وروى عنه أنه قال : « جئت لاحياء الناموس » ، ولقد جاء النص فى كتب النصارى أنه يؤخذ بشريعة التوراة ، ما لم يجىء نص فى الانجيل يخالفها ٠

ولم يكتب الله تعالى للشيخ ورقة بن نوفل أن يحضر المعركة التى قامت بين الحق والباطل ، فلم يلبث أن توفى ولم يحضر الدعوة المحمدية ، اذ أنه قد مكث مدة ، حتى أمر محمد صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالة ، وأن يصدع بما يؤمر ٠

فترة غياب روح القدس :

١٩٤ — علم النبى عليه الصلاة والسلام أنه يحمل تكليفا كبيرا ، وأنها منزلة كبيرة يعلو فيها بانسانيته ، فأصبح المرهوب محبوبا مرغوبا ، بعد أن خشى من لقاء روح القدس ، جبريل عليه السلام ، صار يتمنى أن يلقاه ، ليلقى أمر الله تعالى ، ويستجيب له ، ويحمل الأمانة التى اختاره الله تعالى لها ٠

لقد كان يتوقع أنه سيراه بعد أن يعود الى الغار ، لكنه لم يجىء اليه وفتر عنه ، فظن فى نفسه الظنون ، ولعله ظن أن ما اعتراه من خوف فى اللقاء الأول نحى تكليفه القيام برسالة ، ولقد كان حريصا على الاستجابة للدعوة الى الحق ، والحريص على القيام بأمر يستعجله ، ويستبطىء غيابه ، ولعله خشى أن يكون ما أخبره به العالم الخبير ورقة بن نوفل لم يصادف الحق ، ولعله تكون الرؤيا التى رآها ، والمشاهدة التى عاينها تشبه مايدعى

للكهان ، وهى أمر يبغضــه ، ويستنكره · لعل هذه الخواطر وغيرها أقلقته ، فاستبطأ الوحى ، وتمناه ، وعلم أنه لا يستقر مرة الا اذا عــاد الوحى اليه ، شق ذلك الانقطاع على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، خشية على النعمة التى توقع أن ينعم الله تعالى به عليها ·

ويقول فى ذلك ابن اسحاق « ثم فتر الوحى فترة من ذلك ، حتى شق عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فأحزنه » ·

ذكر البخارى فى صحيحه أنه كان يذهب الى غار حراء ينتظر حيث ينزل عليه الروح القدس (جبريل) ويقول فى ذلك « ثم فتر الوحى ، حتى حزن النبى عليه الصلاة والسلام فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذورة جبل لكى يلقى نفسه تبدى له جبريل ، فقال يا محمد ، انك رسول الله حقا ، فيسكن جأشه ، وتقــر نفسه فيرجع ، فاذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فاذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فقال مثل ذلك » وهكذا حتى انتهت فترة الانقطاع ·

وقد جاء فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله « سمعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى ، فاذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجنيت منه فرقا حتى هويت الى الأرض ، فجئت أهلى فقلت زملونى » فأنزل الله تعالى : « **يأيها المدثر قم فأنــذر ، وربــك فكبر ، وثيــابك فطهر والرجــز فاهجر** » ثم حمى الوحى وتتابع (١) ·

وان هــذا يدل عــلى أن الفــترة التى انقطع فيهــا جبريل عن محمــد ابن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) شوقا لأن يعود الوحى ، وان شوقه الى تلقى الوحى بعد هــذه الفترة جعله محبــوبا مرهوبا ، أو على الأقــل لا يكون فزعه منه ، كفزعه الأول الذى كان عقب الرؤيا بالمعاينة لجبريل عليه الســلام ·

مدة الفترة :

١٩٥ ـــ لقد اختلفت الروايات فى مدة الفترة التى انقطع فيهــا ، ما بين رواية تذكرها طويلة ، وأخرى تذكرها قصــيرة · فقد جاء فى المواهب

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٦ ·

اللدنية بلغت ثلاث سنين ، ولا شـك أن هذه مدة طويلة نسـتبعدها ، وان كانت قد ذكرت فى كتب من كتب السيرة ، والسبب فى استبعادنا لهـا ـ أنها لا تتفق مع كون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى مشقة شديدة من تلك الغيبة حتى انه كان يرتفع الى شواهق الجبال ليتردى من أعلاها ، وكان يتكرر ذلك ، وان الله تعالى أجل من أن يلقى بمن اختاره رحمة للعالمين يعيش فى ذلك القلق والاضطراب تلك المـدة الطويلة من غير أن يعـرف له غـاية ينتهى عندها ، وفوق ذلك ، فان الاستعداد لأمر خطير لا يستمر تلك المـدة الطويلة ، بل هى قـد تحمـل على النسيان بين اللقـاءين ، وان المصـادر الأصلية ، والأحاديث لم تذكرها ، فلم يذكرها ابن اسحاق ، ولم يروهـا البخارى ٠

ولقد قال السهيلى ان المدة سنتان ونصف ، وقيل انهـا سنتان ، وقيل فيها مدد مختلفة أقلها ثلاثة أيام وأكثرها أربعون ، وقد روى أن ابن اسحاق جزم بأن الذين قالوا ثلاث سنين أو سنتين قولهم وهم ٠

وان الذين قالوا انها ثلاث سنين استندوا الى ما جاء فى تاريخ الامام أحمد ، ويعقوب بن سفيان عن الشعبى أنه قـال : « الفترة وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته اسرافيل ثلاث سنين ، وكان يعلمه الكلمة » ٠

وهذه رواية لا نحسب أنها عالية مما يوجب الريب ، فأولا : تذكر أنها أن اسرافيل هو الذى كـان يعلمه فى مدة ثلاث السنين ، ولم يثبت ذلك ، بل الثـابت أنه من أول تلقى نور السماء اتصل به جبريل الأمين روح القدس ، وثانيا : أن الشعبى تابعى ولم يذكر من الذى نقل له هذا من الصحابة ، وقد أنكره كثير من الرواة ، فقد قال الواقدى انه لم يكن من الملائكة من قام بالاتصال بالنبى عليه الصلاة والسلام الا جبريل عليه السلام ٠

وفى الجملة انه بعد ذلك البيان نرى أن تقدير مدة الفترة بالسنين أيا كان مقدارها غير معقول ولا مقبول ، وليس له سند صحيح حتى يكون منقولا ، حجته النقل ٠ وانما الذى نعتقد أن المدة لابد أن تـكون فى دائرة الأشـهر ، ولعلها خمسة أشهر وبعض ، على ما نشير من بعد ٠

١٩٦ ـــ الى هنا ذكرنا اللقاء الأول للوحى النبوى ، الذى أفاض الله به تعالى على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن لا ننتهى من هذا الجزء ، وننتقل الى ابتداء التبليغ ، والقيام بعبء الدعوة ، والجهاد فى سبيلها ، من وقت أن صدع بأمرها ، قبـل أن نحقق الأمر ، فى ثلاثة أمور تحدث العلماء فى أمرها ٠

أولها : الشهر الذى نزل فيه الوحى ، أهو رمضـان ، وهو مـاذكرته كتب السيرة وما رجحناه وانتهينا اليه ، وسقنا سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام الطاهرة عليه ، وكان يصح ألا نذكر سواه ، ولكن لم نرد أن نترك أمرا اختلف فيه العلماء من غير تمحيص ، وبيان الصادق منها ، وقد قيل انه ربيع الأول ، وقيل انه رجب ، فـلا بد من ازالة الشبـه من حول الحق الصريح ·

ثانيها : أول نزول القرآن الكريم ، أهى آية : « **اقرأ بـاسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق** » أم هى قوله تعالى : « **يأيها المدثر قم فأنذر** » · وسننتهى ان شاء الله تعالى بالتوفيق ·

ثالثها : أنواع الوحى الذى خوطب به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

الشهر الذى نزل فيه الوحى :

١٩٧ ـــ جاء فى كتاب (زاد المعاد فى هـدى خيـر العباد ، للامام ابن القيم ما نصه :

« لما كمل له أربعون أشرقت عليه أنـوار النبوة ، وأكـرمه الله تعـالى برسالته ، وبعثه الى خلقه ، واختصه بكرامته ، وجعله أمينه بينه وبين عباده ، ولا خلاف أن مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوم الاثنين ، واختلف فى شهر المبعث ، فقيل لثمان مضين من ربيع الأول سنة احدى وأربعين من عـام الفيل ، هذا قول الأكثرين ، وقيل بل كان ذلك فى رمضان ؛ واحتج هؤلاء بقوله تعالى : « **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس** » قالوا أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته وأنزل عليه القرآن فى رمضان جملة واحدة فى ليلة القدر الى بيت العزة ، ثم أنزل منجما بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة ··· » ·

وان هذا الكلام يستفاد منه بصريح اللفظ أن النبى عليه الصلاة والسلام بعث فى سنة ٤١ من عام الفيل عند الأكثرين ، واذا كان النبى عليه الصـلاة والسلام قد ولد باتفاق المؤرخين فى عام الفيل ، فيكون النبى عليه الصـلاة والسلام قد بعث بعد أن بلغ الأربعين وتجاوزها بسنة ، ولكن يظهر أن أنـوار النبوة كما قال ابن القيم أشرقت عليه قبل أن يبلغ الحادية والأربعين ، وتـكون أنوار النبوة سابقة على البعث ، ببضعة أشهر ، اذ أن كلامه يفيد بصريحه أن أنوار النبوة جاءت فى الأربعين ، لا بعد مرور سنة الأربعين كاملة ·

والمشهور الذى عليه الجمهور هو أنه بعث فى سنة الأربعين فى رمضان فى اليوم السابع والعشرين من رمضان ، وهذا هو المشهور ، وهو الراجح ، وقيل فى السابع ، وقيل فى الرابعة والعشرين ٠

واننا نستطيع التوفيق بين هذه الروايات ، فنقول :

ان أول مجىء الوحى كان فى السابعة والعشرين من رمضان سنة ٤٠ ، ولكن التكليف بالتبليغ كان فى شهر ربيع فى الثامن من ربيع ، ويكون الفارق الزمنى بين الأمرين هو خمسة أشهر (شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، وسبعة أيام من ربيع) ، أى خمسة أشهر وبعض الشهر ، وان ذلك يهدينا الى مدة الفترة التى انقطع فيها الوحى النبوى ، والتى كانت شاقة ، وقد جاء هذا بالاشارة لا بالعبارة فى شرح المواهب اللدنية ، فقد جاء فيها ما نصه : « وجمع بين النقلين » أى النقل بأنه بعث فى رمضان ، والنقل الذى يقول انه فى ربيع ، بما ما فى ذلك حديث عائشة « أول ما بدىء به الوحى الرؤيا الصادقة » فيكون نبىء فى الربيع بالرؤيا الصادقة ، ثم أتاه جبريل فى رمضان (١) ٠

ونرى أن صاحب المواهب نقل عن ابن حجر فى فتح البارى ذلك التوفيق ، ولكنا نوافقه فى أصل التوفيق ، ونخالفه فى استنباطه فى النزول بالرؤيا الصادقة كان فى ربيع سنة ٤١ ونزول جبريل كان فى رمضان سنة ٤١ أيضا ، وذلك لأن الذين قالوا ان النزول كان فى رمضان ، قالوا وقد بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأربعين لا الحادية والأربعين ، وللتوفيق الكامل نقول انه كان فى رمضان سنة ٤٠ كانت الرؤيا الصادقة ، التى أعقبها لقاء جبريل ، وقد ذكره بما رأى وكان تصديقه بالمعاينة فتر الوحى من بعد ذلك فترة شقت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان نزول القرآن الكريم وتتابعه ، وهذا يعطينا بيان مدة الفتر ، الذى ذكرناه ظنا ، ونراه الآن رواية صادقة ، وأنه ملتقى الروايات التى يبدو فيها تضارب ، ولكنه يتكشف بهذا أنه لا تضارب ، بل تلاق بين النصوص ٠

أول ما نزل من القرآن الكريم :

١٩٨ ــ ان السياق الذى ذكرناه آنفا وهو الذى أجمع عليه رواة السيرة ، أن جبريل روح القدس عليه السلام خاطب محمد بن عبد الله (صلى

(١) شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٠٧ ٠

الله تعالى عليه وسلم) بعد رؤياه الصادقة بما جاء فى وحى الرؤية تمـاما ، فقال له اقرأ ، فقال لا أقرأ ٠٠ الى آخر المذاكرة الروحية بينهما ، التى انتهت بأن نقل عن ربه قوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** ٠٠٠ » ٠

واذا كانت هذه من القرآن الكريم ، ومن ينكر ذلك فعليه أن يتوب ، فانها بلا ريب أول القرآن الكريم نزولا ، واذا كنا قد انتهينا الى أن أول القرآن الكريم نزولا كان فى رمضان ، وأن أول الوحى كان فى رمضان ، فرمضان شهر القرآن الكريم ، كما هو شهر الوحى ، وكما قال الله تعالى : « **شـهر رمضان الـذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** » ٠

هـذه حقـائق سـائغة ، لا ريب فيهـا ، ولا اختـلاف ، ولا تثير ريبـا ولا خلافا ٠

ولكن الروايات تجىء بما يفيد ظاهرها المعارضة بينهـا وبين ذلك الحق الصادق الذى لا ريب فيه ، ولا مجال للريب فيه ، ولنذكر بعض هـذه الروايات لنبين أنه لا تعارض فى حقيقة الأمر ٠

لقد ثبت فى الصحيحين البخارى ومسلم عن يحيى بن أبى كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن أى القرآن أنزل قبل غيره فقال : « **يا أيهـا المدثـر** » فقلت : « **واقرأ باسم ربك** » ، فقال قال رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم : « انى جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جوارى نزلت ، فاستبطنت الوادى ، فنوديت فنظرت من بين يدى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى ، فلم أر شـيئا ، ثم نظرت الى السماء ، فاذا هو على العرش فى الهواء ، فأخذتنى رعدة ، أو قـال وحشة ، فأتيت خديجة ، فأمرتهم فدثرونى فأنزل « **يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر** » وفى رواية أخرى ما يشير بأن هـــذه الآية ليست الأولى ، وليس ما فيها أن رؤية جبريل روح القدس الأولى ، فقد قالت : فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض (١) فجئثت منه فرقا ــ الخ ، وهو ذكر لما تضمنه الضمير فى الرواية الأولى التى تقول : « فاذا هو على العرش فى الهواء » ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٧ ٠

وان هذا يفيد بلا ويب أن الوحى جاء ابتداء فى غار حراء ، وفيها نزل : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » ثم جاء ثانيا وليس أولا كما توهم أبو سلمة ، فى نزول الوحى « **يأيها المدثر** » ٠

وان نظرة فاحصة تبين لنا أن أول القرآن الكريم نزولا هو اقرأ ، كما هو الأصل الـذى لا مـراء فيه ، ولكن فتر الوحى فترة هى خمسة أشـهر وبعض الشهر ، ثم جاء فيها الوحى : « **يأيها المدثر قم فأنذر** ٠٠٠ » وقد انتهينا الى أن الفترة ابتدأت بعـد أن نزل قوله تعـالى « **اقرأ** » فى رمضان من سنة ٤٠ هـ ، وانتهت الفترة فى ربيع سنة ٤١ هـ من عام الفيل ٠

والحق أن الروايات غير متضاربة للمتأمل البصير ، فان أول ما نـزل بالقرآن الكريم لم يكن فيه الأمر بالتبليغ ، بل كان فيه اللقاء بروح القدس ، والاعلام بالقرآن الكريم ، وبمغزاه الأول ، وهو تعليم الخلق ، وبيان الحـق ، وأنه كتاب الله تعالى يقرأ باسمه ويعرف به ذكره ، أما تكليف القيام بالتبليغ ، فقد جاء فى قوله تعالى : « **يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر** » ٠

والى هذا أشار ابن كثير ، فقال فى الرواية التى جاءت فى البخـارى عن عبد الرحمن بن أبى سلمة : « لا ينفى هذا تقدم ايحاء جبريل اليه أولا : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ٠٠٠ » ثم التقى به جبريل بعد نزول قوله تعـالى : « **يأيهـا المدثر قم فأنذر ، وربـك فكبر ، وثيابك فطهـر ، والرجـز فاهجـر** » ، ثم حمى الوحى وتتابع ـ أى تدارك شيئا بعد شىء ـ وقام حينئذ رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أداء الرسالة أتم القيـام ، وشمر عن سـاق العزم ، ودعا الى الله تعالى القريب والبعيد ، والأحرار والعبيد ، فآمن به حينئذ كل لبيب نجيب سعيد ، واستمر على مخالفته وعصيانه كل جبار عنيد ٠

مراتب الوحى وشكله :

١٩٩ ـــ نتكلم فى هذا الجزء عن البحث عن الوحى الذى كان ينزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والذى ابتدأ بالرؤيا الصادقة وتتابع ، وجاء شيئا فشيئا ، حتى تم القرآن الكريم نزولا ، فى مدى ثلاث وعشرين سنة كاملة ٠

لقد جاء النص القرآنى بطرق خطاب الله تعالى لأنبيائه ، فقال تعالى : « **ومـا كان لبشر ان يكلمـه الله الا وحيـا أو من وراء حجـاب ، أو يرسـل رسـولا** » ٠

ولا شك أن هذه طـرق لحصر خطاب الله تعالى لمن يختارهم من خلقـه لخطابه ، فمن أى كان الخطاب لمحمد بن عبد الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونجيب فى هذا المكان ؛ لأننا فى مقام أول نزول الوحى ، فلنسر فى مداه الى نهايته ٠

يذكـــر ابن القيم فى كتابه (زاد المعاد) أن للوحى سبع مراتب ، فلنعرج على كل واحدة بكلمة موضحة فى ايجـاز ، وربما نجـد المقسم لا يشمل ذلك العدد ، لأن بعضها يدخل فى بعضه ، فالحدود فى الأقسام غير فاصلة ٠

المرتبة الأولى الرؤيا الصادقة : وقد كانت تلك المرتبة قائمة عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان البعث المحمدى كانت الرؤيا الصادقة هى أول ما نزل به القرآن الكريم ، كما جاء فى سيرة ابن اسحاق ، ثم تأكدت الرؤيا بمخاطبة روح القدس جبريل عليه السلام ، فكانت مصدقة بالخطاب ٠

وقد كانت هذه الرؤيا توجب التكليف أحيانا ، كما جـاء فى قصة خليـل الله تعالى ابراهيم عليه السلام فى قصة الفداء ، اذ قال تعالى حكاية عن قـول ابراهيم : « **رب هب لى من الصالحين ، وبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معـه السعى ، قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما ، وتله للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صـدقت الرؤيا ، انا كـذلك نجـزى المحسنين ، وفديناه بذبح عظيم** » ٠

ونرى من هذا أن خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام ، فهم مـن هـذه الرؤيا تكليفه ذبح ابنه ، فقبل التكليف صابرا ، محتملا ، وهو ابنه البكر ، واستجابة دعوته عليه السلام ، وكان ذلك البلاء المبين حقا ، فقـد استجاب للطلب ابراهيم ، وقبل الاستجابة اسماعيل صابرا ، فكانا من المحسـنين ، ونعم الصابرون ٠

والمرتبة الثـانية ، عبر عنها ابن القيم بأنها (ما كان يلقيـه الملك فى روعه وقلبه ، وهذا التعبير يستفاد منه أن الملك هو الوسط بين الله ورسـوله ، فهو ينفث فى روح الرسول ، بأمر الله تعالى ، فكان بذلك وحيـا ، وكان بطريق الملك ، ولقد مثل له ابن القيم بقوله عليه السلام : « ان روح القدس نفث فى روعى لن تموت نفس حتى تستكمل رزقهـا » فاتقوا الله وأجمـلوا فى الطلب ، والفرق بين الوحى بهذا المعنى والوحى بلقاء جبريل روح القدس ، أن لقـاء جبريل عيانا فى حال المخاطبة ، انما فى هـذه الحال ، فاللقاء فى النفس وفى القلب والعقل ، وربما نعد حينئـذ أن يكون هذا من ارسال رسول ، ولو كان

بالهام الله تعالى المجرد ، وهو ما نميل اليه اذا استيقن الرسول أن ذلك الهام من الله تعــالى ، فانه كلام الله تعالى بالوحى المجرد من غير توسط رسول ٠

المرتبة الثالثة : مخاطبة الملك ، حتى كان يتمثـل رجــلا ، فيخـــاطبه حتى يعى عنه ما يقول له ، فقد كان يأتيه متمثــلا فى رجــل يظنــه النبى صلى الله عليه وسلم من الانس لا من الملائكة ٠ فقد كان يأتيه فى صورة دحية الكلبى ، كما روى ذلك النسائى بسند صحيح من حديث ابن عمر ، ولقد قيل ان مجىء جبريل على صورة لدحية الكلبى كان بعد بدر ، ويقول ابن القيم وكان دحية رجلا وسيما ، اذ قدم لتجارة خرجت الظعن (١) لتراه ، وان مجىء جبريل فى صورة رجل ، ليس معناه أن جبريل الأمين نزع من روحانيته ، أو ذهبت عنه الروحانية، انما هو لا يزال روحا ، والذى ظهر به هو ظهور للروح فى صورة جسدية ، ومعانى الملك لا تزال ثابتة قائمة ، ولا يوجد ما يمنــع عقلا أن تظهر الروح فى صورة انسان له جسد ٠

ودحية لا شأن له فى هذا التغير الصورى ، بل هو حى فى جسده يأكل ويشرب ، ويمارس الحياة الانسانية كاملة ٠

وكون روح القدس جبريل يظهر فى جسد لا يقتضى أن يتحــول الجســد الى ملك ، ولا أن يتحــول الملك اليــه ، وهى روح ليست حيوانية ، ولا ثمــرة للحيوية الانسانية ، حتى اذا تركت الجسد لا تفارقه الحيــاة ، لأنها ليست أمرا عضويا ولكنها روح ملك تفيض فى جسم يخلقه ، أو تظهر فى جسم يخلقــه الله تعالى ، وهو الخلاق العليم ، فاذا غاب الملك غاب معــه الجسد الانسانى.٠

المرتبة الرابعة : أنه كان روح القــدس جبريل يأتيه مخــاطبا له مثــل صلصلة الجرس ، ويقول ابن القيم كان أشــده عليه ، ويقول فى وصــفه ابن القيم : « فيلتبس بــه الملك ، حتى ان جبينه ليتفصد عــرقا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى ان راحلته لتبرك به الى الأرض ، اذا كان راكبها ، ولقد جــاء الوحى مرة كذلك ، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليــه ، حتى كادت ترضــها » ٠

وقد روى البخارى عن زيد : أرسل الله على رسوله ، وفخذه على فخذى ، فثقلت على ، حتى خفت أن ترض فخذى ٠ وقد جــاء فى الصحيحين والموطأ عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله تعالى عليــه وســلم كيف يأتيك الوحى ، قال أحيــانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشــدها

---

(١) الظعن بضم الظاء والعين جمع ظعينة ، وهى المرأة الجميلة ٠

على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجـــلا ، ليكلمنى ، فأعى ما يقول · قالت عائشة : ولقد رأيتــه ينزل عليه الملك فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا (١) ·

ولا نريد أن نحاول توضيح هذه المرتبة ، فان تلك مراتب روحية لا تســمو الى ادراك حقيقتها ، ولكن نحاول أن نتصــورها فقط ، من غير تعرفها كاملا ، فلا يعرفها الا من عالجها ، ولم يعالجها الا المصطفون الأخيار الأبرار ·

ان الذى فهمناه من ذكر فى هذه الحال أن روح القدس الطاهر يختـلط بالنبى عليه الصلاة والسلام ويمازج روحه وجســده ، ويخاطبه بصوت قــوى صارخ ، فيه عنف كعنف صلصلة الجرس ، يسمعه عليه الصلاة والســلام ، ولا يسمعه غيره ، ويحس فى نفسه ، ولا يحس غيره ، ويكلمه بكلام مفهوم ، وان كان فى صوت قوى ، وكل ما فيــه من خطاب قوى ، ويكون باختلاطه بروح النبى ، وبممازجته جسمه محدثا ثقلا جسميا ضاغطا على ما يكون رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالسا عليه ، وان الرسول ليعرف ما يقول ، ويحفظــه ويعيه ولا يجهــله ، حتى ان انفصل عنــه لا ينفصل الا وقــد وعى كل ما أراد أن يبلغه عن الله تعالت قدرته ، وعظمت منتــه ·

وقد روى العسقلانى فى المواهب أحاديث موضحة وشاهدة لهذه المرتبة من الوحى ·

ومنها روى الطبرانى عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب الوحى لرســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان اذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة ، وعرق عرقا شديدا مثل الجمان (٢) ، ثم سرى عنه وكنت أكتب ، وهو يملى عــلى وربما وضع فخذه على فخذى حال الكتابة ، فما أفرغ حتى تكاد رجلى تنكسر ، حتى أقول لا أمشى على رجلى ، ولما نزلت عليه ســورة المائدة كاد أن ينكسر عضد ناقته (٣) ·

وذكرت الناقة هنا لأن النبى عليه الصلاة والسلام ، خطب خطبة الوداع فى عرفة وهو واقف ، ونزلت آية « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا** » فى هذا اليوم ، وكان راكبا على الناقة ·

---

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٩ ·

(٢) الجمان : صغار اللؤلؤ ، والبرجاء الحمى ·

(٣) كان الكلام فى نزول آية : « **اليوم أكملت لكم دينــكم** » لا فى سورة المائدة ·

المرتبة الخامسة : قال فيها ابن القيم « أنه يـرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى اليه ما شاء أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى فى سـورة النجم ٠

يشير الى قوله تعالى : « **والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنـا فتدلى ، فكان قـاب قوسـين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفـؤاد ما رأى ، أفتمارونه عـلى ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخـرى** » فيفسر ابن القـيم تلك الرؤية الروحيـة بأنهـا رؤيـة جبريل بحقيقته ، وهى فيما أحسب رؤية بنور البصـيرة ، وبقـوة الروح ، لا بنور البصر ، ولا بشكل جسـمى ، لأن جبريل روح ، فكيف يـراه الا أن يكون محسـوسا ، وبذلك لا تفترق هـذه الحـال عن الرؤية المشخصة مـع أنها غيرها ٠

ولقد قال عبد الله بن مسعود أنه قال : لم ير الرسول صلى الله تعـالى عليه وسلم جبريل على صورته التى خلق عليها الا مرتين ، أما واحدة فانه سأله أن يريه نفسه ، فسد الأفق ، وأما الأخـرى فليـلة الاسراء عنـد سدرة المنتهى ٠

المرتبة السادسة : ما أوحاه الله تعالى اليه وهو فوق السـموات ليـلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها ٠ ومؤدى كلام ابن القيم أن هـذه المرتبة من الوحى هى التلقى عن الله سبحانه وتعالى مباشرة ، لا بطريق الرؤيا الصـادقة فى المنام ، ولا بطريق ملك ، على أى حال من الأحـوال كان الملك ، بل عن الله تعالى ، ولا يقتضى ذلك رؤية ، لأنه قد يكون الله يكلم العبد المختار للرسـالة من عباده من وراء حجاب ، ليـكون الكلام مع الله تعالى من غير رؤيـة لذاته العلية ، فقد سئل عليه الصلاة والسلام : هل رأيت ربك ، « فقال انه نور ، فانى أراه » وان هذا التفسـير الذى اخترناه يتـلاقى مع المرتبة السـابعة التى سنذكرها ، واذا أردنا التمييز فاننا نقول ان هذه هى من الله مباشرة مـن غير توسط ، وهو ما كان ليلة المعراج ، فالذى نتصـور على مقدار ما يقـرر ابن القيم ، أنه ليس بكلام تكلمه رب العالمين ، ولكن وحى مباشر ٠

المرتبة السابعة : هى الكلام من وراء حجاب ، وقد قال فيها ابن القيم : « كلام الله اليه (أى الى الرسول صلى الله عليه وسلم) بلا واسطة ملك ، فكلم الله تعالى موسى بن عمران ، وهذه المرتبة ثابتة لموسى قطعا بنص القران الكريم ،

وثبوتها لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث الاسراء ، وبهذا التفسير يتبين أن السابعة داخلة فى السادسة ، وليست كل واحدة منهما مرتبة قائمة بذاتها (١) ٠

وفى الحق ان هذه المراتب متداخلة ، والمراتب كلها مذكورة فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : « **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب** » ٠

دعوة الحق

٢٠٠ ــ بعد أن فتر الوحى نحو ستة أشهر أو دون ذلك ، قليلا جاء التكليف بالتبليغ ، وتحمل عبء الرسالة الالهية الى الخلق أجمعين ناداه ربه بالأمر بأن يرفع من ثيابه ما كان يجر ، ولا يكتفى بالتعبد فى غار حراء ، وان كان ذلك كافيا لتهذيب نفسه ، وتصفية روحه ، وأن يكون متصلا بربه خفية وتضرعا ، فانه لا يكفى لرسول أمين ، بل لابد أن يتكلم عن ربه أمام العالمين ، وتكون معه العبادتان ٠ العبادة الفردية بتهذيب ذاته وتقوية روحه ، وتوجيه نفسه الى الله وحده الذى لا يغيب عنه شىء فى السماء ولا فى الأرض ، والعبادة الجماعية بأن يتقدم لدعوة الحق ودعوة الناس الى الانصراف لعبادة الله وحده ، واصلاح الخلق ، والسير بهم فى المحبة الواضحة التى ليلها كنهارها ، وهذه غاية الرسالة الكبرى التى حملها خاتم النبيين محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) ٠

أمره الله تعالى بعد أن ناداه النداء المؤكد : « **يأيها المدثر قم فانذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر** » ٠

تضمنت هذه الآيات الكريمات ، الانذار بالعذاب الشديد ان استمروا ، وبالدعوة الى عبادة الله تعالى ، وتطهير الثياب ظاهرا وباطنا ، وبترك الفساد وهجر الشر، وعبادة الله تعالى هى السبيل لدفع الشر ، ومنع الأذى ، وفى الجملة هذه الآيات التى تعد أول طلب لتبليغ الدعوة تشتمل على ثلاثة أمور هى خلاصة الدعوة المحمدية ، أو ترمز لكل نواحيها التكليفية ٠ **أولها** ــ الايمان بالعقاب والحساب ، وقد أشار اليه سبحانه وتعالى بالأمر بالانذار ففيه اشارة الى اليوم الآخر وما يكون فيه من حساب وجزاء ان خيرا فخير ، وان شرا

---

(١) المراتب مذكورة فى زاد المعاد جـ ١ ص ٢٥ ، وفى المواهب اللدنية وشرحها جـ ١ ص ٢٢٥ وما بعدها ٠

فشر ، والأمر الثانى تربية النفس الانسانية بالعبادة والصبر ، وتطهير القلوب بالخلوص لله سبحانه وتعالى ، وتكبيره وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وقد أشار الى ذلك بقوله تعالى « **وربك فكبر ، وثيابك فطهر** » ، والأمر الثالث ــ اماطة الأذى عن الجماعة التى يعيش فيها ، ونفعها ، وقد أشار سبحانه الى ذلك بقوله : « **والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر** » ٠

وبذلك يتبين أن الآيات الكريمات رمزت الى خلاصة الحقائق الاسلامية التى يقام عليها الاســـلام ، وهى الوحدانية والايمان باليوم الآخـــر وتطهير النفوس ودفع الفساد ، وجلب النفع ٠

مراتب الدعوة :

٢٠١ ــ ذكر ابن القيم فى زاد المعاد أن مراتب الدعوة خمس مراتب :

الأولى النبوة : فلا يدعو الى الحق الذى نزل من عند الله تعالى الا نبى وقد اعتبرها ابن القيم المـــرتبة الأولى ، ونحن لا نعتبرها كذلك ، **انما نعتبرها** كيان الدعوة ، فلا دعوة الى الايمان برسالة الا من نبى مرسل ، فهى دعامة ، وليست مرتبة يبتدأ بها ، **بل هى الأصل ولب الدعوة** ٠

المرتبة الثانية : انذار العشيرة الأقربين ، وقد أمر الله تعالى بذلك فقال سبحانه « **وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** » وقد بدأ النبى عليه الصلاة والسلام دعوة عشيرته ، فدعا بنى عبد مناف وقال لهم ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصـــدقى قالوا ما علمنا منك كذبا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « انى رسول الله اليكم بين يدى عـــذاب شديد ، وانهـــا للجنة أبدا وللنـــار أبدا أو كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم » ٠

والمرتبة الثالثة : انذار قومه ، وقد سلك محمد عليه الصلاة والسلام ، ذلك المنهاج الذى انتقل فيه من الحيز الضيق الى ما هو أوسع ، ثم الى ماهو أعم ، فانتقل من انذار عشيرته الأقربين الى قومه من قريش قريبهم وبعيدهم ٠

وقد أنذر عليه الصلاة والسلام فى هذه المـــرتبة ســـــكان مكة المكرمة وما حولها ٠

المرتبة الرابعة : عبر عنها ابن القيم بقوله ، انذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله الا كانوا به مؤمنين ، وهؤلاء هم العرب فى الجزيرة العربية قاصيهم

ودانيهم ، سكان المدر منهم وسكان الوبر ، وبذا عمت دعوة كل من ينطق بالعربية ، من غير تفرقة بين قريب وبعيد ٠

والمرتبة الخامسة : تبليغ الدعوة الى غير العرب من الرومان والفرس والشام ومصر والحبشة برسل أرسلهم وبكتب كتبها ، ثم بث الدعاة ، وجهز الجيوش التى تدافع من هجموا أو حاولوا الهجوم ، أو حاجزوا بين الاسلام ودعوته ، وحالوا بين الشعوب ومعرفته ، فكان الجهاد ليثبت الرشد من الغى ، والهدى من الضلال ، ومن بعد ذلك يختارون عن بينة ، فقد قال تعالى : « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم** » ٠

وقد سلك النبى عليه الصلاة والسلام تلك المراتب ، وان كانت التفرقة بين المرتبة الثانية والثالثة دقيقة اذ لا تكادان تنفصلان ، والمرتبة الأولى لا تعد مرتبة للدعوة ، ولكنها مرتبة التهيئة لها ، ولعله يريد منها ما كان من نزول قوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ٠٠٠ » الى آخر الآيات الكريمات ، التى نزلت فى أول لقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بروح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام ، الى نهاية الفترة التى قدرناها بما دون ستة الأشهر وتنتهى عند نزول قوله تعالى : « **يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر وثيابك فطهر** » ٠

٢٠٢ ــ وقد كانت الدعوة من بعد ذلك خفية ، يلتقى بالأولياء والأصدقاء المقربين ، والصفوة المختارة من الصحب الأبرار ، وهذه هى المرتبة الثانية ٠

وانما كانت الدعوة ابتداء خفية لتتكون خلية الاسلام ، وان الخلايا يكون بذر البذور فيها بالكتمان لأن الجهر يبددها قبل أن تتكون حتى ينمو عودها ويتكون سوقها ٠

فكل فكرة جديدة لابد أن يلتقى حولها قلوب مؤمنة بها ويتولى من بعد ذلك اعلانها والمجاهرة بها ، ثم لابد من تكوين من يتقدمون الدعوة ، ومثل الدعوة الخفية ، كمثل تكون الجنين فى بطن أمه ، فانه لايظهر للوجود حيا حياة كاملة ، صالحا لأن يقاوم دواعى الفناء ، والأخذ من عناصر البقاء والتغذى بكل أسباب القوة ، فكذلك الدعوة الى كل فكرة ، تقتضى التدبير الخفى ، ثم الاعلان الجلى ٠

ولذلك كانت الدعوة الأولى ، ثم كانت المراتب التى تليها ٠

ولقد يقول الرواة ان الاستخفاء كان نحو ثلاث ، كانوا يستخفون بها فى العبادة والمذاكرة ، وقالوا انها كانت فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ٠

ولكن يجب أن نعلم أن الإستخفـاء فى هذه الفترة ليس الاستخفـاء بالدعوة ، فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يعلن ما جاء به من نذير ، وما فى جعبته من تبشير ، ولكن الذى يستخفى به هو اقامة العبادة التى دعا اليها رب العالمين ، ولذلك كان إضطهاد المؤمنين من الضعفاء واضطهاد النبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يسلم حمزة وعمر ، وخروج المسلمين صفوفا معلنين الاسلام مجـابهين المشركين متحدين قوة الشرك بقوة الله تعالى وقوة الحق ، والصبر المستعذب ، وان كان مريرا ٠

ثم من بعد ذلك كانت المجاهرة الكاملة التى تشق الصفوف المشركة بنور الحق ، واشراق الاخلاص ، اذ أمر الله تعالى أمرا جازما قاطعا اذ قال تعالت كلماته « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** » ٠

وقد أخذ عليه الصلاة والسلام من بعد نزول هذه الآية يجاهر المشركين ، ويجادلهم بالقرآن الكريم ، ويصابرهم فى اطمئنان المؤمن بالحق فيمـا يدعو اليه ، يجادلهم بالقرآن الكريم يتلوه عليهم ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله ، وهم يتهددون وينذرونه وأهله ، ويقاطعون بنى هاشم ، الى آخر ما سنقرر من بعد ٠

وبنو هاشم مـاعدا أبالهب ومعهم بنو المطلب يسيرون معه صفا واحدا ابتداء للقرابة عند الأكثرين منهم ولأجل الحق عند غيرهم ٠

حتى اذا مات أبو طالب الذى عالى الصوت باسم القرابة والمحبة ، أخذ محمد عليه الصلاة والسلام يدعو القبائل فى مواسم الحج ، وفى وفودها ، حتى اذا صار للاسلام الكلمة العليا فى الجزيرة العربية فـاضت الوحدانية بالنور على من وراء البلاد العربية الى الأقاليم التى تصاقبها اقليما بعد اقليم ٠

أول من أســــلم

٢٠٣ ـــ اتجه محمد عليه الصلاة والسلام الى تكوين الخلية الأولى للاسلام ، فاتجه الى الذين يعاشرونه ابتـداء ، وكان يعـاشره ثلاثة : أولهم أم المؤمنين خديجة ، السكن ، والمواسية ، والحانية ، والرقيقة ، وأم أولاده ، والرفيقة الرءوم ، والثانى على بن أبى طالب ، وقد كان فى كلاءة النبى عليه الصـلاة والسلام وكفالته ، وهو له المؤدب والمربى ، ذلك أن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال ، وعند ابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام فضل يسار ومال من عمله فى التجارة فى مال خديجة ، وعند العباس عمه مال وفير ، اذ كان من أثرياء قريش ٠

ولقوة احساس محمد صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه وما عنده من مودة فى القربى ذكر حال عمه للعباس واقتراح أن يأخذ كل منهما ولدا من أولاد أبى طالب يكفله ، فكان من نصيب محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على كرم الله وجهه ، وعندما جاءت الدعوة الاسلامية ، ونزل الوحى الالهى كان على فى العاشرة ٠

وثالث الثلاثة زيد بن حارثة بن شرحبيل ، وكان عربيا من بنى كلب ٠

كان الرق قد جرى عليه بالطريقة الجاهلية ، اذ قد أخذته جمـاعة من الفرسان وهو ابن ثمانى سنوات ، وباعوه فى سوق من الأسواق ، وآل أمره الى خديجة أم المؤمنين ، ثم وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان عبدا له على مقتضى ما كان عليه الناس ابان ذاك ٠

وقد جزع أبوه عليه جزعا شديدا ، وبكى لفقده ، وقد قـال فى ذلك شعرا جـاء فيه :

بكيت على زيد وما أدرى ما فعـــل

أحى فيرجى أم أتى دونـه الأجـــل

فوالله مـــا أدرى وانى لســـائل

أغالك بعدى السهل أم غالك الجبـل

ويا ليت شعرى هل لك الدهر أوبة
فحسبك من الدنيا رجوعك لى بجل(١)

تذكرنيه الشمس عند طلوعها
وتعرض ذكراه اذا غربها أفل (٢)

وان هبت الأرواح هيجن ذكره
فياطول ما حزنى عليه وما وجل

سأعمل نص العيش فى الأرض جاهدا
ولا أسأم التطواف أو تسأم الابل (٣)

حياتى أو تأتى على منيتى
فكل امرىء فان وان غره الأمل (٤)

أخذ يبحث عنه فى طول بلاد العرب ، حتى عثر عليه عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة ، ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عدو الرق بفطرته لم يرد أن يحتجنه عنده غير مختار ، فخيره بين أبيه والمقام عنده ، وقال : ان شئت فأقم عندى ، وان شئت فانطلق مع أبيك ·

ولكن الشاب قد اختار له ، فاختار أن يقيم مع محمد صلى الله عليه وسلم وهو يلمح نور النبوة عن الحرية مع أبيه وآله ، ولكن أباه أخذ يلومه ، فقال له : « يازيد تختار العبودية على أبيك وأمك » فقال ابن الكريم ، « انى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذى أفارقه أبدا » ·

عند ذلك الوفاء أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده ، وقام الى الملأ من قريش ، فقال : اشهدوا أن هذا ابنى وارثا وموروثا ·

رأى أبوه ذلك فطابت نفسه ، وكان يدعى زيد ابن محمد ، فلما اختفى التبنى وقال تعالى فى المتبنين : « **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم** » ·

---

(١) بجل بمعنى حسم أى حسم الشعر وأنهاه ،
(٢) الأرواح جمع ريح ، والوجل الخوف ·
(٣) النص السير الكثير الشديد ·
(٤) الشعر فى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٨ ·

الاسلام فى بيت النبوة :

٢٠٤ — كان أول الاسلام فى بيت النبوة ، وأول الدعوة كانت فى بيت محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد كان الذين يكونونه ، وبلغوا حد الادراك المميز للحقائق الدينية فى الجملة ، هم هؤلاء الثلاثة خديجة بنت خويلد الزوجة الطاهرة الوفية الأمينة الحانية على زوجها وثانيهم على بن أبى طالب الذى كان غلاما ، وهو الذى رباه النبى عليه الصلاة والسلام ، وثالثهم المولى المخلص الذى أزال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عنه الرق ، ورفعه الى شرفه من ذؤابة قريش ، حتى كان يقال زيد ابن محمد حتى ألغى الله تعالى التبنى ، ولكنه ألغاه وزيد شريف بالاسلام والايمان ، وشريف بحريته واحترام نسبه الأصلى ، الذى لم يرنق برق .

لقد آمنت خديجة منذ أن التقى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بروح القدس ، جبريل عليه السلام ، وعاد اليها يرجف فؤاده ، وأخبرها ورقة بن نوفل بمكانة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه رسول هذا الزمان ، وأنه لا نبى بعده .

آمنت به منذ الابتداء ، وكان ايمانها أمنا وسلاما ، فقد كانت هى السكن الذى يأوى الى ما فيه من رحمة وسط عنف المعارضة ، وشدة المقاومة ، وكما قال ابن هشام فى سيرته : « وازرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء به ، فخفف الله تعالى بذلك عن نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، الا فرج الله تعالى عنه بها اذا رجع اليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس » رضى الله تبارك وتعالى عنها .

وانها بذلك صارت لها منزلة فوق منزلة نساء الأنبياء أجمعين ، بل صارت لها منزلة فى الذروة بين نساء العالمين حتى صارت ثالثة بين فضليات النساء فى الخليقة ، وهى مريم العذراء التى خاطبتها الملائكة من السماء ، وبضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبضعتها ، فاطمة الزهراء .

وقد أرسل الله تعالى لها تحية طيبة مباركة من السماء ، فقد أمر الله تعالى نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأن الله تعالى يقرئها السلام ، وروى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بأن يبشر خديجة ببيت من قصب (والقصب هو اللؤلؤ المجوف) لا صخب فيه ولا نصب .

انها أقامت بيتا للنبى عليه الصلاة والسلام فيه الهدوء والبركة والأمن والسلام يلقى فى خارجه غبار الصخب ، وعناء النصب ، فكتب الله تعالى لهـا بيتا فيه الراحة التامة ، وفيه الرونق ، وفيه الجمال ، فيلتقى فيه جمال المنظر ، بلطف الهدوء بعد اللغوب ٠

ولقد أحست بمنزلتها عند الله تعالى ، وخصوصا عندما أقرأها السلام بذاته الكريمة فقد ردت التحية فقالت مقالة المؤمنة : « الله السـلام ، ومنـه السلام ، وعلى جبريل السلام » فالتقى الايمان الصادق ، بالتنزيه لله ، فجعلت الرد على جبريل ، أما الله فهو السلام ، وهو واهب السلام ، فتعالت ذاته ، ويقول فى التعليق على ردها شارح المواهب اللدنية « هذا من وفور فقهها ، حيث جعلت مكان رد السـلام على الله تعالى الثنـاء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق ، وما لا يليق ومع كون هـذا ادراكا سليما أقول انه احسـاس عميق وايمان صادق بالله ٠

اسـلام على :

٢٠٥ ـــ كان على رضى الله تعالى عنه فى العاشرة من عمره ، وقد تجاوز سن التمييز الأولى ، وصار له ادراك فى المعانى الدينية ٠ وذلك هـو نظر علماء الاسلام من بعد ٠ اذ أنهم اتفقوا على صحة اسلام الصبى المميز ٠ واعتبار اسلامه وان اختلفوا فى اعتبار ردته اذا تقرر اسلامه ابتداء ٠ أو بوراثته للاسلام ٠

كان على رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه فى سن التمييز عند بعثة النبى عليه الصلاة والسلام ٠ وفيه ذكاء يسبق به أقرانه ومن فى سنه ، وهو فوق ذلك فى مهبط الوحى ، ومنزل النبوة ، وما لا يصل اليه بالادراك يصل اليه بالمحاكاة والقدرة الصالحة ، وقبس النبوة يهديه ٠ ونورها يسطع فيما حوله ٠

ولقد قالوا انه ابتدأ نور الهداية باتخاذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة يقلدها ويحاكيها ، ويتبع آثارها ، ويتقفى مسالكه صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

قال ابن اسحق : « ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة المكرمة ٠ وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسـائر

قومه فيصليان الصلوات فيها ، فاذا أمسيا رجعـا ، فمكثا كذلك ما شاء الله تعالى أن يمكثا ٠

ولكن عين أبى طالب كانت تتلفت حول ابنه وابن أخيه وحبيبه محمـد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك رمقتهما ــ وهما يصليان ، فاتجه الى محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال له : يا بن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ٠ فقال : أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينـا ابراهيم بعثنى الله به رسولا الى العباد ، وأنت أى عم : أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابنى اليه وأعاننى عليه » ٠

دعاه محمد عليه الصلاة والسلام الى أمرين : الايمان بهـذا الدين ٠ وثانيهما اعانة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ وقد أجابه فى الثانية ولم يجبه فى الأولى فقد قال له : أى ابن أخى ، انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى ٠ وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك شىء تكرهه ٠

هذا ما كان بينه وبين ابن أخيه ٠ وهو ينبىء عن نخوة كريمة ٠ وتعصب لما كان عليه آباؤه تعصبا غير حسن فى ذاته ٠ ولا من مثله فى كبر عقله ، وقوة نفسه ٠ ولكن ذلك ما أراد الله تعالى لحكمة ، ليرى الناس مثلا من أقوياء الرجال ، يكون عظيما فى ذاته ، ويكون مع ذلك مشركا ، فهو عال فى نفسه ، ليس كبيرا فى اعتقاده ٠

أما ما كان من أمره مع ابنه ، فقد اتجه اليه يقول له : « أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه ٠ فقال له يا أبت ، آمنت بالله وبرسول الله ، وصـدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته » ٠

وهنا نجد أبا طالب الحر الكبير فى نفسه فى معاملة ابنه ، كما رأينـاه مع ابن أخيه ، فقد قال غير مضيق ولا متزمت ، ولا ضائق الصدر ، أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه ٠

وروى ابن اسحاق مع ما ذكر رواية فيها زيادة اذ قال :

« ان على بن أبى طالب رضى الله تبارك وتعالى عنه جاء بعد ذلك بيوم أو يومين وهما يصليان أى خديجة والرسول فقال أيا محمد ما هذا ! قال (النبى عليه الصلاة والسلام) دين الله تعالى الذى اصطفى لنفسه بعث به رسله ، فأدعوك الى الله تعالى وحده لا شريك له ، والى عبادته ، وأن تكفـر باللات والعزى ، فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاصد

أمرا حتى أحدث به أبا طالب ، فكره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال عليه الصلاة والسلام له : « ياعلى اذا لم تسلم ، فاكتم • فمكث على تلك الليـــلة ، ثم ان الله أوقع فى قلب على الاسلام ، فأصبح غاديا الى رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم ، حتى جاءه ، فقال : « ماذا عرضت على يا محمد فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبــرأ من الأنداد ، ففعـــل على ذلك وأسلم ، ويروى أنه كتم ايمـــانه عن أبى طالب ، ولكنه لما علم قال له : « وآزر ابن عمك وانصره » •

هذه زيادة ذكرها ابن اسحاق فى رواية أخرى ، وهى لا تتعارض مع الرواية الأولى ، ولكن تزيد عليها ، فمؤداها أن على بن أبى طالب ، كشأن من يكون فى سنه رأى أن يعرض الأمر على أبيه كالشـــأن فى كل أمر ذى شأن يعرضه الصبى على أبويه قبل أن يقدم عليه ، ثم وقع فى قلبه الايمـــان بمـــا جاء به ابن عمه ، طيب النفس رضيا ، وكان أن تبعه فى صـــلاته فى شعاب مكة المكرمة •

أول أسرة فى الاسلام :

٢٠٦ ـــ أسلم من بعد ذلك أو مقارنا لذلك مقارنة زمنية « زيد ابن حارثة ، وهو اختار محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام على أبيه واختار أن يعيش فى كنف محمد عليه الصلاة والسلام رقيقا ، على أن يعيش فى أسرته حرا طليقا ، فلابد أن يكون من أول الناس اسلاما ، فانضم الى الأسرة النبوية غير متلكىء ، ولا متلعثم ، ولا مضطرب ، بل دخل مسرعا ، غير متلوم •

اجتمع شمل الأسرة الكريمة على الايمان ، ولازم محمد صلى الله عليه وسلم فى صلاته أم المؤمنين خديجة ، وصفيه المجتبى على بن أبى طالب ، ولقد جاء تاجر زائرا مكة المكرمة ، ولنترك له الكلمة يقص ما رأى :

عن يحيى بن عفيف قال : « جئت زمن الجاهلية الى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب • فلما طلعت الشمس وحلقت فى السماء وأنا أنظـــر الى الكعبة • أقبل شاب ، فرمى ببصره الى السماء • ثم استقبل الكعبة • فقام يستقبلها • فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه • فلم يلبث حتى جاءت امرأة • فقامت خلفهما • فركع الشاب • وركع الغلام والمرأة • فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فخر الشاب ساجدا • فسجدا معه • فقلت : يا عباس • أمر عظيم • فقال أتدرى من هذا ! فقلت : لا • فقال : هذا محمد بن عبد الله

ابن عبد المطلب ابن أخى · أتدرى من هذا الغلام ؟ قلت : لا · قال : هذا على ابن أبى طالب · أتدرى من هذه المرأة التى خلفهما ؟ قلت : لا أدرى ! قال : هذه خديجة زوج ابن أخى · وهذا حدثنى أن ربك رب السموات والأرض أمر بهذا الذى تراهم عليه · وأيم الله · ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة ، وكانوا الثلاثة المطهرين السابقين الى الاسلام · ومعهم زيد بن حارثة فكان الرابع ·

ويلاحظ فى هذه الأخبار الصادقة أن أولئك أسلموا من غير أن يطالبوا بدليل ، بل كانوا المصدقين لما عرفوا من الحق فى ذاته · فأى قلب خال من شوائب الهوى والغرض · يسوى بين الايمان بحجر لا ينفع ولا يضر · والايمان بالواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى ليس بوالد ولا ولد ، ثم مع ذلك الحق الذى يدرك بأدنى تأمل من قلب سليم ـ ما عرف به الداعى من خلق صادق · وفضل كبير ، وعقل مدرك سليم ، ثم لا يكون فى كلامه ارتياب مرتاب ·

فالذى دفع الى ايمان تلك الأسرة الطيبة ادراك للحق فى ذاته ، وايمان بصدق ربها ، ومن بعد ذلك صفاء فى نفوس أهلها ، وأنى يكون قلب أصفى من قلب أم المؤمنين خديجة ، وعلى بن أبى طالب ·

النور يشرق من بيت النبوة

٢٠٧ ـ فاض النور من بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانبثق البثق الكبير خارج البيت ، ولكنه لم يكن بعيدا عن محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد ذهب يضىء قلوب أصدقائه ، والذين وصلت نفوسهم بنفسه ، وان لم يكونوا له أقرباء قرابة بعيدة أو قريبة ، ولكنهم كانوا من قبيله وقومه ، ثم كانت آية الله الكبرى أن عارضه أقرباؤه الأدنون ، كأبى لهب ، ولم يتبع دينه أو لم يظهره حتى أحباؤه من ذوى قرباه كأبى طالب الذى رباه ، وكان حبيبا الى نفسه ، وعمه العباس وغيره ·

وكانت تلك آية كبيرة تدل على نزاهة الاسلام من أن تقيمه عصبية ، أو يتبع للعصبية ، انما هو دين الله جاء لمحو العصبية الجاهلية ، ولم تكن عموم دعوته فيها أى استجابة لعصبية ، أو موالاة قبلية كما سيتبين ذلك فى القصص النبوى ، فلا يقال ان أسرة كانت تطمع فى السلطان · فاستعانت بسلطانها لنبوة كانت فيها · وخصوصا أن بنى هاشم كانت فيهم رياسات

بالكعبة الشريفة توارثوها كابرا عن كابر ، وكان آخرهم أبو طالب الذى عاصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

واذا كان بنو هاشم لم يكونوا أول الناس اسلاما ، فقد كانوا بلا ريب أولهم نصرة ، وكانوا نصراء النبى عليه الصلاة والسلام عصبية لا اسلاما ، اذ كان ذلك عادة العرب يعيش كل شخص فى حماية عصبية ٠ لا يسلمونه ، ويعدون تسليمه ذلا ، والتهاون فى نصرته قهرا وهوانا ، وخصوصا أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان معتدى عليه ٠ وليس معتديا ٠ والايذاء ينصب عليه انصبابا ٠٠

ومن أجل ثبوت أن معاونتهم له فى شدته كانت عصبية ، أنهم لم يؤازروه بعد أن صار قويا ، بل ان العباس عمه ، وهو الذى كان يعد كبير بنى هاشم بعد أبى طالب خرج مقاتلا فى جيش المشركين فى بدر لجيش محمد عليه الصلاة والسلام ابن أخيه ، وأسر من بين من أسر من المشركين ، ولم يخرجه محمد عليه الصلاة والسلام ، الا بفدية افتدى بها نفسه ٠

اسلام أبى بكر :

٢٠٨ — لا نريد أن نخوض فى أوليته ، وسبقه فى الاسلام على ابن أبى طالب رضى الله عنه أو سبق على عليه ٠ فتلك مسألة طائفية يثيرها الطائفيون فى الاسلام ٠ فالشيعة يعدون عليا أسبق والأمويون والناصبيون(١) يخالفون ومالنا أن نخوض فى ذلك ٠ وكل فريق يذكر أن معه من الصحابة فريقا ٠

وانما الذى نقرره أن كليهما أسبق الذكور الى الاسلام ، أبو بكر وهو رجل مكتمل يقارب الأربعين ٠ وعلى فى العاشرة من عمره ٠ لم يبلغ حد المراهقة ، ولكنه كان مميزا فاهما ، أسلم متنكرا متدبرا مدركا ، وقد ذكرنا أن فقهاء المسلمين يعتبرون اسلام الصبى المميز صحيحا وان اختلفوا فى اعتبار ردته مستحقة للعقاب ٠

بادر أبو بكر بالاسلام عندما علم بالبعثة المحمدية ، واسمه عتيق ، أو عبد الكعبة المكرمة ، وسماه النبى عليه الصلاة السلام عبد الله ٠ وقالوا ان أمه كان لا يعيش لها أولاد ذكور ، فلما رزقته وعاش سمته عتيقا لأنه عتق من

---

(١) الناصبية والناصبيون الذين يناصبون عليا وأولاده العداوة ٠

الموت ، وقيل سمته عبد الكعبة « المكرمة » لأنها نذرت أن تسميه عبد الكعبة · ثم اختار له صديقه محمد (عليه الصلاة والسلام) أن يكون عبد الله ·

وكان يمتاز من بين قريش ، بأنه عالم بالأنساب ، فكان نسابة العرب ، وكان له علم بأخبار الأولين ، وكان تاجرا معروفا بالأمانة والصدق ، وان لم يكن كمعرفة محمد (عليه الصلاة والسلام) بذلك ، ولعل الأمانة قد سرت من صديقه محمد عليه الصلاة والسلام فقد كانا صديقين وتربين لتوافق مشاربهما فى الجملة ، وان كان أبو بكر لم تكن عنده نزاهة محمد عليه الصلاة والسلام حبيبه وخليله فى البعد عن الأوثان ، فالفرق بينهما كالفرق بين من يصنعه الله تعالى على عينه ليكون رسولا نبيـا ، وبين من خلقه الله تعالى صـاحبا برا تقيـا ·

كانت الصحبة تجعلهما كالمتعاشرين فى كمال الخلق ، حتى انه عندما بدت ارهاصات النبوة ، وابتدأ البعث ، كانت تسأله خديجة عن صاحبه اذا غاب وهو يحضر اليها عندما تقلق عليه ، وتقول له : « يا عتيق أين ذهب »

يقول الرواة ان أبا بكر أسلم قبل أن يطلب اليه النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ، اذ أنه قد كان يتوقع ظهور نبوة صديقه محمد عليـه الصـلاة والسلام ، لأنه قد سمع كلام ورقة ، وعلم من خديجة حديثه لها ، وكان يوما عند حكيم بن حزام ، اذ جاءت مولاة له ، فقالت ان عمتـك خديجة تقول فى هذا اليوم ان زوجها نبى مرسل مثل موسى ، عندئذ أدرك أبو بكر أن ما توقعه قد وقع ، وأن النور أشع ، ولم يبق الا أن يستضىء به ويعشو اليه ، فانسل الى النبى عليه الصلاة والسلام ، فأسلم اذ طلب اليه النبى عليه الصلاة والسلام ، وما كان طلبا لجاهل · بل كان طلبا ممن عرف ولم ينكر واستسلم وأذعن لله تعالى (١) ·

ولذلك روى ابن اسحق فى سيرته أنه بلغه أن النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم قال : « ما دعوت أحدا الى الاسلام ، الا كانت عنده كبوة ، ونظر وتردد الا ما كان من أبى بكر ما عكم (٢) عنه حين ذكرت » ·

فنفس أبى بكـر كانت سائغة الى الاسلام قبل دعوته ، لمـا رأى من ارهاصات النبوة ، ولما علم من كلام ورقة ، ولأنه كان الصديق الوفى والحبيب الولى لمحمد عليه الصلاة والسلام ·

---

(١) شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٤٠ ·

(٢) عكم عنه : أى تردد وفكر وانتظر ·

ولقد كان لاشراق نفسه ، ولصفو فؤاده الى الحق ، والاتجاه اليه أنه كان يرى الرؤى التى يكون تأويلها تبشيره بالايمان ٠

جاء فى الروض الأنف « من أسباب توفيق الله له (أى لأبى بكر) أنه رأى القمر نزل مكة المكرمة ، ثم تفرق على جميع منازلها وبيوتها ، فدخل فى كل بيت منه شعبة ، ثم كان جمعه فى حجره ، فقصها على بعض الكتابيين ، فعبرها له بأن النبى المنتظر الذى قد أظل زمانه يتبعه فيكون أسعد الناس به ، فلما دعاه صلى الله تعالى عليه وسلم أجاب » ٠

دخل أبو بكر فى الاسلام فاستأنس به النبى عليه الصلاة والسلام بأبلغ مما كان واشتدت بينهما الصحبة ، فبعد أن كانت الصحبة مبنية على مجرد الاستئناس النفسى والخلقى ، صارت الأنسة بالايمان بالله وحده ، وبالمؤازرة فى شدائد الحياة ، واتخذ محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) من مكانة أبى بكر ، وأنس الناس ومكانته عندهم قوة لدعوة الحق يدعو بها ، فوق ما كان له هو عليه الصلاة والسلام من قوة نفس ، ومكانة عند الله وعند الناس ٠

تتابع المخلصين :

٢٠٩ ــ باسلام أبى بكر تجاوز الاسلام حجرات بيته ، لقد كان فيها مقصورا على اسلام الثلاثة الذين يعاشرون النبى عليه الصلاة والسلام وهم زوجه الكريمة ، وربيبه الأمين على ، وعشيره الوفى زيد ، ولسنا نذكر فى ذلك ترتيبا ، وان كنا نؤكد فى غير تلبث ولا مواربة أن أولهم باجماع المسلمين الطاهرة التى آزرت النبى عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، ووقت انبلاج فجر البعثة ، وبعد الأمر بالتبليغ ، وكان فضلها عند الله عظيما ٠

بعد اسلام أبى بكر تتابع الاسلام فى نفر ممن لهم بالنبى عليه الصلاة والسلام مودة سابقة ، أولهم بالصديق صداقة ، وكان فيهم استعداد ، كان أول من أسلم بعد بيت النبوة وأبى بكر عثمان بن عفان ، وقد كانت له بالصديق صداقة ، وله بالنبى محبة ، ويريد أن يتصل به بنسب ، كان يريد أن يكون له صهر ، فانه عندما بلغه أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أنكح ابنته رقية عتبة أصابته حسرة ، ولنترك له الكلمة ٠ فهو يقول :

كنت بفناء الكعبة فقيل ان محمدا صلى الله عليه وسلم أنكح عتبة ابنته رقية فدخلتنى حسرة ألا أكون قد سبقته اليها فانصرفت الى منزلى ، لأجد سعدى بنت كريز ، فأخبرتنى أن الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ٠٠٠

وقال انها حثته على اتباعه ، وان لم تكن قد ذكرت لمحمد صلى الله عليه وسلم اسلامها . ثم قال : « وكان لى مجلس من الصديق ، فأصبته فيه وحده » (فحثه الصديق على الايمان) قال ومر النبى عليه الصلاة والسلام ومعــه على ، فقام أبو بكر فسار ، فقعد النبى صلى الله عليه وسلم . ثم أقبل على ، فقال أجب الله تعالى الى جنته ، فانى رسول الله تعالى اليك والى جميع خلقه ، فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية .

وكان زواجه برقية الأمنية التى كان يتمناها من قبل ، وأصابته حسرة لسبق عتبة بن أبى لهب اليها ، وذلك لأن أبا لهب بلغت به الجاهلية العميـاء أن حمل ابنه على تطليق رقية عندما دعا محمد صلى الله عليه وسلم عشيرته للاسلام فوجد عثمان طلبته قد هيأها الله تعالى له ، فاجتمع عنده الخير العظيم بالاسلام ، ثم بالصهر ، ثم برقية ، فكان ذلك خيرا عظيما .

ثم أسلم من بعد ذلك الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ابن عبيد الله بدعوة أبى بكر . اذ كان ذا قرابة به ، ويظهر أن أولئك جميعـا كانوا بدعاء أبى بكر ، لأنه كان محببا فى قومه ، وقد ذهبوا جميعا الى النبى عليه الصلاة والسلام ، وأعلنوا اسلامهم ومؤازرتهم .

وأسلم من بعد هؤلاء أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله ابن عبد الأسد ، وهو زوج أم سلمة التى تزوجها النبى عليه الصلاة والسلام بعد موته ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيد بن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل الذى كان أبوه من الحنيفيين الذين نفروا من عبادة الأوثان ، وزوجه فاطمة ابنة الخطاب ، وهكذا أخذ الجمع يكثر واحدا بعد آخر .

وكانوا يستخفون فى صلاتهم ، وقبل أن نسير فى بقية درجات الدعوة والاستجابة نسارع الى الصلاة نبين وقت فرضيتها .

فرضية الصــلاة

٢١٠ — عندما نزل قوله تعالى : « **يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهــر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر** » . كان التكليف لتبليغ الرسالة والدعوة الى أمر الله ودينه ، ولا دين بغير صلاة ، بل لابد لكل دين من صلاة ، لأنه لابد لكل دين من عبادة ، ولا عبادة من غيــر الصلاة ، فهى عمود الدين ، وركنه الركين .

ولذلك اقترن التبليغ بفرضية الصلاة اقترانا زمنيا ، لأن الصلاة مقترنة بكل دين اقترانا عمليا ٠

ولقد قال الرواة ان الصلاة فرضت ركعتين بمجـرد البعثة المحمدية ، وكانت تصلى مرتين ، أولاهما فى الصباح ، والثانية فى المساء ، وفرضت ركعتين فى كل منهما ، ولقد قال فى ذلك المزنى من أصحاب الشافعى رضى الله عنه ، ان الصلاة كانت مفروضة قبل الاسراء ، كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، ويشهد لهذا قول الله تعالى : « **وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار** » ٠

ولقد قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها فيما رواه ابن أختهـا عروة بن الزبير ، فرضت الصلاة ركعتين ، ركعتين ، ثم أيد الله تعالى أنهـا فى الحضر أربعا وأقرها على فرضها فى السـفر ركعتين ، وبهـذا يتبين أن الصلاة كانت مفروضة من أول الاسلام ، وظاهر المروى أنها فرضت ركعتين، وفى وقتين اثنين وهما فى العشى والابكار ، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ٠

هذا هو المفروض على الكافة ممن يسلمون ، أما التطوع فبابه مفتوح والنبى مأمور بكثرة الصلاة ، وقد قال تعالى مشيرا الى طلب الصلاة الكثيرة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « **يأيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، انا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، ان ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا ، ان لك فى النهـار سـبحا طويلا** » ٠

وذكر الرواة أن جبريل روح القدس هو الذى علم النبى عليه الصـلاة والسلام الوضوء ، فقد ذكروا أن جبريل عليه السلام نزل عليه ، وهو بأعلى مكة المكرمة فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى ، فتبع الماء ، فتوضأ جبـريل ، وعلم النبى عليه الصلاة والسلام بذلك الوضوء قبل الصلاة ٠

وقد روى كتاب السيرة ذلك الخبر بسند غير متصل ، ولكن روى متصـلا عن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه ٠

وبهذا يتبين أن الوضوء فرض لكل صلاة ، وكانت فرضيته وهو عليه الصلاة والسلام فى مكة المكرمة ، وقد استمر من بعد ذلك ، وكان والصلاة ركعتان مرتين واستمر وقد صارت أربعا فى الظهر والعصر والعشاء ، وثلاثا فى المغرب وركعتان فى الصبح ، وذلك غير السنن على ما هو مبين فى فقـه العبادات ٠

ولكن ذكر العلماء أمرا لا جدوى فيه من حيث العمل ، وهو أن فرضية الصلوات المكتوبة والتى فرضت فى المعراج قبل الهجرة بسنة على ما سنحقق ان شاء الله تعالى ، فقالوا أن الصلوات المكتوبة قد نسخت الاكتفاء بصلاتين ، وأن ذلك ثابت بعمل النبى عليه الصلاة والسلام عملا متواترا ، وانعقد عليه الاجماع ، وصار معلوما من الدين بالضرورة بحيث من ينكره يكون كافرا ٠

وقد أشار القرآن الكريم الى مواقيت هذه الصلوات الخمس ، فقد قال تعالى : « **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** » ، وقد قالوا ان الصلاة الوسطى هى صلاة العصر ، ولا يمنع أن يراد الصلاة المثلى ٠

وقال تعالى مشيرا الى أوقات الصلوات كلها : « **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون** » ٠

فقد أتى بصلاة الصبح مشيرا بقوله تعالى : « **حين تصبحون** » وبصلاة العصر مشيرا بقوله تعالى : « **وحين تمسون** » وبصلاة المغرب والعشاء مشيرا بقوله تعالى « **وعشيا** » فهما العشاءان ، حتى قال بعض الفقهاء ان وقت المغرب والعشاء واحد ، يصلى أسبقهما أولا ، وثانيهما آخرا ، وأتى بصلاة الظهر بعبارة تكاد تكون صريحة وهى قوله تعالى : **وحين تظهرون** » ٠

وأنذر عشيرتك الأقربين

واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين

٢١١ ــ دخل عدد من كبار قريش ، وان كان قليلا ، ولكن تسامع الناس بالدعوة المحمدية التى جاءت برسالة الهية ، حتى كان علمها قد سرى سريان النور الى داخل البيوت ، حتى قيل ما من بيت من بيوت قريش الا علم بالاسلام ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه يخاطب من السماء ، فالأخبار فى خفاء وقد تعلم ، وان لم يكن دعا اليها ، ولم يحرك ذلك عنادا ، ولا خصاما ونزالا ، لأنها ما أصابت اهتماما الا ممن كان لهم صفاء نفسى لم يعكره تعصب ، أو لجاجة فى عناد ، فكان الأمر بين متبع وان كان عدده قليلا ، وغير مهتم ، وان كان كانوا الأكثرين ٠

وفى هذه الأثناء دخل الضعفاء ، وهم دائما نفوسهم أصفى وأكثر انصافا ، وادراكا ، لأنهم يحسون بالظلم ، ويرجون التغيير ، فاذا جاء نور

يكونون أول من يعشو اليه ، ويذهب فى استجابة ضارعة ، مع رجاء الانقاذ ولو فى المال ، فما كانت حالهم صالحة لأن تبقى ، ولا يمكن أن يرضى الحق بقاؤها ، لأن حالهم شقاء ولا يزيدهم شقاء ايذاء اذا كان الخير مرجوا ، وتغيير الباطل مأمولا ، فصادق يفتح باب الأمل ويغلق باب اليأس ، يكون فى رجاء التغيير سلوان وان كانت الحال مؤلمة أسيفة ٠

لذلك دخل الضعفاء والعبيد فى الاسلام أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه وخباب بن الأرت ، وبلال الحبشى وغيرهم كثير ، والدعوة بينهم ، يستطيبون سماعها ، ويصدقون الاستجابة لها ويستعذبون كل عذاب فى سبيلها ٠

وكانت الاستجابة للدعوة لا تعتمد على معجزة ولا دليل يتحدى به ، بل يرون الحق سائغا ، وهو يدعو الى نفسه وما نزل من القرآن الكريم يستجيبون له ، لأنهم يرونه الحق الواضح ، وفى الداعى وهو محمد صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين ، وانما يقدم الدليل للمرتاب ، ويوضح اذا كان الحق يحتاج الى مقدمات ونتائج ، فان النبى هو الأمين ، وان الذى يسمعون هو القرآن الكريم ، وان الذين استجابوا من الكبراء هم فضلاء الجماعة وأمناؤها ٠

والدعوة تسرى سريان الماء العذب فى خفاء العشب الأخضر ، والزهر الأنضر ، ولكن لابد أن تستعلن ليعلمها القريب ، وتكشف فى وضح النهار المشرق ، ويسرى علمها ، فالخفاء مهما يكن لا يخلو من ابهام ٠

ولذلك لما سرت الدعوة المختفية المتربية فى خلية نمائها ، طلب الله تعالى الى رسوله أن يعلنها ، فقال آمرا له : « **وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل انى برىء بما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم** » ٠

تقدم النبى محمد عليه الصلاة والسلام وجمع نبى هاشم وبنى عبدمناف ، وغيرهم من بطون قريش ، جمعهم فى الصفا ، وقال لهم : أرأيتم لو أخبركم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ، قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا ، ثم ساق لهم ما يدعوهم اليه ، ولنترك الكلمة لرواية البخارى فى صحيحه : عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد قال لما نزلت الآيات « **وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** » صعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادى ، يا بنى فهر ، يا بنى عدى لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا فجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا ، لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبى صلى الله

تعالى عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ، قالوا ما جربنا عليك كذبا ، قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ، فنزل قوله تعالى : « **تبت يدا أبى لهب** » ، وهذا يدل على أن كبير المعارضة فى تلك الدعوة المباركة هو أبو لهب عم النبى عليه الصلاة والسلام ، لكيلا يعلم الناس أنها عصبية أسرة أو بطن من قبيلة ، انما هى رسالة الله تعالى الى خلقه ·

وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه قوله تعالى : « **وأنذر عشيرتك الأقربين** ·· » الآيات وقف وقال يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يابنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سلينى ما شئت من مال ، لا أغنى عنك من الله شيئا · وهذا الحديث مخرج على شرط البخارى ، وروى مثله الامام أحمد فى مسنده ·

٢١٢ ـــ ولقد جاء فى التاريخ الكبير لابن الأثير : لما أنزل الله تعالى على رسوله « **وأنذر عشيرتك الأقربين** » اشتد ذلك على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وضاق ذرعا ، فجلس فى بيته كالمريض ، فأتته عماته يعدنه ، فقال ما اشتكيت شيئا ، ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى ، فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم ، فانه غير مجيبك ·

فدعاهم ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين ···

فبادرهم أبو لهب فقال : هؤلاء عمومتك ، وبنو عمك ، فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك فحبسك ، وان أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به ·

فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يتكلم فى هذا المجلس ، وان هذا من حكمة البيان ، فقد بادر أبو لهب بخلق جو عنيف من الاعتراض الشديد ، والانذار والوعيد ، وبذلك يشجع كل معارض ، ولو كان فى الأصل مترددا ، فزال التردد الى حال معترضة ، ولذا أجل قوله الى مجلس آخر ، حتى يزول غبار الاعتراض الذى أثاره أبو لهب ·

ويقول ابن الأثير دعاهم مرة ثانية ، ووقف فقال :

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأثق به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ثم قال : « ان الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وانها للجنة أبدا ، أو للنار أبدا » ٠

وفى هذه المرة لم يبادر أبو لهب ، بل بادر أبو طالب حبيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وان لم يتبع ، فقال غير موافق ، ولكن يعاون ، وغير متبع ولكن من غير معاداة ٠

قال أبو طالب : « ما أحب الينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقا لحديثك !! ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وانما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم الى ما تحب فامض لما أمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأنفعك ، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب ٠

ولم يسكت أبو لهب ، (والباطل لجوج دائما) بل قال هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم ٠

فقال أبو طالب (مصرا) والله لنمنعنه ما بقينا ٠

بين أبى طالب وأبى لهب :

٢١٣ — ان موقف أبى طالب لا يحتاج الى تعليل : لأنه موقف الشفيق على من كفله ومن رباه ، فقد كان كافله بعد جده عبد المطلب واختاره عبد المطلب دون بقية بنيه ، ولم يكن أسنهم ، فكان بمنع للنبى مستجيبا لداعى الشفقة والمحبة ، ومستجيبا لوصية أبيه بأن يحفظه ويحوطه ، فقام بحقها ، حتى بعد أن صار محمد صلى الله عليه وسلم شابا سويا قويا ، ووجد أن الحياطة تكبر بكبر الموصى به فتكون معاونة بعد أن كانت وصاية ، وتكون مدافعة بعد أن كانت رعاية ٠

انما الذى يحتاج الى تعليل هو موقف أبى لهب فما أعلن ما توجبه القرابة بل ما توجبه العصبية التى تجعله مع محمد صلى الله عليه وسلم عصبته وقريبه القريب ، وأن عليه أن يحميه ، لم يفعل ذلك ، ولم يسكت

مفوضا الأمر الى أبى طالب أخيه ، كما سكت حمزة والعباس ، ولم يكونا قد دخلا فى الاسلام ، لم يفعل ذلك أبو لهب ٠

ولعلنا لو أشرنا قليلا الى طبيعته ، وما أحيط به لسهل علينا تفسير موقفه ، أو أدركنا فعله لهذا الموقف الذى عادى محمدا عليه الصلاة والسلام وخالف قرابته مسلمهم وكافرهم على سواء ٠

لقد كان عبد العزى (أبو لهب) طبيعة غير طبيعة اخوته ، فاخوته يطلبون السيادة والشرف والعزة بالخلق العربى الصميم ، وهو يطلب المال والدنيا ، وفيه أثرة ، وحب الذات ، ومن يكون كذلك يميل دائما الى الابتعاد عما يثير المتاعب ، ويؤثر فى المال ويوجد اضطرابا ، وبذكائه الشديد أدرك أن دعوة محمد عليه الصلاة والسلام تقدمة لمتاعب لمن يعتنقها أو يحميها ، فقاومها ، وشدد فى المقاومة ، وطبيعته المادية جعلته لا يفكر فى أى أمر معنوى ، ولا فى رجاء لنصرتها ، وطبيعة الأثرة فيه جعلته لا يفكر فى احساس غيره ، ولا فى معاونته من يحتاج الى معاونة طويلة مديدة من أسرته ٠

وتلك الطبيعة التى لا تريد الا استقرارا لأجل المال ، وما يتصل به من منع تكره تغيير ما كان عليه الآباء ، بل ترغب فى أن تسير الحياة نمطية ، لا تغيير فيها ولا اضطراب ٠

ولعل هذه الطبيعة هى التى جعلته لا يخرج مع قريش فى غزوة بدر الكبرى ، وخرج العباس وان كان كارها محرجا ، وهناك عامل ثان ، فوق ذلك العامل النفسى ، وهو زوجه أم جميل الأموية أخت أبى سفيان ، فقد كانت عاملا مذكيا لتلك الطبيعة المعاندة ، كانت تكره رسول الله محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتكره زوجه أم المؤمنين خديجة ، والتقى كرههما فى قرن واحد من يوم زواجهما الميمون الطاهر ، ولا ندرى أكان الزواج هو السبب أم كان غيره ٠

وبهذه الكراهة كانت تحرضه ، وتؤججه اذ تصورت أن نيران العداوة قد تطفئها القرابة ، وعلو شأن محمد صلى الله عليه وسلم فى دعوته وجهاده ، وذكر اسمه فى كل بلدان العرب ، وتجاوز ذلك الى البلدان المصاقبة ، كالرومان والشام ومصر ٠

ولقد كانت تتردد أخت أبى سفيان فى أن تقرض الشعر ذما للنبى

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتسميه مذمما ولا تسميه محمدا ، فقد قالت فى ذلك :

مذمما قلينا ، ودينه أبينا ، وأمره عصينا

ولقد تلقى شعرها هذا بالاستضحاك ، وعد ذلك ليس شتما له ، لأنها لم تذكر اسمه فى شتمها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « انظروا كيف يصرف الله تعالى عنى شتمهم ولعنهم ، يشتمون مذمما ، ويلعنون مذمما ، وأنا محمد »، وكان فيها مع ذلك صفة السفيهات من النساء ، انها كانت توشى بالنميمة ، فتوقد نيران العداوة ، وقد قال الله تبارك وتعالى فيها : « **تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد** » ٠

هذا هو أبو لهب ، وهذا هو السر فى عداوته للحق ، ولمحمد عليه الصلاة والسلام مع قرب رحمه ، ومع أنه سر لولادته وقت أن ولد ٠

٢١٤ ــ هذا أبو لهب ، وذلك موقفه من دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى كرهته فيه بعد ود ، أو ان شئت فقل محبته له فى صباه حتى بدا ما يتخالف فيه الطبعان ، طبع العم المادى ، وطبع ابن أخيه الروحى الذى لا يحرص على المال ٠

أما أبو طالب ، فلم يكن عدوا لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعباراته تومىء بأنه لا يعاندها ، وما عند أبى لهب من صفات تناقضها ، صفات أبى طالب توافقها فى أصلها ، فأبو طالب لم يكن اثرا يحب المال ، بل كان فيما يبدو من خلق يجعله يميل الى الايثار بالمحبة ، فآثر التعب على الراحة فى مناصرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينما أبو لهب يؤثر الدعة والاستقرار على أى صورة كانت ، كان أبو طالب شيخ البطحاء لا يؤثر الدعة والاستقرار مع الضيم ، بل يقاوم الضيم راضيا بملاقاة أسباب الارغام بقلب صابر قوى ٠

وبينما كان أبو لهب محبا للمال مؤثرا له على كل شىء من أسباب الحياة الكريمة كان أبو طالب يكتفى من المال بالقليل من غير أن يبذل مروءته فى سبيل طلبه ، فالمروءة عنده أولى بالطلب من الاستكثار من المال ، ولذلك كان محدودا ، ولم يكن مجدودا ، ولكل هذا قبل أبو طالب أن يكون لمحمد عليه الصلاة والسلام نصيرا ، لأن الشفقة والمروءة ، والمناصرة العربية الكريمة تقاضته ، فاستجاب لسجيته له ، وما وهن ولا استكان ، ولا ولى ، بل استمر مناصرا فى كل الشدائد ، حتى قبضه الله تعالى ٠

وليست الغرابة فى نصرته للنبى عليه الصلاة والسلام ، انما الغرابة فى أنه لم يدخل فيما يدعو اليه !! **ذلك تقدير العزيز العليم** ، وقد ذكرنا من قبل أن ذلك دفع لوهم يقوله بعض الواهمين ، ان دعوة محمد عليه الصلاة والسلام كانت عصبية جاهلية ٠

ولقد ذكر ابن كثير أنه لو أسلم كما كان يظهر من لحن قوله أنه يميل الى الاسلام ، اذ يقول :

لولا الملامة أو حذار سبة　　لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

لو أسلم لكان المشركون له أعداء كما عادوا محمدا عليه الصلاة والسلام ، وقد كان عندهم من قبل ذلك الأمين المحبوب الذى يسمع قوله ويطمأن الى حكمه ، ولكن أراد الله تعالى أن يبقى على دين قومه ، لكى يكون ردءا للنبى وعضدا فى وسط المدلهمات ، وقال ابن كثير فى ذلك : « وكان رسول الله أحب خلق الله تعالى اليه (أى الى أبى طالب) ، وكان يحنو عليه ، ويحسن اليه ، ويدافع عنه ، ويحامى ، ويخالف قومه فى ذلك مع أنه على دينهم ، وعلى خلتهم ، الا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبا طبيعيا لا شرعيا ، وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله من الحماية ، اذ لو أسلم أبو طالب ، لما كان له عند مشركى قريش وجاهة ، ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولا اجترءوا عليه ، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء اليه ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، وقد قسم خلقه أنواعا وأجناسا (١) ٠

٢١٥ ــ كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ابتداء سرية يدعو من يعرف من أصدقائه وأوليائه الذين كانوا كنفسه ، ثم يدعو كل من ذاق بشاشة الاسلام وخالطت نفسه من أصدقائه وأحبابه ، فكانت تصغى اليه الأفئدة طالبة الحق ، بقوة المحبة للخل الوفى ، وللحق البدى ، من دعوة علنية ، ولكن الأمر النورانى لا يخفى طويلا ، فعلم وان كان فى أضيق دائرة ٠

٢١٦ ــ وكان لابد أن يتولى النبى عليه الصلاة والسلام الاعلان ، والجهر ، وكما بدا بدعوة أهل بيت النبوة ، الذين أشرق الوحى عليه ، وهو

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٤١ ٠

بينهم ، فقد أخذ بأمر الله تعالى يعلنه بين ذوى قرابته يؤمن من يؤمن ، ويكفر من يكفر ٠

ولعله يبدو بادى الرأى واضحا جليا أن أكثرهم قد رد من عشيرته ، ولم يستجب الا بعض نساء العشيرة الطاهرة كصفية ، وفاطمة امرأة أبى طالب ، وكان من هذه العشيرة أول من جاهر بالعداوة ، وهو قريبه القريب عمه أبو لهب ، وفى هذا دليل مادى على أن الدعوة ما كانت من انبعاث قبلى ، بل كانت استجابة لدعاء ربانى ٠

كان اعلان الدعوة للعشيرة الأقربين ، اعلانا للعرب أجمعين ، فقد كانت بأعلى الصفا ، وتسامع بها الناس ، واذا كان الخطاب للعشيرة خاصة ، فقد كان الاعلام لقريش ، ثم اظهارا لنبى بعث رحمة للعالمين ، تسامعت به الركبان ، وتذاكر فى دعوته الذين يغشون مكة المكرمة من غير أهلها ، وبذلك انتشرت الدعوة المحمدية بتبليغ رسالة ربه الذى كلف رسالة ربه فى غير معاندة للمشركين ٠ ولا مجابهة لهم ، ولا تحد للتهم ٠

ولقد كانت تسير فى استخفاء ، كما يسرى الماء العذب فى أرض مغطاة بالأعشاب ، ولكنه يثمر ، وينبت ، وينمى ولو كان مستخفيا ، وكان الذين ارتضوا الاسلام دينا يستخفون بعبادتهم ولا يظهرونها ، ويذهبون الى شعاب مكة المكرمة يصلون فيها ، وما عرف أنهم كانوا يذهبون الى الكعبة الشريفة مجاهرين متحدين ، ولكن كانوا يستخفون بهذه العبادة ٠

ولقد روى اسلام كثيرين فى ذلك وهم علية الصحابة الذين بنيت دعوة الاسلام عليهم ، وكانوا الدعامة الأولى فى قواعد البلاغ المحمدى ٠

فاصدع بما تؤمر

٢١٧ — نزل فى تدرج الدعوة قوله تعالى : « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر ، فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** » فكانت هذه الآيات الكريمة دعوة الى أن تبلغ الدعوة أقصى مراتبها ، وأبعد تكليفاتها أثرا فى التكليف ، وتأثيرا فى النفوس ٠

ومن كتاب السيرة من يرى أن التكليف الكامل بدعوة الناس أجمعين قد ابتدأ من نزول قوله تعالى : « **وأنذر عشيرتك الأقربين** » ومن هؤلاء ابن كثير ، فقد قال فى نزول هذه الآيات الكريمات ما نصه « بعنوان أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بابلاغ الرسالة · قال الله تعالى : « **وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم ، الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ، انه هو السميع العليم** » وقال تعالى : « **وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** » وقال تعالى : « **ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد** » أى ان الذى فرض عليك ، وأوجب عليك تبليغ القرآن لرادك الى دار الآخرة ليسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : « **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** » والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدا (١) ·

ونرى من هذا التقرير أن الامام الحافظ بن كثير لا يرى أن ثمة تدرجا فى الدعوة ، وأنه من وقت أن أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بانذار عشيرته الأقربين كانت الدعوة عامة ، وأن الاقتصار فى الآية على ذكر العشيرة الأقربين لا يفيد قصر الدعوة فى هذه الآية عليهم ، بل يفيد الابتداء بهم ، أو مواجهتهم ، مع مخاطبة غيرهم ، ولا يفيد قصر الدعوة عليهم ، لأن الرسالة المحمدية يخاطب بها الأحمر والأبيض والأسود والعبيد والأحرار ·

ونحن نوافق على عموم الرسالة المحمدية ، وأنها ليست بمقصورة على قرابة قريبة أو بعيدة ، ولكن هذا تدرج فى الدعوة والخطاب ، وان ذلك يتضمن دعوة غيره من المكلفين ، بلا فرق بين قريب وبعيد ، فالجميع مكلفون بالاستجابة من غير تفريق ، ونحسب أن قوله تعالى : « **وأنذر عشيرتك** » الخطاب فيها مقصور على العشيرة ، ولذلك لم يدع محمد عليه الصلاة والسلام الى الاجتماع بهم للذى كان فى الصفا غيرهم ، وليس من المعقول أن يكلف العامة بخطاب طائفة من الخاصة ، بل لابد من توجيه الخطاب اليه ، فجاء فى قوله تعالى : « **فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين** » الى آخر الآيات ·

ويزكى هذا ما جاء عن ابن اسحاق ، فقد جاء ما نصه : ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ثلاث سنين من البعثة أن يصدع بما أمر ، وأن يصبر على أذى المشركين ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا صلوا ذهبوا فى الشعاب ، واستخفوا بصلاتهم من

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٣ ص ٣٨ ·

قومهم ، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر يصلون فى شعاب مكة المكرمة ، اذ ظهر عليهم بعض المشركين ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه ، فكان أول دم أريق فى الاسلام (١) ٠

وقد قال ابن اسحاق فى موضع قبل هذا :

دخل الناس فى الاسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الاسلام بمكة المكرمة ، وتحدث به ، ثم ان الله عز وجل أمر رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصدع بما جاء به ، وأن يبادى الناس بأمره ، وكانت المدة بين ما أخفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واستتر بها الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ــ ثلاث سنين فيما بلغنى من مبعثه ، ثم قال تعالى: « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** » ٠

ومن ذلك نستطيع أن نقول ان الدعوة المحمدية فى مدة ثلاث السنين تدرجت فى ثلاث مراحل ، أشار اليها من قبل الامام ابن القيم فى زاد المعاد اذ ابتدأت الدعوة من النبى عليه الصلاة والسلام ، ومن بيت النبوة سرت الى من يتصل بهم من أصدقاء وخلان ، فكان من النبى عليه الصلاة والسلام الى صديقه الأول أبى بكر عتيق بن أبى قحافة ، ومن عتيق سرت الى أصدقائه كعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ، ومن بيت النبوة سرت الى صفية والزبير ، وغيرهم من عشيرة النبى عليه الصلاة والسلام وأقربائه الأدنين ، وهذه هى مرتبة الدعوة الأولى التى أشار اليها ابن القيم فى ترتيب مراتب الدعوة ٠

ثم كانت المرتبة الثالثة من بعد ذلك ، وهى مرتبة الدعوة العامة فى قريش ومجابهتهم بدعوة الحق ، من غير أن تكون مقصورة على بيت النبوة ، أو على أقرباء النبى عليه الصلاة والسلام ٠

وهى فى كل مرتبة لا تقف عند الحدود التى ابتدأت فيها ، بل تسرى الى غيرها ، سريان النور الى الظلام ، وفى مرتبة العشيرة الأقربين خرجت الى قريش كلها ، فما كان يدعو عشيرته من آل عبد المطلب وبنى هاشم فى كن مستور من الأرض ، بل كان يدعوهم جهرة فى غير مواربة ٠

---

(١) سيرة ابن هشام طبع الحلبى جـ ١ ص ٢٦٣ ٠

٢١٨ — وقد يسأل سائل ، ما الدليل الذى كان يسوقه النبى فى هذه الدعوة ، فقد كان الذى نزل من القرآن الكريم قليلا ، وتوالى نزوله بعد ذلك ، ولم يذكر أن أحدا جادل حول القرآن الكريم ، أو طلب دليلا واستدل بـه ، فما الذى كان يهديهم الى الاتبـاع من غير أن تعـرف دليلا قـدم ، وبرهانا أقيم ٠

والجواب عن ذلك أن الاستجابة كانت للحق فى ذاته ، ولما عرف من تاريخ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذ كان الصادق الذى لم يعرف كذبة قط ، والأمين الذى لم يقترن عمل له بريبة قط ، والصفى فى نفسه ، والمحبوب لمكارمه ، والعاقل الذى لم يعرف فيه انحراف فكرى ، بـل هو المدرك المستقيم الادراك فى كل معاملاته ، وكل ما اتصل به من أعمال ٠

ثم كان هذا القرآن الكريم الذى ابتدأ يتلوه عليهم ببيانه الذى فاق كل بيان ، وعـلا عن أن يتسـامى اليه أى انسـان ، وان اشراق نفوس هؤلاء ، وحيرتهم فى الأوثان ، اذ يرون الأوثان تفقد قوتها فى نفوسهم ، وتنهار مكانتها فى قلوبهم ، وبقايا الأديان السماوية تتورد على عقولهم ، وبعض سنن ابراهيم ومآثره يزاولونها فى حجهم ، وبنسبته اليهم يعتزون ويفاخرون ولم تسـبق الى نفوسهم نزعة حسد ، أو حقد ، أو منافسة مقيتة ، مما عوق غيرهم ٠

كانت نفوس الذين اتبعوا الرسول والذين آمنوا معه نفوسا صـافية ، وما علاها من غبار الوثنية زال وشيكا ، فكان الحق وحده هو الذى لمع نـوره وجذبه اليهم ، فوق ما كان ، مع محمـد صـلى الله تعالى عليـه وسلم من بينات ٠ ولقد قسم الباحثون فى أخلاق الناس القلوب عند تلقى الحـق ، الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : القريب الى الهداية هو من يقتنـع بالحق بمجرد بيانه ، فبيانه وحده يهديهم الى سواء الصراط ، ولا يحتاجون الى دليل غير سراج الحق المزهر ، وأولئك هم الذين ينظرون إلى الحق ، وقد خلت قلوبهم مـن هوى اللذات والشهوات ، فأشرقت بالحكمة وصفت ، فدخل نور الهدى فنطقوا به ، وعملوا به ، وساروا على منهاجه ، وأولئك لا يطالبون حامل الحـق الداعى اليه ببرهان يقدمه ، فالحق وحده يحمل فى نفسه دليل صدقه ، اذ اشرأبت اليه النفوس ، ومن هذا القسم أولئك الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى أول الدعوة ٠

القسم الثانى : قوم امتلأت عقولهم بمعلومات سابقة ، أو اختلطت فى نفوسهم نوازع الحق ، ونوازع الباطل ، وفيهم ادراك يميزون به بين الحـق

والباطل ، وأولئك يحتاجون الى دليل ، لينفوا به خبث الفكر الذى خالط قلوبهم ، وأثر فى نفوسهم ، فالبرهان يعينهم ، وينير السبيل لهم ، وذات الحق لا يكفى بيانه لكى يستولى عليهم ، ويسيرهم الى الهدى ، فلابد من دليل يرجح نوازع الهداية على غيره ٠

والقسم الثالث قسم غلبت عليه الضلالة ، وغلبت عليه شقوته ، فلا يتبع الحق لذات الحق ، ولا يزهر فى قلبه ، وليس له بصيرة مخلصة فى طلب الحق ، وفى الوقت ذاته قد طمس على بصيرته ، فختم على قلبه ، وكان على ادراكه غشاوة ، وهؤلاء هم المعاندون المكابرون الذين جعلهم الله أعداء للحق ، وهؤلاء يكون موقفهم معاداة أصحابه ، وموقف أصحابه مدافعته ، فلا تكون العلاقة الا ممانعة ، يمنعون الحق من أن ينتشر ، ويمانعهم هؤلاء ليدفعوا الأذى ، ولذلك لا يكون بينهم الا السيف ٠

ولقد قال الغزالى ان قوله تعالى : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز** » ٠

وكان المؤمنون الأولون خديجة وأبو بكر وعلى وزيد ، وعثمان والزبير ومن معهم من السابقين الأولين من الصنف الأول ، ثم جاء من بعدهم ، من خاطبهم القرآن الكريم بالاعجاز وتحداهم ، فمنهم من اهتدى وأبصر ، ومنهم من ضل وغوى ، فكان المعتدى الأثيم ٠ وكان الجهاد ، فكانوا أهل السيف ، وما كان لصاحب دعوة خالدة أن يترك الشر يسيطر ، والحق يستخذى ٠

استجابة محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه

٢١٩ ــ استجاب محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه ، وبعد أن كان يدعو من يدعوه فى مناجاة ، ثم اقتصرت الدعوة العلنية على عشيرته الأقربين ، بعدئذ أخذ يدعو كل من يلقاه ، وأخذ يغشى الأسواق التى حول مكة المكرمة يدعو الى دينه ، وتبليغ رسالة ربه ، غير مدخر جهدا فى الدعوة الى الحق والوحدانية بعبادة الله تعالى وحده ، لا شريك له ، ويقول فى ذلك ابن كثير :

« المقصود أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استمر يدعو الى الله تعالى ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يرده عن ذلك

راد، ولا يصده عن ذلك صاد ، يتبع الناس فى أنديتهم ، ومجامعهم ومحافلهم ، وفى المواسم ومواقف الحج ، يدعو من لقيه من حر وعبد ، وضعيف وقوى ، وغنى وفقير ، جميع الخلق فى ذلك شرع سواء ، وتسلط عليه وعلى من إتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوياء » (١) ·

وكان أشدهم اغلاظا عليه عمه عبد العزى (أبو لهب) ، وثانيهم عمرو ابن هشام الذى لقبه التاريخ الاسلامى بحق بلقب أبى جهل ، أما الأول فلم يكن منه أذى بدنى أو قولى للنبى عليه الصلاة والسلام ، ولكن مبالغة فى مقاومة دعوته ، ولا يكتفى بالقعود عن حمايته ، وأما ثانيهما فقد كان فاجرا فكانت معاندته للنبى عليه الصلاة والسلام فجورا فى القول والعمل ، وللضعفاء اعناتا وبغيا ، وسنخصه بالقول فى حركة الاضطهاد ، والبواعث التى دفعته الى هذا الموقف الذى جره الى ذلك البغى المرذول الذى لا يقع من كريم ·

وأبو لهب كان موقفه موقف محاربة الدعوة ، فكان يتبع محمدا عليه الصلاة والسلام فى التقائه بالقبائل العربية فى موسم الحج ، فكلما ذهب الى محفل أو ندى يدعو فيه ناكره ، ودعا السامعين الى ألا يستجيبوا ·

روى الامام أحمد عن أبى الزناد عن أبيه ، قال أخبر رجل يقال له ربيعة بن عباد قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق ذى المجاز ، وهو يقول : « يأيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه يقول : انه صابىء كاذب يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه ، فقالوا هذا عمه أبو لهب ·

روى البيهقى مثل ذلك مع بعض الزيادة عن ربيعة هذا الذى ذكرناه أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذى المجاز وهو يتبع الناس فى منازلهم يدعوهم الى الله ، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه ، وهو يقول : « أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم ، قلت من هذا قيل أبو لهب عمه » ·

ونرى من هذا أن أبا لهب قبل أن يكون هو المثبط ، ولعله اختار ذلك لنفسه أو اختاره المعارضون للدعوة المحمدية ، فيكون ادعى الى تصديقه ، اذ هو قريبه القريب ، فمع أنه أقرب رحما كذبه ، فهذا ترشيح لصدقه عليه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٠ ·

الصلاة والسلام • وأنساه الحقد والضلال ، أن الحق ذاته له نور ساطع ، لا يحاجز دونه هذا وأشباهه ، ولكنه الأفن يتولد من ضيق العطن ، وغلبه الهوى ، وسيطرة المآرب المادة •

ومهما يكن فقد حمل محمد عليه الصلاة والسلام عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى : « **فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين** » وتقدم بمن هداهم الله تعالى به من صحب كرام اشتروا الهدى بالضلال ، والحق بالباطل ، واشترى منهم أنفسهم ، فكانوا السابقين ، ولنشر بكلمة الى من سبقوا ، وان كانوا عددا قليلا •

السابقون السابقون

٢٢٠ ــ أشرنا الى سبق الأربعة الكرام خديجة أم المؤمنين ، سكن الرسول التى جعلت بيته روضة الاطمئنان ، ويسكن اليها بعد معاناة عداوة الأعداء ، والمناضلة فى سبيل الله تعالى ، فيجد المواساة ، ويجد القلب الحبيب الودود ، وما أكرم الوداد ، اذ يذهب ببرحاء العداء ، ويجعل الروح والريحان ، بعد ملاقاة الكذب والبهتان •

ثم ذكرنا أبا بكر الصديق الولى الوفى ، والصديق الذى خلص قلبه لله تعالى ، واذا كان ابراهيم أبو الأنبياء خليل الله ، فالصديق كبير المصدقين خليل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أشرنا الى أنه ما عتم أن أسلم ، بل انه سعى الى الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام عندما علم من حكيم بن حزام بأمر ما جرى بين النبى عليه الصلاة والسلام وورقة بن نوفل وزوجه خديجة من مذاكرة فى أمر الرسالة المحمدية •

وذكرنا اسلام على بن أبى طالب الذى صدق ابن عمه بعد تفكير وهو ابن عشر سنين ، وكان قد هم باستشارة أبيه ، ولكنه فكر وقدر وحده فعاد الى ابن عمه يعلمه بايمانه ، فكان المؤمن باقتناع مع الصغر وغضاضة الاهاب •

وذكرنا ايمان زيد بن حارثة الذى آثر جوار محمد عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث على أن يعود الى أبيه وأمه حرا ، فاختار الرق مع محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم على الحرية مع أبويه ، فجعله محمد صلى الله عليه وسلم الكريم ابنا له وحرا ، فكان وارثا وموروثا •

ثم ان اسلام أبى بكر جعل بعض أصدقائه ومن يألفونه يستأنسون بالاسلام ، فقد كان ألوفا محبوبا ، قال فيه محمد بن اسحاق : « كان أبو بكر مألفا لقومه ، محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر · لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو الى الاسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه ، فأسلم على يديه فيما بلغنى الزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وطلحة ابن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهم أجمعين » (١) ·

وقد قدم هؤلاء للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخذ أبو بكر يبث الدعوة لأصدقائه وخلانه ، وعارفيه ، ثم ذهب بطائفة أخرى الى النبى عليه الصلاة والسلام منهم عثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلم بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم ·

أخذ العدد ينمى بفضل الله ، واخلاص صفوة مختارة ممن صفت نفوسهم ، واستقامت قلوبهم حتى بلغ العدد ثمانية وثلاثين ، ومنهم نساء دخل الاسلام قلوبهن ، ومنهن أم جميل أخت عمر بن الخطاب ، وزوجها زيد بن نفيل كان من السابقين الأولين ·

وقد أراد أبو بكر أن يخرج المسلمون مجاهدين بالدعوة الى الاسلام قبل أن يتكاثر الجمع ، ولكن محمدا عليه الصلاة والسلام صاحب الدعوة والتبليغ رأى التريث ، حتى يكون الجمع أوفر وأكثر عددا ، لأنه مع العدد غزة الكثرة النسبية ، وان كانوا فى الحقيقة عددا قليلا ، ولكن الصديق مازال بمحمد عليه الصلاة والسلام حتى قبل أن يخرجوا من الاستخفاء الى الاعلان ، ويظهر أن الدعوة قد أعلنت بانذار العشيرة الأقربين ، وتذاكر الناس أمرها ، ولكن يندر فيهم من يتقبلها ، ويكثر فيهم من يعارضها ، ومنهم من لم يعرف لهم موافقة ولا مناوأة ·

ومهما يكن فقد خرج أبو بكر ، ومحمد عليه الصلاة والسلام قام بعمل جليل قبل ذلك الخروج فقد انبعث كل رجل الى عشيرته يدعو الى الاسلام فيها ، وخرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الى المسجد الحرام ، ثم قام أبو بكر خطيبا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) سيرة ابن هشام ، والبداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ ·

جالس . وقال ابن كثير فى روايته ما نصه : كان أول خطيب دعا الى الله والى رسوله (أى بعد النبى صلى الله عليه وسلم) ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين فضربوه فى نواحى المسجد ضربا شديدا ، ووطىء أبو بكر ، وضرب ضربا شديدا (١) .

٢٢١ — بعد ذلك ، وخصوصا بعد اعلان الاسلام فى مخاطبة بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب عند الصفا ، أخذ الاسلام ينتشر انتشار الضوء فى الظلام ، فأسلم بنو مظعون من أولاد كعب بن لؤى ، وأسلم عبيدة ابن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن نوفل ، وامرأته فاطمة ، أخت عمر ابن الخطاب ، وعمير بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود الهذيلى ، وأسماء بنت أبى بكر — وهكذا غيرهم من أهل مكة الأحرار ، وان لم يكونوا ذوى مال وذوى رياسة .

ومن الضعفاء ، وقد كانوا أسبق الى الاسلام عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق ، وهو مولى الأسد اشتراه أبو بكر رضى الله عنه .

ومنهم صهيب بن سنان ، ويقال انه مولى عبد الله بن جدعان ، ويقال انه رومى ، ونسب الى الروم ، لأنه كان أسيرا فى أرض الروم .

ومنهم بلال الحبشى ، وكان مولى لبعض المشركين عذبوه ، حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

ومنهم ياسر وعمار ابنه ، وأمه ، وقد كان ياسر من عرب قحطان من مذحج ، وعمار ابنه كان مولى لبنى مخزوم ، لأن أمه سمية كانت مولاة لهم ، فولدته على الرق ، والمولود على الرق يتبع أمه فى رقها ، ولا يتبع أباه فى حريته ، وكذلك كان نظام الرومان فى الرق الذى سرى الى العرب .

ومنهم خباب بن الأرت ، وغيره من الضعفاء الذين سارعوا الى الاسلام وقد سارعوا الى خير الدنيا وخير الآخرة ، واذا كانوا قد أوذوا ابتداء ، فقد نالوا الخير انتهاء ، وكما قال الله تعالى « **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين** » .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٣٠ .

وقد دخل الاسلام بيوتا كثيرة فما من بيت الا علم بأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا كان العدد قليلا فى ذاته ، فانه ما خلا بيت من بيوت مكة المكرمة من مسلم ، أو من قلب مال اليه ، وأحس أهل الشرك بأن دولة الأوثان تؤتى من قواعدها ، وأن الأحجار أخذت تفقد سيطرتها . ومن استمر متمسكا فعن أرب يريده باسمها ، لا عن ايمان بها ، فانه كان يكفى أن يدعو محمد صلى الله عليه وسلم الى الحى القيوم الذى لا شريك له ، حتى تزايلت الأوثان عن مكانتها ، وما هو الا تفكير يسير حتى زالت الأوهام ، وصارت أحجارا لا تتجاوز أنها أحجار ، ومن تمسك بها فهو غير مؤمن أو سادر فى غلوائه .

الاسلام يخرج الى القبائل :

٢٢٢ - من وقت أن أمر الله نبيه بأن يصدع بأمر به ، وقد أخذ يلتقى بالجموع ، فيغشى الأسواق داعيا ، ويدخل النوادى صادعا بأمر ربه ، ويقف فى مناسك الحج داعيا القبائل عندما يجد سميعا ، والآحاد يذاكرهم ، يسألونه فيجيبهم بما يوحى به الله تعالى فى سماحة صاحب الدعوة ، وباشراق نور النبوة حتى أصبح حديث القبائل التى تفد الى بيت الله تعالى حجيجا أو معتمرين ، أو تجارا مضاربين ، ووجد من بين القبائل من صغت أفئدتهم الى الاسلام ، يستمعون دعوته ، ويؤمنون بوحدانيته مذعنين ، ولعل من أدلة وصول الدعوة الى القبائل اسلام أبى ذر الغفارى ، واسلام ضماد من أزد شنوءة .

روى البيهقى فى اسلام أبى ذر الغفارى أنه قال (أى أبو ذر) أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت السلام عليك يارسول الله أشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، فرأيت الاستبشار فى وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويظهر أن ذلك نتيجة لوقائع سابقة من مقتضاها أن خبر الاسلام سرى الى بنى غفار ، وأن دعوة النبى عليه الصلاة والسلام قومه قد وصلت اليهم فبعثت أبا ذر على البحث عنها ، حتى عرف صدق النبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يجىء اليه .

قد روى البخارى باسناده عن ابن عباس قال : « لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأخيه اركب الى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع

من قوله ، ثم أتنى ، فانطلق الآخر حتى قدمه وسمع من كلامه ، ثم رجع الى أبى ذر ، فقال رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاما ما هو بالشعر ، فقال ما شفيتنى فأتى المسجد ، والتمس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فاضطجع ، فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبى حتى أمسى ، فعاد الى مضجعه ، فمر به على فقال : أما آن للرجل أن يعلم منزله فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى اذا كان اليوم الثالث ، فعاد على مثل ذلك فأقام معه ، فقال الا تحدثنى بالذى أقدمك ٠ قال ان أعطيتنى عهدا وميثاقا لترشدنى قلت فأخبره ٠٠٠ قال فانه حق ، وأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا أصبحت فاتبعنى ، فانى ان رأيت شيئا أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء ، وان مضيت فاتبعنى ، حتى تدخل مدخلى ، ففعل فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل معه ، وسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى » فقال والذى بعثك بالحق لأصرحن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فضربوه ، حتى أضجعوه (١) ٠

فأتى العباس ، فأكب عليه ، فقال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنها طريق تجارتكم الى الشام ، فأنقذه منهم ثم عاد من الغد بمثلها فضربوه ، وأثاروا عليه فأكب العباس ثانيا ٠

ومن هذا نرى أن الاسلام قد أخذ يذيع نبؤه خارج مكة المكرمة ، ويقول الرواة ان غفار أسلمت تابعة أبا ذر ، ولم يكن أمر الاسلام ليصل فقط الى من هم على مقربة من مكة المكرمة ، بل وصل خبره الى أزد شنوءة فأسلم رجل منهم اسمه ضماد كما أشرنا ٠

وضماد هذا كان رجلا يقول للعرب أنه يرقى من به مس من جنون أو سحر ، فيشفى ، فأراد سفهاء مكة المكرمة ، أن يحسنوا النكاية بمحمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجاء سفهاء من مكة المكرمة ، ودعوه ليعرضوا عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالوا له انه مجنون ٠

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٣٤ ٠

جاء ضماد فقال أين هذا الرجل الذى تقولون عنه انه مجنون لعل الله تعالى أن يشفيه على يدى ·

لقى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال له انى أرقى من هذه الرياح ، وان الله يشفى على يدى من شاء فهلم الى ·

فقال محمد صلى الله عليه وسلم : « ان الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هـادى له ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له » ثلاث مرات ·

قال ضماد متأثرا وقد فتح الله قلبه للايمان «والله لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فهلم يدك أبايعك على الاسلام ، فبايعه على الاسلام · ويرى أنه عندما سمع كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال له أعد على كلماتك هؤلاء فقد بلغن السحر » ·

تلك كانت أحوال من يدخلون فى الاسلام ، كانوا فرادى ولم يكونوا جماعات الا ما قيل عن بنى غفار ، وكانوا قليلا ولكنهم كـانوا يزيدون ولا ينقصون ، وكانوا من بيوت مختلفة ، وشعب متفرقة ، وتجـاوزوا حجزات مكة المكرمة فماذا تصنع قريش ؟

المنــــاوأة

٢٢٣ ـــ توقع ورقة بن نوفل معركة تقوم بين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وقومه بسبب ما أوحى الله تعالى والقيام بأداء الرسالة التى كلفه ربه أن يقوم بها ، لأنه ما من أحد جاء قومه بمثل ماجاء الا عودى ، وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم كريما عند قومه ، حبيبا اليهم يألفونه ، ويثقون به الثقة المطلقة ، حتى خاطبهم بما آتاه الله تعـالى ، فانقلب أكثر من بمكة المكرمة مخالفين ، ثم مناوئين لدعوته ، مستنكرين لها ابتداء ، ومقاومين ومعادين ، ومضطهدين فى الجملة لمن اتبعوه ·

وذلك لأنهم فوجئوا بهذه الدعوة الى الحق ، ولم يكونوا متوقعين لها ، ومن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، والمفـاجأة بتغيير أمر مألوف تولد الانكار ما لم يكن ثمة أمر متوقع يقع ·

وان أمر رسول الله يجيىء فى بنى ابراهيم وكـان ذكره خـارج مكة المكرمة ، ولم يكن يتردد كثيراً بين أهلها ، وأهلها قوم ماديون ، لا يعنيهم الا أمر التجارة ، وأمر الحج ، ولعل الحج لا يعنيهم الا لما يعلون به من شرف بين العرب ، واستعلاء عليهم ، وشعور بأن العرب لهم تبع ، وهم السادة فى بلاد تصعب السيادة فيها ، وبين أقوام لا يعترفون برياسة الا ما يكون من قبل ذلك البيت المعظم ، الذى كرمه الله تعـالى ، وجعله حرما آمنـا تجبى اليه ثمرات كل شىء ٠

ولا يهمهم من جوار البيت الا ذلك الشرف الذى يكتسبونه من الجـوار وأنه محل تجارة العرب ، كما هو محل نسكهم ، وأمنهم ، اذ الناس فى خوف وتقاتل ، فكانوا بالاقامة فى البيت آمنين من ناحية المال اذ هو سبيل تجارتهم ، وهو مأمنهم ، كما قال الله تعالى : « **لايلاف قريش ، ايلافهم ، رحـلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جـوع ، وآمنهم مـن خوف** » ٠

واذا كانت المفاجأة التى لم يكونوا متوقعين لها قد دفعتهم الى المبادرة بالانكار ، فقد ساروا فى طريقه ، وانتقلوا من الانكار الى الاستنكار ، وهو مرتبة أعلى من الانكار المجرد ، لأن الانكار المجرد أمر سلبى ، قد يجيىء من بعده الايمان اذا جاء الدليل ، أما الاستنكار فهو عمل ايجابى معناه أنه ينكر الحق ، ويستنكر الدعوة اليه ، ثم اندفعوا من بعد الاستنكار إلى المناوأة ، وكل ذلك من المفاجأة ، وقد تدفع المناوأة الى الجحود ، ويدفع الجحود الى الكفر ثم الايذاء ٠

٢٢٤ ـــ والدعوة المحمدية التى فوجئوا بها هى تغيير لما هم عليه ، ألفوا عبادة الأوثـان من غير ايمان قـوى بها ، ولكن كانت عباراتهم تتلوى بتقديسها يتوهمون فيها أوهاما ، وبسيطرة هذه الأوهام يشركونها فى عبادة الله تعالى ، وهم يعلمون أن الله تعالى خالق السموات والأرض ٠

والذين يميلون الى المال ، ومجرد الاستعلاء بين الناس لايحبون التغيير بل يحبون الحياة الرتيبة السهلة التى لا تبديل فيها ، ولا انقلاب ولا تقلب فى المذاهب والأفكـار ، وليس فيهم شاغل بهذا ، ولذلك كـان جوابهم عندمـا يدعوهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « **بل نتبـع ما ألفينا عليه آباءنـا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** » ، ويحكى سبحانه وتعالى عنهم فيقول تعالت كلماته : « **واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير** » ٠

ألفوا الشرك ، ولم يألفوا التوحيد ، ولو كان الحق ساطعا ، والبرهان قائما ، واستمسكوا بالأصنام ، وهم لا يؤمنون بها ، يحطمونها ويعبدونها ، ويغيرون حجرا بحجر ، وان كانت الأسماء لا تتغير ، ولكنهم لا يتركونها الى غير ما يألفون ، ولقد توقعوا ما عرفوا من أخلاق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ومن معاملاته أنه سيدعوهم الى تحريم الخمر ، وهم يعاقرونها ، لأنه لم يذقها فى الجاهلية ، وقد جاء القرآن الكريم بأنها ليست رزقا حسنا « **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا** » فجعل الرزق الحسن مقابلا للسكر ، فكانت اشارة الى قبحه ، والربا كان جزءا من تجارتهم ، وعلموا من تجارة محمد صلى الله عليه وسلم أنه لا يزاوله ولا يرتضيه ، والقرآن الكريم يتلى بينهم بالاشارة الى تحريمه ، اذ يقول سبحانه : « **وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** » •

فدل هذا بصريح العبارة أن هذا الدين الجديد الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام عليهم سيزعج الربويين الذين يستغلون أموالهم بالربا ، يدفعونه دينا ويأكلون من ثمرات تجارة غيرهم ربا ، وكان فيهم كبراء أثروا من هذا الباب ، وحسبوه كالبيع ، وقالوا « **انما البيع مثل الربا** » •

وهكذا حسبوا أن ذلك الدين سيقلب عامة أمورهم ، فعاجلوه بالانكار ، ولقد صور هذا الحال جعفر بن أبى طالب فى حديثه مع النجاشى ، واليك القصة كما جاءت فى الصحاح فى المجاوبة بين مهاجرة الحبشة ، ولسانهم الناطق جعفر •

قال النجاشى :

« ما دينكم ؟ أنصارى أنتم ؟ قالوا : لا • قال : أفيهود أنتم ؟ قالوا لا ، فعلى دين قومكم ؟ قالوا : لا ، قال : فما دينكم ؟ قالوا الاسلام • قال • فما الاسلام ؟ قالوا : نعبد الله لا نشرك به شيئا • قال من جاءكم بهذا ؟ قالوا جاءنا به رجل من أنفسنا ، قد عرفنا وجهه ونسبه ، بعثه الله تعالى الينا كما بعث الرسل الى من قبلنا ، فأمرنا بالبر والصدق والوفاء وأداء الأمانة ، ونهانا أن نعبد الأوثان ، وأمرنا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فصدقناه وعرفنا كلام الله تعالى ، وعلمنا أن الذى جاء به هو من عند الله ، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا ، وعادوا النبى الصادق وكذبوه ، وأرادوا قتله ، وأرادونا على عبادات الأوثان ، ففررنا اليك بديننا ودمائنا من قومنا » •

هذا الكلام يصور بعض التصوير التغيير الذى رأوه فى عاداتهم ، فتجردوا لمناوأته ، وأخذ الطريق عليه ان استطاعوا ٠

٢٢٥ — ومما دفع الى مبادرتهم بالانكار غرابة الأمر فى ذاته عليهم ، ما كانوا يؤمنون بأن هناك يوما آخر يحاسب فيه المحسن على احسانه والمسىء على اساءته ، وأنها للجنة أبدا أو للنار أبدا ، ولقد أكد ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما وقف لينذر قومه بعد أن أمره ربه ، فقد جاء فى تلك الخطبة تأكيد لليوم الآخر ، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أنهم عنه غافلون « والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالشر شرا ، وانها للجنة أبدا أو للنار أبدا ، وانكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد » ٠

ان المشركين من العرب كانوا قوما ماديين لا يؤمنون الا بالحس ، يعرفون الله ، ولكن يصورون حجارة ليعبدوها فلا يعبدونه سبحانه ، وهو غيب عنهم ، فكان كل هذا غريبا ، ومن يستغرب من غير دليل ، ينكر ، ثم يستنكر من غير دليل أيضا ، ولقد حكى الله تعالى عنهم فى انكار اليوم الآخر وما يكون : « **وان تعجب فعجب قولهم ، ائذا كنا ترابا ، ائنا لفي خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** » ٠

ويقول سبحانه وتعالى فى استغرابهم الخلق من جديد : « **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** » ٠

ولجهلهم بالنبوات أثار عجبهم ، والغرابة فى نفوسهم أن جاءهم بالرسالة عن الله تعالى رجل منهم يدعو الى الله سبحانه ، ولو كانوا يعلمون أن الرسول لا يكون الا رجلا يمشى بين الناس ما ثار عجبهم لكونه رجلا ، ولقد قال قائلهم فى الدعوة الى التمسك بالحجارة : « **وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، أن هذا لشىء يراد ، ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، ان هذا الا اختلاق، أأنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم فى شك من ذكرى ، بل لما يذوقوا عذاب** » ، وهكذا كانت من أسباب غرابتهم بشرية الرسول ، لأنهم أميون لم يعرفوا الرسالة ، ولم يدركوها من قبل ٠

ولقد قال الله تعالى عنهم : « **وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل اليه ملك ، فيكون معه نذيرا ، أو يلقى اليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا** » ٠

فجهلهم بالنبوات والرسائل ، وعدم وجود أنبياء بينهم علموا منهم رسالات الله تعالى الى خلقه ، وأن الرسل قوم من البشر ، جعلهم يستغربون أن يكون الرسول بشرا سويا يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، واذا كان الأمر غريبا عليهم ، فقد كان حقا عليهم أن يتعرفوا الحقائق لتزول الغرابة عنهم ، ويستأنسوا بنور النبوة ، ولكنهم عاندوا فلج بهم العناد ، فكان منهم الجحود والكفران ·

٢٢٦ — وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الدعوة التى تسوى بين الغنى والفقير ، وتوجب حقا للفقير فى مال الغنى — قد مس كبرياءهم وهز مراكزهم هزا عنيفا ، وأحسوا بالأرض تميد من تحتهم اذ أن ذوى الأنساب منهم يستعلون بأنسابهم ، ويحسبون أنهم الأشراف وحدهم ، والناس دونهم ، وهم الأعلون وغيرهم الأدنى ، فكان لابد أن يقاوموا ذلك الداعى الجديد الذى يقول بلسان المقال وبلسان الفعال « لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، وأن الجنة لمن أطاع ، ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصى ، ولو كان شريفا قرشيا » فهو يأخذ بنواصى الأقوياء ليضعها بجوار رءوس الضعفاء ، وقد لمحوا ذلك فى أتباعه ، فقد رأوا أبا بكر نسابة العرب ومألف قريش ، يكون بجوار بلال وعبيد أبى بكر نفسه ، لا يفرق بينهما الا فضل الايمان ، فهو مقياس الشرف والضعف ، والاكبار والأصغار ·

بلا شك هذه مبادىء اجتماعية لا يقبلها شرفاء مكة المكرمة ورؤساؤها ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لابد منفذها ، لأنه كان ينفذها قبل أن يكون نبيا رسولا ، فكيف لا ينفذها ، وقد نزل الوحى عليه ، وجعلها هو نظاما واجب الاتباع ، من لم ينفذه ان لم يعاقب اليوم ، فالنار الموقدة تلقاه يوم القيامة ، ويلقى به فى السعير ·

وقد قوى هذا أن الضعفاء أقبلوا على ما يدعو اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم غير نافرين منه ، بل كانوا مستجيبين أشد الاستجابة ، وابتدأ الأقوياء الذين دخلوا فى الاسلام يعاملون الرقيق ، كما يعاملون الأحرار ·

اذن لابد من مقاومة ذلك التيار الذى جاء مع الدعوة ، ولا يتركونه ، حتى ينمو ، ويستغلظ سوقه ، ويكون قوة تقوض ما تحت أيدى قريش من شرف وهمى ، وسلطان استمدوه من ذلك الشرف الواهن فى بنيانه ·

ثم انهم كانوا الرؤساء الأعلون ، ولهم شبه سلطان ، وانه اذا ذاع دين محمد عليه الصلاة والسلام ، وصار السلطان للحق وحده ، وحكمت المساواة ، وذهبت المنازعات القبلية ، فمحمد ذو السلطان ، ويسلب كل ما لهم

من سلطان ، وما بنوه من مجد طريف وتالد ينهدم بين أيديهم ، لأنهم يبنــون سلطانهم على أنهم ذرية اسماعيل وضئضىء ابراهيم وها هو ذا يدعو الى ديانة ابراهيم ، ويقول فى غير عوجاء ولا لوجاء ، هذه ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ، فأنى يكون لهم من بعد ذلك ، لابد اذن من اقتــلاع دعوة محمد عليه الصلاة والسلام من جذورها ، والقضاء عليها فى مهدها ٠

ثم ان بعض الكبراء منهم كانوا ينفسون على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ويتساءلون لماذا كانت له تلك المنزلة علينا ، ونحــن أولى بها منه ٠

وقد ذكر ذلك الوليد بن المغيرة ، وادعى أنه أولى بالنبوة وأنه أكثر مالا وأعز نفرا ، ومثل ذلك عروة بن مسعود الثقفى ، ونزل فيهما قــوله تعــالى : **« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقســمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا ، وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين »** ٠

٢٢٧ ـــ وفوق ما ذكرنا كله ـ العصبية العربية الجاهلية التى كانت مستمكنة فى النفس العربية يتوارثونها جيلا بعد جيل ، فالعرب تنفس عــلى قريش مكانتها ، وقريش تنفس على بنى قصى ما لهم من مكانة ٠ وبنو قصى وغيرهم ينفسون على بنى عبد مناف ، وبنو أمية ينفسون على بنى هاشم رياستهم للعرب ، وكونهم فى المكانة العليا من سدانة البيت والقيام عليه ، فهاشم ورث الرياسة من عبد مناف ، وعبد المطلب أخذها عن هاشم ، وأبو طالب ورثهــا عن عبد المطلب ٠

فالدعوة الاسلامية تعرضت لعداوة من عــادوا قصيا ، وتعرضت لمن عادوا عبد مناف ، ثم تعرضت لمن كانوا أعداء لبنى هاشم ، ومن كل هؤلاء تكونت المقاومة ، ولعل أمثل صورة لهذه العداوات مجتمعة هو عمرو بن هشام الذى اشتهر فى الاسلام باسم أبى جهل ، وهو به جدير ٠ فقد كان فرعون هذه الأمة ، وان لم يكن فرعون فى مثل سفهه وحنقه ورعونته ٠

لعن رســول الله صلى الله تعــالى عليــه وسلم أبا جهــل فناداه بكنيتــه أبا الحكم قائلا له : « هلم الى الله والى رسوله أدعوك الى ، فقال أبو جهل :

يا محمد ، هل أنت منته عن سب آلهتنا ، هل تريد الا أن نشهد أنك قد بلغت ، فنحن نشهد أنك قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقوله حق لاتبعتك » ٠

مناقشة هادئة ، كلها حكمة من محمد عليه الصلاة والسلام ، اذ أنه يناديه بكنيته يا أبا الحكم ، وهى عجرفة من جانب عمرو بن هشام (أبى جهل) فبينما النبى عليه الصلاة والسلام يناديه بكنيته ، لا يناديه بمثلها ، بل يقول فى جفوة يا محمد ٠

وليس هذا هو المهم ، انما المهم أنه قال لمحدثه بعد انصراف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

« والله انى لأعلم أن ما يقول حق ، لكن يمنعنى شىء ، ان بنى قصى قالوا : فينا الحجابة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية : فقلنا نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا ، حتى اذا تحاكت الركب قالوا منا نبئ ، والله لا أقبل » (١) ٠

كانت قبائل قريش تأخذ على بنى قصى أنهم جمعوا فى أيديهم الحجابة للبيت الحرام ، والقيام على شئونه ، وذلك شرف ليس فوقه شرف ، وسقاية الحجيج ، وذلك يذيع ذكرهم ويعلن اسمهم ، والندوة ، وهى شورى العرب ، فكانوا بذلك رؤساءهم وهم الذين يحملون لواء قريش ، وهذا كله اثارة للعرب عليهم ، ثم انحدرت هذه المنافسة الى معاداة الحق الذى يأتى به أولاد قصى ، وبنو هاشم على رأسهم ، وقد ورثوا عنه بعض ما أخذه من قريش ٠

واذا كانت قريش كلها تنفس على بنى قصى ما أخذوا أو يحسدونهم فبنو عبد مناف ، كانوا من بينهم يختصمون بالحقد عليهم لأنهم الذين ورثوا شرف قصى ، وما كان معه ، ولقد ظهر ذلك على لسان فرعون هذه الأمة أبى جهل ٠

لقد سمعوا القرآن الكريم سرا ، وكانوا هم الأعداء الذين قد أصيبوا بلدد الخصومة ، ثم تذاكروا بعد السماع وقد تأثروا ، وقد قال أحدهم لأبى جهل : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال حانقا : « ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ،

---

(١) البداية جـ ٣ ص ٦٥ ٠

قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه (١) ٠

واذا كان أبو جهل يمثل أعنف وأحمق معارضة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو فى معارضته أوضح صورة للعصبية الجاهلية ، التى تضع على البصائر غشاوة ، فتعمى عن الحق ، ولا تدركه ، بل تدركه ، ولا تذعن له ، وترضى بالردىء الوبىء عن الحق الصادق المرىء ٠

٢٢٨ — نسوق هذه الأمور ، لا لنبرر بها ذلك الموقف الجاهلى الذى وقفه أعداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو ان شئت فقل خصومه الذين حاربوه وأعنتوه فى الخصومة والمعاندة ، ثم عادوه ، وكانوا شياطين الانس الذين ذكروا فى القرآن الكريم على أن الله تعالى يجعل لكل نبى يبعثه عددا من شياطين الانس ، ليكتب الله تعالى له ثواب الجهاد والمصابرة ٠

ولكن سقناه لنعلل الوقائع بأقرب أسبابها ، ولكى تزول كل غرابة فى معاداتهم للحق ، وقد بدا وضحه ، وليعرف الباحث البواعث الحقيقية لتلك اللجاجة فى العداوة التى ذهبت بهم الى الايذاء ، وأسرفوا بها فى القول ، وأثاروا نيران البغضاء ، والواقع أن البغضاء للدين كانت مستكنة فى نفوسهم ، واستيقظت بقوة دعوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ٠

وان اسناد الأمور لأسبابها لايعد تبريرا لها ، ولكن يكون تبينا للوقائع ، وان الأسباب فى ذاتها اثم ، والاثم لا يولد الا اثما ، واللجاجة لا تولد الا فجورا وآثاما ٠

لقد يعجب الناس كيف يمارى أولئك وفيهم عقل فى الوحدانية ، ويجادلون فى الله تعالى وهم يعلمونه ، وهو شديد المحال ، كيف يقف أمثال الوليد بن المغيرة وهو من أذكياء العرب ، والنضير بن الحارث موقف المعارضة ، وفيهم ادراك سليم ، ولكن عميت عليهم الأمور بسبب ما ذكرنا فكانوا فى حيرة بين ماض ألفوه ، وألفوا معه الدعة والمال والجاه والسيطرة ، وحاضر قد أدركوه ، ورأوا نور الحق الذى ساروا فيه ، ولكن ما ان يبرق عليهم نوره ويمشوا فيه ، حتى تكون غاشية المال ، وغاشية الجاه ، وغاشية الاستعلاء ، وغاشية التعصب القبلى المردى ٠

ومنهم من كان يرد النور الى قلبه رويدا رويدا ، فكان فى وسط ذلك الأتون من العداوة نور يهدى الى التى هى أحسن ، والله عليم بذات الصدور

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٦ طبعة الحلبى ٠

تلقى الناس للدعــوة

٢٢٩ ـــ تلقى النــاس فى مكة المكرمة دعوة النبى عليه الصــلاة والسلام بعد أن أعلنهــا على الصفا ، مخــاطبا عشيرته الأقربين أولا ، ثم مخاطبــا العرب أجمعين ثانيــا ، حين صدع بأمر ربه ، تلقوهــا مشدوهين لغرابة الجديد ، فقسم صفى قلبه اليها ، وأولئك الســابقون الأولون الذين اصطفاهم الله تعالى لحمل دعوته ، ومعاونة النبى عليه الصلاة والسلام فى تبليغ رسالته ، ونشرها فى الأرض ومجاوزتها الأقطار من بعده ٠

وكان من هؤلاء الضعفاء الذين حرموا السلطان ومتعة الحياة ، ورأوا فى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم أملا مرجى فى الآخرة واذ لم يكونوا فى حال مرضية البقاء ، بل هى مرجوة الانهاء ، فأوجد فيها الاسلام الأمل فى انهائها ، فسارعوا اليهــا ، وذاقوا العذاب فى سبيلهــا ، فصبروا من غير انزعاج أو ارتداد ، بل مضوا فى الطريق حاملين البؤس والبأساء ، فى جلد وصبر وايمــان ، وقد مكن الله تعالى لهم ، ووفاهم صبرهم « **وانمــا يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** » ٠

والقسم الثانى أعلن العداوة للنبى منذ ابتدائها ، وشنوا غــارة على الذين يؤمنون ، وعلى رأس هؤلاء أبو لهب عم النبى عليــه الصلاة والسلام ، ومن هؤلاء من ذهبت غلواؤهم فى العداوة ، ولجاجتهم فى الخصومة الى ايذاء المؤمنين ، وتعذيب الضعفاء من العبيد والفقراء ، ومن لا حول لهم ولا طول من عشيرة تحميهم ، وعزة من النفر يدافعون عنهم ، وكثير ممن دخلوا فى الاسلام كانوا على ذلك النحو ، اذ لم يجــدوا جوارا من أحد يدفع عنهم الأذى وعلى رأس المؤذين أبو جهل ٠

والقسم الثــالث وسط بين هؤلاء ، فلم يعتنق الاسلام ، ولم يكن من الســابقين الأولين ، بــل وقف وقفة المنتظر ، أو وقفة من رد الدعوة من غير معاداة ، ولا مناوأة ، وكان من هؤلاء أكثر بنى هــاشم ، وبعض بنى أمية ، وبعض القرشيين ، وكان فى كل عشــيرة بعض من هؤلاء ، كما كان فى كل عشيرة بعض ممن أسلم ٠

ومن هذا القسم من كان يشرح الله تعالى صدره للاسلام ، فيدخل فى صفوف المسلمين مجاهدا صابرا ، متحملا الأذى ، وأقله السخرية والاستهزاء ، فقد كان الاسلام ينمو من هؤلاء ، بل انه كان ينمو أيضا من المعذبين المؤذين ، وحسبنا عمر بن الخطــاب ، كان من المؤذين ، حتى هم فيمــا يقول الرواة بقتل النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ، ولكن تداركته رحمة الله تعــالى ،

فشرح الله تعالى صدره للاسلام ، فكان له عزا ، وكتب الله تعالى الحق على قلبه ولسانه •

أخذ النبى عليه الصلاة والسلام يدعو ، ولا ينى عن دعوته ، ولا يلين ولا يخفف من دعوته الاعراض مهما يكن مقدار المعرضين ولا الأذى ينزل به ويكبراء صحابته ، ولا الاضطهاد يشتد على ضعفاء أتباعه ، ولكنه يأسى ويحزن على ما ينزل بهم ويواسيهم ويدعوهم الى الصبر ، ويصبر هو ليتأسوا به ، ويعينهم بالمال ان احتاجوا ، ويعينهم كبار الذين آمنوا على فك رقابهم •

وكلما ازداد عدد المؤمنين ، ازداد الأذى وازدادت المعارضة ، فانه كلما قوى الحق ونما أهله ، يئس المخالفون من أن يطفئوا نور الله تعالى الذى انبثق فى مكة المكرمة ، ولكن بوادر اليأس كانت تزيده حجة ولجاجة فى الباطل ، وكل يسير فى طريق التمسك بالباطل ، ففريق الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون سوط عذاب يستمرون فى غيهم يعمهون ، والذين ارتضوا المعارضة من غير ايذاء ، والمقاومة من غير اعنات لمن جاءوا بالدين الجديد ، ساروا فى طريقهم ومنهاجهم ، يدعون النبى عليه الصلاة والسلام لأن يكف عن دعوته ، ويجادلونه ، ويعرضون عليه ما يرونه مغريا بالاعراض عن دعوته ، على حسب تفكيرهم ، وعلى مقتضى ما يسول لهم شيطان المادة •

٢٣٠ — ويذكر الأكثرون من الرواة أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يلقى منهم مسالمة ، ودفاعا عن عقائدهم بالتى هى أحسن ، أو عدم اهتمام بعضهم بمقاومته عندما كان يدعو من غير أن يذكر آلهتهم بسوء ، أو يسفه أحلامهم ، وأحلام آبائهم ، فلما أخذ يسب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، انتقلوا الى مقاومة عنيفة ، أخذت صورة الايذاء فى بعضهم والاستنكار المرير من بعض آخر ، ثم تطورت الأمور الى العداوة والاغراء بالبغضاء وقطع الأرحام الموصولة •

وفى الحق اننا لا نرى فارقا زمنيا ، بل نجد أن دعوة التوحيد وتحريم عبادة الأوثان ، والاشراك بالله ابتدأت منذ جاء عليه الصلاة والسلام ومنذ أعلن عشيرته باستنكار عبادة الأصنام ، فقال عقب الانذار بالبراءة منهم ان عصوا ، فقال الله تعالى : « **وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم** » •

وجاء مثل ذلك عند الأمر بالجهر بالدعوة ، واعلان قريش خاصة والعرب عامة ، اذ قال الله تعالى : « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله اله آخر ، فسوف يعلمون** » ٠

واذا كنا لانجد فارقا زمنيا يحد ما بين الدعوتين ، واذا كانت الآيات التى نزلت فى أول الدعوة بمكة المكرمة تتشابه فى معانيها من ناحية الأوثان مع الآيات التى نزلت فى آخر مقامه عليه الصلاة والسلام بمكة المكرمة ، فان من الحق علينا أن نقول اننا لا نجد تفريقا بين حال لم تذكر فيها أوثانهم بسوء ، وحال قد ذكرت فيها بسوء ٠

وان الذى نجده أو نظنه ظنا أن مقاومتهم ابتدأت بحال دهشة مما فوجئوا به ، وتساؤل فيما بينهم ، ما شأن هذا الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام وهم بين من علم أن محمدا عليه الصلاة والسلام دعا الى هذه الدعوة ، وبين متشكك فى نسبة القول اليه ، وبينما هم يتساءلون كانت الدعوة تسرى فى الأوساط ، وتجد لها من بينهم مصدقين ما بين سادة وعبيد ، وأشراف وضعاف ، فتنبهوا حينئذ للمقاومة ، لأمر وجدوه جدا لا هزل فيه ، وقويا لا ضعف يعتريه ، واذا كان الذين يتبعونه قليلا ، فهم يزيدون وسيكونون كثيرا ، ولابد أن يأخذوا الأهبة لمدافعة هذا الواقع ، وهو لايزال نبتا ، قبل أن يستغلظ سوقه ٠

٢٣١ ــ وعلى ذلك نقرر أن المقاومة كانت تتزايد فى الشدة كلما تزايدت الدعوة عموما ، وتكاثر المستجيبون لها ، فهم كلما رأوها تنمى ولو قليلا يحسون بالخطر شديدا ، وكلما أحسوا بالخطر ازدادوا لجاجة وعنفا ، لأنهم يرون الخطر على سيادتهم ، ونظمهم الاجتماعية ، والأرض تنهار من تحتهم شيئا فشيئا ، فتزداد المقاومة بصورها المختلفة ، وكل يعمل على شاكلته ، وعلى الطريقة التى يرضاها خلقه ، ففريق بالايذاء ، وفريق بالاستهزاء ، وفريق بالشكوى لأبى طالب حاميه ، ويتلاقى الجميع على أمر يكون متلاقيا مع كل طبائعهم ٠٠٠ وهكذا ٠

وان اعتراضهم أخذ ثلاث صور ، الصورة الأولى محاولة حمل النبى عليه الصلاة والسلام على ترك الدعوة التى يقوم بها ، وينشر الاسلام عن طريقها ويحارب الوثنية بكل ضروبها ٠

الصورة الثانية ــ المجادلة ومحاولة احراج النبى عليه الصلاة والسلام بمطالب هى غير معقولة فى ذاتها ، بقصد تعجيزه ، واظهار عجزه أمام الناس أجمعين عسى أن يكون فى ذلك صد الناس عنه ٠

الصورة الثالثة ـ الايذاء فى صوره المختلفة ، بالايذاء الفعلى الآحادى للنبى عليه الصلاة والسلام خاصة ، وللذين يؤمنون من النـاس ، ولم يخلص منهم كبراؤهم ، ووقع شديد على ضعفائهم ، ثم كان من ذلك ايـذاء جماعى ، أنزل من قريش كلها على بنى هاشم كلهم واخوانهم بنى المطلب ، وقد تلقـوا جميعا مقاطعة قريش لهم ، ولم يقبل دنية الافتراق عن أسرته الا أبو لهب ، أما الباقون فتحملوه صابرين مشاركين معاونين ، واستوى فى ذلك مؤمنو بنى هاشم وبنى المطلب على سواء ٠

وقد لوحظ أن الايذاء كان يجعل الايمان يذيع وينمو ، لأن الناس تنفطر نفوسهم لألم المتألمين ، ويدفع حمية الذين لهم صلة بمن يؤذون ، فتدفع المروءة الى مشاركتهم فى سبب الايذاء تحديا ومقاومة لذلك الشر ، فقد دفع الايـذاء للنبى عليه الصلاة والسلام حمزة بن عبد المطلب لأن يعلن اسلامه ، ثم يعـلن ايمانه ، كما سنبين ان شاء الله تعالى فى اسلام حمزة ٠

وقد يكون اندفاع المؤذى فى ايذائه مفرطا فيه دافعا لأن ينفطر قلبـه ، فيجد سبيلا للايمان ، كما كان الشأن فى ايمان عمر بن الخطاب ، فقد كان الدم الذى انبثق من شج أخته ايذاء لها على ايمانها سببا فى أن فتح الله تعالى قلبه لأنه استمع الى الآيات التى تتلى ، فرحمه الله تعالت كلماته بأن فتح صدره للايمان فآمن ٠

وكان الايذاء سببا فى الهجرة الى الحبشة ، وفى الهجرة اليها شاع اسم الاسلام فى ربوعهـا وان لم يتبعه الا ملكهـا ٠ وسنذكر بعون الله تعالى تلك الصور المختلفة للمقاومة بعد أن نتكلم فى درجات الدعوة ؛ والجهر بها ٠

الذين استجابوا لله وللرسول

٢٣٢ ـــ سرى الاسلام الى النفوس من أول نزوله ، واذا كان الذين سارعوا الى الدخول فيه عددا قليلا ، فذلك شأن كل دعـوة تعتمد عـلى الحق المجرد ، فانها تدخل فى قلوب الجماعات فى ريث من غير تعجل ، ولا انسـياق من غير تفكر وتدبر ، ولكنها ان كانت صارت كالجبال ٠

وقد يقول قائل ان دعوة محمد عليه الصلاة والسلام كانت ثورة فكرية واعتقادية واجتماعية واقتصادية وانسانية بشكل عام ، ومن شأن الثـورات أن تجتذب الجماهير فتندفع فى نصرتها والأخذ بها ، ونقول فى الاجابة عن ذلك ان ما أتى محمد عليه الصلاة والسلام كان فى نتيجته وغايته أعظم ثورة

انسانية رآها التاريخ الانسانى ، فى نتيجتها وثمراتها وغاياتها ، لا فى وقائعها وأشكالها ، فان الثورات الجامحة انفعالات للجماهير ، تكون كانفعال الأشخاص لا تلبث أن تنطفىء ، اذ ذلك شأن الانفعالات دائما ، لا فرق بين أن تكونَ فى الآحاد وأن تكون فى الجماعات ، واعتبر ذلك بالثورات الأوربية ، فأعظمها مظهرا الثورة الفرنسية ، انفعلت بها فرنسا انفعالة شديدة ، ثم لم تلبث حتى أخذت تأكل نفسها ، وكثرت ثورات زعمائها على أنفسهم جماعة بعد جماعة حتى رسبت فى آخر الأمر فى حكم يشبه حكم القياصرة ، كما كان فى عهدِ نابليون الذى نال الكمثرى فيها بعد أن نضجت ٠

أما دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد كانت نابعة من أحكام المنطق وأحكام العقل ، والامداد الالهى بروح القدس ، وما كانت انفعالة ، بل كانت نفوسا مطمئنة راضية مرضية آمنت بالحق وأخذت به ، دخلها الايمان ولم يَخرج منها ٠ وهذا يكون من شأنه الدوام والاستقرار فى النفوس التى يدخلها ، فاذا أشرق فيها فهو اشراق لا ينطفىء ، فلا يشبه نار الهش من الأحطاب الذى ينطفىء بأقل الرياح ، بل يشبه الماء العميق البعيد الغور الذى لا تهزه الرياح ، فلا تعبث به الأهواء ٠

لذلك كان الذين يدخلون قليلا قليلا من غير طفرة ، وانتقال انفعالى ٠

٢٣٣ ـــ ولقد اختبرت قلوبهم من أول دخولهم ـ لقد ابتدأ الاسلام يسرى كالنور فى الظلام ، فأشرقت به قلوب مؤمنة ، فدخلها واستقر بها فى وسط لجاجة الشرك وعوجاء أهله ، أسلم قوم مؤمنون ، ولكن منعوا من أن يقيموا شعائر دينهم ، فكانوا ابتداء لا يصلون فى المسجد الحرام ، بل كانوا يذهبون للصلاة فى شعاب مكة المكرمة مستخفين بدينهم ، لا يجهرون بقراءة القرآن الكريم بين ظهرانيهم ، ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك ، ومكانته بين قريش مكانته ، وجاء أبو جهل الذى اشتهر بذلك الاسم فى الاسلام واستحقه بعمله ، وقال فى تبجح ظاهر للنبى عليه الصلاة والسلام : « ألم أنهك يا محمد عن الصلاة هنا ، فلم يلتفت اليه النبى عليه الصلاة والسلام ، لأنه يعلم أن أدب الاسلام أنه اذا مر باللغو مر كريما ولم يلتفت ٠

وكان المسلمون الأولون لا يستطيعون أن يجتمعوا ليتعلموا من الرسول دينهم ، بل كانوا يجتمعون خفية فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، قالو انه يجتمع فى هذا البيت الطاهر نحو تسعة وثلاثين كانوا هم المجتمعين عندما أسلم عمر رضى الله تبارك وتعالى عليه وليس معنى ذلك أن الذين أسلموا كانوا هذا العدد فقط ، فقد كان ثمة عبيد آمنوا ، وكانوا فى مهنة مالكى رقابهم ، ومنهم من كان يعذب العذاب الأليم ليفتن عن دينه ، ويكره على الخروج منه ٠

ومن المؤمنين من كان يؤمن ، ويخفى ايمانه عن أهله : أبيـه وأمه وأخيه فرارا بدينه من أن يفن بملام أو تعذيب ، فقد كان أهل كل بيت كان فيه من دخل فى الاسلام ، يأخذ ذلك المسلم بالتأنيب واللوم الزاجر ، ثم ينتقل الأمر من اللوم الى التعذيب ، ان استرسلوا فى غوايتهم ، ولم يكن ما يمنعهم من رحم شفيقة ، أو قوة عزيمة ممن منحـه الله تعـالى الايمان ، واعتصم ببرد اليقين ٠

ولم يكن المسلمون يجهرون بقراءة القرآن الكريم خوف الأذى الا رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كانت دعوته وتبليغ رسالة ربه توجبـان عليه أن يجهر مهما يكن الأذى الذى ينزل به ٠ فان الله تعالى عاصمه من الناس ، وما كانت قريش تستطيع دفعـه ، بل انهم كانوا يتناهون فيما بينهم ألا يسمعوه ، ولكنهم يذهبون خفية ليسـمعوه ، يذهب كل واحد مختفيا عن جمـاعته ، ثم يلتقون فى الاستماع اليه ، وقد تناهوا ، ولكن كل واحد خالف ما اتفق عليـه معهم ، ويحسب أنه المخالف وحده ، واذا هم جميعا مختلفون ، واذا هم جميعا ناقضون لما اتفقوا :

ويذكر الرواة أن أول من جهر بالقرآن الكريم بعد النبى عليه الصـلاة والسلام ، يروى ابن اسحاق عن عروة بن الزبير عن أبيه الزبير بن العـوام أنه قال : كان أول من جهر بالقرآن الكريم بعد رسول الله صلى الله عليه وسـلم بمكة المكرمة عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : « اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا والله ما سمعت قريش هـذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعونه ؟ قال عبد الله بن مسعود : أنـا أسمعهم ، قالوا انا نخشاهم عليك ، انما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من العدم اذا أرادوه ٠ فقال دعونى ، فان الله تعالى سيمنعنى ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ رافعـا صـوته ٠

« **بسم الله الرحمن الرحيم : الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمـه البيـان** » ثم استقبلها يقرؤها ٠ قـال فتأملوه فجعلوا يقولون مـاذا قال ابن أم عبد ، ثم قالوا انه ليتلو بعض ما جاء به محمد ٠ فقاموا اليه ، فجعـلوا يضربونه فى وجهه ، وجعل يقرأ ، حتى بلغ منها ما شاء الله تعالى أن يبلغ ، ثم انصرف الى أصحابه ، وقد أثـروا فى وجهه ، فقالوا له هذا الـذى خشـينا عليك ، فقال ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأعاودنهم بمثلها غـدا ، قالوا حسبك حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون ٠

٢٣٤ — وان هذا كله يدل على ثلاثة أمور :

أولها : الاستخفاء بالعبادة الا ما كان من أمر النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ، فقد كان حريصا على أن يجهر بصلاته ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وأن يجهر بالقرآن الكريم ما وسعــه ذلك ، غير ممتنع ، ولا متردد ، لأن الأمر جاء اليه بذلك ، وهو يبلغ الرسالة ، ويظهر أن المشركين ، وان كانوا يتضايقون من ذلك ، لم يكونوا يمنعونه ، وان حاولوا المنع لم يجدوا مستجيبا لما يدعون ، فكانوا يعمدون الى الاستهزاء به آنا وايذائه آنا ؛ والاعراض عنه دائما ، وفى كل وقت ، لأنهم قد جعلوا فى قلوبهم وقرا ، فلا يستمعون وقد كان المشركون يشتدون في أذاهم ٠

الأمر الثانى : أن الأذى الذى كانوا ينزلونه بالمؤمنين لم ينهنه من عزمهم ، ولم يضعف أنفسهم ، فهذا عبد الله بن مسعود يضربونه ، فيستمر فى قراءته ، وهم يستمرون فى ضربه حتى يبلغ ما شاء الله تعالى أن يبلغه ، غير ملق اهتماما الى ضربهم ٠

وان حــال الايــذاء فى أثنــاء قراءته يصور حــال المؤمنين مع ايــذاء الكافرين ، ومــع الايمــان استمروا فى الايــذاء ، واســـتمر الاســلام فى ازديــاد ٠

الأمر الثالث : أن المشركين كانوا يسمعون القرآن الكريم من النبى صلى الله عليه وسلم يتميز غيظهم ، وان كان الغيظ ثابتا ، اذ يتبعه ايذاء أحيانا ، ولكنهم يتميزون غيظا عندما يسمعونه من غيره ، لأنهم بذلك يعلمون سريان الدعوة ، وزيادة الأتباع حينا بعد حين ، فليس غيظهم فقط من سماع القرآن الكريم ، بل انه منــه ، ومن نمو عدد المستجيبين ، فالأمر اذا كان يزيد ولو بقدر ضئيل يبشر أصحابه ببلوغ الغاية ، وينذر أعداءه بالعاقبة المريرة ٠

اســـــلام حمزة

٢٣٥ — ويلاحظ أن الأذى لم يمنع الاستجابة للدعوة ، بل زيادتها ، ومن المؤمنين الذين كان لهم فى الاسلام قدم ثابتة من كان الايذاء هو السبب الواضح فى اسلامهم ٠

ولنذكر فى هذا المقام اسلام حمزة بن عبد المطلب ، ولنذكر قصــته كاملة كما رواها ابن اسحاق :

قال ابن اسحاق : « حدثنى رجل من أسلم كان واعية أن أبا جهـل مر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ، ونـال منه ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن تسمع ذلك ··· فلم يلبث أن أقبل حمزة متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ، ويخرج له ، وكان اذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يطـوف بالبيت ، وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش الا وقف ، وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش · وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة (التى سمعت سب أبى جهـل) قـالت له يا أبا عمـارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيـك محمـد آنفا مـن أبى الحـكم بن هشـام ، وجـده ها هنا جالسا ، فآذاه وسبه ، وبـلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد صلى الله تعـالى عليه وسلم ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامة · فخرج يسعى ؛ ولم يقف على أحد عامدا لأبى جهل اذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر اليه جالسـا فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك عـلى ان استطعت ، فقام رجال من بنى مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهـل ، فقـال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فانى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، وتم حمزة على اسـلامه ، وعـلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم » (١) ·

وفيما ذكره ابن اسحاق هنـا ما يوهم بأنه أعلن اسـلامه ، وكان ذلك الاعلان هو دخوله فى الايمان ، ولكن ذكر فى البداية عن ابن اسحاق أيضـا أن حمزة اذ أعلن ذلك أنه اتبع محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ما كان ينطق بها الا عن حمية العصبية ، ولكنه فكر بعد ذلك فى مخرج منهـا ، أو سير فى طريق الايمان ، ولننقل لك حديثه فى نفسه كما جاء على لسانه ، وكما نقل ابن اسحاق :

« أقبل حمزة على نفسه ، وقال ما صنعت ، اللهم ان كان خيرا ، فاجعـل تصديقه فى قلبى ، والا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا · فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان ، حتى أصبح ، فغـدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا بن أخى ، انى قد وقعت فى أمر ولا أعـرف المخرج منه ، واقامة مثلى على ما لا أدرى ما هو !! أرشـد أم هو غى شـديد ، فحدثنى حديثا ، فقد اشتهيت يا بن أخى أن تحدثنى ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ س ٢٩٢ ·

وسلم ، فذكره ووعظه ، وخوفه وبشره · فألقى الله تعالى فى قلبه الايمان بما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : أشهد أنك الصادق ، فأظهر يا بن أخى دينك ، فوالله ما أحب أن لى ما أظلته السماء وانى على دينى الأول ، فكان حمزة ممن أعز به الدين · وروى البيهقى مثل ذلك (١) ·

ويظهر من هذا الكلام ، وما قبله أن حمزة رضى الله تبارك وتعالى عنه كانت له نزعة دينية كانت على الباطل ، ثم كانت على الحق · كان فى جاهليته ، اذا جاء من صيده وقنصه لا يغشى ناديا الا اذا طاف بالبيت ، والمتدين فى طبعه اذ رأى وضح الحق سار فيه ولصدق ادراكه عندما أعلن الاسلام فى غضبة عنيفة قوية ، أراد أن يمعن النظر فيما عرض له من حال ؟ أيخرج منها ، وما السبيل أم يمضى ، فاحترته حيرة ، كانت هادية موجهة ، اذ هداه الله تعالى الى الاسلام ·

اسلام عمر

٢٣٦ ــ كان الاسلام ينمو ويزيد ، واذا كان قد ابتدأ بالضعفاء ، وقل فيه الكبراء فقد أخذ عدد الأقوياء يكبر ، وان كان العدد فى ذاته لا يزال قليلا ، قد دخل أقوياء ، يرفعون العبء قليلا عن الضعفاء ·

دخل أولا حمزة ، ولأول مرة فى تاريخ الاسلام يضرب أبو جهل فوق رأسه حتى يشج ، ويثور له بعض قبيله ، فيتصدى لهم رجل قوى الشكيمة عزيز الجانب ، حتى يتعلم أبو جهل الحكمة ساعة من زمان ، فيدعوهم الى أن يتركوا حمزة ، ولعله دعاهم الى أن يقوا أنفسهم شر ضربات حمزة ·

لم يذكر كتاب السيرة تاريخ اسلام حمزة ، وان ادعى بعضهم أنه كان قريبا من اسلام عمر أى أن اسلام عمر كان بعده بقليل ، واسلام عمر كان فى السنة السادسة من البعثة ! لأنه كان بعد الهجرة الى الحبشة · وان كتاب السيرة كانوا يعنون بذكر الوقائع بروايات صحيحة ، وان كانوا لا يذكرون تاريخها الا اذا اقترنت بواقعة مشهورة ، كما اقترنت واقعة خروج المؤمنين هاربين بدينهم الى الحبشة بايمان عمر بن الخطاب ·

كان عمر فاروق الاسلام شديدا على المسلمين قبل اسلامه ، لا يجد سبيلا

---

(١) البداية جـ ٣ ص ٣٣ ·

لايذائهم الا سلكه ، ولكنه فى طبيعته ادراك صحيح ان ضل يرشده ، وفيه طبع رحيم ان قسا ، فظهر الألم يؤذيه ذلك كما يؤذى من نزل به ٠

ولعل أقوى حادثة هزته ، أنه رأى المؤمنين يهاجرون فرارا بدينهم من ايذائه هو وأشباهه ، فلفتته هذه الهجرة عما كان فيه من غى ، وما عليه المؤمنون من رشاد ٠

روى ابن اسحاق عن بعض اللائى أخذن الأهبة للهجرة وهى أم عبد الله ابن خثعمة أنه رآها عمر بن الخطاب ، فسألها عن مخرجها ٠ فقال آسفا : انه للانطلاق يا أم عبد الله ٠ قالت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله ، آذيتمونا ، وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا ، فقال صحبكم الله ، قالت ورأيت والله فيه رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أخذنا فيما رأى خروجنا ، فجاء عامر ابنها ، فقالت له : لو رأيت عمرا آنفا ورقته ، وحزنه علينا ، قال أطمعت فى اسلامه قلت نعم ، قال لا يسلم الا اذا أسلم حمار الخطاب ، وما قال ذلك الا يأسا لما كان يرى من غلظته ٠

ومن هنا يستفاد أن عمر رضى الله عنه كلما رأى فريقا من قومه يخرج فارا بدينه من ظلمهم يناله ألم ، والعدالة فى طبعه ، وان كان التعصب لما عليه آباؤه وأجداده فى جنب منه ٠

ويظهر أن ذلك الألم من خروج بعض قومه مقهورين لم يمنعه من انزال بعض الأذى لمن يعلم اسلامه من أهل بيته وذوى قرابته ، ولقد هزته أخرى ففتحت قلبه للاسلام ؟

وخلاصته أن فاطمة بنت الخطاب أخته قد أسلمت هى وزوجها ، وأخفيا اسلامهماخشية بطشه ، وبطش ذوى قرباهما ، وقد أسلم أيضا نعيم بنعبد الله ، وكان ثلاثتهم يستخفون ، ويتلون القرآن الكريم فى منزل سعيد بن زيد زوج فاطمة ، وكان خباب بن الأرت يجىء اليهما ويقرؤها القرآن الكريم ، فخرج عمر متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورهطا من أصحابه ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، فلقيه بعض قريش ، فقال له أين تريد يا عمر ؟ فقال له : أريد محمدا هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله ، فقال له والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ٠ قال وأى أهل بيتى ، قال أختك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله تابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما ٠

ولا تناقض بين هذين خبر أم عبد الله ، لأنه عندما رق للذين يهاجرون لم يكن رقه رغبة للاسلام ، ولكن كان ألما لفـراق قومه ، وسولت له نفسه غيـر المؤمنة ، بأن محمدا صلى الله عليه وسلم سبب ذلك الفراق ، وكان يتنازعه حال من الايمان ، ووسوسة من الكفر ·

ذهب عمر الى أخته ، وكان يستخفى فى بيتها ثلاثة صاحبها الذى آمن وزوجها ، وخباب يعلم الجميع القرآن الكريم ، ومعه صحيفة فيها سورة طه ، فلما سمعوا صوت عمر ، تغيب خباب فى مخـدع لهم ، أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال ما هذه الهيمنة التى سمعت ؟ قالا له ما سمعت شيئا ، قال بلى والله لقد أخبرت أنكما اتبعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها ، فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم قد أسلمنا ، وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأونها آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتبا · فلما قال ذلك قالت له أخته : انا نخشاك عليها !! قال لا تخافى ، وحلف بآلهته ليردنها اذا قرأها · فلما قال ذلك طمعت أخته فى اسلامه ، فقالت له يا أخى انك نجس على شركك ، وانه لا يمسها الا الطاهر ، فقام عمـر فاغتسل فأعطتـه الصحيفة فقرأها ، فلما قرأ منها صدرا قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له يا عمر ، والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانى سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمـر بن الخطـاب ، فالله الله يا عمر ···· فقال عمر عند ذلك : فدلنى يا خباب على محمد صلى الله عليه وسلم حتى آتيه فأسلم · فقال له خباب هو فى بيت عند الصـفا في نفر من أصحابه ·

فأخذ عمر سيفه فتوحشه ، ثم ذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه معه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صـوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنظر من خلل الباب ، فـرآه متوحشا سيفه ، فرجع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فزع ، فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف ·

فقال حمزه بن عبد المطلب : فأذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى علية وسلم ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض اليه رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم ،

حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذة جبذة شديدة وقال ما جاء بك يا بن الخطاب ، فو الله ما أدرى حتى ينزل الله بك قارعة ٠

فقال عمر يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن عمر قد أسلم ٠

وانك لترى أن عمر بن الخطاب جاء اسلامه من نبع قلب يؤمن بالعدل ، ويؤمن بالرحم ، وان كان قد غشاهما غشاء من مألوف الجاهلية وما كان عليه قومه ، دفعته عصبيته قبل أن يدرك الاسلام لأن يناوىء محمد بن عبدالله ، اذ أنه توهم أن ذلك يفرق كلمتهم ، ويذهب بمكانتهم عند العرب ، وهو فى هذا مخطىء ، فتفرق بسبب نور الحق بين مؤمن وكافر خير من اجماع على باطل ، وذلك ما خفى على عمر ابتداء ، وأشفق على الذين يخرجون من أرضهم من قومه ، ثم كان التنبيه القارع عندما رأى الدم يسيل من أخته ، فزالت عنه الغشاوة ، فكان عمر الشفيق العادل المدرك اذ أزال الله تعالى عنه غشاوة الباطل ٠

بين عهدين

۲۳۷ ــ كان اسلام حمزة ، ومن بعده اسلام عمر ابتداء عهد جديد للاسلام كان المسلمون فى الأول مستضعفين يرامون بالسوء ، ولا يدفعون السيئة بمثلها ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ، ولا يرقب فيهم أعداؤهم ذماما ، ولا مراعاة لحسن جوار ، أو لمودة ، أو لقربى ، بل يسومونهم العذاب ، ويريدونهم على الهوان من غير أن يتوقعوا دفعا ، وذوو المروءات من المشركين ان تابوا عن الأذى فلأنهم لا يريدون أن يرتكبوا نذالة فى ايذاء عبد أو ضعيف ، أو من لا يملك ردا ٠

ولما أسلم حمزة ابتدأ كبير الأنذال فيهم أبو جهل يحس بالضربات تقمع رأسه ، وبالدم يسيل منه ، فان تخفف له نصراء من قومه خشى من المعركة ، وأن يكون ابتداؤها هذا وهو يخاف نهايتها ، كشأن كل من يكون ناقص المروءة ، يستعدى على الضعفاء ، ويخاف الأقوياء ٠

فلما أسلم عمر ، كانت الكارثة على الشرك ، وتكامل كيان العهد الجديد عهد الاعتزاز بالاسلام ٠ واستعلانه بعد استخفائه ٠ ووقوف المسلمين صفوفا مجتمعين ، بعد أن كانوا فرادى متفرقين ٠

التقى عمر عند اسـلامه فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم فى الصفا ، وعدد المسلمين تقارب الأربعين ، فقام عمر رضى الله عنه ، فقال يا رسول الله عـلام نخفى ديننا ونحن على الحق ، ويظهروا دينهم ، وهم على الباطل ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انا قليل وقد رأيت ما لقينا ٠

قال عمر ، والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه أنادى بالكفر ، الا أظهرت فيه الايمان ، ثم خرج فطاف بالبيت ، ثم مر بقريش ، وهى تنتظره ، وقد تسامعوا باسلامه ، فقال أبو جهل : يزعم فلان أنك صبوت ، فقال جاهرا ، أشهد أن لا اله الا الله وحـده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسـوله ، فوثب المشركون اليه يريدون أن يصرعوه ، وكان على رأسهم عتبة بن ربيعة الـذى كان البا على المسلمين ، وكان قد صرع أبا بكر وضربه ، حتى أثخنه ، فكأنه كان طلبة عمر ، فوثب عمر عليه ، وصرعه ، وبرك عليه كما يبرك البكر الراغى وجعل يضربه ، وأدخل اصبعه فى عينيه ، فجعل عتبة يصيح ، فتنحى الناس ، فقام عمر عنه ، فاشتفى للمسلمين عامة ولأبى بكر خاصة ٠

وكان عمـر رضى الله تعـالى عنه حفيـا بألا يضرب الا أشراف قريش ليعـرفوا حـرارة الضربات فصك وجوههم صـك الجندل ، فما كان فى هذه المعركة التى أثارها يدنو منه شريف الا أخذه بالضرب الشـديد حتى أعجـز الناس ، ثم أتبع المجالس التى كان يجلس فيها ، فيظهر الايمان (١) ، فيلاقونه ويذيقهم من اساءاتهم كؤوسا ٠

عاد الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه المسلمون يدعوهم الى أن يظهروا مجتمعين ، وألا يبقوا متفرقين ، فتجمعوا وخرجوا ليصلوا فى الكعبة الشريفة مجتمعين ، وسـاروا على صفين على رأس أحدهما حمزة أسـد الله وسيد الشهداء ، وعلى رأس الثانى عمر رضى الله تبارك وتعالى عنهم ٠

وتحدوا بجموعهم قريشا أن تمنعهم ، ولم يجدوا جوابا لهذا التحـدى العملى ، لأن أبا جهل داعية الشر تذكر قوس حمزة تقمع رأسه ، وتذكر عتبة ابن ربيعة صرع عمر ، ووضع أصابعه فى عينيه ٠

ظهر الاسلام ، فظهر النور ، وسارت الركبان ، بما اعتز به الاسـلام ، وانخذل الشرك ، وتحول الاضطهاد من الآحاد الى الجماعات على ما سنبين

---

(١) البداية جـ ٣ ص ٣١ ، ٧٩ ٠

فى الاضطهاد ، الذى نؤجل الكلام فيه ، لأنه استمر طول مدة الدعوة فى مكة المكرمة ، وانتهى بالهجرة ٠

وأخذ المشركون أن يسلكوا ثلاثة مسالك مع الاضطهاد :

أولها : محاولة استمالة النبى عليه الصلاة والسلام ليمنعوه من الجهر بدعوته ٠

وثانيها : مجادلته لاعجازه أو اظهار ضعفه فى زعمه ٠

وثالثها : الشكوى منه لعمه أبى طالب ٠

محاولة كفه عنهم بالاستمالة

٢٣٨ ــــ يئس الكفار من النبى عليه الصلاة والسلام ، آذوا أنصاره فثبتوا ، وآذوه وتهكموا به فما نالوا ، وكلما زادوا ايذاء سرى الايمان فى القلوب ، فبايذائهم للنبى صلى الله عليه وسلم هدى الله حمزة للايمان فكان البا عليهم ، وبسبب ايذاء عمر لختنه ولأخته ، ولرؤيته المؤمنين يهاجرون رق قلبه ، فآمن ، وكان ايمانه كارثة كرث الله سبحانه وتعالى بها الشرك وأهله ، فكان القوة الفارقة بين استخفاء المسلمين ، واعلان الاسلام ، والمجاهرة بالعبادة ، واظهار صوت الحق يرن فى جوف المسجد الحرام ٠

واذا كانوا هم يؤذون فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسالم ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا يقطع ، ولا يكف عن الدعوة ، بل انه يألم لألمهم ، ويواسيهم فى أزماتهم ٠

حتى انه نزل بأهل مكة المكرمة قحط ، فدعا صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بانزال المطر ، فنزل ، ويظهر أن ذلك كان فى الفترة التى عاشها النبى عليه الصلاة والسلام بين أهل مكة المكرمة بعد وفاة أبى طالب الى أن هاجر ، ولذلك روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن استجابت دعوته ود لو كان أبو طالب حيا ، رجاء ايمانه ، ورجاء أن يعلم أن دينه أى محمدا صلى الله عليه

وسلم خير لقومه · ويروى أن هذا الاستقاء كان ومحمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة ، فقال لو أدرك أبو طالب هذا الاستقاء ونصره (١) ·

ولقد كان من المشركين من يعتريهم ما يفيد قبـول ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أو علىٰ الأقل عدم المبادرة بتكذيبه والتريث فى ذلك ، حتى ينظر أتعم دعوته ، وتستجاب ، أم تضعف وترد ·

قال النضر بن الحارث : « يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمـر ما أتيتم له بحيلة بعـد ، قد كان محمـد فيـكم غلاما حـدثا ـ أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر ، والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقـدهم ، وقلتم كاهن ، والله ما هو بكاهن ، لقـد رأينـا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم · وقلتم شاعر : لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه · وقلتم مجنون وما هو بمجنون ، فما هو

---

(١) المذكور فى رؤية أبى طالب لاستسقاء النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم أنه رآه فى حيـاة عبد المطلب ، روى أن رقية بنت أبى أصفى بن هاشم قالت : « تتابعت على قريش سنو جدب ، قد أقحلت الظلف ، وأرقت العظم ، فبينا أنا راقدة للهم ··· اذا أنا بهاتف يصرخ بصوت صحل : يا معشر قريش ان هذا النبى المبعوث منكم ، هـذا ابـان نجومه ، فجهلا بالحيا والخصب ، ألا فانظروا منكم رجلا طوالا أبيض أشم العرنين ··· ألا فليحضر هو وولده ، وليدلف اليه من كل بطن رجل ··· وليمسوا من الطيب ، وليطوفوا بالبيت سبعا ، وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، فليدع الرجل وليؤمن القوم ··· قـالت فأصبحت مذعورة قد قف جلدى ووله عقلى واقتصصت رؤياى ··· فقالوا هو شبيه الحمد : وعبد المطلب ، فتتابعت عنده قريش ، وانفض اليه الناس من كل بطن رجل فمسوا واستلموا وطوفوا ، ثم ارتقوا أبا قبيس ، وطفق القوم يدقون حوله ما ان يدرك سعيهم · مهلة ، حتى قروا بذروة الجبل ، واستكفوا جنابيه فقام عبد المطلب ، فاعتضد ابن ابنه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فرفعـه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أيفع ، ثم قال : « اللهم ساد الخلة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، ومسئول غير مبخل وهذه عبداؤك واماؤك ·· يشكون اليك سنتهم ، فاسمعن اللهم وأمطرن عليهم غيثا مغدقا ، فما راموا حتى انفجرت السماء بمائها وكظ الوادى بثجيجه » هذا ما جاء فى الروض الأنف ، والله أعلم بصدق الرواية ·

بخنقه ، ولا رسو سنه ، ولا تخليطه يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم » (١) ٠

لقاء أهل مكة المكرمة به لاستمالته :

٢٣٩ ــ عن جابر بن عبد الله فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ، فقالوا فيما بينهم ما نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة ، فندبوه لذلك ، وقالوا له أنت يا أبا الوليد ، وكان بينهم سيدا حليما ، ويروى أنه هو الذى عرض عليهم أن يذهب للقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال لهم : يامعشر قريش : ألا أقوم الى هذا الرجل ، فأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، ويكف عنا :

قالوا : بلى يا أبا الوليد ٠

وسواء أكان هو الذى انتدب لهذا أم ندبوه فقد ذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعرض عليه ما يظنه كافا له عن متابعة الدعوة الى الحق ٠

قال عتبة : يا بن أخى ، انك منا حيث قد علمت من الشطر فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضا ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع ٠

قال ربيعة : يا بن أخى ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ٠

وان كنت تريد شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ٠

وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ٠

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٩ ٠

وان كان هـذا الـذى يأتيك رئيا تراه ، لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع علـى الرجل ، حتى يتداوى منه ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن فرغ عتبة : « أفرغت يا أبا الوليد » قال : نعم ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اسمع منى ٠ قال أفعل ، فتلا رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم « **حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت اياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** » ومضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرؤها مرتلا تاليا ٠

لما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليها ليسمع منها ، حتى انتهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى آية السجدة فى السورة ، فسجدها ، ثم قال : سمعت يا أبا الوليد ؟ قال سمعت ٠ قال الرسول فأنت وذاك ٠

ثم قام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلسوا اليه قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ٠

قال عتبة : ورائى أنى والله قد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله : ما هو بالشعر ولا بالكهانة : يا معشر قريش أطيعونى ، واجعلوها لى : خلوا بين هذا الرجل وما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ؛ وان يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ٠ وكنتم أسعد الناس به ٠

قالوا غير مجيبين نصيحته : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ٠

قـال الناصح ، وكان فى ذلك الوقت أمينا فى نصحه : « هـذا رأيى ، فاصنعوا ما بدا لكم » (١) ٠

٢٤٠ ـــ أعجزهم الايذاء المستمر عن أن يحولوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن الايمان ، بل ان التعذيب الشديد ، والايلام المستمر كان يزيد المؤمنين ايمانا ، واستمساكا بما يعتقدون ، وترتب على الايذاء أن آمـن

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٦٤ ٠

مثل حمزة وعمر كما ذكرنا ، وأخذ المؤمنون يردون الايذاء بمثله · فعـرف أبو جهل كيف يكون شج الرأس من القوى العادل لمثله الفاجر ، وألهم عمـر رضى الله عنه القوى ، كيف يكون الضرب للشرير العصى ·

أخذوا يجربون من ذلك طريق العلاج باللين ، وعرض ما يحسـبون أنه يقرب النبى اليهم من غير أن يتقربوا هم من الايمـان ، عرضوا عليهم ما يلين أمثالهم ، وما هو منطقهم ، عرضوا عليه الشرف فيهم ليكون السيد المطـاع ، وعرضوا عليه الملك ليكون ملكهم ، وعرضوا عليه الأموال ليكون أكثرهم مالا ، فلما رفض كل هذا ، ولا يحسبون أن يرفضه الا من يكون قد ايف عقله ، وذلك بمنطقهم المادى الذى لا يحسبون العلو فيه الا بالمال والسيادة والملك ، عرضوا عليه أن يعرضوه على نطس الأطباء ليعالجوه ولكنه بدل أن يجيب بلا أو نعم ، تلا عليهم القرآن الكريم ليعلمـوا أن ما عنده خير مما يقدمون ، بل لا يعـد ما يقدمونه شيئا مذكورا بجوار ما عنده وهو خير وأبقى ·

ضاقوا ذرعا بمحمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه ، وزيادتهم آنا بعـد آن ، عالجوه بالاضطهاد فما أجدى ، وعالجوه برشوة المال والسيادة فمـا أجـدى فمـاذا هم صانعون ، لم يبق الا أن يدخلوا معه فى جدل ليبين عجـزه أمام الناس ، فلا يزيد أتباعه ·

جدلهم مع الرسول صـلى الله عليه وسلم

٢٤١ — أعادوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عرض ما عرضه عتبه ، ولكنهم فى هـذه المرة يعرضونه مجتمعين توثيقا لارادتهم ، ورغبة فى الأعذار ثم يجادلونه بعد الرفض ·

اجتمـع الملأ من المعاندين له عليه الصـلاة والسلام من بطون مختلفة ، فكلما تكامل جمع منهم قال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ·

فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ·

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا ، وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بدء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم ·

قالوا يا محمد انا قد بعثنا اليك لنعذر فيك ، وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقى من قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن ، فربما كان ذلك ، بذلنا أموالنا فى طلب الطب ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما بى ما تقولون ، ماجئتكم بما جئت أطلب أموالكم ، والشرف فيكم ؛ ولا الملك عليكم ، ولكن بعثنى الله اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ، ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ماجئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ٠ وان تردوا على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم » ٠

قالوا يا محمد ، فان كنت غير قابل ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادا ، ولا أقل مالا ولا أشد عيشا ، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ؛ وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث منهم قصى بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، فان فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك ؛ وعرفنا منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا ، كما تقول ٠

مؤدى هذا الكلام أنهم يطلبون آيات أخرى ، والله عليم بالقلوب ، فقد جاء عيسى لأمثالهم بما هو أشد من ذلك ، من احياء الموتى وابراء الأكمه ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يختار أنبياءه وهو أعلم بمن يؤيد رسالته ٠

قال لهم رسول الله رادا عليهم قولهم ، وما بهذا بعثت ، انما جئتكم من عند الله بما بعثنى به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على ، أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم ٠

قالوا فان لم تفعل هذا فخذ لنفسك ، فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لنا جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ، ويغنيك عما نراك نبتغى ؛ فانك تقوم فى الأسواق ، وتلتمس المعايش ، كما نلتمس ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم ٠

قال لهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، وما أنـا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ، ولكن الله تعـالى بعثنى بشـيرا ونذيرا ، فان تقبلوا ما جئتكم فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه عـلى أصبر حتى يحكم الله بيننا ٠

قالوا فأسقط علينا كسفا من السماء ، كما زعمت أن ربك ان شاء فعل ، فانا لا نؤمن بك الا أن تفعل ٠

قال لهم الرسول الصادق الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم : « ذلك الى ربى ان شاء فعل بكم ذلك » ٠

قالوا يا محمد ما علم ربك أننا سنجلس معك ونسألك عما سألناك ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم اليك ، ويعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا اذا لم نقبل ما جئتنا به ، فقد بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليمـامة يقال له الرحمن ، وانا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا اليك يا محمد ، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا ، حتى نهلكك أو تهلكنا ٠

وقال قائل منهم نحن نعبد الملائكة ، وهى بنات الله ، وقال قـائل منهم : « لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا » ٠

تقاولوا طالبين آيات حسية ، ومستعجلين العذاب ، ثم قال عبـد الله ابن أبى أمية ابن المغيرة ابن عمة عاتكة بنت عبد المطلب « يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا ، فلم تقبله ، ثم سألوك أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم من العذاب ، فوالله لا أومن لك أبدا ، حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى منه وأنا أنظر ، حتى تأتيها وتأتى معك بنسخة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول : « وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك » (١) ٠

٢٤٢ ـــ طلبوا ما طلبوا لا ليؤمنوا ، ولكن ليحرجوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليعلنوا قوة جدالهم ، وهم قوم خصمون كمـا قال الله تعالى ، ولعل الذى يفضح حقيقة نياتهم قول الهاشمى ابن عاتكة بنت عبد المطلب : وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك ، فكأنه يصرح بأن التكذيب سابق

---

(١) راجع ابن جرير فى تفسير سورة الاسراء ، وابن كثير كذلك ، وراجع سيرة ابن هشام ، والبداية والنهاية لابن كثير ٠

للدليل ، وانه راكــز فى النفــوس لا يخرج منها ، حتى بعد تلك الآيــات التى طلبوها ، فلو استجيبت ما زادوا الا اعنــاتا ، وكانوا كما حــكى الله سبحانه وتعالى عنهم : « **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل انما الآيات عنــد الله ، وما يشــعركم أنها اذا جــاءت لا يؤمنــون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ، ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون** » ٠

ومطالبهم التى قدمت كانت للتعنت لا طلبا للدليل ، فان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق واضح فى ذاته ، تبعه مؤمنون لما فيه من الحــق ، وقد صحبه الدليل الذى يثبت أنه من عند الله قرآنا غير ذى عوج يهدى الضال ، ويرشد السارى فى الظلام ، وهو المصباح المزهر ، الذى يعجز العرب وغير العرب عن أن يأتوا بمثله : « **قل لئن اجتمعت الانس والجنْ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ٠ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » ٠

وخلاصة هذه المطالب أنهم :

١ ــ يطلبون أدلة مادية ، طلبوا منــه أن يوسع عليهم أرضهم ، وأن يبعث أمواتهم ٠

٢ ــ وطلبوا أن يبعث لهم ملكا يشهد لنبوته ٠

٣ ــ وطلبوا منه أن يجعل أرضهم القاحلة جنات ، وفيها كنــوز ، وفيها قصور من ذهب وفضة ، واتهموه كذبا بأنه يعلمه رجــل من اليمامة ٠

٤ ــ وطلبوا أن يسقط عليهم من السماء كسفا ٠

٥ ــ وطلبوا منه أن يحضر سلما يرقى فيه الى السماء ، وأن ينزل ومعه كتاب فى قرطاس ٠

طلبوا ذلك لا ليؤمنوا ولكن ليحرجوه عليه الصلاة والسلام ، ولو كانوا طلاب ايمان ما طلبــوا أن ينزل عليهم كسفا من الســماء ، لأن ذلك يبيــدهم ، ولا ايمان بعد هذا الانزال ٠

ولقد كان صادقا عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عمته عاتكة بعد أن طلب ما طلب أنه لم يعد بالايمان ان جاء بما طلب ، بل ختم القــول بأنــه لا يظن أنه سيصدق ان جاء ٠

وان النبى عليه الصلاة والسلام لم يطلب إلى الله تعالى أن يجيبهم فيما طلبوا ، بل رد طلبهم لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم ان أجيبوا ولم يؤمنوا ، فالهلاك كما هلكت عاد وثمود ، والنبى صلى الله عليه وسلم يعلم أن شريعته باقية خالدة ، وأن لها معجزة خالدة باقية بخلودها ، فلا تناسبها معجزة تحدث ثم تنتهى ٠

وقد حدثوا أنهم لما سألوا النبى عليه الصلاة والسلام تلك الأسئلة وطلبوا تلك المطالب أوحى « ان شئت أن تستأنى بهم وان شئت أن تؤتيهم الذى سألوا ، فأن كذبوا هلكوا كما أهلكت من قبلهم » فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « بل أستأنى بهم » ٠

ولقد روى أنهم قالوا للنبى عليه الصلاة والسلام ، ادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن لك ، قال عليه الصلاة والسلام وتفعلون ذلك ، قالوا نعم ، فدعا ، فأتى جبريل فقال : « ان ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك ان شئت أصبح الصفا لهم ذهبا ، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، وان شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة ، قال الرءوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه بل التوبة والرحمة » ٠

وان مطالبهم والرد عليها قد سجلها القرآن الكريم فقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » ٠

وقد أشار سبحانه وتعالى الى هذه المطالب فى آيات أخرى ، وبين أنهم لو جاءتهم لا يؤمنون ، فقال تعالت كلماته : « **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، ولو نزلنا عليهم كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون** » ٠

طلبوا كل هذا لا ليؤمنوا ، فقد سبق القول بالكفر ، واذا سبق الاعتقاد الباطل فى أمر ، فان كل الاتجاهات لاثبات هذا البطلان ، بالسلب اذا لم يأت لهم الدليل الذى يريدونه ، وبالايجاب بالانكار وعدم الاقرار ، فان التعنت لا تزيده قوة الدليل الا اصرارا ، وكثرة الأدلة الا لجاجة فى الانكار ٠

وان الله تعالى قد اختار لهم القرآن دليلا ، ليعطيهم فرصة للتفكير ، وهو يخاطبهم فى آن الدعوة ، وقد تتولد التوبة والغفران ٠ أما الأدلة الحسية ، فانها تجىء دفعة ، فاما العقاب واما الايمان ، وفى الماضى عبرة فما جاءت آية من نوع ما يطلبون الا كانت النتيجة هلاكا ولم تكن اذعانا ، لأنهم ما كانوا ليذعنوا بالحق ، بل قد سبق الكذب ، وقد قال تعالى يشير الى ذلك : « **وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات الا تخويفا** » ٠

٢٤٣ ــ ما كانت هذه الأسئلة ، الا لاظهار النبى عليه الصلاة والسلام بمظهر العاجز ، واذا ظهر عجزه فى زعمهم اتخذوا من ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه ، وللوقوف ضد ينبوع الايمان الذى يسرى ، ولا ينقطع ، ولكن هل تحقق ما أرادوا ، لقد ثبت بذلك صدقه ، وأنه لا يريد الا الحق ، والأتباع يزيدون ولا ينقصون ولا يرتد أحد ، بل يزدادون ايمانا ٠ وانهم يحيلون موضع الجدل آيات ، والقضية توحيد أو تعدد ٠ فهل يجادلون فى الله ، وهو شديد المحال ٠

الاستعانة بأهل الكتاب

٢٤٤ ــ سبق المشركون الى الانكار ، فكذبوا بالحق لما جاءهم ، وسدوا مداخل الايمان الى قلوبهم ، والناس رجلان رجل يدرك الحق بعقله وقلبه فيدركه بمجرد سماعه ، وهذا يطلب الدليل ليطمئن قلبه ، وليزداد ايمانا ، فالدليل لا ينشىء الايمان فى قلبه ولكنه يزيده تثبيتا ــ هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : « **فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا** » ٠

وآخر يسارع الى الكفر ، ويسابق بالانكار ، فيكون قلبه أغلف قد سدت مداخل الايمان ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « **ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة** » ، وأولئك لا يطلبون الدليل ليسيروا فى نوره ، بل يطلبونه ليعجزوا من يخاصمهم ، وينحرف بهم القول ، وانظر ما قاله تعالى فى شأن عتاة المشركين الذين كانوا يقاومون النبى عليه الصلاة

والسلام ، فهو يقول تعالت كلماته : « **واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم ، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** » ٠

أحس المشركون بعد المطالب التى قدموها أن أحداً لم يفقد الثقة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل كانت دليلا على حمقهم ، وانهوائهم فى هاوية من التفكير ليس معها رشاد ، اذ كيف الدليل الذى لو نفذ لماتوا قبل أن يستجيبوا ، كانزال مطر من حجارة أو عذاب أليم ٠

عجزوا عن الاستدلال الذى كشف جهالتهم ، تعمدوا الى الاستدلال الاضافى بالاستعانة بأهل الكتاب عساهم أن يعينوهم ، على وقف التيار العذب الذى يدخل به الناس فى الايمان ٠

٢٤٥ — روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ أن قريشا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط الى احبار يهود بالمدينة فقالوا سلوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله : انهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ٠

خرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا انكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ٠

فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وان لم يفعل فهو رجل متقول ، فروا فيه رأيكم :

(أ) سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب ٠

(ب) وسلوه عن رجل طواف : طاف مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ٠

(ج) وسلوه عن الروح ماهى ٠

فان أخبركم بذلك فاتبعوه ، وان لم يخبركم ، فانه رجل متقول ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم ٠

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا :

يا معشر قريش قد جئناكم بما يفصل ما بينكم وبين محمد : قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبراهم بها ، فجاءوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألوه عما أمر أحبار يهود ·

ويظهر أنهم ظنوا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيردهم بتكرار دعوة الحق لهم كما فعل أول الأمر · ولكن خاب ظنهم · فقد أمهلهم ، ولم يردهم ، لأن ذلك مما يمكن أن تشمل معجزته الكبرى ، وهى القرآن الكريم ، ولذا وعدهم بالاجابة ان أجلوه ، لأنه يتكلم من عند الله ، فلا علم له الا من عند الله العلى القدير · فقال لهم : أخبركم غدا بما سألتم عنه ، ولم يستثن أى لم يعلق الاجابة على مشيئة الله تعالى ·

انصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمس عشرة ليلة ، لايحدث له فى ذلك وحى ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة المكرمة وقالوا وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها لايخبرنا فيها بشىء مما سألناه ، وحتى أحزن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكث الوحى عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة المكرمة : ثم جاء جبريل ·

لماذا تأخر الوحى هذه المدة ، ونجيب عن ذلك بجوابين :

أولهما : أنه لم يستثن عندما قرر أنه سيجيب غدا ، فلم يقل ان شاء الله تعالى : « **ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن شاء** » ·

وثانيهما : أن مجىء الاجابة بعد طول انتظارها ، وارجاقهم نحوها ، واشاعتهم عجز محمد عليه الصلاة والسلام عن الاجابة ، تكون للاجابة فائدة أنها تكون أوقع ، اذ تكون فى وقت الحاجة اليها ، فيكون فيها فضل تمكين فى النفس ، ويكون التحدى أشد تثبيتا فى النفس وأقوى لتكذيبهم ورد كيدهم فى نحرهم ، اذ يكونون قد تقاولوا فى ذلك ، فيكون ردهم قد علمه كل من أشاعوا بين يديه عجز محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتكون دعوة التصديق للنبى عليه الصلاة والسلام ·

وفوق ما تقدم فى الأمرين ان التأخير يدل على أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يأتى بهذا الكتاب من عنده ، وانما يأتيه عن الله تعالى علام الغيوب الذى يعلم ما خلق وهو السميع البصير ·

٢٤٦ — أجيبوا عن الأسئلة الثلاثة ـ أجيبوا عن السؤال الأول بأن أولئك الفتية هم أهل الكهف الذين ذكروا فى السورة التى سميت بأسمائهم — ولننقل جزءا من هذه السورة ، فقد قال تعالت كلماته :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، واذ اعتزلتموهم ، وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله من يهد الله المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ٠٠٠ » الى آخر القصة التى تختم بقوله تعالى :

« واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك ، لا مبدل لكلماته ، ولن تجد من دونه ملتحدا » ٠

هذه اجابة السؤال الأول ، وهو شطر من سورة الكهف ، وتلاوته تسمعهم القرآن الكريم ، واسماعهم القرآن الكريم فى ذاته دعوة الى الحق ، والى صراط مستقيم ، وبتلاوته يدركوا معنى الاعجاز ٠

وأما الاجابة عن السؤال الثانى ، وهو الرجل الطواف ، فقد جاءت فى آخر سورة الكهف ، اذ يقول تعالت كلماته **« ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، انا مكنا له فى الأرض ، وآتيناه من كل شىء سببا ، فأتبع سببا ، حتى اذا بلغ مغرب الشمس ، وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوما ، قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب ، واما أن تتخذ فيهم حسنا ٠ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ٠ وأما من آمن وعمل صالحا ، فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لايكادون يفقهون قولا »** الى آخر القصة التى تختم بقوله تعالى : **« وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور ، فجمعناهم جمعا » ٠**

وكانت الاجابة عن السؤال الثالث فى سورة الاسراء بقوله تعالى :

« **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، ومـا أوتيتم من العلم الا قليلا** » ٠

جاءت الردود آيات تتلى ويسمعها كل الذين أرجفوا بعجز محمد صلى الله عليه وسلم فى تحديهم ، فقرءوها ، أو سمعوهـا ، فكـانت تتلى فيهم فى ضمن ما يتلوه النبى عليه الصلاة والسلام عليهم ، ولا شك أن لذلك أثرا قويا فيهم ٠ وفيمن علم أمر المحاجة بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى مقدمه ما سرى فيهم من روح القرآن الكريم ودلائل اعجازه ، فهل آمنوا ؟ من المؤكد زادوا ايمانا بعد ذلك ٠

اسماعهم القـرآن الكريم

٢٤٧ ـــ عندما ذهب عتبة بن ربيعة يتودد للنبى صلى الله عليه وسلم باسم قريش ، وعرض عليه السيادة فيهم ، أو الملك ، أو المال الوفير ، أو أن يحضروا له طبيبا يعالجه من الرئى ان كان عنده رئى ، فقرأ عليه النبى عليه الصلاة والسلام بعد مجاوبة ترد ما يعرضون قوله تعـــالى : « **حم تنزيل من الرحمن الرحيم** ٠٠٠ » الى آخر الأيات ، فأتى أصحابه ، فقال لهم : « ياقوم أطيعون فى هذا الأمر اليوم ، واعصونى فيما بعد ، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ، ما سمعت أذناى كلاما مثله وما دريت ما أرد عليه » ٠

كان المشركون حريصين على أن يستمعوا للقرآن الكريم بعد أن عرفوا تأثيره ، لا ليؤمنوا ، ولكن ليعرفوه ، وليعدوا العدة ، ولأن بعضهم مع عناده ، وجحوده واصراره كان يخاف تهديده وانذاره ، بل كـان يخاف مجرد تهديد من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

يروى أن النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم قال لأبى جهل « يا أبا الحكم فوالله لتضحكن قليـلا ولتبكين كثيرا » فأخذ التهديد قلبه المتحجر وألانه لحظة من الزمان ، فقال متلطفا مع النبى صلى الله عليه وسلم : « بئسما تعدنى يابن أخى من نبوتك » ٠

ونراه أحسن الخطاب بذكر رابطة وثيقة من القرب فى القبيلة ، وذلك مالم يؤلف من قبل ٠

كان كبراء قريش يجذبهم القرآن الكريم لاستماعه ، وان لم يؤمنوا ، لقد سمعه الوليد بن المغيرة ، فقال لقريش فى وصفه « ان له لحلاوة ، وان عليه

لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفلة لمغدق ، وانه ليعلو ، ولا يعلى عليه ما يقول هذا بشر » ولقد نفى أن يكون شعرا ، ودفعته لجاجته فى الأنكار الى أن يقول انه سحر ، وان لم يرض بذلك الوصف للقرآن الكريم ابتداء ٠

واذا كان المؤمنون قد جذبهم القرآن الكريم ومحبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واخلاصهم ، واشراق قلوبهم بالايمان ، فالمشركون لعلمهم ببليغ القول ، وشغفهم به ، قد شغفهم القرآن الكريم ، ولكن حالت بينهم وبين الايمان ظلمات اعترت قلوبهم ، « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** » ٠

ولقد شغفوا بسماع القرآن الكريم ، لا فرق بين صغير وكبير ، والصغير يؤمن والمتعنت لا يزيده السماع الا كفرا واعناتا ، فان قوة الدليل تملأ قلب المخلص ايمانا ، وقلب الحقود الحسود كفرانا ، ولجاجة ، وكلما لج فى عناده زاد بغضا لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، والمستجيبين لها ٠

٢٤٨ — ولقد روى ابن اسحاق عن ابن شهاب الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل عمرو بن هشام والأخنس بن شريق بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم ، لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا كان الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ٠

وقد تعاهدوا على ذلك ، وقد قال الله فيهم : « **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** » ٠

وكانوا بعد سماع القرآن الكريم يتذاكرون فيما بينهم ما سمعوا ، فقد سأل الأخنس بن شريق الثقفى أبا سفيان عن رأيه فيما سمع ، فقال : « أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها ٠ وقال الأخنس ، وأنا كذلك ، وذهب الأخنس من عند

أبى سفيان ، وأتى أبا جهل فقال ياأبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال ماذا سمعت : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا ، فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تجاذبنا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمن ندرك مثل هذا ؟ والله لا نؤمن أبدا ، ولا نصدقه · وقد نقلنا ذلك الجزء من قول أبى جهل ·

٢٤٩ — والمقصود من ذلك الخبر أنهم كانوا ينجذبون نحو سماع القرآن الكريم ، كما يتجه الى السماع والتلاوة المؤمنون ، بيد أن الفرق بينهما ، كالفرق بين من يستمع طالبا الحق مذعنا له ، ومن يطلب غير الحق ، ولكن يجذبه اليه حلاوته وطلاوته ·

ولذلك ما كانوا يؤمنون ، وكأن الله تعالى مقلب القلوب جذبهم اليه ليعرفوا البينات ، والأدلة القائمة ليهتدوا ، فان كفروا من بعد ذلك فعن بينة وسماع ، ومعرفة بالدليل ، ثم الاعراض ·

وقد كان الاعراض شأن من كتب عليهم الضلال ، ولا معذرة لهم لأنهم اشتروا الضلالة ، ورغبوا عن الهداية ، ومع أنهم كانوا يتهافتون على سماعه فى جنح الليل البهيم ، وكلما تواعدوا ألا يفعلوا نكثوا فى عهودهم كان النبى عليه الصلاة والسلام اذا تلا عليهم القرآن الكريم جهارا ، نهارا استهزءوا ، ولم ينصتوا خشية أن يكثر أتباع النبى عليه الصلاة والسلام ، وكانت دعوته شجا فى عيونهم ، وغصة فى حلوقهم ·

قال ابن اسحاق كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا تلا عليهم القرآن الكريم ودعاهم اليه ، قالوا يهزءون ، قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون ·

فحكى الله تعالى عنهم قولهم : « **واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ؛ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقرا ، واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ، نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك ، واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا إإنا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة** » ·

وهذه الآيات الكريمة مع ما ذكر من حرص عتاة الكفار على سماع القرآن الكريم يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن القرآن الكريم كان يجذبهم الى الاستماع اليه ، لما فيه من بلاغة تجذب أهل البيان لاستماعه وتعرف منزلته ، وبهذا يدركون الفرق بين كلامهم وكلامه ، ويذكرون الفرق بين البيان البشرى ، وكلام رب العالمين حجة الله تعالى البالغة الى يوم الدين ، واذا كانت الآيات الحسية تبهرهم وتقرع أسماعهم ، فيراها أكثرهم بينة ، فكذلك تلك الآية المعنوية تجذب قلوبهم وتسترعى أسماعهم ، فيعلم بها الذين لم يدخل الايمان قلوبهم ، وبذلك تقوم الحجة ، وتقوم البينة ، ولا حجة لهم فى الجهل ، ولا فى الاعتذار ٠

ثانيها : أنهم مع عدم المطالبة بأن يأتوا بمثله قد أحسوا بالعجز عن أن يأتوا بمثله ، كما رأوا فيه من بيان لا يصلون اليها ، وروعة بلاغة لم يستمعوا اليها ، حتى يقول قائلهم ، وقد استمر على كفره وضلاله : « انه يعلو ولا يعلا عليه ، ما يقول هذا بشر ، فهم أذعنوا لبلاغته ، ولم يذعنوا لدعوته ، فاستحبوا الكفر على الايمان ، مع قيام الدلائل ٠

ثالثها : ان انكارهم سبق الرغبة فى طلب الحقيقة ، ومن كان كذلك لا يهديه دليل ، ولا تقنعه حجة ، لأنه حينئذ لا يطلب حقا ، فلا يحاول أن يتعرف الطريق الذى يتأدى به الى الايمان ، لأن من سلك طريقا معوجا غير موصل الى المطلوب للحق ، لا يصل اليه ، وكلما أمعن فيه بعد عن الهداية وكلما أوغل ازداد نكرا ، ومهما يناده رائد الحق لا يستمع اليه ، لأنه بعد عنه ، وان يسمع لا يكون جواب من قلبه ٠

ومن سلك الطريق المستقيم وصل الى الحق ، لأن الأمارات والظواهر هادية قائمة ، والطريق المستقيم هو الاخلاص فى طلب الحق غير مربد قلبه بهوى أو شهوة ، أو أثرة ماحقة للخير مغلقة على النفس أبوابه ٠

الايذاء والفتنة

٢٥٠ ــ منذ جاءت الدعوة المحمدية ، وقد حاول أهل العصبية الجاهلية الذين ينفون على البيت الهاشمى مكانته ، والذين من دأبهم أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله ، والذين ألفوا رجس الجاهلية من عبادات ، وتحريم الطيبات من الرزق ، وقد حاول كل أولئك مجتمعين ومنفردين الوقوف فى وجهها ، وهى تنمو وتزيد ، تسعى قدما . ولا تتأخر ٠ واذا كان السير بطيئا ،

فهو متواصل من غير وناء ولا قصور ، وكلما انبلج نوره واتسعت دائرته ، ظنوا أنها دعوة قابلة للانطفاء ، فحاولوا اطفاءها ، بالحيلة والعرض الذى يشبه الرشوة ، فما أجدى ذلك فتيلا ، وحاولوا الاعجاز بالجدل فارتدوا على أدبارهم خاسئين وقامت الحجة عليهم ، حاولوا أن يهوشوا على القرآن الكريم وهو يتلى ، وتعاهدوا أن يلغوا فى القرآن الكريم والنبى صلى الله عليه وسلم يتلو ٠

حاولوا كل هذا ، ولم يجد شىء منه ؛ والاسلام سائر فى طريقه ، وان كانت العقبات ، فهى لا تعوق السير ، وان أبطأته ؛ ولم يجدوا سبيلا الا الى أمرين :

أحدهما : الايذاء المستمر لمن لا حول له ولا قوة ، ولمن آثر السلام والعافية ، وهذب قلبه الايمان فاعتقد أن الايمان يوجب عليه الصبر على البلاء ، وألا يقاوم السيئة بمثلها ولو قدر عليها ، وعلى رأس هذا الفريق صاحب الرسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه صديقه أبو بكر ، ومع هؤلاء العبيد والفقراء الذين لا يملكون سطوة ولا عشيرة لهم ٠

ثانيهما : الاستعانة بمن يحسبون أن له سلطانا أدبيا على محمد عليه الصلاة والسلام وهو أبو طالب ، لأنه عمه الذى كفله صغيرا وهو رأس بنى هاشم وهو الذى يحميه كبيرا ٠

فلما لم يجدوا واحدا من الأمرين زادوا فى الايذاء وجعلوه جماعيا ، ولم يجعلوه آحاديا فقط ، ووجدوا بنى هاشم مؤمنهم وكافرهم مع محمد عليه الصلاة والسلام يحميه بأنفة العشيرة ، الا من كتب الله تعالى عليه أن يكون لهبا فى جهنم وهو أبو لهب ، فقد كفر بالله ، وكفر بالقرابة ، وكفر بالحمية ، حمية العشيرة والنصرة ، وأسلم ابن أخيه ، فضل ضلالا بعيدا ٠

ايذاء الضعفاء :

٢٥١ — قال ابن اسحاق : انهم عدوا على من أسلم ، واتبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب ، وبرمضاء مكة المكرمة اذا اشتد الحر ، ممن استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يثبت ويعصمه الله تعالى منهم ٠

وقد كان المؤمنون الصادقون يعينون العبيد من المؤمنين الذين سارعوا الى الايمان فى أول الدعـوة ، ويعينون الفقراء ليصابروا الذين يؤذونهم ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعـل كل ما كان يملكه من مـال هـو وزوجه خديجة لهؤلاء الضعفاء ، وابتدأ محمد عليه الصلاة والسلام يخرج من المال والنشب ، لكيلا يحاجزه عن الدعوة حاجز ، وليكون ما عنده عون لأهـل الايمان المستضعفين منهم ٠

اذن لقى العبيد أشد العنت عندما اعتنقوا دين الحرية ٠

بلال رضى الله عنه واخوانه :

٢٥٢ ـــ كان من أول الناس اسلاما بلال بن رباح ، كان رقيقا عنـد أمية بن خلف ، كان يخرجه عند الظهيرة فى الحر الشديد فيطرحه على ظهـره فى بطحاء مكة المكرمة ٠ ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ؛ ثم يقول له لا تزال على ذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعـزى ، فيحتمل البلاء على أن يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يعود الى الشرك ، فيقول ملهوفا : أحد ـ أحد ـ ؛ وتأويلها الله أحد ٠ يلفظها فى عجلة لشـدة البلاء ، وللمسارعة باثبات الصبر ، وعدم الاستجابة لما يطلبونه ، ولو لاقى أشق البـلاء ٠

ولكن ذا المروءة المؤمن مر عليه وهو فى هذا العذاب ، فكان له غـوثا ـ وهو أبو بكر الصديق ، عتيق النار ومعتق أهل الايمان ٠ فقـال لأمية : ألا تتقى الله تعالى فى هذا المسكين ، حتى متى ؟

قال أمية : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى ٠

قال الرجل الكريم أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منـه وأقوى على دينك أعطيكه به ٠

قال أمية : قد قبلت ، وحسب أن صفقته رابحة ، لأنه أخذ عبدا قويا هو أملك لعنـانه ٠

وأخذ أبو بكر بلالا فرحا بما أعطاه الله تعـالى وأعتقه ، وكان مؤذن الاسلام من بعد ٠

وقد أعتق أبو بكر مع بلال ستة آخرين ٠ فكانت العدة سبعة ٠

وهؤلاء الذين من الله تعالى عليهم بالحرية فداء لهم من العذاب على يد أبى بكر صديق هذه الأمة ٠

عامر بن فهيرة الذى كان فى الجهاد فى غزوة بدر وغزوة أحد ، وأم عبيس ، وزنبرة النهدية وبنتها ؛ وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا ٠ فقال أبو بكر رضى الله عنه حلى (أى تحللى من يمينك) ٠

فقالت له حل أنت ، أفسدتهما ، فأعتقهما ٠

قال : فبكم هما ؟

قالت بكذا وكذا ٠ قال أبو بكر قد أخذتهما ، وهما حرتان ، ارجعا اليها طحينها ٠

قالتا رضى الله عنهما : أونفرغ منه يا أبا بكر ، ثم نرده اليها ؟ قال الصديق : وذلك لكما ان شئتما ٠

ومر بجارية وكان عمر فى أيام شركه يعذبها لتترك الاسلام ، فيضربها حتى يمل ٠ فيتركها ملالة لا شفقة ٠ فابتاعها أبو بكر وأعتقها (١) ٠

ولما كثر عتقاؤه ومعاونته للضعفاء ٠ قال له أبو قحافة أبوه ، وكان لا يزال على الشرك يا بنى : انى أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك اذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ، ويقومون دونك ٠

قال أبو بكر رضى الله عنه : يا أبت انما أريد ما أريد لله عز وجل ٠

ويروى أنه نزلت فيه هذه الآيات : « **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله اذا تردى ، ان علينا للهدى ، وان لنا للآخرة والأولى فأنذرتكم نارا تلظى ، لا يصلاها الا الأشقى الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى** » ٠

---

(١) أخبار عتق هؤلاء بعمل الصدق أخذناه من سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ٠

آل ياسر رضى الله عنهم وغيرهم :

٢٥٣ ـــ هو بيت أسلم كله ، وآمن بالله سبحانه وتعالى وفيه ضعف من المال والجاه وناله ضعف الرق · فرأس الأسرة ياسر ، وهو أبـو عمار ، عذب ، وأمه سمية ، عذبت ؛ وذهب الفجور بأبى جهل الى أن يضربها برمح فى بطنها فماتت · فكانت أول شهيد فى الاسلام مات فداء لدينه ·

وحمل عمار أشد العذاب ، وقبله طيبا راضيا ، ولقد مر به النبى عليه الصلاة والسلام وهو يىذب ، فقال صبرا أبا اليقظان · ثم قال اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بن ياسر ·

وكان آل مخزوم يعذبونهم اذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة المكرمة ، وقد مر النبى عليه الصلاة والسلام بهم ، وهم يعذبون · فقال عليه الصلاة والسلام صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة ·

ولقد كانوا أحيانا ينالون منهم حتى يفتنوهم عن دينهم ، فينطقون بكلمة الكفر تحت ضغط العذاب ، ولقد شددوا العذاب على عمار ، وما تركوه حتى نال من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فبين له عليه الصلاة والسلام أن لا مؤاخذة على من أكـره وقلبه مطمئن بالايمان ·

ولقد ذكر سعيد بن جبير أنه سأل عبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعذرون بـه فى ترك دينهم ، قال : نعم انهم كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضرب الذى نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة · وحتى يقولوا له اللات والعزى الهان من دون الله · فيقـول نعم افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم ·

ويقول ابن كثير : « وفى مثل هذا أنزل الله تعـالى : « **من كفر بالله من بعد ايمانه ، الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا ، فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيـا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ، أولئك الذين طبع الله عـلى قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون ، لا جرم انهم فى الآخـرة**

هم الخاسرون » فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الاهانة والعذاب البليغ ، أجارنا الله تعالى من ذلك بحوله وقوته » (١) ٠

التهديد بالتشنيع :

٢٥٤ — تفننوا فى الايذاء ، فمن لم يكن له من يحميه من أهل وعشيرة يؤذون بالتعذيب ، والضرب الشديد ، ولقد بلغت النذالة بأبى جهل اللعين أن يضرب امرأة بالرمح فى موضع عفتها ، حتى ماتت ، من غير أى تحرج من أدب انسانى ، أو عروبة نبيلة ، هذا شأن من لم تكن له عشيرة تذود عنه ، أو تمنعه ٠

ومن كان له عشيرة أخذوه بالتشنيع عليه ، وكان يتولى ذلك أبو جهل سفيههم ٠ وشيخ أراذلهم ، وقد حكى ابن اسحاق فى سيرته ذلك ، فقال : « كان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال قريش اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وقال له تركت دين أبيك ، وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك ، وان كان تاجرا قال ، والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به » (٢) ٠

ولقد كان الكافرون من كبرائهم اذا أسلم واحد منهم ، لم يمنعوا أمثال أبى جهل من لومهم ٠ وان كانوا يمنعونه وأشباهه من قتلهم ، حتى لا تأخذهم معرة عصبية جاهلية ٠

لقد أسلم رجال ، فأراد بنو مخزوم قبيل أبى جهل ، أن يلوموهم على الطريقة التى أشرنا اليها من تسفيه أحلامهم ولكنهم خشوا شر قومهم فاستأذنوهم وأذنوا ، قالوا انا أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذى أحدثوا ، فانا نأمن بذلك غيرهم ٠

قالوا ذلك لهشام بن الوليد حين أسلم أخوه فى النفر الذين أشرنا اليهم ، فقال لهم : هذا لكم فعليكم به فعاتبوه ، واياكم ونفسه ، احذروا على

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٢١ ٠

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٢١ ٠

نفسه ، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن به أشرفكم رجـلا ، فقالوا فى أنفسهم اللهم اللعنة ، فوالله لو أصيب فى أيدينا لقتل أشرفنا رجلا ، فتركوه ، ونزعوا عنـه » (١) ٠

ومن كان له دين لا يعطونه ، ويمطلونه اذا أسلم ، بل لا يؤدون الدين ٠

ومن هؤلاء خباب بن الأرت ، كانوا يعذبونه ، وينزلون بـه الأذى لأنـه لم يكن ذا عشيرة تحميه ، ومع ذلك كانوا يحاربونه فى صناعته ، فلا يعطونه أجر ما صنع ٠

روى البخارى عن خباب بن الأرت قال « كنت رجلا قينا (٢) ٠ فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئت أتقاضاه ، فقـال لا والله لا أقضيك حتى تكفـر بمحمد ، فقلت لا والله لا أكفر بمحمد ، حتى تموت ثم تبعث ، قال فانى اذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد ٠ فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : « **أفرأيت الذى كفر بآياتنا ، وقال لأوتين مالا وولدا اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ، ونرثه ما يقـول ويأتينا فردا** » ٠

مصابرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

٢٥٥ ــ كان النبى عليه الصلاة والسلام يلقى فى قلوبهم ببيان أن الايمان يوجب تحمل المشاق ، وأن ثواب الآخرة ثمنه تحمل ما يقتضيه الحق فى الدنيا ، وببيان أن الله تعالى ناصر عباده المؤمنين بعد أن يبلو ايمـانهم ويظهر صبرهم ٠

روى البخارى عن خباب بن الأرت أنه قال : « أتيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو متوسد ببردة وهو فى ظل الكعبة الشريفة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت ألا تدعو الله ؟ فقعد ؛ وهو محمر وجهه ٠ فقال : قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيشـق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينـه ، وليتمـن الله هـذا الأمر ، حتى يسير الراكب من

---

(١) الكتاب المذكور ٠

(٢) القين الحداد ٠

صنعاء الى حضرموت ، ما يخاف الا الله عز وجل ٠٠٠ ولكنكم تستعجلون » ٠

شكا المؤمنون الى النبى عليه الصلاة والسلام من حر الرمضاء ، واستنصروا فطالبهم النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر ، فلا ايمان من غير صبر ، وكأنه ينبئهم بما أنبأ القرآن الكريم من بعد ، وهو أن الجنة جزاء الصبر ، وأنه لابد من الابتلاء : « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا ان نصر الله قريب** » ٠

هذا ولأن النبى صلى الله عليه وسلم لو دعا عليهم لاجتثهم الله تعالى من فوق الأرض ، وما وجدت للاسلام أحدا تحمل دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام من بعدهم ، ولذلك كانت اجابة النبى عليه الصلاة والسلام لما أخبره بأن الله يطبق عليهم الأخشبين (جبلى مكة) قال خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام : « انى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى » وقد حقق الله تعالى رجاءه ، فكان منهم من يعبد الله تعالى ، بل كان منهم من حمل السيف مجاهدا فى سبيل الله ، وكان من أصلابهم من حملوا النور ، الى مشارق الأرض ومغاربها ٠

الاذى ينزل بشخص النبى عليه الصلاة والسلام :

٢٥٦ ـــ لقد كان لأذى الضعفاء أنين ، وشكوى ، وسمع النبى عليه الصلاة والسلام أنينهم ، فكان له ألما ممضا ، وشكوا اليه فأشكاهم بالصبر وبشرهم بالجنة ، وما كان ليكون نبى الرحمة اذا لم يذق من الكأس الدهاق من الآلام التى يتجرعونها ، وما كان ليدعو الى المساواة فى السراء والضراء ، اذا لم يشاركهم فيهما ٠

كان بنو هاشم يمنعونه من أن يقتل ، ولكنهم ما كانوا ليمنعوه من أن يسفه ويستهزأ به ويؤذى بغير القتل ، بل كان يتجرأ على ذلك سفهاؤهم من أمثال أبى جهل ، بل من أمثال عمه أبى لهب الذى سلط ابنه اللعين ابن اللعين من أن يتغل فى وجه النبى عليه الصلاة والسلام فى حضرة كبير البطحاء أبى طالب الكريم ابن الكريم ٠

وانه يروى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير عن عمرو بن العاص ، قال : « بينما النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة الشريفة

اذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه ، حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلا قوله تعالى : « **أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب** » ٠

بل ان أبا جهل لعنه الله ليرمى فرث الجذور عليه ، وهو يصلى صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والنبى ساجد فتجىء فاطمة الزهراء وهى صغيرة ، فتلقيه عن ظهر أبيها وهى تلعنهم ٠

وان الفجر ليصل بأبى جهل اللعين الى أن يهم بقتل النبى عليه الصلاة والسلام غير عابىء بأن يتحرك بنو هاشم للأخذ بثأره ، وأنه لن ينجو من يد أبى طالب وسيف الله حمزة ، فيجتمعوا فى ثأره ، وان تفرقوا فى اتباعه فى دينه ، ولكنه الحقد الدفين يعمى ويصم ، فلا يفكر الأحمق فى مغبة عمله ، ولكن يفكر فقط فى شفاء غيظ نفسه الذى لا يكظمه ٠

حدث ابن اسحاق بسنده أن أبا جهل شيخ السفهاء من قريش وقف بينهم يقول :

يا معشر قريش ، ان محمدا قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا ؛ وانى أعاهد الله لأجلس له غدا بحجر ؛ فاذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أبو جهل لعنه الله أخذ حجرا ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠٠٠ فقام يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ٠ فلما سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا ممتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ٠٠٠ وقام اليه رجال من قريش فقالوا ما بك يا أبا الحكم ، قال : قمت لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الابل ، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ؛ فهم أن يأكلنى » (١) ٠

---

(١) الهامة الرأس والقصرة الرقبة ـ راجع الخبر فى البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٣ ٠

وقد روى مثل ذلك البيهقى والامام أحمد ٠ وان كان ماروى عن أحمد موجزا عن ذلك ٠

مهابة محمد عليه الصلاة والسلام :

٢٥٧ — هذا بعض ايذاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من المشركين ، دع استهزائهم اذا سار أو تكلم ، ودع رميهم له بأنه ساحر ومجنون ، ودع معاندتهم له ، وهو يدعو القبائل الى الاسلام ، فهل كان ذلك سببه أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن المهيب ، وانه كان الهزيل الذى يجترأ عليه ؟ ٠

والجواب عن ذلك أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان المهيب فى شخصه ، والقوى فى ذات نفسه ، والذى آتاه الله تعالى القوة الانسانية الكاملة ، فهو المهوب المحبوب الذى لم يرد أن يكون مرهوبا ، وان أراد الرهبة كانت ، والله تعالى يعصمه من الناس ، ولكن الحمقى والسفهاء يغرون بالكرماء ، وكان محمد عليه الصلاة والسلام كريما ، ولم يرد أن يكون مخوفا مفزعا ، بل أراد أن يكون أليفا قريبا دانيا ، ليستطيع أن يتألف الناس ولا يرهبهم ٠

وقد كان عليه الصلاة والسلام يفرض الرهبة فى قلوب المشركين ان كان لذلك موضع ، ولنذكر موضعين كانت فيهما مهابة الرسول فاصلة ، قاطعة حاسمة :

أولهما : ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه قال : « رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا وشتم اباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا منه على أمر عظيم ٠ فبينما هم فى ذلك ، اذ طلع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبل بمشى ، حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت فغمزوه ببعض القول فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتها فى وجهه ، فمر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها فقال لهم : أتسمعون معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكأنما على رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيه قبل ذلك ليرقوه ، حتى انه ليقول : انصرف يا أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول ٠

ان هذا الذى أفزعهم عزمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذتهم الدهشة ، وأرعبتهم الهيبة ، واذا كانوا بعد ذلك تكاتفوا واعتزموا أن يؤذوه فى مكانه هذا ، فان هذا لا يمنع تأثير مهابته فيهم ، وما استطاعوا لها ردا الا بعد طول مؤامرة ومجاوبة ، واصرار على مقاومة الهيبة ، ولو أرادها فى الثانية لكان أفزع لهم ، وأروع ، ولكنه كان يميل الى اللين دائما ٠

الثانى : ما كان فى قصة الاراشى ، فقد قدم رجل من اراش بابل له الى مكة المكرمة ، فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها ، فأقبل الاراشى ، حتى وقف ينادى فى قريش ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالس فى ناحية المسجد ، فقال الاراشى : « يامعشر قريش من رجل يعدينى على أبى الحكم بن هشام ، فانى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ٠

فقال من بالمجلس من قريش مستهزئين بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ترى ذلك الجالس ، مشيرين الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما يعلمون من عداوة أبى جهل للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اذهب اليه فهو يعديك عليه » ٠

أقبل الاراشى حتى وقف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فذكر له ذلك ، فقام محمد صلى الله عليه وسلم العظيم معتزما انصاف الغريب ، ولا سلطان معه الا شخصه ، وعون الله تعالى ٠

فلما رأى المجلس القرشى المشرك قالوا لرجل ممن معهم اتبعه فانظر ماذا يصنع ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى جاء الى دار أبى جهل ، فطرق الباب طرقة من اعتزم أن يملى ارادته على هذا الطاغوت الفاجر ٠

قال من هذا ؟ قال محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فاخرج ٠

خرج اليه وما فى وجهه قطرة دم ، وقد انتقع لونه ٠

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بعزمة مرهبة لمثل أبى جهل : أعط هذا الرجل حقه ٠

قال الطاغوت المتخاذل : لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، فدخل فخرج اليه بحقه ، فدفعه اليه ٠

انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أحق الله الحق ، بهيبة محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقال للاراشى الحق لشأنك ٠ أقبل الاراشى على المجلس الذى وقف يدعو ناديه لينصروه ، فقال عن النبى عليه الصلاة والسلام جزاه الله خيرا فقد أخذت الذى لى ٠

وقال الرجل الذى أرسلوه مراقبا للواقعة : « رأيت عجبا ، والله ما هو الا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه » ٠

جاء أبو جهل فقالوا له : « ويلك مالك ، فوالله ما رأينا مثل ما صنعت ، فقال ويحكم ، والله ما ان طرق على بابى ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، ثم خرجت اليه ، وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته وأنيابه لفحل قط ، فوالله لو أبيت لأكلنى » ٠

لماذا لم يرهبهم صلى الله عليه وسلم بهيبته :

٢٥٨ ـــ لقد كان المشركون يريدون بأذاهم المؤمنين ، ويختصون من لهم حلم ومروءة ، ولا عنف فيهم ، ولا يتوقعون مقاومة كأبى بكر وعثمان وجعفر بن أبى طالب ، وعلى رأس هؤلاء محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وينالون الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة يقاومون بها ٠

ولكن لم يعرف أنهم نالوا من عنده قوة بطش ، ويذيقهم الكأس أكؤسا ، فلم يعرف أنهم نالوا بالأذى حمزة بن عبد المطلب ، لأنهم يتوقعون منه المقاومة ، ولا يأمنون مغبتها ، فقد علم ذلك أبو جهل اللئيم بموضعها من رأسه ، ولم ينالوا بالأذى عمر بن الخطاب الذى شوه وجوههم ، وأرغم معاطسهم ، وطاح بهم مجتمعين ، ولم ينالوا بالأذى لذلك ، فقد كانوا يخافونه ويرهبونه ٠

وما كان محمد عليه الصلاة والسلام ، دون عمر مهابة ، بل أعلى من ذلك كثيرا ، ولا دون حمزة قوة نفس ، ولا قوة بدن ولكنهم نالوا منه ، فلماذا لم يستخدم مهابته وقوة نفسه وشخصه ، مثل ما أجازه لعمر وعمه حمزة ، اذن لارعوى مثل أبى جهل فى نذالته ، ولكنه لم يفعل ، وتحمل الأذى فى سبيل الدعوة ولم يرهب ولم يفزع ، بل رضى بالبلاء ينزل به وبأصحابه الضعفاء ٠

وان ذلك هو عمل النبوة ، انه عليه الصلاة والسلام ما جاء مسيطرا ، ولكن جاء مبلغا ، وما جاء متحكما ٠ ولكن جاء داعيا مقنعا ، فلو استخدم

هيبته وأظهر الرهبة لتبعه الناس خائفين غير مقتنعين بذات الحجة ، ولبدا النفاق فى الذين يجيبون دعوته ، وليس الدين بقائم على المنافقين غير المؤمنين ٠

ان الرسول الأمين يريد مؤمنين يدخلون فى الاسلام رغبا لا رهبا ، ولا يكون عن خوف أيا كانت صورة الخوف ٠ ان الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جاء ليحمله الذين شاهدوا وعاينوا الى الأخلاف من بعده ، لأنه دين الخليقة كلها لا دين جيل من أجيالها ، فلابد أن يحمله مؤمنون لا مجرد تابعين ٠ ولا يكون ذلك الا اذا كان الايمان القوى الذى يصبر صاحبه ويصابر فى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وينزل به البلاء فى حضرته فيحس عليه الصلاة والسلام بقوة احتمالهم ، ليطمئن من بعده بقوة التبليغ بالرسالة فى مشارق الأرض ومغاربها ٠

ان الذين يدخلون فى الاسلام بهيبة النبى عليه الصلاة والسلام سرعان ما يتركونه اذا غاب عنهم ، واعتبر ذلك بحال المؤمنين فى المدينة فانه لم يكن فيهم نفاق ، حتى صار لأهل الايمان قوة يسيطرون بها ، فكان النفاق ، والذين دخلوا فى الاسلام تابعين غير مؤمنين ايمان الصابرين المصابرين ٠

وكان من المسلمين بالاتباع بالايمان المجاهد الصابر ، وكان منهم الأعراب الذين ساروا مع القوى ، وقال فيهم الله تعالى : « **الأعراب اشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله** » وهم الذين ارتدوا بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم ، ان الله تعالى أمر رسوله بالدعوة بالحكمة ، فقال تعالى : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن** » وان ذلك يقتضى أن يكون موطأ الكنف وديعا فى دعوته متطامنا لمن يخاطبهم ، ليس فظا ولا غليظ القلب ، ولا مرهبا ولا مفزعا ٠

وان تطامن النبى عليه الصلاة والسلام كما جرأ عليه الأقوياء الذين يؤذون الحق اذا بدا وضحه المبين ، قد قرب اليه الضعفاء وبهم كانت الدعوة الأولى وقوة الحق من غير سيطرة ولا تحكم ٠

وان تطامن النبى عليه الصلاة والسلام والاعتداء عليه قرب بعض الأقوياء ولم يبعدهم ٠ ألم تر أن كثيرين كانوا يسلمون لأنهم يرون أن محمدا عليه الصلاة والسلام بماضيه الكريم ، وحاضره العظيم ما كان ليسمح لأحد أن يؤذيه الا لطيب نفسه ، فيكون الايذاء جاذبا للأنظار مسترعيا للذين يعرفون ما ينبغى أن يعامل به الأحرار ، فيدعوهم ذلك الى التفكير فى الذى

يدعو اليه من غير تمييز لهم ، ويكفى ذلك للدخول فى الاسلام مناصرا غير محارب ولا ، جامل ·

من أجل ذلك ولأن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وحيث يثبتها وينشرها ويذيعها اختار لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يتأتى للأمور بيسر وبرفق من غير عنف أو رهبة ، ولو كان بقوة النفس لا بقوة السيف ·

الهجرة الى الحبشة

٢٥٩ ــ عدد الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وتابعوه فى الصبر على الأذى يزيد ويكثر ، ولم يقتصر على الضعفاء · بل دخل فيهم أشراف من مكة المكرمة ، وبتزايد العدد يتزايد الاضطهاد ويكثر ويتنوع · فمن ايذاء بالأيدى والسياط ، والالقاء فى الرمضاء فى الحرور ، ومن أفعال لا تصدر الا عن السفهاء الأنذال · كما فعل أبو جهل مع النبى عليه الصلاة والسلام وغيره ، ومن استهزاء وسخرية ، ومن منع من العبادة · ويجدون فى ذوى الكرامات مرتعا خصيبا للنيل من كراماتهم ·

اصبح الايذاء عاما ولا مناص من التخلص منه ، وهم بمكة المكرمة وما حولها فلابد من الهجرة « **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة** » والى أى أرض يهاجرون ·

لابد من أرض تتوافر فيها الحرية ، وتكون بعيدة عن سطوة مكة ومن فيها من قريش · ولهم مكانة فى القبائل ، وتكون تحت سلطان حاكم فيه طيبة لا يؤذى ولا يمكن أحدا من الايذاء · حتى يكونوا فى بعد عن الاضطهاد واحتماله ·

وذلك فى أرض الحبشة · فهى بعيدة عن سطوة قريش · وهى لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من قبائل · وفيها حاكم طيب عرف بذلك واشتهر ، فأشار النبى عليه الصلاة والسلام بالهجرة اليه · وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه وقد رأى البلاء ينزل بهم · وهو لا يقدر على منعه عنهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » ·

كانت أول زمرة من الهجرة الى الحبشة فى السنة الخامسة من مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ولا شك أن الهجرة لها ثمرة أخرى غير دفع الأذى ، والاعتصام منه ومنع الفتنة التى أرهقوا بها عسرا ، وهذه الثمرة هى التعريف بالاسلام ، وبالمبادىء الاسلامية ، فقد وقف جعفر بن أبى طالب المتحدث باسم المهاجرين أمام النجاشى يبين الحقائق الاسلامية ، وما يدعو اليه دين الوحدانية من صلة الأرحام ، والحث على مكارم الأخلاق ، وما يمنعه من فساد الجاهلية والعصبية المغرقة · وقد نقلنا ذلك من قبل ·

وهناك ثمرة أخرى أن الهجرة الى الحبشة تعرف النصارى بالاسلام ، وما قاله فى عيسى عليه السلام · فهى تزرع الاسلام فى أرض غير أرض مكة وتباينها ، كما أن الهجرة من بعد ذلك الى المدينة كان فيها تعريف اليهود بالاسلام ودعوتهم اليه · فأسلم من أسلم وكفر وقاوم وعاند من كفر : « **من اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها** » ·

وقد هاجروا زمرا ، وكان فى أول زمرة عثمان بن عفان ومعه رقية بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والتى تزوجها ذو النورين عثمان بن عفان بعد أن تركها وأختها ابنا أبى لهب اللعين ، وكانت عدة الزمرة الأولى نحو عشرة من الرجال والنساء ، ثم توالت الهجرة بعد ذلك ·

ويقول ابن اسحاق : كان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر اليها من المسلمين سوى ابنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين » ·

وقد ناقش هذا الرقم ابن كثير ، وانتهى الى أن الشك فى كون الزائد عن الثمانين ثلاثة ، وروى عن الامام أحمد عن ابن مسعود أنه قال : « بعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نبلغ نحوا من ثمانين (١) ·

٢٦٠ ـــ وأبو بكر لم يكن من الذين هاجروا ، ولكن قدر الله تعالى شرف الهجرة فى صحبة أكرم خلق الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه كما روى ابن اسحاق والبخارى عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت « حين ضاقت عليه (أبى بكر) مكة ، وأصابه فيها الأذى ، ورأى تظاهر قريش على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة فأذن له ، فخرج رضى الله تعالى عنه مهاجرا الى الحبشة ، حتى اذا سار من مكة يوما ـ أو يومين ـ

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٦٩ ·

لقيه ابن الدغنة أخو بنى الحارث بن أبى بكر ، وهو سيد الأحابيش ، فقال الى أين يا أبا بكر ؟ قال أخرجنى قومى ، وآذونى وضيقوا على · قال ولم ؟ فوالله انك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ، ارجع فانك فى جوارى · فرجع معه ، حتى اذا دخل مكة قام معه ابن الدغنة ، فقال : يا معشر قريش انى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرض له أحد الا بخير · فكفوا عنه ·

أقام أبو بكر فى منزله ، وكان له مسجد عند باب داره فكان يصلى فيه ، وكان رقيقا ، اذا قرأ القرآن الكريم استبكى ، فيقف عليه الصبيان ، والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيبته ، فيمشى رجال قريش الى ابن الدغنة ، فقالوا يا بن الدغنة : انك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، انه رجل اذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ، وله هيبة ، ونحن نتخوف منه على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم ، فأته فمره بأن يدخل بيته فليصنع ما شاء ·

فمشى ابن الدغنة اليه ، فقال يا أبا بكر انى لم أجرك لتؤذى قومك ، وقد كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت · قال أبو بكر أوأرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله · قال فاردد على جوارى · قال : قد رددته عليك · فقام ابن الدغنة · فقال يا معشر قريش : ان ابن أبى قحافة قد رد على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم » (١) ·

رضى أبو بكر بالبقاء فى العذاب أو الايذاء ، وهو يصلى مجاهرا بصلاته أمام داره ، أو فى فنائها غير معتمد الا على الله تعالى ، ورضى بأن يكون قريبا من النبى متعرضا لما يتعرض له عليه الصلاة والسلام ، مطمئنا الى الأذى راضيا بذلك الجوار الكريم ·

متابعة الأولياء ومتابعة الأعداء :

٢٦١ ـــ سافر أولئك المهاجرون الى أرض الحبشة فرارا بدينهم من أن يفتنوا فيه ، وفرارا بأنفسهم من المهانة والاستهزاء والسخرية ، فوجدوا حاكما طيبا ، أكرم مثواهم ، وتركهم فى أرضه أحرارا مطمئنين ، ولقد رق أبو طالب لفراق ابنه جعفر ، وما نزل بالمسلمين من أبناء مكة حتى فروا ، فأرسل الى النجاشى يوصيه بهم ·

---

(١) روى هذا الخبر البخارى فى صحيحه ·

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل اليه كتابا يشير فيه الى البر بهم ويأمر بالاسلام معا ، وهذا نص كتابه عليه الصلاة والسلام كما جاء فى رواية البيهقى :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشى الأصحم ملك الحبشة :

سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح (١) الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخه .

وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى ، فانى رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمى جعفرا ، ومعه نفر من المسلمين ، فاذا جاءوك فاقرهم ، ودع التجبر ، وانى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى » .

هذا كتاب فيه متابعة لأمرين :

أولهما — أنه يدعو الى الاسلام ، فهو يتابع دعوته حيث تجد المناسبة والرجل المناسب ، وقد وجد فيه قلبا مفتوحا يدخل فيه الحق مزدلفا ، لأن العادل يستمع الى الحق ، وهو يكون ممن يستمعون الى الحق فيتبعون أحسنه ، وقد استجاب لدعائه ، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، وقد أجاب دعوة النبى عليه الصلاة والسلام الى الاسلام وكتب اليه عليه الصلاة والسلام للسلام يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم الى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من النجاشى الأصحم بن أبجر سلام عليك يا نبى الله من الله ، ورحمة الله وبركاته ، لا اله الا هو الذى هدانى الى الاسلام فقد بلغنى كتابك يا رسول الله ، فيما ذكرت فيه من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ان عيسى (عليه السلام) ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين وأرسلت اليك بأريحا بن الأصحم

---

(١) كان خلقه بنفخة من روح القدس جبريل ، وولد بكلمته .

ابن أبجر ، فانى لا أملك الا نفسى ، وان شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فانى أشهد أن ما تقول حق » ٠

ونرى من هذا أنه أرسل ابنه فى وفد من الحبشة للالتقاء بالنبى عليه الصلاة والسلام ، وبيان الخضوع لطاعة الله ورسوله ٠

الأمر الثانى — هو متابعته العطف على الذين هاجروا ، فقد دعاه عليه الصلاة والسلام الى الاحسان اليهم فى اقامتهم وألا يرهقهم بتجبر ذوى السلطان ٠

وانه لفرط محبته عليه الصلاة والسلام للذين هاجروا ، ولاحساسه بوجوب الوفاء ، وشكر من يستحق الثناء ، والمقابلة الحسنة بمثلها على الأقل فان النبى عليه الصلاة والسلام عندما جاء الوفد الذى بعثه ، كان عليه الصلاة والسلام يقوم بخدمته بنفسه ، فقد روى البيهقى بسنده عن أبى أمامة قال : « قدم وفد النجاشى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقام يخدمهم عليه الصلاة والسلام ، فقال أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله ، فقال انهم كانوا لأصحابى مكرمين ، وانى أحب أن أكافئهم » ٠

٢٦٢ — هذه متابعة لأصحابه الذين هاجروا الى النجاشى ، وهى متابعة الرحيم الحانى الذى يريد الاطمئنان على أصحابه الذين هاجروا الى تلك الأرض النائية ، ومازال بملكهم حتى صار فى صفهم ، وطابت اقامتهم ، وكرمهم تكريم الأخوة ، لا تكريم العادل فقط ٠

هذه متابعة الأولياء ، أما متابعة الأعداء ، فقد كانت على النقيض من ذلك ، لم يكتفوا بأن أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، بل أرادوا النكاية بهم ، وأن يجعلوا المهجر يلفظهم ، كما لفظوهم لأنهم رأوهم ينشرون الاسلام ويمدون ظلاله الوارفة ، فدفعتهم العصبية الجاهلية لأن يفسدوا عليهم طيب الاقامة ، والقرار ، واستقامة أمورهم ، فأرسلوا من يحاول افساد النجاشى عليهم ٠

قال ابن اسحاق : لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد استقروا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين الى النجاشى فيردهم عليهم ، ليفتنوهم فى دينهم ، ويخرجوهم من الأرض التى

اطمأنوا بها ، وآمنوا فيهـــا ، فأرسلوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص (١) ، وأرسلوا معهم هدايا يدفعونها للنجاشى ليغروه بها ٠

ولقد أزعج المهاجرين الأبرار ٠ روى عن أم سلمة أنها قالت : لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشى أمينا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثـوا الى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا النجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة ٠٠٠ فجمعوا أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص ، أمروهما بأمرهم، وقالوا لهما ادفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن تكلما النجاشى فيهم ، ثم قدما الى النجاشى هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم ٠٠٠ فخرجا حتى قدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار (٢) ٠

لقد نفذ الرسولان ما أوصـاهما به قومهم ، وقدموا لكل بطريق هديته وذكروا عند اعطاء كل واحد هديته ، أنه جاء اليهم غلمان من سفهائهم فى زعمهم ، فارقـوا دين قومهم ، ولم يدخلـوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم ، فاذا تكلم الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فوعدهم البطارقة بما طلبوا ٠

مهدوا للقاء الملك ذلك التمهيد القائم على رشوة البطارقة ، ثم التقـوا بالنجاشى ، وقدموا هداياهم قبل أن يتكلموا ، ثم تكلموا فى غيبة المهاجرين ، فقـالوا :

« أيها الملك انه قد ضوى (٢) الى بلدك منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقـد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم ، فهم أعلى (٣) بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه ٠

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٤ ٠

(٢) ضوى معناها لجأ ٠

(٣) أى أبصرهم ٠

عندئذ تكلم البطارقة ، وحركت الهدايا لهواتهم ، فقالوا : صدقا ، أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما ، ليرداهم الى بلادهم ٠

أحس النجاشى بالحملة الباطلة ، فرد الكيد ردا حاسما وقال : لا أسلمهم اليهم ولا يكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذا فى أمرهم ، فان كانوا كما يقولون أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاورونى ٠

ذلك هو القول الحق من حاكم عادل ، ثم أرسل الى أصحاب رسول الله ليواجههم الرجلان ، جاءوا ، ودعا الأساقفة ٠

قال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم به فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى (وكان لايزال نصرانيا) ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

فرد عليه جعفر بن أبى طالب قائلا : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ٠٠٠ فعدد عليه أمور الاسلام ٠ ثم قال : فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان ٠٠٠ وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك ٠

قال النجاشى ـ متعرفا دارسا ـ : هل معك مما جاء به عن الله شىء (١) ٠

قال له جعفر نعم ٠ فقال له النجاشى هات ما عندك ٠ فقرأ عليه صدرا من كهيعص ٠

---

(١) الخبر بطوله روته أم المؤمنين أم سلمة ، وقد تصرفنا فى بعض الكلمات تصرفا لا يخرج الخبر عن ألفاظه ٠

تأثر النجاشى من وضوح الحقائق بين يديه ، وكان فيما قرأه خبر زكريا وما وهبه الله تعالى من يحيى ، ثم جاء فى حمل مريم اذ جاء الملك ، وقال لها انى رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ٠٠٠ ثم ولادة عيسى عليه السلام ٠٠ ان النجاشى كان مؤمنا يدرك الحق اذا ألقى عليه ، وكان عدلا ٠ وكان صادق النظر لايمانه وعدله ٠ فبكى من فرط تأثره ، وادراكه الحق حتى اخضلت لحيته ، وقالوا ان أساقفته وافقته ابتداء حين سمعوا ما تلى عليهم ٠

قال النجاشى : انه والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ٠

ثم قال للاثنين اللذين بعثهما القرشيون ، انطلقا ، فوالله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون ٠

٢٦٣ — هذه هى الجولة الأولى فى الكيد الذى يكيد الباطل لأهل الحق ، وقد كانت النتيجة احقاق الحق ، ولكن عمرو بن العاص لا يقف عند الهزيمة الأولى فى الكيد ، فهو واسع الباع فيه ، فكانت المجاوبة بينه وبين صاحبه الذى هو أنقى نفسا ٠

قال عمرو لصاحبه : والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم ٠

فقال له صاحبه : لا تفعل ، فان لهم أرحاما ، وان كانوا قد خالفونا ٠

قال عمرو الماكر : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ٠

جاء الغد ، والتقى عمرو بالنجاشى ، ومعه صاحبه عبد الله بن ربيعة ٠

قال عمرو : أيها الملك ، انهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل اليهم ، فسلهم عما يقولون فيه ٠ فأرسل اليهم وقد وقعوا فى حيرة وخوف ، فقال بعضهم ما تقولون فى عيسى بن مريم ، ولكن الذين تحملوا أذى قومهم على استعداد لأن يتحملوا غيره ، ولذا قالوا مصممين : نقول والله ما قال نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا على النجاشى قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

قال جعفر : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم يقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول ٠

عندما سمع النجاشى هذا ضرب بيده على الأرض ، فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود ٠

والبطارقة حاضرون فتنافروا حوله حين قال ما قال : فقال وان نخرتم والله ٠

ثم التفت الى المسلمين من أصحاب محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ما معناه : اذهبوا فانتم الآمنون ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم ٠

انتصر النجاشى الهمام للحق وأهله ـ ودخل فى الاسلام ـ كما تدل على ذلك مكاتبته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى نقلناها من قبل ، وقد رد على قريش هديتها ، كما رد مكيدتها فى قومها وعشيرتها ٠

ولكن الهدية فعلت فعلها فى البطارقة ، ويظهر أنهم بعد اسلامه تآمروا مع بعض رجال الحبشة ، فخرج عليه رجل منهم فكان المسلمون فى فزع ، وتقول السيدة أم المؤمنين أم سلمة : « فوالله ما علمنا حزنا أحزننا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى ، فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرفه » ٠

٢٦٤ ــ استقام الأمر للمهاجرين فى الحبشة ، ولم يذكر التاريخ وقد أخرجت أم سلمة والزبير بن العوام الذى كان من المهاجرين ، وقد عاد الزبير يحمل البشرى بانتصار النجاشى على خصمه ، ففرح المهاجرون فرحة ما فرحوا مثلها ٠

أكانوا يتولون عملا فيها أم كانوا فى ضيافة النجاشى ، لم يذكر التاريخ شيئا من ذلك ، لأن مؤرخى السيرة النبوية الطاهرة ما كانوا يعنون الا بحال المسلمين ٠ وحال الاسلام ، وتحمل المسلمين للأذى فى سبيل عقيدتهم ، يفصلون فى ذلك ما يشاء طالب الحقيقة أن يعرفه ، ولكنهم ما كانوا يعنون بالأعمال المادية من صناعة ومكاسب ! ولكن أردنا أن نعرف ما طواه التاريخ ولم يذكره ، نتعرفه من صور الرجال الذين هاجروا ، فلابد أن نتصور من صورهم أحوالهم ٠

لقد كان من بينهم ذو النورين عثمان التقى الطاهر ، وهو مع ذلك التاجر الماهر ، وقد خرج ومعه بعض ماله غالبا ، وما كان ليترك عمله فى التجارة حتى تأكل النفقة ماله ، ولم يثبت فى التاريخ أنهم كانوا فى ضيافة النجاشى ، لأنهم كانوا يتزايدون فى الهجرة ولا ينقصون ، واذا كان لابد من فرض فى هذا ، فهو اننا نتصور أنه كان يعينهم ليتمكنوا من أعمالهم الكاسبة التى تدر عليهم ما يكفيهم بالمعروف من غير اسراف ، ولا تقتير ٠

ونتصور حينئذ أمرين نفرضهما فرضا :

أولهما ـ أن يكونوا قد قاموا بما يكسبهم القوت ، ولا يعيشون كلا على غيرهم فليس ذلك من مكارم الأخلاق فى الاسلام ·

ثانيهما ـ أن نفرض التعاون الكامل بينهم ، يعين غنيهم فقيرهم ، والقادر منهم العاجز ، واذا كانت المؤاخاة قد نظمت العلاقات بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج بما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم · فان التعاون أو المؤاخاة الطبيعية فرضت نفسها فى أرض الحبشة بحكم الاغتراب أولا ، وبحكم الحاجة اليه ثانيا ، وبحكم الخلق الاسلامى الذى يوجب التراحم والتعاطف ثالثا ، وقد كان التعاطف امتدادا لما كان فى مكة من حماية ضعفاء المسلمين من أقويائهم ، كما كان يفعل أبو بكر من شراء العبيد المسلمين واعتاقهم من غير من ولا أذى ·

خديعة :

٢٦٥ ـ خديعة أو انخداع على حسب تقدير الأسباب ·

لقد فشل الرسولان اللذان ذهبا الى النجاشى ليحرضاه بالهدية الراشية ، وبالقول المعسول ، وبالايقاع المفسد فى أن يحملاه على اخراج من حلوا فى داره ، واستظلوا بعدالته ، وخرجا مذمومين مدحورين ·

ولكن أحدهما عمرو بن العاص داهية قريش وماكرها ، أشاع الشائعات بأن قريشا آمنت بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن هذه الشائعات تجاوبت أصداؤها ، حتى وصلت الى المؤمنين فى هجرتهم بالحبشة ، فاطمأن الى صدقها بعض المهاجرين ، وطاهر القلب ينخدع ، وقد خدع ابليس من قبل أبانا آدم الطاهر ·

عاد من عاد منهم حاسبين صدق الاشاعة ، وكانت عدتهم نحو ثلاثة وثلاثين ، ولكنهم ما ان شارفوا مكة حتى وجدوا الأذى والاستهزاء والسخرية تستقبلهم ، فمنهم من دخل فى جوار بعض كبراء المشركين ، ومنهم من استقبل الأذى صابرا ، ومنهم من حبسه ذوو قرابته ·

واستطاع الماكرون بذلك أن يعيدوا بعض المهاجرين اليهم ليتحكموا فيهم ، ولكن لم تتم بغيتهم ، لأنه بقيت الكثرة فى أرض الحبشة لم تغتر بهذه الاشاعة الكاذبة التى دفعتها فرية خبيثة ماكرة ·

وقد يقول قائل : هل لك من سند يؤيد فرض الاشاعة ، وخصوصا أنه تذكر أسباب لهذه الاشاعة غير ما ذكرت وبينت ، وهى قصة المشركين مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما مجد اللات والعزى كما يزعمون وكما جاء فى صحيح البخارى ٠

ونحن نجيب عن ذلك بما تقتضيه الفروض التاريخية من تعليل لأسباب الوقائع باقترانها بالوقائع الزمنية التى قارنتها ، لقد كانت تلك الشائعة الغريبة وكانت فى أعقاب واقعة حقيقية ثبتت ، وهى طرد النجاشى الرسولين اللذين جاءا ليحملاه على الايقاع بالمؤمنين ليخرجهم ، ويستمكنوا من رقابهم ، وحرياتهم ، وليفتنوهم عن دينهم ، ويفسدوا رجال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعقل بلا ريب يربط بروابط منطقية بين الأمرين ، كما اقترنا فى الزمن ٠

ولا يمكننا أن نفرض السبب الذى يذكره مؤرخو السيرة ، وهو سجود النبى عليه الصلاة والسلام للات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ولابد أن نعرج عليه بالقول ، ولو كانت الرواية فى كتب الحديث ، ونبين استحالة قبوله ٠

جاء فى كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه فى بيان سبب الاشاعة :

« كان له سبب ، وهو ما ثبت فى الصحيح وغيره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حبس يوما مع المشركين ، وأنزل الله تعالى عليه : **(والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى)** يقرؤها عليهم ، حتى ختمها وسجد ، وسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والانس ، وكان لذلك سبب ذكره المفسرون عند قوله تعالى : **(وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)** وذكروا قصة الغرانيق ، وقد أحببنا الاضراب عن ذكرها صفحا ٠ لئلا يسمعها من لا يضعها فى مواضعها ٠ الا أن أصل القصة فى الصحيح ٠ قال البخارى : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : سجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس » ٠ انفرد به البخارى دون مسلم ، وقال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبى اسحاق سمعت الأسود عن عبد الله قال قرأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنجم بمكة ، فسجد فيها وسجد من معه غير

شيخ أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه الى جبهته ، وقال يكفينى هذا ... رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وروى مثله أحمد فى سنده » (١) .

اننـا نقرر أن تلك القصـة مكذوبة عـلى رسول الله صـلى الله تعـالى عليه وسلم ، وذلك لما يأتى :

أولا : أن مقتضاه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يقرأ قوله تعالى : « **أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى** » زاد بتأثير الشيطان تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى ، فلما أتم السورة تلاوة ووصـل الى قوله تعالى : « **أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبـكون ، وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوه** » سجد سجدة التلاوة فسجدوا معه .

وذلك باطل بلا ريب ومستحيل أن يقع لأن الشيطان لا يتسـلط عـلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفى شأن التنزيل والقرآن الكريم ، والا جاء الشك الباطل فى شأن القرآن الكريم ، وجوز الفاسقون على مقتضاه أن يكون القرآن قد اعتراه التغيير والتبديل ، والزيادة ، وتجويز أن يـكون النبى صلى الله عليه وسلم وهو مبلغ الرسالة قد اعتراه خرف ، وابتعاد عن مؤداه ، وذلك باطل فما يؤدى اليه باطل بلا ريب .

وثانيا : أن هذه الأخبار لم يسند فيهـا القول الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن كلها مرسلات ، فلا يلتفت اليها .

وثالثا : أن الذين يقولون هذا القول يسندونه الى تفسير قوله تعالى : « **وما أرسلنا من قبـلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان فى أمنيته ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم** » فزعموا أنه ألقى فى أمنيته صلى الله تعالى عليه وسلم زيادة تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى » ثم نسخت تلك الزيادة التى ألقاها الشيطان فى أمنيته وأحكم الآيات ، وذلك من شأنه أن يشكك فى أصـل القرآن الكريم ، ويبنى عليه المفترون قولهم ان فى القرآن الكريم زيادة ونقصا ، وذلك قـول قائله كافر ، لأنه ينكر ما جاء به القرآن الكريم من أنه محفوظ الى يوم القيامة تصديقا لقوله تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون** » .

---

(١) البداية والنهاية . جـ ٣ ص ٩٠ .

وقد يقــول قائل ، وكيف نفسرقوله تعالى : « **وما أرسلنا من قبلك من رسول ، ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشــيطان فى أمنيته فينســخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته** » ··· نقول ان التمنى هو ما يتعلق بما يتمناه الانسان بمقتضى غريزته ، فالأنبياء ليســوا معصــومين بمجرد غريزتهم من التمنى ، ولكن الشيطان يجىء من جهة الأمانى ، ويزين الأهواء ويحسنها ، فينسخ الله تعالى أى يزيله من قلب النبى عليه الصلاة والسلام ويحكم سبحانه وتعالى آياته الظاهرة والباطنة على النبــوة والرسالة والحق ، وبذلك تنزه قلوبهم ·

وقد يقال وماذا نصنع فى الروايات التى قد رويت عن البخارى كما ذكر ابن الأثير ، ونحن نقول انها رواية أمر يستحيل على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم الأمين ، ومثل هذه الرواية ترد مهما يكن الراوى ، أنقــول ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سحر ، وزاد فى القرآن الكريم ما يكون شركا ، والرواية مهما تكن رواية آحاد ، ولو طبقنا قاعدة الشافعى الذى يقرر فيها أن من ينكر حديث خبر الآحــاد ، أو خبر الخاصــــة لا يقال له تب أى لا يكفر ، فكان المؤدى أن نكون بين أمرين أحدهما أن ننكره ولا نكفر ، والثانى أن نقول ما يشكك فى الرسالة والقرآن الكريم فنكفر ! ان الاحتياط لديننا ، ولقرآن ربنا ، وعصمة نبينا أن ننكر نسبة تلك الأخبار لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصحتها ، ونؤمن بالقرآن الكــريم والنبى عليه الصــلاة والسلام بل أن نؤمن بالله تعالى ·

واننا ننتهى من هذا الى أن نقرر أن سبب اشاعة اسلام أهل مكة المكرمة ليس هو تلك الرواية غير الصادقة التى تفتن الناس عن دينهم ، وتشككهم فى القرآن الكريم والنبى صلى الله عليه وسلم ·

انما السبب مما استنبطناه من سياق التاريخ وارتباط وقائعه واقترانها وهو اشاعة اسلام أهل مكة المكرمة ليعود الذين فروا بدينهم ، فينالهم المشركون بأيديهم وألسنتهم ·

النبى صلى الله عليه وسلم يناضل ويصابر في مكة المكرمة

٢٦٦ ــ نعود الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لنرى جهاده بالمصابرة ولنرى ما تفعله قريش معه ، ومع بنى هاشم الذين أبت مروءتهم أن يسلموا محمدا لقريش يؤذونه أو يقتلونه أو يحبسونه ، وأبو طالب كبيرهم واقف كالطود يحمى محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويأبى ان يتركه ، وخديجة فى البيت تواسيه ، فيعود اليها مكدودا من قومه ، ويخرج من عندها مجددا عزمه ، وقد خلع وعثاء النضال ليجدد النضال ، ويتقدم ثابت القدم قوى الارادة ، وقد تزود منها ومن عمه بزاد الايناس بالتأييد ، ومن الله تعالى بالنصرة ٠

وقريش قد بالغت فى الايذاء ولكنها تحس بأن الأرض تميد من تحتها وقد ازداد عنادها وازدادت لجاجتها وعنفوانها كلما رأوا دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تجد مستجيبا ، وخصوصا أن بعض الأقوياء ذوى الشكيمة قد دخلوا فى الدين الجديد ، فقد دخل عمر فى السنة التى كانت فيها الهجرة الى الحبشة ٠

وهم فى هذه الشديدة التى وضعوا أنفسهم فيها عدوانا وظلما أرادوا أن يسكتوا محمدا عليه الصلاة والسلام عن طريق عمه الذى لا يزال على دينهم وهو شيخ البطحاء ، ولهم عليه حق الرعاية ، كما لابن أخيه عليه حق الحماية ٠

لقاؤهم بأبى طالب :

٢٦٧ ــ دبروا أمرهم ، وجمعوا ممن لهم مكانة فيهم وفدا ذهب الى أبى طالب بعد أن رأوا أنه لا يجيبهم فرادى فأرادوا أن يذهبوا اليه جماعة ، والرسول سائر فى طريقه ، لا يعوقه عائق من أذى أو استهزاء أو سفاهة حمقاهم ، فهو ماض فى الطريق الذى رسمه الله تعالى له يدعو بالتى هى أحسن ، من غير أن ينكص على عقبيه ، لذلك تركوه مليا فلم يجادلوه ، وان كان الأذى مستمرا ؟

ذهب وفدهم الى أبى طالب ، فقال قائلهم :

يا أبا طالب ، ان ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه وضلل أحلامنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه ٠

فقال لهم أبو طالب الكيس قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه ٠

ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماض على ما هو عليه ، يظهر دين الله تعالى من غير مواناة ولا تقصير ، والمسلمون يزيدون ، ولا يقلون والأمر قد خرج الى القبائل والى الحبشة ٠

ازداد غيظهم ، واشتد الأمر عليهم بسبب حقدهم ، وتضاغنوا فيما بينهم ، وتذامروا ، وتحاضوا على وجوب ايذائهم ، ورأى أهل الروية منهم أن يذهبوا الى أبى طالب مرة أخرى ، ولكن بوجه أعنف ، وبلسان أجف ٠

اجتمعوا فقال قائلهم : « يا أبا طالب ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قد استأنيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله واياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ٠

فى هذه المرة كان التهديد لأبى طالب باعلان عداوتهم ، وقد أزالوا كل المحجز فى القول ، ولم يراعوا سنا ولا شيخوخة ، ولا شرف منزلة كما ذكروا فى الأولى ، ولا شك أن تغير لهجة القول كان له أثر فى نفس أبى طالب ، وأحس بضيق فى الأمر ، وان لم يتبرم من حماية حبيبه ابن أخيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه أراد أن يعرض عليه ما أصابه من ضيق ، ويشركه فى أمر قومه الذى تفاقم ، فقال له :

يا بن أخى ان قومك قد جاءونى ، فقالوا كذا وكذا فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ٠

لم تضعف عزيمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤيد من الله تعالى والذى لا يرجو النصرة الا منه ، وان كان يرغب فى أن يشعر بأنه فى عزة من أهله ، تألم ، لا خوفا من الأذى ، ولكن لظنه تخلف عمه الحبيب عن نصرته ، وهو فى ميدان الجهاد والمناضلة اذ ظن أنه خاذله ومسلمه ، وعلم أنه ضعف عن نصرته ٠

عندئذ قال مقالة أولى العـزم من الرسـل : « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته » ثم استعبر فبكى ثم قام ، وما كان استعباره ضعفا ، ولكن لأنه يرجو من عمه وحبيبه ألا يسلمه ولا يخذله ٠

أدرك أبو طالب الكريم أنه أسرف على ابن أخيه فى ذكر ما كان من قول وفد قريش ، وأنه كرثه بذلك ٠ فلما ولى ناداه : أقبل يا بن أخى ،"فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو طالب العظيم اذهب يا بن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا » ٠

تواردت الأخبار على قريش ، وعلموا أنه لا سبيل لأن يصلوا الى محمد عليه الصلاة والسلام ليقتلوه أو يحبسوه أو يخرجوه وأبو طالب مانعه ، ولكن حيلهم لم تنته ، والرغبة ولو آثمة لا تسكت عند الصدام ، ففكروا ، وانتهوا الى أمر غريب ، وان لم يكن ظاهر الغرابة عند العرب فى جاهليتهم ٠

ذلك أن التبنى بكل ضروبه كان أمرا معروفا عند العرب ، أخذوه من جيرانهم الرومان ، فكان من الممكن تبادل الأبناء ، ويمكن تبادل الاخوة ، وأبناء الاخوة فى نظرهم ٠

ذهبوا الى أبى طالب يعرضون عليه أن يسلمهم ابن أخيه فى نظير أن يعطوه فتى من قريش يكون ابن أخيه بدل محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن المحبة سلعة تقبل المبادلة ، والانتقال من شخص ليحل محله شخص آخر ٠

قال قائلهم لأبى طالب الجليل : يا أبا طالب ، هـذا عمـارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش ، وأجمله ، فخذه ، فلك عقله ونصره (١) ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامنا ، ونقتله ، فانما هو رجل برجل ٠

لا شك أنها فكرة سخيفة يعطيهم ابن أخيه ليقتلوه ، ويأخذ ولدهم ليحميه ، ولقد سارع اليهم الرجل العظيم ليبدى سخفها ٠

قال لهم أبو طالب : والله لبئس ما تسومونني ، أتعطون ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابن أخى لتقتلوه ، هذا والله ما لا يكون أبدا ٠

---

(١) العقـل يدفع الدية أى يدفع عنك الدية ، وتدفع عنه ، وينصرك وتنصره ٠

قال المطعم بن عدى من بنى عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص • فقال أبو طالب للمطعم لائما أو عاتبا : يا مطعم : والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ، ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدا لك •

وان القوم قد اشتدوا فى ذلك ، وكما قال ابن كثير : حقب الأمر ، وحميت الحرب ، وتنابذ القوم ، ونادى بعضهم بعضا (١) •

٢٦٨ — لقد صار أبو طالب فى أمر مرير ، وشدة من قومه ، وهو لا يريد أن يتخلى عن ابن أخيه مهما تكن الأحوال ، ومهما تكن الشديدة ، فشيخ البطحاء ابن عبد المطلب يتحمل كل شىء فى سبيل مروءته وهمته ، وعزمته الهاشمية ، ولقد أدنى ذلك مؤقتا أبا لهب الى أخيه رحمة به وشفقة عليه ، فغضب على قريش لأنها أحرجت شيخها ، وجعلته من الأمر فى عسر ، وخصوصا أنه أراد أن يجعل ابن اخته أبا سلمة فى جواره ، كما أن محمدا فى حمايته ، فقالوا يا أبا طالب : أنت منعت ابن أخيك محمدا (عليه الصلاة والسلام) فمالك ولصاحبك (أى أبى سلمة) تمنعه ، فقال : انه استجار بى ، وهو ابن أختى ، وان أنا ان لم أمنع ابن أختى لا أمنع ابن أخى •

أخذت الحمية أبا لهب من طول المضايقة لأخيه فقال مهددا :

يا معشر قريش ، أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه ، حتى يبلغ ما أراد •

كان أبو لهب فى صفهم ، وخشوا أن ينحاز الى محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) كما انحاز أخ له من قبل فدخل فى الاسلام وهو حمزة بسبب ما فعله أبو جهل مع محمد عليه الصلاة والسلام •

ولذا سارعوا الى ارضائه فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ، وكان لهم وليا وناصرا •

بهذه الوقفة القوية طمع أبو طالب أن يكون معه فى نصرته لمحمد عليه الصلاة والسلام ، لتكون الأسرة كلها فى حماية أفضلها وأكرمها ، ولكن هذه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٨ •

الوثبة كانت ومضة برق لم تزل أن انطفأت ، أو كانت كقدر من الماء لا يكفى لانطفاء الحقد والغيظ ، واستمر أبو لهب فى لهب ، فقد استمر فى عداوته للنبى عليه الصلاة والسلام ، وموالاته لأعدائه يشترك فى فتنهم وايذائهم ، لا تحركه مروءة ، ولا شفقة على ابن أخيه ، ولا أخيه الشيخ ٠

المقاطعة

٢٦٩ — برمت قريش بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبرمت ببنى هاشم الذين يحمونه ، ويدافعونهم عن نفسه أن ينالوا منها ، وخصوصا أبا طالب الذى ضاعت عنده الحيل والتهديدات ، وهو مرتفع شامخ كالطود تنسال عنده التهديدات ، ولا تقف عنده ، لا يضعف ولا يهن ، ولا يصيبه خور فى عزمته ٠

ولما وصل بهم الأمر الى هذا الحد ، اعتزموا الشطط ، وأن يركبوا مركبا صعبا ، وهو قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يبالون أبا طالب ، وبنى هاشم معه ٠

علم أبو طالب بما بيتوا وما دبروا فنادى بنى عبد مناف أن يناصروه فى منع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يجبه من بنى عبد مناف الا بنو المطلب الذين كانوا مع بنى هاشم جاهلية واسلاما ، وبنو هاشم مع أبى طالب الا أبا لهب الذى أبى الا أن يكون مع قريش فى غلوائها وفيما أرادت بابن أخيه ، ولنترك الكلمة لما روى عن الزهرى :

« ان المشركين اشتدوا على المسلمين أشد ما كانوا ، حتى بلغ المسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، وجمعت قريش فى مكرها أن يقتلوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علانية ٠ فلما رأى أبو طالب جمع بنى المطلب وهاشم ، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ، وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله ٠٠ فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله ايمانا ويقينا ٠ فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش ٠ فأجمعوا الا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠٠ وكتبوا فى مكرهم صحيفة ، وعهودا ومواثيق ، ألا يقبلوا من بنى هاشم صلحا أبدا ، ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل » ٠

« لبث بنو هاشم فى شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركوا لهم طعاما يقدم مكة المكرمة ، ولا بيعا الا بادروهم اليه فاشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » .

« وكان أبو طالب اذا أخذ الناس مضاجعهم ــ أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاضطجع على فراشه ، حتى يُرى ذلك من أراد به مكرا واغتيالا له » .

« وكان أحيانا يأمر أحد بنيه أو اخوته أو بنى عمه ، فاضطجعوا على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه » .

وهكذا كان العم العظيم يحتاط للغيلة أن يصيبوا بها محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فينيمه فى منامته ، متعرضا للغيلة بدله وهو الشيخ الفانى ويغير مكان الرسول من وقت لآخر ، فيجعل مكانه بعض بنيه هو أو اخوته أو بنى عمه من بنى المطلب أو غيره ، وبدون ذلك كان يفى للعصبية ، ولكنها الشفقة والمحبة والرأفة التى ألقاها الله تعالى فى قلب أبى طالب العظيم .

اشتد البلاء على المؤمنين ، وبنى هاشم وبنى المطلب ، حتى كان الأطفال يتضاغون من شدة الجوع ، وقد كانت المقاطعة كما روى ابن اسحاق كاملة ، فقد كانت تشمل المناكحة ، لا ينكحونهم ، ولا ينكحون منهم .

الأرضة تمنع اسم الله تعالى من مواثيقهم :

٢٧٠ ــ مكث بنو هاشم وبنو المطلب وعلى رأسهم أبو طالب ، والنبى عليه الصلاة والسلام معهم فى هذه القطيعة ثلاث سنين دأبا ، وهم يرون صبيانهم يعضهم الجوع ، ولكن الكبار لا يذهب بهم الفزع ، فيستجيروا لأنفسهم أو أن يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، فألقى الله تعالى بالصبر فى قلب المؤمن والكافر معا .

ولقد أظهر الله تعالى آياته فى أمرين :

أولهما : أن الأرضة جاءت وأكلت كل كلمة فيها اسم الله تعالى أو صفاته التى عاهدوا الله تعالى عليه أن تكون القطيعة دائمة ، وكأن الله تعالى ألهم الأرضة أن تعلمهم أن اسم الله تعالى لا يصح أن يكون فى وثيقة ظلم وفسق

عن أمر ربهم ، وقد أطلع الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم الصادق المصدق على ما فعلته الأرضة بالهام من رب العالمين ، تعالت قدرته ، وعظمت منته ٠

الأمر الثانى : أنه تشققت الرحمة من قلوب هؤلاء الذين تعاهدوا على الظلم والعدوان ، كما تتفجر الأنهار من بعض الأحجار ، فانه على رأس السنين الثلاث التى مرت ببنى هاشم تلاوم رجال من بطون قريش ، من بنى عبد مناف ، وقصى ، ورجال من قريش ، قد ولدوا من نساء من بنى هاشم ، رأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم على نقض الصحيفة ، والبراءة مما جاء فيها ، وقيل انها كانت معلقة بسقف البيت ٠

بينا هذا التفكير قد سيطر على الملأ من قريش قد ذهب أبو طالب اليهم يخبرهم بأن الأرضة أخلت من صحيفتهم اسم الله ، وأبقت فيها الظلم والفسق الذى دونوه ، وتعاهدوا عليه ٠

انطلق الرجل العظيم أبو طالب ، ومعه العصبة من بنى عبد المطلب ، فقال فى جمع حافل من قريش :

قد حدثت أمور بينكم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التى تعاهدتم عليها فعله أن يكون بيننا وبينكم صلح ٠

فطمعوا أن يسلم بنو هاشم محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأتوا بالصحيفة معجبين بها ، لا يشكون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيدفع اليهم ، فوضعوها بين أيديهم ، وقال قائلهم :

قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا الى أمر يجمع قومكم ، فانما قطع بيننا وبينكم رجل واحد ، جعلتموه خطرا لهلكة قومكم ٠

فقال أبو طالب انما أتيتكم لأعطيكم أمرا لكم فيه نصف ، ان ابن أخى أخبرنى ، ولم يكذبنى أن الله برىء من هذه الصحيفة ، ومحا كل اسم هو له فيها ، وترك غدركم ، وقضيتكم ايانا ٠ وتظاهركم علينا بالظلم ، فان كان الحديث الذى قال ابن أخى كما قال ، فأفيقوا ، فوالله لا نسلمه أبدا ، حتى يموت من عندنا آخرنا ، وان كان الذى قاله باطلا رفعناه اليكم ، فقتلتموه أو استحييتم ٠

قالوا رضينا بالذى تقول ، وكأنهم فهموا أن النتيجة أن يسلمهم لوثوقهم من صحيفتهم ٠

فتحوا الصحيفة فوجدوها كما قال الصادق المصدق ، وسنبين بعض الصحيفة من البيان ، ومن دعا اليه ولم يذعنوا للحق اذ جاءتهم بيناته ، بل أصروا على الكفر والعناد ، وقالوا مقالة الكفر ، وقالوا ان هذا الا سحر من صاحبكم وارتكسوا ، وعادوا بشر مما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فزادتهم الآية كفرا ٠

فقال قائل للنفر من بنى عبد المطلب الذين كانوا فى صحبة أبى طالب : ان غيرنا أولى بالكذب والسحر ، فكيف ترون ، فانا نعلم أن الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب الى الجبت والسحر ، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم ، وهى فى أيديكم ، طمس ما كان فيها من الحنث ، وما كان من اسم الله ، أفنحن السحرة أم أنتم ؟

كانت كلمات أبى طالب ومن معه من أسرته ان لم تكن قد شفت قلوبهم لقبول الحق ، فقد شقت صفوفهم التى كانت مجمعة على الباطل ٠ فظهر النفر من بنى قصى وبنى عبد مناف ، وغيرهما وكانوا قد تلاوموا من قبل على الصحيفة وأمرها ، وفيهم من كانت الصحيفة عنده ، وجاهروا بما فى نفوسهم وقالوا حاسمين قاطعين ، غير مترددين ، ولا ناكصين ٠ قالوا فى حزم ، نحن براء مما فى هذه الصحيفة ٠

وقال أبو جهل الخبيث فى ذات نفسه ، والضال فى فكره وعقله ، وهذا أمر قضى بليل (١) ٠

٣٧١ — وان النتيجة التى تستخلص من هذه القصة أن قريشا بلغت بهم لجاجة الكفر أن يحاولوا قتل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يندفعوا فى ذلك ، لا ينظرون فيه الى عاقبة من تصدى بنى هاشم لهم ، للأخذ بثأره منهم ، ولعله كان قد ابتدأ التفكير عندهم فى تفرق دمه فى القبائل ، بحيث يضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يكون لبنى هاشم قبل بالثأر فيقبلوا وتتم الراحة لهم فى زعمهم ، اذ يستأصلون الدعوة من جذورها ، اذ يقتلون صاحبها ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يستقبل ذلك التدبير اللئيم استقبال من يستعين بالله ، ولا يستعين بغيره ٠

ولكن عمه العظيم يحمل العبء ، ويتحمل الأذى ، ويحاول وقاء محمد عليه الصلاة والسلام بكل الأسباب ، حتى انه ينيمه فى مضجعه متحملا

---

(١) أخذ ملخص القصة من كتاب سيرة ابن هشام ، جـ ١ ومن كتاب البداية والنهاية جـ ٣ ص ٨٤ ، ٨٥ وما فيها ٠

ما وراء ذلك ويستعد لفدائه بنفسه ، وهو لا يزال على دينهم · ولم يخـــرج الى الدين الجديد ، وان كان يظهر أنه فى دخيلة نفسه كان يعتقد صحته وقد بدا ذلك فى بعض شعره ·

وانه يبدو من نهاية القصة أنه كان فى قريش من تألم من الأمر الذى نزل باخوانهم ، ولعله كان فيهم ميل لتصديق محمد عليه الصلاة والســـلام ولذلك دخل الأكثرون منهم من بعد فى الاسلام ·

وان نهـاية الخبر تدل على أن بعض قـريش ، وان دخلوا فى الحلف طائعين كانوا لنتائجه كارهين ، فلم يسـتطيعوا تحمل نتائج ما عقدوا عليه حلفهم بعد أن رأوه واقعا ، وأنهم كانوا يرونه تهديدا ، ولا يرونه أمرا صالحا للنفاذ ، وقد عظم عليهم عندما رأوه نافذا ·

ولقد كان منهم من يرسل الطعام سرا ، ومن يعلم ذلك من ذوى الصـلة منهم لا يستنكره ·

يروى فى ذلك أن حكيم بن حـزام بن خويلـد ، ابن أخى خديجة ذهب ومعه غلام يحمل قمحا يريد عمته خديجة بنت خويلد وهى عند رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الشعب ، فتعلق به أبو جهل ، وقال أتذهب الى بنى هاشم ، والله لا تذهب أنت وطعامك ، حتى أفضحك بمكة ·

عندما قال أبو جهل ذلك تعرض له أبو البخترى بن هشام بن الحارث ابن أسد وقال له مالك وله فقال يحمل الطعـام الى بنى هاشم · فقـال له أبو البخترى منكرا عليه فعله : طعام كان لعمته عنده بعثت به اليه أتمنعه رجل يأتيها بطعامها ، خل سبيل الرجل ·

أبى أبو جهل أن يخلى سبيل حكيم بن حزام ، وتلاعنا ، وقال كل من صاحبه ·

لم يكن لأبى جهل أن يعامل الا بالضرب ، فأخذ أبو البخترى لحى بعير ، فضربه وشجه ، ووطئه وطئا شديدا ·

وحمـزة بن عبد المطلب يرى ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبنى هاشم فيشمتون بهم ، وهكذا كانت الأطعمة تذهب اليهم وكان من كتـاب الصحيفة من لم يرض بتنفيـذها وكان يرجـو انهاءها ، ولكن ذلك لم يمنع المشقة الشديدة التى لقيها بنو هاشم وبنو المطلب من قومهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم أشدهم مشقة واحتمالا ·

الرسول صلى الله عليه وسلم مستمر في دعوته

٢٧٢ — اذا كانت المقاطعة قد ضيقت على الرسول عليه الصلاة والسلام وأسرته أسباب العيش السهل ، وضيقت عليهم السبل فى الرزق ، فانها لم تمنعه من دعوته ، فهو قائم بالليل والاقامة فى ضيق الرزق ، ولكنه ليس برما ولا متململا ، مادام يستجيب لأمر الله تعالى « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** » فأعرض عنهم واستمر فى دعايته ، والله تعالى يمده بالعون والتأييد بنصره ، فهو فى أنس من ربه ، وإن كان فى وحشة من قومه ، ولكن شعاره دائما : « اللهم اغفر لقومى ، فانهم لا يعلمون » « وانى أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى » ٠ والجدل مستمر بينه وبين آحادهم يدعوهم الى الحق ، فيصدون بالباطل ٠

ولقد وصل التهافت بأبى جهل أن يكفر بملته كلها ، فيسب الله تعالى ، وفى ديانتهم أن الله هو خالق السموات والأرض وان كانوا يشركون الأنداد معه ، لقد قالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم « لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن الهك » ولأن أبا جهل ومن على شاكلته لا دين لهم الا العصبية الجاهلية ، ولا يؤمنون بشىء لا يتوقع منه أن يسب الله تعالى ولكنه سبه فنزل النهى عن سب الأحجار والأوثان ، وتكون الدعوة الى التوحيد المجرد ، وبطلان عبادة الأوثان ، فقال تعالى : « **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم** » ٠

ولقد كان منهم من يحسب أنه يحاكى القرآن الكريم ، فيأتى بقصص من أخبار الفرس وحروبهم يسلى الناس عن القرآن الكريم ويبعدهم ، ثم يقول للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ياقوم والله ما محمد بأحسن حديثا منى ، وما حديثه الا أساطير الأولين أكتبها ، كما اكتتبها ، فيحكى عنهم رب العالمين قولهم ، ويرده عليهم بالقرآن الكريم يتلى ، فيقول الله تعالى : « **وقالوا أساطير الأولين ، اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض انه كان غفورا رحيما ، وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا** » ٠

هم يكذبون القرآن الكريم ، ويعبثون بحقائقه ، وهم الذين يفرون من سماعه ، فاذا تهكموا عليه انتظروا ما يقال فى تهكمهم فيهجم القرآن الكريم على مسامعهم ، ولا يستطيعون منه فرارا ، ولا ينفكون عن سماعه ٠

ومنهم من كان يحسب أنه يناقض معانى القرآن الكريم بحقائق من الأديان السابقة أو بما حسبه كذلك ٠ ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجلس بينهم ، ويتلقى مجادلتهم ، ويدعوهم بالتى هى أحسن ، غير مدخر بابا من أبواب الاقناع بالحق الا سلكه ، يروى ابن اسحاق فى السيرة ما يأتى :

جلس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما بلغنا يوما مع الوليد ابن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث ، حتى جلس معهم ، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا قوله تعالى : « **انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير ، وهم لا يسمعون** » ٠

ثم قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ٠ فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدته فخصمته ، فسلوا محمدا أكل من نعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى ، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول ابن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم الحكيم : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده فى النار ٠٠ فنزل قوله تعالى : « **ان الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون** » أى عيسى وعزير ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى ٠ ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة ، وأنها بنات الله تعالى : « **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعلمون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** » ٠

وقال تعالى فى اعجاب المشركين بقول ابن الزبعرى : « **ولما ضرب ابن مريم مثلا ، اذا قومك منه يصدون ، وقالوا آلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون** » ٠

٢٧٣ — ان هذه الأخبار التى كان فى القرآن الكريم رد عليها ، تدل على أمور ثلاثة :

أولها : أن هؤلاء كانوا يجادلون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم كانوا يستعينون بما عند غيرهم من علوم ، كانوا يذهبون الى اليهود يستعينون بهم يسألونهم أن يدلوا بشىء يحتجون به على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد لقنوهم الأسئلة عن أهل الكهف وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، ونزل القرآن الكريم بما فيه اشباع النفوس طالبة الحق المريدة له ، ولكنهم لم يؤمنوا ، بل أصروا اصرارا ، وأنغضوا رءوسهم علوا واستكبارا ·

وهاهم أولاء الآن يدرسون أخبارا من الديانات ، مع أنهم أميون ، لم يكن لهم كتاب يقرءونه ولا علم دونوه ، ومع ذلك حاولوا أن يعرفوا شيئا مما عند اليهود والنصارى ، لا ليؤمنوا به ، أو ليستعينوا به لمعرفة الحق والوصول اليه ، بل ليجادلوا ويختصموا النبى عليه الصلاة والسلام ، ولذلك كشف الله تعالى حالهم · يقول تعالت كلماته مبينا أنهم لا يريدون ايمانا بل يريدون اعناتا ، فقال تعالى : « **وقالوا أآلهتنا خير أم هو ، ماضربوه لك الا جدلا ، بل هم قوم خصمون** » أى يريدون أن يلتمسوا الحجة من أى ناحية ·

ثانيها : أنهم كانوا يعتقدون فى ذات أنفسهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم على الحق ، وأن القرآن الكريم هو الذى لا يحاكى ، ولكنهم يمارون فى الحق بعد ظهوره ، ولذلك ما كانوا يسكتون ، عند افحامهم ، أو افحام بعضهم بل انهم اذا أفحموا بحثوا عما هو أشد لجاجة ، وأقوى محاجة فى الظاهر ، ولذلك لما أفحم النضر بن الحارث بين أيديهم لم يسلموا بالحق ، وقد بدت بيناته ، بل قالوا معاندين وما قام وما قعد ، حتى جاء ابن الزبعرى ، فأتى بما يظنه مفحما لمحمد عليه الصلاة والسلام ، بل كان سبيلا لمعرفة الحق ، ان أرادوا رشادا ، ولكن ما أرادوه ·

ثالثها : أنه فى أثناء الحصار والمقاطعة والقطيعة ، ما ونى محمد عليه الصلاة والسلام عن دعوته حتى يئسوا هم ، ولم ييأس هو ومن معه من المؤمنين الأشداء الأقوياء ، ولو كانوا المعذبين المضطهدين ·

وانه فى أثناء ذلك ما ونى ، وما ضعف ، ولا استكان ، ولا وهنت نفسه ·

وان ابن اسحق قد أتى بأخبار كثيرة عن النبى عليه الصلاة والسلام مع قومه ، وقد أفرغوا من الأذى كل ما فى جعبتهم من سهام مريشة ، ممزقة جارحة ، ولقد قال ابن كثير فى تاريخه بعد ذكر أخبار المجادلة :

كل هذه القصص ذكرها ابن اسحاق معترضا بها بين تعاقد قريش على بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وكتابتهم عليهم الصحيفة الظالمة ، وحصرهم اياهم فى الشعب ، وبين نقض الصحيفة ، وما كان من أمرها وهى أمور مناسبة لهذا الوقت ، ولهذا قال الشافعى رحمه الله تعالى : « من أراد المغازى فهو عيال على ابن اسحاق » ٠

اذن ، فالنبى عليه الصلاة والسلام ، مواصل دعوته ، صادع بأمر ربه لا ينى ولا يقصر ، فما نهنهت من عزمته المقاطعة ، ولا ارادة الجوع والعرى ، بل استمر ، وهو يقول فى قوة وعزم : « أنا النذير العريان » ٠

واذا كانت قريش قد بلغت أقصى الايذاء ، وانتقلت من الايذاء الآحادى الى الايذاء الجماعى ، ومن ايذاء المؤمنين وحدهم ، الى ايذائهم مع من يوالونهم من أقارب ، وأولياء ونصراء ، اذا كانت قد بلغت ذلك ، فمحمد عليه الصلاة والسلام لم يعبأ ، لأنه مؤيد من رب العالمين ٠

سعى فى نقض الصحيفة

٢٧٤ — أقصى درجات الشدة قد يفضى الى نوع من الشفقة ، فان المظلوم الصابر الداعى الى الحق الذى لا يوجد سبب لانزال الظلم الصارخ به قد يفتح ينابيع من الشفقة ، وقد تنفتح هذه الينابيع من نفس الظالم أو من باشر الظلم ٠

لقد ظلمت قريش أبناء عمومتها من نبى هاشم وبنى المطلب الذين ارتضوا أن يقاسموا بنى عمومتهم من ذرية هاشم ضراءهم ، لأنه كان ينالهم شرفهم ، فألزموا أنفسهم بمقاسمتهم الضر ، كما انتفعوا من شرف هذه العمومة ٠

واننا لا نفرض أن قريشا كلها قد أجمعت على القطيعة من مداخل شعورها ، فما انقطعت كل المودات ، وما زالت كل الصلات ، واذا كان قد دعا داع فى وقت المباغضة ، والمخالفة والحفاظ المخطىء على ما كان عليه الآباء ، فاستجابوا أو جلهم تحت تأثير الحمية الوثنية حمية الجاهلية ، فليس معنى ذلك أنهم صغت قلوبهم جميعا الى الداعى الأثيم ، بل ربما أجاب من أجاب بظاهر من القول ، أو تحت تأثير فورة قد تتبدد ، ويبقى الصافى بعدها أو فى حال نسيان لأصل المدة الموصولة ، والمحبة الرابطة ، وان اختلفت النحلة ، وتباعد الاعتقاد ، فالصلات تقرب البعيد ، وتمنع الجفوة المستمرة ٠

وان تلك القطيعة فطرت قلوبا مشفقة نحو الاسلام ، وأوضحت ظلم الباطل لأهل الحق ، وأنهم اذا أعياهم البرهان ، بالغوا فى الاعنات ، وان الناس فى البلاد العربية اذ يتسامعون بهذه القطيعة سيتعرفون سببها ، ويتذاكرون أمرها ، ويحكمون بالشطط على مرتكبيها ، فتشيع حقيقة الاسلام ويفشو بين الناس ، والنبى عليه الصلاة والسلام لا ينى عن بيان ، وتلاوة القرآن الكريم المشرق بنوره وحججه ، وشرف نسبته الىٰ الله تعالى الذى يخاطب به الخليقة وينادى به الفطرة المستقيمة ٠

لذلك لابد من نقض الصحيفة ، لأنها لم تؤد الى غرض مقصود ، ولو كان مثل غرض أبى جهل ، ولم تمنع الدعوة من أن تذيع بين العرب الأدنين منهم والبعيدين عنهم ، فكلما كانت محاولة كتم الدعوة ، كان بزوغها وظهورها ، وانبثاق معينها ، واشراق نورها ٠

٢٧٥ ـــ أشرنا الى أنه يبدو من حقائق الأمور ، ودخائل النفوس ، وبعض مظاهرها أنه لم تكن الموافقة على القطيعة الجماعية كاملة ، واذا كانت بظاهر من العمل ، فالقلوب لا تؤيدها ، ولا تعاضدها ٠

وقد قصصنا عليك أيها القارىء الكريم قصة حكيم بن حزام الذى كان يذهب بالبر الى عمته خديجة وزوجها الطاهر ومن معه من بنى هاشم واعترض أبى جهل عليه ، وتصدى أبى البخترى لأبى جهل يلومه على أن منع حكيما من أن يوصل القمح لعمته ، فتلاحيا ، وأخذ أبو البخترى لحا بعير وأعمله فى رأس أبى جهل حتى شجه ٠

ويظهر أنه كان يقع ذلك من القرشيين ، انعطافا على المظلومين ، واكراما للقرابة ، ويقول فى ذلك ابن اسحاق : « ولم يبل أحد أحسن من بلاء هشام ابن عمرو بن الحارث ٠٠٠ وكان ذا شرف فى قومه ، فكان فيما بلغنى يأتى بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب ـ ليلا قد أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضربه على جنبيه فدخل الشعب ، ثم يأتى به قد أوقره ، فيفعل مثل ذلك » ٠

وهكذا يتكرر منه العمل ، ويتكرر منه التزويد ، وهذا لا يدل على خيانة عهد ، فليس للآثمين عهد يراعى ، ولكنه كان استجابة لصلة القرابة ، واحساسا بظلم تلك الفعلة التى فعلها قومه ٠

واذا كان لهشام هذا ذلك الشرف الذى كان يعاون به المحاصرين من قومه ، فانه صاحب الفضل الأول فى ترتيب نقض الصحيفة ، من جانب

المشركين ، وقد ذكرنــا من قبل كيف أخبر النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم بأن الأرضة أكلت ما فيه اسم الله وعهده ، وأبقت لهم اثمهم البغيض ، وكيف انتهت بنقضها ، ولكن الآن نبين كيف ابتدأ الانتقاص فى جموعهم ٠

تولى هذا العمل ابتداء هشــام بن عمرو بن الحــارث ، ولنذكر ترتيبه الحكيم ، كما جاء فى البداية والنهاية ٠

مشى هشــام الى زهير بن أمية بن المغيــرة ، وكــانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : أقد رضيت أن تأكل الطعــام ، وتلبس الثيــاب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما انى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام (أى أبى جهل) ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ، ما أجابك اليه أبدا ٠

قال زهير : ويحك ياهشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها ٠

قال هشام : لقد وجدت رجلا ٠ قال من هو ؟ قال أنا ، قال هشام : ابغنا ثالثا ٠

ذهب هشام الكريم الى المطعم بن عدى ، فقــال يامطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ، أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدنهم اليها منكم سراعا ٠ قال : ويحك فماذا أصنع انما أنا رجل واحد ٠ قال قد وجدت ثانيا ، قال فمن هو ؟ قال أنا ، قال ابغنا ثالثا ٠ قال قد فعلت ٠ قال من هو ؟ قال زهير بن أبى أمية ، قال ابغنا رابعا ٠ فذهب هشام الى أبى البختــرى (صاحب اللحــا التى ضرب بهــا أبا جهل) ابن هشام ، فقال نحو ما قال للمطعم بن عدى ، فقال وهل تجد أحدا يعين على هذا ؟ قال نعم ٠ قال من هو ؟ قال زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى وأنا معك ٠ قال ابغنا خامسا ٠

ذهب هشــام الى زمعة بن الأسود ٠ فكلمه وذكر لــه قرابتهم وحقهم ٠ فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعو اليه من أحد ٠ قال نعم ٠

اجتمع أولئــك الخمسة الكرام ، واتعدوا بأعلى مكة ٠ وتعــــاقدوا على الدعوة لنقض الصــــحيفة ، ووقف زهير ، فكان أول المتــكلمين كما كان أول الداعين ٠

طاف بالبيت سبعا ثم قال وقد أقبل على الناس : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ٠

قال أبو جهل : والله لا تشق ٠

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها ، حين كتبت ٠

قال أبو البختري : صدق زمعة ما نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ٠

قال المطعم بن عدى : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ، ومما كتب فيها ٠

قال أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل تشوور فيه بغير هذا المكان ٠

٢٧٦ ــ من هذا الكلام يستفاد أن كبار الذين لا ضغن عندهم على بنى هاشم ، وان لم يذعنوا لدعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكونوا راضين بهذه القطيعة ، التى لم يكن لها جدوى الا اثارة العطف على محمد عليه الصلاة والسلام وعشيرته ودعوته وانما كانوا مورطين ٠

ولقد جرت هذه المناقشة وأبو طالب العظيم مستمع وجالس فى ناحية من المسجد ، كأن القول لا يهمه ، وكأنه المعنى بالأذى هو وعشير من أمثال اللئيم أبى جهل ، والمعنى بالمودة من كرام قومه ٠

ولكنه عندما وجد القوم قد اعتزم خيارهم الأمر ، وأرادوا قطعها ، قال لهم مقالة الحق التى أخبره بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

يا معشر قريش ان ابن أخى قد أخبرنى بأن الأرضة أكلت الظلم والقطيعة والبهتان ، ولم تدع فيها اسما لله الا أثبتته فهلم الى صحيفتكم ، فان كانت كما قال ، فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عندها ، وان كان كاذبا دفعت اليكم ابن أخى ٠

عندئذ نقضت قريش الصحيفة رغم أنف أبى جهل وأشباهه ٠

نقض الصحيفة فعــلا

٢٧٧ ـــ نقضت الصحيفة المشئومة ، ولا شك أنه فى وسط الجاهلية العمياء وجد بصر رجح داعى المروءة ، وصلة الرحم ، وأكثرهم كـانوا ذوى نسب أو صهر بنى هاشم أو قرب نسب من البطون ، أو سبب الأنكحة ، ومنهم من حركتهم المروءة والنخوة ، واحترام الأرومة ، وترجيح الشرف مع اختلاف الدين على الضعف بسببه ، وقـاوموا نذالة أبى جهل ، ودقوا أنفه ، وقـال قائلهم لو كان فيهم ذو رحم بأبى جهل ما ارتضى تلك القطيعة ٠

وقد قدر النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم لذوى المروءات مروءتهم ، وأكثرهم دخل فى الاسلام وحسن اسلامه ، وكان خيرا فى جاهليته وخيرا فى اسلامه فاجتمعت له الحسنيان ، ونال الشرفين شرف الهمة والمروءة وشرف الايمان ٠

ومنهم من لم يدخل فى الاسلام ، ولكن محمدا عليه الصلاة والســلام عرف له مروءته ، وقدرها له ، حق قدرها ٠

ومن هؤلاء أبو البخترى فهو الذى ضرب أبـا جهل بلحا البعير ووطئه وطأ شديدا عندما منع حكيم بن حزم من توصيل القمح لخديجة وزوجها خاصة وبنى هاشم عامة ٠

وأبو البخترى هذا كان أحد الخمسة الذين نادوا حول الكعبة الشريفة بوجوب خرق الصحيفة ونقض ما فيها ، وأصر على ذلك اصرارا جعل أبا جهل وأشباهه يخرجون مذمومين مدحورين ٠

عرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تلك السابقة المكرمة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لا ينسى السابقات المكرمـات ، واعتزام أن يجزيه على موقفـه الجزاء الموفور ، فالوفـاء خلق محمد عليه الصلاة والسلام ، وخلق الاسلام ٠

ولقد كان يتمنى عليه الصلاة والسلام أن يسلم ، ليكون كاخوانه الذين أسلموا ، ونالوا الحسنيين ولكنه لم يسلم ، بـل استمر على شركه ، وبلغـه عليه الصلاة والســلام أنه خرج مقـاتلا فى صفوف المشركين فى غزوة بدر الكبرى ، فأوصى المسلمين ألا يقتله أحد منهم اذا لقيه وتمكن منه ٠ فلقيه أحد المجاهدين ومعه صاحب له من المشركين ، فذكر له وصية النبى عليه الصلاة

والسلام ، فدفعته مروءته أيضا الى ألا ينفرد بالنجاة ، ويقتل صاحبه ، فقال اما نقتل معا ، واما أن ننجو معا ، فالمجاهدين قتلهما معا ، ولَيته لم يفعل ·

انى أحسب أنه خالف وصية النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو أمر ألا يتعرض له وألا يقتله وما كان ثمة من مانع من أن ينجهما ، بل انى أحسب أنه كان من المستحسن أن ينجيهما · لأن الاسلام ينهى عن القتل الا للضرورة وقد كانت مندرجة ، ونحسب أنه لو عاش لكان من المؤمنين ، فخيار قريش فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام ان آمنوا ، وان فى نفسى حسكة تشك قلبى اذا تذكرت أن أبا البخترى قتلته السيوف الاسلامية بغير ارادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

انطلاق الدعوة الاسلامية :

٢٧٨ — كانت تلك القطيعة التى أحدثتها النفس الوثنية الحانقة سببا فى ذيوع الاسلام ، وأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ·

فقد رأى العرب مقاطعة قريش لذؤابتها من بنى هاشم ، وهم يجيئون الى مكة المكرمة حاجين ومعتمرين ومتجرين يغشون الأسواق ويجدون سادة العرب ممنوعين من غشيانها ، والدعوة الى مقاطعتهم قائمة على قدم وساق ، فلابد أن يسألوا لم كان هذا ، وأن يتعرفوا دعوة الحق ، وما ينادى به محمد عليه الصلاة والسلام ، فتصل الى أسماعهم ، فمنهم من يؤمن ، ومنهم من يستمر فى ضلاله ·

ولذلك كانت هذه المقاطعة سببا فى أن تسامع العرب بالاسلام ودعوته وأن تصل الدعوة المحمدية الىّ القبائل فى أماكنهم ، فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه ، ودعا غيره بالهداية ، ومن لم يؤمن تحدث مع غيره بما كفر به ، فتكون الدعوة قد علم بها من ارتضاها ، ومن لم يرتضها ، لقد حملها جميعهم ، ورب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه ·

جاء الناس الى مكة المكرمة يستمعون الى النبى صلى الله عليه وسلم ، ممن صفت قلوبهم للايمان ، وقريش لهم بالمرصاد يحاولون أن يصدوهم عن سبيل الله تعالى ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ·

وأولئك الذين وضع الله تعالى فى قلوبهم الميل الى الاسلام يسيرون الى الحق لا يعوقهم عائق ، ولا يردهم راد ، ولنذكر لك قصة رجل حاول أن يدخل فى الاسلام بناء على ما سمع فى القبائل من أخبار محمد عليه الصلاة والسلام

ودعوته الى الوحدانية ، وما معه من كتـاب أوحى به يتلوه عليهم ، ويرونه عجبا لم يكونوا قد سمعوا مثله ، ولا قريبا منه ، وقريش تترصد الرجل وأمثاله الذين يجيئون الى الرسول يستمعون اليه ، وتحاول تنفيرهم منه ، فلا ينفرون ، بل يزيدون رغبة وامعانا فى الطلب ٠

وهذا الرجل الطفيل بن عمرو الدوسى ، وكان سيدا مطاعا شريفا فى قبيلة دوس ، وكان قد قدم مكة المكرمة ، فاجتمع به كبراء المشركين من قريش ، وحذروه من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونهروه أن يجتمع به ويستمع اليـه ٠

ومـا زالوا به حتى اقتنع بألا يستمع ، وحشا أذنه قطنا لكيلا يسمع ، ولكنه غدا الى الكعبة الشريفة ، فرأى على البغتة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحـاول لما أوصاه رجـال قريش ألا يسمع ، ولكنه بما وهب الله تعالى رسوله الأمين من طيبة طاهرة تجذب اليه القلوب الصافية أبى الا أن يسمع بعض ما يقرأ به عليه الصلاة والسلام ، ولنترك الكلمة للرجل ليخبر عن نفسـه ، فالقول قوله فى شأنها ، والاخبـار عنها ، قال رضى الله عنه : قلت فى نفسى ، واثكل أمى ، والله انى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيته ، فدخلت عليه ، فقلت يا محمد (صلى الله عليه وسلم) انّ قومك قالوا الى كذا وكذا ٠ فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سدوا أذنى بكرسف (قطن) لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله تعالى الا أن يسمعنى قولك فسمعت قولا حسنا ، فاعرض على أمرك ٠ فعرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ، وتلا على القرآن الكريم ، فلا والله ما سمعت قولا أحسن منه ، ولا أمرا أعدل ، فأسلمت وشهدت شهادةَ الحق ٠

وكان الطفيل هذا رجلا مسموع الكلمة فى قومه شريفا بينهم لم يعـرف بقول الزور ولا الباطل فدعاهم الى الاسلام ، فأسلموا طائعين ، وكانت دوس على الاسلام الى أن جاء عصر الجهاد بالسيف ، فجاهدت مع المجاهدين حاربت المشركين فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، وحاربت المرتدين من بعده ، وكان لها قدم ثابتة فى الاسلام ٠

ولم يجد منع قريش ، فالنور لا يقع فى قبضة أحد ، بل انه يسرى شعاعا مضيئا هاديا مهما تكن الظلمات المتكاثفة ، هذا الرجل الأول الذى جعلناه مثلا لشيوع أمر الرسالة المحمدية بعد القطيعة وفى أثنائها ، فكان كل ما عمل ضد

محمد عليه الصلاة والسلام ، وما قام به يكون فى نتيجته خيرا لدعوة التوحيد ، ونداء الحق المبين ·

من هذه القصة وأشباهها ، وانها لكثيرة تجد ان الاسلام أخذ يسرى الى الجزيرة العربية قاصيها ودانيها ، والنبى عليه الصلاة والسلام قطب دعوة التوحيد مقيم فى مكة المكرمة مثوى العرب أجمعين ، لا يسكت ولا ينى ، بل يستمر فى دعوة الحق ، يستمع اليه الضعفاء وبعض الأقوياء ويقوم بينهم بصلواته يجهر بها ولا يخافت ، والمشركون يستهزئون ظاهرا ، وهم مأخوذون بها باطنا ، يقدر حملتها على الشرك الذى يستمسكون به ويلاحون عنه بظاهر من عصبية ، وحقدا وحسدا ، لا ايمانا ويقينا ، ولكنهم قوم فى ذات أنفسهم مترددون ، والمترددون يثير حنقهم وغضبهم المستيقنون المؤمنون ، وكذلك كانت المعركة بين حق لائح مبين ، وباطل متردد فى ذاته ·

عام الحزن

٢٧٩ ــ هذه تسمية رسول الله صــلى الله عليه وســلم للعام الذى توفى فيه شيخ البطحاء أبو طالب بن عبد المطلب ، وأم المؤمنين خديجة رضى الله تعالى عنها ، وقد كانت أبر زوج لأكرم زوج ، فسمى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك العام عام الحزن ، لأنه فقد فيه حبيبين ، ولم ير بعد موتهما من يعوضه عنهما من ذوى قرابته وصهره ٠

فقد كانا يواســيانه ، ويشدان أزره ، ويمنعان عنه الأذى أن يؤثر فى نفسه ، ويرى فيهما المثابة الى الاطمئنان والسكن ، فأبو طالب ينصره ، ويذود عنه ، ويتحمل الأذى فى سبيل مرضــاته ، ويعمــل على أن تقر عينه دائما ، وقريش تضايق العم الشيخ فيتحمل ضيق قومه على أن يكون منه ما يجعل ابن أخيه فى ضيق ، ويتحمل الملامة هو على أن توجه ملامة لابن أخيه ، وأشــهد ويشهد كل قارىء لسيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ما وجد أب أحنى على ولده من أبى طالب على ابن أخيه ، وهو يخالفه فيما يدعو اليه ، ولا يستجيب لما ينادى به ، كما يقولون خشية ســبة قريش ، وان ذلك الأمر يعلمه الله تعالى ، وهو فى جملته يتعلق بالدعوة المحمدية الموحدة ، وتخفيف الأذى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن آمن معه ٠

ونحسب أن أبا طالب لو آمن بالدعوة المحمدية كما آمن حمزه ، وعلى، وعثمان ، وغيرهم من بنى عبد مناف ما استطاع أن يذود عن محمد صــلى الله عليه وسلم وصحبه ، كما ذاد عنهم ، ولا أن يصد قريشا كما صدهم ، اذ أنهم يدخلونه فى ضمن من يناوئون ، وحينئذ يفقد سلطانه الكامل على البطحاء اذ ينكرون ســيادته ، فلا يستطيع أن يكفكف حــدتهم ، ولا أن يكون الدرع الواقية ، كما كان الأمر فى ذلك ، وهو على دينهم ظاهرا ، أما الباطن فعلمه عند الله تعالى ٠

ولو أن لنا أن نأخذ بالقرائن أو بالأمارات على ما يستكن فى القلوب ، لقلنا انه مؤمن ، وليس بكافر ، ولكن يعــارض هــذه الظواهر أنه دعى الى الايمان بالقــول فلم يستجب ، ومهمــا يكن فهو فى الحالين عظيم حتى فى شركه ٠

هذه اشارات الى ما كان من أبى طالب فى حمايته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى انه عليه الصلاة والسلام ليقول : ان قريشا ما نالت منى فى حياة أبى طالب ما نالته من بعده ٠

وأما خديجة أم المؤمنين ، والزوجة الحانية كالأم أو أشد ، فقد كانت السكن اذا ادلهمت الأمور ، ولقى من مناوأة قومه أشد ما يلاقى داع الى الحق ، يشتد الكفر وتشتد العداوة ، ثم يعود الى بيته مجهوداً مشنوءاً ، فيلاقى الزوج البرة ، ولسان حالها يقول له ، كما قالت أولا : « والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر ، فيطمئن فؤاده وتسكن جوارحه ، وتقر نفسه الجائشة » ٠

وان عاطفة الزوج المخلصة تلهمها بأطيب القول وأحكمه فى أشد الأوقات التى تتضافر فيها أسباب الضيق النفسى والقلق ، وهى بحق التى تسمى السكن ، وكما قال الله تعالى : « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** » ٠

هذا العام كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، كما يحقق الرواة ، وهو قبل فرض الصلوات الخمس ، كما يقول المحققون ، وهو بناء على ذلك قبل الاسراء والمعراج ، ولذلك ذكرنا عام الحزن قبلهما ، للترتيب الزمنى أولا ــ ولأن الاسراء والمعراج ، كانا لمواساة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنسه بربه ، ولأنهما فيما يظهر لنا فيهما اذهاب للوحشة التى نالت قلب الرسول عليه الصلاة والسلام الكريم بفقد حبيبين ٠ فبين الله تعالى بهذا الاسراء أن الله هو الحبيب الأعظم ، وهو الحامى وحده ولا حماية لأحد تقارب أو تدانى حمايته ٠

وان الأكثرين ممن كتبوا فى السيرة النبوية يقدسون الكلام فى الاسراء والمعراج ، لأن فيهما تكميلا لبيان الفرائض الاسلامية التى تتعلق بالتوحيد وهى الصلاة ٠

ويقول فى ذلك ابن كثير فى تاريخه الكبير : « قال البيهقى ، وزعم الواقدى أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين ، عام خرجوا من الشعب ، وان خديجة توفيت قبل أبى طالب بخمس وثلاثين ليلة : وروى عن الزهرى أنه قال : توفيت خديجة بمكة المكرمة قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة وقيل قبل أن تفرض الصلاة ٠٠٠ قلت مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، وكان الأنسب أن نذكر وفاة أبى طالب وخديجة قبل الاسراء كما ذكر البيهقى وغير واحد ٠

أبو طالب ، وايمــانه

٢٨٠ — مما لا شك فيه ، ولا يمارى فيه مؤمن أن أبا طالب كان لــه موقف فى الدعوة الاسلامية ، وهو موقف من يحمى الحــق ويدافع عنــه ، ويتحمل الضيق فى سبيله ، وقد رضى أن يعيش ممنوعا ، هو وبنــو هاشم وبنو المطلب ، مضيقا عليهم فى الرزق ، وكل أسباب الحيــاة ، وذلك عندما قاطعه قومه هو وبنو هاشم ، ومن انضم اليهم من بنى عبد منــاف ، واستوى فى ذلك مؤمنهم وكافرهم ، وعلى رأسهم كبيرهم أبو طالب ، وقد كان المحرك لهم ٠

وكما كان منه هذا الموقف المشرف الرافع للحق لم يدخل فى دين الله ، أو على الأقل لم يدخل فى دين الله ظاهرا ، واستمر على ذلك ، لا يدخــل فيمــا يدعو اليه محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يمتنع عن الدفاع ٠

والقارىء لسيرته يعتقــد أن ذلك لمجــرد العصبية الجاهلية ، ولفــرط محبته لمحمد صــلى الله تعــالى عليه وســلم ، وأن المحبــة كانت هى الدافع لا للعصبية وحدها ٠

فما كان ليرضى أن يغضب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أن يكون منه ما لا تقر به عين حبيبه وابن أخيــه محمد صــلى الله تعــالى عليه وســلم ٠

وهنا يرد سؤال وهو ، أمات أبو طالب بعــد هذا البــلاء فى حمــاية الدعوة الاسلامية على الشرك ، ولم يخالط الايمان بشاشة قلبه ؟ ٠

يقول اخواننا الشيعة انه مات مؤمنا ، وأن الله تعالى أجرى على لسانه كلمة الحق ، لا اله الا الله محمد رسول الله ٠٠ ولهم فى ذلك روايات أســندت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويقول جماعة أهــل الســنة ، ومعهم الكثرة الكاثرة من علماء الفقــه والحديث انه مات على الشرك ، وأنه من أهل النار ، وأن الله تعالى يخفف عنه عذاب جهنم ، فيكون فى ضحضاح من النار ٠

ويردون كلام الأولين بأنه من فرط التشــيع لعــلى ، فقــد جرهم هــذا التشيع لعلى الى أن يحكموا بايمان أبيه أبى طالب ، ثم يذكرون ضــعفا فى اسناد الأخبار التى روت اسلامه ، ونطقــه بالشهادتين ، ويذكرون أن الأخبار

الصحاح ذكرت أنه ما نطق بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويذكرون أنه فى الخبر الذى صح عندهم عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر أنه يكون فى ضحضاح من النار ، وأن ذلك استجابة لدعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالتخفيف عنه · لما كان له من مناصرة له عليه الصلاة والسلام ·

وانه من الحق علينا أن نذكر أمره عندما حضرته الوفاة ·

٢٨١ — ونقول ان كتب الصحاح من السنة كما تذكر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى خوف من نتيجة مرضه ، كان مشركو قريش فى فزع من موته ، لأنه كما كان حاميا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان كهفا لقريش يشكون أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، ليرجو أن يخفف عنهم ، ولنترك كلمة للمؤرخ المحدث الحافظ بن كثير فى كتابه البداية والنهاية (١) ·

« قال ابن اسحاق : ولما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشا ثقله قالت قريش بعضها لبعض : ان حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد فى القبائل فانطلقوا بنا الى أبى طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه ، فانا والله لا نأمن أن يبتزونا أمرنا · قال ابن اسحاق ، وحدثنا العباس عن عبد الله ابن معبد ، عن بعض أهله عن ابن عباس قال : لما مشوا الى أبى طالب وكلموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وعمرو بن هشام (أبو جهل) وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، فى رجال من أشرافهم فقالوا :

يا أبا طالب ، انك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه ، فخذ لنا ، وخذ له منا ، ليكف عنا ، ولنكف عنه ، وليدعنا وديننا ، ولندعه ودينه ·

فبعث اليه أبو طالب فجاءه ، فقال يا بن أخى ، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا اليك ، ليعطوك وليأخذوا · فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا عم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم · فقال عمرو بن هشام (أبو جهل) : نعم وأبيك وعشر كلمات · ثم

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٢٧ ـ بتصرف قليل فيه تقديم وتأخير مناسب، ليتسق المنقول ·

قال : تقولون لا اله الا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه • فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا يا محمد ، تريد أن تجعل الآلهة الها واحدا • ان أمرك لعجب ، ثم قال بعضهم لبعض ، انه والله ما هـذا الرجـل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا •

فقال أبو طالب : والله يابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا ، فطمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، فجعـل يقول له : « أى عم ، فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » فلما رأى حرص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال يا بن أخى ، والله لولا مخافة السبة عليك ، وعـلى بنى أبيـك من بعدى وأن تظن قريش أنى قلتها جزعا من الموت لقلتها ، لا أقولها الا لأسرك بها ، فلما تقارب من أبى طالب الموت • نظـر العباس اليه يحـرك شفتيه ، فأصغى اليه بأذنه •••

قال العباس : يابن أخى ، لقد قـال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لم أسمع » (١) •

هذا الخبر ، يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن قريشا ترى فى بقاء أبى طالب ضمانا لأمنهم ، واتصـالهم بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم للتأثير فيه بعمه شيخ مكة المكرمة •

ثانيها : عظم محبة أبى طالب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنـه ينطق بها محبة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

ثالثها : أن الرواية تدل على أنه يصدق دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك من ناحيتين :

أولاهما : أنه قال : « ما رأيتك سألتهم شططا » أى أنه سألهم معقولا ، وهو : لا اله الا الله •

والثانية : أنها تدل على أن أبا طالب نطق بكلمة الايمان ، كما قـال العباس ، وقد رد الذين أنكروا ايمان أبى طالب :

---

(١) جـ ٣ ص ١٢٣ •

أولا : بأن السند فيه تجهيل ، لأنه قال عن بعض أهله ، فلم يعرف من الراوى ، وما حاله ·

وثانيا : بأن الامام أحمد روى هذا السياق ، ولم يذكر كلمة العباس ، وكذلك الترمذى والنسائى وابن جرير ·

وروى البخارى فى سياق هذا الخبر أن عمرو بن هشام (أبا جهل) وعبد الله بن أمية ، عندما سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عمه أن يقول لا اله الا الله ، قالا له : يا أبا طالب أترغب عن ملة : عبد المطلب ، فلم يزالا يكلمانه ، حتى قال آخر ما تكلم به : « على ملة عبد المطلب » ·

وهكذا غيرها من روايات الصحاح تدل على أنه لم يقبلها ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ·

٢٨٢ ـــ وان الذى ننتهى اليه أن هناك أمورا ثلاثة ، تحققت منها اثنتان ، والثالثة موضع نظر :

الأولى : أن أبا طالب حامى على الاسلام ، بالدفاع عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالدفاع عن المسلمين ، وما قاله من المدح لدعوة النبى صلى الله عليه وسلم والثناء عليها ، وما أظهره له ولأصحابه من المودة والمحبة والشفقة فى أشعاره ، وما تضمنه كلامه من العيب والتنقيص لمن خالف وكذبه بتلك العبارات الفصيحة البليغة الهاشمية المطلبية التى لا تدانى ولا تسامى ، ولا يمكن عربيا مقاربتها ولا معارضتها ، وهو فى ذلك كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد (١) ·

الثانية ـ ثبت أنه عندما حضرته الوفاة كان يزكى مطالب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ما عرف عنه بعد الدعوة المحمدية أن زكى الأوثان قط ، ولا فضل تقديسهم عن دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه تحمل الأذى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ويضاف الى ذلك هذه المحبة الظاهرة ، والشفقة الظاهرة التى كانت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

الثالثة ـ النطق بكلمة « لا اله الا الله محمد رسول الله » فقد جاءت رواية بأنه نطق بها ، وقالها ، وهذه رويت عن العباس ، وتطاول بعضهم على مقامه ، فقال انه قالها قبل أن يسلم ، وكأن القائل يرمى العباس بالكذب ، قبل الاسلام ، ومعاذ الله أن يكذب العباس بن عبد المطلب ، ولو قبل اسلامه ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٢٦ ·

لأنه من ذؤابة قريش وأشرافهم ، والعربى لا يكذب ، وانظر الى ما رواه البخارى عن محادثة هرقل ملك الروم مع أبى سفيان ، فقد صدقه القول عن النبى عليه الصلاة والسلام وبينهما عداوة قال : « لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت » فهل يعد العباس أقل من أبي سفيان شرفا وهمة ؟ كلا انه القرشى الهاشمى ، وعم النبى عليه الصلاة والسلام قبل الاسلام وبعده ٠

٢٨٣ — واننا ننتهى من هذا العرض الذى تحرينا فيه صدق التلخيص أن أبا طالب لم يكن مكذبا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مقاوما معاندا ، فهل كان من المسلمين ؟

ويقول ابن كثير فى هذا : « وهو فى هذا كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد ، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه ، وفرق بين علم القلب وتصديقه » (١) ٠

وكأنه بهذا يشبهه بعلم اليهود بالنبى صلى الله عليه وسلم اذ كانوا كما قال الله تبارك وتعالى عنهم : « **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم لم يذعنوا لما يقتضى علمهم ، فهم يعلمون ولا يذعنون** » ٠

وأنى أسمح لنفسى أن أخالف الحافظ بن كثير فى قوله هذا ، أو انطباقه على أبى طالب ، وأحسبه هو قد وجد فارقا بين معرفته لله تعالى ولدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام واليهود ، وأقول ان علم أبى طالب قد صحبه ما يدل على التصديق والاذعان ، فهو علم مقترن باليقين والاذعان ، كما دلت عباراته ، وكما دافع عن الاسلام ، فاذا كان ثمة نقص بالنسبة لأبى طالب ٠ فهو أنه لم ينطق بموجب التصديق والاذعان ، وانى لذلك أقول انه لا يمكن أن يكون مشركا قط ٠

أولا : لأنه استنكر أقوال قريش وأيد دعوة التوحيد ٠

وثانيا : لأنه دافع عن التوحيد وأهله ، وتلقى الأذى كما تلقى المؤمنون الصادقون ٠

وثالثا : لأنه صرح بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد ٠

وان وجد من يتردد فى ادخاله فى زمرة المسلمين ، ولو كانوا ضعافا ، فاننا لا نتردد فى اخراجه من زمرة المشركين ، واذا كان قد نسب اليه ، أنه قال وهو فى سكرات الموت : على ملة عبد المطلب استجابة لأحد الأشياخ من

---

(١) الكتاب المذكور ٠

قريش ، فانا لا نحسب أن هـذه الكلمة تعارض كل ما كان منـه من دفـاع عن الاسلام ، وتصريحات كثيرة له بأن دعوة محمـد عليه الصلاة والسـلام صادقة راشدة ، قالها وهو صحيح معافى ۰ ونختم كلامنا فى هذا بما قـاله الحافظ بن كثير فى أبى طالب فقد قال رضى الله عنه :

« أبو طالب كان يصد الناس عن أذية رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعن أصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال ، ونفس ومال ، ولكن مع هذا لم يقـدر الله تعالى له الايمـان ، لما له تعالى فى ذلك من الحـكمة العظيمة ، والحجة القاطعة البالغة الدافعة التى يجب الايمان بها والتسـليم لهـا ، ولولا ما نهـانا الله تعالى عنه من الاستغفار للمشركين ، لاسـتغفرنا لأبى طالب وترحمنا عليه » (١) .

ونحن نقول فيما استنبطنا ، انه ليس بمشرك قط ، لأن المشرك من يعبـد الأصنام ، ويشركها مع الله تعالى ، وأفعاله وأقواله ، ومواقفه تدل على أنه يرى عبادة الأصنام ويراها أمرا باطلا ، ولذلك أميل الى أن أستغفر له ، ان كنت من أهل هذا المقام ، وأرى أنه ليس بكافر أصلا ، والله سبحانه وتعالى هو العليم بذات الصدور ، وما تخفى الأنفس ۰

خديجة رضى الله عنها

٢٨٤ ـــ كانت خديجة هى الفقيد الثانية التى أدخل موتها الحزن فى قلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قطعة من نفسها ، وهى التى أذهبت عنه الرعب يوم جاءها يرجف فؤاده من أول لقاء بالوحى الالهى ، وهى التى كانت تأسو جراح قلبه ، كلما لقى من قومه صدودا وأذى ، وهى التى شاركته فى حمل ضرائه ، وكانت لها المنزلة الأولى بين نسائه ۰

ولمكانتها فى نفسـه لم يتزوج فى حيـاتها غيرها قط معها ، ولكن تزوج من بعدها ، وعدد الأزواج ، وكان الحل لمقاصد ، ليس منها الشهوة ، بل ليؤلف بينه وبين قبائل العرب وليولى أصحابه المحبة ، ويدنيهم منه وليؤوى أزواج من يموتون من أصحابه ۰ أو يقتلون ، ويتركون أزواجهم من غير عائل يعولهم ليتحقق بالعمل قوله عليه الصلاة والسلام : « من ترك مالا فلورثته ، ومـن ترك ضياعا ، فالى ، وعلى » ۰

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٢٦ ــ الكتاب المذكور ص ١٢٧ ۰

وانها لعظم منزلتها من النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى الاسلام ، بشرت ببيت فى الجنة من قصب :

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : « أتى جبريل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت باناء ، فيه ادام ـ أو طعام أو شراب ـ فاذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ، ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » والقصب المراد به اللؤلؤ ٠

وقد قال السهيلى « انما بشرها ببيت فى الجنة من قصب يعنى قصب اللؤلؤ ، لأنها حازت قصب السبق الى الايمان ، ولا صخب فيه ولا نصب ، لأنها لم ترفع صوتها على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم تتعبه فى الدهر ، فلم تصخب عليه يوما ، ولا آذته أبدا » ٠

ولقد كان يذكرها دائما بالخير ، يحب من كانت تحبه ، ويواد من كانت توده ، حتى كان ذكرها الدائم يثير غيرة بعض نسائه ، حتى لقد قالت أم المؤمنين عائشة : « ما غرت من امرأة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما غرت من خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره الله تعالى أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، وان كان ليذبح الشاة فيهدى فى خلائلها منها ما يسعهن (١) ٠

وكان مع ذكرها يكرم ذكراها ، ومن يذكره بها ، ولقد استأذنت عليه هالة بنت خويلد أختها ، فعرف استئذان خديجة ، فارتاح ، فقال : « اللهم هالة » ٠

وروى الامام أحمد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : « كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء فغرت يوما ، فقلت : « ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين ، قد أبدلك الله خيرا منها ، قال ماأبدلنى خيرا منها ، وقد آمنت بى اذ كفر بى الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وآستنى بمالها ، اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها اذ حرمنى أولاد النساء » ٠

وواضح أن ذلك قبل أن يهب الله تعالى له ابراهيم من مارية القبطية ٠

واننا نرى من هذا الكلام كله مكانة أم المؤمنين خديجة فى نفس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكيف كانت المواسى ، اذا ادلهمت الأمور ،

---

(١) البخارى ـ البداية والنهاية ص ١٨ جـ ٣ ٠

واشــتد البــلاء ، وكيف كانت المؤنس اذا استوحش من الناس ، وكيف كانت الهدأة والسكن اذا ارتاع من هول ما يفعل الناس ، فكان حقا عليه الصــلاة والسلام أن يسمى عام وفاتها ووفاة عمه الكريم عام الحزن ، وقد فقــد فيه الحبيبين ، الحامى المكافح ، والمؤنس المواسى ٠

وقد مات أبو طالب قبل خديجة على أصح الروايات ، وقيل كانت وفاته قبلها بثلاث ليال ، ويذكر بعض الرواة أن وفاتها كانت قبل وفاته بنحو من خمس وثلاثين ليلة ، وان الراجح أن وفاته كانت قبل وفاتها ، ومهما يكن الأمر فى المقدم والمؤخر ، فان وفاتهما أورثت حزنا شديدا للنبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ٠

ما كان بعد موت ابى طالب

٢٨٥ ــ قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « ما نالت منى قريش شيئا أكرهه ، حتى مات أبو طالب » ولقد لزم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الحبيبين ، الحامى المكافح ، والمؤنس المواسى ٠

ثم لما خرج وباشر الدعوة وبلغ رسالة ربه ، كلبت عليه قريش ، حتى كانوا يؤذونه فى بيته ، فكان جيرانه جيران سوء ، ومنهم أبو جهل ، والحكم ابن أبى العاص بن أمية ، وعقبة بن معيط وعدى بن الحمراء ، وابن الأصداء الهزلى ، وكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى ٠

وقد روى مسلم عن ابن مسعود قال ٠ « بينما رسول الله صلى الله عليه وســلم يصــلى عند البيت ، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل ٠ أيكم يقوم الى سلا (١) جــزور بنى فلان ، فيــأخذ فيضعه بين كتفى محمد اذا سجد ، فانبعث أشقى القوم ٠ فأخذه ، فلما سجد النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا نائم أنظر والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ســاجد ما يرفع رأسه ٠٠ حتى ذهب انســان فأخبر فاطمة ، فجاءت ، وهى جويرية فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم ، فلما قضى النبى صــلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، رفع رأسه ، ثم دعا عليهم ، وكان اذا دعا ، دعا ثلاثا واذا سأل ، سأل ثلاثا ، ثم قال ٠ اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فلما

---

(١) السلا ، مابر خلاص الناقة ، وهى الجزور ٠

سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال : اللهم بأبى جهل ابن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عقبة ، وأمية ابن خلف ، وعقبة بن أبى معيط ، فوالذى بعث محمدا « عليه الصلاة والسلام » بالحق ، لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر » ٠

اشتد أذى قريش للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن أكثر الأذى الذى نال شخص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان بعد وفاة أبى طالب ٠

ولقد قال ابن كثير فى ذلك :

« وعندى أن غالب ما روى مما تقدم من طرحهم سلا الجزور بين كتفيه ، وهو يصلى كما رواه ابن مسعود ٠٠ وكذلك ما أخبر به عبد الله بن عمرو ابن العاص من خنقهم له صلى الله تعالى عليه وسلم خنقا شديدا وكذلك عزم أبى جهل ٠٠ لعنه الله على أن يطأ عنقه وهو يصلى فحيل بينه وبين ذلك ، وما أشبه ذلك ـ ذلك كله كان بعد وفاة أبى طالب والله أعلم ، فذكره هاهنا أشبه وأنسب » ٠

وان هذا الكلام له وجاهته ، وعلى ذلك نذكر أن أذى المشركين أخذ دورين ٠

الدور الأول : ما كان قبل وفاة أبى طالب ، وقد كان أذى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان بالاستهزاء والسخرية والسب ، ولا ينالون منه بغير ألسنتهم ، ويقوم بذلك سفهاؤهم كأبى الحكم بن هشام (أبى جهل) وعقبة ابن أبى معيط ، وغيرهما من سفهاء القوم ٠

وكان مع ذلك التعذيب والايذاء البدنى للضعفاء ، وغير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مما أدى الى الهجرة الى الحبشة مرتين ، وكان فيهم كبراء كجعفر بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، ولعل هجرتهم كانت لأذى القول والسخرية والاستهزاء ٠

الدور الثانى : كان بعد وفاة أبى طالب ، وهنا اشتد الأذى ، وكان الاعتداء بالقول والفعل حتى اضطر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى أن يطلب الجوار ليدخل مكة المكرمة ، فأجاره مطعم بن عدى ٠

واذا كان قد فقد حماية أبى طالب ، فقد عوضه الله تعالى بحمايته ٠

حماية الله تعالى

٢٨٦ ـــ روى البخارى بسنده عن ابن عباس ، قال : « مر أبو جهل بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلى ، فقال ألم أنهك أن تصلى يامحمد لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا منى ، فانتهره النبى صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله الله تعالى : « **فليدع ناديه سندعو الزبانية** » ، والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب ·

وروى ابن جرير الطبرى بسنده عن أبى هريرة : هل يعفر محمد عليه الصلاة والسلام وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم : قال فواللات والعزى عندما رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته ، ولأعفرن وجهه بالتراب ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ليطأ على رقبته ، فما فجئهم منه الا وهو ينكض على عقبيه ، ويتقى بيديه فقيل له : مالك !! قال ان بينى وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة » ·

ولقد حدث عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه جرت بين النبى صلى الله عليه وسلم ومشركى مكة المكرمة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يدعوهم الى الله تعالى ، ويبين لهم أن الأحجار لا تنفع ولا تضر ، وأنها لا تغنى من الله تعالى شيئا ، ثم غادر مكانهم ، فقام أبو جهل بن هشام فقال :

« يا معشر قريش ، ان قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا ، وانى اعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ، فاذا سجد فى صلاته ، فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ·

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر ، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت قبلته للشام ، فكان اذا صلى ، صلى بين الركنين الأسود واليمانى ، فجعل الكعبة الشريفة بينه وبين الشام فقام يصلى ·

وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون · فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا ممتقعا لونه ، مرعوبا ، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يديه ·

رأى رجال قريش الذين غدوا ليروا ما يفعل وما كان به ، فقالوا له ما بك يا أبا الحكم !! فقال : قمت اليه لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الابل ، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم أن يأكلنى » ٠

هذه أخبار رواة ثقات بأسناد صحيحة قوية ، واذا كان فى بعض أسنادها ضعف فالقوى يرفع الضعيف وحسبنا رواية القوى ٠

ونحن نرجح ما رآه ابن كثير من أن ذلك بعد وفاة أبى طالب ، وان كتب السيرة والأحاديث التى رويت بأسناد صحيحة لا تذكر زمان الوقائع ، ولكن تعنى بصدق الوقائع بروايتها عن ثقات أثبات ، واذا كان الزمان غير ثابت ، فمن حق المؤرخ الفاحص أن يذكر الأحداث مرتبطة بما يناسبها ، وهو الوقت الذى خلا فيه النبى صلى الله عليه وسلم من نصرة النسيب القريب الذى ألهمه الله تعالى المحبة والذود عن نبيه ، ولو كان فى أكثر حياته لم يعلن اتباع النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى اذا قبضه الله تعالى اليه ، كانت النصرة لله تعالى وحده الذى لم يضيع عبده ورسوله ساعة من زمان ٠

المهابة مع المحبة

٢٨٧ ــ كانت حماية الله تعالى لرسالته التى بلغها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قد اقترنت بما أفاض الله عليه من مهابة كانت تظهر فى أوقاتها حيث كان الأذى يشتد ، والاستهزاء يكثر ، فيذكرهم الله تعالى بأنه لم يترك نبيه لسخريتهم واستهزائهم ، فتظهر المهابة الرادعة القاطعة فى وسط سخريتهم ، وتطاولهم على مقام النبوة ٠

ولنذكر فى ذلك واقعتين تبينت فيهما مهابة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التى ألقاها الله تعالى عليه مع محبته ورحمته ٠

الأولى : قصة الأراشى ، وخلاصتها كما روى محمد بن اسحاق بسنده عن عبد الملك بن أبى سفيان الثقفى قال : قدم رجل من اراش بابل له الى مكة المكرمة ، فابتاعها أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها ، فأقبل الأراشى حتى وقف على نادى قريش ، ورسول الله عليه الصلاة والسلام جالس فى ناحية المسجد فقال :

يا معشر قريش هل من رجل يعدينى على أبى الحكم بن هشام ، فانى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ؟

فقال أهل المجلس ترى ذلك ويشيرون الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يهزءون به لما يعلمون ما بينه وبين أبى جهل من العداوة ، اذهب اليه فهو يعديك عليه ٠

فأقبل الاراشى ، حتى وقف على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكر ذلك له ٠ فقام معه ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع ٠ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه بابه ٠ فقال من هذا ؟ قال محمد فاخرج ، فخرج اليه ، وما فى وجهه قطرة دم ، وقد امتقع لونه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أعط الرجل حقه ٠ قال لا تبرح حتى أعطيه الذى له ، فدخل ، فخرج اليه بحقه فدفعه اليه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال للرجل : ارحل لشأنك ، فأقبل الأراشى حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيرا ، قد أخذت الذى لى ٠

جاءوا الى الرجل الذى بعثوه معه فقالوا ويحك ماذا رأيت ؟ قال عجبا من العجب ، والله ما هو أن ضرب عليه بابه ، فخرج وما معه روحه ، فقال أعط هذا الرجل حقه ، فقال نعم لا تبرح حتى أخرج اليه حقه ، فدخل فأخرج اليه حقه ٠

لم يلبث أن جاء أبو جهل الى المجلس ، فقالوا : ويلك ، والله ما رأينا مثل ما صنعت ٠ فقال ويحكم ، والله ما هو أن ضرب على بابى ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، فخرجت اليه ، وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ، فوالله لئن أبيت لأكلنى » ٠

وان هذه الواقعة تدل أولا على هيبة النبى صلى الله عليه وسلم يستعين بها اذا أراد فى اقامة حق وخفض باطل ، ولا يستعين بها فى الدعوة الى الله تعالى دائما ، حتى يكون دائما رءوفا رحيما ، والرأفة تلين القلوب ، والهيبة اذا استخدمت باستمرار أرهقتها ، وأرهبتها ، والرسالة تستدعى تأليف القلوب دائما واللين دائما ، ولقد قال الله تعالى « **فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** » ٠

وتدل ثانيا : على أن أشد الناس سفها ، وتهجما على الناس ، واستهانة بحقوقهم ، وهو فى وسط الجموع هو أشدهم خوفا ، وهلعا وفزعا اذا انفرد فهو جبان رعديد ، اذا لاقى خصمه وجها لوجه ، وانك لترى الذين يبالغون فى الايذاء من الحكام وغيرهم أشدهم فزعا ، اذا أحسوا بأنهم مرام مقصود ، وانفردوا ٠ فالتهجم من فرط الاندفاع ، وهو لا يتنافى مع الجبن ، بل انه يلازمه اذا لاقى الأقوياء ٠

هذه هى الواقعة الأولى التى أردناها · أما الواقعة الثانية : فهى ماروا‌ه البيهقى بسنده عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : ما أكثر ما رأيت من قريش قريشا أصابت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما كانت تظهره من عداوة ؟ فقال رأيتهم ، وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط : سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا معه على أمر عظيم ·

قال : فبينما هم فى ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن · ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتها فى وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها · فقال : « أتستمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح » ·

فأخذت للقوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكأنه على رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيه قبل ذلك ليرفؤه ، حتى انه ليقول : « انصرف أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول » ·

انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر ، وأنا معهم (أى عبد الله بن عمرو) قال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى اذا بدأكم بما تكرهون تركتموه ·

فبينما هم على ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول : كذا ، وكذا ، لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم أنا الذى أقول ذلك » ولقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ويقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » ثم انصرافوا عنه ، فان ذلك لأكبر مارأيت قريشا بلغت منه قط (١) ·

وان هذه الواقعة تدل أيضا على هيبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطاقته النفسية ، ولا ينافى هذه الهيبة ما ارتكبوه بعد ذلك من اثم ، فان الهيبة تفرض نفسها عند أول الصدمة ، ولا تتنافى مع التدبير لمقاومتها ، فقد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٦ ·

لقــوة فى المرة الأولى · وواجههم بما يكف ألسنتهم عن الغمز والاستهزاء ، ويلقى فى قلوبهم الرعب ، فأثمر ذلك فى نفوسهم ، ولما استرجعوا أنفاسهم ، واستردوا تفكيرهم الآثم بعد الصدمة التى أوجدتها الهيبة دبروا أمرهم ، ثم كانت تلك الحركة التى أخذ فيها بعضهم بمجامع ردائه ، وان ذلك لا ينافى الهيبـــة التى كانت للنبى صـــلى الله عليـــه وســـلم عندما يعتزم القــول والقاء المجابهة فى القلب ·

ولننزل عن مقام النبى صلى الله عليه وسلم الى من دونه ·

فقــد كان عمــر رضى الله عنه من ذوى الهيبـــة ، ولم تمنع هيبته تدبير اغتياله ، وعلى كان على قدر من الهيبة عظيم ، بل كان المهوب المرهوب ، ولذلك لما دبروا قتله · انتدب له اثنان أنفسهما ، وغذى السيف بالسم شهرا ومع ذلك لم تمنع هذه الهيبة ، وتلك الرهبة ، التدبير والاقدام ·

وهكذا نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد حماه ربه من قريش بما منع به شر الأشرار ، وبما منحه الله تعالى من قوة نفس ، وعزم صدق ·

محمد عليه الصلاة والسلام فى الطائف

٢٨٨ ــ ذاق محمد صلى الله عليه وسلم ما ذاق من أهل مكة المكرمة من صد عن سبيل الله ومقاومة ، وايذاء له ولأصحابه ، وقد بلغ الدعوة فيهم ، وكلبوا عليه ، ولكن دعوته عامة ، وليست لقــريش وحــدهم بل هى للناس أجمعين ، وقد علمهــا أهل مكة المكرمة ، وقاوموها مــا استطاعوا الى ذلك سبيلا ، ولله فى ذلك حكمة ، ولو كانوا أول من يطيعه لقيل انهم يريدون بذلك السلطان على الناس ·

لقد اتجه النبى صلى الله عليه وسلم فى سبيل توسيع نطاق الدعوة الى الطائف التى تقرب من مكة المكرمة ، ولها من القوة والسلطان والثروة من الثمار والتجارة ما لمكة المكرمة ، وربما يرى فيهم نصرة لم يرها من قريش ·

وله فى الطائف نوع رحم ، لأنه رضع فى بنى سعد ، وهم قريبون من الطائف ، ففيهم مراضعه ، وحواضنه ، وذلك فوق القرب النسبى ، فقــد كان بينها وبين مكة المكرمة نحو ١٢٠ (عشرين ومائة) ميل ، ، وذلك ليس ببعيد فى الشقة فى عرف أهل البلاد الصحراوية ·

ذهب الى الطائف فى أخريات شوال من السنة العاشرة ، ذهب الى الطائف ليس لمجرد اشتداد قربه منه كما تذكر كتب السيرة ، ولكن ذلك قد يكون بعض الأسباب ، وليس أقواها ، وانما لذلك ، ولأنه اعتراه ما يشبه اليأس من ايمان قريش ، أو من بقى منهم ، وما كان له أن يضرب فى حديد بارد ، أو أن يقصر دعوته عليهم ، وقد غلب عليهم الجدل بالباطل من غير أن يتجهوا الى الاقتناع ، فلا يشغل نفسه بهم ، واتجه الى بلد غير بعيد ، وهو الطائف ، يرجو منهم الاتباع ، ومن وراء الاتباع النصرة ٠

ذهب صلى الله عليه وسلم الى الطائف سعيا على قدميه مع أن المسافة كما قلنا تبلغ نحو عشرين ومائة ميل ، ولم يكن معه الا مولاه زيد بن حارثة الذى أعتقه من قبل ، وقد صار له حبيبا ودودا ، فلم يكن له خادما ، بل كان معينا ، وقد ذهب راجلا كما ذكر ، قيل لأنه لم يرد أن يعلم أحد بذهابه ، وقد يكون ذلك بعض السبب ، ولكن نقول انه كان يجاهد فى سبيل الدعوة ، ويبلغ به الجهد والجهاد أقصاهما ٠

قال ابن اسحاق فى سيرته بسنده لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم أخوة ثلاثة ٠ عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير وحبيب بن عمرو بن عمير ، وابن عوف بن عقدة بن عوف بن ثقيف » (١) ٠

التقى بهؤلاء الذين كانوا يعدون من أشرافهم ، لمكانة أبيهم فى ثقيف ٠

وقد كانت هذه الرحلة النبوية الى ثقيف غير محققة الاستجابة ، ولكنها كانت جهادا فى سبيل الدعوة من صاحبها ٠٠ ولنذكر لك المجاوبة التى كانت بين النبى عليه الصلاة والسلام ومن تحدث اليهم من أولاد عمرو بن عمير ٠

جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أولاد عمرو بن عمير ٠ فدعاهم الى الله تعالى ٠ وبما جاءهم له من نصرته عليه الصلاة والسلام ٠ والقيام معه على من خالفه من قومه ، فأجابوه بنكر من القول ٠

قال أحدهم : وهو يمرط ثياب الكعبة الشريفة ، (أى انه ينزع كساء الكعبة) ان كان الله تعالى أرسل النبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) ينزع ثياب الكعبة الشريفة وكأنه يسخر بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ويعلق على

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ، ٢ ص ٤١٩ ٠

ارسال النبى (صلى الله عليه وسلم) من الله تعالى أن ينزع هو ثياب الكعبة الشريفة ، وذلك مستحيل لقدسيتها ·

وقال الثانى : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك !! وكأنه يستنكر أن يكون هو الرسول عليه الصلاة والسلام ·

وقال ثالثهم : لئن كنت رسولا من الله ، كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك ، وان كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك ·

كان الرد كله تهكما واستهزاء ، فرأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا استجابة منهم ، ويئس منهم وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ·

واذا كانوا غير مستجيبين لدعوة الله تعالى فانه قد يكون فيهم مرءة · فرأى عليه الصلاة والسلام أن يخفوا مجيئه اليهم ، وكره أن يبلغ قومه فيدثرهم أى يثيرهم ، ولكنهم للؤمهم لم يخفوا أمره ، بل أعلنوه ، بل أغروا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم سفهاءهم ، وعبيدهم ، يسبونه ويتصيحون به ، حتى اجتمع الناس عليه ·

وقد روى موسى بن عقبة أنه قعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما الا رضخوهما بالحجارة ، حتى أدموه ، فمضى ، وهما يسيلان دما » (١) ·

عاد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الرحلة الشاقة لقوم لئام ، لم يذوقوا معنى المروءة ، ولم يعرفوا للكرامة الانسانية فى أى صورة من الصور الآدمية ·

أشد البلاء ما يثير عطف العدو اللدود ، وقد أثار ما فعل أولئك اللئام عطف ابنى ربيعة عتبة وشيبة اللذين اشتركا من قبل فى ايذاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم · فقد كان لهما بستان قريب من الطائف ، قد آوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى ظل شجرة من أشجاره ·

لقد تحركت الرحم فى ابنى ربيعة ، فبعثا غلاما لهما يقال له عداس بقطف من العنب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليتبلغ به ، وذلك من الكرم القرشى ·

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣٦ ·

عداس والنبى صلى الله عليه وسلم :

٢٨٩ — كان عداس نصرانيا ، فذهب بالقطف الذى كان فى طبق ، وقدمه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فابتدأ صلى الله تعالى عليه وسلم أكله بقوله : « باسم الله » فنظر اليه عداس ، وتفحص فى وجهه ثم قال : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد · فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن أى البلاد أنت عداس وما دينك ؟ قال نصرانى ، ومن أهل نيتوى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى !؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلك أخى ، كان نبيا وأنا نبى ·

أكب عداس بن مالك على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه ·

رأى ابنا ربيعة ما كان من الفتى النصرانى · فلم يلن ذلك قلبهما للاسلام ، فقال أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ·

لما عاد اليهما عداس قالا له : ويلك يا عداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ !

قال : يا سيدى ، ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه الا نبى ·

قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فدينك خير من دينه ·

كانت العاطفة الكريمة ، ومعها ذلك الضلال المبين ، وان كان الحق واضحا ، جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فكان الطغيان ، وكان الكفران وكان الضلال ·

دعاء ، وعفو ، واجارة :

٢٩٠ — أحس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالجفوة ، ومرارة الأذى من هؤلاء اللؤماء ، وبما أرادوا له من مهانة ، فلم يجد مثابة

الا فى أن يلجأ الى ربه ضارعا ، فقال دعاءه لربه وكان بعد أن غادر ابنى ربيعة ، ورأى ما رأى من عداس بن مالك ، واطمأن قال :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ، الى بعيد يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته أمرى ، أن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » ٠

دعاء منبعث من نفس مكلومة ولكنها راضية ، لأنها تقوم بأعظم دعوة فى الوجود ، فيهون فى سبيلها كل أمر مهما يكن عنيفا ، وكل شديدة مهما تكن بالغة ، فهو يقبل ما قدره الله تعالى وما يرضاه ، ولا يهمه الا غضب الله تعالى عليه ومادونه يهون ٠

استجاب الله تعالى لدعائه عليه الصلاة والسلام ، وبين له أنه معه ، وقد ثبت فى الصحيحين أن أم المؤمنين عائشة حدثت أنها قالت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال ما لقيت من قومك ٠٠٠ اذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ٠٠ فلم يجبنى الى ما أردت ، فانطلقت ، وأنا مهموم ، فلم أستفق الا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فاذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت ، فاذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى ، فقال ٠ « ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك ، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، ثم نادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال يا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، قد بعثنى الله ، ان الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال قد بعثنى اليك ربك لتأمرنى ما شئت ، ان شئت فأطبق عليهم الأخشبين (جبلين بمكة المكرمة) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله » (١) ٠

استجاب الله تعالى لدعاء نبيه ، وقد ذكر فى دعائه ضعف قوته ، فبين الله تعالى بأنه يضع فى يده كل القوى ، وأنه لا يمكن أن يهون عند الناس ، والله تعالى معه ، وانه لم يتركه لعدو ، ولا ولى ، بل ان أمره عليه الصلاة والسلام الى الله سبحانه ٠ وهو القاهر فوق عباده ٠ فمن كان مع الله تعالى لا يهون أبدا ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣٧ ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سماع الحق له :

٣٩١ — كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حفيا بأن يتبع الناس دعوة الحق ، ويؤمنوا بالله ورسوله ويتركوا عبادة الأوثان ، وكما قال الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم : « **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** » ولقد شكا أن قومه لا يتبعون ، وأن غيرهم كمثلهم ، فبين الله تعالى أنه اذا كان الذين اتبعوه من قومه عددا قليلا ، فان له أتباعا من الحق ، فبين الله تعالى أن بعض الجن قد استمعوا ، واستجابوا ولم يكفروا فقال تعالى مخبرا عن سماعهم فيما يروى الرواة بعد خروجه من الطائف ، وما نزل به ، قال الله سبحانه وتعالى : « **واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا انصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق ، والى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب اليم ، ومن لا يجب داعى الله ، فليس بمعجز فى الأرض ، وليس من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين** » •

وقال الله تعالى فى سورة الجن : « **قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن ، فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا ، وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** » •

والجن كما تدل ظواهر القرآن الكريم وما روى من أخبار عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جنس يقابل الانسان ، فليس الجن من الأناسى ، ولا يتفق مع القرآن الكريم قول من يقول انهم طائفة من الناس غيبوا فى الأرض ، أو بعدوا فيها • ولقد أخطأ وجانب الصواب من يقول انهم الأنصار فذلك كلام باطل بالبداهة ، ولكن تبع الغربيين بعض الذين ليس لهم استقلال فكرى أمام ما يقوله الغربيون ، وليست عندهم طاقة يستطيعون بها تمييز ما هو حق وما هو باطل ، وما هو خطأ وما هو صواب •

ان كل عبارات القرآن الكريم تصرح بأنهم جنس مقابل للانس ، وآيات الكتاب الكريم فى ذلك كثيرة ، من ذلك قوله الله تعالى : « **ويوم يحشرهم جميعا ، يا معشر الجن ، قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ، ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ، ان ربك حكيم عليم ، وكذلك تولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ، يا معشر الجن والانس ، الم ياتكم رسل منكم**

يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، وقالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين » ٠

وان هذه الآيات الكريمات تدل بصريحها على أن الجن جنس ، والانس جنس آخر ٠

ويقول الله تعالى : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » ٠

واقرأ قوله الله تعالى : « **يا معشر الجن والانس ، ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان** » ٠

وأننا نأخذ من صريح هذه النصوص اختلاف الجنسين ، فليس الانس من الجن ، ولا الجن من الانس ، وان الواجب أن نأخذ بظواهر الألفاظ الا اذا قام الدليل على أن الكلام على ظاهره مناقض لحقيقة شرعية قد علمت من الدين بالضرورة ، أو أمر عقلى مستحيل مخالفته ٠

وأولئك الذين يريدون أن يخرجوا لفظ الجن عن ظاهره فى القرآن الكريم هم من أولئك الذين لا يفكرون فى غير المحسوس ، فلا يؤمنون الا بالمادة ، ولا يؤمنون بالغيب ، وهو الركن الأول للايمان ، ولذلك كان أول وصف للمؤمنين هو الايمان بالغيب ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى : « **الذين يؤمنون بالغيب** » وفيصل التفرقة بين الايمان والزندقة الايمان بالغيب ٠

وبعد ذلك نتساءل ما حقيقة الجن ؟ والجواب عن ذلك أننا نميل الى ما يقرره المسلمون ٠ وهو أن الجن من نار ، واعتمدوا فى ذلك على نص القرآن الكريم ، لا على الأوهام ، وذلك لأن الله تعالى قال عن ابليس اللعين « **كان من الجن ففسق عن أمر ربه** » ولما أبى واستكبر ولم يسجد لآدم ، قال فيما حكى الله سبحانه وتعالى عنه : « **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** » وبالتقاء النصين الكريمين يثبت أن ابليس بصريح اللفظ كان من الجن ، وأن الجن خلق من نار ٠

هذا ما يدل عليه صريح القرآن الكريم ٠

وان سماع الجن وايمان بعضهم تسلية للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ فيه بيان أنه اذا كان قد بطؤت الاجابة فى الانس فقد سارعت الجن الى الاجابة « **فلا تأس على القوم الفاسقين** » ٠

في جوار المطعم بن عدى

٢٩٢ ــ كان لابد أن يعود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة المكرمة مهبط الوحى ، ومجتمع العرب فى موسم الحج ، لأن الخطة التى رسمها وابتدأ بها فى الطائف تقتضى العودة الى مكة المكرمة ، وتلك الخطة أن يتصل بالقبائل العربية فى أثناء اجتماع وفود القبائل فى الحج الى بيت الله الحرام ٠

هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالرجوع الى مكة المكرمة ، وهو عند حراء ، وكان معه زيد بن حارثة الذى صحبه فى هذه السفرة فخشى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب بألا يرجع الا فى جوار أحد من سادة مكة المكرمة المشركين ، حتى لا يضار ٠

فنزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند مشورته ، فأرسل الى الأخنس بن شريق أن يجيره بمكة المكرمة ٠ فقال انه حليف قريش لا يجير على صحيحها ٠

ثم بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الى سهيل بن عمرو ليجيره ، فقال : ان بنى عامر بن عامر بن لؤى لا تجير على كعب بن لؤى ٠

ثم بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الى المطعم بن عدى ليجيره ، فقال للرسول نعم ، قل له فليأت ، فذهب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبات عنده تلك الليلة ٠

ثم لما أصبح الصبح خرج معه وبنوه ستة ــ أو سبعة ــ على اختلاف الرواية ــ متقلدو السيوف جميعا ، فدخلوا المسجد ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : طف ٠ واحتبى هو وأولاده بحبائل سيوفهم فى المطاف ٠

كان ذلك اعلانا قويا بهذا الجوار الكريم ، فجـاء أبو سفيان بن أمية ابن عبد منـاف ، وأقبل على مطعم بن عدى فقال أمجير أم تابع ؟ قـال : بل مجير ، فقال اذن لا تخف ٠

وكأن أبا سفيان بهذا السؤال يشير الى أنه ان كان تابعا فهو حرب مع النبى عليه الصلاة والسلام ينال أتبـاع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان كـان مجيرا فانه تحفظ ذمته ، لأنه منهم ، ولا يفرضون فيه العداوة أو الخصومة ٠

ومن هذا تعرف حكمة الله تعالى فى أن أبا طـالب لم يعلن اسلامه مع حمايته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه لو أعلن الاسلام لحاربوه مع من آذوا من أتباع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذين لم يرعوا فيهم الا ولا ذمة ٠

انشـــقاق القمر

٢٩٣ ــ قلنا ان الأمور التى كانت بعد الدعاء المحمدى كانت استجابة لهذا الدعاء وابعادا للوحشة عن قلبه الطـاهر ، فمجىء تلك الجبـــال كان لاشعاره عليه الصلاة والسلام بالقوة ، وقد شكا ضعف قوته ، وسماع الجن للقرآن الكريم وايمان بعضهم كان لايناسه عليه الصلاة والسلام بكثرة الأتباع، ثم كان تسهيل الجوار ليدخل مكة المكرمة ويكمل دعوته ، فيه اثبات سعة الحيلة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، هداه الله تعالى اليها لكى يذهب بقلة حيلته التى شكاها رسول الله عليه الصلاة والسلام ٠

وكانت من بعد ذلك الآيات الحسية ، التى كان منهـــا انشقاق القمر ، والاسراء والمعراج ٠ لبيان أن الله تعالى لم يتركه « **ما ودعك ربك وما قلى** » ٠

وقد ذكرنا أن كتاب السيرة لم يذكروا الأخبـار مرتبة بترتيب الوقائع ، وقد ذكروا انشقاق القمر بعد الاسراء والمعراج ، ونحن قد رجحنا كما رجـح ابن كثير أن الاسراء كان بعد وفاة أبى طالب وخديجة أم المؤمنين رضى الله عنهما ، اذ أنها توفيت قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، والصلوات لم تفرض خمسا الا فى المعراج ٠

وقد ذكر بعد المعراج انشقاق القمـر ، وان المناسبة تزكى ذلك الترتيب فان ذلك تقوية للاستدلال على صـحة الرسالة ، وان كان القرآن الـكريم هو المعجزة الكبرى التى تحدى بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعده عليه الصلاة والسلام المعجزة ٠

ولندخل من بعد للموضوع ، وهو انشقاق القمر ٠ لقـد قال الله تعـالى : « **اقتربت الساعة وانشق القمر** » ، ويقول فى ذلك ابن كثيـر : « وقـــد أجمع المسلمون على وقوع ذلك فى زمنه عليه الصــلاة والســـلام ، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها ، ونحن نذكر من ذلك ما تيسر ان شاء الله تعالى ٠ وبه الثقة وعليه التكلان ، ويذكر من بعد ذلك الحافظ الحجة ابن كثير الاخبار الصحاح الواردة فى ذلك ٠

وقبل أن نختار من هذه الصحاح ما نراه أوضح من غيره دلالة ، نقول ان انشقاق القمر ثبت بلفظ الماضى مما يدل على حكاية الواقع ، لا ذكر المتوقع ، فان اللفظ القرآنى يؤخذ بظاهره ما لم توجد قرينة من حقيقة ثبتت بالاجماع

والعلم الضرورى ، أو من قضايا العقل المبثوثة التى لا مجال للريب فيها ، أما تأويل القرآن الكريم ، واخراجه عن ظاهره باستبعاد بعض ذوى العقول المأفونة أو المتأثرة بالمألوف بين الناس ، وتنكر ما عداه ، ولا تعلم أن هناك قوة مغيرة محدثة منشئة هى قدرة الله تعالى وارادته التى توجب الايمان بالله تعالى فعال لما يريد ، مختار فيما يفعل ، وأنه وحده خالق كل شىء ، خلق الأسباب والمسببات ، لا توجب ارادته أسبابا عادية « **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** » ٠

وعلى ذلك نقرر أنه وقع فى الماضى فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن قول الله تعالى : « **اقتربت الساعة وانشق القمر** » عبر عن انشقاق القمر بلفظ الماضى الدال على الوقوع فى زمن مضى ، وتخريجها على أن الماضى أريد به المضارع ، وأنه سينشق ، تخريج للفظ بغير ظاهره الذى دل عليه القرآن الكريم بظاهره لابد له من مسوغ يوجب ذلك التخريج ، ويكون قرينة دالة على أن اللفظ أريد به غير ظاهره ٠

٢٩٤ ــ هذا ما يدل عليه ظاهر القرآن الكريم ، وهو فى ذاته حجة دالة على الوقوع لا يحتاج الى حجة أخرى تؤيده فهو يؤيد غيره ، ولا يستمد التأييد من غيره ، ولكن السنة تبين لنا كيف وقع لا أصل الوقوع ، فنحن نرجع الى السنة لبيان شكل الوقوع ٠

لقد ذكر الحافظ ابن كثير أن الوقوع ، أو شكل الوقوع يثبت بعدة طرق عن كثيرين من الصحابة ، فروى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجبير بن مطعم ، وحذيفة ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم أجمعين ٠

روى البخارى ومسلم أن أهل مكة المكرمة سألوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم آية فانشق القمر ، فانشق القمر بمكة المكرمة مرتين ، وفى رواية لمسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة المكرمة سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين ، رواه البخارى ، وزادت روايته حتى رأوا حراء بينهما ٠

وبذلك تفسر كلمة مرتين بأنه صار فرقتين ٠

وروى الامام أحمد عن جبير بن مطعم : قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا سحرنا محمد ، وقالوا ان كان سحرنا ، فانه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ٠

وروى البخارى عن ابن عباس ، قال ان القمر انشق فى زمان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قال البخارى قد مضى ذلك كان قبل الهجرة ، انشق القمر ، حتى رأوا شقيه ٠

ويقول ابن عباس فيما روى عنه أبو نعيم بسنده : « اجتمع المشركون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام ، والعاص بن وائل ، والعاص بن هشام ٠٠٠ ونظراؤهم فقالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ، نصفا على أبى قبيس ، ونصفا على قيقعان ، فقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تؤمنون ؟ قالوا نعم ، فسأل الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا وكانت ليلة بدر ، فأمسى القمر قد شق نصفا على أبى قبيس ، ونصفا على قيقعان » ٠

وهكذا تضافرت الروايات ، وهذا بعضها يدل على أن القمر شق ، وكان شقين ، وكان القمر بدرا ، وعينت بعض الروايات أنه كان فى الليلة الرابعة عشرة ، وليس لأحد أن يشك فى هذه الروايات التى يسند بعضها بعضا ، حتى ادعى ابن كثير أن أخبار انشقاق القمر فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلغت حد التواتر ، وانه لم يعد ثمة مساغ لمستريب ، ولا مجال للتكذيب ، وخصوصا أن الأصل ثابت بظاهر القرآن الكريم ، والأحاديث مبينة لشكل الوقوع ، لا لأصل الانشقاق ، فانه ثابت بالقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن الذين ينكرون يستغربون ثم يؤولون ، ان كان للايمان بالقرآن الكريم بقية فى قلوبهم ٠

٢٩٥ — ان الذين يستغربون ، ثم ينكرون ، ويؤولون ان كانوا مسلمين يردون أن ذلك لو حصل وهو أمر كونى لكان مرئيا فى كل بقاع العالم٠ ولم يختص العرب برؤيته ، بل تعم ولا تخص ، وقد ردد ذلك النصارى من كتاب المشرقيات ونقله عنهم الذين يتعرفون أمور الاسلام من هؤلاء ٠

ونقول لعلماء الغرب الذين يشككون فى القرآن الكريم ٠ لقد صدقتم ما هو أشد من ذلك غرابة ، فان الأناجيل التى يصدقونها ، ويؤمنون بكل ما فيها يقولون فى ميلاد المسيح عليه السلام انه علم ميلاده عند المجوس بنجم أعلمه ، وأنهم جاءوا من بلادهم ، والنجم يسير أمامهم ، حتى علموا مكانه عن طريق النجوم ، فهل كان الناس قدروا ذلك ، كما تطالبون المسلمين بأن يثبتوا أن الناس جميعا قد رأوا انشقاق القمر ، والا فهم فى حل من أن يكذبوا القرآن الكريم : « **كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا** » ٠

ومع ذلك فاننا نقبل الاعتراض ، وان كانوا غير مخلصين ، ولا مؤمنين بما يقولون · ونقول فى رده ان العرب المشركين عندما رأوا القمر قد انشق ، لم يؤمنوا وقالوا سحرنا محمد ــ وحكى الله تعالى عنهم ذلك ، فقد قال الله تعالى فى واقعة انشقاق القمر : « **اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر** » ·

وبعضهم أراد أن يتعرف ، وانتهى تعرفه بأن الناس الذين علموا أمره من غير المقيمين قد رأوه منشقا · فقد روى الامام أحمد ، والشيخان البخارى ومسلم عن ابن مسعود : قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ، فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار ، فان محمدا لايستطيع أن يسحر الناس كلهم ·

وروى البيهقى مثل ذلك عن عبد الله بن مسعود أيضا ، فقد قال : انشق القمر بمكة المكرمة حتى صار فرقتين ، فقال كفار قريش لأهل مكة المكرمة : هذا سحر سحركم به ابن أبى كبشة ، انظروا السفار ، ان كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، وان كانوا لم يروا مثل ما رأيتم ، فهو سحر سحركم به ، قال فسئل السفار ومن قدموا من كل وجهة ، فقالوا رأينا ·

من هذه الصحاح يتبين أن الرؤية كانت عامة ، ولم تكن مختصة باقليم ولا ببلد ، وقد تحرى أهل الفحص والنظر فرأوا أن قد رؤى فى كل الأماكن التى كانت تجاورهم · أو أتى فيهم السفر بخبره ، فدل هذا على أن الرؤية كانت عامة ، والقرآن الكريم صادق وأخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صادقة من كل الوجوه ولا سبيل لانكارهم بتوهم متوهم ، أو استغراب مستغرب ، فأمارات الصدق قائمة بينة ، ولا يرد الأمر البين بتوهم واهم ، أو استغراب مستغرب ، أو انكار كافر جحود ·

وفوق ذلك ، فانه جاءت الأخبار بأن انشقاق القمر قد رؤى فى الهند ، قال المؤرخ ابن كثير :

ومع ذلك فقد شوهد ذلك فى كثير من بقاع الأرض · ويقال : انه أرخ بذلك فى بعض بلاد الهند · وبنى بناء فى تلك الليلة ، وأرخ بليلة انشقاق القمر (١) ·

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٢٠ ·

الاسراء والمعراج

٢٩٦ ــ كان الاسراء فى السنة التى كانت قبل الهجرة ، وروى البيهقى عن ابن شهاب الزهرى أنه كان فى السنة التى قبل الهجرة ، وروى الحاكم أن الاسراء كان قبل الهجرة بستة عشر شهرا ٠

واختلف على ذلك فى الشهر الذى أسرى به فيه ، فالسدى قال انه فى ذى القعدة ، والزهرى قال فى ربيع الأول ٠

وروى عن جابر وابن عباس أنهما قالا : ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وفيه بعث ، وفيه عرج الى السماء ، وفيه هاجر ، وفيه مات ٠

وفى رواية أن الاسراء كان فى ليلة السابعة والعشرين من شهر رجب ، ويقول ابن كثير : « وقد اختاره الحافظ بن سرور المقدسى ، وقد أورد حديثا لا يصح سنده كما ذكرنا فى فضائل شهر رجب ، وأن الاسراء كان فى ليلة السابعة والعشرين من رجب والله أعلم ٠ ومن الناس من يزعم أن الاسراء كان فى أول ليلة جمعة من شهر رجب ، وهى ليلة الرغائب التى أحدثت فيها الصلاة المشهورة ، ولا أصل لذلك ، والله أعلم ٠

وقد جاء فى نهاية الأرب أن الاسراء كان فى ليلة السبت ، ليلة سبع عشرة من رمضان ، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا ، وقد أسرى صلى الله عليه وسلم به وسنه احدى وخمسون سنة وتسعة أشهرا !!

وننتهى من هذا الى أن علماء السيرة النبوية مختلفون فى تعيين اليوم الذى كان فيه الاسراء ، ولكن الواقعة ثابتة ٠ وقد اتفقوا على أنها كانت بعد ذهاب النبى صلى الله عليه وسلم الى الطائف ، وردهم له الرد المنكر ، وأن كونها فى ليلة السابع والعشرين من رجب ثبتت بخبر لم يصح سنده فى نظر الحافظ المحدث ابن كثير ، وقال من بعد ذكره : والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

وقد وجدنا الناس قبلوا ذلك التاريخ ، أو تلقوه بالقبول ، وما يتلقاه الناس بالقبول ليس لنا أن نرده ، بل نقبله ، ولكن من غير قطع ومن غير جزم ويقين ٠

واتفقت الروايات أيضا على أن الاسراء كان قبل الهجرة بسنة على الأقل ، ويظهر أنها كانت فى السنة التى قبل الهجرة فى ثلثها الأول أو الأخير والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

ومن سياق التاريخ ومناسبات الحوادث نرى أن الاسراء كان بعد انشقاق القمر ٠

٢٩٧ ــ وهنا قد يسأل السائل ما المناسبة لمسألة الاسراء والمعراج ، وتعيين الله تعالى لزمانها ، والله سبحانه وتعالى حكيم عليم ، يضع الأمور بموازينها وفى أوقاتها ، وأجلها المعلوم ، ولنا أن نتعرف حكمة الله تعالى من غير أن نقطع بأن هذا هو مراد الله تعالى ، فهو العليم الخبير الذى لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة فى السماء أو فى الأرض ٠

ونجيب عن هذا التساؤل بما قررنا ، وهو أن الله سبحانه وتعالى استجاب لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ضراعته بالدعاء الذى دعا ربه غب خروجه من الطائف ، شكا ضعف قوته ، فأمده الله تعالى بالقوة ، وقلة الحيلة فأمده بحسن التدبير لدخول مكة المكرمة آمنا مطمئنا ، وأيده بآية حسية من نوع ما يطلبون ، واذا كانوا لم يستجيبوا لداعى الله تعالى ، فلأن المعاند لا يقنعه الدليل ، ولو كان حسيا ، فقالوا سحرنا ، مع أن انشقاق القمر رأته الركبان فى أسفارها ، ثم كان من بعد ذلك الأنس بلقاء الله تعالى فى المعراج ، سواء أقلنا ان لقاءه بالله تعالى ، كان بالروح فى الرؤيا ، أم كان بما هو أكثر من الرؤيا (١) ؟٠

لقد أحس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشة بعد وفاة الحبيبين ، خديجة العطوف ، وأبو طالب الشفيق ٠ فقال الله تعالى له بالفعل أنس الله أكبر ، ورحمته أعظم ، وحياطته أكرم ، وان عنايته بك وبرسالتك هى التى ستبلغك أمرك ، وتحقق لك شأوك ، وتصل بك الى غايتك ، وهو المهيمن الرءوف الرحيم ، لذلك كان الاسراء ، ومن بعده عروجه الى السماء ٠

٢٩٨ ــ والآن ننتقل الى الآيات الكريمات التى صرحت بالاسراء ، ثم كانت الاشارة الواضحة الى المعراج ، قال الله تعالى : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من**

---

(١) السيرة العطرة للأستاذ عبد العزيز خير الدين ، ونهاية الأرب ج ١٦ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ٠

آياتنا · انه هو السميع البصير » · ففى هذا النص الاسراء صريحا ، وكانت الاشارة الى المعراج بقوله تعالى : « **لنريه من آياتنا** » ·

وقال الله تعالى : « **واذ قلنا لك : ان ربك أحاط بالناس ، وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للنـــاس والشجرة الملعـــونة فى القـــرآن ، ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا** » فقد ذكر المفسرون أن الرؤيا هى المعراج ·

وقال الله تعالى فى سورة النجم : « **والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكـــان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى** » ·
ولقد قرر المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى المعراج ، وان ذلك لواضح ، واذا كانت العبارات السابقة لم تصرح بالعروج الى السموات العلا فان الاشارات واضحة تكاد تكون تصريحـــا ، والاشارات الواضـــحة فى قوة الـــدلالة تكون كالألفاظ الصريحة ·

وقد قال بعض علمـــاء السيرة ان الاسراء بالنبى صلى الله تعـــالى عليه وسلم ابتدأ من شعب أبى طالب ، وان كان السند فى ذلك صحيحا ، فانه يشير الى أن أبا طالب قد مات ، وأن مهمته قد انتهت ، وأن الله تعالى وهو البـــاقى الدائم · الأول والآخر والظاهر والباطن به تكون النصرة الدائمة المتجددة فى الشدائد ــ ولكن الثابت فى البخارى أنه ابتدأ من الحطيم بالمسجد الحرام ·

الاسراء بالجسم :

٢٩٩ ـــ ان ظاهر الآية القرآنية التى أثبتت الاسراء وهى قوله تعالى : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام** » أن الاسراء كان بالجسد والروح ، وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال أسرى بعبـــده ، والعبـــد هو الروح والجسد ، ومادام الظاهر لا دليل يناقضه من عقل أو نقل ، فانه يجب الأخذ به ، فانه من المقررات أن الألفاظ تفسر بظاهرها الا اذا لم يمكن حملها على الظاهر لمعارض ، ولا معارض ·

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١١٠ ·

وفوق ذلك فإن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أعلن خبر الاسراء بين قريش ففتن بعض الذين أسلموا وارتد من ارتد ، ويقول فى ذلك ابن كثير فيما رواه عن قتادة « انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة المكرمة ، فأصبح يخبر قريشا بذلك ، فذكر أنه كذبه أكثر الناس · وارتدت طائفة بعد اسلامها ، وبادر الصديق الى التصديق ، وذكر أن الصديق سأله عن صفة بيت المقدس ، وقال انى لأصدقه فى خبر السماء بكرة وعشيا ، أفلا أصدقه فى بيت المقدس ، فيومئذ سمى أبو بكر الصديق ·

وانه روى أنه عند مروره صلى الله تعالى عليه وسلم على عير لقريش فند بعير لهم نافرا ، فأرشدهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكانه ، وقد أخبروا أهل مكة المكرمة بذلك (١) ·

وانه روى أن أهل مكة المكرمة الذين ردوا القول استوصفوه عيرا لهم فوصفها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى اخبارهم ، والاستدلال على صدقه : « وآية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حسن الدابة (٢) فندلهم بعير ، فدللنهم عليه ، وأنا متوجه الى الشام ، ثم أقبلت ، حتى اذا كنت بصحنان مررت بعير بنى فلان · فوجدت القوم نياما ، ولهم اناء فيه ماء ، قد غطوا عليه بشىء ، فكشفت غطاءه ، وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم (٣) البيضاء يقدمهم جبل أورق عليه غرارتان ، احداهما سوداء ، والأخرى برقاء ، فابتدر القوم الثنية ·· وسألوهم عن الاناء وعن العير فأخبروهم ، كما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وان هذا كله يدل على أن الاسراء كان بالروح والجسد ، فانه تلاقى مع المارين بين مكة المكرمة والشام وأخبر عن التلاقى ، وصدق خبره عليه الصلاة والسلام ، واذا كانت بعض هذه الروايات فى اسنادها كلام ، فان بعضها يقوى الآخر ، ونص القرآن الكريم ظاهر فى تأييد الدعوى ، بل لا يدل على غيرها حتى يقوم الدليل ·

ولو كان الاسراء بالروح أو الرؤيا الصادقة ما كانت ثمة غرابة تمنع التصديق ، ولبادر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم باخبارهم الى أن ذلك رؤيا فى المنام ، أو هذا وحى أوحى به اليه ·

---

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ٢٤٤ ·
(٢) هى البراق الذى سنذكر الروايات عنه من بعد ·
(٣) هو مكان ·

ولقد كان بجوار هذا القول الذى تنطق به الآية الكريمة قول آخـر ، روى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها الصديق رضى الله عنه وروى أيضا عن معاوية بن أبى سفيان ، وقد كان ابان ذلك هو وأبوه من المكذبين الـذين يناوئون الدعـوة ، ولكن لعله نقـل عن غيره ممن شاهدوا ، وعاينوا ، كما نقلت عائشة عن غيرها ، وما كانت فى ذلك الابان قد زفت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد كان معاوية مسلما من بعد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعن أبيها الصديق ، واحتج بقول عائشة هذا ، وقد أثر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أمر بأن يؤخذ الدين عن عائشة ٠

ولكن الخبر عنها يحمل فى نفسه ما يوهم عـدم صدقه عنها ، ففيه : أنها قالت : « لم تفقد بدنه » وان ذلك يوهم أنها كانت معه فى مبيت واحـد ، مع اجماع المؤرخين والمحدثين على أنه لم يبن بها الا فى المدينة ٠

وقد استدل أصحاب هذا القول بما روى الحسن البصرى عن أن قـول الله تعالى : « **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس** » وقالوا ان الرؤيا هى ما كان فى ليلة المعراج ، والرؤيا هى ما يكون فى المنام ، كما حكى عن سـيدنا يعقـوب : أنه قال لابنه يوسف بعـد أن قص عليه ما رآه فى المنام : « لا تقصص رؤياك على اخوتك » ٠

وجاء فى كتاب البصائر للفيروزبادى : « الرؤيا ما رأيتـه فى منامك ، والجمع رؤى كهدى ، وقد تخفف الهمزة من الرؤيا ، فيقال بالواو » (١) وهذا وغيره نصوص صريحة فى أن الرؤيا منامية ٠

ولكن أهى كانت فى الاسراء أم كانت فى المعراج ؟ ان رواية الحسـن رضى الله عنه تقول : هى ما كان فى ليلة المعراج ، نعم ان الليلة كانت واحدة ، ولكن النص على ليلة المعراج يدل على أن كلام الحسن ومن معه فى المعراج لا فى الاسراء ٠

ويسـتدل أصحاب هذا القـول ، وهو أن الاسراء كان بالروح بحديث البخارى عن أنس بن مالك قال : ليلة أسرى رسول الله صلى الله تعالى عليه

---

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٣ ص ١٧٧ ٠

وسلم من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه ، وهو نائم فى المسجد الحرام • فقال أولهم أيهم هو ، قال أوسطهم هذا ، وهو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ••• فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم ، ولم يكلموه حتى احتملوا فوضعوه عند زمزم ، فتولاه منهم جبريل ••• والحديث طويل وقال فى آخره واستيقظ وهو فى المسجد الحرام ، ويرى صاحب الروض الأنف أنه نص لا اشكال فيه •

ونرى أن فيه اشكالا ، لأنه نص فيه على أنه كان قبل أن يوحى اليه ، ونرى أنه لم يتعرض لذكر الاسراء والمعراج ، ولعلها كانت اذا صحت الرواية فى موضوع آخر •

ويرى صاحب الروض الأنف أن الأدلة قد تعارضت بالنسبة للاسراء وأنه يوفق بينها بأن الاسراء كان مرتين : احداهما بالروح والأخرى بالجسد والروح •

ونحن نرى أن الأدلة لم تتعارض ، بل الأدلة على أن الاسراء كان بالجسد والروح هى التى لا ريب فيها ، ولا يمكن أن يعارض الضعيف القوى •

ولذا نرى أن الاسراء كان بالجسد والروح ، ولا نجد فيما استدل به ما يدل على أنه كان بالروح فقط ، وان الآية : « **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس** » لا نرى أن موضوعها هو الاسراء ، بل ان موضوعها هو المعراج •

ولا غرابة فى أن ينقل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة الى بيت المقدس وأن يعود به فى ليلة واحدة ، فان هذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى ، لأن المسافات فى الزمان والمكان ، انما هى بالنسبة للعبيد ، ولا تكون قط بالنسبة لله سبحانه وتعالى وهو القادر على كل شىء ، وهو خالق الأماكن والازمان •

المعراج بالروح :

٣٠٠ — ان الأكثرين من العلماء على أن المعراج كالاسراء كان بالجسد والروح ، وأخذوا ذلك من ظواهر الأحاديث الصحيحة التى روتها السنة ، ففيها التصريح بأنه لقى آدم فى سماء ، وابراهيم فى مثلها ، وادريس وعيسى ويحيى وموسى ، وهذه الظواهر آثروا الأخذ بها •

ولكن أولئك الأكثرين وقفوا عند رؤية الله سبحانه وتعالى ، فقال فريق منهم أنه رأى ربه وخاطبه ، وكان ذلك تكريما له لمخاطبة الله سبحانه وتعالى اختص به محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيما وتقريبا له ، وهو فوق المذكور فى قول الله سبحانه وتعالى : « **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا ، أو من وراء حجاب • أو يرسل رسولا** » وليس من هذه الثلاثة رؤية الله سبحانه وتعالى ، وتلقى الرسول منه مباشرة من غير حجاب •

وقد رأى ذلك الرأى الامام أحمد بن حنبل وقاله أيضا أبو الحسن الأشعرى وقالت طائفة أخرى لم يقع ذلك لحديث مسلم عن أبى ذر رضى الله تبارك وتعالى عنه : « قلت يارسول الله هل رأيت ربك ، فقال عليه الصلاة والسلام انه نور أنى أراه ، وفى رواية رأيت نورا •

والذين قالوا ان الاسراء كان بالروح وفى رؤيا صادقة قالوا ذلك فى المعراج ، بل هو أولى ، فالرحلة كلها كانت رؤيا صادقة ، وقد بينا القول فى أدلة هذا الرأى بالنسبة للاسراء من قول •

وقد انضم اليهم غيرهم ممن يرون أن الاسراء كان بالجسد والروح ، فمنهم من قال ان المعراج كان بالروح وليس فى الموضوع نص قرآنى يدل بظاهره على أنه كان بالجسد والروح ، حتى لا يكون مناص من اتباعه أو تأويله ، بل نجد الألفاظ تقبل أن يكون المعراج بالروح ، وبالظاهر المتبادر ، لا بالتأويل المنتزع انتزاعا •

ولننظر فى الآيات الكريمات الدالة على المعراج :

دلالة آية الاسراء على المعراج بالاشارة لا بالعبارة ، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى « **لنريه من آياتنا** » فتلك الآيات التى أراها الله عبده هى المعراج وامامة الأنبياء السابقين •

والآيات الأخرى التى دلت على المعراج ، كانت ألفاظها لا تدل على المعراج الا بالاشارات البيانية ، ولننظر فيها عبارة عبارة ، وكلها من السمو البيانى فى المكان الأعزل الذى لا يصل اليه بيان قط •

« **علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى** » فقد قالوا انه جبريل عليه السلام ، واذا كان الله سبحانه وتعالى ، فتعليمه لا يكون بالتلقين بل يكون بالارشاد والايحاء •

وقوله سبحانه وتعالى : « **وهو بالأفق الأعلى** » يراد جبريل عليه السلام « **ثم دنا فتدلى** » أى نزل وقرب من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « **فأوحى الى عبده ما أوحى** » عن طريق جبريل ، « **ولقد رآه نزلة أخرى** » وهو جبريل أيضا وقوله سبحانه وتعالى «**ماكذب الفؤاد ما رأى**» تومىء الى أن الآيات الكبرى التى رآها كانت بفؤاده لا ببصره ، وقوله سبحانه وتعالى : « **ما زاغ البصر وما طغى** » أى ما كل وما تجاوز حده ، والنفى فيه ما قد يكون لأنه لم تكن رؤية بالبصر ٠ حتى يكل المبصر أو يتجاوز حده ، وقد يكون لبيان أن البصر لم يتجاوز حده ليطغى ، ويحاول أن يرى ما لا يمكن أن يراه ، ويزيغ بأن يكل ويمل ، ويلقى فى النفس ما لم ير ٠

واننا عند هذا النظر الفاحص ننتهى الى أن الاسراء اذا كان بالجسد والروح ، فان المعراج كان بالروح فقط ، وأنه كان رؤيا صادقة ، وقد اتجهنا الى ترجيح ذلك لما يأتى :

(أ) أنه ذكر فى المعراج أنه التقى بالأنبياء آدم وابراهيم وموسى ويحيى ، وغيرهم ، والباقى منهم هو أرواحهم ، وأجسامهم سيبعثها الله تعالى يوم البعث والنشور ، وفرض أنه بعثها ثم أفناها فرض بعيد لم يذكر فى حديث من الأحاديث ، ولا خبر من الأخبار ، ولو ضعيفا ، وكل فرض فى أمر غيبى لادليل عليه من المنقول فهو رد على قائله الا أن يكون أمرا يؤدى اليه البرهان العقلى ، ولا يوجد شىء لا من المنقول ولا المعقول يقرر اعادة أجسام الأنبياء الكرام أحياء ، ثم اعادتها الى الفناء ٠

(ب) ان العبارات القرآنية الكريمة الواردة فى المعراج تومىء بل تصرح بأن الأمر فى هذه الرحلة السماوية كان روحيا وأن الادراك لم يكن بالحس ، بل كان بالقلب والفؤاد ، فالله تعالى يقول : « **ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى** » فالحديث القرآنى كله كان فى اثبات رؤية الفؤاد ، وأنه لاتجوز المماراة فيما رأى الفؤاد الذى لا يكذب ، وذلك لا يتحقق الا بأن تكون الرؤية روحية ، لأن رؤية القلب لا تكون الا روحية ، وانه عندما ذكرت حاسة البصر ذكرت بالنفى ، لا بالايجاب ، وقد بينا مؤدى النفى فى هذا ٠

(جـ) أن أخبار المعراج تصرح بأنه رأى ربه ، والرؤية القلبية ممكنة باستحضار عظمته ، وبالسبحات الروحية المتجهة الى الله سبحانه وتعالى وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه لم ير ربه فى حديث أبى ذر الغفارى ، فقد قال عليه الصلاة والسلام فى اجابة سؤال الصحابى الجليل أبى ذر : « أنه نور ، فأنى أراه » ٠

واننا لا نتعرض فى ذلك لكون رؤية الله تعالى يوم القيامة ممكنة ، أو غير ممكنة ، فذلك يوم القيامة بعد البعث والنشور ، وذهاب أهل الجنة اليها ، وابقاء أهل النار فيها ، فان الكلام فيها غير الكلام فى الدنيــا ، ونحن نحس ونرى ، فان كانت رؤية الله تعالى الآن فهى بالعين الفانية ، ورؤية أهل الجنة عند من يثبتونها تكون بالعين الباقية ، والله أعلم كيف يرى ·

وننتهى من هذا الى تقرير حقيقتين نراهما :

الأولى : أن الاسراء كـــان بالجسد والروح بظواهر النصوص المثبتة ، ولا معارض لها ·

الثانية : أن المعراج كان بالروح فقط لعدم وجود الأدلة المثبتة أنه كان بالجسد والروح من القرآن الكريم ، ولوجود المعارض من النقل والفعل ·

والآن نعود الى قصة الاسراء والمعراج كما هى فى الصحــاح على أن نفسر الألفاظ على ضوء هاتين الحقيقتين اللتين قررناهما ·

الاسراء والمعراج فى صحاح السنة

٣٠١ ـــ كان من الممكن أن نقف بالنسبة للاسراء والمعراج عند هذا الذى قررناه ، ولكن يجب أن نستأنس بالمنقول عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على أساس أن كل ما ذكر فى المعراج أنه بالروح ·

وقد رويت روايات مختلفة تتعلق بواقعة الاسراء ثم العروج ، نختــار منها رواية البخارى ·

روى البخارى بسنده عن أنس بن مــالك ، عن مالك بن صعصعة ، أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال :

« بينما أنا فى الحطيم ، وربما قال فى الحجر ـ مضجعا اذ أتانى آت ، وسمعته يقول : فشق ما بين هذه الى هذه ، فقلت (أى الرواى) للجارود وهو الى جنبى ماذا يعنى به ، قــال من نقرة شعره الى شعرته ، وسمعته يقول من قصه الى شعرته · فــاستخرج قلبى ، ثم أتيت بطشت من ذهب مملوء ايمانــا فغسل قلبى ، ثم حشى ، ثم أعيد ··· ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، فقال الجارود ، وهو البراق : قال أنس نعم · يضع خطوة عند أقصى

طرفه ، فحملت عليه ، فانطلق بى جبرائيل ، حتى أتى السماء الدنيا ، فاستفتح قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قال ومن معك ! قال محمد قيل أوقد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قيل مرحبا به · فنعم المجيء جاء · ففتح ، فلما خلصت فاذا آدم ، فقال هذا أبوك آدم ، فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام فقال مرحبا بالابن الصالح ، والنبى الصالح ، ثم صعد بى الى السماء الثانية ، فاستفتح ، قيل من هذا قال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء · ففتح ، فلما خلصت ، اذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة ، قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهمـا فسلمت عليهما فردا ثم قالا : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ·

ثم صعد بى الى السماء الثالثة · فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل · قال ومن معك ؟ قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه ! قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت اذا يوسف · قال هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ·

ثم صعد بى الى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قال ومن معك ؟ قـال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت اذا ادريس ، قيل فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا ، بالأخ الصالح والنبى الصالح ·

ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل ، قيل ومن معك قال محمد ، قيل أوقد أرسل اليه ! قـال نعم ، قيـل مرحبا به ، فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذا بهارون ، قال هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه ، ثم قال مرحبا بالأخ الصالح ، والنبى الصالح · ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة ، فاستفتح ، فقيل من هذا ؟ قال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد · قيل أوقد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذا موسى ، قال هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ، فلما تجاوزت بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال أبكى ، لأن غلاما ما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن دخلها من أمتى ·

ثم صعد بى الى السماء السابعة ، فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل · قيل ومن معك ؟ قال محمد · قيل أوقد بعث اليه ؟ قال نعم · قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت ، اذا ابراهيم قال هذا أبوك ابراهيم فسـلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ، ثم قال : مرحبا بالابن الصـالح والنبى الصالح ·

ثم رفعت الى سـدرة المنتهى ، واذا أربعة أنهـار ، نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فقلت ما هذا يا جبرائيل ؟ قال أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران ، فالنيل والفرات ، ثم رفع لى البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم أتيت باناء من خمر ، واناء من لبن ، واناء من عسل ، فأخذت اللبن قال هى الفطرة التى أتيت عليها وأمتك ٠

ثم فرض على الصلوات خمسون صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى ، فقـال بم أمرت ؟ قلت أمرت بخمسين صـلاة كل يـوم قال ان أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وانى والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك ، فسله التخفيف لأمتك فرجعت ، فوضع عنى عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشرا ، فرجعت الى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنى عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صـلوات كل يوم ، وبعث الى موسى ، فقـال بم أمرت ، فقلت بخمس صلوات كل يوم ٠ قال أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وانى قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك فسله التخفيف لأمتك ، قال سألت ربى حتى استحييت ، ولكنى أرضى وأسلم ، قال فلما جاوزت نادانى مناد : أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى » ٠

وفى رواية البخارى فى كتاب التوحيد أنه بعد أن راجع ربه بمشـورة موسى عليه الصلاة والسـلام ، وجاء فى مراجعة الخامسـة أنه قال لربه : « يا رب ان أمتى ضعفاء وأجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وآذانهم ، فخفف عنا ، فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد ، قال لبيك وسعديك ٠ قال انه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب قال لكل حسنة بعشر أمثالها ٠ فهى خمسون فى أم الكتاب هى خمس عليك » (١) ٠

وانه من المتفق عليه بين العلماء أن النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم أم الأنبياء أجمعين ، وعلى مقتضى الذين قالوا ان الاسراء كان بالروح تكون الامامة روحية ثبتت بالرؤيا الصالحة ، وكذلك يرى الذين قالوا ان المعـراج كان روحيا ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ والتفسير لابن كثير أول سورة الاسراء ٠

ولكن من الرواة ما يدل سياق روايته على أن صلاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالأنبياء اماما كان عند مقدمه الى المسجد الأقصى ، ومن الرواة ما يدل سياق الرواية على أن الامامة كانت وهو يعرج الى السموات العلا ٠

واختار ابن كثير فى تاريخه أن امامته عليه الصلاة والسلام للأنبياء كانت بعد أن نزل من العروج ، ويقول فى ذلك ٠

« وهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ، والظاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريما له وتعظيما ، عند رجوعه من الحضرة الالهية العظيمة ، كما هى عادة الوافدين ، لا يجتمعون بأحد قبل الذين طلبوه اليه ، ولهذا كان كلما سأل على واحد منهم يقول له جبريل : هذا فلان فسلم عليه ، فلو كان قد اجتمع بهم قبل صعوده ما احتاج الى تعرفه بهم مرة ثانية ، ومما يدل على ذلك أنه قال عليه الصلاة والسلام « فلما حانت الصلاة أممتهم ، ولم يجىء وقت اذ ذاك الا صلاة الفجر ، فتقدمهم اماما بهم عن أمر جبريل فيما يرويه عن ربه عز وجل » (١) ٠

وان هذا الكلام يدل على أن امامة النبى صلى الله عليه وسلم للأنبياء كانت بعد أن تنزل من الأفق الأعلى ، وان المعراج كما انتهينا كان بالروح ، وكانت رؤيا صادقة ٠

هذه قصة الاسراء والمعراج ، كما نص عليها فى القرآن الكريم ، وكما جاءت بها السنة الصحيحة ، وقد ذكرناها بشىء من الاطناب ، لكثرة الكلام حولها ، ولاختلاف الروايات ، فكان لابد من أن نصفى القول فيها ٠ وخصوصا أنها وانشقاق القمر أعظم خوارق العادات الحسية التى كانت فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومع ذلك لم يتحد بها كما تحدى بالقرآن الكريم لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انما تحدى بما يتناسب خلود شريعته ، ودوام رسالته وهو ما يبقى مخاطبا الأجيال كلها الى يوم الدين ، وهو القرآن الكريم ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣ ٠

انتشار الاســلام فى البلاد العربية

٢٠٣ ـــ اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة المكرمة الوحى ، ومنزل الدعوة الاسـلامية الأولى ، لأنها مطمع أنظـار العرب ، ولأنها مثابة الناس وأمنهم ، فهى تعد مصدر المعرفة العربية على قدر ما عند العرب ، وبها حج بيت الله الحرام ، وبها ملتقى العرب فى موسمه ، وبها أســواق الأدب ، والمتاع ، ففى موسم الحج يلتقى العرب من كل فج عميق ، وفى الأسواق التى تقام فى الموسم يتبارى الشعراء والخطباء فى عكاظ ، وذى مجاز ومجنة ·

واذا كانت مكة المكرمة لها تلك المكانة فى بلاد العرب ، فان كل ما يكون فيها من أحــداث تنتقل أخباره الى بلاد العرب ، فــاذا كانت الأحــداث منهــا رسالة رسول يدعو الى هدم الأوثان وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، فانه لابد أن يسير بخبرها الركبان ·

ومن العرب من لا يعيرها اهتماما ، ومنهم من يلتفت اليها ، ويهتم لها ، معاندا مع المعاندين ، أو طالبا للحق ، فيبتغيه ·

وكذلك كان الأمر ، فان أخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ودعوته الى الحق ، والى صراط مستقيم كانت تتجاوب أصداؤها فى البلاد العربية ، ومن العرب من كان يجىء الى مكة المكرمة متعرفا أمر ذلك الرســول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يرسل اليه من يتعرف دعوته ، ويدرسها ، كما فعل أكثم بن صيفى حكيم العرب ، اذ أرســل بنيه الى النبى صــلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف ما يدعو اليه ، فلما حضروا وسألوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : تلا عليهم قوله تعالى : « **ان الله يأمر بالعدل والاحســان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** » فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم · قال : انه ان لم يكن دينــا فهو خلق النــاس أمر حسن ، يــابنى كونوا فى هــذا الأمر أولا ، ولا تكونوا آخرا ·

وقد أسلم أبو ذر الغفــارى بهــذا العــلم العــام الذى شهرت به دعــوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وكذلك أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو ، فقد أسلم اذ جاءه الخبر بدعوة النبى صلى الله تعالى عليه وســلم ، وكان رجلا شريفا شــاكرا ، وقد

حضر الى مكة المكرمة ليتعرف خبره وما يدعو اليه ، ولنتركه يقص علينا قصة ايمانه ، اذ يحدث أنه قدم مكة المكرمة ، فمشى اليه رجال من قريش فقالوا : يا طفيل انك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل بنا (أى ظلمنا) وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وانما قوله سحر ، يفرق بين الرجل وبين بنيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وانما يخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا ٠

ويقول الطفيل : « فوالله ما زالوا حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت فى أذنى حين غدوت الى المسجد كرسفا خوفا من أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه ٠ فغدوت الى المسجد ٠ فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة الشريفة ، فقمت منه قريبا ٠ فأبى الله تعالى الا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ٠ فقلت فى نفسى : وأثكل أمى ، والله انى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته ٠

لما انصرف النبى عليه الصلاة والسلام من صلاته الى بيته تبعه الطفيل وقد مال الى الاسلام فدخل على النبى عليه الصلاة والسلام وقال له :

« يا محمد ، ان قومك قد قالوا كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع ، ثم أبى الله تعالى الا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولا حسنا فأعرض على أمرك ٠ قال فعرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلا على القرآن الكريم ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا رسول الله : انى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع اليهم وداعيهم الى الاسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونا عليهم فيما أدعوهم اليه ٠

عاد طفيل الى قومه يدعوهم الى الاسلام الذى انبعث نوره من مكة المكرمة ، زاد الله البيت الحرام تكريما وتعظيما » ٠

وفد نصارى نجران :

٣٠٣ — وممن أسلموا عندما علموا دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وفد نجرانوهم عشرون رجلا ،أو قريب من ذلك منالنصارى ،عندما

علموا أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من الحبشة ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق فهو يقول :

قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بمكة المكرمة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا اليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة الشريفة • فلما فرغوا من مساءلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عما ارادوا دعاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن الكريم ، فلما سمعوا القرآن الكريم فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره •

لما قاموا عنه مؤمنين اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا قولا اثما ، قالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتدون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبا أحمق منكم ، أو كما قالوا « فقالوا لهم سلام عليكم لانجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما انتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا » •

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى خبر هؤلاء فى القرآن الكريم مبينا له بالاشارة فى وصف عام لبعض أهل الكتاب ، فقال الله تعالى : « **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون ، واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، انه الحق من ربنا ، انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ، واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ، انك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، ونحن أعلم بالمهتدين** » •

وقد رجح الأكثرون أن هذه الآيات نزلت فى نصارى نجران الذين ذكرنا لك الخبر عنهم ، ولم تكن الآيات فى النجاشى وأتباعه ، ويقول ابن اسحاق ان الذى نزل فى النجاشى وأصحابه من النصارى هو ما جاء فى سورة المائدة ، اذ يقول الله سبحانة وتعالى : « **لتجدن أشد الناس عداوة الذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون ، واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع**

الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فآتاهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » ٠

عرض الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه على القبائل

٣٠٤ ــ يئس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يؤمن قومه فى هذا الوقت ، ورحمة الله تعالى قد تحملهم على الايمان ، ولكن بعد أدوار من الزمان والأحوال ، فاذا كان قد يئس من ايمانهم فى ذلك الايمان ، فهو لم ييأس من ايمانهم بعد تعاقب الأحداث ، لأن الله تعالى لم يقل له ، كما قال لنوح عليه السلام : « **انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن** » ٠

واذا كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجد من قومه الا الأذى فى هذه الجولة ، فانه وجد فى بعض الذين يفدون الى الحج ، أو يفدون اليه من يجد قول الحق الى قلوبهم سبيلا ، وقد رأينا كيف كان نور الاسلام ينبعث خارج مكة المكرمة فيجىء آحاد من القبائل العربية ، ويستمعون القرآن الكريم ، وهم ممن يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فاذا تلى عليهم القرآن الكريم خروا لله ساجدين ، ثم يدعون من بعد أقوامهم ٠

وقد رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتقدم الى القبائل فى موسم الحج يدعوهم فى منازلهم التى ينزلونها فى منى يذهب اليهم ، قبيلة قبيلة ، يدعوهم الى الحق ، ويتلو عليهم القرآن الكريم ، وقد أحست قريش بذلك ، فانبرى الذين يلجون فى عداوة الحق ليصدوا عن سبيل الله ، وعلى رأسهم أبو جهل ، وأبو لهب ، فكانا يتحريان أن يتبعاها ، واذ يدعو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الله تعالى بقوله : « يأيها الناس ، قولوا لا اله الا الله تفلحوا » يتصدى أبو جهل أو أبو لهب ، وهما يتناوبان ، فيقول : « يابنى فلان ، ان هذا انما يدعوكم الى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، الى ما جاء من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه » ٠

وهكذا كانت الدعوة المحمدية تأخذ طريقها ، والذين يصدون عن سبيل الله يدعثرونها ، ولكن نور الحق لا تطفئه الضلالة ، ولا تعمى عنه الأبصار ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم دائب على الدعوة ، اتبعوه أو فارقوه ، وربما

وجد غفلة عن اتباعه ، فانتهزها ، ومهما يكن مقدار الاستجابة ، فان اعلام الناس بعقيدة التوحيد ينبه الأذهان الى التفكير فى الأوثان ، ومجرد التفكير فيها يحبطها ٠

ولقد روى عن ابن شهاب الزهرى أنه قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم ، ويخاطب أشرافهم ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم مع ذلك الا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول « لاأكره أحدا على شىء ، من رضى منكم بالذى أدعو اليه ، فذلك ، ومن كره ، لم أكرهه ، انما أريد أن تحرزونى (أى تمنعونى) فيما يراد لى من القتل ، حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله تعالى لى ، ولمن صحبنى بما شاء » ٠

ونرى من هذا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم بالحكمة ، فهو يأتيهم من قبل ما شهر عن العرب بحبهم للنجدة ، ولا يأتيهم ابتداء بمحاربة تدينهم ، كما قال الله تعالى « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن** » ٠

وكان أكثر الجماعات لا يحبون دعوة الحق ، ومنهم من يحسن الرد ، ومنهم من كان يقول : الحق بقومك ، ولكن بعض الآحاد كانت تصغى أفئدتهم ، وان لم يستطع الكثيرون أن يخرجوا من ربقة ماهم عليه دفعة واحدة ٠

جماعات تقبل الوحدانية :

٣٠٥ ـــ ومع الصدود من الجماعات ، والصد من بعض الآحاد ، والميل من آخر كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ماشيا فى الاتجاه الى القبائل فى موسم الحج ، وهو يتوسم الناس ، ويتعرف الوجوه والأشراف ومعه أبو بكر الصديق ، وهو من أعلم الناس بأحوال العرب ٠

وكان بجوار القبائل التى أعرضت ، كانت جماعات قد أقبلت على الاستماع ، وبدت منها الاستجابة ، حتى كانت قبيلتا الأوس والخزرج ، على ما سنبين ، ولنذكر لك خبرا عن بعض الجماعات التى مالت ابتداء ، قبل اللقاء : بأهل يثرب ، وسنجد فى كلامهم مجاوبة تدل على قدرتهم على المتعة ، وقوة تفكيرهم ٠

روى أبو نعيم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صحب فى احدى مرات عرضه نفسه الكريمة على القبائل على بن أبى طالب وأبا بكر رضى الله تعالى

عنهما ، وكان بين أبى بكر ، وبين قبيلة من شيبان بن ثعلبة صلة ومودة ، ثم جرى بينهم وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حديث طويل :

قال أبو بكر مخاطبا القوم : ممن القوم : قالوا من بنى شيبان بن ثعلبة ٠

فالتفت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال بأبى أنت وأمى ليس بعد هؤلاء من عز فى قومهم ، وهؤلاء غرر فى قومهم ، وغرر النـــاس ، وكان فى القوم مفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة ؛ والمثنى بن حـــارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان أقرب الناس الى ابى بكر مجلسا مفروق بن عمـــرو وكان قد غلب عليهم بيانا ولسانا فقال له أبو بكر كيف العدد فيكم ٠

فقال له مفروق بن عمرو ، انا لنزيد عــلى ألف ، ولن تغـلب من قلة ٠

فقال له أبو بكر : فكيف المنعة فيكم ٠

فقال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جـــد ٠

فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ٠

فقال مفروق : انا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وانا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا ، لعلك أخو قريش (أى النبى صلى الله عليه وسلم) مخاطبا له ٠

فقال أبو بكر ان كان قد بلغكم أنه رسول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم فها هو ذا ٠

فقال مفروق بلغنا أنه يقول ذلك ، ثم التفت الى رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس ، وقام أبو بكر يظـــله ثبوبه ٠ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

أدعوكم الى شهادة ألا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأنى رســول الله وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله تعالى الذى أمرنى به ، فان قريشـــا تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد ٠

فقال مفروق : والى ما تدعو أيضا يا أخا قريش ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قول الله تعالى : « **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به ، لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** » ٠

فقال مفروق ، والى من تدعو أيضا يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان كلامهم لعرفناه ٠

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قول الله تعالى : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذئ القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** » ٠

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ولقد أساء قوم كذبوك ،وظاهروا عليك ،وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام هانىء بن قبيصة ، فقال : وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا ٠

فقال هانىء : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وصدقت قولك ٠ وانى أرى ان تركنا ديننا ، واتبعناك على دينك لمجلس جلسته الينا ٠٠ لم نتفكر فى أمرك ، وننظر فى عاقبة ما تدعو اليه ـ زلة فى الرأى ، وطيشة فى العقل ، وقلة نظر فى العاقبة ، وانما تكون الذلة فى العجلة ، وان من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن نرجع وترجع ، وننظر وتنظر ، وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة ، فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا ٠

فقال المثنى ! قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبنى ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة وتركنا ديننا واتباعنا اياك لمجلس جلسته الينا ، وانا انما نزلنا بين حيزين : أحدهما اليمامة ، والآخر السماوة ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما هذان الحيزان ٠

فقال له المثنى : أما أحدهما فطفوف البر ، وأرض العرب ، وأما الآخر

فأرض فارس وأنهار كسرى ، وانما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى : لا تحدث صوتا ولا تؤوى محدثا ، ولعل الأمر الذى تدعونا اليه مما يكرهه الملوك · فأما ما كان مما يلى العرب ، فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وأما ما كان يلى بلاد فارس ، فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ؛ فان أردت أن تنصرف ونمنعك مما يلى العرب فعلنا ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أسأتم الرد ، اذ أفصحتم بالصدق ، انه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه ·

ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مخاطبا لهم : « أرأيتم ، ان لم تلبثوا ، الا يسيرا ، حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ، ويغريكم بناتهم أتسبحون الله وتقدسونه ؟

فقال النعمان بن شريك : « اللهم ان ذلك لك يا أخا قريش » ·

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قول الله تعالى : « **انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه ، وسراجا منيرا** » ثم نهض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قابضا على يدى أبى بكر ·

ويقول ابن كثير فى البداية والنهاية بعد أن ساق الخبر · هذا حديث غريب جدا ، كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ، ومحاسن الأخلاق ومكارم الشيم ، وفصاحة العرب » (١) ·

وفى الخبر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تنبأ لهم أنهم سينتصرون على فارس قريبا ، وقد انتصروا فعلا ، وأعلن ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال لأصحابه : « احمدوا الله كثيرا ، فقد ظفر أبناء ربيعة بأهل فارس » وان هذا الخبر الطويل يدل على أمور :

(أ) منها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان دائبا على بث الدعوة بين القبائل فى موسم الحج ، سواء أكانوا من القبائل المتاخمة لفارس ، أم المتاخمة للروم فى الشام ، وأنه كان يلقى تأييدا على حسب البعد ·

(ب) ومنها ـ أنه كما كان يلقى صدودا ، كان يلقى أيضا حسن تفهم ، وان كان ثمة تمرد ، ومنشؤه أنهم لا يريدون أن يتركوا ما هم عليه ليغيروا بمجرد مجلس ·

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٤٤ ، ١٤٥ ·

ومنها ـ أن المنافسة وحب السيطرة بالشرف ، هى التى أضلت قريشا وحيث لا تكون منافسة يكون التدبر والتفكير ٠

ومنها تنبؤ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بما يكون باذن الله تعالى وعلمه ٠

ما بين الروم والفرس :

٣٠٦ ـ ولمناسبة ما تنبأ به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من هزيمة الفرس فى جوار البلاد العربية ، ووقوع الأمر كالنبأ نذكر تنبأ القرآن الكريم المنزل من رب العالمين من غلبة الفرس للروم ، وأن الفرس سيغلبون من بعد فى قول الله تعالى : « **ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** » ٠

ولقد ذكر علماء السيرة والمؤرخون أن كسرى قاد الفرس الى قتال الروم ، فانتصروا عليهم ، وهم من عبدة النير ؛ فهم كعبدة الأوثان ، ويصدران عن ضلال واحد ، فكان المشركون يعتزون بهذا النصر ، أنهم لا محالة سينتصرون على المسلمين ، لأنهم أميون ، وليسوا أهل كتاب ، والمسلمون أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، فكانت المفاخرة ممن يقاربونهم ، ويستطيلون بهم للايهام بأنهم سينتصرون على المسلمين ، فنزل قول الله تعالى : « **ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم** ٠٠ » ٠ الى آخر الآيات الكريمات ٠

وقد قال بعض المشركين ان الروم لن يغلبوا ، وقال له أبو بكر الصديق سيغلبون فى بضع سنين فتراهنا على عدد من الابل ، فى تسع سنين ، ان انتصر الروم فيها خسر الشرك الرهان ، وان لم ينتصر الروم فيما كان أبو بكر عليه أن يدفع ما تراهنا عليه ٠

وقد انتصر الروم فى هذه المدة ، فكان الرهان لأبى بكر ، ويظهر أن ذلك النصر كان بعد أن هاجر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ٠

والحافظ ابن كثير يذكر فى هذه ذلك الخبر ، فيقول :

« المشهور أن كسرى غزاه (أى هرقل) بنفسه فى بلاده ، فنهره ، وكسره ، حتى لم يبق معه (أى هرقل) الا مدينة القسطنطينية ، فحاصرها كسرى مدة

طويلة ، حتى ضاقت عليه ·· ولم يقدر على فتح البلد · لحصانتها ، لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم (أى الروم) الميرة من هنالك ·· فلما طال الأمر ، دبر قيصر مكيدة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده ، على مال يصالحه عليه ، ويشترط ما شاء فأجابه الى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب ، وجواهر ، وأقمشة ، وجوار ، وخدام ، وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر ، وهمه أن عنده جميع ما طلب ؛ ··· وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج الى بلاد الشام ، وأقاليم مملكته ، ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ·

فخرج من القسطنطينية فى جيش متوسط ··· وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فذهب قيصر من فوره وسار مسرعا ، حتى انتهى الى بلاد فارس فعاث فيها فسادا وقتلا فى رجالها ، ومن كان بها من المقاتلة وقد كان أكثرهم مع كسرى ·· ولم يزل يقتل ، حتى انتهى الى المدائن ، وفيها كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها ، وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه ، وحلق رأس ولده ، وأركبه على حمار ، وبعث من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة ، وكتب الى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذه ····

أصاب العمى كسرى ، واشتد حنقه على البلد (القسطنطينية) فجد فى حصارهم فلم يقدر على شىء ·

عاد كسرى الى بلده بعد أن حزب بمكيدة قيصر مكيدة بعد مكيدة ، وبذلك غلب الفرس فى أدنى الأرض كما غلبوا الروم من قبل ، ولله الأمر من قبل ومن بعد (١) ·

وقد ذكر ذلك الخبر فى هذا المقام ، لأن ذكره امتداد لما انتصر بهبنوشيبان على كسرى ، كما تنبأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولسنا مقحمين له فى غير موضعه ، لأن وقائعه كانت قبل الهجرة ، وامتدت الى ما بعدها ، ولأنه ايذان بنصر الاسلام فى فارس من بعد ·

ولنعد بعد ذلك الى التقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان قبل الهجرة من تمهيد لها ·

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٤ ، و ٤٢٥ ·

التقاؤه صلى الله عليه وسلم بالأوس والخزرج

٣٠٧ ـــ أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل كما أسلفنا من القول ، وما علم فى موسم الحج أن ملأ من قبيل قد جاء الى مكة المكرمة الاعرض عليه الدعوة الاسلامية ، والى التوحيد ، والايمان بالله ، وبأنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الله وما علم بوجود كبير فىقومه يقول فيتبع الا عرض الاسلام عليه ٠

وقد التقى بكثيرين من شمال البلاد العربية وجنوبها ممن جاوروا الروم ، وممن جاوروا الفرس ، وعقب أن لقى من ربيعة التى تجاوز فارس من رأىفيهم من أشراف العرب من كان فيهم نخوة ، ومعرفة وادراك الواجبالتقى ببعض رجال من يثرب ، التقى أولا بجماعات منهم ، ثم كان الاتفاق على التأييد والنصرة بعد الاتباع على الايمان ، وهدى من الله سبحانه وتعالى ٠

وكانت يثرب بأحوالها ، وما فيها الأرض التى تقبل الدعوة المحمدية ، ذلك لأن أهلها كان اليهود يحاربونهم ولم يكونوا معهم على وفاق ، كشأن اليهود حيثما كانوا ، وأينما ثقفوا ، وكان أهل المدينة وثنيين ، واليهود أهل كتاب ، فكانوا يذكرون لهم انه الآن نبى مبعوث ينصر اليهود على الوثنيين ، وكما قال الله تعالى : « **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ٠ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين** » وبذلك كانت بين أيديهم معرفة للنبوة ، وادراك للبعثة المحمدية ٠

وفوق ذلك كان أهل يثرب ينتمون الى قبيلة الأوس والخزرج ، وكان الخلاف بينهم شديدا ، وكانوا يتقاتلون ، وربما كان خلافهم بعمل يهودى ، كشأنهم فى تفريق الجماعات ، والقاء بذور الفتن فى اى مجتمع يعيشون فى ظله ٠ فكان التنافر بين الأوس والخزرج قبيلتى يثرب مستمرة ، والحرب تقع من وقت لآخر ، وفيهممن يهم بالاستنصار بقريش على الآخرين ، فكانوا فى حاجة أو نصرة من الخارج ، ولتوالى التناحر ، وكانوا يرحبون بمن يؤلف بينهم ، فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو الجامع بينهم ، والله تعالى المؤلف بين قلوبهم ، كما قال الله تعالى : « **واذكروا اذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** » ٠

ابتداء الاتصال باهل يثرب :

٣٠٨ — ابتدأ الاتصال بأهل يثرب من الأوس والخزرج بالآحاد ، ثم سار فى طريق النمو ، حتى صار الاتصال بالجماعات ، ثم كانت البيعة ، وتكررت مرتين ٠

يروى ابن اسحاق أنه قدم سويد بن الصامت وهو من بنى عوف مكة المكرمة حاجا ، وكان رجلا شريفا ، ونسبه رفيعا يسمى فى قومه الكامل ، لجلده وشرفه ، وكان شاعرا وله صوت مسموع فى قومه ٠

فتصدى له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حين سمع به ، فالتقى به ودعاه الى الاسلام ٠ فكانت بينهما مجاوبة لأنه لم يكن أعرابيا ليس على علم ، بل كان على علم يمهد له العلم بالنبوءات ٠

دعاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ٠ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال مجلة لقمان — يعنى حكمة لقمان — فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أعرضها على ٠ فعرضها عليه ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا الكلام حسن : والذى معى أفضل منه ، هذا قرآن أنزله الله تعالى على هدى ونور ٠ ثم تلا صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن الكريم ، ودعاه الى الاسلام ، فلم يبعد منه وقال : ان هذا القول حسن ٠ ثم انصرف عنه الى المدينة ، وقدم على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج ٠ وكان قتله قبل واقعة بعاث التى كانت بين الأوس والخزرج ٠

ولقد كان رجال من قومه يقولون انا لنراه قتل مسلما ، وان مقدمات الاسلام كانت منه فى لقائه بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ قال فى القرآن الكريم : « ان هذا القول حسن » وهذا يدل على أن قلبه قد فتح للايمان ، وان كان وصف القرآن الكريم أعلى من ذلك ، ولقد جاء من بعد ذلك جماعات من الأوس على رأسهم أنس بن رافع ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، أى ليعقدوا حلفا مع قريش لينصروهم من الخزرج ٠

سمع بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأتاهم ، فجلس اليهم ، فقال ، هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ قالوا : وما ذاك ؟ فقال لهم : « أنا رسول الله تعالى الى العباد ، أدعوهم الى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب ، ثم ذكر لهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن الكريم ٠

وكان فيهم شاب مدرك وهو اياس بن معاذ ، فقال لهم : يا قوم هذا والله خير مما جئتم له ٠ فنهره رئيس الجماعة وقال له : دعنا عنك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا ٠ فصمت اياس بن معاذ ، وعادوا الى المدينة ، ثم مات اياس ، وقد قال من حضر موته من قومه انهم لم يزالوا يسمعونه يهلل لله ويكبره ويسبحه ويحمده ، فما كانوا يشكون فى أنه مات مسلما ، وان الله تعالى قد أنار بصيرته ، وأعطاه الله نفسا طيبة تدرك الحق عند أول سماعه ، وتؤمن به اذ خلصت لله تعالى ٠

يوم بعـاث :

٣٠٩ — بعاث موضع بالمدينة المنورة ، تقاتل فيه الأوس والخزرج ، وكانت بينهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج ، وكبرائهم ، ولم يبق كما يقول ابن كثير من شيوخهم الا القليل ، فعضتهم الحرب عضا شديدا بنابها ، وكان ذلك غب عودة الأوس من مكة المكرمة ، وعرض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه عليهم ، وأجابه شاب منهم ، ونفره رئيس الوفد ٠

وان الشدة فى كثير من الأحيان توجد فى القلب نورا ، وكأن الأحياء فى تناحرهم يحدث من التحامهم نور يضىء كالنور الذى يحدث من احتكاك شيئين، أحدهما موجب والآخر سالب ٠

فقد كانت واقعة بعاث هذه بعد دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، داعية أهل يثرب للتفكير فيما جاء به عليه الصلاة والسلام ، وعندهم معرفة عارضة بمبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه كان ابتداء لدخول الناس من يثرب فيه جماعات ، بعد أن كانوا يدخلون آحادا ٠

وقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، أنها قالت : « كان يوم بعاث يوما قدمه الله تعالى لرسوله » ٠ قدم رسول الله صلى اللهتعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة ، وقد افترق ملؤهم ، وقتل سرائهم ٠

لقد اكتووا بنار الحرب ، ومن اكتوى بها ، طلب برد السلام والاطمئنان ، وفتح قلبه لنعمة الله تعالى ٠

بدء اسلام الأنصار

٣١٠ — قلنا ان دخول الاسلام يثرب بالآحاد ، يدخلون فيه فرادى ثم جاء من بعد ذلك من يدخلون فى دين الله تعالى أفواجا أفواجا ·

وان أولئك الآحاد كانوا يذكرون نعمة الاسلام فى عشائرهم ، فيستأنسون به ، ولم تكن لهم بأسرة النبى عليه الصلاة والسلام عداوة ، حجبتها المنافسة ، أو الحسد ، أو أثارها الحقد على بيته الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجدت بينهم معرفة الحق · وموجبات اتباعه ، من غير أن تكون المواقع التى تصد عن سبيل الله تعالى ، والتى تغلف القلوب بغلاف من العداوة والبغضاء ، فتمنع نور الحق من أن يدخل اليها ، فينيرها ·

فى الموسم الذى كان عقب بعاث والنبى عليه الصلاة والسلام يعرض الاسلام على القبائل بمنى ، يذهب الى منازلهم بها ، فى هذا الموسم التقى برهط من الخزرج ، قال ابن اسحاق فى سيرته : « فقال لهم : من أنتم · قالوا نفر من الخزرج · قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا لا ، قال أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى ، فجلسوا فدعاهم الى الله تعالى ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم ، القرآن الكريم ، وكان مما صنع الله تعالى بهم فى الاسلام أن يهود كانت معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا غزوهم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا ان نبينا مبعوثا الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه ، فنقتلكم مثل قتل عاد وارم ، وكان عندهم علم بذلك كما قرر القرآن الكريم ·

وان النفر الذين جاءوا من قبل ، وذاقوا بشاشة الاسلام ، قد أوجدوا بينهم الفكرة الاسلامية ، فلما كلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الرهط ودعاهم الى الله ، تذاكروا فيما بينهم كلام اليهود ·

قال بعضهم لبعض : « يا قوم : تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه » ·

لذلك أجابوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما دعاهم اليه ، وصدقوا به ، وأرادوا أن يسود الاسلام بينهم ، وأن يستبن الحق قومهم ، وأن يكون الاسلام طريق الخير لهم ، فقالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

« أنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، ولعل

أن يجمعهم الله تعالى عليك ، فلا رجل أعز منك » وهكذا أجابوا داعى الله وقد ذكرت كتب السيرة أسماء هذا الرهط من الخزرج (١) ٠

واختلفت الروايات ، أكانوا ستة أم كانوا ثمانية ، وكلهم من الخزرج ، ولكن من الروايات ما ذكر فيها أنه كان من الأوس أبو الهيثم ٠

ومهما يكن ، فقد كان أولئك وفد الخير والحق والصدق ، فما ان انصرفوا عائدين الى يثرب ، حتى أخذوا يذكرون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويدعون بدعوته ، حتى عمت وفشت ، وتذاكر بها أهل يثرب ، ومنهم من استجابوا لدعوة الحق ، لمجرد ذكرها ، ولم يطلبوا برهانا ، لأنها دعوة الى التوحيد ، وهى فى ذاتها صادقة ، وكانوا يعلمون بها ، اذ يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض وحده ، وما كانوا جاهلين بالله تعالى ، بل كان فيهم بقية من ملة ابراهيم ، واليهود بينهم يذكرون لهم أن رسولا فى مكة المكرمة قد بعث ، فكانت الدعوة الى الله تعالى مستجابة لا مراء فيها ٠

فشا الاسلام فى المدينة ، قبل أن يقدم اليها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقبل أن يرسل مبعوثا ، يعلمهم الاسلام ، ويتلو عليهم القرآن الكريم ، حتى ان ابن اسحق يقول بسنده المتصل ، لم يبق من دور الأنصار الا وفيها ذكر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلموه جميعا ، وعلموا دعوته اجمالا ، وتهيئوا البيعة ٠

العقبة الأولى أو البيعة الأولى

٣١١ ـــ تجاوبت أصداء الدعوة المحمدية فى ربوع يثرب وتذاكروها مذاكرة من لا يتنازعون فى شرف تمسه أو عصبية جاهلية ينصرونها ، ولكن تجاوب من يطلبون الحق ، ومن صغت أفئدتهم اليه ، ومن يرجون من الاستجابة زوال الفرقة التى تقسمهم ، وتجعلهم فى حرب مستمر ، وفوق كل ذلك يريدون أن يستعلوا بها على اليهود الذى كانوا يستفتحون عليهم بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سيكون مع أهل الكتاب عليهم ، فهم يسارعون اليه ، لأنهم يسارعون فى الحق ، ولا يبغون سواه ٠

---

(١) هذا السياق التاريخى فى السيرة لابن هشام ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والسهيلى وابن نعيم وصحاح السنة ٠

فلما كان موسم الحج الذى أعقب موسم اللقاء الأول ، وكان التفاهم الذى رجوا فيه الخير والأمن والسلام فى حضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الموسم جاء اثنا عشر نقيبا من الأوس والخزرج ، لا لأداء الحج فقط. بل لهذا ، وللقاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، مستجيبين له ، لما قد عاقدوا العهد على لقائه ، واعطائه به المواثيق عن أنفسهم ومن وراءهم ممن بعثوهم نقباء ، يتحدثون باسمهم ، ويقدمون العهود والمواثيق عنهم ٠

وقد روى عن عبادة بن الصامت أنه قال : « كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ليبايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. وكانت هذه البيعة بيانا للشرع الاسلامى فى العلاقات الاجتماعية ، والأسرية ، وأخذ العهد عليهم أن يقوموا بحقها ، وهى جزء من الاسلام على عقيدة التوحيد ، والعبادات ، على أساس هذه العقيدة ٠

وقد ذكر عبادة بن الصامت نص هذه المبايعة ، فقال : « بايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فان وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم شيئا فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له ، وان سترتم عليه الى يوم القيامة ، فأمركم الى الله تعالى ، ان شاء عذب وان شاء غفر. ولقد قال الحافظ ابن كثير ، ان هذا الحديث مخرج فى الصحيحين وغيرهما من طرق عن ابن شهاب الزهرى ٠ ونرى أن هذه المبايعة كانت لبيان بعض التكليفات الاسلامية التى لا اختلاف فيها ، وما كانت للايواء والنصرة ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد قرر الهجرة اليهم ، ولم يكن قد جاءه الأمر بذلك ، أو الايحاء به ، ولأنه لا يأخذ بعهد النصرة ، قبل عهد الايمان ، فما كان عهدهم عهد جوار ، ولكن عهد تأييد ، ومحاربة دون الاسلام ، ولا تكون الا بعد توثيق كلمة الايمان ، وحقها ٠

وقد سمى كثيرون من كتاب السيرة هذه البيعة بيعة النساء ، وما كانت هذه التسمية فيما نحسب فى وقت البيعة ، انما كانت بعد ذلك لمشابهتها لما ذكره القرآن الكريم من مبايعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للنساء فى أحكامها ، وان اختلف وقتها ، واختلف موضوعها ، فتلك كانت مع النساء ، أما هذه فكانت مع الرجال ، وهى للرجال وللنساء على سواء ٠ وهذا نص بيعة النساء كما جاء بها القرآن الكريم ، فقد قال الله تعالى فى سورة الممتحنة : **« يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على الا يشركن بالله شيئا ، ولا**

يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم » بيعة النساء بعد الهجرة ٠

مصعب بن عمير :

٣١٢ — انصرف القوم الى يثرب تحفهم بركة الله ، ونعمة الايمان ، فبعث معهم مصعب بن عمير الذى يلتقى فى النسب مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قصى بن حكيم ، فهو كما جاء فى نسبه مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى ٠

وقد أرسله اليهم ، ليدعو الى الله تعالى من لم يؤمن ، وليعلمهم ، ويفقههم فى الدين ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم ٠

ويذكر البيهقى بسنده عن عمرو بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما بعث اليهم مصعبا حين كتبوا اليه أن يبعثه اليهم ، وهو الذى ذكره موسى بن عقبة (١) ٠

وانا نرجح أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى اختار لهم مصعبا ، وأنه قرر أن يبعثه اليهم ليعلمهم الاسلام ويتلو عليهم ، فما كان من المعقول أن يتركهم صاحب الرسالة ، وقد استجابوا لله وللرسول من غير أن يرسل اليهم من يعلمهم ، ولعلهم قد كتبوا الى الرسول أيضا ، فالتقت رغبتهم مع ما قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ذهب اليهم مصعب بن عمير ، ومعه علم الاسلام ، وعلم القرآن الكريم ، فأخذ يعلمهم مبادىء الاسلام ، وعباداته ويقرئهم القرآن الكريم ، ولذلك سمى فى المدينة (المقرىء) ٠

وقد نزل عندما قدم المدينة عند أسعد بن زرارة ٠

وكان يؤم المسلمين بالمدينة المنورة فى الصلاة ، لأنه أعلمهم بالقرآن الكريم وبالاسلام ، اذ جاء ليعلمهم ، فهم منه بمقام التلميذ من الاستاذ ، ولأنه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٥١ ٠

رسول رسول الله عليه الصلاة والسلام صاحب الرسالة ، فهو نائبه ، والنائب يستمد ممن أنابه السلطان ، ويضيف للرواة سببا آخر مستمدا من العصبية الأولى ، وهو أن الأوس كرهوا أن يؤمهم خزرجى ، والخزرج كرهوا أن يؤمهم أوسى ، فكان الوفاق على أن يؤمهم مصعب ، ونرى أن السببين الأولين كافيان وهما الأليق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى أنه يتبادل الامامة مع مصعب ، ابن زرارة ٠

أول جمعة أقيمت بالمدينة المنورة :

٣١٣ — هذا عنوان أخذناه من سيرة ابن هشام ، رواه عن ابن اسحاق ، ونقول فيه ٠ ان هذه البيعة والاتصال بقبائل يثرب كان بعد الاسراء والمعراج ، حيث فرضت الصلوات الخمس ، والجمعة قائمة مقام صلاة الظهر وهى احدى الخمس ٠ وكان لابد أن تقام الجمعة فى المدينة المنورة بعد أن فشا الاسلام ، وسارت فى الطريق ، لتكون مدينة اسلامية ، يأمن فيها المسلم على نفسه وعلى دينه ، والجمعة تقوم حيث الأمن ، واستقرار الأمور على الوجه الاسلامى الذى يبتغيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ٠

لقد أخذ أسعد بن زرارة الذى نزل عنده مصعب بن عمير رضى الله عنهما وذهبا الى جبل هزم النبيت من حرة بنى بياضة فى بقيع يقال له بقيع الخضمات ، وكانت عدتهم يومئذ أربعين رجلا ٠

روى ابن اسحاق بسنده عن أبى أمامة عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك حين ذهب بصره قال : كنت اذا خرجت به الى الجمعة ، فسمع الآذان صلى على أبى أمامة ، أسعد بن زرارة ، فمكثت حينا على ذلك لا يسمع الآذان لجمعة الا صلى عليه واستغفر له ، فقلت فى نفسى ، والله ان هذا بى لعجز ، ألا أسأله ماله اذا سمع آذان الجمعة صلى على أبى أمامة أسعد بن زرارة ، فخرجت به فى يوم جمعة ، كما كنت أخرج ، فلما سمع الآذن للجمعة صلى عليه ، واستغفر له ، فقلت : « يا أبت مالك اذا سمعت الجمعة صليت على أبى أمامة ، فقال : أى بنى كان أول من جمع بنا فى المدينة فى هزم النبيت من حرى بنى بياضة فى مكان يقال له بقيع الخضمات ، قلت : وكم أنتم يومئذ ؟ قال أربعون رجلا (١) ٠

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢١ ص ٤١٥ والبداية والنهاية لابن كثير ص ١٥١ جـ ٣ ٠

ولم يكن عمل مصعب وأسعد بن زرارة من بنى النجار مقصورا على اقامة الصلوات ، بل أخذا يدعوان الى الاسلام فى يثرب ٠

فقد جاء فى السيرة لابن اسحاق وفى البداية والنهاية لابن كثير ٠ أنهما أخذا يدعوان الى الاسلام بنى عبد الأشهل ، وبنى ظفر ، وهما من أقوى الأنصار صوتا ، وأبعدهم ذكرا ٠ واليك ما جاء فى البداية والنهاية : كان سعد بن معاذ بن خالة أسعد بن زرارة ، فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر فجلسا فى الحائط (البستان) واجتمع اليهما رجال ممن أسلموا ، وسعد ابن معاذ ، وأسيد بن الحضير يومئذ من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه ٠ فقال سعد لأسيد ، لا أبالك انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانههما أن يأتينا دارينا ٠٠٠ فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل اليهما ٠ فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه ، قد جاءك ، فاصدق الله فيه ٠٠٠ فوقف عليهما أسيد متشتما ، ثم قال : ما جاء بكما الينا ، تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانى ، ان كان لكما بأنفسكما حاجة ، وقال غلام : أتيتنا فى دارنا رعديد الغريب لتسفه ضعفاءنا بالباطل ، وتدعوهم اليه ٠

فقال مصعب لأسيد : أوتجلس فتسمع ، فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكره ٠ قال أنصت ٠ ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالاسلام ، وقرأ عليه القرآن الكريم ٠

فقال مصعب وأسيد ، والله لعرفنا الاسلام فى وجهه ، فى اشراقه وتسهله ، قبل أن يتكلم ٠

فقال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ، كيف تصنعون اذا أردتم أن تدخلوا فى هذاالدين ، قالا له تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ٠٠٠ ففعل ما طلبا اليه ، ثم قال لهما : ان ورائى رجلا ان اتبعكما لم يتخلف أحد من قومه ، وسأرسله اليكما ، سعد بن معاذ :

ثم أخذ حربته وانصرف الى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر اليه سعد بن معاذ مقبلا قال أحلف بالله ، لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ٠

فلما وقف على النادى ، قال سعد ما فعلت ٠ قال كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ٠ وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن

بنى حارثة خرجوا الى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنـه ابن خالتك ، ليحقروك ٠

فقام سعد مغضبا مبادرا ، مخوفا للذى ذكر له من بنى حـارثة ، وأخـذ الحربة فى يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا ٠

ثم خرج اليهما سعد ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا ، انما أراد أن يسمع منهما فوقف متشتما ، ثم قال سعد بن زرارة والله يا أبا أمامة لولا ما بينى وبينك من القرابة ، مارمت هذا منى ، أتغشانا فى دارنا بما نكره ٠

قال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ان يتبعك لا يتخلف منهم اثنان ٠

قال مصعب : أوتقعـد فتسـمع ، فان رضيت أمرا رغبت فيه قبلته ، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره ٠

قال سعد ، أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ٠ وعرض عليه الاسلام ، وقـرأ عليه القـرآن الكريم ، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سـورة الزخرف « **حم ، والكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وانه فى أم الكتاب لدينا لعـلى حكيم ، أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ، وكم أرسلنا من نبى فى الأولين** » فعرفنا فى وجته الاسلام قبـل أن يتكلم فى اشراقه وتسهله ٠

ثم قال سعد لهما : كيف تصنعون اذا أنتم دخلتم فى هذا الدين ، قالا تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ثم كانت شهادة الحق ، ٠٠٠ وقد أخذ حـربته بعد أن فعل ما أشار به ، فأقبـل عائدا الى نادى قومه ، فلما رآه قومه مقبلا ، قالوا نحلف بالله لقد عاد اليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم ، وقف داعيا للاسلام ، ويقول :

يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضـلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة ، قال فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله (١) ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٥٢ ، ١٥٣ ٠

اجتمع مصعب وأسعد بن زرارة وسعد بن معاذ فى منزل أسعد ، وأخذوا يدعون الى الاسلام حتى فشا فى يثرب فأسلم بنو عبد الأشهل رجالا ونساء ٠

وقد فصلنا القول فى دعاية مصعب بن عمير ، وأسعد بن زرارة ، ونقلنا لك المجاوبة التى جرت بين الزعماء والكبراء ، فان الاستماع الى كلمات الرجال ، كما جرت على أفواههم تصور حالهم ونفوسهم ٠

لقد كانوا ينتهون من المجاوبة الى الاصغاء الى دعوة الحق واتباعها من غير تلكؤ ، وان هذا يدل على صفاء نفوسهم ، وحيث خلت النفوس من المنازعات بالشرف ، والمنافسة فى الفخر ، فانها تتجه الى الحق بقلب سليم ، فتسارع الى الدخول فيها ، وقد أحسوا أن فى الاتباع منجاة لهم من التفرق والنزاع الذى أداهم الى الحرب ، وعضتهم بنابها ، وفوق ذلك كانت وصلتهم ارهاصات بذكر النبوة المحمدية كان يستفتح بها اليهود عليهم ٠

العقبة الثانية

٣١٤ ــ جاءت العقبة الأولى بعد اللقاء الأول بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والخزرج وبهم انتقل خبر الاسلام الى يثرب التى أعدها الله تعالى لتكون المدينة الفاضلة ، مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم كان فى العقبة الأولى التعريف بمبادىء الاسلام ، والبيعة بها ، على أن تكون هذه البيعة الميثاق الذى أخذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت البيعة الثانية فى العقبة بعد أن فشا الاسلام ، وكانت تمهيدا للانتقال الى المدينة والهجرة ، ويظهر أنها كانت فى آخر موسم حضره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة المنورة ، والعقبة الأولى كانت فى الموسم الذى قبله ، ولذلك كانت البيعة فيها بالايواء والنصرة ، كما يتبين ذلك ٠

ويظهر أن خبر اتصال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتسرب الى قريش ، ويحاولون أن يأخذوا حذرهم ، اذ رأوا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل ، وهم يتوجسون خيفة من أن تخرج الدعوة الى التوحيد من بين ظهرانيهم الى العرب ، وانهم يتوقعون منهم الاستجابة ، ليستعين بهم ، ويتخذ منهم قوة عليهم ٠

وقد رأينا كيف يتعقبه أبو جهل وأبو لهب ، ويتناوبان ٠

لذلك عندما جاء مصعب من يثرب هو وأسعد بن زرارة ، ومعهم جماعات من الأوس والخزرج ، قد أسلموا وقد كان معهم من سـكان يثرب من كانوا لا يزالون على وثنيتهم ، ولم يذوقوا بعد بشاشة الاسلام ، ومنهم من تتجافى قلوبهم دونه مثل عبد الله بن أبى سلول الذى أكله بغض الاسـلام والمسلمين ، حتى صار رأس النفاق فى المدينة المنورة من بعد ، وكان يضع الفتنة ويبنيهـا ، ويثيرها حيثما وجد الى ذلك سبيلا ·

ولقد أخذ النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم حذره من ناحيتين ، من ناحية قريش الذين احتسبوا بأن أمرا يدبر من ورائهم ، ولقد كان يرى عيونهم تبث من حوله ، حتى ان الرسـول صـلى الله تعالى عليه وسـلم ليقول لوفد الأوس والخـزرج عنـدما التقى بهم فى العقبة : « ليتكلم متكلمكم ، ولا يطل الخطبة ، فان عليكم من المشركين عينا ، وان يعلموا بكم يفضحوكم » ·

والناحية الثانية من أولئك المشركين الذين صحبوا المسلمين من الأوس والخزرج ، ولعله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما حذر من عيون المشركين ، كان كلامه يعم الفريقين ، فريق قريش ، وفريق المشركين الذين صحبوا وفـد الايمان ·

ولهذا لم يلتق فى أول حضورهم ، بل ضرب لهم موعدا فى أيام منى ، فلم يأخذ عليهم البيعة فى أول لقاء ·

فروى ابن اسحاق بسنده عن كعب بن مالك ، قال « خرجنا الى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالعقبة من أواسط أيام التشريق فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ···· وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين ·

ويقول كعب فى هذه الرواية : فنمنا تلك الليـلة فى قومنا فى رحالنا ، حتى اذا مضى ثلث الليل خرجْنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسـلم نتسـلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا عند العقبة ونحن ثلاث وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان ·

هذه رواية كعب بن مالك ، وروى أنهم كانوا سبعين ، ومعهم امرأتان ·

التقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فى الميقات المحدود ، والمكان المعين وقد صحبه فى هذا اللقاء عمه العباس بن المطلب ، وهو على دين قومه ، وانما صحبه ليتوثق له ، ويطمئن على نصرته ، وقد قال فى هذا اللقـاء ، :

« يا معشر الخزرج (١) ، ان محمدا منا ، حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هم على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وانه قد أبى الا الانحياز اليكم ، واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه فى عزة ومنعة من قومه وبلده ٠

عندئذ قال قائل الأوس والخزرج ، قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ٠

فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعا الى الله تعالى ، ورغب فى الاسلام ٠

وقد طلب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يختاروا من بينهم اثنى عشر نقيبا ففعلوا ٠

البيعة :

٣١٥ — هذه هى البيعة الثانية ، كما جاءت بذلك الروايات المتضافرة وقد انقسمت البيعة الى قسمين :

أحدهما — لتوثيق مبادىء الاسلام ؛ وقد روى الامام أحمد فى هذا القسم : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه : « تبايعون على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ٠ وأن تقولوا فى الله لا تخافون لومة لائم » ٠

والقسم الثانى — خاص بنصرته صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ وأن يمنعوه ٠

ويروى ابن اسحاق عن أبى أمامه أسعد بن زرارة أنه قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا

---

(١) قال ابن هشام كانت العرب يسمون هذا الحى الخزرج ، خزرجها وأوسها ، ولعل ذلك لأنهم كانوا أكثر أو أظهر عند قريش ٠

من الثواب على الله وعليكم اذا فعلنا ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أسألكم لربى أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، وأسألكم لنفسى وأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا ، وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم » ٠

وروى الامام أحمد أيضا عن عبادة بن الصامت أنه قال : انا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا قدم علينا يثرب ، مما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ، ولنا الجنة ٠

هذه روايات متعددة فى ألفاظ البيعة ومعانيها ، ولا تخالف بينها ، بل يكمل بعضها بعضا ، واذا كانت نقصت بعض العبارات من رواية ، فان الرواية الأخرى تكملها ٠

ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نتيجة البيعة « أخذت وأعطيت » أخذ عليهم العهد لله بالتوحيد والطاعة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأعطاهم الوعد بالجنة ٠

ولقد أعطوا الوعد بالنصر والايواء عن بينة من ربهم ، فقد بين بعضهم لبعض ما فى الوعد بالنصرة من تبعات ، سيتحملونها ، ولنذكر لك بعض ما تذاكروه قبل أن يصفقوا بالبيعة ، أو فى عنفها ٠

قال العباس بن عبادة بن فضلة الأنصارى أحد بنى سالم بن عوف :

هل تدرون على من تبايعون هذا الرجل ! قالوا نعم ٠

قال انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، على نهكة المال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا فانا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ٠

ولقد قال البراء بن معرور أحد النقباء مجيبا قول النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم عندما طلب أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم • قال رضى الله تعالى عنه :

نعم ، فوالذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع ، أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرا من كابر •

واعترض أبو الهيثم بن التيهان فقال : « يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا ـ وانا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت ان قبلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا •

فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم •

ولقد قال ابن هشام الهدم الهدم « يعنى الحرمة » ، أى ذمتى ذمتكم ، وحربى حربكم •

ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن تمت البيعة : « أنتم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين بعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على مدتى » •

بهذا تمت البيعة الثانية ، وكانت ايذانا بالهجرة ، وكان أساس قيامها ما يكون من حماية للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد كانت حماسة الأنصار لهذه البيعة شديدة ، وبعضهم أراد تنفيذها ؛ ومحاربة قريش فى عقر دارهم ، لقد قال العباس بن فضلة الذى نقلنا كلامه آنفا : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ؛ ان شئت لنميلن على أهل منى عذابا بأسيافنا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لم نؤمر بذلك ، ولكن أرجعوا الى رحالكم •

علم قريش بالبيعة :

٣١٦ ـ كان حذر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يعلم المشركون بالبيعة قبل أن تتم فى موضعه ، لأنهم كانوا يبثون العيون لمعرفة أخبار الخزرج والأوس ، اذ كانوا يتوجسون منهم خيفة •

لقد رجع أهل البيعة الى منازلهم فلما أضحوا عذا عليهم ناس من جـلة قريش ، حتى جاءوا الى منازلهم ٠

فقالوا يا معشر الخـزرج ، انـه قد بلغنـا أنـكم جئتم الى صـاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وانه والله ما من حى مـن العرب أبغض الينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ٠

وقد كان من بين أهل يثرب مشركون مثلهم ، وقد اجتهـد الذين مـال قلبهم للايمان وأسلموا أن يخفوا عنهم أمر البيعـة وما يتصل بها ، لذلك انبعث من أولئـك المشركين من يحلفون ما كان من هـذا شىء وما علمنـا ، فصـدق القرشيون مقالتهم ٠

وقد روى ابن اسحاق أن القرشيين أتوا عبد الله بن أبى بن سلول الذى صار من بعد رأس المنافقين ، وكان من المشركين ، فسألوه عند أمر البيعة ، فقـال لهم ، ان هـذا الأمر جسيم ، ما كان قومى ليتفرقوا عـلى مثـل هذا ، وما علمته ، كان الأمر بالنسبة لقريش أول الأمر ظنا ظنوه ، ولم يكونوا قـد استوثقوا من صدقه ، فكان التكذيب كافيا ، لازالة الظنـة ، ولكن لم يطمئنوا ٠

لذلك أخذوا يتحرون صدق الخبر ، ليطمئنوا ، فلما نفر الناس من منى ، وجدوا أن البيعة قد تمت ، أو أن ما ظنوه ظنا قد وقع ٠

راعهم ذلك ، فخرجوا فى طلب القوم الـذين بايعوا ، فلم يلحقـوا بهم ، ولكن أدركوا منهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، وكان كلاهما من النقباء ، وقد استطاع المنذر ألا يمكنهم منه ، فأعجزهم أتباعه ٠

وأما سعد بن عبادة فأخذوه فربطوا يديه الى عنقه ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة المكرمة يضربونه ، ويجذبونه بجمته (١) ، وكان ذا شعر كثيف ٠

ولقد حكى سـعد حاله ، فقـال : « فوالله انى لفى أيديهم ، اذ طلع على نفـر من قريش فيهم رجل وضىء الوجه شعشاع ، حـلو من الرجـال ، فقلت فى نفسى ان يك عند أحد من القوم خير ، فعند هذا ، فلمـا دنا منى كلمنى كلمـة شديدة ، فقلت فى نفسى : « لا والله ، ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله انى لفى أيديهم ، اذ أدلى لى رجل ممن معهم ، فقال ويحك أما بينك وبين أحـد من

---

(١) الجمة مجتمع شعر الرأس من مقدمه ٠

قريش جوار ، ولا عهد · قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم ·· تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، للحارث بن حرب بن أمية ·· قال ويحك ·· وخرج ذلك الرجل اليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة الشريفة ، فقال لهما ان رجلا من الخزرج يضرب بالأبطح ، ويذكر ان بينكما وبينه جوارا ، قالا ومن هو ؟ قالو سعد بن عبادة ، قال صدق والله ! انه كان ليجبر تجارنا ، ويمنعهم من أن يظلموا ببلده ، فجاء فخلصا سعدا ·

ذكرنا هذه القصة بطولها · ليتبين أن قريشا أحنقهم ، أن استجيب طلب محمد عليه الصلاة والسلام أن يجد المأوى لدعوته فى يثرب وظهر غضبهم فى تتبع القوم وفى الأذى الذى أنزلوه بسعد بن عبادة ، وهو الذى أدركوه ، وغيره قد اجتازوا الطريق ، ورحلوا ، قبل أن يصلوا ، ولو أدركوهم فوق السبعين لا يعلم الا الله تعالى كيف تكون العاقبة · ولعلها تكون أول موقعة بين المشركين والمسلمين ، بل لعل هذه المطاردة ذاتها أول معركة بين قوة الاسلام ولو قليلة وقوة الشرك ، وان كانت كثيرة ، ولعل المشركين ادركوا بأن عهد الاستضعاف أوشك على نهايته ، والله ولى الصابرين ·

ابتــداء الهجــرة

٣١٧ ـــ وجد المسلمون أنه صار لهم مأوى ينتقلون اليه ، وشعر المشركون أن الاسلام خرج نقيا طاهرا ظاهرا قويا من أرضهم ليكيل لهم الضربة بمثلها ، والايذاء يدفعه ، وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد صار له قوة تناوئهم ان أرادوا به كيدا ، وأنه قد تلتف عليه قبائل العرب ، قبيلة قبيلة ، وما شعروا بالندم على أن حاربوه ، ولم يمكنوه من الدعوة ، بل لاقوه هو وصحبه بالأذى والاستهزاء ، ولكن الندم لم يعرهم ، لأنهم سادرون فى غيهم · وقد استولت عليهم العداوة ، ومن استولى عليه العداء ، وسيطرت البغضاء ، لا يرعوى ، ولا يتجه الى الرجوع عما هو فيه ، وكلما ازداد قوة ازداد حدة · ولا ندم مع الحدة ، لأن الندم شعور بسلطان الحق · وليس للحق سلطان فى قلوب المشركين الذين استمكن الشرك والتعصب فى قلوبهم ، فلا تزيدهم مظاهر القوة فى الحق الا عتوا واستكبارا ، ولا ننسى أن المنافسة بين العشائر ، والتنازع بين الشرف هى الأصل فى الأعراض ، وتثبيت الكفر فى القلوب ، وكلما ازدادت قوة الدعوة ، حسبوا أن ذلك زيادة لشرف بنى هاشم أهل الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ·

ولذلك اشتد كلبهم على المسلمين الذين بين ظهرانيهم ، لما رأوهم يخرجون

الى قوة يتجمعون بها ، ولم يخرجوا فارين بدينهم ، كما خرجوا فى هجرة الحبشة مرتين ، بل هم فى هذه المرة يخرجون ليجمعوا قوة يستعصمون بها بتوفيق الله تعالى ، وهدايته ٠

وذلك هو الفرق الواضح بين هجرتى الحبشة ، وهجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك لم ترعهم هجرتا الحبشة ، بل أثارت اشفاق بعض قريش كعمر بن الخطاب ، كما ذكرنا ، أما الهجرة الى يثرب ، فلقد أزعجتهم ، وأثارت غضبهم ، وان كان ثمة اشفاق ، فعلى أنفسهم لا على غيرهم ٠

هذا شعور المشركين من قريش عندما بايع أهل يثرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما شعور المؤمنين الصابرين فقد ابتدأوا يحسون بنصر الله تعالى لهم ، وأنهم صار لهم قوة ، تدفع عنهم وبهم ذل الاستضعاف والاستهزاء ، كما قال الله تعالى : « **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** » ٠

النبى صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على الهجرة :

٣١٨ — أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد البيعة الثانية — يحرض المؤمنين على الهجرة الى يثرب ٠ وأهل يثرب من الأوس والخزرج يدعون الى دين الله تعالى ، وينشرونه بين أهليهم واخوانهم ، حتى صاروا كثرة كاثرة فى المدينة ، وصاروا هم أنصار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصبحوا كالحواريين لعيسى عليه السلام ، بيد أن الحواريين لم يكونوا عددا كثيرا ، وكان الأنصار عددا كثيرا من بعد ٠

روى البخارى ومسلم بطرق مختلفة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « رأيت فى المنام أنى أهاجر الى أرض بها نخل ، وذهب وهمى الى أنها اليمامة أو هجر ، فاذا هى يثرب » وروى الزهرى عن عروة بن الزبير عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يومئذ بمكة المكرمة للمسلمين : « قد رأيت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لا بتين » فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورجع الى المدينة من كان هاجر الى الحبشة من المسلمين ٠

ويذكر ابن اسحاق فى سيرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم برواياته أن الاذن بالهجرة أو الأمر بها ذكره الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالت كلماته : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا**

من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

ونرى أن هذه الآيات الكريمات نزلت بالمدينة المنورة ، لأن سورة الحج مدنية ، ولأن الآيات تنبىء عن أنهم أخرجوا بالهجرة من ديارهم ، وان الاذن من الله بالخروج والاخراج قبل الهجرة ، والسبب مقدم على المسبب وان الأمر فيها اذن بالقتال ، وهو بعد الهجرة ، بعد أن صارت قوة متجمعة فى يثرب التى صارت مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

الاذن للمؤمنين بالهجرة :

٣١٩ — أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويبين لهم أن فى يثرب الايواء والنصرة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها » .

بعد هذا الأذن الصريح الذى يكاد يكون أمرا ، خرج المسلمون مهاجرين أرسالا ، آحادا وجماعات ، ولم يجد المهاجرون السبيل ذللا سهلا ، بل كانوا يجدون معوقين من قريش ، لأن هؤلاء بعد أن علموا ببيعة الأنصار أدركوا أن المسلمين بمكة المكرمة يتجمعون باخوانهم فى يثرب التى صارت مدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذوا يترصدون كل من هاجر ، فان استطاعوا منعه منعوه ، فحاولوا أن يمنعوا أم سلمة وزوجها ، وتركوه يهاجر دونها ، وهى بارادة مؤمنة صبرت وهاجرت وحدها ، حتى وجدت من أهل المروءة من عاونها على هجرتها :

وأحيانا كانوا يتحايلون على المهاجرين بالكذب حتى يردوهم ثم يعذبونهم غير موفين بعهد أو ذمة ، ولنضرب لذلك مثلا ، بأحد المهاجرين وهو عياش ابن أبى ربيعة .

يروى أن عياشا هذا عندما هم بالهجرة أخرج اليه أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، فتبعاه ، حتى قدم المدينة المنورة ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد هاجر بعد ، بل كان لايزال بمكة المكرمة وقالا له : ان أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق لها ، فقال له عمر وكان معه :

« يا عياش انه والله ، ان يريدك القوم الا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت ، فقال وهو مخدوع : أبر أمى ، ولى هناك مال فآخذه · قال له عمر : والله انك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما · فلما أبى ذلك قال عمر الرفيق الشفيق ، أما اذ فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتى هذه ، فانها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فان رابك من أمر القوم ريب ، فانج عليها ، فخرج عليها معهما ، حتى اذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : يا أخى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه · قال بلى ، فأناخ وأناخها ليتحولا عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه ، فأوثقاه رباطا ، ثم دخلا به مكة المكرمة ، ففتناه فافتتن ، وخرج من الاسلام مكرها ، وقلبه مطمئن بالايمان ·

وكان صاحب عمر فى الهجرة ، ومعهما صاحب ثالث ، وهو هشام ابن العاص أدركه أهله قبل أن يصل الى المدينة المنورة ففتنوه عن دينه ففتن ·

قال عمر صاحب الرواية كلها ، وكان قد صحبهما فى الهجرة ، « كنا نقول لا يقبل الله ممن افتتن ، وفى رواية عبد الله بن عمر عن أبيه قوله « ما الله بقابل ممن افتتن صدقا ولا عدلا ، ولا توبة ؛ قوم عرفوا الله ، ثم رجعوا الى الكفر لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولون هم لأنفسهم ذلك ·

ولعل هذا الاعتقاد الذى سكن قلب عمر الفاروق ، وسكن قلوب أولئك المؤمنين الأولين ، انما هو لكى يتحملوا أقصى ما يمكن من البلاء ، وليكون صبرهم تحريضا لغيرهم ، فقوة الايمان تسرى من أقوياء النفوس الى ضعفائها ، وان الماء العالى يهبط الى السافل ، لتتوازن النفوس كالسوائل ·

لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة أنزل الله تعالى : « **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا · انه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ، ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة ، وأنتم لا تشعرون** » ·

لما نزلت هذه الآية لم ينس عمر الكريم صاحبيه اللذين كانا على نية مرافقته ، ورافقه أحدهما ، ثم افتتن فى دينه وافتتن الآخر قبل أن يسافرا ، ولأنه لم ينسهما أرسل اليهما فى صحيفة هذه الآية الكريمة ، أرسلها الى هشام بن العاص الذى افتتن أولا ــ فلما قرأها فهمها بعد أن استعصى عليه

فهم ما يقصد عمر من كتابتها اليه ، وعرف أنها أنزلت فيه وفى أمثاله ، ممن كانوا قد قنطوا من رحمة الله تعالى ٠

وهنا رواية أخرى تقول : ان رسول الله صلى الله تعـــالى عليه وسلم ، وهو بالمدينة المنورة ، قال : من لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص ، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بهما ، فخرج الى مكة المكرمة مستخفيا فلقى امرأة تحمل طعاما ، فقال لها أين تريدين يا أمة الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين (تعنيهما) ، فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ ردة (أى خنجرا) فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهمـــا بسـيفه ، فحـل القيذان ، ثم حملهما على بعيره ٠

٣٢٠ ـــ من أجل هذا التتبع الشـديد من المشركين ، كـان المؤمنون يتسللون فى هجرتهم لواذا استخفاء من ظلم قريش ، الذى انبعث من خوف تجمع المؤمنين بيثرب لينقضوا عليهم ، ويمنعوهم من فتنة الناس فى دينهم ، وكان الأقوياء منهم يختارون التستر ، ليظفروا بالهجرة فى أمان من الأذى ، الا عمر بن الخطاب الذى أبى الا أن يجهر بالايمان فى كل موطن من مواطن مكة المكرمة ، وأبى الاستخفاء ، فهو فى الهجرة أيضا أبى الاستخفاء ، وخرج مجاهرا بالهجرة متحديا من يقف فى سبيله ٠

روى على بن أبى طالب كرم الله تعـــالى وجهه فى الجنـــة أنه قال : « ما علمت أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا الا عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى فى يديه أسهما ، واختصر عنزته ، ومضى قبل الكعبة الشريفة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام ، فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة ، واحدة فقال : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله الا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل امرأته ، فليلقنى وراء هذا الوادى (١) ٠

وقد يسأل سائل ان المشهور أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنـه صحب فى رحلته عياش بن أبى ربيعة ٠ وكان فى عزمتـه أن يصحبهما هشـام ابن العاص ، فكيف نوفق بين هـذه الرواية المشهورة ورواية على كـرم الله

---

(١) راجع فى هذا أشهر مشاهير الاسلام للمرحوم رفيق العظيم ، طبعة ١٩٧٢ الناشر (دار الفكر العربى) ٠

وجهه ، ونقول فى الجواب عن ذلك ، ان الجمع بين الروايتين ممكن ، ومتى أمكن الجمع يتعين تصديق الروايتين ، اذ لا ترد احداهما الا اذا تعذر التوفيق بينهما .

والتوفيق ممكن وظاهر ، اذ أن الصحبة كانت فى السفر ، وواضح أن السفر يكون بعد اعتزام النية والاصرار ، وقد كان متفقا معهما على أن يلتقيا معه فى مكان يقال التناضب ، من أضاة بنى غفار .

والواقعة التى رواها على كرم الله وجهه كانت وهو لايزال بمكة المكرمة ، وقد أعلن الهجرة ، فهو قد قال ما قال معلنا هجرته ، متحديا قريشا ، ثم أخذ طريقه الى المكان الذى اتعدوا فيه ، فوجد عياشا ، وتخلف عنهما هشام ، اذ افتتن فى دينه ، واستجاب لهم وقلبه مطمئن بالايمان .

كانت هجرة المهاجرين سرا ، أو على استخفاء من قريش .

وكانوا ينزلون فى مهجرهم على الأنصار ، فينزلون معهم فى بيوتهم ، فعمر بن الخطاب حين انتقل الى المدينة المنورة ولحق به أهله وأخوه زيد ابن الخطاب ، وعمرو بن سراقة وغيرهم ، نزلوا على رفاعة بن عبد المنذور ابن زهير فى بنى عمرو بن عوف فى قباء .

ونزل طلحة بن عبيد ، وصهيب بن سنان ، على ضبيب بن اصاف ، وهكذا غيرهم نزل فى منازل الذين آووا ونصروا ، وكانوا يرحبون بهم ، وكأنهم بين أهليهم وذويهم ، لأن الايمان الصادق جمعهم ، ومحبة الله ورسوله (عليه الصلاة والسلام) فاضت عليهم ، فجعلتهم أحبابا على مائدة الرحمن ، وقد علموا فضل اخوانهم المهاجرين الذين صبروا عند الصدمة الأولى ، وأوذوا فى أنفسهم وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، فجعل الله تعالى من خوفهم أمنا ، ومن ذل ضعفائهم عزة ، اذ اعتزوا بعزة الله تعالى ، وكان بهم بتوفيق الله أن صارت كلمة الله تعالى هى العليا ، وقد قال الله تعالى فى المهاجرين والأنصار :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ويقول الله سبحانه تعالت كلماته : « **والسابقون الأولون من المهـاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم** » ٠

فالسابقون الأولون هم الذين هاجروا فارين بدينهم ، مجتمعين فى ظل الله تعالى ، ولا ظل غيره ، والأنصار الـذين ولوهم فى السبق ، وفتحوا لهم ديارهم ، اذ فتحوا لهم قلوبهم ، وآثروهم على أنفسهم ، أولئك لهم الفضل الأول فى السبق الى اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذين دونهم اتبعوهم باحسان ؛ فهؤلاء لهم فضل السبق ، والآخرون لهم فضل الاتباع ٠

هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

٣٢١ ــ أخذ المسلمون يهاجرون زرافات ووحدانا مستخفين ، وقليل منهم من هاجر معلنا ، كما فعل عمر رضى الله تعالى عنه ، فقد أعلن هجرته وتحداهم أن يمنعوه ، وعلى كرم الله وجهه يخص عمر بأنه الذى أعلن وتحدى ، ولعل ما انفرد به عمر رضى الله عنه هو هذا التحدى ٠ ولا شك أن من الأقوياء من يعلن ولا يختفى ، كسيد الشهداء حمزة بن المطلب ، فما كان لمثل حمزة فى قوته وبأسه وايمانه أن يختفى ، وفوق ذلك فان عشيرته من بنى هاشم وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب ليرضوا أن يرهقــوا حمـــزة فى ارادته ، أو لا يوافقوه على هجرته ، وقد رضى العباس بهجرة الرسول صلى الله تعــالى عليه وسلم ، كما تدل على ذلك خطبته فى العقبة الثانية ، حيث كانت البيعــة الثانية على الايواء والنصرة ، بل لو سايرنا التصور العقلى المنطقى لقلنــا ان العباس كان يرحب بهجرة حمــزة ليكون بجوار ابن أخيـــه ، ينصره مع الناصرين ٠

ما بقى من المؤمنين من يثبت أنهم لم يهاجروا قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا على وأبو بكر ، فأما على فهو مع النبى صلى الله عليه وسلم وقد ثبت أنه هاجر بعد النبى بأمر منه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبقى من بعده ليرد الودائع ، أما أبو بكر رضى الله تعالى عنه فقد كان يهم بالهجرة ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستبقيه ، ويشير اليه بمعاريض القول بأنه قد يكون صاحبه ، ثانى اثنين ٠

لقد قال ابن اسحاق فى السيرة : « أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجــرة ، ولم

يتخلف معه بمكة المكرمة أحد من المهاجرين ، الا من حبس أو فتن الا على ابن أبى طالب ، وأبو بكر بن قحافة الصديق رضى الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيرا ما استأذن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا تعجل لعل الله تعالى يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه ٠

كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستعد للهجرة من منذ البيعة الأولى عندما التقى بالأوس والخزرج ، بدليل هذه المبايعة ، ثم كانت البيعة الثانية بيعة الايواء والنصرة دليلا على أنه اعتزم الهجرة وأرادها ، ثم من بعدها أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أمرهم بأن يهاجروا ، فهاجروا زرافات ووحدانا ٠ مستخفين فى الأكثر ، معلنين فى الأقل ، فكانت الهجرة ترتيبا للدعوة ، وخروجا من موطن لا قوة للاسلام فيه الى بلد يكون للاسلام فيه قوة ، ويكون له فيها السلطان لانشاء دولة اسلامية ، فما كان من المعقول أن ينفذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مبادىء الاسلام فى مكة المكرمة ، وهى فى ظل الوثنية ، ويحكمها مشركون ، فالزكاة لا يمكن جمعها الا فى ظل سلطان عادل يجمعها من الأغنياء ، ويردها على الفقراء ، وتنفيذ مبادىء المساواة والاخاء ، ودعوة المسلمين الى التراحم ليكونون أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وما كان يمكن أن يقيم الحدود الزاجرة ، لبناء دولة فاضلة ، ولا القصاص العادل ، ولا لينظم المعاملات بين الناس على أساس من الرضا والعدل ، وما كان ليحارب الربا الجاهلى ، ما كان يمكن شىء من ذلك الا فى ظل الله تعالى ، وبدولة اسلامية تنفذ أوامر الله تعالى ، وتبعد الناس عن نواهيه ، وما كان يمكنه عليه الصلاة والسلام أن يقيم رأيا عاما فاضلا ، يقوم المنحرف ، ويرشد المسترشد ، ويكافىء المحسن الا فى ظل دولة اسلامية ، وعلى ذلك فالهجرة كانت أمرا مقررا ، ولابد منه لتقام دعائم الاسلام ، ولتثبت أركانه ، وتعم فى الوجود الانسانى دعوته ، وليست الهجرة جاءت بسبب حادث وقع ، أو خوف لأمر متوقع ٠

ما اقترن بالهجرة المحمدية :

٣٢٢ ـــ اقترنت الهجرة بواقعة وقعت من قريش ، فظنها كثير من كتاب السيرة أن هذه الواقعة هى سبب الهجرة ، وأن الهجرة كانت أمرا مسببا لها ، ولكن الهجرة كانت أمرا مقررا ، وتنظيما محكما ٠

يقول الله تبارك وتعالى : « **واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين** » فهم يدبرون من جانبهم ،

والله تعالى يدبر أمرا ، قد وجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، وهو الهجرة ، والأمر الذى مكروا به وتآمروا عليه خلاصته ما ذكرته الآية الشريفة ·

رأى المشركون أن مكة المكرمة قد خرج الذين اتبعوا محمدا عليه الصلاة والسلام ، ليتجمعوا ، وليكونوا مع أهل يثرب قوة تقاوم الشرك وتنقض على المشركين ، وأنهم بلا ريب أشد أعداء محمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه ، فلابد أن تكون تلك القوة عليهم ، وأن عليهم أن يتداركوا الأمر قبل أن يستفحل ، وأن تتحقق المآرب ·

واذا كان الأتباع قد هاجروا ، ولم يبق الا ضعيف أو عبد ، فان محمدا عليه الصلاة والسلام لايزال بين ظهرانيهم ، وهو الرأس وغيره أتباع ، فاذا نالوا منه ، فقد تحقق مأربهم ·

قال ابن اسحاق فى سيرته : « لما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم ، وغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم ـ عرفوا أنهم أصابوا دارا وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ·

اجتمعوا فى دار الندوة ، وهى دار قصى بن كلاب ، وكانت مجتمع أمر قريش ، لا يقضون أمرا ذا بال الا فيها ، اجتمع فى الندوة كبراء قريش ، ودلف عليهم رجل من نجد ، حضر جمعهم ، قيل انه ابليس ، وان لم يكن هو فهو مثله خبثا ·

تشاوروا فى أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فانا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأيا ·

فقال قائل منهم احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذى كانوا قبله ، ومن مضى منهم من هذا الموت ·

قال الشيخ النجدى : ما هذا لكم برأى ، ولئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا اليكم ، لينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره ·

فقال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فـاذا أخـرج عنا ، فوالله ما نبـالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، ان غاب عنا ، وفرغنـا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت ٠

فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حـديثه وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، فوالله لو فعلتم مـا أمنتم أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم اليكم ، حتى يطأكم بهم بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، فروا فيه رأيا غير هذا ٠

فقال أبو جهل بن هشام ، والله انى لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليـه بعد ، قالوا وما هو يا أبا الحكم ؟ قال أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شـابا نسيبا وسيطا فتيا ، ثم نعطى كل واحد منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبـد منـاف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منه بالعقل (أى الدية) فعقلناه لهم ٠

قال الشيخ النجدى القول ما قال هذا الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيـره ٠

انتهوا الى ذلك فأعلم الله تعالى نبيه بما دبروا ، وأمره ألا ينام الليـلة على فراشه ٠

تنفيــذ المؤامرة :

٣٢٣ ــ ان القوم ائتمروا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليقتلوه ، ولكن الله تعالى أعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، « **ويمـكرون ويمـكر الله والله خير الماكرين** » ولقد روى الامام أحمد بن حنبل بسنده عن ابن عباس أن أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهجرة كان فى ذلك الوقت ، ونزل قوله تعالى : « **وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** » وأن دخول الصـدق كان بدخول المدينـة المنورة ، والخروج مخرج صدق كان بالهجرة من مكة المكرمة ، كمـا فسر قتادة ، وهكذا كان خروجه من مكة المكرمة وهى أحب أرض الله تعالى اليه لدعوة الحق ولنصرته واعزازه ، وكان دخوله المدينة المنورة صدقا ، لأنه بسبب ارادة نصرة الحق ، واعلاء شأنه ، فخروجه صدق ، ودخوله صدق ، وكلاهما حق ٠

ان قريشا فى عتمة الليل الذى بيتوا فيه تنفيذ مؤامرتهم بقتل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أحاطوا بداره ، ليقتلوه اذ يخرج اليهم ، ولم يحاولوا أن يدخلوا الى منامه ، وقال السهيلى فى تعليل ذلك ٠ وذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم من التقحم عليه فى الدار ، مع قصر الجدار ، وأنهم انما جاءوا لقتله ، فذكر فى الخبر أنهم هموا بالولوج عليه فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض : والله انها للسبة فى العرب أن يتحدث عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم ، وهتكنا ستر حرمتنا ، فهذا هو الذى أقامهم بالباب ، وأصبحوا ينتظرون خروجه ٠

عندما أعلم الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بأمرهم كان محملا أمانات من القوم ، فكانت عنده ودائع الناس ، وليس بمكة المكرمة أحد عنده شئ يخشى عليه الا وضعه عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لما يعلم من صدقه وأمانته ، وكان ذلك مع شدة العداوة والمناوأة من كبرياء المشركين ٠

ولذلك خلف عليا رضى الله تعالى عنه ، وكرم الله تعالى وجهه فى الجنة ، وجعله ينام فى مكان نومه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال لعلى كرم الله وجهه : نم على فراشى ، وتسبج ببردى هذا الحضرمى ، فنم فيه ، فانه لن يخلص اليك شئ تكرهه منهم ، فنام على المؤمن المصدق لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الشجاع الجلد القوى الذى لا يهاب الموت فى سبيل الله ، وكان اذ ذاك فى نحو الثالثة والعشرين ، أو الثانية والعشرين ٠

اجتمع المشركون فى العتمة :

روى ابن اسحاق بسنده عن كعب القرظى أنهم لما اجتمعوا له عليه الصلاة والسلام ، وفيهم أبو جهل قال أبو جهل ؛ وهم على بابه : ان محمدا يزعم أنكم ان تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد نومكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وان لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلكم نارا تحرقون فيها ٠ فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب ، ثم قال نعم أقول ذلك وأنت أحدهم ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم ، وهو يتلو : « **يس والقرآن الحكيم ، انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم ، فهم غافلون ، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، انا جعلنا فى أعناقهم اغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون** » ٠

مر بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم لم يروه ، وقرأ عليهم هذه الآيات ، وسواء أصحت الرواية التى تقول ، انه خاطبهم أم لم تصح ، فانها لم تغير من اللب شيئا ، بل الحقيقة أنه مر عليهم ، وتلا عليهم تلك الآيات البينات ، وحثا التراب فى وجوههم ، وانصرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى حيث كان على موعد مع صاحبه الصديق ٠

أما المشركون المؤتمرون الذين كانوا يريدون قتل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانهم استمروا فى موقفهم منتظرين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرج ليقتلوه ، حتى أتاهم آت ممن لم يكن معهم ٠ ويظهر أنه قد رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرج ٠ فقال لهم ، ما تنتظرون ها هنا ؟ فقالوا محمدا ، فقال : خيبكم الله ، والله قد خرج محمد عليكم ثم ما ترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم مضى لحاجته ، أما ترون ما بكم ، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب ، ولكنهم مع ذلك لم يصدقوا هذا الرجل الذى أتاهم ، فجعلوا يتطلعون ، فيرون عليا فى الفراش ، متسجيا ببرد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقولون : والله ان هذا لمحمد نائما عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك ، حتى أصبحوا ، فقام على من الفراش ، فقالوا والله لقد صدقنا الذي حدثنا ٠

النبى صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الى الهجرة وطريقهما :

٣٢٤ — كان أبو بكر يريد الهجرة ، كما هاجر أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكلما هم بالهجرة ٠ قال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا تعجل ، ويقول ابن اسحاق استأذن أبو بكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الهجرة ، فقال له : « لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا » وقد طمع أبو بكر أن يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما يعنى نفسه ، ولقد عظم ذلك الظن فى نفسه ، فابتاع راحلتين ، فحبسهما فى داره ، يعلفهما اعدادا لذلك ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتى كل يوم الى بيت أبى بكر فى طرفى النهار اما بكرة ، واما عشية ، كما تروى عائشة رضى الله تعالى عنها ، وتقول حتى اذا كان اليوم الذى أذن فيه للنبى بالهجرة ، والخروج من مكة المكرمة من بين ظهرى قومه أتانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها ، فلما رآه أبو بكر ، قال : ما أجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الساعة الا لأمر حدث ٠٠٠٠ قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى بكر ان الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال رسول الله الصحبة » ٠

قالت راوية الخبر فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى ، ثم قال يا نبى الله ، ان هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا ..

كان هذا فى الليلة التى أعلم الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بما يأتمر به القوم ، وأذن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما خرج ، وقد غشى الله تعالى على أبصارهم كانت الرحلة الشاقة ، وكانت الهجرة المباركة ، وقد أخذت لها الأهبة ، وأعدت لها العدة .

عندما أخبر الرسول صلى الله تعـــالى عليه وسلم أبا بكر باذن ربه له بالهجرة ، وأخبره عليه الصلاة والسلام بالصحبة تجمعهما ، قال الصديق : « يا نبى الله ان هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا » .

وقد استأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط ، وكان لايزال على الشرك ، وأبوه من بنى بكر ، وأمه من بنى سهم بن عمرو ، قد استأجره أبو بكر ليكون دليلهما فى الرحلة ، وقد دفع اليه أبو بكر الراحلتين ، فكانتا عنده بعدهما يرعـــاهما حتى يحل ميعاد الخروج عليهما ، ويروى أنه أهدى فضلاهما لرســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسأله الرسول عليه الصلاة والسلام عن ثمنه ، فذكره ، وقال هى لك .

وكان الميعاد بينهما وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأبو بكر ، خرج من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، وذلك للامعان فى الاستخفاء حتى لا تتبعهما قريش ، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة ، وقد اتعدا مع الدليل على أن يلقاهما فى غار ثور بعد ثلاث ليال .

وقد دعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما روى ابن نعيم قائلا : « الحمد لله الذى خلقنى ، ولم أك شيئا ، اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام ، اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فأذلنى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، واليك ربى فحببنى ، والى الناس فلا تكلنى ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل على غضبك ، وتنزل بى سخطك ، أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجاة نقمتك ، وتحــول عافيتك ، لك العتبى عندى خير ما استطعت ، ولا حول ولا قوة الا بك » .

ومن قوله عليه الصلاة والسلام حين خرج من مكة المكرمة ، ونظر الى البيت « انك لأحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما حرجت » واخراجهم كان بالأذى ومنع الدعوة ·

بهذا الدعاء الضارع ابتدأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رحلته المباركة التى اتت أكلها للانسانية كلها ، لأنها كانت ابتداء عموم الدعوة ·

وقد كانت فكرة الهجرة بعد العقبة الثانية وفى عامها ، فقد انتهى الحج ، وابتدأ التفكير فى الهجرة النبوية ، وقد هاجر المؤمنون قبله ، وقالوا ان هجرته عليه الصلاة والسلام لم تكن فى المحرم ولا فى صفر ، ولكن قد ابتدأت ، ولعلها ابتدأت مع ابتدائه ، وقد وصلوا الى المدينة المنورة فى الثانى عشر من ربيع الأول على أصح الروايات ، وكانت فى يوم الاثنين ·

ولقد روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : « ولد نبيكم يوم الاثنين ، ونبىء يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وتوفى يوم الاثنين » ·

فى غـار ثور :

٣٢٥ ـــ كانت الهجرة هى النصر الأول ، بل هى أعظم النصر ، لأن النصر الذى جاء من بعدها كان ثمرة لها ، فهى باب للفتح ، ولقد عدها الله سبحانه وتعالى النصر الأول ، وذكر محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه فى غار ثور هذا ، اذ قال الله تعالت كلماته : « **الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لاتحزن ، ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم** » ·

خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى غار ثور ، وهو على مسافة من مكة المكرمة بأسفله ، وسار هو وصاحبه الصديق فجعل أبو بكر يكون أمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقال اذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك واذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك · ويروى أنه قال اذا كنت أمامك خشيت الطلب ، واذا كنت خلفك خشيت الرصد ·

وروى البيهقى عن عمر بن الخطاب قال :«لقد خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة انطلق الى الغار ، ومعه أبو بكر ، فجعل يمشى ساعة بين

يديه وساعة خلفه ، حتى فطن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : « يا أبا بكر مالك تمشى ساعة خلفى ، وساعة بين يدى ، فقال يا رسول الله أذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا بكر ، لو كان شىء لأحببت أن يكون بك دونى • قال نعم ، والذى بعثك بالحق ، فلما انتهيا الى الغار ، قال أبو بكر مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء لك الغار فدخل حتى اذا كان ذكر أنه لم يستبرىء الجحر ، فقال : مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء ، فدخل فاستبرأ ، ثم قال أنزل يا رسول الله ، فنزل ، قال عمر : والذى نفسى بيده ، لتلك الليلة خير من آل عمر » (١) •

مكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مطمئنا الى وعد الله تعالى ، راضيا بالمشقة فى سبيل الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، وقد رضى أن يفارق مكة المكرمة ، وهى أحب بلاد الله تعالى فى سبيل اقامة الدولة الاسلامية ، التى لم يمكنه أهلها من الدعوة ، وحاولوا قتله ، وكانت هذه المحاولة مع عنادهم ، وكفرهم ، وجحودهم بالآيات سببا فى أن يخرج يريد أرضا لدولة الاسلام فى غيرها •

علم المشركون ، أو العتاة منهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ، وأن الذى نام مكانه على ، وأنهم ترصدوا عليا ، وهم يحسبون أنهم يترصدون النبى عليه الصلاة والسلام ليقتلوه ، حاولوا أن يعرفوا من على أين ذهب النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يجدوا عنده ما يطلبون ، فأخذوا يتقصون أثره ، ويتأثرون خطاه ليعرفوا أين يكون ، وأطلقوا فى الأسواق والأماكن من يأتى به حيا أو ميتا وقد اقتفوا أثره ، وتتبعوه ، حتى وصل بهم الأمر الى جبل ثور الذى بغاره الصاحبان ، ولكن آية الله تعالى أن جعلت العنكبوت ينسج نسيجه ، وكأنه من سنين ، وأن حمامتين عششتا على بابه ، فكانت آية حسية من خوارق العادات ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتحدث لاثبات نبوته الا بالقرآن الكريم ، لأنه المعجزة الكبرى الباقية الى يوم الدين • وهو حجة على الخليقة فى كل الأجيال ، ولكل الأجناس •

جاء رجال قريش يطلبون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد انتهى بهم الأثر الى الغار ، ولكنهم وجدوا ما وجدوا وقالوا اذ رأوا نسج العنكبوت لم يدخل أحد • وهم لو ألقوا بأنظارهم الى داخله لرأوا الرسول وصاحبه ،

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ١٨٠ •

ولكن صرف الله تعالى أنظارهم ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمن مطمئن ، ولذا كان قائما يصلى ، وأبو بكر يرتقب ، فلما أتم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، قال أبو بكر خائفا على النبى عليه الصلاة والسلام « ان قومك يطلبونك أما والله انى لأئل (١) على نفسى ، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره » ، فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا تخف ان الله معنا » .

هذا ما كان من القوم ، وما كان يجرى داخل الغار ، وكان أبو بكر قد دبر الأمر بالنسبة للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقد كلف ابنه عبد الله أن يأتيهما وهما فى الغار بأخبار قريش ، وما تدبر من أمرها ، وهو غلام شاب ثقف مدرك لقن ، فيدلج من عندهما فيصبح مع قريش بمكة المكرمة ، ولا يسمع أمرا يكيدون به لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه ، فيريحها عليهما وهما فى الغار ، وذلك فى ساعة العشاء ، فيبيتان وأرسال لبن الغنم تصل اليهما ، حتى اذا جاء الغلس ، أخذ عامر بن فهير الغنم ، وعاد الى مكة المكرمة ، فيكون من اللبن غذاء ، ويذهب سير الغنم بآثار من يجيئون الى الغار ، حاملين أخبارا ، أو حاملين طعاما .

وكانت أسماء بنت أبى بكر تعد لهما سفرة من الطعام فى جراب ، ولما لم تجد ما تربط به قطعت نطاقها ، فربطت بقطعة منه على فم الجراب ، ولذلك سميت ذات النطاقين ، وكانت تذهب بالطعام لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه كل يوم ، أو كلما أمكنتها الفرصة .

سراقة والسير الى المدينة المنورة :

٣٢٦ — مكث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الغار ثلاث ليال ، حتى يسكن طلب قريش ، وييئسوا من أن يصلوا اليه ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبعدها خرجا قاصدين الى المدينة المنورة ، ومعهما دليلهما المشرك ، ولكنه كان أمينا عليهما ، غير مدلس ولا ممالىء ؛ فسلك بهما طريق الساحل ، حتى لا يتبعهم أحد من قريش ، لأنهم لا يتصورون أنه يسلك هذا

---

(١) هى من أل المريض أو الحزين بمعنى رفع صوته وصرخ عند نازلة تنزل به .

الطريق وهم يتتبعونه ، ويقتفون طريقه ، وقد جعلوا لمن يعود به حيا أو ميتا مائة ناقة كما أشرنا من قبل ٠

وقد طمع سراقة بن مالك بن جعشم فى أن ينالها ، وقد روى ابن اسحاق عنه أنه قال :

« لما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة مهاجرا ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم ٠ فبينما أنا جالس فى نادى قومى ، أذ أقبل رجل منا ٠٠ فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفا ، انى لأراهم محمدا وأصحابه فأومأت اليه بعينى أن اسكت ، ثم مكث قليلا ٠٠٠ ثم أمرت بفرسى ٠٠ وأمرت بسلاحى ٠٠ ثم أخذت قداحى أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى (١) ، فاستقسمت ، فخرج السهم الذى أكره ، وكنت أرجو أن أرده على قريش ، فآخذ مائة الناقة ، فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتد عثر بى ، فسقطت عنه ، فقلت ما هذا ، ثم أخرجت القداح فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره ، فأبيت الا أن أتبعه ، فركبت فى أثره فبينما فرسى يشتد عثر بى ، فسقطت عنه فقلت ما هذا ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فركبت فى أثره ، فلما بدا القوم ورأيتهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يداه من الأرض وتبعهما دخان كالأعصار ، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع عنى ، وأنه ظاهر ، فناديت القوم ، فقلت أنا سراقة بن جعشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ٠ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله ، وماذا تبغى منا ؟ قلت تكتب كتابا يكون بينى وبينك » ٠

يلاحظ أنه ذكر له ما كان يسعى اليه ، ولكنه عندما رأى ما رأى ، وعلم اليقين فى الرسالة ، استوثق من أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم منصور بأمر الله تعالى ٠

فكتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا ، ثم ألقاه اليه ٠

وقد استمر سراقة حافظا لهذا الكتاب ، حتى جاء الفتح المبين بفتح مكة المكرمة ، ثم فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حنين والطائف ذهب سراقة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالكتاب ، ويقول فى ذلك

---

(١) الدرع ٠

« دنوت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فرفعت يدى بالكتاب ». وقلت يا رسول الله ، هذا كتابك لى ، أنا سراقة بن جعشم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « هذا يوم وفاء » •

أعلن سراقة اسلامه ، ويظهر أنه كان مؤمنا بصدق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من يوم أن رأى ما رأى ، ولذلك أراد أن يأخذ هذا الكتاب •

وقد سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن سقى الابل الضالة قائلا : الضالة من الابل تغشى حياضى ، وقد ملأتها لابلى هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال الرسول عليه الصلاة والسلام الرحيم : نعم فى كل ذات كبد حرى أجر » •

ولقد حسن اسلامه فرجع الى قومه ، وساق الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صدقته •

الركب يسير فى طريق وعر :

٣٢٧ — لم تكن الرحلة المباركة سهلة ، لأن الطريق فى الصحراء ، ليس سهلا فى ذاته ، بل هو طريق وعث تجتاز فيه الرمال والوهاد والآكام ، وقد اختار الدليل طريقا هو أشد طرق الصحراء وعورة ، وذلك لكيلا تتبعهم قريش اذا سار فى الطريق الذى ألفوا السير فيه ، وقد يكون معبدا الى حد مناسب للصحراء •

لقد سلك بهم طريق الساحل ، ولم يكن مألوفا فى الوصول الى يثرب منه ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق فى سيرته يذكر الأماكن التى مر بها فهو يقول :

« لما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط (أريقط) سلك بهما أسفل مكة المكرمة ، ثم مضى بهما (النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر) على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عساق ، ثم سلك بهما على أسفل أمج ، ثم استجار بهما حتى عارض بهما الطريق ، بعد أن أجاز قديدا ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخرار ثم سلك بهما ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفا ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة محاج (١) ، ويقال له مجاج

---

(١) فى معجم البلدان لياقوت (مجاج) •

ثم سلك بهما مرجع محاج ، ثم تبطن بهما مرجع ذى الغضوين ، ثم بطن ذى كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ، ثم سلك بهما سلم ، من بطن أعداد مدلجة تعهن (وزن فعلل) اسم عين ماء ، ثم على العبابيد .. ثم أجاز بهما الفاحة » .

قال ابن هشام : « ثم هبط بهما العرج ، وقد ابطأ عليهما بعض ظهرهما ، فحمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، رجل من اسلم يقال له أوس ابن حجر ، على جمل له يقال له ابن الرداء - الى المدينة ، وبعث معه غلاما له يقال له مسعود بن هنيدة ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج فسلك بهما ثنية الفاعن يمين ركوبه ، حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما قباء لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس تعتدل » (١) .

هذا هو البيان الذى ذكرت فيه أسماء الأماكن التى مر بها ذلك الركب المبارك ، فما ذكر كله أسماء أماكن فى الصحراء العربية ، وهى مجاهل فيها ، ما كان ليعلمها الا خبير بها ، وهو ذلك الدليل الذى كان عليما بها ، وكان أمينا على من معه مع بقائه على الشرك .

وهذا البيان يدل على مقدار صعوبة الرحلة ، حتى أجهدت الرواحل ، واضطر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى تغيير الراحلة .

أم معبد :

٣٢٨ - هذا خبر عن امرأة نقية طاهرة مخلصة ، التقى بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى القديد فى أثناء رحلته ، وقد ظهر فى لقائه بها عليه الصلاة والسلام من خوارق العادات ، مما يضاف الى خارقة خروجه عليه الصلاة والسلام ، وقد وضع الله تعالى على بصرهم غشاوة ، فلم يروه ، ويضاف نسج العنكبوت فى الغار ، والى تعشيش الحمام عليه ، والى غوص قوائم فرس سراقة ، وعثرته عدة مرات .

فان كل هذه خوارق عادات حسية ، لا تقل عن معجزات موسى وعيسى الحسية ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتحد قريشا بها ، ولم يتحد الوجود الانسانى بها ، بل تحداه بالقرآن الكريم المعجزة الكبرى .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ، ٢ ص ٤٩١ ، ٤٩٢ .

والخارق الذى بدأ فى المرور على أم معبد ، هو أن اللبن در من شـــاة عجفاء حائل لا لبن فيها ، وسقى جميع الركب ، وتكرر السقى ، وشاركهم أهل المنزل الذى نزل فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم ، واليك القصـة كما رواها البيهقى بسنده عن أبى معبد الخزاعى :

« ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليلة هاجر من مكة الى المدينة هو وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، ودليلهم عبد الله ابن أريقط الليثى ، فمروا بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت أم معبد امرأة برزه جلـده ، تحتبى ، وتجلس بفناء الخيمة · فسـألوها هل عندها لحم أو لبن ، يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا من ذلك ، وقالت لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى ، واذ القوم مرملون مسنتون (أى فى سنة جدب) ·

فنظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا شاة فى كسر خيمتها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت شاة خلفها الجهد عن الغنم قال عليه الصلاة والسلام : فهل بها من لبن ؟ فقالت هى أجهد من ذلك · قال عليه الصلاة والسلام : تأذنين لى أن أحلبها ؟ قالت : ان كان بها حلب فاحلبها ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله تعالى ، ودعا باناء لها يريض الرهط (١) ، فتفاجت واجترت فحلب منها ثجا حتى ملأه ، وأرسله اليها ، فسقاها ، وسقى أصحابه فشربوا عللا بعد نهل (٢) ، حتى اذا أرووا شرب (أى عليه الصلاة والسلام) آخرهم ، وقال ساقى القوم آخرهم ، ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء ، فغادروه عندها ، ثم ارتحلوا ·

فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هـزلا لانقى بهن (٣) · فلما رأى اللبن عجب ، وقال من أين هذا اللبن يا أم معبد ، ولا حلوبة فى البيت ، والشاة عازب ؟ فقالت : لا ، والله انه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت ، وكيت · فقال صفيه ، فوالله انى لأراه صـاحب قريش الذى تطلبه · فقالت ! رأيت رجلا ظاهر الوضـاءة ، حسن الخـلق ، مليح

---

(١) أى يشبع الجماعة ، وتفاجت معناها فرجت بين رحليها ·

(٢) النهل الشرب الأول ، والعلل الشرب الثانى ــ النقى المخ ·

(٣) النحلة : ضخامة البطن ·

الوجه ، لم تعبه تجلة ، ولم تزر به صعلة (١) ، قسيم وسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف » ، وفى صوته صحل ، أكحل ، أزج ، أقرن (أى سيد) فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار واذا تكلم سما ، وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ، ولا هذر ٠ كان منطقه خرزات نظم يتحدرن ، ابهى الناس وأحلمهم من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، ربعة ، لاتنساه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، ان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا لأمره ، محقود ، محسود ، لا عابس ولا مفند ٠

فقال بعلها : هذا والله صاحب قريش الذى تطلب ، ولو صادفته لألتمسن أن أصحبه ، ولأجهدن ان وجدت الى ذلك سبيلا ٠

هذه قصة أم معبد ، وهذه أقوالها ، وقد أشرنا الى ذلك فى صفات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واسمها كما جاء فى كتب السيرة عاتكة بنت خلف بن معد بن ربيعة بن أضرم ٠٠ وأبو معد زوجها ـ اسمه أكثم بن العزى ابن معبد بن ربيعة بن أضرم ، فهو من أبناء عمومتها ، وقيل انه أسلم ، وهاجر ٠

خوارق أخرى :

٣٢٩ ـ سار الرائد الذى سلك بالنبى عليه الصلاة والسلام وصاحبه غير الطريق الجاد ، وسار فى طريق غير مطروق ، مر بأماكن كثيرة وقد حدثت فى هذه الطريق خوارق للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كلها يتعلق بمسير السائر فى الصحراء ، وحاجته الى الزاد والماء ، فكانت الخوارق تجىء مناسبة لذلك ٠

وقد روى البيهقى بسند عن قيس بن النعمان قال : « لما انطلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر رضى الله تعالى عنه مستخفين ، مروا بعبد يرعى غنما ، فاستسقياه اللبن فقال ما عندى شاة تحلب ، غير أن هناك عناقا حملت أول الشتاء وقد أخدجت (٣) ، وما بقى لها من لبن ، فقال

---

(١) الصعلة : صغر الرأس

(٢) الوطف : كثرة الشعر

(٣) أى ألقت ولدها بعد أن صار تام الخلق ، ولكن نزل قبل أوانه ويقال أيضا اذا ولدته قبل تمام الحمل ناقص الخلق ٠

عليه الصلاة والسلام ادع بها ، فدعا بها ، فاعتقلها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومسح ضرعها ، ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبو بكر بوعاء فحلب ، فسقى عليه الصلاة والسلام أبا بكر ، ثم حلب ، فسقى الراعى ، ثم حلب ، فشرب صلى الله تعالى عليه وسلم · أخذ العجب الراعى ، فقال من أنت ، فوالله ما رأيت مثلك قط ، قال عليه الصلاة والسلام : « وتراك تكتم على حتى أخبرك ؟ قال نعم ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فانى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) · فقال الراعى المخلص أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء !! قال انهم ليقولون ذلك ، قال فانى أشهد أنك نبى ، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت الا نبى ، وأنا متبعك ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « انك لا تستطيع ذلك يومك هذا فاذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا » ·

وقد روى هذا أيضا أبو يعلى :

وروى أبو نعيم بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال : «كنت غلاما يافعا ، أرعى غنما لعتبة بن أبى معيط بمكة ، فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر ، وقد فرا من المشركين ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ياغلام عندك لبن تسقينا » فقلت انى مؤتمن ، ولست بساقيكما فقال : هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟ قلت نعم ، فأتيتهما بها ،وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الضرع ، فدعا ، فحفل الضرع ، وجاء أبو بكر بصخرة منقعرة ، فحلب فيها ، ثم شرب هو وأبوبكر ، وسقيانى ، ثم قال للضرع أقلص فقلص ، فلما كان بعد أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت علمنى من هذا القول الطيب : يعنى القرآن الكريم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « انك غلام معلم ، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعنى فيها أحد » ·

وهذه القصة لعلماء السيرة فيها كلام ، وذلك أن ابن مسعود رضى الله عنه كان من المسلمين الذين أسلموا قبل الهجرة ، وأوذوا فى سبيل الله ، وهاجر الى الحبشة ، والقصة توهم أنه كان اسلامه فى أثناء رحلة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وكلام علماء السيرة ، لا يمنع أصل القصة ، ولب الخوارق للعادة ، فان ذلك ثابت فى الصحاح ، وربما كان الكلام منصبا على السياق ، لا على أصل الواقعة وغيره ثابت بلا ريب ·

وقد سقنا ذلك الكلام ، وليس فيه تطويل ، لأنه صدق ، ولا تطويل فى نقل الصادق من الأخبار ٠

وان هذا كله يدل على أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاء على يديه من الخوارق الحسية ما يزيد على التسع التى اختص بها موسى عليه السلام ، وليست فى دلالتها الروحية أقل من معجزات عيسى عليه السلام ، اذ أحيا الموتى باذن الله ، واذ أخرجها من قبورها باذن الله ، واختلاف النوع لا يدل على ضعف الروحانية فى خوارق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالاسراء والمعراج خارق للعادة مادى روحى ، وغوص فرس سراقة ، ونبع اللبن بين أصابعه وتكرره يدل على قوة روحية لا تقل عن احياء الموتى ، ومع ذلك لم يتحد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا بالقرآن الكريم « **أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا** » ٠

وصول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى قباء

٣٣٠ ــ استمر الركب المبارك محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه سائرا فى طريق وعر فى وعثاء الصحراء ٠ وقد استطال فرارا من الطلب ، وآيات الله تتبعها آيه ، وكثرت فى الطريق ٠ وتوالت ، ليعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالواقع أن الله سبحانه وتعالى معه حيث حل وحيث ارتحل ، كما علم من قبل بعين الايمان ، اذ قال لصاحبه وهو بالغار ، لا تحزن ان الله معنا ٠ فأراه الله تعالى الآيات فى رحلته ، كما أراه الآيات فى نبوته ٠

وقد انتهت شدة الرحلة بالوصول الى قباء ، حيث المنعة والنصرة ، وحيث لقاء أهل الايمان الذين كانوا يترقبون شخصه ، ويستشرقون لحلوله بينهم ٠

يقرر ابن اسحاق بسنده فى هذا عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة ، قال : حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة وتوقعنا قدومه ، كنا نخرج اذا صلينا الصبح الى ظاهر حرتنا ننظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوالله ما يبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى اذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جلسنا كما كنا نجلس حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ٠٠٠ وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل يهودى ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وأن ننتظر قدوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ علينا · فصرخ بأعلى صوته يا بنى قيلة (الأنصار) هذا جدكم قد جاء ، فخرجنا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وركبه الناس (أى) ازدحموا عليه وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقام أبو بكر ، فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك ·

نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيما يذكر علماء السيرة الطاهرة على كلثوم بن هندم ، وبعض العلماء يقول انه نزل عند سعد ابن خيثمة ، وقد وفق ابن اسحاق وغيره بين الخبرين ، فقال انه صلى الله تعالى عليه وسلم نزل عند كلثوم ، ولكنه كان اذا خرج للناس وجلسوا اليه ، كان ذلك فى بيت سعد ·

ولقد جاءت عبارات تفيد أنه كان يختار الجلوس فى بيت سعد ، لأنه كان عزبا لا أهل له ، وكان منزله منزل الأعزاب من المهاجرين ·

ونزل صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أبو بكر على خبيب بن أساف ·

وفى قباء التقى على بن أبى طالب برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذ أنه مكث ثلاث ليال وأيامها بمكة المكرمة بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لرد الودائع ، ثم أخذ سمته الى يثرب ، وكأنه أقام فى مكة المكرمة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام المدة التى مكثها النبى وصاحبه فى الغار ، اذ أنهما مكثا فى الغار ثلاث ليال ·

ونزل على كرم الله وجهه فى المنزل الذى نزل فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو منزل كلثوم بن هند ، ويظهر أن حضوره الى قباء كان بعد حضور النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بليلة على الأقل ، لأنه أقام بقباء ليلة أو ليلتين ، وقد ذكر ابن اسحاق أنه أقام فى قباء أربعة أيام بلياليها ، فذكر أنه أقام يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وفى هذه المدة التى أقامها بقباء أنشأ مسجدها ، وهو الذى أشار الله تعالى اليه فى قوله تعالى : « **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين** » فهو مسجد أسس على التقوى من أول يوم أقام فيه النبى

صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جدير بأن يسمى مسجد الهجرة ، وأنه مسجد الذين يحبون أن يتطهروا فى عبادتهم غير مرائين ولا منافقين ٠

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصل فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وكان يوم الاثنين ، وقيل فى اليوم التالى ، والأول هو الذى يرجحه الرواة ٠

دخول المدينة

٣٣١ — كان دخول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة يوما مباركا على أهل المدينة المنورة ، وعلى الأخلاف ، وعلى الخليقة كلها ، لأنه اليوم الذى انتقل فيه الاسلام من الدعوة فى مكة المكرمة وما حولها ، غير معلمة بنظام ثابت مقرر عام بل كانت الدعوة فى دائرة العقيدة ، وبيانها ، وبيان ما يتعلق بها ، من غير أن تكون نظاما مفروضا يتبع وينفذ ، انتقل الاسلام من ذلك الحين الى عموم الدعوة فعلا ، للبلاد العربية ، فى كل صقع من أصقاعها ، ثم تجاوز حيز العرب ، الى الدول المجاورة ، ومنها انساب الى ما وراءها من اقليم الى اقليم ٠

ولقد أحس أهل المدينة المنورة بما حباهم الله به من فضل ، وبما اختص المدينة من شرف ، اذ صارت موطن الايواء والنصرة أولا ، وموطن النظام الاسلامى ثانيا ، والمكان الذى يأزر اليه الاسلام ثالثا ، وأحست بأن الوثنية آذنت بأفول ، وأن اليهود فيها صاروا لا يتطاولون بعلم علموه ، أو كتاب سبقوهم به ٠

ولذا خرج الناس مهللين مكبرين بمقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستقبلون من يرون فيه الهداية فرحين واجدين فى مقدمة العزة والكرامة ، والاخلاص والطهر من الوثنية ٠

روى الشيخان البخارى ومسلم بالسند المتصل عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه قال : « خرج الناس حين قدمنا المدينة فى الطريق ، وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون : « الله أكبر جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله ، فلما أصبح انطلق ، وذهب حيث أمر » ٠

وروى البيهقى فى دلائل النبوة ، وأبو بكر المقرى فى الشمائل ، والطبرى فى الرياض ، عن ابن عائشة ، واسمه عبيد الله بن محمد بن حفص ، وأمه عائشة بنت طلحة ، أنه صعدت ذوات الخدور تعلن تهنئة له حال دخوله :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع (١)

روى هذا الخبر فى سنن الترمذى والنسائى عن السائب بن يزيد ·

هذا استقبال رائع ـ صحبه تكبير أهل المدينة لمقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان هناك استقبال عملى أروع فى معناه ، وهو تزاحم أهل كل بطن من بطون الأوس والخزرج ، فى أن يأخذ بناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتكون اقامته بينهم ·

جاء رجل من بنى سالم ، فقالوا يا رسول الله أقم عندنا فينا العدد والعدة والمنعة ، وأخذوا بزمام الناقة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « خلوا سبيلها فانها مأمورة » ·

وجاء رجال من بنى بياضة · فقالوا يا رسول الله هلم الينا الى العدد والعدة والمنعة ، قال عليه الصلاة والسلام خلوا سبيلها فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا مرت بدار بنى ساعدة ،

---

(١) يقول ابن القيم ان هذا الدعاء قيل عند عودة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة تبوك ، ويحذف البيت الأخير من الأبيات الثلاثة ، والسبب فى قوله أنه أرحف المرجفون فى المدينة عن النبى فى غزوة تبوك مما جعل المؤمنين يستبشرون ويفرحون بمجيئه ، فخرج الغلمان والنساء يقولون ، وان ثنية الوداع فى مدخل المدينة من قبل الشام ، لا من قبل مكة ، ويقول فى ذلك ابن القيم : لما دنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة ، خرج الناس لتلقيه ، وخرج النساء والصبيان والولائد تعلن طلع البدر علينا · من ثنيات الوداع ، وجب الشكر علينا · ما دعا لله داع ، وبعض الرواة يقول · انما كان ذلك عند مقدمه من مكة الى المدينة وهو وهم ظاهر لأن ثنيات الوداع انما هى من ناحية الشام ، ولا يراها القادم من مكة الى المدينة ولا يمر بها الا اذا توجه الى الشام ·

اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فى رجال من بنى ساعدة ، فقالوا : يا رسول الله هلم الينا الى العدد والعدة والمنعة ، فقال عليه الصلاة والسلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا وازت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه معاذ بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله ابن رواحة ، فى رجال من بنى الحارث بن الخزرج ، فقالوا يا رسول الله هلم الى اخوانك ، ومنهم أم عبد المطلب جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا هلم الى العدد ، والعدة ، والمنعة ، فقال عليه الصلاة والسلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ٠

فانطلقت حتى اذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت ، وكان ذلك عند دار أبى أيوب الأنصارى ، ويقول ابن اسحاق لما بركت لم ينزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنها ، حتى وثبت ، فسارت غير بعيد ، ورسول الله ، واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت خلفها ، فرجعت الى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ٠٠٠ ثم نزل عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بنى المسجد ، وبنى له دارا ٠

خطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم

٣٣٢ — تدل هذه الأخبار التى سقناها ، على أن الأنصار الذين دخلوا فى الاسلام كانوا يرحبون بالنبى صلى الله عليه وسلم فى بيوتهم فرادى ، وجماعات ، وأنهم بيوتا وبطونا كانوا يستعدون بعددهم ، ويعطون العهد ، على المنعة والحرب معه ، من غير تحفظ ولا شرط ٠

ويظهر ان ذلك كان يثير غضب المشركين فيهم ، وخصوصا الذين صاروا من بعد منافقين ، يبطنون مالا يظهرون أو يخفون مالا يبدون ، ولقد روى أنه ما مر بأهل بيت الا أعلنوا التأييد وأبدوا الترحيب الا عبد الله بن أبى الذى صار من بعد زعيم النفاق فى المدينة الطاهرة ٠

ولقد ذكر موسى بن عقبة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، مر فى طريقه بعبد الله بن أبى بن سلول ، ينتظر أن يدعوه الى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسهم ، فقال عبد الله انظر الى الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنفر من الأنصار ،

فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه : لقد من الله تعالى علينا بك يا رسول الله وانا نريد أن نعقد على رأسه التاج ، وتملكه علينا ٠

اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد نزوله فى دار أبى أيوب الأنصارى الى ثلاثة أمور :

أولها : صلاة الجمعة فقد صلاها فى بنى سالم بن عمرو بن عوف ، ويظهر أنه صلاها فى أرض فضاء ، لأنه لم يكن قد بنى مسجده فيها ، ومادام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد اختارها لاقامة الجمعة ، فهى مسجد تقام فيه الصلوات ، وخصوصا أنه ولى أمر المسلمين ٠

الأمر الثانى الخطبة ، وقد قالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطب الجمعة ، وقد روى فى نصها روايتان : احداهما ـ رواية ابن جرير الطبرى ، والخطبة فى هذه الرواية طويلة نسبيا ، ورواها البيهقى ، وروايته أقصر ، ولم ينص على أنها خطبة واحدة ، بل روى أخرى بعدها على أنها خطبة أخرى ، ولنذكر الخطب الثلاث ، وان كان فى بعض رواتها كلام ، ولكنها أشبه بكلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومواعظه ٠

الخطبة التى رواها ابن جرير :

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأستغفره ، وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله ٠ فانه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله تعالى فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى وان تقوى الله تعالى لمن عمل على وجل ومخافة ، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ، لا ينوى بذلك الا وجه الله تعالى يكن له ذكرا فى عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم ، وما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ، والذى صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خلف لذلك ، فانه يقول تعالى : « **ما يبدل القول لدى ، وما أنا بظلام للعبيد** » واتقوا الله فى عاجل أمركم ، وآجله فى السر والعلانية ، فانه من يتق

الله يكفر عنــه سيئاته ويعظم لــه أجرا ، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ، وان تقوى الله تعالى توقى مقته وتوقى سخطه ، وان تقوى الله تبيض الوجه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله ، قــد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ، وليعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله تعالى اليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيى عن بينة ، ولا قوة الا بالله ، فأكثروا من ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت فانه من أصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ، ولا يقضــون عليه ، ويملك من النــاس ، ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة الا بالله العلى العظيم » ٠

هذه الخطبة كما رواها ابن جــرير ، ولولا أن الحافظ ابن كثير رواها ما أقدمنا على نقلها ، ولكن قال الحافظ : هكذا أورد ابن جرير ، وفى السند ارسال ٠

ونحن نقرر ما قررنا أن ما اشتملت عليه أشبه بمواعظ النبى صلى الله تعالى عليه وســلم ، ولكن نلاحظ أنها أطول من أكثر خطب النبى صــلى الله تعالى عليه وسلم ، ونلاحظ أن فيها تكرارا لم يعهد فى خطب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن فيها آيات قرآنية من الآيات المدنية ، مما يدل على أنها انزلت بعد هذه الخطبة ، والله أعلم ٠

هذا ما نراه بالنسبة للخطبة التى رواها ابن جرير ، وقد روى البيهقى خطبتين ٠

أولاهما : ما رواه عن عبــد الرحمن بن عــوف قال : كانت أول خطبــة خطبها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة أن قام فيهم فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أيها الناس قدموا لأنفسكم ، تعلمن ، والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لهما راع ثم ليقولن له ربه ــ ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا فأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ، فينظر يمينا وشمالا ، فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قدامه ، فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ، ولو بشق تمرة ، فليفعل ، ومن لم يجد فكلمة طيبة ، فان بها تجــزى الحسنة عشر أمثــالها الى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ٠

والثانية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله ، فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحـده لا شريك له ، ان أحسن الحـديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله فى قلبـه ، واختـاره على ما سـواه من أحاديث النـاس ، انه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، فانه من يختاره الله ويصطفيه فقد سـماه خيرته من الأعمال ، وخيرته من العباد ، والصـالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحـرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شـيئا ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، ان الله يغضب أن ينكث فى عهده ، والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وقد قال ابن كثير فى رواية هذه الخطبة ان طـريقها مرسـلة الا أنها مقوية لما قبلها ، وان اختلفت الألفاظ .

كانت هذه الخطب على ما هى متن أولاها من نقـد ، وعلى أنها مرسلة ، بيد أنها فى جملتها على منهاج النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم فى دعوة المؤمنين لتقوية ايمانهم ، وتغذيته بتقوى الله تعالى ، كما دلت أقوال النبى قبل الهجرة على منهاجه فى دعوة المشركين الى التوحيد .

بناء مسجده عليه الصـلاة والسلام

٣٣٣ — هذا هو الأمر الثالث الذى ابتدأ به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اقامته فى المدينة المنورة .

لقد ابتدأ سبحانه وتعالى ببناء مسجد فى قباء ، وهـو المسجد الـذى ذكر الله سبحانه وقال فيه « **لمسجد أسس على تقوى من الله ورضوان** » وأنـه يجىء اليه الذين يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين .

ولما نزل فى بيت أبى أيوب اتجه تفكيره الى انشاء مسجد بالمدينة المنورة الذى هو أحد المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال وهى : المسجد الحرام ، ومسجد بيت المقـدس (المسجد الأقصى) ، وهـذا المسجد ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام (مسجدى هذا) .

روى عن ابن شهاب الزهرى أنه قال : بركت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى موضع مسجده ، وهو يصلى فيه رجال من المسلمين ، فكان مصلى لهم قبل أن يبنى صلى الله تعالى عليه وسلم فيه مسجده ٠

ولقد كان ذلك الموضع الذى بركت فيه الناقة مربدا لغلامين يتيمين فى المدينة المنورة من أولاد الأنصار ، وكان اليتيمان فى كفالة أسعد بن زرارة الذى كان أول داع للاسلام فى المدينة المنورة قبل هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليها ٠

ساوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الغلامين ، أو وصيهما ، أوهما بحضرة وصيهما ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أبى الا أن يكون بالثمن ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير ٠

وكان قبل شراء رسول الله عليه الصلاة والسلام جدارا لا سقف له ، وكان يصلى فيه ، ويقيم الجماعة والجمعة اسعد بن زرارة ، قبل مقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت قبلته الى بيت المقدس ، التى كانت قبلة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بمكة المكرمة ٠

وقد جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعل ذلك المصلى مسجده كما أشرنا ٠

وقد جعله صلى الله تعالى عليه وسلم بناء مربعا ، طول كل بعد من أبعاده مائة ذراع ، وقد قال ابن القيم رضى الله عنه ، جعل أساسه قريبا من ثلاثة أذرع ، وتم بناؤه باللبن ، وبعضهم قال ان بعضه كان بالحجر المرضوض٠

وقد اشترك فى بنائه كل من حضر البناء من المهاجرين والأنصار ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعمل فى بنائه ، وكان ينقل اللبن والحجارة بنفسه ، ويقول راجزا ٠

اللهم لا عيش الا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

ولقد جعلوا يرتجزون ، وينقلون اللبن ويقول بعضهم فى رجزه مستحثا الهمم ٠

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

وجعل عليه الصلاة والسلام قبلته الى بيت المقــدس ، وجعــل له ثلاثة أبواب ، بابا فى مؤخره ، وبابا يقال له باب الرحمة ، والباب الذى يدخل منه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجعل عمده بالجذوع ، وذكر السهيلى أنها جـــذوع نخل ، وسقف بالجـــريد ، وجعلت قبلته من اللـــبن ، وقيل من الحجارة منضودة بعضها على بعض ٠

وقد نخرت عمده فى خلافة الامام عمر فجردها ، واســتبدل بها ، ولما كانت خلافة عثمان ذى النورين رضى الله عنه بناها بالحجارة المنقوشة ، وسقفه بالساج ، وجعل قبلته من الحجارة ، وهذه رواية واحدة ، وفى عهد عبد الملك ابن مروان أضيفت حجرات نسائه ، وكانت تسعا ٠

ولما كانت أيام بنى العباس ، بناه المهدى ثالث ملوكهم ، ووسعه وزاد فيه ، وذلك فى سنة ستين ومائة ، ثم زاد فيه عبد الله المأمون ، وأتقن بنيانه ٠

ونخلص من هذا الى أن سنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بناء مسجده ، ومسجد قباء كانت بأقل كلفة لتشجيع بناء المساجد ٠

وكما كان مسجده الطاهر الذى هو أحد المساجد التى تشد اليها الرحال كان أيضا مسكنه ، وكانت بيوته عليه الصلاة والســلام تسعا ، بعضها من جريد مطين بالطين ، وسقفها جريد ، وبعضها من حجارة مرصوصة بعضها فوق بعض ، وسقف أيضا بالجريد ، ولم يكن سقفه عاليا ٠

وكان سريره عليه الصلاة والسلام خشبات مشدودة بالليف ، فهل من معتبر ، فذلك نبى الخليقة ، فهل من الناس من يتسامى الى حياة كحياته !!

تم بحمـــد الله

المجــلد الأول ويحوى الجزء الأول

ويليه المجـــلد الثــانى

ويحوى الجــزءين الثانى والثالث





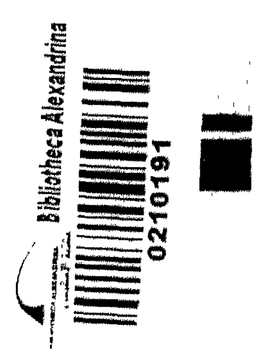
تطلب جميع منشوراتنا من

مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير
بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضى
ت : ٤٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤



دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩